

الأعمال الجديدة الكاملة

محمود درويش

١

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

طبعة جديدة

الأعمال الجديدة

محمـود درويـش

الأعمـال الجديـدة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

THE NEW COMPLETE WORKS

(1)

By Mahmoud Darwich

First Published in January 2009

BEIRUT- LEBANON
info@elrayyesbooks.com . www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-397-6

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩

المحتويات

لا تعتذر عما فعلت

القصائد

تَوارد خواطر، أو توارد مصائر:

لا أَنتِ أَنتِ
ولا الديارُ ديارُ

[أبو تمام]

والآن، لا أَنا أَنا
ولا البيتُ بيتي

[لوركا]

I

في شهوة الإيقاع

1

يختارني الإيقاع

يَـخْـتَارُني الإيقاعُ، يَشْرَقُ بي
أنا رَجْعُ الكمان، ولستُ عازِفَهُ
أنا في حضرة الذكرى
صدى الأشياء تنطقُ بي
فأنطقُ ...
كُـلَّـما أصغيتُ للحجرِ استمعتُ إلى
هديلِ يَـمَـامَـةٍ بيضاءَ
تشهَـق بي:
أَخي! أنا أُخْـتُـكَ الصُّغْرى،
فأَذرف باسمها دَمْعَ الكلامِ
وكُلَّما أَبْصَرْتُ جذْعَ الزّنْزَلـخْتِ
على الطريق إلى الغمامِ،

سمعتُ قلبَ الأُمِّ

يخفقُ بي:
أَنا ٱمرأة مُطَلَّقَةٌ،

فألعن باسمها زِيزَ الظلامِ

وكُلَّما شاهَدْتُ مرآةً على قمرٍ

رأيتُ الحبّ شيطاناً

يُحَمْلِقُ بي:
أنا ما زِلْتُ موجوداً

ولكن لن تعود كما تركتُكَ

لن تعود، ولن أَعودَ

فيكملُ الإيقاعُ دَوْرَتَهُ

ويَشْرَقُ بي ...

2

لي حكمة المحكوم بالإعدام

لِيَ حِكْمَةُ المحكوم بالإعدامِ:
لا أشياءَ أملكُها لتملكني،
كتبتُ وصيَّتي بدمي:
«ثِقُوا بالماء يا سُكَّانَ أُغنيتي!»
وَنِمْتُ مُضَرّجاً ومُتَوَّجاً بغدي ...
حَلِمْتُ بأنَّ قلب الأرض أكبرُ
من خريطتها،
وأَوضحُ من مراياها وَمِشْنَقَتي.
وَهِمْتُ بغيمةٍ بيضاءَ تأخذني
إلى أَعلى
كأنني هُدْهُدٌ، والريحُ أَجنحتي.
وعند الفجر، أَيقظني

نداءُ الحارس الليليِّ
من حُلْمي ومن لغتي:
ستحيا مِيْتَةً أخرى،
فَعَدِّلْ في وصيَّتكَ الأخيرةِ،
قد تأجَّل موعدُ الإعدام ثانيةً
سألت: إلى متى؟
قال: انتظر لتموت أكثَرَ
قُلْتُ: لا أشياء أملكها لتملكني
كتبتُ وصيَّتي بدمي:
«ثِقُوا بالماء
يا سُكَّان أغنيتي!»

3

سيجيء يوم آخر

سيجيءُ يَوْمٌ آخَرٌ، يومٌ نسائيٌّ
شفيفُ الاستعارةِ، كاملُ التكوين،
ماسيٌّ زَفَافيُّ الزيارةِ، مُشْمِسٌ،
سَلِسٌ، خَفيفُ الظلِّ. لا أحدٌ يُحِسُّ
برغبةٍ في الانتحار أَو الرحيل. فكُلّ
شيء، خارج الماضي، طبيعيٌّ حقيقيٌّ،
رديفُ صفاته الأولى. كأنَّ الوقتَ
يرقد في إجازته... «أَطيلي وقت زينتك
الجميلَ. تشمَّسي في شمس نَهْدَيْكِ الحَرِيرِيَّين،
وانتظري البشارةَ ريثما تأتي. وفي ما
بعد نكبرُ. عندنا وقتٌ إضافيٌّ
لنكبر بعد هذا اليوم...»/

سوف يجيء يومٌ آخَرٌ، يومٌ نسائيٌّ
غنائيُّ الإشارة، لازورديُّ التحيةِ
والعبارة. كُلُّ شيء أُنثويٌّ خارج
الماضي. يَسيلُ الماءُ من ضرع الحجارةِ.
لا غُبَارَ، ولا جَفَافَ، ولا خسارةَ.
والحمامُ ينامُ بعد الظهر في دبّابة
مهجورةٍ إن لم يجد عُشّاً صغيراً
في سرير العاشِقَيْنْ ...

4

وأنا، وإن كنت الأخير

وأنا، وإنْ كُنْتُ الأَخيرَ،
وَجَدْتُ ما يكفي من الكلماتِ ...
كُلُّ قصيدةٍ رَسْمٌ
سأرسم للسنونو الآن خارطةَ الربيعِ
وللـمُشَاة على الرصيف الزيزفونَ
وللنساءِ اللازوردْ ...
وأَنا، سيحمِلُني الطريقُ
وسوف أَحملُهُ على كتفي
إلى أَنْ يستعيدَ الشيءُ صورتَهُ،
كما هِيَ،
واسمَهُ الأَصليَّ في ما بعد/

كُـلُّ قصيدة أُمٌّ
تفتِّشُ للسحابة عن أَخيها
قرب بئر الماءِ:
«يا وَلَدي! سأُعطيك البديلَ
فإنني حُبْلى ...»/
وكُلُّ قصيدة حُلْمٌ:
«حَلِمْتُ بأنَّ لي حلماً»
سيحملني وأحملُهُ
إلى أن أكتب السَّطْرَ الأخيرَ
على رخام القبرِ:
«نِمْتُ ... لكي أَطير»

... وسوف أَحمل للمسيح حذاءَهُ الشتويَّ
كي يمشي، كَكُلِّ الناس،
من أَعلى الجبال ... إلى البحيرةْ

5

في بيت أمّي

في بيت أُمِّي صُورَتي ترنو إليّ
ولا تكفُّ عن السؤالِ:
أأَنت، يا ضَيْفي، أَنا؟
هل كنتَ في العشرينَ من عُمْري،
بلا نظَّارةٍ طبيّةٍ،
وبلا حقائبَ؟
كان ثُقْبٌ في جدار السور يكفي
كي تعلِّمك النجومُ هوايةَ التحديقِ
في الأبديِّ ...
[ما الأبديُّ؟ قُلْتُ مخاطباً نفسي]
ويا ضيفي ... أأنتَ أنا كما كنا؟
فَمَنْ منّا تنصَّلَ من ملامحِهِ؟

أَتذكُرُ حافرَ الفَرَس الحرونِ على جبينكَ
أَم مَسَحْتَ الـجُرْحَ بالمكياج كي تبدو
وسيمَ الشكل في الكاميرا؟
أأنتَ أنا؟ أتذكُرُ قلبَكَ المثقوبَ
بالناي القديم وريشة العنقاءِ؟
أَم غيَّرْتَ قَلْبَكَ عندما غيَّرتَ دَرْبَكَ؟

قلت: يا هذا، أنا هُوَ أنت
لكنني قفزتُ عن الجدار لكي أرى
ماذا سيحدث لو رآني الغيبُ أَقطِفُ
من حدائقِهِ الـمُعَلَّقةِ البنفسجَ باحترامٍ ...
رُبَّما أَلقى السلام، وقال لي:
عُـدْ سالماً ...
وقفزت عن هذا الجدار لكي أرى
ما لا يُرى
وأَقيسَ عُـمْقَ الهاويةْ

6

لا تعتذر عـمَّـا فعلت

لا تعتذرْ عـمَّـا فَعَلْتَ ــ أَقول في
سرّي. أقول لآخري الشخصيِّ:
ها هِـيَ ذكرياتُك كُلُّها مرئِيّةٌ:
ضَجَرُ الظهيرة في نُعَاس القطِّ/
عُرْفُ الديكِ/
عطرُ المريميَّةِ/
قهوةُ الأُمِّ/
الحصيرةُ والوسائدُ/
بابُ غُرْفَتِكَ الحديديُّ/
الذبابةُ حول سقراطَ/
السحابةُ فوق أفلاطونَ/
ديوانُ الحماسةِ/

صورةُ الأبِ/
مُعْجَمُ البلدانِ/
شيكسبير/
الأشقّاءُ الثلاثةُ، والشقيقاتُ الثلاثُ،
وأَصدقاؤك في الطفولة، والفضوليُّون:
«هل هذا هُوَ؟» اختلف الشهودُ:
لعلَّه، وكأنه. فسألتُ: «مَنْ هُوَ؟»
لم يُجيبوني. هَمَسْتُ لآخري: «أَهو
الذي قد كان أنتَ ... أنا؟» فغضَّ
الطرف. والتفتوا إلى أُمِّي لتشهد
أَنني هُوَ ... فاستعدَّتْ للغناء على
طريقتها: أنا الأمُّ التي ولدتْهُ،
لكنَّ الرياحَ هِيَ التي رَبَّتْهُ.
قلتُ لآخري: لا تعتذر إلاّ لأمِّكْ!

7

في مثل هذا اليوم

في مثل هذا اليوم، في الطَّرَف الخفيِّ
من الكنيسةِ، في بهاءٍ كاملِ التأنيث،
في السنة الكبيسة، في التقاء الأخضر
الأبديّ بالكُحْليّ في هذا الصباح، وفي
التقاء الشكل بالمضمون، والحسيّ بالصُّوفيّ،
تحت عريشةٍ فَضْفَاضَةٍ في ظلّ دوريٍّ
يوتِّرُ صورةَ المعنى، وفي هذا المكان
العاطفيِّ/
سألتقي بنهايتي وبدايتي
وأَقول: ويحكما! خذاني وٱتركا
قلبَ الحقيقة طازَجاً لبنات آوى الجائعاتِ،
أَقول: لَسْتُ مواطناً

أو لاجئاً
وأُريد شيئاً واحداً، لا غير،
شيئاً واحداً:
موتاً بسيطاً هادئاً
في مثل هذا اليوم،
في الطرف الخفيِّ من الزَّنَابقِ،
قد يُعَوِّضُني كثيراً أو قليلا
عن حياةٍ كنت أُحْصيها
دقائقَ
أو رحيلا
وأُريد موتاً في الحديقةِ
ليس أكثَرَ أو أَقَلّ!

8

أَنزلْ، هنا، والآن

أَنزلْ، هنا، والآن، عن كَتِفَيْكَ قَبْرَكَ
وأعطِ عُمْرَكَ فُرْصَةً أخرى لترميم الحكايةِ
ليس كُلُّ الحُبِّ موتاً
ليستِ الأرضُ اغتراباً مزمناً،
فلربما جاءت مناسبةٌ، فتنسى
لَسْعَةَ العَسَل القديم، كأنْ تحبَّ
وأَنتَ لا تدري فتاةً لا تحبّكَ
أو تحبُّكَ، دون أن تدري لماذا
لا تحبُّكَ أو تحبُّكَ/
أو تحسَّ وأنت مُسْتَنِدٌ إلى دَرَجٍ
بأنك كنتَ غيرك في الثنائياتِ/
فاخرج من «أنا» كَ إلى سواكَ

ومن رُؤَاكَ إلى خُطَاكَ
ومُدَّ جسرَكَ عالياً،
فاللامكانُ هُوَ المكيدةُ،
والبَعُوضُ على السياج يَحُكُّ ظَهْرَكَ،
قد تذكِّركُ البَعُوضةُ بالحياةِ!
فجرِّبِ الآن الحياةَ لكي تُدَرِّبكَ الحياةُ
على الحياةِ،
وخفِّف الذكرى عن الأُنثى
وأَنْزِلْ
ها هنا
والآن
عن كتفيكَ ... قَبْرَكْ!

9

إن عدت وحدك

إن عُدْتَ وَحْدَكَ، قُلْ لنفسك:
غيَّر المنفى ملامحه ...
ألم يفجعْ أَبو تـمَّام قَبْلَكَ
حين قابل نفسَهُ:
«لا أَنتِ أنتِ
ولا الديارُ هِيَ الديارُ»...

ستحمل الأشياءُ عنك شعورَكَ الوطنيَّ:
تنبتُ زهرةٌ بريّةٌ في ركنك المهجورِ/
ينقُرُ طائرُ الدوريّ حَرْفَ «الحاء»،
في اسمكَ،
في لحاء التِّينَةِ المكسورِ/

تلسَعُ نَحْلَةٌ يَدَكَ التي امتدَّتْ
إلى زَغَبِ الإوزَّةِ خلف هذا السورِ/

أَمَّا أَنت،
فالمرآةُ قد خَذَلَتْكَ،
أنْتَ ... ولَسْتَ أنتَ، تقولُ:
«أَين تركت وجهي؟»
ثم تبحثُ عن شعورك، خارج الأشياءِ،
بين سعادةٍ تبكي وإحْبَاطٍ يُقَهْقِهُ ...
هل وجدت الآن نفسك؟
قل لنفسك: عُدْتُ وحدي ناقصاً
قَمَرَيْنِ،
لكنَّ الديارَ هي الديار!

10

لم أَعتذر للبئر

لم أَعتَذِرْ للبئر حين مَرَرْتُ بالبئرِ،
استَعَرْتُ من الصَّنَوْبَرة العتيقةِ غيمةً
وعَصَرْتُها كالبرتقالةِ، وانتظرتُ غزالة
بيضاءَ أسطوريَّةً. وأَمَرْتُ قلبي بالتريّث:
كُنْ حياديّاً كأنَّكَ لَسْتَ مني! ها هنا
وقف الرُّعاةُ الطيِّبون على الهواء وطوَّروا
النایاتِ، ثم استدرجوا حَجَلَ الجبال إلى
الفخاخ. وها هنا أَسْرَجْتُ للطيران نحو
كواكبي فَرَساً، وطرتُ. وها هنا قالت
لي العرَّافةُ: احذرْ شارع الإسفلت
والعرباتِ وٱمشِ على زفيرك. ها هنا
أرخيتُ ظلِّي وانتظرتُ، ٱخْتَرْتُ أَصغرَ

صخرةٍ وَسَهِرْتُ. كَسَّرْتُ الخرافة وانكسرتُ.
ودُرْتُ حول البئر حتى طِرْتُ من نفسي
إلى ما ليس منها. صاح بي صوتٌ
عميقٌ: ليس هذا القبرُ قَبرِكَ، فاعتذرت.
قرأت آيات من الذكر الحكيم، وقُلْتُ
للمجهول في البئر: السلام عليك يوم
قُتِلْتَ في أَرض السلام، ويَوْمَ تصعَدُ
من ظلام البئر حيّا!

11

لا راية في الريح

لا رايةٌ في الريح تخفقُ/
لا حصانٌ سابحٌ في الريحِ/
لا طَبْلٌ يُبَشِّرُ بارتفاع الموجِ
أو بهبوطهِ،
لا شيءَ يحدثُ في التراجيديَّات هذا اليومَ/
أُسْدِلَتِ الستارَةُ/
غادَرَ الشعراءُ والمتفرِّجونَ،
فلا أَرزٌّ/
لا مظاهرةٌ/
ولا أَغصانُ زيتونٍ تُحيِّي الهابطينَ
من المراكب مُتْعَبيـنَ من الرُّعافِ
وخفَّة الفصل الأخير/

كأَنَّهُمْ يأتون من قَدَرٍ إلى قَدَرٍ/
مصائرُهُمْ مُدَوَّنةٌ وراء النصِّ،
إغريقيَّةٌ في شكل طُرْواديَّةٍ،
بيضاءَ، أو سوداءَ/
لا انكسروا ولا انتصروا
ولم يتساءلوا: ماذا سيحدُثُ في صباح غدٍ
وماذا بعد هذا الانتظار الهوميريّ؟/
كأنه حُلْمٌ جميلٌ يُنْصف الأسرى
ويُسْعِفُهُمْ على الليل المحليِّ الطويل،
كأنهم قالوا:
« نُداوي جرحنا بالملحِ
« نحيا قرب ذكرانا
« نجرِّبُ موتنا العاديَّ
« ننتظر القيامةَ، ههنا، في دارها
في الفصل ما بعد الأخير...»

12

سقط الحصان عن القصيدة

سَقَطَ الحصانُ عن القصيدةِ
والجليليّاتُ كُنَّ مُبَلَّلاتٍ
بالفَراشِ وبالندى،
يَرْقُصْنَ فوق الأقحوانْ

□

الغائبان: أنا وأنتِ
أَنا وأنتِ الغائبانْ

□

زوجا يمام أَبيضانْ
يَتَسَامران على غُصون السنديانْ

□

لا حُبَّ، لكنني أُحبُّ قصائدَ
الحبّ القديمةَ، تحرسُ
القَمَرَ المريضَ من الدخانْ

□

كرٌّ وفرٌّ، كالكَمَنْجَةِ في الرباعيّاتِ
أَنْأَى عن زماني حين أَدنو
من تضاريس المكانْ ...

□

لم يَبْقَ في اللغة الحديثةِ هامشٌ
للاحتفاء بما نحبُّ،
فكُلُّ ما سيكونُ ... كانْ

□

سقط الحصان مُضَرَّجاً
بقصيدتي
وأنا سقطتُ مُضَرَّجاً
بدَمِ الحصانْ ...

13

لبلادنا

لبلادنا،
وَهِيَ القريبةُ من كلام اللّهِ،
سَقْفٌ من سحابْ
لبلادنا،
وهي البعيدةُ عن صفاتِ الاسمِ،
خارطةُ الغيابْ
لبلادنا،
وهي الصغيرة مثل حبّة سُمْسُمٍ،
أُفُقٌ سماويٌّ ... وهاويةٌ خفيَّةْ
لبلادنا،
وهي الفقيرةُ مثل أَجنحة القَطَا،
كُتُبٌ مُقَدَّسَةٌ ... وجرحٌ في الهويّةْ

لبلادنا،
وهي المطوَّقَةُ الممزَّقةُ التلال،
كمائنُ الماضي الجديد
لبلادنا، وهي السَّبِيَّةْ
حُريَّةُ الموت اشتياقاً واحتراقا
وبلادُنا، في ليلها الدمويِّ
جَوْهَرَةٌ تشعُّ على البعيد على البعيد
تُضيء خارجَها ...
وأمَّا نحن، داخلها،
فنزدادُ اختناقا!

14

ولنا بلاد

ولنا بلادٌ لا حُدُودَ لها، كفكرتنا عن
المجهول، ضيِّقَةٌ وواسِعَةٌ. بلادٌ ...
حين نمشي في خريطتها تضيقُ بنا،
وتأخذنا إلى نَفَقٍ رماديّ، فنصرخ
في متاهتها: وما زلنا نحبُّك. حُبُّنا
مَرَضٌ وراثيٌّ. بلادٌ ... حين
تنبذُنا إلى المجهول ... تكبرُ. يكبرُ
الصفصافُ والأوصافُ. يكبرُ عُشْبُها
وجبالُها الزرقاءُ. تَتّسعُ البحيرةُ في
شمالِ الروحِ. ترتفعُ السنابلُ في جنوب
الروح. تلمعُ حبّةُ الليمون قنديلاً
على ليل الـمُهاجِرِ. تسطعُ الجغرافيا

كُتُباً مُقَدَّسَةً. وسلسلةُ التلال
تصير معراجاً، إلى الأَعلى ... إلى الأعلى.
«لو ٱنّيَ طائرٌ لحرقتُ أَجنحتي» يقول
لنفسه المنفيّ. رائحةُ الخريف تصيرُ
صورةَ ما أحبُّ... تسرَّبَ المطرُ
الخفيفُ إلى جفاف القلب، فانفتح الخيالُ
على مصادِرِهِ، وصار هو المكانَ، هو
الحقيقيَّ الوحيدَ. وكُلُّ شيء في
البعيد يعود ريفيّاً بدائيّاً، كأنَّ الأرضَ
ما زالت تكوِّن نفسها للقاء آدَمَ، نازلاً
للطابق الأرضيِّ من فردوسه. فأقول:
تلك بلادنا حُبْلى بنا ... فمتى وُلِدْنا؟
هل تزوَّج آدمُ ٱمرأتين؟ أَم أَنَّا
سَنُولَدُ مرةً أخرى
لكي ننسى الخطيئةْ؟

15

لا شيء إلاَّ الضوء

لا شيءَ إلاَّ الضوء،
لم أوقفْ حصاني
إلاَّ لأقطف وردةً حمراءَ من
بُسْتَان كَنْعَانيَّةٍ أَغْوَتْ حصاني
وتحصَّنَتْ في الضوءِ:
«لا تدخُلْ ولا تخرجْ» ...
فلم أَدخلْ، ولم أَخرجْ
وقالت: هل تراني؟
فهمستُ: ينقصني، لأعرف، فارقٌ
بين المسافر والطريق، وفارقٌ
بين المغنِّي والأغاني ...
جَلَسَتْ أَريحا، مثل حرف

من حروف الأبجدية، في ٱسمها
وَكَبوْتُ في ٱسمي
عند مُفْتَرَقِ المعاني ...
أَنا ما أكونُ غداً
ولم أُوقفْ حصاني
إلاَّ لأقطِفَ وردةً حمراءَ من
بستان كَنْعَانيّةٍ أَغوثْ حصاني
ومضيتُ أبحث عن مكاني
أَعلى وأَبْعَدَ،
ثم أَعلى ثم أَبعَدَ،
من زماني ...

16

نـزَف الحبيبُ شقائق النعمان

نَزَفَ الحبيبُ شقائقَ النُّعْمانِ،
أَرضُ الأرجوان تلألأتْ بجروحِهِ،
أُولى أَغانيها: دَمُ الحُبِّ الذي سفكته آلهةٌ،
وآخرُها دَمٌ ...
يا شعبَ كَنْعَانَ احتفلْ
بربيع أَرضك، واشتعلْ
كزهورها، يا شعب كنعان المُجَرَّدَ من
سلاحك، واكتملْ!
من حُسْن حَظِّكَ أَنَّكَ اخترتَ الزراعةَ مِهْنَةً
من سوء حظك أَنَّكَ اخترتَ البساتينَ
القريبةَ من حدود الله،
حيث السيفُ يكتب سِيرَةَ الصَّلْصَالِ...

فلتَكُنِ السنابلُ جَيْشَكَ الأَبديَّ،
وليكنِ الخلودُ كلابَ صيدٍ
في حقول القمح،
ولتكن الأيائِلُ حُرَّةً
كقصيدةٍ رعويةٍ ...

نَزَفَ الحبيبُ شقائقَ النعمان،
فاصفرَّتْ صخورُ السَّفْحِ من
وَجَع المخاض الصعبِ،
واحمرَّتْ،
وسال الماءُ أَحمرَ
في عروق ربيعنا ...
أُولى أغانينا دَمُ الحُبِّ الذي
سفكته آلهةٌ،
وآخرُها دَمٌ سَفَكَتْهُ آلهةُ الحديد...

17

في القدس

في القدس، أَعني داخلَ السُّور القديمِ،
أَسيرُ من زَمَنٍ إلى زَمَنٍ بلا ذكرى
تُصوِّبُني. فإن الأنبياءَ هناك يقتسمون
تاريخَ المقدَّسِ ... يصعدون إلى السماء
ويرجعون أَقلَّ إحباطاً وحزناً، فالمحبَّةُ
والسلامُ مُقَدَّسَان وقادمان إلى المدينة.
كنت أَمشي فوق مُنْحَدَرٍ وأَهْجِسُ: كيف
يختلف الرُّواةُ على كلام الضوء في حَجَرٍ؟
أَمِنْ حَجَرٍ شحيحِ الضوء تندلعُ الحروبُ؟
أسير في نومي. أحملق في منامي. لا
أرى أحداً ورائي. لا أرى أَحداً أمامي.
كُلُّ هذا الضوءِ لي. أَمشي. أخفُّ. أطيرُ

ثم أَصير غيري في التَّجَلِّي. تنبُتُ
الكلماتُ كالأعشاب من فم أشعيا
النَّبَويِّ: «إنْ لم تُؤْمنوا لن تَأْمَنُوا».
أَمشي كأنِّي واحدٌ غيري. وجُرْحي وَرْدَةٌ
بيضاءُ إنجيليَّةٌ. ويدايَ مثل حمامتَيْنِ
على الصليب تُحلِّقان وتحملان الأرضَ.
لا أَمشي، أَطيرُ، أَصيرُ غَيْري في
التجلِّي. لا مكانَ ولا زمانَ. فمن أَنا؟
أَنا لا أنا في حضرة المعراج. لكنِّي
أُفكِّرُ: وَحْدَهُ، كان النبيّ محمَّدٌ
يتكلَّمُ العربيَّةَ الفُصْحَى. «وماذا بعد؟»
ماذا بعد؟ صاحت فجأة جنديّةٌ:
هُوَ أَنتَ ثانيةً؟ أَلم أَقتلْكَ؟
قلت: قَتَلْتِني ... ونسيتُ، مثلك، أن أَموت.

18

بغيابها كَوَّنْت صورتها

بغيابها، كَوَّنْتُ صُورَتَها: مِنَ الأَرضيِّ
يبتدىء السماويُّ الخفيُّ. أَنا هُنا أَزِنُ
المدى بمعلَّقات الجاهليِّين ... الغياب هُوَ
الدليلُ هُوَ الدليلُ. لكُلِّ قافِيَةٍ أُقيمتْ
خيمةٌ. ولكُلِّ شيء في مهبِّ الريح
قافيةٌ. يُعَلِّمني الغيابُ دروسه: «لولا
السرابُ لَمَا صَمَدْتَ...» وفي الفراغ
فَكَكْتُ حرفاً من حروف الأبجديّات القديمة،
واتَّكَأْتُ على الغياب. فَمَنْ أنا بعد
الزيارةِ؟ طائرٌ، أم عابرٌ بين الرموز
وباعةِ الذكرى؟ كأني قِطْعَةٌ أَثريَّةٌ،
وكأنني شَبَحٌ تسلَّلَ من يَبُوسَ، وقلْتُ لي:

فلنذهبنَّ إلى تلالٍ سَبْعَةٍ. فوضعْتُ
أَقْنِعَتي على حَجَرٍ، وسرتُ كما يسير
النائمون يقودُني حُلْمي. ومن قَمَرٍ إلى
قمر قَفَزْتُ. هناك ما يكفي من اللاوعي
كي تَتحرَّر الأشياءُ من تاريخها. وهناك
ما يكفي من التاريخ كي يتحرَّر اللاوعيُ
من معراجه. «خذني إلى سنواتِنا
الأولى» ـ تقول صديقتي الأولى. «دَعِي
الشُبَّاكَ مفتوحاً ليدخل طائرُ الدوريّ
حُلْمَكِ» ... ثم أَصحو، لا مدينةَ في
المدينةِ. لا «هُنا» إلاّ «هناك». ولا
هناك سوى هنا. لولا السرابُ
لَما مَشيْتُ إلى تلالٍ سَبْعَةٍ...
لولا السراب!

19

الأربعاء، الجمعة، السبت

الأربعاءُ/
ٱلـجُمْعَةُ/
ٱلسَّبْتُ/
ٱلأساطيرُ، ٱلبلادُ، تشابَهَتْ ...
لو كان لي قلبان لم أَندم على
حبّ، فإنْ أَخطَأتُ قُلْتُ: أَسأتَ
يا قلبي الجريحَ الاختيارَ!... وقادني
القلبُ الصحيحُ إلى الينابيع/

ٱلخميسُ
السَّوْسَنُ/
الاثنين/

أسماءُ المكان تشابَهتْ. أرْهَقْتُ أُغنيتي
بوصف الظلّ. والمعنى يَرَى قَلْبَ
الظلام ولا يُرَى. قال الكلامُ كلامَهُ،
فبكتْ إلهاتٌ كثيراتٌ على أدوارهنَّ/

أَلحكمةُ/
الأحَدُ/
الغَدُ/
الطُرُقُ، الثلاثاءُ، السماء، تشابهت ...
لو كان لي دربان لاخترتُ البديلَ
الثالثَ. انكشَفَ الطريقُ الأَوَّلُ،
انكشَفَ الطريقُ الآخَرُ،
انكشَفَتْ دُروبُ الهاوية

20

زيتونتان

زيتونتانِ عتيقتانِ على شمال الشرقِ،
في الأولى اختبأتُ لأخدَعَ الراوي
وفي الأخرى خَبَأْتُ شقائق النعمانْ

إن شئتُ أن أَنسى ... تَذَكَّرتُ
امتلأتُ بحاضري، واخترتُ يومَ
ولادتي ... لأرتِّب النسيانْ

تَتَشَعّبُ الذكرى. هُنَا قَمَرٌ يُعدُّ
وليمةً لغيابه. وهناك بئرٌ في
جنوبيِّ الحديقة زفَّتِ امرأةً إلى شيطانْ

كُلُّ الملائكة الذين أُحبُّهُمْ
أخذوا الربيعَ من المكان، صباح
أمسِ، وأورثوني قمَّة البُرْكانْ

أَنا آدمُ الثاني. تَعَلَّمْتُ القراءةَ
والكتابةَ من دروس خطيئتي،
وغدي سيبدأ من هنا، والآنْ

إن شئتُ أن أَنسى... تذكّرتُ
انتَقيْتُ بدايةً، وَوُلِدْتُ كيف أردتُ
لا بطلاً ... ولا قُرْبانْ

تَتَشَعَّبُ الذكرى وتلعَبُ. ها هنا
زيتونتان عتيقتان على شمال الشرقِ
في الأولى وَجَدْتُ بُذورَ أُغنيتي

وفي الأخرى وَجَدْتُ رسالةً
من قائد الرومانْ:

يا إخوَةَ الزيتونِ
أطلُبُ منكمُ الغفران،
أطلب منكمُ الغفران...

21

لا ينظرون وراءهم

لا ينظرونَ وراءهمْ ليودِّعوا منفى،
فإنَّ أمامهم منفى، لقد أَلِفُوا الطريق
الدائريَّ، فلا أمامَ ولا وراء، ولا
شمالَ ولا جنوبَ. «يهاجرون» من
السياج إلى الحديقة. يتركون وصيَّةً
في كل مِتْرٍ من فِناء البيت:
«لا تتذكَّروا من بعدنا
إلاّ الحياة» ...
«يسافرون» من الصباح السندسيّ إلى
غبارٍ في الظهيرة، حاملين نُعُوشَهُمْ ملأى
بأشياء الغياب: بطاقةٍ شخصيّةٍ، ورسالةٍ
لحبيبة مَـجْهُولَةِ الـعُنْوانِ:

«لا تتذكَّري من بعدنا
إلاَّ الحياة»
و«يرحلون» من البيوت إلى الشوارع،
راسميـنَ إشارةَ النصر الجريحةَ، قائلين
لمن يراهُمْ:
«لم نَزَلْ نحيا، فلا تتذكَّرُونا»!
يخرجون من الحكاية للتنفُّس والتشمُّسِ.
يحلُمُون بفكْرةِ الطَّيَرَان أَعلى... ثم أَعلى.
يصعدون ويهبطون. ويذهبون ويرجعون.
ويقفزون من السيراميك القديم إلى النجوم.
ويرجعون إلى الحكاية ... لا نهايةَ للبدايةِ.
يهربون من النُّعَاس إلى مَلاَك النوم،
أَبيضَ، أَحْمَرَ العينين من أَثَرِ التأمُّل
في الدم المسفوكِ:
«لا تتذكروا من بعدنا
إلاّ الحياة» ...

22

لم يسألوا: ماذا وراء الموت

لم يسألوا: ماذا وراء الموت؟ كانوا
يَحفظُون خريطةَ الفردوس أكثرَ من
كتاب الأرضِ، يُشْغِلُهُمْ سؤال آخر:
ماذا سنفعل قبل هذا الموت؟ قرب
حياتنا نحيا، ولا نحيا. كأنَّ حياتنا
حِصَصٌ من الصحراء مُخْتَلفٌ عليها بين
آلهة العِقار، ونحن جيرانُ الغبار الغابرونَ.
حياتنا عبءٌ على ليل المُؤرِّخ: «كُلّما
أخفيتُهم طلعوا عليَّ من الغياب»...
حياتنا عبء على الرسام: «أَرسُمُهُمْ،
فأصبح واحداً منهم، ويحجبني الضباب».
حياتنا عبء على الجنرال: «كيف يسيل

من شَبَحٍ دم؟»   وحياتنا
هي أن نكون كما نريد. نريد أَن
نحيا قليلاً، لا لشيء ... بل لِنَـحْتَرِمَ
القيامَةَ بعد هذا الموت.   واقتبسوا،
بلا قَصْدٍ كلامَ الفيلسوف: «ٱلموت
لا يعني لنا شيئاً. نكونُ فلا يكونُ.
ٱلموت لا يعني لنا شيئاً. يكونُ فلا
نكونُ»
ورتّبوا أَحلامهُمْ
بطريقةٍ أخرى. وناموا واقفين!

23

قتلى ومجهولون

قتلى، ومجهولون. لا نِسْيانَ يجمعُهُمْ
ولا ذكرى تفرِّقهُمْ ... ومنسيّون في
عُشْبِ الشتاءِ على الطريق العامِّ بين
حكايتين طويلتين عن البُطُولةِ والعذابِ.
«أَنا الضحيَّةُ». «لا. أَنا وحدي
الضحية». لم يقولوا للمؤلّف: «لا
ضحيَّةَ تقتل الأخرى. هنالك في
الحكاية قاتلٌ وضحيَّةٌ». كانوا صغاراً
يقطفون الثلج عن سَرْوِ المسيح،
ويلعبون مع الملائكة الصغار، فإنَّهُمْ
أَبناءُ جيلٍ واحدٍ .... يتسرَّبُون من
المدارس هاربيـنَ من الرياضيَّات والشعرِ

الحماسيّ القديم، ويلعبون مَعَ الجنود،
على الحواجز، لُعْبَةَ الموت البريئةَ.
لم يقولوا للجنود: دعوا البنادقَ
وافتحوا الطرقاتِ كي تجدَ الفراشةُ
أُمَّها قرب الصباح، وكي نطير مع
الفراشة خارجَ الأحلام، فالأحلامُ
ضيِّقَةٌ على أبوابنا. كانوا صغاراً
يلعبون، ويصنعون حكايةً للوردة
الحمراء تحت الثلج، خَلْفَ حكايَتينِ
طويلَتينْ عن البطولة والعذاب، ويهربون
مَعَ الملائكة الصغار إلى سماء صافيةْ.

24

السروة انكسرت

«السروة شجن الشجرة وليس
الشجرة، ولا ظل لها لأنها ظل الشجرة»
بسام حجار

أَلسروةُ ٱنكَسَرَتْ كمئذنةٍ، ونامت في
الطريق على تَقَشُّف ظلِّها، خضراءَ، داكنةً،
كما هِيَ. لم يُصَبْ أَحدٌ بسوء. مَرّت
العَرَباتُ مُسْرِعَةً على أغصانها. هَبَّ الغبارُ
على الزجاج .../ ألسروةُ انكسرتْ، ولكنَّ
الحمامةَ لم تغيِّر عُشَّها العَلَنيَّ في دارٍ
مُجَاورةٍ. وحلّق طائران مهاجران على
كَفَاف مكانها، وتبادلا بعضَ الرموز.
وقالت امرأةٌ لجارتها: تُرَى، شاهَدْتِ عاصفةً؟

فقالت: لا، ولا جرَّافةً.../ والسروةُ
انكسرتْ. وقال العابرون على الحُطام:
لعلَّها سَئِمَتْ من الإهمال، أَو هَرِمَتْ
من الأيّام، فَهْيَ طويلةٌ كزرافةٍ، وقليلةُ
المعنى كمكنسةِ الغبار، ولا تُظَلِّلُ عاشِقَيْن.
وقال طفلٌ: كنتُ أَرسمها بلا خطأ،
فإنَّ قوامَها سَهْلٌ. وقالت طفلةٌ: إن
السماءَ اليوم ناقصةٌ لأن السروة انكسرت.
وقال فتىً: ولكنَّ السماءَ اليوم كاملةٌ
لأن السروةَ انكسرتْ. وقُلْتُ أَنا
لنفسي: لا غُموضَ ولا وُضُوحَ،
السروة انكسرتْ، وهذا كُلُّ ما في
الأمرِ: إنَّ السروة انكسرتْ!

25

رجل وخشف في الحديقة

[إلى سليمان النجاب]

رَجُلٌ وخِشْفٌ في الحديقة يلعبان معاً...
أَقولُ لصاحبي: مِنْ أين جاءَ ٱبْنُ الغزالِ؟
يقولُ: جاء من السماء. لعلَّهُ «يَحْيَى»
رُزِقْتُ به ليُؤْنِسَ وحشتي. لا أُمَّ
تُرْضِعُهُ فكُنْتُ الأمَّ، أسقيهِ حليبَ
الشاة ممزوجاً بملعَقَةٍ منَ العَسَلِ
المُعَطَّر. ثم أحملُهُ كغيمَةِ عاشقٍ في
غابة البلّوطِ ...
قُلْتُ لصاحبي: هل صار يألَفُ بيتَكَ
المأهولَ بالأصوات والأَدوات؟
قالَ: وصار يرقُدُ في سريري حين يمرضُ...

ثُمَّ قال: وصِرْتُ أَمرَضُ حين يمرض.
صِرْتُ أهذي: «أَيُّها الطفلُ اليتيمُ!
أنا أبوك وأُمُّكَ، انهضْ كي تعلِّمني
السكينةَ»/

بعد شهرٍ زُرْتُهُ في بيته الريفيّ.
كان كلامُهُ يبكي. لأوَّل مرّةٍ يبكي سُلَيْمانُ
القويُّ، يقول لي متهدِّج الصوت: «ٱبنُ
الغزال، ابنُ الغزالة مات بين يديَّ.
لم يألف حياةَ البيت. لكنْ لم يَمُتْ
مثلي ومثلكَ...»

لم أَقل شيئاً لصاحبيَ الحزينِ. ولم
يودِّعني، كعادته، بأبياتٍ من الشعر
القديم. مشى إلى قبر الغزال الأبيض.
ٱحتَضَنَ الترابَ وأَجهش: «ٱنهضْ
كي ينام أبوك، يا ٱبني، في سريرك.

ها هنا أَجِدُ السكينةَ»/

نام في قبر الغزال، وصار لي
ماضٍ صغيرٌ في ٱلمكانْ:
رَجُلٌ وخِشْفٌ في الحديقة يرقدانْ!

26

هذا هو النسيان

هذا هُوَ النسيانُ حولكَ: يافطاتٌ
تُوقظُ الماضي، تحثُّ على التذكُّر. تكبح
الزَّمَنَ السريعَ على إشارات المرور،
وتُغْلقُ الساحاتِ/

تمثالٌ رُخاميٌّ هو النسيانُ. تمثالٌ
يُحَمْلِقُ فيكَ: قِفْ مثلي لتشبِهَني.
وَضَعْ ورداً على قدميَّ/

أُغنيةٌ مُكَرَّرَةٌ هو النسيانُ. أُغنيةٌ
تطاردُ ربّةَ البيت احتفاءً بالمناسبة
السعيدةِ، في السرير وغرفة الفيديو،

وفي صالونها الخاوي، ومطبخها/

وأَنصابٌ هو النسيانُ. أَنصابٌ على
الطرقات تأخذ هيئة الشَّجَر البُرُونزيِّ
المرصّعِ بالمدائح والصقورِ/

ومتحفٌ خالٍ من الغد، باردٌ،
يروي الفصولَ المنتقاةَ من البدايةْ
هذا هو النسيانُ: أَن تتذكَّرَ الماضي
ولا تتذكَّرَ الغَدَ في الحكايةْ

27

تُنْسى، كأنكِ لم تكن

تُنسى، كأنَّكَ لم تَكُنْ
تُنْسَى كمصرع طائرٍ
ككنيسةٍ مهجورةٍ تُنْسَى،
كحبّ عابرٍ
وكوردةٍ في الليل ... تُنْسَى

□

أَنا للطريق ... هناك من سَبَقَتْ خُطَاهُ خُطايَ
مَنْ أَمْلَى رُؤاهُ على رُؤَايَ. هُنَاكَ مَنْ
نَثَرَ الكلام على سجيَّتِهِ ليدخل في الحكايةِ
أَو يضيءَ لمن سيأتي بعدَهُ
أَثراً غنائياً ... وحدسا

□

تُنْسَى، كأنك لم تكن
شخصاً، ولا نصّاً ... وتُنْسَى

□

أَمشي على هَدْيِ البصيرة، رُبّما
أُعطي الحكايةَ سيرةً شخصيَّةً. فالمفرداتُ
تسُوسُني وأسُوسُها. أنا شكلها
وهي التجلِّي الحُرُّ. لكنْ قيل ما سأقول.
يسبقني غدٌ ماضٍ. أَنا مَلِكُ الصدى.
لا عَرْشَ لي إلاَّ الهوامش. والطريقُ
هو الطريقةُ. رُبَّما نَسِيَ الأوائلُ وَصْفَ
شيءِ ما، أُحرِّكُ فيه ذاكرةً وحسّا

□

تُنسَى، كأنَّكَ لم تكن
خبراً، ولا أَثراً ... وتُنْسى

□

أَنا للطريق ... هناك مَنْ تمشي خُطَاهُ
على خُطَايَ، وَمَنْ سيتبعني إلى رؤيايَ.
مَنْ سيقول شعراً في مديح حدائقِ المنفى،
أمامَ البيت، حراً من عبادَةِ أمسِ،
حراً من كناياتي ومن لغتي، فأشهد
أَنني حيٌّ
وحُرٌّ
حين أُنْسَىٰ!

28

أما أَنا، فأقول لاسمي

أمَّا أَنا، فأقولُ لاسْمي: دَعْكَ منِّي
وابتعدْ عنِّي، فإنِّي ضقتُ منذ نطقتُ
واْتَّسَعَتْ صفاتُك! خذ صفاتِكَ وامتحنْ
غيري ... حملتُك حين كنا قادرَيْن على
عبور النهر مُتَّحدين «أَنت أنا»، ولم
أَخْتَرْكَ يا ظلِّي السلوقيَّ الوفيَّ، اْختارك
الآباء كي يتفاءلوا بالبحث عن معنى.
ولم يتساءلوا عمَّا سيحدُثُ للمُسَمَّى عندما
يقسو عليه الاسمُ، أَو يُمْلي عليه
كلامَهُ فيصير تابعَهُ ... فأين أَنا؟
وأَين حكايتي الصُّغْرَى وأوجاعي الصغيرةُ؟
تجلس امرأةٌ مَعَ اْسْمي دون أَن

تصغي لصوتِ أُخُوَّةِ الحيوان
والإنسان في جَسَدي، وتروي لي
حكاية حبها، فأقول: إن أَعطيتِني يَدَكِ
الصغيرةَ صِرْتُ مثلَ حديقة .. فتقول:
لَسْتَ هُوَ الذي أَعنيه، لكنني أُريد
نصيحةً شعريّةً. ويحملقُ الطلاب في
اسمي غير مكترثين بي، وأنا أَمرّ
كأنني شخص فضوليٌّ. وينظر قارىء
في اسمي، فيبدي رأيه فيه: أُحبُّ
مسيحَهُ الحافي، وأما شِعْرُهُ الذاتيُّ في
وَصْفِ الضباب، فلا! ... ويسألني:
لماذا كنت ترمقني بطَرْفٍ ساخرٍ. فأقول:
كنت أحاور آسمي: هل أَنا صِفَةٌ؟
فيسألني: وما شأني أنا؟/

أمَّا أَنا، فأقول لاسمي: أَعْطِني
ما ضاع من حُرِّيَّتي!

الحلم، ما هو؟

ألـحُلْمُ، ما هُوَ؟
ما هُـوَ اللاشيءُ هذا
عابرُ الزمنِ،
ٱلبهيُّ كنجمةٍ في أوَّل الحبِّ،
ٱلشَّهيُّ كصورةِ امرأةٍ
تدلِّـكُ نهدها بالشَّمْسِ؟/
ما هُـوَ، لا أكاد أراه حتى
يختفي في الأمسِ/
لا هُـوَ واقعٌ لأعيش وطأته وخفَّتَهُ
[illegible]

هذا اللانهائيُّ، الضعيفُ، الباطنيُّ
الزائرُ، المتطايرُ، المتناثرُ،
المتجدِّدُ المتعدِّدُ اللاَّ شكلِ؟
ما هُوَ؟ لا يُجَسُّ ولا يُمَسّ/
ولا يَمُدُّ يداً إلى المُتَلهِّفين الحائرينَ
فما هُوَ السريُّ هذا،
الحائرُ، الحَذِرُ، المحيِّرُ
حين أَنتظرُ الزيارةَ مطمئنَّ النفسِ/
يكسرني ويخرجُ مثل لؤلؤةٍ
تُدَحْرِجُ ضوءها،
ويقول لي: لا تنتظرني
إن أردتَ زيارتي
لا تنتظرني!

الآن، إذ تصحو، تذكَّر

الآن، إذ تصحو، تَذَكَّرْ رَقْصَةَ البَجَعِ
الأخيرةَ. هل رَقَصْتَ مَعَ الملائكةِ الصغارِ
وأَنت تحلُمُ؟ هل أَضاءتك الفراشةُ عندما
احترقَتْ بضوءِ الوردة الأَبديِّ؟ هل
ظهرتْ لك العنقاءُ واضحةً ... وهل نادتك
باسمك؟ هل رأيتَ الفجرَ يطلع من
أَصابع مَنْ تُحبُّ؟ وهل لَمَسْتَ الحُلْم
باليدِ، أم تَرَكْتَ الحُلْمَ يحلُمُ وحْدَهُ،
حين انتبهتَ إلى غيابكَ بَغْتَةً؟

في مكانٍ ما، أَقلْ لك مَنْ تكونْ

والآن، إذ تصحو، تذكَّرْ:
هل أسَأْتَ إلى منامك؟
إن أسأت، إذاً تذكّرْ
رقصةَ البجع الأخيرةْ!

الظلّ

الظلُّ، لا ذَكَرٌ ولا أُنثى
رماديٌّ، ولو أَشْعَلْتُ فيه النارَ ...
يتبعُني، ويكبرُ ثُمَّ يصغرُ
كُنْتُ أَمشي. كان يمشي
كنت أَجلسُ. كان يجلسُ
كنت أركضُ. كان يركضُ
قلت: أَخدعُهُ وأَخلَعُ معطفي الكُحْليَّ
قلَّدني، وأَلقي عنه معطفَهُ الرماديَّ ...
ٱستدَرْتُ إلى الطريق الجانبيّةِ
[illegible] إلى الطريق الجانبيّة

في [illegible]

فقلت: أَعود مُتَّكِئاً على عُكَّازتينِ

فعاد متكئاً على عكازتينِ

فقلت: أَحمله على كتفيَّ،

فاستَعْصَى ...

فقلتُ: إذنْ، سأتبعُهُ لأخدَعَهُ

سأتبعُ ببَّغاءَ الشكل سُخْرِيَةً

أُقلِّد ما يُقَلِّدني

لكي يَقَعَ الشبيهُ على الشبيه

فلا أراهُ، ولا يراني.

لا شيء يعجبني

«لا شيءَ يُعْجِبُني»
يقول مسافرٌ في الباصِ ــ لا الراديو
ولا صُحُفُ الصباحِ، ولا القلاعُ على التلال.
أُريد أن أبكي/
يقول السائقُ: انتظرِ الوصولَ إلى المحطَّةِ،
وابْكِ وحدك ما استطعتَ/
تقول سيّدةٌ: أَنا أَيضاً. أنا لا
شيءَ يُعْجِبُني. دَلَلْتُ ٱبني على قبري،
فأعْجَبَهُ ونامَ، ولم يُوَدِّعْني/

ويقول جنديٌّ: أَنا أَيضاً. أنا لا
شيءَ يُعْجبُني. أُحاصِرُ دائماً شَبَحاً
يُحاصِرُني/
يقولُ السائقُ العصبيُّ: ها نحن
اقتربنا من محطتنا الأخيرة، فاستعدوا
للنزول .../
فيصرخون: نريدُ ما بَعْدَ المحطَّةِ،
فانطلق!
أمَّا أنا فأقولُ: أنْزِلْني هنا. أنا
مثلهم لا شيء يعجبني، ولكني تعبتُ
من السَّفَرْ.

هو هادئٌ، وأنا كذلك

هُوَ هادِئٌ، وأنا كذلكَ
يَحْتَسِي شاياً بليمونٍ،
وأَشربُ قهوةً،
هذا هُوَ الشيءُ المغايرُ بَيْنَنَا.
هُوَ يرتدي، مثلي، قميصاً واسعاً ومُخَطَّطاً
وأَنا أطالعُ، مثلَهُ، صُحُفَ المساءْ.
هُوَ لا يراني حين أَنظرُ خِلْسَةً،
أنا لا أراه حين ينظرُ خلسةً،
هو هادئٌ، وأنا كذلِكَ.
يسألُ الجرسونَ شيئاً،
أسألُ الجرسونَ شيئاً

أَنا لا أقول لَهُ: السماءُ اليومَ صافيةٌ
وأكثرُ زرقةً.
هو لا يقول لي: السماءُ اليومَ صافيةٌ.
هو المرئيُّ والرائي
أنا المرئيُّ والرائي.
أحرِّكُ رِجْليَ اليُسْرى
يحرك رجلَهُ اليُمْنَى.
أدندنُ لَحْنَ أُغنيةٍ،
يدندن لحنَ أُغنية مُشَابهةٍ.
أُفكِّرُ: هل هو المرآةُ أبصر فيه نفسي؟

ثم أَنظر نحو عينيهِ،
ولكنْ لا أراهُ ...
فأتركُ المقهى على عَجَلٍ.
أفكّر: رُبّما هو قاتلٌ، أو رُبّما

وصف الغيوم

«لوصف ا
عليَّ أن أسرع
فبعد هنيهة لن تكون
عليه، ستصير أ
شيمبو

وَصْفُ الغيوم مَهَارَةٌ لم أُوتَها ...
أَمشي على جَبَلٍ وأَنظُرُ من عَلٍ
نحو الغيوم، وقد تدلّتْ من مَدَار اللازَوَرْدِ
خفيفةً وشفيفةً،
كالقطن تحلجه الرياحُ،
كفكرةٍ بيضاءَ عن معنى الوجود.

أَنظُرُ من عَلٍ، وأرى انبثاقَ الشكلِ
من عَبَثيَّة اللاّشكلِ:
ريشُ الطير يَنْبُتُ في قُرون الأيَّل البيضاءِ،
وَجْهُ الكائن البشريّ يطلع من
جناح الطائر المائيِّ ...
ترسُمُنا الغيومُ على وَتيرتها
وتختلط الوجوه مع الرؤى
لم يكتمل شيء ولا أَحد، فبعد هنيهة
ستصيرُ صورتُكَ الجديدةُ صُورَةَ النَّمِرِ
الجريحِ بصولجان الريحِ ...
رسَّامون مجهولون ما زالوا أمامك
يلعبون، ويرسمون المُطْلَقَ الأبديَّ،
أَبيضَ، كالغيوم على جدار الكونِ ...
والشعراءُ يبنون المنازلَ بالغيومِ

ولكُلٍّ وقتٍ غيمةٌ،
لكن أَعمارَ الغيوم قصيرةٌ في الريح،
كالأبد المؤقت في القصائدِ،
لا يزول ولا يدوم ...

من حُسْن حظّي أَنني أَمشي على جَبَلٍ
وأَنظر من علٍ
نحو الغيوم...

هي جملة اسمية

هي جُمَلَةٌ إسميَّةٌ، لا فِعْلَ
فيها أو لها: للبحر رائحةُ الأَسِرَّةِ
بعد فِعْلِ الـحُبِّ ... عطرٌ مالحٌ أَو
حامضٌ. هِيَ جملة إسميَّة: فرحي
جريحٌ كالغروب على شبابيك الغريبةِ.
زهرتي خضراءُ كالعنقاء. قلبي فائضٌ
عن حاجتي، متردِّدٌ ما بين بابَيْنِ:
ٱلدخولُ هو الفُكَاهَةُ، والخروج هُوَ
الـمَتَاهَةُ. أَين ظلِّي ــ مرشدي وسط
الزحام على الطريق إلى القيامة؟ ليتني

للفعل الـمُضَارِع موطئاً للسير خلفي
أو أمامي، حافيَ القدمين. أَين
طريقيَ الثاني إلى دَرَج المدى؟ أَين
السُّدَى؟ أَين الطريقُ إلى الطريق؟
وأَين نَـحْنُ، السائرين على خُطَى الفعل
المضارع، أَين نحن؟ كلامُنا خَبَرٌ
ومُبْتَدأٌ أمام البحر، والزَّبَدُ المراوغُ
في الكلام هُـوَ النقاطُ على الحروف،
فليت للفعل المضارع موطئاً فوق
الرصيف ...

قل ما تشاء

قُلْ ما تشاءُ. ضَعِ النقاطَ على الحروفِ.
ضَعِ الحروفَ مع الحروف لتُولَدَ الكلماتُ،
غامضةً وواضحةً، ويبتدىءَ الكلامُ.
ضَعِ الكلامَ على المجاز. ضَعِ المجازَ على
الخيال. ضَعِ الخيالَ على تَلَفُّته البعيد.
ضَعِ البعيدَ على البعيد ... سَيُولَدُ الإيقاعُ
عند تَشَابُكِ الصُّوَرِ الغريبةِ من لقاء
الواقعيِّ مع الخياليِّ المُشَاكسِ/
هل كَتَبْتَ قصيدةً؟
كلاّ!

ماتَ في أَعلى الجبال. لعلَّ أَرضَ الرمز خفَّتْ في الكناية فاستباحتها الرياحُ. لعلَّها ثَقُلَتْ على ريش الخيال. لعلَّ قلبَكَ لم يفكِّرْ جيّداً، ولعلَّ فِكْرَكَ لم يُحِسَّ بما يرجُّك. فالقصيدة، زوجةُ الغد وٱبنةُ الماضي، تخيِّم في مكانٍ غامضٍ بين الكتابة والكلامِ /

فهل كَتَبْت قصيدةً؟

كلا!

إذنْ، ماذا كتبتَ؟

كتبتُ درساً جامعيّاً،

واعتزلْتُ الشعر منذ عرفتُ

كيمياءَ القصيدة ... واعتزلتْ!

لا تكتب التاريخ شعراً

لا تكتبِ التاريخَ شعراً، فالسلاحُ هُوَ
المؤرِّخُ. والمؤرّخ لا يُصَابُ برعشة
الـحُمَّى إذا سَمَّى ضحاياه ولا يُصْغي
إلى سرديّة الجيتار. والتاريخ يوميّاتُ
أَسلِحَةٍ مُدَوَّنةٌ على أَجسادنا. «إنَّ
الذكيَّ العبقريَّ هو القويُّ». وليس
للتاريخ عاطفةٌ لِنَشْعُرَ بالحنين إلى
بدايتنا، ولا قَصْدٌ لنعرف ما الأمام
وما الوراء ... ولا استراحاتٌ على
سِكَكِ الحديد لندفن الموتى، وننظُرَ

ما تَبَقَّى من خرافتنا عن الزمن السعيد،
ولا خرافيٌّ لنرضى بالإقامة عند أبواب
القيامةِ. إنَّهُ فينا وخارجنا.. وتكرارٌ
جُنُونيٌّ، من المِقْلاع حتى الصاعق النَّوَويِّ.
يصنعُنا ونصنعه بلا هَدَفٍ ... هل
التاريخ لم يُولَدْ كما شئنا، لأن
الكائنَ البشريَّ لم يُوجَدْ؟
فلاسِفَةٌ وفنَّانونَ مَرُّوا من هناك ...
ودوّن الشعراءُ يوميّاتِ أزهارِ البنفسج
ثم مروا من هناك... وصدَّق الفقراءُ
أَخباراً عن الفردوس وانتظروا هناك ...
وجاء آلهةٌ لإنقاذ الطبيعةِ من أُلُوهيَّتِنا
ومَرُّوا من هناك. وليس للتاريخ
وَقْتٌ للتأمُّل، ليس للتاريخ مرآةٌ

أَو خيالٌ لا خياليٌّ، فلا تكتبه.
لا تكتبه، لا تكتبه شعراً!

ماذا سيبقى؟

ماذا سَيَبْقَى من هِبات الغيمة البيضاءِ؟
ـ زَهْرَةُ بَيْلَسَانْ
ماذا سيبقى من رَذاذ الموجة الزرقاءِ؟
ـ إيقاعُ الزمانْ
ماذا سيبقى من نزيف الفكرة الخضراءِ؟
ـ ماءٌ في عُرُوق السنديانْ
ماذا سيبقى من دُمُوع الـحُبِّ؟
ـ وَشْمٌ ناعمٌ في الأرجوانْ
ماذا سيبقى من غُبار البحث عن معنى؟
ـ طريقُ العنفوانْ

ماذا سيبقى من سراب الـحُلْمِ؟
ــ آثارُ السماء على الكَمَانْ

ماذا سيبقى من لقاء الشيء باللاشيء؟
ــ إحساسُ الأُلوهة بالأمانْ

ماذا سيبقى من كلام الشاعر العربيِّ؟
ــ هاويةٌ ... وخَيْطٌ من دخانْ

ماذا سيبقى من كلامِكَ أنْتَ؟
ــ نسيانٌ ضروريٌّ لذاكرة المكانْ!

أعرف اسمك

ــ لا أَعرفُ اسمَكِ

□ سَمِّني ما شئتَ

ــ لَسْتِ غزالةً

□ كلا. ولا فَرَساً

ــ ولستِ حَمَامَةَ المنفى

□ ولا حُوريّةً

ــ مَنْ أَنتِ؟ ما اسمُكِ؟

□ سَمِّني، لأكونَ ما سَمَّيْتَني

ــ لا أَستطيع، لأنّني ريحٌ

وأَنتِ غريبةٌ مثلي، والأسماء أَرضٌ ما

ــ ٱختاري من الأسماء أَقْرَبَها
إلى النسيان. سَمِّيني أَكُنْ في
أَهل هذا الليل ما سَمَّيْتني!
□ لا أستطيعُ لأنني امرأةٌ مسافرةٌ
على ريحٍ. وأَنت مسافر مثلي،
وللأسماء عائلةٌ وبَيْتٌ واضحٌ
ــ فإذن، أنا «لا شيءَ» ...

قالت «لا أَحدْ»:

سأعبّيء اسمك شَهْوَةً. جَسَدي
يلمُّكَ من جهاتكَ كُلِّها. جَسَدي
يضُمُّكَ من جهاتي كُلِّها، لتكون شيئاً ما
ونمضي باحِثَيْنِ عن الحياة...

هي في المساء

هي في المساء وحيدةٌ،
وأَنا وحيدٌ مثلها...
بيني وبين شموعها في المطعم الشتويِّ
طاولتان فارغتان [لا شيءٌ يعكِّرُ صَمْتَنَا]
هي لا تراني، إذ أراها
حين تقطفُ وردةً من صدرها
وأنا كذلك لا أراها، إذ تراني
حين أَرشفُ من نبيذي قُبْلَةً ...
هي لا تُفَتِّتُ خبزها

وحدي. لماذا لا تُوَحِّدُنا الهَشَاشَةُ؟
قلت في نفسي ــ
لماذا لا أَذوقُ نبيذَها؟
هي لا تراني، إذ أراها
حين ترفَعُ ساقَها عن ساقِها ...
وأَنا كذلك لا أراها، إذ تراني
حين أَخلَعُ معطفي ...
لا شيء يزعجها معي
لا شيء يزعجني، فنحن الآن
منسجمان في النسيان ...
كان عشاؤنا، كُلٌّ على حِدَةٍ، شهيّاً
كان صَوْتُ الليل أزْرَقَ
لم أكن وحدي، ولا هي وحدها
كنا معاً نصغي إلى البلّوْرِ

الحبُّ يُولَدُ كائناً حيّا
ويُـمْسِي فِكْرَةً.
وأنا كذلك لا أقول:
الحب أَمسى فكرةً

لكنه يبدو كذلك ...

في الانتظار

في الانتظار، يُصيبُني هَوَسٌ برصد
الاحتمالات الكثيرة: رُبَّما نَسِيَتْ حقيبتها
الصغيرة في القطار، فضاع عنواني
وضاع الهاتفُ المحمولُ، فانقطعت شهيّتها
وقالت: لا نصيبَ له من المطر الخفيفِ/
ورُبَّما ٱنشَغَلَتْ بأمرٍ طارىءٍ أو رحلةٍ
نحو الجنوب لكي تزور الشمسَ، واتَّصَلَتْ
ولكن لم تَجِدْني في الصباح، فقد
خَرَجْتُ لأشتري غاردينيا لمسائنا وزجاجتينِ
[illegible]

وربما يهددها بقصفِ المدفعيةِ/
ورُبَّما اصطَدَمَتْ بتاكسي في الطريقِ
إليَّ، فانطفأتْ كواكب في مَجَرّتها.
وما زالت تُعَالَجُ بالمهدّىء والنعاسِ/
وربما نظرتْ إلى المرآة قبل خروجها
من نفسها، وتحسَّسَتْ أجَّاصَتَيْنْ كبيرتينِ
تُمَوِّجان حريرَها، فتنهَّدَتْ وتردّدتْ:
هل يستحقُّ أنوثتي أَحدٌ سوايَ/
وربما عبرتْ، مُصَادَفَةً، بِحُبٍّ
سابقٍ لم تَشْفَ منه، فرافَقَتْهُ إلى
العشاءِ/
ورُبَّما ماتَتْ،
فإنَّ الموت يعشق فجأة، مثلي،
وإنَّ الموتَ، مثلي، لا يحبُّ الانتظار

لو كنتُ غيري

لو كُنْتُ غيري في الطريق، لما التفتُّ
إلى الوراء، لَقُلتُ ما قال المسافرُ
للمسافرة الغريبةِ: يا غريبةُ! أَيقظي
الجيتارَ أكْثَرَ! أَرجئي غَدَنا ليمتدَّ الطريقُ
بنا، ويتَّسعَ الفضاءُ لنا، فننجو من
حكايتنا معاً: كَمْ أَنتِ أَنتِ.. وكم أنا
غيري أمامك ها هنا!

لو كُنْتُ غيري لانتميتُ إلى الطريق،

خُطَايَ، وأنت بوصلتي وهاويتي معاً.
لو كُنْتُ غيري في الطريق، لكُنْتُ
أَخفيتُ العواطفَ في الحقيبة، كي
تكون قصيدتي مائيّةً، شَفَّافَةً، بيضاءَ،
تجريديَّةً، وخفيفةً... أَقوى من الذكرى،
وأَضْعَفَ من حُبَيْبَات الندى، وَلَقُلْتُ:
إنَّ هُوِيَتي هذا المدى!

لو كُنْتُ غيري في الطريق، لَقُلتُ
للجيتار: دَرِّبْني على وَتَرٍ إضافيٍّ!
فإنَّ البيتَ أَبعدُ، والطريقَ إليه أَجملُ ـــ
هكذا ستقول أُغنيتي الجديدةُ ـــ كلما
طال الطريق تجدَّد المعنى، وصرتُ اثنين
في هذا الطريق: أَنا ... وغيري!

شكراً لتونس

شكراً لتونسَ. أَرْجَعَتْني سالماً من
حُبِّها، فبكيتُ بين نسائها في المسرح
البلديِّ حين تملَّصَ المعنى من الكلمات.
كُنْتُ أودِّعُ الصيفَ الأخيرَ كما يودِّعُ
شاعرٌ أُغنيةً غَزَلِيَّةً: ماذا سأكتبُ
بعدها لحبيبةٍ أُخرى ... إذا أَحببتُ؟
في لُغَتي دُوَارُ البحر. في لغتي رحيلٌ
غامضٌ من صُورَ. لا قرطاجَ تكبحُهُ، ولا
ريحُ البرابرة الجنوبيِّين. جئتُ على

صخرةً: «لا تُعْطني، يا بحرُ، ما
لا أَستحقُّ من النشيد. ولا تكن
يا، بحرُ، أكثرَ أو أَقلَّ من النشيد!» ...
تطيرُ بيْ لُغَتي إلى مجهولنا الأَبديِّ،
خلف الحاضر المكسور من جِهَتَيِنْ: إنْ
تنظرْ وراءك تُوقظْ سَدُومُ المكان على
خطيئتِهِ... وإن تنظرْ أمامَكَ توقظِ
التاريخَ، فاحذرْ لَدْغَةَ الجهتين... واتبَعْني.
أَقول لها: سأمكثُ عند تونس بين
مَنْزِلَتَيِنْ: لا بيتي هنا بيتي، ولا
منفايَ كالمنفى. وها أَنذا أُودِّعُها،
فيجرحني هواءُ البحر ... مِسْكُ الليل يجرحني،
وعِقْدُ الياسمين على كلام الناس يجرحني،
ويجرحني التأمُّلُ في الطريق اللولبيِّ إلى ضوا-

لي مقعد في المسرح المهجور

لِيَ مِقْعدٌ في المسرح المهجور في
بيروتَ. قد أَنسى، وقد أَتذكَّرُ
الفصلَ الأخيرَ بلا حنينٍ ... لا لشيءٍ
بل لأنَّ المسرحيَّةَ لم تكن مكتوبةً
بمهارةٍ ...
فوضى
كيوميّات حرب اليائسين، وسيرةٌ ذاتيّةٌ
لغرائز المتفرجين. مُمَثِّلون يُمَزِّقون نُصُوصَهُمْ
ويفتِّشون عن المؤلف بيننا، نحن الشهودَ

ويسألني: وهل أنت المؤلِّفُ؟

ـــ لا.

ونجلس خائِفَينْ. أَقول: كُنْ بَطَلاً

حياديّاً لتنجو من مصير واضحٍ

فيقول: لا بَطَلٌ يموت مُبَجّلاً في المشهد

الثاني. سأنتظر البقيّةَ. ربما أَجريتُ

تعديلاً على أحد الفصول. وربما أَصلحتُ

ما صَنَعَ الحديدُ بإخوتي

فأقول: أَنتَ إذاً؟

يردُّ: أنا وأنتَ مؤلِّفان مُقَنَّعان وشاهدان

مُقَنَّعان.

أقول: ما شأني؟ أَنا متفرِّجٌ

فيقول: لا متفرِّجٌ في باب هاويةٍ ... ولا

أَحدٌ حياديّ هنا. وعليك أن تختار

دورَكَ في النهايةْ

في الشام

في الشام، أَعرفُ مَنْ أنا وسط الزحام.
يَدُلُّني قَمَرٌ تَلأْلأَ في يد ٱمرأةٍ... عليَّ.
يدلّني حَجَرٌ تَوَضَّأَ في دموع الياسمينة
ثم نام. يدلُّني بَرَدَى الفقيرُ كغيمةٍ
مكسورةٍ. ويَدُلُّني شِعْرٌ فُروسيٌّ عليَّ:
هناك عند نهاية النفق الطويل مُحَاصَرٌ
مثلي سَيُوقِدُ شمعةً، من جرحه، لتراهُ
ينفضُ عن عباءَتِهِ الظلامَ. تَدُلُّني رَيْحَانةٌ
أرخت جدائلها على الموتى ودفَّأت الرخام.
«هنا يكون الموتُ حيّاً نائماً» ويدُلُّني

عليّ. إذا

ٱخْتَلَفْتَ عرفتَ نفسَك، فاختلفْ تجد
الكلامَ على زهور اللوز شفّافاً، ويُقْرِئكَ
السماويُّ السلامَ. أَنا أَنا في الشام،
لا شَبَهي ولا شَبَحي. أَنا وغدي يداً
بيدٍ نُرَفْرِفُ في جناحَيْ طائرٍ. في الشام
أَمشي نائماً، وأَنامُ في حِضْن الغزالةِ
ماشياً. لا فرق بين نهارها والليل
إلاّ بعضُ أشغال الحمام. هناك أرضُ
الحُلْم عاليةٌ، ولكنَّ السماء تسيرُ عاريةً
وتَسْكُنُ بين أَهل الشام ...

في مصر

في مصرَ، لا تتشابَهُ الساعاتُ ...
كُلُّ دقيقةٍ ذكرى تجدِّدُها طيورُ النيلِ.
كُنْتُ هناك. كان الكائنُ البشريُّ يبتكرُ
الإله/ الشمسَ. لا أحَدٌ يُسَمِّي نفسَهُ
أَحداً. «أنا ٱبنُ النيل ــ هذا الاسم
يكفيني». ومنذ اللحظة الأولى تُسَمِّي
نفسك «ابن النيل» كي تتجنَّب العَدَم
الثقيل. هناك أحياءٌ وموتى يقطفون
معاً غيومَ القُطْنِ من أرض الصعيد،
ومن عيونِ القمحَ في الدلتا، ومن الجرِّ

دهاليز الزمان، كأنَّ أُمَّكَ مِصْرَ
قد وَلَدَتْكَ زَهْرَة لُوتسٍ، قبل الولادةِ،
هل عرفت الآن نفسَكَ؟ مصرُ تجلسُ
خلسةً مَعَ نفسها: «لا شيء يشبهني».
وترفو معطفَ الأبديَّة المثقوب من
إحدى جهات الريح. كُنْتُ هناك. كان
الكائنُ البشريُّ يكتب حكمة الموت / الحياة.
وكُلُّ شيء عاطفيٌّ، مُقْمِرٌ ... إلاّ القصيدةَ
في التفاتتها إلى غدها تُفَكِّر بالخلود،
ولا تقول سوى هشاشتها أمام النيل...

أتذكّر السَّيّاب

أَتذكَّرُ السَّيَّابَ، يصرخُ في الخليج سُدَىً:
«عِراقُ، عراقُ، ليس سوى العراق...»
ولا يردّ سوى الصدى.
أَتذكَّرُ السَّيَّابَ، في هذا الفضاء السومريِّ
تغلّبتْ أُنثى على عُقْم السديمِ
وأَوْرَثَتْنا الأرضَ والمنفى معاً
أَتذكَّرُ السيَّابَ... إن الشِّعْرَ يُولَدُ في العراقِ
فكُنْ عراقيّاً لتصبح شاعراً يا صاحبي!
أَتذكّرُ السيّابَ، لم يَجِدِ الحياةَ كما
تخيَّلَ بين دجلةَ والفرات، فلم يفكّر

الشرائعَ كي يُغَطِّي سَوْءَةً،
ويسير نحو ضريحه متصوّفاً.
أتذكّرُ السيَّابَ، حين أُصابُ بالحُمّى
وأهذي: إخوتي كانوا يُعدُّون العَشَاءَ
لجيش هولاكو، ولا خَدَمٌ سواهُمْ ... إخوتي!
أَتذكّرُ السيّابَ، لم نَحْلُمْ بما لا
يستحقَّ النَّحْلُ من قُوتٍ. ولم نحلم
بأكثرَ من يدين صغيرتين تصافحان غيابنا.
أَتذكّرُ السيّاب. حدّادون موتى ينهضون
من القبور ويصنعون قيودنا.
أَتذكّرُ السيَّابَ. إنَّ الشعرَ تجربَةٌ ومنفى
توأمان. ونحن لم نحلُمْ بأكثر من
حياةٍ كالحياةِ، وأن نموت على طريقتنا
«عِراقُ

طريقٌ يُؤدِّي إلى مصرَ والشام

[قلبي يرنُّ من الجِهَتَيْنْ]

طريقُ المسافر مِنْ ... وإلى نفسهِ

[جَسَدي ريشةٌ والمدى طائرٌ]

طريقُ الصواب ... طريقُ الخطأْ

[لعلِّي أَخطأتُ، لكنها التجربة]

طريقِ الصعود إلى شُرُفات السماء

[وأعلى وأَعلى، وأَبعدْ]

طريقُ النزول إلى أوَّل الأرضِ

[إنَّ السماء رماديّةٌ

[إنَّ الحنينَ هُوَ الرائحةْ

طريقُ التَّوَابلِ والملحِ والقمحِ

[والحربِ أَيضاً

طريقُ السلام الـمُتوَّجِ بالقُدْسِ

[بعد انتهاء الحروب صليبيَّةِ الأقنعة

طريقُ التجارة والأبجديَّة، والحالمينَ

[بتأليف سيرةِ تِرْغَلَّةٍ

طريقُ غُزاةٍ يريدون ترميمَ تاريخهم

[بغدٍ مُودَعٍ في البنوك

طريقُ التَّحَرُّشِ بالميثولوجيا

[فقد تَسْتَجيبُ إلى التكنولوجيا

طريقُ التخلِّي، قليلاً، عن الإيديولوجيا

[لمصلَحَةِ العَوْلَـمَةْ

[ولو كان جِنْسَ الملاك]

طريقُ الوفاق على كُلِّ شيء

[ولو كان أُنثى الحجر]

طريقُ الإخاء الـمُخَاتِلِ

[بين الغزالِ وصيّادِهِ]

طريقٌ يدلُّ على الشيء أو عكسه

[لفرط التَّشَابُه بين الكِنَايَةِ والاستعارة]

طريقُ الخيول التي صَرَعَتْها المسافات

[والطائرات ...]

طريقُ البريد القديم الـمُسَجّل

[كُلُّ الرسائل مُودَعَةٌ في خزائن قيصر]

طريقٌ يطول ويقصُرُ

[وَفْقَ مزاج أبي الطيِّب الـمُتَنَبِّي]

طريقُ الإلهاتِ مُنْحَنياتِ الظُّهُور

[كرايات جيشٍ تَقَهْقَرْ]

طريقُ فتاةٍ تُظَلِّلُ عانَتها بالفراشةِ

[فاللازَوَرْدُ يُجَرِّدُها من ملابسها]

طريقُ الذين يُحيِّرُهُمْ وَصْفُ زهرةِ لوزٍ

[لأنَّ الكثافةَ شَفَّافةٌ]

طريقٌ طويلٌ بلا أَنبياء

[فقد آثَروا الطُّرُقَ الوَعِرَة]

طريقٌ يؤدِّي إلى طَلَل البيتِ

[تحت حديقة مُسْتَوْطَنَة]

طريقٌ يَسُدّ عليَّ الطريق

فيصرخُ بي شَبَحي:

إنْ

أردتَ

الوصولَ

نفسك الجامحةْ

فلا

تَسْلُكِ

الطُّرُقَ الواضحةْ!

مَشَيْتُ على ما تَبقَّى من القلبِ،
صَوْبَ الشمال ...
ثلاثُ كنائسَ مهجورةٌ،
سنديانٌ على الجانبَيْنِ،
قُرىً كنقاطٍ على أَحْرُفٍ مُحِيَتْ،
وفتاةٌ على العشب تقرأُ ما
يُشْبهُ الشِّعَرَ: لو كُنْتُ أكبرَ،
لو كُنْتُ أكبرَ، لاسْتَسْلَمَ الذئبُ لي!

... لم أَكُنْ عاطفياً، ولا «دون جوان»

لو كنتُ أصغرَ عشرين عاماً
لَشاركْتُها الماءَ والسندويشات،
وعلَّمتُها كيف تَلْمِسُ قوس قُزَحْ

مَشَيْتُ، كما يفعل السائحُ الأَجنبيُّ ...
معي كاميرا، ودليلي كتابٌ صغيرٌ
يضمُّ قصائدَ في وَصْفِ هذا المكانِ
لأكثرَ من شاعرٍ أَجنبيٍّ،
أُحسُّ بأني أنا المتكلِّمُ فيها
ولولا الفوارقُ بين القوافي لقُلْتُ:
أَنا آخري

... كنت أَتبعُ وصف المكان. هنا
شَجَرٌ زائدٌ، وهنا قمرٌ ناقِصٌ
وكما في القصائد: ينبتُ عشبٌ

ولكنه غيمةٌ أينعَتْ...
خطوة، خطوتان، ثلاثٌ ... وَجَدْتُ الربيعَ
قصيراً على الـمِشْمِشيَّات. ما كِدْتُ أَرنو
إلى زَهْرة اللوز حتى تناثَرْتُ ما بينَ
غـمَّازَتَيْنِ. مَشَيْتُ لأتبعَ ما تَرَكَتْه الطيورُ
الصغيرةُ من نَـمَشٍ في القصائد/

ثُمَّ تساءلْتُ: كيف يصير المكانُ
ٱنعكاساً لصورتِهِ في الأساطيرِ،
أَو صِفَةً من صفات الكلامِ؟
وهل صورةُ الشيء أَقوى
من الشيءِ؟
لولا مخيَّلتي قال لي آخري:
أنتَ لَسْتَ هنا!

لم أكن واقعيّاً. ولكنني لا

هُوَ الشِّعْرُ، أسطورةٌ خَلَقَتْ واقعاً...
وتساءَلْتُ: لو كانتِ الكاميرا والصحافةُ
شاهدةً فوق أسوار طروادةَ الآسيوية،
هل كان «هوميرُ» يكتبُ غيرَ الأوديسةِ؟/

... أُمْسِكُ هذا الهواء الشهيَّ،
هواءَ الجليل، بكلتا يديَّ
وأمْضَغُهُ مثلما يمضَغُ الماعزُ الجبليُّ
أَعالي الشُّجَيْرات،
أَمشي، أُعرِّف نفسي إلى نفسها:
أنتِ، يا نفسُ، إحدى صفات المكان

ثلاثُ كنائسَ مهجورةٌ
مآذنُ مكسورةٌ،

قُرىً كنقاط على أَحْرُفٍ مُحِيَتْ،
وفتاةٌ على العشب تسأل طيفاً:
لماذا كبرتَ ولم تنتظرني
يقول لها: لم أَكنْ حاضراً
عندما ضاق ثوبُ الحرير بتُفَّاحَتَيْنِ.
فغنِّي، كما كنتِ قبل قليل، تُغَنِّين:
لو كُنْتُ أكبرَ، لو كنتُ أكبرَ .../

أَمَّا أَنا، فسأدخُلُ في شجر التوتِ
حيث تُحوِّلُني دُودَةُ القزِّ خَيْطَ حريرٍ،
فأدخلُ في إبرة ٱمرأةٍ من
نساء الأساطير،
ثم أطير كشالٍ مع الريح...

بيت من الش

[في ذكرى أمل

واقفاً مَعَهُ تحت نافذةٍ،
أتأمَّلُ وَشْمَ الظلال على
ضفَّة الأَبديَّةِ، قُلْتُ له:
قد تغيَّرتَ يا صاحبي .... وَانْفَطَرْتَ
فها هِيَ درّاجةُ الموت تدنو
ولكنها لا تحرِّكُ صرختك الخاطفةْ

□

قال لي: عِشْتُ قرب حياتي
كما هِيَ،

[illegible]
وبما يحمِلُ الليل مِنْ
مَرَضِ العاطفةْ

□

أَلغيابُ يرفّ كزوجَيْ حمامٍ على النيلِ...
يُنْبِئُنا باختلاف الـخُطَى حول فعل الـمُضارعِ...
كُنّا معاً، وعلى حِدَةٍ، نَسْتَحِثُّ غداً
غامضاً. لا نريدُ من الشيء إلاّ
شفافيَّةَ الشيء: حدِّقْ تَرَ الوردَ
أسوَد في الضوء. وٱحلُمْ تَرَ الضوءَ
في العتمة الوارفةْ ...

□

ألجنوبيُّ يحفظ درب الصعاليك عن
ظهر قلبٍ. ويُشْبهُهُم في سليقتهم
وارتجالِ المدى. لا «هناك» له،

ولا مِشْجَبٌ للكلام. يقول: النظامُ
ٱحتكامُ الصدى للصدى. وأَنا صوتُ
نفسي المشاع: أَنا هُوَ أنتَ ونحنُ أَنا.
وينامُ على دَرَج الفجر: هذا هو
البيتُ، بيتٌ من الشعر، بيتُ الجنوبيِّ.
لكنَّهُ صارمٌ في نظام قصيدته. صانعٌ
بارعٌ يُنقِذُ الوَزْنَ من صَخَب العاصفةْ

□

ألغيابُ على حاله. قَمَرٌ عابرٌ فوق
خُوفُو يُذهِّبُ سَقْفَ النخيل. وسائحةٌ
تملأ الكاميرا بالغياب، وتسألُ: ما
الساعةُ الآن؟ قال لها: الساعةُ
الآنَ عَشْرُ دقائقَ ما بعد سبعةِ

مِصْرُ الشهيّةُ، مِصْرُ البهيَّةُ مشغولةٌ
بالخلود. وأَمَّا أَنا ... فمريضٌ بها، لا
أفكِّرُ إلاّ بصحّتها، وبِكسْرَة خبزِ
غدي الناشفةْ

□

شاعرٌ، شاعرٌ من سُلاَلَة أَهل
الخسارة، وٱبنٌ وفيٌ لريف المساكينِ.
قرآنُهُ عربيٌّ، ومزمورُهُ عربيٌّ ، وقُرْبَانُهُ
عربيٌّ. وفي قلبه زَمَنانِ غريبان،
يبتعدان ويقتربان: غدٌ لا يكفُّ
عن الاعتذارِ: «نَسِيتُكَ، لا تنتظرني».
وأَمسِ يجرُّ مراكبَ فرعونَ نحو الشمال:
«انتظرتُكَ، لكنْ تأخرتَ». قُلْتُ لَهُ:

أَبحث عن حاضري في جَنَاحَيْ سُنُونُوّةٍ
خائفةْ ...

□

أَلجنوبيُّ يحملُ تاريخَهُ بيَدَيْهِ، كحفنة قمحٍ،
ويمشي على نفسه واثقاً من يسوع
السنابلِ. إنَّ الحياةَ بديهيَّةٌ... فلماذا
نفسِّرها بالأساطير؟ إنَّ الحياة حقيقيّةٌ
والصفاتِ هِيَ الزائفةْ

□

قال لي في الطريق إلى ليله:
كُلَّما قُلْتُ: كلاّ. تجلّى لِيَ اللهُ
حريَّةٌ ... وبلغتُ الرضا الباطنيَّ عن
النفس. قلتُ: وهل يُصْلِحُ الشعرُ

وأحفادُهُ العائدون إلى النهرِ؟
قال: على قَدْرِ حُلْمكَ تَتَّسع الأرضُ.
والأرضُ أمّ المخيّلة النازفةْ

□

قال في آخر الليل: خذني إلى البيتِ،
بيتِ المجاز الأخيرِ ...
فإني غريبٌ هنا يا غريبُ،
ولا شيءَ يُفْرحُني قرب بيتِ الحبيبِ
ولا شيءَ يجرحني في «طريق الحبيب» البعيدةِ
قلت: وماذا عن الروحِ؟
قال: سَتَجْلِسُ قُرْبَ حياتي
فلا شيءَ يُثْبِتُ أنِّيَ ميتٌ
ولا شي يثبتُ أنِّيَ حيٌّ

ستحيا، كما هِيَ
حائرة آسفةْ ...

V

كحادثة غامضة

في دار پابلو نيرودا، على شاطىء
الپاسفيك، تذكَّرْتُ يانيس ريتسوس.
كانت أَثينا ترحِّبُ بالقادمين من البحر،
في مَسْرَحٍ دائريٍّ مُضاءٍ بصرخة ريتسوس:
«آهِ فلسطينُ،
يا ٱسْمَ الترابِ،
ويا ٱسْمَ السماءِ،
سَتَنْتَصِرين ...»
وعانَقَني، ثُمَّ قَدَّمني شاهراً شارةَ النصرِ:
«هذا أَخي».
فَشَعَرْتُ بأني انتصرتُ، وأَني انكسرتُ
كقطعة ماسٍ، فلم يَبْقَ منِّي سوى الضوءِ/

□

في مطعم دافىءٍ، نتبادلُ بَعْضَ الحنين
إلى بَلَدَيْنا القديمين، والذكرياتِ عن
الغد: كانت أَثينا القديمةُ أَجملَ.
أَما يَبُوسُ، فلن تتحمَّل أكثر. فالجنرال
ٱستعار قناعَ النبيّ ليبكي ويسرِق
دمعَ الضحايا: «عزيزي العَدُوَّ!
قَتَلْتُكَ من دون قصدٍ، عدوِّي العزيزَ،
لأنَّكَ أزعجتَ دبَّابتي»/

□

قال ريتسوس: لكنَّ اسبارطةَ انكسرَتْ
في مهبِّ الخيال الأثينيِّ. إنَّ الحقيقةَ
والحقَّ صنوان ينتصران معاً. يا أَخي
في القصيدة! للشعر جسْرٌ على
أمسِ والغد. قد يلتقي باعةُ السَّمَكِ

الـمُتْعَبون مع الخارجين من الميثولوجيا.
وقد يشربون النبيذ معاً.

قلتُ: ما الشعْرُ؟ ... ما الشِعْرُ في
آخر الأمر؟
قال: هو الـحَدَثُ الغامضُ، الشعرُ
يا صاحبي هو ذاك الحنيـنُ الذي لا
يُفسَّرُ، إذ يجعلُ الشيءَ طيفاً، وإذْ
يجعلُ الطَّيْفَ شيئاً. ولكنه قد يُفَسِّرُ
حاجَتَنا لاقتسامِ الجمالِ العُموميِّ.../

□

لا بحر في بيته في أَثينا القديمةِ،
حيث الإلهاتُ كنّ يُدِرْنَ شؤون الحياة
مع البَشَر الطيِّبين، وحيث إلكترا الفتاةُ
تناجي إلكترا العجوزَ وتسألها: هل

أَنا أنت حقّاً؟

□

ولا لَيْلَ في بيته الضيِّق الـمُتَقَشِّفِ
فوق سطوحٍ تطلُّ على الغابة المعدنيَّةِ.
لَوْحَاتُهُ كالقصائد مائيَّةٌ، وعلى أرض
صالونه كُتُبٌ رُصِفَتْ كالحصى الـمُنْتَقَى.
قال لي: عندما يحزُنُ الشعرُ أَرسمُ
فوق الحجارةِ بَعْضَ الفخاخ لصَيْدِ القَطَا.
قُلْتُ: من أَين يأتي إلى صوتك
البحرُ، والبحر منشغلٌ عنك يا صاحبي؟
قال: من جهة الذكريات، وإن
كنت «لا أتذكر أَنيَ كُنْتُ صغيراً».
وُلدت ولي أخَوانِ عَدُوَّانِ:
سجني ودائي.

ــ وأَين وَجَدْتَ الطُّفُولَةَ؟
ــ في داخلي العاطفيّ. أَنا الطفلُ
والشيخُ. طفلي يُعَلِّمُ شيخي المجازَ.
وشيخي يُعلِّم طفلي التأمُّل في خارجي.
خارجي داخلي
كُلَّما ضاق سجني تَوزَّعْتُ في الكُلِّ،
واتَّسَعَتْ لغتي مثل لُؤْلُؤةٍ كُلَّما عَسْعَسَ
الليل ضاءتْ/

□

وقلت: تعلَّمتُ منك الكثير. تعلَّمت
كيف أدرِّبُ نفسي على الانشغال بحبِّ
الحياة، وكيف أُجدِّفُ في الأبيض
المتوسِّط بحثاً عن الدرب والبيت أو
عن ثُنَائيَّة الدربِ والبيتِ/

لم يَكْتَرِثْ للتحيَّة. قدَّم لي قهوةً.
ثم قال: سيرجعُ أوديسُكُمْ سالماً،
سوف يَرْجِعُ .../

□

في دار پابلو نيرودا، على شاطىء
الپاسفيك، تذكَّرْتُ يا نيس ريتسوس
في بيته. كان في ذلك الوقت يدخُلُ
إحدى أساطيرِهِ، ويقول لإحدى الإلهاتِ:
إنْ كان لا بُدَّ من رحلةٍ، فلتَكُنْ
رحلَةً أبديّةْ!

VI

ليس للكردي إلاّ الريح

[إلى: سليم بركات]

يَتَذكّرُ الكرديُّ، حين أزورُهُ، غَدَهُ...
فيُبْعدُهُ بمُكْنسة الغبارِ: إليكَ عنّي!
فالجبالُ هِيَ الجبالُ. ويشربُ الفودكا
لكي يُبقي الخيالَ على الحياد: أَنا
المسافرُ في مجازي، والكراكيُّ الشقيَّةُ
إخوتي الـحَمْقَى. وينفُضُ عن هُوِيَّتِهِ
الظلالَ: هُوِيَّتي لُغَتي. أنا... وأنا.
أنا لغتي. أنا المنفيّ في لغتي.
وقلبي جمرةُ الكُرْديِّ فوق جبالِهِ الزرقاء.../

نيقُوسْيا هوامِشُ في قصيدته،

ككُلّ مدينةٍ أخرى. على درّاجةٍ
حمل الجهاتِ، وقال: أَسْكُنُ أَينما
وَقَعَتْ بيَ الجهةُ الأخيرةُ. هكذا
ٱختار الفراغَ ونام. لم يَحْلُمْ
بشيء مُنْذ حَلَّ الجِنُّ في كلماتِهِ،
[كلماتُهُ عضلاتُهُ. عضلاتُهُ كلماتُهُ]
فالحالمون يُقَدِّسون الأمسَ، أَوْ
يَرْشُون بوَّابَ الغد الذهبيِّ ...
لا غَدَ لي ولا أمسِ. الـهُنَيْهَةُ
ساحتي البيضاء .../

منزلُهُ نظيفٌ مثلُ عَينْ الديكِ ...
منسيٌّ كخيمة سيّد القوم الذين
تبعثروا كالريش. سَجَّادٌ من الصوف
المجعَّد. مُعْجَمٌ مُتآكلٌ. كُتُبٌ مُجَلَّدةٌ

على عَجَلٍ. مخدّاتٌ مطرَّزَةٌ بإبرة
خادم المقهى. سكاكينٌ مُجَلَّخةٌ لذبح
الطير والخنزير. فيديو للإباحيات.
باقاتٌ من الشوك المُعَادِلِ للبلاغةِ.
شُرْفَةٌ مفتوحةٌ للاستعارة: ها هنا
يَتَبادَلُ الأتراكُ والإغريقُ أدوارَ
الشتائم. تلك تَسْلِيَتي وتَسْلِيَةُ
الجنود الساهرين على حدود فُكاهةٍ
سوداء .../

ليس مسافراً هذا المسافرُ، كيفما اتَّفَقَ ...
الشمالُ هو الجنوبُ، الشرقُ غَرْبٌ
في السراب. ولا حقائبَ للرياح،
ولا وظيفة للغبار. كأنه يُخفي
الحنينَ إلى سواهُ، فلا يُغنِّي ... لا

يُغَنِّي حين يدخُلُ ظلُّه شَجَرَ الأكاسْيا،
أو يبلِّلُ شَعرَهُ مَطَرٌ خفيفٌ ...
بل يُناجي الذئبَ، يسأله النزالَ:
تعال يا ٱبن الكلب نَقْرَعْ طَبْلَ
هذا الليل حتى نوقظ الموتى. فإنَّ
الكُرْدَ يقتربون من نار الحقيقة،
ثم يحترقون مثل فراشة الشُّعَراء/

يعرفُ ما يريد من المعاني. كُلُّها
عَبَثٌ. وللكلمات حيلَتُها لصيد نقيضها،
عبثاً. يفضّ بكارةَ الكلمات ثم يعيدها
بكراً إلى قاموسه. ويَسُوسُ خَيْلَ
الأبجدية كالخراف إلى مكيدته، ويحلقُ
عانَةَ ٱللُغةِ: انتقمتُ من الغياب.

فَعَلْتُ ما فعل الضبابُ بإخوتي.
وشَوَيْتُ قلبي كالطريدة. لن أكون
كما أريد. ولن أحبَّ الأرض أكثر
أَو أَقلَّ من القصيدة. ليس
للكرديِّ إلاّ الريح تسكنُهُ ويسكُنُها.
وتُدْمِنُهُ ويُدْمنُها، لينجوَ من
صفات الأرض والأشياء .../

كان يخاطب المجهولَ: يا ٱبني الحُرّ!
يا كبش المتاه السرمديّ. إذا رأيتَ
أباك مشنوقاً فلا تُنْزِلْهُ عن حبل
السماء، ولا تُكَفِّنْهُ بقطن نشيدك
الرَّعَوِيِّ. لا تدفنه يا ٱبني، فالرياحُ
وصيَّةُ الكرديِّ للكرديِّ في منفاهُ،
يا ٱبني... والنسورُ كثيرةٌ حولي

وحولك في الأناضول الفسيح.
جنازتي سريَّةٌ رمزيّةٌ، فَخُذِ الهباءَ
إلى مصائره، وجُرَّ سماءك الأولى
إلى قاموسك السحريِّ. واحذرْ
لَدْغَةَ الأَمَلِ الجريحِ، فإنه وَحْشٌ
خرافيّ. وأنت الآن... أنت الآن
حُرّ، يا ٱبن نفسِكَ، أنت حُرٌّ
من أبيك ولعنة الأسماء../

باللغة انتصَرْتَ على الـهُوَيَّةِ،
قُلْتُ للكرديِّ، باللغة انتقمتَ
من الغيابِ
فقال: لن أَمضي إلى الصحراءِ
قُلْتُ: ولا أَنا ...

ونظرت نحو الريح/
ــ عِمْتَ مساء
ــ عمت مساء!

حالة حصار

[كُتب هذا النص في يناير ٢٠٠٢
في رام الله...]

هنا، عند مُنْحَدرات التلالِ، أَمامَ الغروبِ
وفُوَّهَةِ الوقتِ،
قُرْبَ بساتينَ مقطوعةِ الظلِّ،
نفعَلُ ما يفْعَلُ السُجَناءُ،
وما يفعلُ العاطلون عَن العَمَل:
نُرَبِّي الأَمَلْ.

□

بلادٌ على أُهْبَة الفجر،
صرنا أَقَلَّ ذكاءً،
لأَنَّا نُحملقُ في ساعة النصر:
لا لَيْلَ في ليلنا المُتَلأْلِىء بالمدفَعِيّةِ
أَعداؤنا يسهرونَ،
وأَعداؤنا يُشْعلون لنا النورَ
في حلكة الأَقبيةْ.

□

هنا، بعد أَشعار «أَيوب» لم ننتظر أَحداً...

□

هنا، لا «أَنا»

هنا يتذكّرُ «آدمُ» صلصالَهُ

□

سيمتدُّ هذا الحصار إلى أن نُعَلِّم أَعداءنا

نماذجَ من شعرنا الجاهليّ.

□

أَلسماءُ رصاصيَّةٌ في الضُّحى
برتقاليَّةٌ في الليالي. وأَما القلوبُ
فظلَّت حياديَّةً مثل ورد السياج

□

في الحصار، تكون الحياةُ هي الوقتُ
بين تذكُّر أَوَّلها
ونسيان آخرها...

□

أَلحياةْ.

الحياةُ بكاملها،

الحياةُ بِنُقْصَانها،

تستضيفُ نجوماً مُجاوِرَةً

لا زمانَ لها...

وغيوماً مُهاجرةً

لا مكانَ لها.

والحياةُ هنا

تتساءلُ:

كيف نُعيدُ إليها الحياةْ

□

يقولُ على حافّة الموتِ:
لم يَبْقَ بي مَوْطِىء للخسارةِ،
حُرٌّ أَنا قُرْبَ حُرّيتي
وغدي في يدي...
سوف أَدخُلُ، عما قليلٍ، حياتي
وأُولَدُ حُرّاً بلا أَبَوْينِ،
وأَختارُ لاسمي حروفاً من اللاَزَوَرْد...

□

هنا، عند مُرتفعات الدُّخان، على دَرَج البيت
لا وَقْتَ للوقتِ،
نفعَلُ ما يفعَلُ الصاعدونَ إلى اللّهِ:
نَنْسَى الألَمْ

□

الألَمْ
هُوَ: أَن لا تُعَلِّق سيِّدةُ البيت حَبْلَ الغسيل
صباحاً، وأَن تكتفي بنظافةِ هذا العَلَمْ

□

لاَ صدىً هوميريّ لشيء هنا.
فالأساطيرُ تطرُقُ أَبوابنا حين نحتاجُها
لا صدىً هوميريّ لشيءٍ...
هنا جنرالٌ يُنَقِّبُ عن دَوْلة نائمةْ
تحت أَنقاضِ طروادةَ القادمةْ

□

يقيسُ الجنودُ المسافةَ بين الوجود
وبين القَدَمْ
بمنظار دَبَّابةٍ...

□

نقيسُ المسافةَ ما بينَ أَجسادنا
والقذيفةِ... بالحاسَّة السادسةْ

□

أَيُّها الواقفون على العَتَبات ٱدخلوا،
وٱشربوا مَعَنا القهوةَ العربيَّةَ
[قَدْ تَشْعُرونَ بأَنَّكُمْ بَشَرٌ مثلنا]
أَيُّها الواقفون على عَتَباتِ البيوتِ،
اخرجوا من صباحاتنا،
نطمئنَّ إلى أَنَّنا
بَشَرٌ مثلكُمْ!

□

نجدُ الوقتَ للتسليةْ:
نلعب النرْدَ، أَو نتصفَّحُ أَخبارَنا
في جرائدِ أَمسِ الجريحِ،
ونقرأُ زاويةَ الحظّ: في عامِ
أَلفينِ واثنينِ تبتسمُ الكاميرا
لمواليدِ بُرْجِ الحصارْ

□

كُلَّما جاءني الأمس، قُلْتُ لَهُ:
ليس موعدنا اليوم، فلتبتعدْ
وتعالَ غدا!

□

قال لي كاتبٌ ساخرٌ:
لو عرفتُ النهايةَ، منذ البداية،
لم يَبْقَ لي عَمَلٌ في اللُّغَةْ

□

كُلُّ مَوْتٍ،
وإنْ كان مُنْتَظَراً،
هُوَ أَوَّلُ موتٍ
فكيف أَرى
قمراً
نائماً تحت كُلِّ حَجَرْ؟

□

أُفكِّرُ، من دون جَدْوَى:
بماذا يفكِّرُ مَنْ هُوَ مثلي، هُنَاكَ
على قمَّة التلِّ، مُنْذُ ثلاثةِ آلافِ عامٍ،
وفي هذه اللحظة العابرةْ؟
فتوجعني الخاطرةْ
وتنتعشُ الذاكرةْ.

□

عندما تختفي الطائراتُ تطيرُ الحماماتُ،
بيضاءَ، بيضاءَ. تغسلُ خدَّ السماء
بأجنحةٍ حُرَّةٍ، تستعيدُ البهاءَ وملكيَّةَ
الجوِّ واللَهْوِ. أَعلى وأَعلى تطيرُ
الحماماتُ، بيضاءَ بيضاءَ. لَيْتَ السماءَ
حقيقيّةٌ [قال لي رجلٌ عابرٌ بين قنبلتيْنْ].

□

الوميضُ، البصيرةُ، والبرقُ
قَيْدَ التشابُهِ...
عمَّا قليلٍ سأعرف إن كان هذا
هو الوَحْيُ...
أَو يعرفُ الأصدقاءُ الحميمونَ
أَنَّ القصيدةُ مَرَّتْ،
وأودتْ بشاعِرِها...

□

[إلى ناقدٍ:] لا تُفَسِّرْ كلامي
بملْعَقَةِ الشايِ أَو بفخاخِ الطيورِ!
يحاصرني في المنام كلامي،
كلامي الذي لم أَقُلْهُ،
وَيكْتُبُني ثم يتركني باحثاً
عن بقايا منامي...

□

شَجَرْ السَرْوِ، خلف الجنود، مآذنُ
تحمي السماءَ من الانحدار. وخلف سياج
الحديد جنودٌ يبولون ـ تحت حراسة دبَّابةٍ ـ
والنهارُ الخريفيُّ يُكْملُ نزهتَهُ الذهبيَّةَ
في شارعٍ واسعٍ كالكنيسةِ
بعد صلاة الأَحَدْ...

□

بلادٌ على أُهْبَةِ الفجرِ،
لن نختلفْ
على حصَّة الشُّهَداءِ من الأرضِ،
ها هُمْ سَوَاسِيَةٌ
يفرشون لنا العُشْبَ
كي نأتلفْ!

□

نُحِبُّ الحياةَ غداً
عندما يصل الغَدُ سوف نحبُّ الحياة
كما هِيَ، عادةً ماكرةْ
رماديّةً أو مُلَوَّنَةً،
لا قيامةَ فيها ولا آخِرَةْ.
وإن كان لا بُد من فَرَحٍ
فليكُنْ
خفيفاً على القلب والخاصِرَةْ!
فلا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ المتمرِّنُ
من فَرَحٍ... مَرَّتَيْنْ!

□

[إلى قاتلٍ:] لو تأمَّلْتَ وجه الضحيّةْ
وفكَّرْتَ، كُنْتَ تذكَّرْتَ أُمَّكَ في غُرْفَةِ
الغازِ، كُنْتَ تحرَّرتَ من حكمة البندقيّةْ
وغيَّرتَ رَأْيَكَ: ما هكذا تُستَعَادُ الهُويَّة!

□

[إلى قاتل آخر:] لو تَرَكْتَ الجَنِينَ
ثلاثين يوماً، إذاً لتغيَّرتِ الاحتمالاتُ:
قد ينتهي الاحتلالُ ولا يتذكَّرُ ذاك
الرضيعُ زمان الحصار،
فيكبر طفلاً مُعَافى، ويصبحُ شابّاً
ويَدْرُسُ في معهدٍ واحدٍ مَعَ إحدى بَنَاتِكَ
تاريخَ آسيا القديمَ
وقد يَقَعَانِ معاً في شِباك الغرامِ
وقد يُنْجِبانِ ابنةً [وتكونُ يهوديّةً بالولادةِ]
ماذا فعلتَ إذاً؟
صارت ابنتُكَ الآن أرملةً
والحفيدةُ صارت يتيمةْ؟
فماذ فَعَلْت بأُسْرَتِكَ الشاردةْ
وكيف أَصبتَ ثلاثَ حمائمَ بالطلقة الواحدةْ؟

□

لم تكن هذه القافيةْ
ضروريَّةً، لا لضبط النغمْ
ولا لاقتصاد الأَلمْ
إنها زائدةْ
كذبابٍ على المائدةْ

□

الضبابُ ظلامٌ، ظلامٌ كثيفُ البياضِ
تُقَشِّرُهُ البرتقالةُ والمرأةُ الواعدةْ

□

وحيدون، نحن وحيدون حتى الثمالة،
لولا زياراتُ قَوْسِ قُزَحْ

□

هل نُسِيء إلى أَحدٍ؟ هل نُسيء إلى
بَلَدٍ، لو أَصِبْنا، ولو من بعيدٍ،
ولو مرةً، برذاذ الفَرَحْ؟

□

الحصارُ هو الانتظار
هو الانتظارُ على سُلَّم مائلٍ وَسَطَ العاصِفَةْ

□

لنا أخوةٌ خلف هذا المدى
أخوةٌ طيِّبون، يُحبُّوننا، ينظرون إلينا
ويبكون، ثُمَّ يقولون في سرِّهِمْ:
«ليت هذا الحصار هنا عَلنيٌّ...»
ولا يُكْمِلُون العبارةَ: «لا تتركونا
وحيدين.. لا تتركونا»

□

أَلقبائلُ لا تستعينُ بكسرى
ولا قَيْصَرٍ، طَمَعاً بالخلافةِ،
فالحُكْمُ شُورى على طَبَق العائلةْ
ولكنَّها أُعجِبَتْ بالحداثةِ
فاستبدلَتْ
بطائرةٍ إِبِلَ القافلةْ

□

سأَصرُخُ في عُزْلتي،
لا لكيْ أُوقِظَ النائمينْ.
ولكنْ لتُوقِظَني صَرْختي
مِنْ خيالي السجينْ!

□

أَنا آخر الشعراء الذين
يؤرِّقُهُمْ ما يُؤَرِّقُ أَعداءَهم:
رُبَّما كانت الأَرضُ ضيِّقَةً
على الناس،
والآلهة

□

هُنَا، تتجمَّعُ فينا التواريخُ حمراءَ،
سوداءَ. لولا الخطايا لكان الكتابُ
المُقَدَّسُ أَصغَرَ. لولا السرابُ لكانت
خُطَى الأنبياءِ على الرمل أَقوى، وكان
الطريقُ إلى الله أَقَصَرَ
فَلْتُكْمِلِ الأَبديَّةُ، أَعمالها الأَزليَّةَ...
أَمَّا أَنا، فسأهمسُ للظلّ: لو
كان تاريخُ هذا المكانِ أَقَلَّ زحاماً
لكانت مدائنُنا للتضاريس في
شَجَر الحَوْرِ... أكثرْ!

□

خَسَائِرُنا: من شهيدَيْن حتى ثَمَانيةٍ
كُلَّ يوم،
وعشرةُ جَرْحَى
وعشرونَ بيتاً
وخمسونَ زيتونةً،
بالإضافة للخَلَل البنيويِّ الذي
سيُصيبُ القصيدةَ المسرحيةَ واللوحةَ الناقصةْ

□

نُخَزِّنُ أَحزاننا في الجِرار، لئلاَّ
يراها الجنودُ فيحتفلوا بالحصار...
نُخَزِّنُها لمواسمَ أُخرى،
لذكرى،
لشيء يفاجئنا في الطريق.
فحين تصيرُ الحياةُ طبيعيَّةً
سوف نحزن كالآخرين لأشياءَ شخصيّةٍ
خَبَّأَتْهَا عَنَاوينُ كبرى،
فلم نَنْتَبِهْ لنزيف الجُروح الصغيرةِ فينا.
غداً حين يَشْفَى المكانُ
نُحِسُّ بأَعراضِهِ الجانبيّةْ

□

في الطريق المُضَاءِ بقنديل منفى
أَرى خيمةً في مَهَبِّ الجهاتْ:
الجنوبُ عَصِيٌّ على الريحِ،
والشرقُ غَرْبٌ تَصَوَّفَ،
والغربُ هُدْنَةُ قَتْلى يسكُّون نَقْدَ السلام.
وأَمَّا الشمالُ، الشمال البعيد
فليس بجغرافيا أَو جِهَةْ
إنه مجمع الآلهةْ!

□

يقولُ لها: انتظريني على حافَّة الهاويةْ
تقولُ: تَعَالَ... تَعَالَ! أَنا الهاويةْ

قالت امرأةٌ للسحابة: غَطِّي حبيبي
فإن ثيابي مُبَلَّلةٌ بِدَمِهْ!

□

إذا لم تَكُنْ مَطَراً يا حبيبي
فكُنْ شجَراً
مُشْبَعاً بالخُصُوبَةِ... كُنْ شَجَرا
وإن لم تَكُنْ شَجَراً يا حبيبي
فكُنْ حجراً
مُشْبعاً بالرطوبةِ... كُنْ حجرا
وإن لم تكن حَجراً يا حبيبي
فكُنْ قمراً
في مَنَام الحبيبةِ... كُنْ قمرا
[هكذا قالت امرأةٌ
لابنها في جنازته]

[إلى الليل:] مهما ادّعَيْتَ المُساواةَ
«كُلُّكَ للكُلِّ]... للحالمينَ وحُرَّاسِ
أحلامهم، فلنا قَمَرٌ ناقصٌ، ودَمٌ
لا يُغَيِّرُ لَوْنَ قميصِكَ يا لَيْل...

□

نُعزِّي أَباً بابنه: «كَرَّم اللهُ وَجْهَ الشهيدْ»
وبعد قليلٍ، نُهَنِّئُهُ بوليدٍ جديدْ.

□

[إلى الموت:] نعرف من أَيِّ دَبَّابةٍ
جئْتَ. نعرف ماذا تريدُ... فَعُدْ
ناقصاً خاتَماً. واعتذرْ للجنود وُضبَّاطهم،
قائلاً: قد رآني العروسانِ أَنظُرُ
نحوهما، فتردَّدتُ ثم أَعَدْتُ العروسَ
إلى أَهلها... باكيةْ!

□

إلٰهي... إلٰهي! لماذا تخلَّيْتَ عنّي
وما زلتُ طفلاً... ولم تَمْتَحِنِّي؟

□

قالت الأُمُّ:
لم أَرَهُ ماشياً في دَمِهْ
لم أَرَ الأُرْجُوانَ على قَدَمِهُ
كان مُسْتَنِداً للجدارِ
وفي يَدِهِ
كأسُ بابونجٍ ساخنٍ
ويُفَكِّرُ في غَدِهِ...

□

قالت الأمُّ: في بادىء الأَمرِ لم
أَفهمِ الأَمرَ. قالوا: تزوَّجَ منذ
قليلٍ. فزَغْرَدْتُ، ثُمَّ رَقَصْتُ وَغَنَّيْتُ
حتى الهزيعِ الأخيرِ من الليلِ، حيث
مضى الساهرون ولم تبق إلاَّ سلالُ
البَنَفْسَج حَوْلي. تساءلتُ: أَين العروسانِ؟
قِيلَ: هنالك فوق السماء مَلاَكَانِ
يَسْتَكْملان طُقُوسَ الزواج. فزَغْرَدْتُ،
ثُمَّ رَقَصْتُ وغنَّيْتُ حتى أُصِبْتُ
بداء الشَلَلْ
فمتى ينتهي، يا حبيبي، شَهْرُ العَسَلْ؟

□

سيمتدُّ هذا الحصارُ إِلى أَن
يُحِسَّ المُحَاصِرُ، مثل المُحَاصَرِ،
أَن الضَجَرْ
صِفةٌ من صِفات البَشَرْ

□

أَيُّها الساهِرونَ! أَلم تتعبوا
من مراقبة الضوء في مِلْحِنا؟
ومن وَهَج الورد في جُرْحنا
أَلم تتعبوا أَيُّها الساهِرُونْ؟

□

واقفون هنا. قاعدون هنا. دائمون هنا.
خالدون هنا. ولنا هَدَفٌ واحدٌ:
أَن نكون.
ومن بعدِهِ نحن مُخْتَلِفُونَ على كُلِّ شيءٍ:
على صورة العَلَم الوطنيِّ
[ستُحْسِنُ صُنْعاً لو اخْتَرْتَ يا
شعبيَ الحيَّ رَمْزَ الحمار البسيط]
وَمُخْتَلِفُونَ على كلماتِ النشيدِ الجديدِ
[سَتُحْسِنُ صُنعاً لو ٱخْتَرْتَ أغنيّةً عن زواج الحمام]
ومُخْتَلِفُون على وَاجبات النساءِ
[ستُحْسِنُ صنعاً لو اخترتَ سيِّدةً لرئاسة أجهزة الأمن]
مختلفون على النِسْبَةِ المئوية، والعامِّ والخاصِّ،
مختلفون على كُلِّ شيء. لنا هَدَفٌ واحدٌ:
أَن نكون...
ومن بعده يجد الفَرْدُ مُتّسعاً لاختيار الهَدَفْ

□

عميقاً، عميقاً
يُواصِلُ فعلُ المضارع
أَشغالَهُ اليدويّةَ،
في ما وراء الهَدَفْ...

□

قال لي في الطريق إلى سِجْنِهِ:
عندما أَتحَرَّرُ أَعرفُ
أَنَّ مديحَ الوَطَنْ
كهجاء الوَطَنْ
مهنةٌ مثل باقي المِهَنْ

□

بلادٌ على أُهْبَة الفجرِ،
أَيقظْ حصانَكَ
واْصعَدْ
خفيفاً خفيفاً،
لِتَسْبقَ حُلْمَكَ،
واجلس ـ إذا ماَطَلَتْكَ السماءُ ـ
على صَخْرةٍ تتَنهَّدْ

□

كيف أحملُ حُرّيتي، كيف تحمِلُني؟ أَين
نسكُنُ من بعد عَقْد النكاح، وماذا
أقول لها في الصباح: أَنِمْتِ كما ينبغي
أَن تنامي إلى جانبي؟ وحَلُمتِ بأرض السماء؟
وهِمْتِ بذاتكِ. هل قُمْتِ سالمةً من منامكِ
هل تشربين معي الشايَ أم قهوةً بالحليبِ؟
وهل تؤثرين عصيرَ الفواكهِ، أم قُبَلِي؟
[كيف أَجعل حُرّيتي حُرَّة؟] يا غريبةُ!
لَسْتُ غريبَكِ. هذا السريرُ سريرُكِ. كوني
إِباحيَّةً، حُرَّةً، لا نهائيّةً، وانثري جَسَدي
زهرةً زهرةً بلهاثك. حُرّيتي! عَوِّديني
عليك. خُذيني إلى ما وراء المفاهيم كي
نصبح اثنين في واحدٍ!
كيف أحملها، كيف تحملني، كيف أَصبح سيِّدها
وأنا عبدها. كيف أجعل حريتي حُرّةً
دون أن نفترقْ؟

□

قليلٌ من المُطْلَق الأزرقِ اللانهائيِّ
يكفي
لتخفيف وَطْأَةِ هذا الزمانْ
وتنظيف حَمْأَةِ هذا المكانْ

□

سيمتدُّ هذا الحصارُ إلى أَنْ
نُقلِّم أَشجارنا
بأيدي الأطبّاء، والكَهَنَةْ

□

سيمتدُّ هذا الحصارُ، حصاري المجازيُّ،
حتى أُعلِّم نفسِيَ زُهْدَ التأمُّل:
ما قبل نفسي ــ بكتْ سَوْسَنَةْ
وما بعد نفسي ــ بكتْ سَوْسَنَةْ
والمكانُ يُحَمْلقُ في عَبَث الأَزمنةْ

□

على الروح أَن تَتَرجَّلْ
وتمشي على قَدَمَيْها الحريريَّتَيْنِ
إلى جانبي، ويداً بيدٍ، هكذا صاحبَيْن
قديمين يَقْتَسمانِ الرغيفَ القديمَ
وكأسَ النبيذ القديمِ
لنقْطَعَ هذا الطريقَ معاً
ثم تذهَبُ أَيَّامُنا في اتجاهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ:
أنا ما وراءَ الطبيعةِ. أمَّا هِيَ
فتختار أن تجلس القرفصاءَ
على صخرةٍ عاليةْ

□

[إلى شاعرٍ:] كُلَّما غاب عنك الغيابْ
تورَّطْتُ في عُزْلَةِ الآلهةْ
فكن «ذاتَ» موضوعكَ التائهةْ
و«موضوعَ» ذاتِكَ،
كُنْ حاضراً في الغيابْ

□

[إلى الشعر:] حاصِرْ حصارَكْ

□

[إلى النثر:] جُرَّ البراهينَ من
مُعْجَم الفُقَهاءِ إلى واقعٍ دَمَّرَتْهُ
البراهينُ. وآشْرَحْ غُبارَكْ.

□

[إلى الشعر والنثر:] طِيرا معاً
كجناحَيْ سُنُونُوَّةٍ تحملانِ الربيعَ المُبارَكْ

□

كتبتُ عن الحُبِّ عشرين سطراً
فخُيِّلَ لي
أَنَّ هذا الحصارَ
تراجَعَ عشرين متراً!...

□

يجدُ الوقتَ للسخريةْ:
هاتفي لا يرنُّ
ولا جَرَس الباب أَيضاً يَرِنُّ
فكيف تيقَّنْتِ من أَنَّني
لم أَكُنْ ههُنا؟

□

يجد الوقتَ للأُغنيةْ:
في انتظارِك، لا أستطيعُ انتظارَكِ
لا أستطيعُ قراءةَ دوستويفسكي
ولا الاستماعَ إلى «أُمّ كلثوم» أو «ماريّا كالاس»
وغيرهما. في انتظاركِ تمشي العقاربُ في
ساعة اليدِ نحو اليسار، إلى زَمَنٍ
لا مكانَ لَهُ،
في انتظارِكِ لم أَنتظِرْكِ، انتظرتُ الأَزَلْ

□

يقولُ لها: أَيّ زهر تُحِبِّينَهُ؟
فتقول: أُحِبُّ القُرُنْفُلَ... أَسْودْ
يقولْ: إلى أين تَمْضينَ بي،
والقرنفلُ أَسودْ؟
تقولْ: إلى بُؤْرةِ الضوءِ في داخلي
وتقولُ: وأَبْعَدَ... أبعدَ.. أبعَدْ.

□

[إلى الحُبِّ:] يا حُبُّ، يا طائر الغَيْب!
دَعْنا من الأزرق الأبديّ وحُمَّى الغياب.
تعال إلى مطبخي لنُعِدَّ العَشَاءَ معاً.
سوف أَطهو، وأَنتَ تَصُبُّ النبيذ،
وتختارُ ما شئتَ من أُغنياتٍ تُذَكِّرنا
بحيادِ المكان وفَوْضَى العواطفِ: إنْ
قِيلَ إِنَّكَ جِنْسٌ من الجنِّ... صَدِّقْ!
وإن قِيلَ إنَّكَ نوعٌ من الأنفلونزا... فصدِّق!
وحدِّقْ إليكَ ومَزِّقْ حجابك. لكنّك الآن
قُرْبي أَليفٌ لطيفٌ تُقَشِّرُ ثُوماً، وبعد العشاء
ستختارُ لي فيلماً عاطفيّاً قديماً،
لنشهدَ كيف غَدا البطلان هناك
هُنا شاهِدَيْنْ

□

في الصباح الذي سوف يعقبُ هذا الحصارْ
سوف تمضي فتاةٌ إلى حُبِّها
بالقميص المُزَرْكَشِ، والبَنْطَلُونِ الرماديِّ
شَفَّافَةَ المَعُنَويّاتِ كالمِشْمِشيَّاتِ في
شهر آذارَ: هذا النهارُ لنا كُلُّهُ
كُلُّهُ، يا حبيبي، فلا تتأخَّرْ كثيراً
لئلاّ يَحُطَّ غرابٌ على كتفي...
وستقضمُ تُفَّاحَةً في انتظار الأَمَلْ
في انتظار الحبيب الذي
رُبَّما، رُبَّما لن يَصِلْ

□

«أَنا، أَو هُوَ»
هكذا تبدأ الحربُ. لكنها
تنتهي بلقاءٍ حَرِجْ:
«أَنا و هُوَ»

□

«أَنا هِيَ حتى الأَبَدْ»
هكذا يبدأ الحُبّ. لكنه
عندما ينتهي
ينتهي بوداعٍ حَرِجْ:
«أَنا و هِيَ»

□

لا أُحبُّكَ، لا أكرهُكَ
قال مُعْتَقَلٌ للمحقِّقِ: قلبي مَلِيءٌ
بما ليس يَعْنيك. قلبي يفيضُ برائحةِ المَرْيميَّةِ،
قلبي بريءٌ، مُضِيءٌ، مَليءٌ،
ولا وَقْتَ في القلب للامتحان. بلى،
لا أحبُّكَ. مَنْ أَنْتَ حتَّى أُحبَّكَ؟
هل أَنت بعضُ أَنايَ، وموعدُ شايٍ
وَبُحَّةُ نايٍ، وأُغنيةٌ كي أُحبَّكَ؟
لكنني أكرهُ الاعتقال ولا أكرهُكْ.
هكذا قال مُعْتقلٌ للمحقِّق: عاطِفتي
لا تَخُصُّكَ. عاطفتي هي لَيْلي الخصوصيُّ...
لَيْلي الذي يتحرَّكُ بين الوسائد حُرّاً
من الوزن والقافيةْ!

□

سيمتدُّ هذا الحصار إلى أَن يُنَقِّحَ
سادةُ «أولمب» إلياذَةَ الخالدةْ

□

سيولَدُ طفلٌ، هنا الآن،
في شارع الموت... في الساعة الواحدةْ

□

سيلعب طفلٌ بطائرةٍ من وَرَقْ
بألوانها الْأَربعة
[أَحمر، أَسود، أَبيض، أَخضر]
ثم يدخلُ في نجمةٍ شاردةْ

□

جَلَسْنَا بعيدينَ عن / مصائرنا كطيورِ
تُؤَثِّثُ أَعشاشَها في ثُقُوب التماثيلِ،
أَو في المداخنِ،
أَو في الخيام التي نُصِبَتْ
في طريقِ الأمير إلى رِحْلة الصَيْدْ...

□

[إلى حارسٍ:] سأُعلِّمُكَ الانتظارْ
على باب موْتي المؤجَّلْ
تمهَّلْ، تمهَّلْ
لعلَّك تسأمُ منِّي
وترفَعُ ظلَّكَ عَنِّي
وتدخُلُ ليلَكَ حُرّاً
بلا شَبَحي!

□

[إلى حارسٍ آخر:] سأُعلِّمُكَ الانتظارْ
على باب مَقْهى
فتسمع دقّاتِ قلبِكَ أَبطأَ، أَسْرَعَ
قد تعرفُ القشعريرةَ مثلي
تمهَّلْ،
لعلَّكَ مثلي تُصفِّر لحناً يُهَاجِرُ
أَندُلسِيَّ الأسى، فارسيَّ المدارْ
فيوجِعُكَ الياسمينُ، وترحَلْ

□

[إلى حارس ثالث:] سأعلِّمك الانتظارْ
على مقْعَدٍ حَجَريٍّ، فقَدْ
نتبادلُ أسماءنا. قد ترى
شَبَهاً طارئاً بيْننَا:
لَكَ أمٌّ
ولي والدةْ
ولنا مَطَرٌ واحدٌ
ولنا قَمَرٌ واحدٌ
وغيابٌ قصيرٌ عن المائدةْ

□

على طَلَلي يَنْبُتُ الظلُّ أَخْضَرَ،
والذئبُ يغفو على شَعْرِ شاتي
ويحلُمْ مثلي،
ومثل الملاكْ
بأَنَّ الحياةَ هنا
لا هُناكْ...؛

□

الأَساطيرُ ترفضُ تَعْدِيلَ حَبْكَتها
رُبَّما مَسَّها خَلَلٌ طارىءٌ
رُبَّما جَنَحتْ سُفُنٌ نحو يابسةٍ
غيرِ مأهولةٍ،
فأُصيبَ الخياليُّ بالواقعيِّ...
ولكنها لا تُغَيِّر حَبْكَتَهَا.
كُلَّما وَجَدَتْ واقعاً لا يلائِمُها
عدَّلَتْهُ بجرَّافةٍ،
فالحقيقةُ جاريةُ النصّ، حَسْنَاءُ
بيضاءُ، من غير سُوء...

□

[إلى شبه مستشرق:] ليكُنْ ما تَظُنُّ
لنفترضِ الآن أني غبيٌّ، غبيٌّ، غبيٌّ
ولا ألعبُ الجولف،
لا أفهمُ التكنولوجيا،
ولا أستطيعُ قيادةَ طَيَّارةٍ!
ألهذا أخذتَ حياتي لتصنع منها حياتَكَ؟
لو كُنْتَ غيرَكَ، لو كُنْتُ غيري
كُلُّنا صديقَيْنِ يعترفانِ بحاجتنا للغباء...
أَما للغبيِّ، كما لليهوديّ في
«تاجر البندقية» قَلْبٌ، وخبزٌ
وعينانِ تغرورقان؟

□

في الحصار، يصيرُ الزمانُ مكاناً
تحجَّرَ في أبَدِهْ
في الحصار، يصيرُ المكانُ زماناً
تخَلَّفَ عن مَوْعِدِه

□

المكانُ هُوَ الرائحةْ
عندما أتذكَّرُ أَرضاً
أَشُمُّ دَمَ الرائحة
وأَحِنُّ إلى نَفْسِيَ النازحةْ

□

هذه الأرضُ واطئةٌ، عاليةْ
أَو مُقَدَّسَةٌ، زانيةْ
لا نُبالي كثيراً بفِقْهِ الصفاتِ
فقد يصبحُ الفَرْجُ،
فَرْجُ السمواتِ،
جغرافيةْ!

□

أَلشهيدُ يحاصرني كُلَّما عِشْتُ يوماً جديداً
ويسألني: أَين كُنْتَ؟
أَعِدْ للقواميس كُلَّ الكلام الذي
كُنْتَ أَهْدَيْتَنِيهِ،
وخفِّفْ عن النائمين طنينَ الصدى!

□

أَلشهيدُ يُوَضِّحُ لي: لم أُفتِّشْ وراء المدى
عن عذارى الخلود، فإني أُحبُّ الحياةَ
على الأرض، بين الصنوبر والتين، لكنني
ما استطعتُ إليها سبيلاً،
ففتَّشْتُ عنها بآخرِ ما أَملكُ:
الدمُ في جَسَدِ اللازوردْ

□

أَلشهيدُ يُعَلِّمني: لا جماليَّ خارجَ حُرِّيتي

□

أَلشهيدُ يُحذِّرني: لا تُصَدِّقْ زغاريدهُنَّ
وصدِّقْ أَبي حين ينظر في صورتي باكياً:
كيف بَدَّلْتَ أدوارنَا، يا بُنَيَّ،
وسِرْتَ أَمامي؟
أَنا أوّلاً
وأَنا أَوّلاً!

□

أَلشهيدُ يُحاصرُني: لم أغيِّرْ سوى مَوْقعي
وأثاثي الفقيرِ،
وَضَعْتُ غزالاً على مخدعي
وهلالاً على إصبعي
كي أُخفِّفَ من وَجَعي

□

أَلشهيدُ يحاصرني: لا تَسِرْ في الجنازةِ
إلاَّ إذا كُنْت تعرفُني.
لا أُريدُ مجاملةً من أحَدْ

□

سَيَشْتَدُّ هذا الحصارُ
ليُقْنِعَنا
باختيارِ عُبُوديَّةٍ لا تَضُرُّ،
ولكنْ بحريّةٍ كاملةْ

□

أَن تُقاوِمَ يعني: التأكُّدَ مِنْ
صحَّة القلبِ والخُصْيَتَيْنِ،
ومن دائِكَ المتأصِّلِ:
داءِ الأَملْ

□

وفي ما تبقّى من الفجر أَمشي إلى خارجي
وفي ما تبقّى من الليل أسَمعُ وَقْع الخُطى داخلي

□

إذا مَرِضَ الحُبُّ عالجتُهُ
بالرياضة والسخريةْ
وبفَصْل المُغنِّي عن.. الأُغنيةْ

□

أَلحصار يُحوّلني من مُغَنّ إلى...
وَتَرٍ سادس في الكمانْ

□

[إلى قارىء:] لا تثقْ بالقصيدةِ،
بِنْتِ الغياب،
فلا هِيَ حَدْسٌ
ولا هِيَ فكرٌ
ولكنها حاسَّة الهاويةْ

□

الكتابة جَرْوٌ صغيرٌ يَعَضُّ العَدَمْ
الكتابةُ تجرحُ من دون دَمْ

□

أصدقائي يُعِدُّون لي دائماً حَفْلَةً
للوداع، وقبراً مريحا يُظَلِّلُهُ السنديانُ
وشاهدةً من رُخام الزَمَنْ
فأسبقهم دائماً في الجنازةِ:
مَنْ ماتَ... مَنْ؟

□

ألشهيدةُ بنتُ الشهيدة بنتُ الشهيد
وأُختُ الشهيد وأختُ الشهيدة كِنّةُ
أمٍّ الشهيد حفيدةُ جدٍّ شهيد
وجارةُ عمِّ الشهيد [الخ... الخ...]
ولا شيء يحدُثُ في العالم المتمدِّنِ،
فالزمنُ البربريُّ انتهى،
والضحيَّةُ مجهولَةُ الإسم، عاديّةٌ
والضحيَّةُ.. مثل الحقيقة؟.. نسبيٌّةٌ
[الخ... الخ...]

□

هدوءاً، هدوءاً، فإن الجنودَ يريدون
في هذهِ الساعةِ الاستماعَ إلى الأغنياتِ
التي استَمَع الشُهدَاءُ إليها، وظلَّتْ
كرائحة البُنِّ في دَمِهِمْ... طازجَة

□

هُدْنَةً، هدنةً لاختبار التعاليم:
هل تصلحُ الطائراتُ محاريثَ؟
قُلْنا لهم: هدنةً، هدنةً لامتحان النوايا،
فقد يتسرَّبُ شيءٌ من السِلْم للنفس!
عندئذ نتبارى على حُبِّ أشيائنا
بوسائلَ شعريّةٍ.
فأجابوا: ألا تعلمون بأنَّ السلامَ مَعَ النَفْسِ
يفتحُ أَبوابَ قَلْعَتنا
لِمَقامِ الحجاز أَو النَهَوَنْد؟
فقلنا: وماذا؟... وبَعْد؟

□

فناجينُ قهوتنا. والعصافيرُ. والشَجَرُ الأَخضَرُ
الأزرقُ الظلِّ. والشمسُ تقفزُ من
حائط نحو آخَرَ مثلَ الغزالة...
والماءُ في السُحُبِ اللانهائيّة الشكلِ
في ما تبقَّى لنا من سماء،
وأشياءُ أُخرى مُؤَجَّلَةُ الذكريات
تدلُّ على أن هذا الصباح قويٌّ بهيٌّ،
وأَنَّا ضيوفٌ على الأَبديّةْ.

□

بلادٌ على أُهْبَة الفجرِ،
عمَّا قليلْ
تنامُ الكواكبُ في لُغَة الشِعْر.
عمَّا قليلْ
نودِّعُ هذا الطريقَ الطويلْ
ونسألُ: من أَين نبدأُ؟
عمَّا قليلْ
نُحذِّرُ نرجِسَنا الجبَليَّ الجميلْ
من الافتتان بصورتِهِ: لم تَعُدْ
صالحاً للقصيدةِ، فانظرْ
إلى عابرات السبيلْ

□

سلامٌ على مَنْ يُشَاطِرُني الانتباهَ إلى
نَشْوَةِ الضوء، ضوءِ الفراشةِ، في
لَيْل هٰذا النَفَقْ!

سلامٌ على مَنْ يُقَاسِمُني قَدَحي
في كثافة لَيْلٍ يفيضُ من المقعدَيْن:
سلامٌ على شَبَحي!

□

أَلسلامُ كلامُ المُسَافر في نَفْسِهِ
للمسافر في الجِهَةِ الثانِيَةْ...

أَلسلامُ حَمَامُ غَرِيبَيْنِ يقتسمان الهديلَ
الأخيرَ، على حافَّة الهاوِيةْ

□

أَلسلامُ حنينُ عَدُوَّين، كُلٌّ على حِدَةٍ
للتثاؤُبِ فوق رصيف الضَجَرْ

أَلسلامُ أَنينُ مُحبِّيْنِ يغتسلانِ
بضوء القَمَرْ

□

أَلسلامُ اعتذارُ القويِّ لمن هُوَ
أَضعفُ منه سلاحاً، وأَقوى مَدى

ألسلامُ انكسارُ السيوف أَمام الجمالِ
الطبيعيِّ، حيث يَفُلُّ الحديدَ الندى

□

أَلسلامُ نهارٌ أليفٌ، لطيفٌ، خفيفُ
الخُطَى، لا يُعَادي أَحَدْ

أَلسلامُ قَطارٌ يُوحِّدُ سُكَّانَهُ العائدينَ
أَو الذاهبينَ إلى نُزْهَةٍ في ضواحي الأَبَدْ

□

أَلسلامُ هو الاعترافُ، علانيّةً، بالحقيقةِ:
ماذا صَنَعْتُمْ بطيف القتيلْ؟

أَلسلامُ هُوَ الانصرافُ إلى عَمَلٍ في الحديقة:
ماذا سنزرَعُ عمَّا قليلْ؟

□

أَلسلامُ هُوَ الانتباهُ إلى الجاذبيَّةِ في
مُقْلَتَيْ ثَعْلَبٍ تُغْوِيان الغريزةَ في امرأةٍ خائفةْ

أَلسلامُ هُوَ الآه تُسْنِدُ مُرْتَفَعَاتِ
المُوَشَّحِ، في قلب جيتارةٍ نازفةْ

□

أَلسلامُ رثاءُ فتىً ثَقَبَتْ قلبَهُ شامَةُ
امرأةٍ، لا رَصاصٌ ولا قُنْبُلةْ

أَلسلامُ غناءُ حياةٍ هنا، في الحياةِ،
على وَتَر السُنْبُلَةْ

□

لماذا تركت
الحصان وحيداً

القصائد

III ـ فوضى على باب القيامة

IV ـ غرفة للكلام مع النفس

V ـ مطر فوق برج الكنيسة

VI ـ أغلقوا المشهد

إلى ذكرى الغائبين:

جَدّي: حسين

جَدَّتي: آمنة

وأَبي: سليم

وإلى الحاضرة:

حورية، أمي

أَرى شَبَحي
قادماً من بعيد...

أُطِلُّ كَشُرْفة بَيْتٍ، على ما أُريدْ
أُطِلُّ على أَصدقائي وهم يحملون بريدَ
المساء: نبيذاً وخبزاً،
وبعضَ الرواياتِ والأسطواناتْ ...

أُطلُّ على نَوْرَسٍ، وعلى شاحنات جُنُودْ
تُغَيِّرُ أَشجارَ هذا المكانْ.

أُطلُّ على كَلْبِ جاري المُهَاجرِ
مِنْ كَنَدا، منذ عامٍ ونصف...

أُطلُّ على اسم «أَبي الطَّيِّب المُتَنبِّي»،
المسافر من طبريَّا إلى مصر
فوق حصان النشيدْ

أُطلُّ على الوَرْدَةِ الفارسيَّةِ تصعَدُ
فوق سياج الحديدْ

أُطلُّ، كشُرْفَةَ بَيْتٍ، على ما أُريدْ

□

أُطلُّ على شَجَرٍ يحرُسُ الليل من نَفْسِهِ
ويحرس نَوْمَ الذين يُحبُّونني مَيِّتاً ...

أُطلُّ على الريح تبحَثُ عن وَطَن الريحِ
في نفسها ...

أُطِلُّ على امرأةٍ تَتَشَمَّسُ في نفسها ...

أُطلُّ على موكب الأنبياء القُدامى
وهم يَصْعَدُون حُفَاةً إلى أُورشليم
وأَسْأَلُ: هَلْ من نَبيٍّ جديدٍ
لهذا الزمان الجديدْ

□

أُطلُّ، كشرفة بيت، على ما أُريدْ

أُطلُّ على صورتي وَهْيَ تهرب من نفسها
إلى السُلَّم الحجريّ، وتحمل منديل أُمّي
وتخفق في الريح: ماذا سيحدث لو عُدْتُ
طفلاً؟ وعدتُ إليكِ ... وعدتِ إليَّ

أُطلُّ على جذع زيتونةٍ خبَّأَتْ زكريّا
أُطلُّ على المفردات التي انقَرَضَتْ في «لسان العربْ»

أُطلُّ على الفُرْس، والرومِ، والسومريّين،
واللاجئينَ الجُدُدْ ...

أُطلُّ على عِقْد إحدى فقيراتِ طاغورَ
تطحنُهُ عَرَبَاتُ الأَمير الوسيمْ ...

أُطلُّ على هُدْهُدٍ مُجْهَدٍ من عتاب الملكْ

أُطلُّ على ما وراء الطبيعة:

ماذا سيحدث... ماذا سيحدث بعد الرماد؟

أُطلُّ على جَسَدي خائفاً من بعيدْ ...
أُطلُّ كَشُرْفَةِ بيتٍ، على ما أُريدْ

□

أُطلُّ على لُغَتي بَعْدَ يَوْمَيْنْ. يكفي غيابٌ

قليلٌ ليفتَحَ أَسْخِيلْيُوسُ البابَ للسِلْمِ،
يكفي
خطابٌ قصير ليُشعل أنطونيو الحرب
يَدُ امرأةٍ في يدي
كي أُعانق حُريَّتي
وأن يبدأ المدُّ والجزْرُ في جَسَدي من جديدْ

□

أُطلُّ، كشرفة بَيْتٍ، على ما أُريدْ

أُطلُّ على شَبَحي
قادماً
من
بعيد...

I

أَيقونات من بلَّوْرِ المكان

في يدي غيمة

أَسْرَجُوا الـخَيْلَ،
لا يعرفون لماذا،
ولكنَّهُمْ أَسْرَجوا الخيلَ في السهلِ

□

... كان المكانُ مُعَدّاً لِـمَوْلِدِه: تلَّةً
من رياحين أَجدادِه تَتَلَفَّتُ شرقاً وغرباً. وزيتونةً
قُرْبَ زيتونةٍ في الـمَصَاحف تُعْلي سُطُوحَ اللُّغَةْ...
ودخاناً من اللازَوَرْدِ يُؤَثِّثُ هذا النهارَ لمسْأَلةٍ

لا تخصُّ سوى الله. آذارُ طفلُ
الشهور الـمُدَلَّلُ. آذارُ يندفُ قطناً على شَجَر
اللَوْز. آذارُ يُولِـمُ خبّيزةً لِفناء الكنيسةِ.
آذارُ أَرضٌ لِلَيْلِ السُنُونو، ولامرأةٍ
تَسْتَعدُّ لصرخَتها في البراري ... وتمتدُّ في شَجَر السنديانْ.

□

يُولَدُ الآنَ طفلٌ،
وصرختُهُ،
في شقوق المكانْ

□

إِفترَقْنا على دَرَج البيت. كانوا يقولونَ:
في صرختي حَذَرٌ لا يُلائِمُ طَيْشَ النباتاتِ،
في صرختي مَطَرٌ؛ هل أَسأتُ إلى إخوتي
عندما قلتُ إني رأيتُ ملائكةً يلعبون مع الذئب
في باحة الدار؟ لا أَتذكَّرُ

أَسماءَهُمْ. ولا أَتذكَّرُ أَيضاً طريقَتَهُمْ في
الكلام ... وفي خفَّة الطيرانْ

أَصدقائي يرفّون ليلاً، ولا يتركونْ
خَلْفَهُمْ أَثَراً. هل أَقولُ لأُمِّي الحقيقة:
لِيْ إِخوةٌ آخرونْ
إخوةٌ يَضَعُونَ على شرفتي قمراً
إخوةٌ ينسجون بإبرتهم معطفَ الأُقحوانْ

□

أَسْرَجُوا الخيلَ،
لا يعرفون لماذا،
ولكنهم أَسرجوا الخيل في آخر الليلِ

□

... سَبْعُ سَنَابِلَ تكفي لمائدةِ الصَيْفِ.
سَبْعُ سَنَابِلَ بين يدي. وفي كل سُنْبُلةٍ
يُنْبِتُ الحقلُ حقلاً من القمح. كانَ

أَبي يَسْحَبُ الماءَ من بئرِهِ ويقولُ
لَهُ: لا تجفَّ. ويأخذني من يَدِيْ
لأَرى كيف أكبُرُ كالفَرْفَحِينَةِ ...
أَمشي على حافَّة البئر: لِيْ قَمَرانْ
واحدٌ في الأعالي
وآخرُ في الماء يسبَحُ ... لِيْ قمرانْ

□

واثِقينَ، كأسلافِهِمْ، من صَوَابِ
الشرائع ... سَكُّوا حديدَ السيوفِ
محاريثَ. لن يُصْلِحَ السيفُ ما
أَفْسَدَ الصَيْفُ ـ قالوا. وصَلُّوا
طويلاً. وغنّوا مدائحهُمْ للطبيعةِ ...
لكنهم أَسرجوا الخيل،
كي يَرْقُصُوا رَقْصَةَ الخيلِ،
في فضَّة الليل ...

□

تَجرحُني غيمةٌ في يدي: لا

أُريدُ من الأرض أكثَرَ مِنْ
هذه الأرضِ: رائحةِ الهالِ والقَشِّ
بين أَبي والحصانْ.
في يدي غَيْمةٌ جرَحَتْني. ولكنني
لا أُريدُ من الشمس أَكثرَ
من حَبَّة البرتقال وأكثرَ منْ
ذَهَبٍ سال من كلمات الأَذانْ

□

أَسْرَجُوا الخَيْلَ،
لا يعرفون لماذا،
ولكنهُمْ أسرجوا الخيل
في آخر الليل، وانتظروا
شَبَحاً طالعاً من شُقُوق المكانْ...

قرويُّون، منْ غَيْرِ سُوء..

لم أَكُنْ بَعْدُ أَعرف عاداتِ أُمِّي، ولا أَهلَها
عندما جاءتِ الشاحناتُ من البحر. لكنّني
كُنْتُ أَعرفُ رائحةَ التبغ حول عباءة جدِّي
ورائحةَ القهوةِ الأبديّة، منذ وُلدتُ
كما يُولَدُ الحَيَوانُ الأليفُ هُنا
دفعةً واحدةْ!

○

نحن أَيضاً لنا صَرْخَةٌ في الهبوط إلى حافَّةِ
الأرضِ. لكننا لا نُخَزِّنُ أَصواتنا
في الجرارِ العتيقةِ. لا نشنق الوَعْلَ
فوق الجدار، ولا ندَّعي مَلكُوتَ الغبارِ،
وأَحلامُنا لا تُطِلُّ على عِنَبِ الآخرين،
ولا تَكْسِرُ القاعدةْ!

○

لم يكن بعدُ لاسميَ ريشٌ فأقفز أَبعَدَ
بعد الظهيرةِ. كانت حرارةُ أبريلَ مثل
ربابات زوّارنا العابرين تطيِّرنا كالحماماتِ.
لي جَرَسٌ أَوَّلٌ: جاذبيَّةُ أُنثى تراوغني
لأشمَّ الحليبَ على ركبتيها، فأهرب
من لَسْعة المائدةْ!

○

نحن أَيضاً لنا سرُّنا عندما تقع الشمسُ
عن شجر الحَوْرِ: تخطفُنا رغبةٌ في البكاء

على أَحدٍ مات من أَجل لا شيء ماتَ،
وتجرفنا صَبْوةٌ لزيارة بابلَ أَو جامعٍ
في دمشقَ، وتذرفُنا دمعةٌ من هديلِ
اليمامات في سيرة الوجع الخالدةْ!

○

قرويُّون، من غير سوءٍ، ولا نَدَمٍ
في الكلام. وأسماؤنا مثل أَيَّامنا تتشابَهُ،
أَسماؤنا لا تدلُّ علينا تماماً. ونَنْدَسُّ
بين حديث الضيوف. لَنَا ما نَقُولُ عَنِ
الأرض للأجنبيَّة حين تُطرِّزُ منديلَها ريشةً
ريشةً من فضاء عاصفيرنا العائدةْ!

○

لم تكن للمكانِ مساميرُ أَقوى من الزنزلختْ
عندما جاءتِ الشاحناتُ من البحر. كنا
نُهيِّيءُ وجبةَ أَبقارنا في حظائرها، ونرتِّبُ
أَيَّامَنا في خزائن من شُغْلنا اليدويِّ

ونخطب وُدَّ الحصان، ونُومىءُ
للنجمة الشاردةْ.

○

نحن أَيضاً صعدنا إلى الشاحنات. يُسَامِرُنا
لَمَعانُ الزُمُرُّدِ في لَيْلِ زَيْتُونِنا، ونُباحُ
كلابٍ على قَمَرٍ عابرٍ فوق بُرْجِ الكنيسةِ،
لكننا لم نكن خائفين. لأن طفولتنا لم
تجىءْ معنا. واكتفينا بأغنية: سوف نرجع
عمَّا قليل إلى بيتنا... عندما تُفْرِغُ الشاحناتُ
حُمُولَتَها الزائدةْ!

لَيْلَة البُوم

ههُنا حاضرٌ لا يلامسُهُ الأمسُ...
حين وَصَلْنا
إلى آخرِ الشَجَرات انتبهنا إلى أَننا
لم نَعُدْ قادرينَ على الانتباهِ. وحين
التفَتْنَا إلى الشاحنات رأينا الغيابَ
يُكَدِّسُ أَشياءه المُنْتَقَاةَ، وينصبُ
خيمَتَهُ الأبديَّةَ من حولنا...

□

هَهُنا حاضرٌ
لا يلامسه الأمسُ،
ينسَلُّ من شَجَر التوت خيطُ الحرير
حروفاً على دفتر الليل. لا شيءَ
غيرَ الفَراش يُضيء جَسَارتَنا في
النُزولِ إلى حُفْرَة الكلمات الغريبةِ:
هل كان هذا الشقيُّ أَبي؟
ربما أَتدبَّرُ أَمْرِي هنا. ربما
أَلِدُ الآن نفسيْ بنفسي،
وأَختارُ لاسمي حروفاً عموديَّة...

□

هَهُنا حاضرٌ
جالسٌ في خلاء الأواني يُحَدِّقُ
في أَثَر العابرين على قَصَب النهر،
يصقُلُ ناياتِهم بالهواء... لعلَّ الكلام
يشفُّ فنبصر فيه النوافذَ مفتوحةً،
ولعلَّ الزمان يحثُّ الخطى معنا

حاملاً غَدَنا في حقائبِهِ ...

□

هٰهُنا حاضرٌ
لا زمانَ لَهُ،
لم يَجِدْ أَحَدٌ، ههُنا، أَحداً يتذكَّرُ
كيف خرجنا من الباب، ريحاً، وفي
أيِّ وقتٍ وَقَعْنا عن الأمس فانكسَرَ
الأمسُ فوق البلاط شظايا يُرَكِّبها
الآخرون مرايا لِصُورَتِهِمْ بعدنا ...

□

ههُنا حاضرٌ
لا مكانَ له،
رُبَّما أَتدبَّر أَمري، وأَصرخ في
ليلة البُوم: هل كان ذاك الشقيُّ
أَبي، كي يُحَمِّلني عبءَ تاريخِهِ؟
ربما أَتغيَّرُ في اسمي، وأَختارُ
أُلفاظَ أُمِّي وعاداتها مثلما ينبغي

أن تكون: كَأَنْ تستطيع مُدَاعَبتي
كُلَّما مسَّ ملحٌ دمي، وكأن تستطيع
معالجتي كلما عَضَّني بلبلٌ في فمي!

□

ههُنا حاضرٌ
عابرٌ،
ههُنا علَّقَ الغُرَباءُ بنادِقَهُمْ فَوْقَ
أَغصان زَيْتُونَةٍ، وأَعدُّوا عشاءً
سريعاً من العِلَبِ المعدنيَّة، وانطلقوا
مسرعين إلى الشاحنات...

أَبَدُ الصُّبَّار

إلى أَين تأخُذُني يا أَبي؟
إلى جِهَةِ الريحِ يا وَلَدي...

... وَهُما يَخْرُجانِ مِنَ السَهْلِ، حَيْثُ
أَقام جنودُ بونابرتَ تلاًّ لِرَصْدِ
الظلال على سور عَكَّا القديم –
يقولُ أَبٌ لابنِهِ: لا تَخَفْ. لا
تَخَفْ من أَزيز الرصاص! التصِقْ
بالتراب لتنجو! سننجو ونعلو على

جَبَلٍ في الشمال، ونرجعُ حين
يعود الجنودُ إلى أهلهم في البعيد

ــ ومن يسكُنُ البَيْتَ من بعدنا
يا أَبي؟
ــ سيبقى على حاله مثلما كان
يا ولدي!

تَحَسَّسَ مفتاحَهُ مثلما يتحسَّسُ
أَعضاءه، واطمأنَّ. وقال لَهُ
وهما يعبران سياجاً من الشوكِ:
يا ابني تذكَّرْ! هنا صَلَبَ الإنجليزُ
أَباك على شَوْك صُبَّارة ليلتين،
ولم يعترف أَبداً. سوف تكبر يا
ابني، وتروي لمن يَرِثُون بنادِقَهُمْ
سيرةَ الدم فوق الحديد ...

ــ لماذا تركتَ الحصان وحيداً؟

ــ لكي يُؤْنسَ البيتَ، يا ولدي،
فالبيوتُ تموتُ إذا غاب سُكَّانُها...

تفتحُ الأبديَّةُ أَبوابها، من بعيد،
لسيَّارة الليل. تعوي ذئابُ
البراري على قَمَرٍ خائفٍ. ويقولُ
أَبٌ لابنه: كُنْ قوياً كجدِّك!
واصعَدْ معي تلَّة السنديان الأخيرةَ
يا ابني، تذكَّرْ: هنا وقع الإنكشاريُّ
عن بَغْلَةِ الحرب، فاصمُدْ معي
لنعودْ

ــ متى يا أَبي؟
ــ غداً. ربما بعد يومين يا ابني!

وكان غَدٌ طائشٌ يمضغ الريح
خلفهما في ليالي الشتاء الطويلةْ.
وكان جنودُ يُهُوشُعَ بن نونِ يبنون

قَلْعَتَهُمْ من حجارة بيتهما. وهما
يلهثان على درب «قانا»: هنا
مرَّ سيِّدُنا ذاتَ يومٍ. هنا
جَعَلَ الماءَ خمراً. وقال كلاماً
كثيراً عن الحبِّ، يا ابني تذكّر
غداً. وتذكّرْ قلاعاً صليبيَّةً
قَضَمَتْها حشائشُ نيسان بعد
رحيل الجنود...

كم مَرَّة ينتهي أمرُنا...

يتأمَّلُ أيَّامَهُ في دخان السجائر،
ينظُرُ في ساعة الـجَيْب:
لو أَستطيع لأبطأتُ دَقَّاتها
كي أُؤَخِّر نُضْجَ الشعير!...
ويخرج من ذاته مرهقاً نزقاً:
جاء وقتُ الحصادْ
أَلسنابلُ مثقلةٌ، والمناجلُ مهملةٌ، والبلادْ
تَبْعُدُ الآنَ عن بابها النبويِّ.
يُحَدِّثُني صَيْفُ لبنانَ عن عِنَبي في الجنوب

يُحَدِّثُني صَيْفُ لبنانَ عمَّا وراء الطبيعةِ
لكن دربي إلى الله يبدأ
من نَجْمَةٍ في الجنوب...

ــ هل تُكَلِّمُني يا أَبي؟
ــ عقدوا هُدْنَةً في جزيرة رودوس،
يا ابني!
ــ وما شأننا نحن، ما شأننا يا أبي؟
ــ وانتهى الأمرُ...
ــ كم مرّة ينتهي أَمرُنا يا أَبي؟
ــ إنتهى الأمر. قاموا بواجبهم:
حاربوا ببنادقَ مكسورةٍ طائرات العدوّ.
وقمنا بواجبنا، وابتعدنا عن الزَنْزَلَخْتِ
لئلاّ نُحرِّكَ قُبَّعَةَ القائد العسكريّ.
وبعنا خواتم زوجاتنا ليصيدوا العصافير
يا ولدي!

ــ هل سنبقى، إذاً، ههنا يا أبي

تحت صفصافة الريح
بين السموات والبحر؟

ـ يا ولدي! كُلُّ شيء هنا
سوف يُشْبِهُ شيئاً هناك
سنُشْبِهُ أنفُسَنا في الليالي
ستحرقنا نجمة الشَّبَه السرمديَّةُ
يا ولدي!

ـ يا أَبي، خفِّف القولَ عَنِّي!
ـ تركتُ النوافذَ مفتوحةً
لهديل الحمامْ
تركتُ على حافَّة البئر وجهي
تركتُ الكلامْ
على حَبْلهِ فوق حبل الخزانةِ
يحكي، تركتُ الظلامْ
على ليلهِ يتدثَّرُ صُوفَ انتظاري
تركت الغمامْ

على شجر التين ينشر سِرْوالَهُ
وتركتُ المنامْ
يُجدِّد في ذاتِهِ ذاتَهُ
وتركتُ السلام
وحيداً، هناك على الأرض...

ــ هل كُنْتَ تحلُمُ في يَقْظَتي يا أَبي؟
ــ قُمْ. سَنَرْجِعُ يا ولدي!

إلى آخري
وإلى آخره ...

ــ هل تَعِبْتَ من المشي
يا وَلَدي، هل تعبتْ؟
ــ نَعَمْ، يا أَبي
طال ليلُكَ في الدربِ،
والقلبُ سال على أَرض لَيْلِكَ
ــ ما زِلْتَ في خفَّة القطِّ
فاصْعَدْ إلى كتفيَّ،
سنقطع عمَّا قليلْ

غابة البُطْم والسنديان الأخيرةَ
هذا شمالُ الجليلْ
ولبنانُ من خلفنا،
والسماءُ لنا كُلُّها من دمشقَ
إلى سور عكا الجميلْ
ــ ثم ماذا؟
ــ نعود إلى البيت
هل تعرف الدرب يا ابني
ــ نعم، يا أَبي:
شرقَ خرّوبَةِ الشارع العامِّ
دربٌ صغيرٌ يَضِيقُ بِصُبَّارِه
في البداية، ثم يسير إلى البئرِ
أَوْسَعَ أَوْسَعَ، ثم يُطِلُّ
على كَرْمِ عَمِّي «جميلْ»
بائعِ التبغ والـحَلَوِيَّات،
ثم يضيعُ على بَيْدَرٍ قبل
أَن يستقيمَ ويَجلِس في البيت،
في شكل بَبْغَاءَ،
ــ هل تعرف البيتَ، يا ولدي

ــ مثلما أَعرف الدرب أَعرفُهُ:
ياسمينٌ يُطوِّقُ بوَّابةً من حديد
ودعساتُ ضوءٍ على الدرج الحجريِّ
وعبَّادُ شمسٍ يُحَدِّقُ في ما وراء المكان
ونحلٌ أليفٌ يُعِدُّ الفطور لجدِّي
على طبق الخيزران،
وفي باحة البيت بئرٌ وصفصافةٌ وحصانْ
وخلف السياج غدٌ يتصفَّحُ أَوراقنا...

ــ يا أَبي، هل تَعِبْت
أَرى عرقاً في عيونكَ؟
ــ يا ابني تعبتُ ... أَتحمِلُني؟
ــ مثلما كنتَ تحملني يا أَبي،
وسأحمل هذا الحنين
إلى
أَوَّلي وإلى أوَلِهْ
وسأقطع هذا الطريق إلى
آخري ... وإلى آخِرِهْ!

II

فضاءُ هابيل

عُودُ إسماعيل

فَرَسٌ على وَتَريْنِ ترقُصُ ـــ هكذا
تُصغي أَصابِعُهُ إلى دَمِهِ، وتنتشرُ القُرى
كشقائقِ النعمانِ في الإيقاعِ. لا
لَيْلٌ هناك ولا نهارٌ. مَسَّنا
طربٌ سَمَاويٌ، وهَرْوَلَتِ الجهاتُ إلى
الهيولى
هَلِّلويا،
هَلِّلويا،
كُلُّ شيء سوف يبدأ من جديدِ

□

هُوَ صاحِبُ العُود القديمِ، وجارُنا
في غابة البَلُّوط. يحمل وقتَهُ مُتَخَفّياً
في زيٍّ مَجْنونٍ يُغَنِّي. كانتِ الحربُ انتهتْ
ورمادُ قريتنا اختفى بسحابةٍ سوداءَ لم
يُولَدْ عليها طائرُ الفينيق بَعْدُ، كما
تَوَقَّعْنا، ولم تَنْشَفْ دماءُ الليل في
قُمْصانِ موتانا. ولم تطلع نباتاتٌ، كما
يَتَوَقَّعُ النسيانُ، في خُوَذ الجنودِ
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كلُّ شيءٍ سوف يبدأ من جديدِ

□

كَبَقِيَّةِ الصحراء، يَنْحَسِرُ الفضاءُ عن الزمانِ
مسافةً تكفي لتنفجرَ القصيدةُ. كان إسماعيلُ
يهبط بيننا، ليلاً، ويُنشدُ: يا غريبُ،
أَنا الغريبُ، وأَنت منِّي يا غريبُ! فترحَلُ
الصحراءُ في الكلمات. والكلماتُ تُهْمِلُ قُوَّةَ

الأشياءِ: عُدْ يا عُودُ... بالمفقودِ واذبحْني
عَلَيْهِ، من البعيد إلى البعيدِ
هَلِّلويا
هللويا،
كُلّ شيء سوف يبدأ من جديد

□

يتحرَّكُ المعنى بنا ... فنطيرُ من سَفْحٍ إلى
سَفحٍ رُخَاميّ. ونركُضُ بين هاوِيَتَيْنِ زَرْقاوينِ.
لا أَحلامُنا تصحو، ولا حَرَسُ المكانِ
يغادرون فضاءَ إسماعيلَ. لا أَرضٌ هناك
ولا سماءٌ. مَسَّنا طربٌ جَمَاعيٌّ أمامَ
البَرْزَخ المصنوع مِنْ وتَرَيْن. إسماعيلُ... غَنِّ
لنا ليصبح كُلَّ شيءٍ مُمْكِناً قُرْبَ الوجودِ
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كُلُّ شيءٍ سوف يبدأ من جديدِ

□

في عُودِ إسماعيلَ يرتفعُ الزَّفَافُ السُّومَرِيُّ
إلى أَقاصي السَّيْفِ. لا عَدَمٌ هناك
ولا وجودٌ. مَسَّنا شَبَقٌ إلى التَّكْوين:
من وَتَرٍ يسيلُ الماءُ. من وَتَريْنِ يندلعُ
اللهيبُ. ومن ثَلاثَتِهِمْ تَشعُّ المرأة /الكون/
التجلِّي. غَنِّ إسماعيلُ للمَعْنَى يُحَلِّقْ طائرٌ
عند الغروب على أَثينا بين تاريخين...
غَنِّ جنازةً في يوم عِيدِ!
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كُلُّ شيء سوف يبدأ من جديدِ

□

تَحْتَ القصيدةِ: تعبُرُ الخيلُ الغريبةُ. تعبُرُ
العرباتُ فوق كواهل الأَسرى. ويعبُرُ تحتها
النسيانُ والهكسوسُ. يعبرُ سادةُ الوقتِ،
الفلاسفةُ، امرؤُ القيسِ الحزينُ على غَدٍ
مُلْقىً على أبواب قيصَرَ. يعبرون جميعُهُمْ تحت

القصيدةِ. يعبُرُ الماضي الـمُعَاصِرُ مثل تَيْمُورْلَنْكَ
يعبُرُ تحتها. والأنبياءُ هناك أيضاً يعبرون
ويُنصِتون لصوتِ إسماعيلَ يُنْشِدُ: يا غريبُ،
أَنا الغريبُ، وأنت مثلي يا غريبَ الدار،
عُدْ ... يا عُودُ بالمفقودِ، واذبَحْني عَلَيْكَ
من الوريد إلى الوريدِ
هَلِّلويا
هَلِّلويا،
كُلُّ شيءٍ سوف يبدأ من جديدِ

نُزْهَةُ الغُرَباء

أَعرفُ البَيْتَ من خُصْلَة الـمَرْيَمِيَّةِ. أُولى
النوافذ تَجنحُ نحو الفراشاتِ... زرقاءَ...
حمراءَ. أَعرف خطَّ السحاب وفي أيِّ
بئرٍ سَيَنْتَظِرُ القُرَوِيَّاتِ في الصيف. أَعرفُ
ماذا تقولُ الحمامةُ حين تبيضُ على فُوهَةِ
البندقيَّةِ. أَعرفُ مَنْ يفتح البابَ للياسمينةِ
وهي تفتِّح أَحلامنا لضيوف المساءْ...

□

لم تَصِلْ بعد مَرْكَبَةُ الغرباءْ

□

لم يَصِلْ أَحَدٌ. فَاترُكيني هناك كما
تتركين التحيَّة في مدخل البيت. ليْ أو
لغيري، ولا تحفلين بمن سوف يسمعها
أَوَّلاً. واتركيني هناك كلاماً لنفسيَ:
هل كنتُ وحدي «وحيداً كما الروحُ في
جَسَدٍ»؟ عندما قلتِ يوماً: أُحبُّكما،
أَنتَ والماء. فالتمَعَ الماءُ في كُلِّ شيء،
كجيتارةٍ تركت نفسها للبكاءْ!

□

لم تصلْ بعد جيتارة الغُرَباءْ

□

فلنَكُنْ طيّبين! خُذيني إلى البحر عند
الغروب، لأسمع ماذا يقولُ لكِ البحرُ

حينَ يعودُ إلى نفسه هادئاً هادئاً.
لن أُغيِّر ما بي. سأندسُّ في مَوْجَةٍ
وأقولُ: خُذيني إلى البحر ثانيةً. هكذا
يفعلُ الخائفون بأَنفسهِم: يذهبون إلى
البحرِ حين تعذِّبهم نجمةٌ أَحْرَقَتْ نفسها في السماءْ

□

لم تصل بعد أغنيةُ الغرباءْ

□

أَعرف البيت من خَفَقان المناديل. أُولى
الحمامات تبكي على كتفيَّ. وتحت سماءِ
الأناجيلِ يركضُ طفلٌ بلا سَبَبٍ. يَرْكُضُ
الماءُ، والسروُ يركضُ، والريحُ تركُضُ في
الريحِ، والأرضُ تركُضُ في نفسها. قلتُ:
لا تُسرعي في الخروج من البيت... لا
شيءَ يمنَعُ هذا المكانَ من الانتظار قليلاً
هنا، ريثما ترتدين قميصَ النهار، وتنتعلين

حذاء الهواءْ

□

لم تصل بعد أُسطورةُ الغرباءْ...

□

لم يصلْ أَحَدٌ. فاتركيني هناك كما
تتركين الخُرافَةَ في أَيِّ شخصٍ يراكِ، فيبكي
ويركض في نفسه خائفاً من سعادتِهِ:
كم أُحبُّكِ، كم أَنتِ أَنتِ! ومِنْ رُوحِهِ
خائفاً: لا أَنا الآن إلاّ هِيَ الآن فيَّ.
ولا هِي إلاّ أَنا في هشاشتها. كم أَخافُ
على حُلْمي أَن يرى حُلُماً غيرَها في
نهايةِ هذا الغناءْ ...

□

لم يصل أَحَدٌ
ربما أَخطأ الغرباءُ الطريقَ
إلى نُزْهَةِ الغرباء!

حبْـرُ الغراب

لَكَ خَلْوةٌ في وَحْشة الخرّوب، يا
جَرَسَ الغُروب الداكنَ الأصواتِ! ماذا
يطلبون الآن منكَ؟ بَحثتَ في
بُستانِ آدمَ، كي يوارِي قاتلٌ ضَجِرٌ أَخاهُ،
وانغلقتَ على سوادِكَ
عندما انفَتَحَ القتيلُ على مَدَاهُ،
وانصرَفْتَ إلى شُؤونكَ مثلما انصرفَ الغيابُ
إلى مشاغله الكثيرة. فلتَكُنْ
يَقِظاً. قيامتُنا سَتُرْجَأُ يا غرابُ!

□

لا لَيْلَ يكفينا لنحلُمَ مَرَّتَين. هناكَ بابُ
واحدٌ لسمائنا. من أَين تأتينا النهايةُ؟
نحن أَحفادَ البدايةِ. لا نَرَى
غَيْرَ البداية، فاتَّخِذْ بمهبِّ لَيْلِكَ كاهناً
يَعِظُ الفراغُ بما يُخَلِّفُهُ الفراغُ الآدمِيُّ
من الصدى الأبديِّ حولكَ ...
أَنتَ مُتَّهَمٌ بما فينا. وهذا أَوَّلُ
الدَّمِ من سُلاَلَتِنا أَمامَكَ، فابتعدْ
عن دار قابيلَ الجديدةِ
مثلما ابتعَدَ السرابُ
عن حِبْرِ رِيشكَ يا غرابُ

□

لِيَ خلْوَةٌ في ليل صوتكَ... لي غيابُ
راكضٌ بين الطلال يشدُّني
فأشدُّ قَرْنَ الثور. كان الغَيْبُ يدفعني أَدفعُهُ
ويرفعُني وأرفعُهُ إلى الشَّبَح المُعَلّقِ مثل
باذنجانةٍ نَضَجَتْ. أَأَنت إذاً؟ فماذا

يطلبون الآن منّا بعدما سرقوا كلامي من
كلامك، ثم ناموا في منامي واقفينَ
على الرماح. ولم أَكُنْ شَبَحاً لكي يمشوا
خُطَايَ على خُطايَ. فكُنْ أَخي الثاني،
أَنا هابيلُ، يُرْجِعُني الترابُ
إليكَ خَرُّوباً لتجلسَ فوق غُصني يا غرابُ

□

أَنا أَنتَ في الكلمات. يجمعنا كتابُ
واحدٌ. ليْ ما عَلَيْكَ من الرماد، ولم
نَكُنْ في الظلِّ إلاّ شاهِدَيْنِ ضحيَّتَيْنِ
قصيدتينِ
قصيرتينِ
عن الطبيعة، ريثما يُنْهي وليمَتُه الخرابُ

□

ويضيئك القرآنُ:
﴿فَبَعَثَ اللّهُ غراباً يبحث في الأرض

لِيُريَهُ كيف يواري سوءة أخيه، قال:
يا ويلتي أَعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾
ويضيئك القرآنُ،
فابحثْ عن قيامتنا، وحَلِّق يا غُرَابُ!

سنونو التتار

على قَدْرِ خَيْلي تكونُ السماءُ. حَلُمْتُ
بما سوف يحدُثُ بعد الظهيرة. كان التتارُ
يسيرون تحتي وتحت السماء، ولا يحلمون
بشيء وراء الخيام التي نصبوها. ولا يعرفون
مصائرَ ماعِزِنا في مهبِّ الشتاء القريب.
على قدر خَيْلي يكون المساء. وكان التتارُ
يَدُسُّون أَسماءَهُمْ في سقوف القرى كالسنونو،
وكانوا ينامون بين سنابلنا آمنين،
ولا يحلمون بما سوف يحدث بعد الظهيرة، حين

تعودُ السماءُ، رُوَيْداً رُوَيْداً،
إلى أهلها في المساءْ

□

لنا حُلُمٌ واحد: أَن يمرَّ الهواءْ
صديقاً، وينشُرَ رائحةَ القهوةِ العربيّةِ
فوق التلال المحيطة بالصيف والغرباءْ ...

□

أَنا حُلُمي. كُلَّما ضاقت الأرضُ وَسَّعْتُها
بجناح سُنُونُوَّةٍ واتسعْتُ. أَنا حُلُمي...
في الزحام امتلأتُ بمرآة نفسي وأَسئلتي
عن كواكب تمشي على قَدَمَيْ مَنْ أُحبُّ
وفي عزلتي طُرُقٌ للحجيج إلى أُورشليم ـــ
الكلام الـمُنَتَّف كالريش فوق الحجارة،
كَمْ مِنْ نَبِيٍّ تريد المدينةُ كي تحفظ اسم
أَبيها وتندم: «من غير حرب سَقَطْتُ»؟
وكم من سماءٍ تُبَدِّل، في كل شَعْبٍ،

ليعجبَها شالُها القرمزيُّ؟ فيا حُلُمي ...
لا تُحدِّقْ بنا هكذا!
لا تَكُنْ آخِرَ الشُّهداء!

□

أَخافُ على حُلُمي من وضوح الفراشةْ
ومن بُقَعِ التوت فوق صهيل الحصان
أَخافُ عَلَيْهِ من الأب والابن والعابرينْ
على ساحل الأبيض المتوسِّط بحثاً عن الآلهة
وعن ذَهَب السابقين،
أَخاف على حُلُمي من يديَّ
ومن نجمةٍ واقفة
على كتفي في انتظار الغناء

□

لنا، نحن أَهْلَ الليالي القديمة، عاداتُنا
في الصعودِ إلى قَمَر القافيةْ
نُصَدِّقُ أحلامَنا ونكذِّبُ أيَّامَنا،

فأيَّامُنا لم تكن كُلُّها معنا منذ جاء التتارُ،
وها هم يُعِدُّون أنفسهم للرحيلِ
وينسون أَيَّامَنا خَلْفَهُمْ، وسنهبط عما قليل
إلى عمرنا في الحقول. ونصنع أَعلامنا
من شراشِفَ بيضاءَ، إنْ كانَ لا بُدَّ
من عَلَمٍ، فليكُنْ هكذا عارياً
من رُمُوزٍ تُـجَعِّدُهُ ... ولنكُنْ هادئين
لئلاّ نُطَيِّرَ أَحلامَنا خلف قافلة الغرباء

□

لنا حُلُم واحد: أَن نَجِدْ
حُلُماً كان يحملنا
مثلما تحملُ النجمةُ الميتين!

مَـرَّ القطار

مَرَّ القطارُ سريعاً،
كُنْتُ أنتظرُ
على الرصيف قطاراً مَرَّ،
وانصرَفَ الـمُسافرونَ إلى
أَيَّامِهِمْ ... وأَنا
ما زلتُ أَنتظرُ

○

تبكي الكمنجاتُ عن بُعْدٍ،

فتحملني
سحابةٌ من نواحيها
وتنكسرُ

○

كان الحنينُ إلى أشياءَ غامِضَةٍ
يَنْأَى ويَدْنُو،
فلا النسيانُ يُقْصيني،
ولا التذكُّرُ يدنيني
من امرأة
إن مَسَّها قمرٌ
صاحَتْ: أَنا القَمَرُ

○

مَرَّ القطارُ سريعاً،
لم يكن زَمَني
على الرصيف معي،
فالسَّاعةُ اختلفتْ

ما الساعةُ الآن؟
ما اليومُ الذي حَدَثَتْ
فيه القطيعةُ بين الأمس والغدِ
لَمَّا هاجر الغَجَرُ؟

○

هنا وُلدتُ ولم أُولَدْ
سيُكْمِلُ ميلادي الحَرُونَ إذاً
هذا القطارُ
ويمشي حوليَ الشَّجَرُ

○

هنا وُجدتُ ولم أُوجَدْ
سأعثُرُ في هذا القطارِ
على نفسي التي امتلأتْ
بضفّتينِ لنهرٍ مات بينهما
كما يموتُ الفتى
«ليت الفتى حَجَرُ ...»

○

مَرَّ القطارُ سريعاً
مَرَّ بي، وأَنا
مثل المحطَّة، لا أَدري
أُودِّعُ أَم أستقبلُ الناسَ:
أَهلاً، فوق أَرصفتي
مقهى،
مكاتبُ،
وردٌ
هاتفٌ،
صُحُفٌ
وسندويشاتٌ،
وموسيقى،
وقافيةٌ
لشاعرٍ آخرٍ يأتي وينتظرُ

○

مَرَّ القطار سريعاً
مَرَّ بي، وأَنا
ما زلتُ أَنتظرُ

III

فوضى على باب القيامة

www.alkottob.com

البئر

أَختارُ يوماً غائماً لأَمُرَّ بالبئر القديمةِ.
رُبّما امتلأتْ سماءً. رُبَّما فاضَتْ عن المعنى وَعَنْ
أُمْثُولةِ الراعي. سأشربُ حفنةً من مائها.
وأَقولُ للموتى حوالَيْها: سلاماً، أَيُّها البَاقونَ
حول البئر في ماءِ الفراشةِ! أَرفَعُ الطَيُّونَ
عن حَجَرٍ: سلاماً أَيها الحَجَرُ الصغيرُ! لعلَّنا
كُنَّا جناحَيْ طائرٍ ما زال يوجعُنا. سلاماً
أَيها القَمَرُ المُحَلِّقُ حَوْلَ صُورَتِهِ التي لن يلتقي
أَبداً بها! وأَقول للسَّروِ: انتبَهْ ممّا يقولُ

لَكَ الغبارُ. لعلَّنا كنا هنا وَتَرَيْ كمانٍ
في وليمة حارساتِ اللازَوَرْدِ. لعلَّنا كُنَّا
ذراعَيْ عاشقٍ...
قد كنتُ أَمشي حَذْوَ نفسيْ: كُنْ قويّاً
يا قريني، وارفعِ الماضي كقرنَيْ ماعزٍ
بيديكَ، واجلسْ قرب بئرك. رُبَّما التفتتْ
إليكَ أَيائلُ الوادي... ولاح الصوتُ ــ
صوتُك صورةً حجريَّةً للحاضر المكسورِ ...
لم أُكْملح زيارتي القصيرةَ بَعْدُ للنسيانِ...
لم آخُذْ مَعي أَدواتِ قلبي كُلَّها:
جَرَسي على ريح الصنوبرِ
سُلَّمي قرب السماءِ
كواكبي حول السطوحِ
وبُحَّتي من لَسْعة الملح القديم...
وَقُلْتُ للذكرى: سَلاماً يا كلامَ الجَدَّة العَفَوِيَّ
يأخُذُنا إلى أَيَّامنا البيضاءِ تحت نُعَاسها...
واسْمِيْ يرنُّ كليرة الذَّهَبِ القديمةِ عِنْدَ
باب البئرِ. أَسْمَعُ وَحْشَةَ الأَسلاف بين

الميم والواو السحيقة مثل وادٍ غير ذي
زرعٍ. وأُخفي تعبي الوديَّ. أَعرفُ أَنني
سأعود حيّاً، بعد ساعاتٍ، من البئر التي
لم أَلْقَ فيها يوسُفاً أَو خَوْفَ إخوتِهِ
مِنَ الأصداء. كُنْ حَذِراً! هنا وضعتْكَ
أُمُّكَ قرب باب البئر، وانصرَفَتْ إلى تَعْويذةٍ...
فاصنعْ بنفسكَ ما تشاءُ. صَنَعْتُ وحدي ما
أَشاءُ: كبرتُ ليلاً في الحكاية بين أَضلاعِ
المُثَلَّثِ: مصرَ، سوريّا، وبابلَ. ههنا
وحدي كبرتُ بلا إلٰهات الزراعة. [كُنَّ
يَغْسِلْنَ الحصى في غابة الزيتون. كُنَّ مُبلَّلاتٍ
بالندى] ... ورأيتُ أَنِّي قد سقطتُ
عليَّ من سَفَر القوافلِ، قرب أَفعى. لم
أَجِدْ أَحداً لأُكْمِلَهُ سوى شَبَحي. رَمَتْني
الأرضُ خارجَ أَرضها، واسمي يَرِنُّ على خُطَايَ
كَحذْوةِ الفَرَسِ: اقتربْ ... لأَعود من هذا
الفراغ إليكَ يا جلجامشُ الأبديُّ في اسْمِكَ!..
كُنْ أَخي! واذْهَبْ معي لنصيحَ بالبئر

القديمة... ربما امتلأتْ كأنثى بالسماء،
ورُبَّما فاضت عن المعنى وعمَّا سوف
يحدُثْ في انتظارِ ولادتي من بئريَ الأُولى!
سنشرب حفنةً من مائها،
سنقول للموتى حواليها: سلاماً
أيها الأحياءُ في ماء الفَرَاشِ،
وأيُّها الموتى، سلاماً!

كالنون في سورة الرحمن

في غابة الزيتون، شَرْقَ
الينابيع انطوى جَدِّي على ظلِّهِ
المهجور. لم ينبت على ظلِّهِ
عُشْبٌ خرافيٌّ
ولا غيمةُ اللَّيْلَكِ
سالَتْ داخل المشهدْ

□

الأرضُ مثل الثوب منسوجةٌ

بإبرة السُّمَّاق في حُلْمِهِ
المكسور ... جدّي هَبَّ من نومِهِ
كي يجمَعَ الأَعشاب من كرمِهِ
المطمور تحت الشارع الأَسودْ ...

□

عَلَّمني القرآنَ في دوحة الريحانِ
شَرْقَ البئر،
من آدمٍ جئنا ومن حوَّاءَ
في جنة النسيانِ.
يا جدِّي! أَنا آخر الأَحياء
في الصحراء، فلنصعدْ!

□

البحرُ والصحراءُ حول اسمِهِ
العاري من الحُرَّاسِ
لم يعرفا جدّيُ لا أَبناءَهُ
الواقفين الآن حول «النون»

في سورة «الرحمن»،
اللهم ... فلتشهَدْ!

□

أمَّا هُوَ المولود من نفسِهِ
الموءودُ، قرب النار،
في نفسه،
فليَمْنَحِ العنقاءَ من سرِّهِ
المحروق ما تحتاجُهُ بعده
كي تُشْعِلَ الأضواءَ في الـمَعْبَدْ

□

في غابة الزيتون، شَرْقَ الينابيعِ
انطوى جدِّي على ظلِّه
المهجور. لم تُشْرق على ظلِّه
شمسٌ. ولم يهبط على ظلِّه
ظلٌّ،
وجدّي دائماً، أَبعدْ ...

تعاليم حُوريَّة

I

فَكَّرتُ يوماً بالرحيل، فحطَّ حَسُّونٌ على
يدها ونام. وكان يكفي أَن أُداعِبَ غُصْنَ
دالِيَةٍ على عَجَلٍ ... لِتُدركَ أَنَّ كأسَ نبيذيَ
امتلأتْ. ويكفي أَن أنامَ مُبَكِّراً لتَرَى
ناميَ واضحاً، فتطيلُ لَيْلَتَها لتحرسَهُ ...
ويكفي أَن تجيء رسالةٌ منّي لتعرف أَنَّ
عنواني تغيَّر، فوق قارِعَةِ السجون، وأَنَّ
أَيَّامي تُحوِّمُ حَوْلَها ... وحيالها

II

أُمِّي تَعُدُّ أَصابعي العشرينَ عن بُعْدٍ.
تُمَشِّطُني بخُصْلَةِ شعرها الذَّهَبيّ. تبحثُ
في ثيابي الداخليّة عن نساءٍ أَجنبيَّاتٍ،
وَتَرْفُو جَوْربي المقطوعَ. لم أَكبرْ على يَدِها
كما شئنا: أَنا وَهِيَ، افترقنا عند مُنْحَدرِ
الرُّخام ... ولوَّحت سُحُبٌ لنا، ولماعزٍ
يَرِثُ المَكَانَ. وأَنْشَأَ المنفى لنا لغتين:
دارجةً... ليفهَمَها الحمامُ ويحفظَ الذكرى
وفُصْحى ... كي أُفسِّرَ للظلال ظِلاَلَها!

III

ما زلتُ حيّاً في خِضَمِّكِ. لم تَقُولي ما
تقولُ الأُمُّ للوَلَدِ المريضِ. مَرِضْتُ من قَمَرِ
النحاس على خيام البَدْوِ. هل تتذكرين
طريق هجرتنا إلى لبنانَ، حَيْثُ نسيتِني
ونسيتِ كيسَ الخُبْزِ [كان الخبزُ قمحيّاً].
ولم أَصرخْ لئلاَّ أُوقظَ الحُرَّاسَ. حَطَّتْني

على كَتِفَيكِ رائحةُ الندى. يا ظَبْيَةً فَقَدَتْ
هُنَاكَ كِنَاسَها وغزالها ...

IV

لا وَقْتَ حَوْلَكِ للكلام العاطِفيِّ.
عَجَنْتِ بالحَبَقِ الظهيرةَ كُلَّها. وَخَبَزْتِ للسُمَّاقِ
عُرْفَ الدِّيك. أَعْرِفُ ما يُخرِّبُ قلبَكِ المَثْقُوبَ
بالطاووس، مُنْذُ طُرِدْتِ ثانيةً من الفردوس.
عالَمُنا تَغَيَّرَ كُلُّهُ، فتغيَّرتْ أَصواتُنا. حتّى
التحيَّةُ بيننا وَقَعَتْ كزرِّ الثَّوْبِ فوق الرمل،
لم تُسْمِعْ صدىً. قولي: صباح الخير!
قولي أَيَّ شيء لي لتمنَحَني الحياةُ دَلاَلَها.

V

هي أُختُ هاجَرَ. أُختُها من أُمِّها. تبكي
مع النايات مَوْتى لم يموتوا. لا مقابر حول
خيمتها لتعرف كيف تَنْفَتِحُ السماءُ، ولا
ترى الصحراءَ خلف أَصابعي لترى حديقَتَها
على وَجْه السراب، فيركُض الزَّمَنُ القديمُ

بها إلى عَبَثٍ ضروريٍّ: أَبوها طار مثلَ
الشَّرْكَسيِّ على حصان العُرْس. أَمَّا أُمُّها
فلقد أَعدَّتْ، دون أن تبكي، لِزَوْجَة زَوْجِها
حنَّاءَها، وتفحَّصَتْ خلخالها...

VI

لا نلتقي إلاّ وداعاً عند مُفْتَرَقِ الحديث.
تقول لي مثلاً: تزوّجْ أَيَّةَ امرأة مِنَ
الغُرَباء، أَجمل من بنات الحيِّ. لكنْ، لا
تُصَدِّقْ أَيَّةَ امرأة سوايَ. ولا تُصَدِّقْ
ذكرياتكَ دائماً. لا تَحْتَرِقْ لتضيء أُمَّكَ،
تلك مِهْنَتُها الجميلةُ. لا تحنَّ إلى مواعيد
الندى. كُنْ واقعيّاً كالسماء. ولا تحنّ
إلى عباءة جدِّكَ السوداءِ، أَو رَشَوَاتِ
جدّتكَ الكثيرةِ وانطلِقْ كالـمُهْرِ في الدنيا.
وكُنْ مَنْ أَنت حيث تكون. واحملْ
عبءَ قلبِكَ وَحْدَهُ ... وارجع إذا
اتَّسَعَتْ بلادُكَ للبلاد وغيَّرتْ أَحوالَها...

VII

أُمِّي تضيء نُجُومَ كَنْعَانَ الأخيرةَ،
حول مرآتي،
وتَرْمي، في قصيدتيَ الأَخيرةِ، شَالَها!

أَمشاط عاجيّة

مِنَ القَلْعَةِ انحدَرَ الغيمُ أَزرقَ
نحو الأَزِقّةِ ...
شالُ الحرير يطيرُ
وسربُ الحمام يطيرُ
وفي بِرْكَةِ الماء تمشي السماءُ قليلاً
على وجهها وتطيرُ
ورُوحي تطيرُ، كعاملة النَّحْلِ، بين الأَزِقّةِ
والبحرُ يأكُلُ من خبزها، خبزِ عَكّا
ويفرُكُ خاتَمَها مُنْذُ خَمْسَةِ آلافِ عامٍ

ويرمي على خدِّها خَدَّهُ
في طقوس الزفاف الطويل الطويلْ

□

تقولُ القصيدةُ:
فلننتظرْ
ريثما تسقط النافذةْ
فوق «أَلْبُومِ» هذا الدليل السياحيّ

□

أَدخُلُ من إِبْطها الحجريِّ، كما
يدخُلُ الموجُ في الأبديّةِ. أَعبُرُ
بين العصور كأنّي أَعبُرُ بين الغُرَفْ
أَرى فيَّ محتوياتِ الزمانِ الأليفة:
مرآةَ بِنْتٍ لكنعانَ،
أَمشاطَ شَعْرٍ من العاجِ،
صَحْنَ الحَسَاءِ الأَشوريَّ،
سَيْفَ المُدافع عن نَوْمِ سَيِّده الفارسيِّ،

وقفزَ الصقور المفاجِىءَ من عَلَمٍ نحو آخرَ
فوق صواري الأَساطيل ...

□

لو كان لي حاضرٌ آخرٌ
لامتلكتُ مفاتيحَ أَمسي
ولو كان أَمسي معي
لامتلكتُ غدي كُلَّهُ...

□

غامضٌ سَفَري في الزقاقِ الطويلِ
المؤدي إلى قَمَرٍ غامضٍ فوق سُوقِ
النحاس. هنا نخلةٌ تحمل البرجَ عنِّي،
وهاجَسُ أُغنيَّةٍ تنقُلُ الأدواتِ البسيطةَ
حولي، لصُنْعِ تْرَاجِيدْيا مُكَرَّرةٍ، والخيالُ
هنا بائعٌ جائعٌ يتجوَّلُ فوق الغبار أَليفاً،
كأَنِّيَ لا شأن لي بالذي سوف يحدُثُ
لي في احتفالات يوليوس قَيْصَرَ... عـمَّا قليل!

أَنا والحبيبةُ نشربُ
ماءَ الـمَسرَّةِ
من غيمةٍ واحدةْ
ونهبط في جَرَةٍ واحدةْ!

□

رَسَوْتُ بمينائها، لا لشيءٍ سوى
أَنَّ أُمّي أضاعت مناديلها ههنا...
لا خرافةَ لي ههنا. أُقايضُ
آلهةً أَو أُفاوضُ آلهةً. لا خرافةَ
لي ههنا كي أُعبِّىءَ ذاكرتي بالشعيرِ
وأسماءِ حُرَّاسها الواقفين على كتفيَّ
انتظاراً لفجر تُـحُتْمُس. لا سيف لي،
لا خرافة لي هَهنا لأُطلِّق أُمِّي التي
حَمَّلتْني مناديلَها، غيمةً غيمةً، فوق
ميناء عكا القديمة... عند الرحيلْ!

□

ستحدث أشياءُ أخرى،
سيكذبُ هنري على
قَلاَوونَ، بعد قليلْ
سيرتفع الغيمُ أَحمرَ فوق صُفُوف النخيلْ...

www.alkottob.com

تكلّسَتْ. لا شيءَ يحيا بعد موتكِ. والحياةُ
تَموتُ كالكلمات بين مُسَافِرَيْن إلى الجحيمِ،
فيا أَناتُ
لا تمكُثي في العالم السُّفليِّ أَكثَرَ! رُبَّما
هَبَطَتْ إلهاتٌ جديداتٌ علينا من غيابكِ
وامتَثَلْنا للسرابِ، ورُبَّما وَجَدَ الرُّعاةُ
الماكرونَ إلهةً، قرب الهباء وصدَّقَتْها الكاهناتُ
فلتَرْجعي، ولتُرْجعي، ولتُرْجعي أَرضَ الحقيقةِ
والكنايةِ،
أَرضَ كَنْعانَ البدايةِ،
أَرضَ نَهْدَيْكِ المشاعِ،
وأَرض فَخْذَيْكِ المشاع، لكي تعودَ المعجزاتُ
إلى أَريحا،
عند باب الـمَعْبَدِ المهجور ... لا
موتٌ هناك ولا حياةُ
فَوْضى على باب القيامة. لا غَدٌ
يأتي. ولا ماضٍ يجيء مُودِّعاً.
لا ذكرياتُ
تطيرُ من أَنحاءِ بابلَ فوق نخلتنا، ولا

حُلُمٌ يُسَامِرُنا لنسكنَ نجمةً،
هِيَ زِرُّ ثوبِكِ، يا أَناتُ،
هِيَ زِرُّ ثوبِكِ، يا أناتُ
وأناتُ تخلق نفسَها
من نفسِها
ولنفسِها
وتطيرُ خَلْفَ مراكب الإغريقِ،
في اسمٍ آخَرَ،
إمرأتيـنِ لن تتصالحا أَبداً ...
وأَمَّا الخيلُ
فلترقُصْ طويلاً فوق هاويتين. لا
موتٌ هناك ولا حياةُ
لا أَنا أحيا هنالك، أَو أموتُ
ولا أَناتُ
ولا أَناتُ!

مصرع العنقاء

في الأناشيدِ التي نُنْشدُها
نايٌ،
وفي الناي يَسْكُنُنا
نارٌ،
وفي النار التي نُوقِدُها
عنقاءُ خضراءُ،
وفي مرثيَّة العنقاء لم أَعرفْ
رمادي من غبارِكْ

□

غيمةٌ من لَيْلَكٍ تكفي
لتُخْفي
خيمة الصيَّاد عنَّا. فأمشِ
فوق الماء كالسيِّد ــ قالت لي:
فلا صحراءَ للذكرى التي أَحملها عنكَ
ولا أعداءَ منذ الآن، للورد
الذي يبزُغُ من أَنقاض دارِكْ!

□

كان ماءٌ يُشبهُ الخاتَمَ حول
الجَبلِ العالي. وكانت طبريّا
ساحةً خلفيَّةً للجنَّة الأُولى،
وقلتُ: اكتملَتْ
صُورةُ العالم في عينين خضراوين
قالتْ: يا أَميري وأَسيري
ضَعْ خُموري في جرارِكْ!

□

الغريبانِ اللذان احْتَرَقا فينا
هُما
مَنْ أَرادا قَتْلَنا قبل قليلٍ
وَهُما
مَنْ يعودان إلى سَيْفَيْهما بعد قليلٍ
وَهُما
مَنْ يقولان لنا: مَنْ أَنتما؟
ــ نحن ظلاَّن لِمَا كُنَّا هنا، واسمان
للقمحِ الذي ينبتُ في خبز المعاركْ

□

لا أُريدُ العودة الآن، كما
عاد الصليبيُّون منِّي، فأنا
كُلُّ هذا الصمت بين الجهتين: الآلهة
من جِهَةْ،
والذين ابتكرُوا أَسماءهم
من جِهَةٍ أُخرى،
أَنا الظلُّ الذي يمشي على الماءِ

أَنا الشاهدُ والمشهَدُ
والعابدُ والمَعْبَدُ
في أَرض حصاري وحصاركْ

□

كُنْ حبيبي بين حربين على المرآة ـــ
قالت ـــ لا أُريدُ العودةَ الآنَ إلى
حِصْنِ أَبي... خُذْني إلى كرمكَ، واجمعني
إلى أُمّك، عَطِّرني بماء الحبَق، انثرني
على آنية الفضَّة، مَشِّطني، وأَدخلني
إلى سِجْنِ اسمِكَ، اقتُلْني من الحبِّ،
تَزوَّجْني، وزَوِّجْني التقاليدَ الزراعيَّةَ،
دَرِّبني على الناي، واحرقني لكي أُولَدَ
كالعنقاءِ من ناري ونارك!

□

كان شيءٌ يُشبهُ العنقاءَ
يبكي دامياً،

قبل أَن يَسْقُطَ في الماء،
على مقربة من خَيْمَةِ الصيَّاد...

ما نَفْعُ انتظاري وانتظارِكْ؟

IV

غرفة للكلام مع النفس

تدابير شعريّة

لم يكُنْ للكواكب دَوْرٌ،
سوى أَنها
عَلَّمَتْني القراءةَ:
لي لُغَةٌ في السماءْ
وعلى الأرض لي لُغَةٌ
مَنْ أَنا؟ مَنْ أَنا؟

□

لا أُريدُ الجوابَ هنا

ربما وَقَعَتْ نجمةٌ فوق صورتها
ربما ارتفعتْ غايةُ الكستنا
بِيَ نَحْوَ المجرَّةِ، ليلاً،
وقالتْ: ستبقى هنا!

□

أَلقصيدةُ فوق، وفي وُسْعِها
أَن تُعَلِّمني ما تشاءُ
كأنْ أَفتح النافذةْ
وأُدير تدابيري المنزليَّةَ
بين الأساطير. في وسعها
أَن تزوِّجني نفسها ... زمناً

□

وأَبي تحت، يحملُ زيتونةً
عمرُها أَلفُ عامٍ،
فلا هِيَ شرقيَّةٌ
ولا هِيَ غربيةٌ.

رُبَّما يستريح من الفاتحين،
ويحنو عليَّ قليلاً،
ويجمَعُ لِيْ سوسنا

□

أَلقصيدةُ تبعد عنِّي،
وتدخل ميناءَ بحّارةٍ يعشقون النبيذَ
ولا يرجعون إلى امرأةٍ مَرَّتَيْنِ،
ولا يحملون حنيناً إلى أيِّ شيءٍ
ولا شَجَنا!

□

لم أَمُتْ بعد حُبّاً
ولكنَّ أُمّاً ترى نَظَراتِ ابنها
في القرنفل تخشى على المزهرية من جرحها،
ثُمَّ تبكي لتُبْعدَ حادثةً
قبل أَن تصِلَ الحادثةْ
ثم تبكي لتُرْجعني من طريق المصائدِ

حيّاً، لأحيا هنا

□

ألقصيدةُ ما بين بين، وفي وُسْعِها
أن تُضِيءَ الليالي بنَهْدَيْ فتاةٍ،
وفي وسعها أَن تضيء بتُفَّاحةٍ جَسَدَيْنِ،
وفي وسعها أَن تُعيد،
بصرخة غاردينيا، وطناً!

□

ألقصيدةُ بين يديَّ، وفي وسعها
أَن تدير شؤون الأساطير،
بالعَمَل اليدويِّ، ولكنني
مذ وَجَدتُ القصيدةَ شرَّدتُ نفسي
وساءلتها:
من أنا
من أنا؟

من روميّات
أبي فراس الحمداني

صدىً راجعٌ. شارعٌ واسعٌ في الصدى
خُطىً تتَبادَلُ صَوْتَ السُّعَال، وتَدْنو
مِنَ الباب، شَيْئاً فشَيْئاً، وتَنْأَى
عن الباب. ثَمَّةَ أَهلٌ يَزُورُنَا
غداً، في خميس الزيارات. ثَمَّةَ ظِلٌّ
لنا في المَمَرِّ. وشمسٌ لنا في سلالِ
الفواكِهِ. ثَمَّةَ أُمٌّ تُعاتبُ سجَّانَنا:

لماذا أَرَقْتَ على العُشْب قهوَتنا يا
شَقيُّ؟ وثَمَّةَ مِلْحٌ يَهُبُّ من البحر،
ثمَّةَ بَحْرٌ يَهُبُّ من الملحِ. زنزانتي
اتَّسَعَتْ سنتيمتراً لصوت الحمامةِ: طيري
إلى حَلَبٍ، يا حمامةُ، طيري بِرُوميَّتي
واحملي لابنِ عمِّي سلامي!
صدىً
للصدى. للصدى سُلَّمٌ مَعْدَنيٌّ، شَفَافيَّةٌ، وندى
يعجُّ بمَنْ يَصْعَدون إلى فجرهم... وبمَنْ
ينزلون إلى قبرهم من ثُقُوب المَدَى...
خُذُوني إلى لُغَتي مَعَكُمْ! قلتُ:
ما ينفَعُ الناسَ يمكُثُ في كَلِماتِ القصيدِ
وأَمَّا الطُّبولُ فتطفو على جِلْدها زَبَدَا
وزنزانتي اتَّسَعَتْ، في الصدى، شرفةً
كَثَوْبِ الفتاة التي رافَقَتْني سُدى
إلى شُرُفات القطار، وقالتْ: أَبي
لا يُحبُّكَ. أُمِّي تُحبُّك. فاحذرْ سَدُومَ غدا
ولا تَنْتَظِرْني، صَباح الخميس، أَنا لا

أُحبُّ الكثافَةَ حين تُخبِّىءُ في سجنها
حَرَكات المعاني، وتتركُني جَسَدا
يَتَذكَّرُ غاباتِهِ وَحْدَهُ... للصدى غُرْفَةٌ
كزنزانتي هذه: غُرْفَةٌ للكلام مع النفسِ،
زنزانتي صُورَتي لم أَجِدْ حَوْلَها أَحدا
يُشَارِكني قهوتي في الصباح، ولا مِقْعَدا
يُشاركني عُزْلَتي في المساء، ولا مَشْهَدا
أُشارِكُهُ حَيْرتي لِبلُوغ الهُدَى.
فلأكُنْ ما تريدُ لِيَ الخَيْلُ في الغَزَوات:
فإمَّا أَميراً
وإمَّا الردى!
وزنزانتي اتَّسَعَتْ شارعاً شارعين. وهذا الصدى
صدى، بارحاً سانحاً، سوف أخرُجُ من حائطي
كما يخرج الشَّبَحُ الحُرُّ من نفسه سَيِّدا
وأَمشي إلى حَلَبٍ. يا حمامةُ طيري
برُوميَّتي، واحملي لابن عمِّي
سلامَ الندى!

من سماء إلى أُختها
يعبر الحالمون

.. وتَرَكْنا طفولتنا للفراشة، حين تَرَكْنا
على الدَّرَجات قليلاً من الزيت، لكننا
نسينا تحيَّة نعناعنا حولنا، ونسينا
السلامَ السريعَ على غدنا بعدنا ...
كان حبرُ الظهيرة أَبيضَ، لولا
كتابُ الفراشة من حولنا ...

□

يا فراشةُ! يا أُخْتَ نفسك، كوني
كما شئتِ، قبل حنيني وبعد حنيني.
ولكنْ خُذيني أَخاً لجناحِكِ يَبْقَ جنوني
معي ساخناً! يا فراشةُ! يا أُمَّ
نفسك، لا تتركيني لما صَمَّمَ الحرفيُّون
لي من صناديقَ ... لا تتركيني!

□

من سماءٍ إلى أُختها يعبُرُ الحالمونْ
حاملين مرايا من الماء حاشيةً للفراشةِ
في وسعنا أَن نكون
من سماءٍ
إلى أُختها
يعبُرُ الحالمونْ

□

أَلفراشَةُ تنسجُ من إبرة الضوء
زينة ملهاتها

أَلفراشة تُولَدُ من ذاتها
والفراشةُ ترقص في نار مأساتها

□

نصفُ عنقاءَ. ما مَسَّها مَسَّنا: شَبَهٌ
داكِنٌ بين ضوءٍ ونارٍ... وبين طريقين
لا. ليس طيشاً ولا حكمةً حُبُّنا
هكذا دائماً، هكذا ... هكذا
من سماءٍ
إلى أختها
يعبر الحالمون ...

□

أَلفراشةُ ماءٌ يحنُّ إلى الطيران. ويُفْلِتُ
من عَرَق الفتيات، وينبتُ في غيمةِ
الذكريات. الفراشة ما لا تقولُ القصيدةُ،
من فَرْطِ خِفَّتها تَكْسِرُ الكلماتِ، كما
يكسر الحُلْمُ الحالمين ...

□

وليكن ..
وليكن غدُنا حاضراً معنا
وليكن حاضراً أَمسُنا معنا
وليكن يَوْمُنا حاضراً
في وليمة هذا النهار الـمُعَدِّ
لعيد الفراشة، كي يعبر الحالمون
من سماءٍ إلى أُختها ... سالمين

□

من سماءٍ إلى أختها يعبُرُ الحالمون...

قال المسافر للمسافر:
لن نعود كما ...

لا أَعرفُ الصحراءَ،
لكنّي نَبَتُّ على جوانبها كلاما...
قال الكلامُ، كلامَهُ، ومضيتُ
كامرأةٍ مُطَلَّقةٍ مضيتُ كزوجها المكسور،
لم أَحفظْ سوى الإيقاعِ
أَسمعُهُ
وأَتبعُهُ

وأَرفعُهُ يماما
في الطريق إلى السماء،
سماءِ أُغنيتي،
أَنا ابنُ الساحلِ السوري،
أَسكنُهُ رحيلاً أَو مُقاما
بين أَهل البحرِ،
لكنَّ السرابَ يشدُّني شرقاً
إلى البَدْو القُدامى،
أُوردُ الخيلَ الجميلةَ ماءَها،
وأَجسُّ نَبْضَ الأبجديَّة في الصدى،
وأَعودُ نافذةً على جِهَتَيْنِ...
أَنسى من أكونُ لكي أَكونَ
جماعةً في واحدٍ، ومُعَاصِراً
لمدائحِ البحَّارة الغُرباءِ تحت نوافذي،
ورسالةَ المتحاربيـنَ إلى ذويهمْ:
لن نَعُودَ كما ذَهَبْنا
لن نَعُودَ ... ولو لماما!

لا أَعرفُ الصحراءَ،
مهما زُرْتُ هاجسَها،
وفي الصحراء قال الغَيْبُ لي:
أكتُبْ!
فقُلْتُ: على السراب كتابةٌ أُخرى
فقال: أكتُبْ ليخضرَّ السرابُ
فقُلتُ: ينقُصُني الغيابُ
وقُلْتُ: لم أَتعلَّمِ الكلماتِ بَعْدُ
فقال لي: أُكْتُبْ لتعرفها
وتعرفَ أَين كنتَ، وأَين أنتَ
وكيف جئتَ، ومَنْ تكونُ غداً،
ضعِ اسْمَكَ في يَدِيْ واكْتُبْ
لتعرف مَنْ أَنا، واذهبْ غماما
في المدى ...
فكتبتُ: مَنْ يكتُبْ حكايته يَرِثْ
أَرضَ الكلام، ويَمْلُكِ المعنى تماما!

لا أَعرفُ الصحراءَ،
لكني أُودِّعُها: سلاماً
للقبيلةِ شَرْقَ أُغنيتي: سلاما
للسُّلالة في تَعدُّدِها على سَيْفٍ: سلاما
لابنِ أُمِّي تحت نَخْلَتِهِ: سلاما
للمُعَلَّقةِ التي حفظتْ كواكبنَا: سلاما
للسلام عليَّ بين قصيدتينِ:
قصيدةٍ كُتبَتْ
وأُخرى مات شاعرُها غراما!
أَأَنا؟
أَأَنا هنالك ... أم هنا؟
في كُلِّ «أَنتَ» أَنا،
أَنا أَنتَ المُخاطَبُ، ليس منفى
أَن أكونَكَ. ليس منفى
أَن تكونَ أَنايَ أَنتَ. وليس منفى
أَن يكون البحرُ والصحراءُ

أُغنيةَ المسافر للمسافرِ:
لَنْ أَعودَ، كما ذَهَبْتُ،
ولن أَعُودَ ... ولو لماما!

قافية
من أجل المعلَّقات

ما دَلَّني أَحَدٌ عَلَيَّ. أَنا الدليلُ، أَنا الدليلُ
إليَّ بين البحر والصحراءِ. من لُغَتي وُلدتُ
على طريق الهند بين قبيلتَين صغيرتين عليهما
قَمَرُ الديانات القديمة، والسلامُ المستحيلُ
وعليهما أَن تحفظا فَلَكَ الجوار الفارسيِّ
وهاجسَ الروم الكبيرَ، ليهبط الزمن الثقيلُ
عن خيمة العربيِّ أَكْثَرَ. من أَنا؟ هذا

سؤالُ الآخرين ولا جوابَ له. أَنا لُغَتي أَنا،
وأَنا مُعَلَّقَةٌ ... مُعَلَّقتان ... عَشْرٌ، هذه لغتي
أَنا لغتي. أَنا ما قالتِ الكلماتُ:
كُنْ
جَسَدي، فكُنْتُ لِنَبْرِها جَسَداً. أَنا ما
قُلْتُ للكلمات: كُوني ملتقى جَسَدي مع
الأبديَّة الصحراءِ. كُوني كي أكونَ كما أَقولُ!
لا أَرضَ فوق الأرض تحملني، فيحملني كلامي
طائراً متفرِّعاً مني، ويبني عشّ رحلته أَمامي
في حُطامي، في حطام العالم السحريِّ من حولي،
على ريح وَقَفْتُ. وطالَ بي ليلي الطويلُ
... هذه لغتي قلائد من نُجومٍ حول أَعناقِ
الأحبَّة: هاجروا
أَخذوا المكان وهاجروا
أَخذوا الزمان وهاجروا
أَخذوا روائِحَهُمْ عَنِ الفخّارِ
والكَلأِ الشحيح، وهاجروا
أَخذوا الكلامَ وهاجَرَ القلبُ القتيلُ

مَعَهُم. أَيتَّسعُ الصدى، هذا الصدى،
هذا السرابُ الأبيضُ الصوتيُّ لاسم تملأُ
المجهولَ بُحَّتُهُ، ويملأهُ الرحيلُ أُلوهةً؟
تَضَعُ السماءُ عليَّ نافذةً فأنظرُ: لا
أَرى أَحداً سوايَ ...
وجدتُ نفسي عند خارجها
كما كانت معي، ورؤايَ
لا تنأى عن الصحراء،
من ريحٍ ومن رملٍ خُطَايَ
وعالمي جَسَدي وما مَلَكَتْ يدايَ
أَنا المسافر والسبيلُ
يُطلُّ آلهةٌ عليَّ ويذهبون، ولا نُطيل
حدِيثَنا عمّا سيأتي. لا غَدٌ في
هذه الصحراء إلاّ ما رأينا أَمس،
فلأرفعْ مُعَلَّقتي لينكسرَ الزمانُ الدائريُّ
ويُولَدَ الوقتُ الجميلُ!
ما أَكْثَرَ الماضي يجيء غداً
تركتُ لنفسها نفسي التي امتلأتْ بحاضرها

وأَفرغني الرحيلُ
من المعابد. للسماءِ شعوبُها وحرُوبها
أَمَّا أَنا، فلِيَ الغزالةُ زوجةً، ولِيَ النخيلُ
معلقات في كتاب الرمل. ماضٍ ما أَرى
للمرء مملكَةُ الغُبار وتاجُهُ. فلتنتصرْ
لُغَتي على الدَّهْر العُدُوِّ، على سُلالاتي،
عليَّ، على أَبي، وعلى زَوَالٍ لا يزولُ
هذِهِ لُغَتي ومُعْجِزَتي. عصا سِحْري.
حدائقُ بابلي ومسَلَّتي، وهويتي الأولى،
ومعدَني الصقيلُ
ومقدَّسُ العربيِّ في الصحراءِ،
يعبُدُ ما يسيلُ
من القوافي كالنجوم على عَبَاءَتِهِ،
ويعبُدُ ما يقولُ

لا بُدَّ من نثرٍ إذاً،
لا بُدَّ من نَثْرٍ إلهيٍّ لينتصِرَ الرَّسُولُ ...

الدوري، كما هو كما هو...

حَيْرَة التقليد: هذا الغَسَقُ المُهْرَقُ
يَدْعُوني إلى خِفَّته خلف زُجاجِ
الضوءِ. لم أَحْلُمْ كثيراً بكَ، يا
دوريُّ. لم يحلُمْ جناحٌ بجناحٍ...
وكلانا قَلَقٌ

□

لَكَ ما ليس لِيَ: الزُّرْقَةُ أُنثاكَ
ومأواكَ رجوعُ الريح للريح،

فحلِّقْ! مثلما تعطشُ فيَّ الروحُ
للروحِ، وصَفِّقْ للنهارات التي ينسجها
ريشُكَ، واهجرني إذا شئتَ
فَبَيْتي، ككلامي ضَيِّقُ

□

يألَفُ السَّقْفَ، كضيفٍ مَرِحٍ، يألَفُ
حَوْضَ الحَبَق الجالسَ، كالجدَّة، في
نافذةٍ ... يعرف أَين الماءُ والخبزُ،
وأَين الشَّرَكُ المنصوبُ للفأر...
ويهتزُّ جناحاهُ كشالِ امرأة تفلت منا،
ويطيرُ الأزرقُ...

□

نَزِقٌ مِثْلِيَ هذا الاحتفالُ النَّزِقُ
يخمش القلب ويَرْمِيهِ على القشّ،
أَما من رَعْشَةٍ تمكُثُ في آنيةِ
الفضّة يوماً واحداً؟
وبريدي فارغٌ من أَيِّ مَلْهاةٍ،

ستأتي، أيها الدوريُّ، مهما
ضاقتِ الأرضُ وفاضَ الأُفُقُ

□

ما الذي يأخذُهُ مني جناحاكَ؟
توتُّرْ، وتبخُّرْ كنهارِ طائشٍ
لا بُدَّ من حبَّة قمح ليكون
الريشُ حُرّاً. ما الذي تأخذُهُ منك
مراياي؟ ولا بُدّ لروحي مِنْ
سماء، ليراها المُطْلَقُ

□

أَنتَ حُرٌّ. وأَنا حُرٌّ. كلانا يَعْشَقُ
الغائبَ. فلتبهطْ لكي أَصعَدَ. ولتصْعَدْ
لكي أَهبط. يا دوريُّ! هَبْني جَرَسَ
الضوء، أَهبْكَ المنزلَ المأهولَ بالوقتِ.
كلانا يُكْمِلُ الآخَرَ،
ما بين سماءٍ وسماء،
عندما نفترقُ!

V

مطر فوق برج الكنيسة

هيلين، يا لَهُ من مطر

إلتقَيْتُ بهيلينَ، يَوْمَ الثلاثاءِ
في الساعة الثالثةْ
ساعةِ الضَّجَر اللانهائيِّ،
لكنَّ صَوْتَ المَطَرْ
مَعَ أُنثى كهيلينَ
ترنيمةٌ للسَّفَرْ

مَطَرٌ،
يا لَهُ من حنينٍ ... حنينِ السماءِ

إلى نفسها!
مَطَرٌ،
يا لَهُ من أنيـنٍ ... أنيـنِ الذئابِ
على جِنْسها!

مَطَرٌ فوق سقف الجفافِ،
الجفافِ المُذَهَّبِ في أَيقُونات الكنائس،
ــ كم تَبْعُدُ الأرضُ عنِّي؟
وكَمْ يبعُدُ الـحُبُّ عنكِ؟
يقولُ الغريبُ لبائعة الخبز، هيلينَ،
في شارعٍ ضَيِّقٍ مثل جَوْرَبها،
ــ ليس أكثرَ من لَفْظَةٍ ... ومَطَرْ!

مَطَرٌ جائعٌ للشَّجَرْ ...
مَطَرٌ جائعٌ للحَجَرْ ...

ويقولُ الغريبُ لبائعةِ الخبز:
هيلينُ هيلينُ! هل تصعَدُ الآنَ

رائحةُ الخبز منكِ، إلى شرفةٍ
في بلادٍ بعيدةْ ...
لتنسخَ أَقوالَ «هُومِيرَ»؟
هل يصعَدُ الماءُ من كتفَيْكِ إلى
شَجَرٍ يابسٍ في قصيدةْ؟

تقول لَهُ: يا لَهُ مِنْ مطرْ
يا لَهُ مِنْ مَطَرْ!

ويقولُ الغريبُ لهيلينَ: يَنْقُصُني
نَرْجِسٌ كي أُحَدِّقَ في الماءِ،
مائِكِ، في جَسَدي. حَدِّقي أَنتِ
هيلينُ، في ماء أَحلامنا... تَجدي
الميتين على ضَفَّتَيْك يُغَنُّون لاسْمِكِ:
هيلينُ ... هيلينُ! لا تتركينا
وَحِيدين مِثْلَ القَمَرْ

ـــ يا لَهُ من مَطَرْ

يا لَهُ من مطرْ

ويقولُ الغريبُ لهيلينَ: كُنْتُ أُحاربُ
في خَنْدَقَيْكِ، ولم تَبْرَئي من دمي
الآسْيَوِيِّ. ولن تبرئي من دمٍ
مُبْهَمٍ في شرايين وَرْدِكِ. هيلينُ!
كَمْ كانَ إغريقُ ذاك الزمانِ قُسَاةً،
وكم كان «أُوليسُ» وَحْشاً يُحِبُّ السَّفَرْ
باحثاً عن خُرَافَتِهِ في السَّفَرْ!

الكلامُ الذي لم أَقُلْهُ لها
قُلتُهُ. والكلامُ الذي قُلْتُهُ
لم أَقُلْهُ لهيلينَ. لكنَّ هيلينَ
تعرفُ ما لا يقولُ الغريبُ...
وتعرفُ ماذا يقول الغريب لرائحةٍ
تتكسَّرُ تحت المَطَرْ،
فتقول لَهُ:
حَرْبُ طروادةٍ لم تَكُنْ

لم تكن أَبداً
أبداً ...
يا لَهُ مِنْ مطرْ
يا لَهُ من مَطَرْ!

ليلٌ يفيض من الجَسَد

ياسمينٌ على لَيْلِ تمّوزَ، أُغْنيَّةٌ
لِغَريبَيْنِ يلتقيانِ على شارعٍ
لا يؤدِّي إلى هَدَف ...
مَنْ أَنا بعد عينينِ لوزيَّتين؟ يقول الغريبْ
مَنْ أَنا بعد منفاكَ فيَّ؟ تقول الغريبةْ.
إذنْ، حسناً، فلنَكُنْ حَذِرَيْنِ لئلا
نُحَرِّكَ ملْحَ البحار القديمةِ في جَسَدٍ يتذكَّرُ...
كانت تُعيدُ لَـهُ جَسَداً ساخناً،
ويُعيدُ لها جَسَداً ساخناً.

هكذا يترُكُ العاشقانِ الغريبانِ حُبَّهما
فَوْضَوِيّاً، كما يتركان ثيابَهما الداخليَّةَ
بين زُهور الملاءات...
ــ إن كُنْتَ حقاً حبيبي، فألِّفْ
نشيدَ أَناشيدَ ليْ، واحفُرِ اسمِي
على جِذْع رُمَّانةٍ في حدائِقِ بابلَ...
ــ إن كُنْتِ حقاً تُحِبينَني، فَضَعي
حُلُمي في يديَّ. وقولي لَهُ، لابنِ مريمَ،
كيف فَعَلْتَ بنا ما فعلتَ بنفسِكَ،
يا سيِّدي، هل لدينا من العَدْل ما سوف يكفي
ليجعلنا عادلين غداً؟
ــ كيف أُشفى من الياسمين غداً؟
ــ كيف أُشفى من الياسمين غداً؟
يُعْتِمانِ معاً في ظلالٍ تشعُّ على
سقف غُرْفَتِهِ: لا تكُنْ مُعْتِماً
بَعْدَ نهديَّ ــ قالت له ...
قال: نهداكِ ليلٌ يُضيءُ الضروريَّ
نهداكِ ليلٌ يُقَبِّلُني، وامتلأنا أَنا

والمكانُ بليلٍ يَفيضُ من الكأسِ ...
تَضْحَكُ من وَصْفِه. ثم تضحك أكثَرَ
حين تُخَبِّىءُ مُنْحَدَرَ الليل في يدها...
ــ يا حبيبيَ، لو كان لي
أَنْ أَكونَ صَبيّاً... لكُنْتُكَ أَنتَ
ــ ولو كان لي أنْ أكونَ فتاةً
لكنتُكِ أَنتِ! ...
وتبكي، كعادتها، عند عَوْدَتِها
من سماءٍ نبيذيّةِ اللون: خُذْني
إلى بَلَدٍ ليس لي طائرٌ أَزرقٌ
فوق صَفْصَافِهِ يا غريبُ!
وتبكي، لتَقْطَعَ غاباتِها في الرحيلِ
الطويلِ إلى ذاتها: مَنْ أَنا؟
مَنْ أَنا بعد مَنْفاكَ في جَسَدي؟
آه منّي، ومنكَ، ومن بلدي
ــ مَنْ أَنا بعد عينين لوزيَّتين؟
أَرِيني غَدِي!...
هكذا يتركُ العاشقانِ وداعَهُما

فَوْضويّاً، كرائحةِ الياسمين على ليل تمُّوزَ ...
في كُلِّ تمُّوزَ يَحْملُني الياسمينُ إلى
شارعٍ، لا يؤدِّي إلى هَدَفٍ،
بَيْدَ أني أُتابعُ أغنيتي:
ياسمينٌ
على
ليل
تمّوز ......

للغجرية، سماء مُدَرَّبة

تَتْرُكِينَ الهواءَ مريضاً على شَجَر التوتِ،
أَمَّا أَنا
فسأمشي إلى البحر كيف أَتنفَّسْ
لماذا فَعَلْتِ بنا ما فَعَلْتِ ... لماذا
مَلَلْتِ الإقامة، يا غجريَّةُ،
في حارة السَّوْسَنةْ؟

□

عِنْدَنا ما تُريدينَ مِنْ ذَهَبٍ ودمٍ

طائشٍ في السُّلالات. دُقِّي بكَعْبِ حذائكِ
أَيقونَةَ الكون تهبطْ إليك الطيورُ. هناك
ملائكةٌ... وسماءٌ مُدرَّبةٌ، فاصْنَعي ما
تشائين! دُقِّي القلوب ككسَّارة الجوز
يَبْزُغْ دَمُ الأحصنةْ!

□

لا بلادَ لشعرِكِ. لا بَيْتَ للريح. لا
سَقْفَ لي في ثُرَيَّاتِ صَدْرِكِ. من لَيْلَكٍ
ضاحِكٍ حول لَيْلِكِ أَسْلُكُ دَرْبَ
الشُّعَيْرات وحدي. كأنَّكِ مِنْ صُنْعِ
نَفْسِكِ، يا غجريَّةُ،
ماذا صَنَعْتِ بصلصالنا منذ تلك السَّنَةْ؟

□

تَرْتَدِينَ المكانَ كما ترتدينَ سراويلَ نارٍ
على عَجَلٍ. لا وظيفةَ للأرض تحت يديكِ
سوى الالتفاتِ إلى أَدوات الرحيل: خلاخيلَ

للماءِ. جيتارة للهواء، وناي لتبتعدَ
الهندُ أكثرَ. يا غجريَّةُ لا تتركينا كما
يترُكُ الجيشُ آثارَهُ الـمُحْزِنَةْ!

□

عندما، في نواحي السنونو، هبطتِ علينا
فَتَحْنا على الأبديَّةِ أَبوابَنا صاغرين. خيامُك
جيتارةٌ للصعاليك. نعلو ونرقص حتى مغيب
الغروب الـمُدَمَّى على قَدَمَيْكِ. خيامُك
جيتارةٌ لخيول الغُزاة القدامى تَكرُّ
لتصنع أُسطورَةَ الأمكنةْ

□

كُلَّما حَرَّكَتْ وَتَراً مَسَّنا جنُّها. وانتقلنا
إلى زَمَنٍ آخر. وكَسَرْنا أَباريقنا، واحداً
واحداً، لنُصاحِبَ إيقاعَها. لم نَكُنْ طيِّبينَ
ولا سيِّئيـنَ، كما في الروايات. كانت
تُسَيِّرُ أَقدارنا بأصابعها العَشْرِ،

دندنةً ... دندنةْ!

□

غيمةً، حَمَلَتْها اليماماتُ من نومنا
هل تعودُ غداً؟ لا. يقولون: لا
ترجِعُ الغجريَّةُ. لا تَعْبُرُ الغجريَّةُ في بَلَدٍ
مَرَّتين. فمن سيزفُّ، إذاً، خَيْلَ هذا
المكانِ إلى جِنْسِها؟ من يُلمِّعُ مِنْ
بعدها فِضَّةَ الأمكنةْ؟

تمارين أُولى
على جيتارة إسبانية

جيتارتانْ
تَتَبادلانِ مُوَشَّحاً
وتُقَطِّعانْ
بحريرِ يَأْسهما
رُخامَ غيابنا
عن بابنا،
وتُرَقِّصانِ السنديانْ

□

جيتارتانْ

□

أَبديَّةٌ زَرْقاءُ تحملُنا،
وتسقُطُ غيمتانْ
في البحر قُرْبَكِ،
ثم تصعَدُ مَوْجَتانْ
فوقَ السَّلالم، تَلْحَسَانِ خُطاكِ
فوقَ، وتُضْرِمانْ
مِلْحَ الشواطئ في دمي
وتُهَاجرانِ
إلى غيوم الأُرجوانْ!

□

جيتارتانْ

□

الماءُ يَبْكي، والحَصَى، والزعفرانْ

والريحُ تبكي:
«لم يَعُد غَدُنا لنا ...»
والظلُّ يبكي خَلْفَ هِسْتِيرْيا حصانٍ
مَسَّهُ وَتَرٌ، وضاقَ به الـمَدَى
بين الـمُدَى والهاويةْ،
فاخْتَار قَوْسَ العُنْفُوانْ

□

جيتارتانْ ...

□

أغنيةٌ بيضاءُ للسمراءِ،
ينكسرُ الزمانْ
ليمُرَّ هَوْدَجُها على جَيْشَينِ:
مِصْرِيٍّ، وحِثّيٍّ
ويرتفعُ الدخانُ
دخانُ زِينَتها الـمُلَوَّنُ
فوق أَنقاض المكانْ ...

□

جيتارتانْ ...

□

لا شيءَ يأخُذُ مِنْكِ أَندَلُسَ الزمانِ
ولا سَمَرْقَنْدَ الزمانْ
إلاّ خطى النَّهَوَنْدِ:
تلكَ غزالةٌ سَبَقَتْ جنازَتَها
وطارتْ في مَهَبّ الأُقحوانْ
يا حُبُّ! يا مَرَضِي المريضَ
كفى، كفى!
لا تَنْسَ قَبْرَكَ مَرَّةً أُخرى
على فَرَسي،
ستذبحُنا هنا جيتارتانْ

□

جيتارتان ...
جيتارتان ...

أيَّام الـحُـبّ السبعة

الثلاثاء: عنقاء

يكفي مُرورُكِ بالألفاظ كي تَجِدَ
العنقاءُ صُورَتَها فينا، وكي تَلِدَ
الروحُ التي وُلدتْ من روحه جسدا ...
لا بُدَّ من جَسَدٍ للروح تُـحْرِقُهُ
بنفسها ولها، لا بُدَّ من جَسَدِ
لتُظْهرَ الروحُ ما أَخفتْ من الأَبدِ
فلنحترِقْ، لا لشيءٍ، بل لنتَّحِدا!

الأربعاء: نرجسَة

خمسٌ وعشرون أُنْثى عُمْرُها. وُلدتْ
كما تريدُ ... وتمشي حول صُورَتها
كأنها غيرُها في الماء: ينقُصُني
ليلٌ ... لأركض في نَفْسي. وينقصني
حُبٌّ لأَقفز فوق البرج ... وابتعَدَتْ
عن ظلِّها، ليمُرَّ البرقُ بينهما
كما يمرُّ غريبٌ في قصيدتِهِ ...

الخميس: تكوين

وجدتُ نَفْسِيَ في نفسي وخارجها
وأَنتِ بَيْنَهُما المرآةُ بينهما...
تَزُورُكِ الأرضُ أَحياناً لزينتها
وللصُّعود إلى ما سَبَّبَ الحُلُما.
أَمَّا أَنا، فَبِوُسْعي أَنْ أكونَ كما
تَرَكْتِني أمسِ، قُرْبَ الماء، مُنْقَسِما
إلى سماءٍ وأرضٍ. آهِ... أَين هُما؟

الجمعة: شتاء آخر

إذا ذَهَبْتِ بعيداً، عَلِّقي حُلُمي
على الخزانة ذكرى مِنْكِ، أَو ذكرى
منِّي. سَيَأتي شتاءٌ آخرٌ، وأَرى
حمَامَتَيْنِ على الكُرْسيِّ، ثُمَّ أَرى
ماذا صَنَعْتِ بِجَوْزِ الهند: من لُغتي
سالَ الحليبُ على سُجَّادة أُخرى

إذا ذهبتِ خُذي فصل الشتاء، إِذاً!

السبت: زواج الحمام

أُصْغِي إلى جَسَدي: للنَّحْلِ آلِهَةٌ
وللصهيل رَبَاباتٌ بلا عَدَدِ
أَنا السحابُ، وأَنتِ الأرضُ، يُسْنِدُها
على السياج أَنينُ الرَّغْبَة الأَبدي
أُصْغي إلى جَسَدي: للموت فاكِهَةٌ
وللحياةِ حياةٌ لا تُجَدِّدُها
إلاّ على جَسَدٍ ... يصغي إلى جَسَدِ

الأَحد: مَقَامُ النَّهَونْد

يُحبُّكِ، اقْتَرِبي كالغَيْمَةِ... اقترِبي
مِنَ الغريب على الشُّبَّاك يجهش بي:
أُحِبُّها. انْحَدِري كالنجمة... انْحَدِري
على المُسَافر كي يبقى على سَفَرِ:
أُحبُّكِ. انْتَشِري كالعَتْمة... انتشري
في وردة العاشق الحمراء، وارْتَبِكي
كالخيمة، ارتبكي، في عُزْلَةِ المَلِكِ ...

الاثنين: مُوَشَّح

أَمُرُّ باسْمِكِ، إذْ أَخلُو إلى نَفَسِي
كما يَمُرُّ دِمَشْقِيٌّ بأَندَلُسِ

هنا أَضاءَ لَكِ الليمونُ مِلْحَ دَمِي
وههنا، وَقَعَتْ ريحٌ عن الفَرَسِ

أَمرُّ باسْمِكِ، لا جَيْشٌ يُحاصِرُني
ولا بلادٌ. كأَنِّي آخرُ الحَرَسِ
أَو شاعرٌ يَتَمشَّى في هواجسِهِ ...

VI

أَغلقوا المشهد ...

شهادة من برتولت بريخت أمام محكمة عسكرية

(١٩٦٧)

سيِّدي القاضي!
أَنا لستُ بجنديٍّ،
فماذا تطلبون الآنَ منِّي؟
وأَنا لا شأنَ لي في ما تقولُ المحكمةْ،
ذَهَبَ الماضي إلى الماضي سريعاً...
دون أَن يسمَعَ منِّي كَلِمَةْ.

مَضَتِ الحربُ إلى المقهى لترتاحَ...
وطيَّارُوك عادوا سالمينْ
والسماءُ انكسرتْ في لُغَتي، يا سيِّدي
القاضي – وهذا شأنيَ الشخصيُّ –
لكنَّ رعاياكَ يجرُّون سمائي خلفهُمْ ... مبتهجينْ
ويُطلُّون على قلبي، ويرمون قشورَ الموزِ
في البئر. ويمضون أَمامي مسرعينْ
ويقولونَ: مساء الخير، أَحياناً،
ويأتونَ إلى باحة بيتي... هادئينْ
وينامُونَ على غَيْمةِ نَوْمي ... آمنينْ
ويقولون كلامي نفسَهُ،
بَدَلاً مني،
لشُبَّاكي، وللصيف الذي يَعْرَق عطرَ الياسمينْ
ويُعيدون منامي نفسَهِ،
بَدَلاً منِّي،
ويبكون بعينيَّ مزاميرَ الحنينْ
ويُغنُّون، كما غنَّيْتُ للزيتونِ والتينِ
وللجزئيِّ والكُلّيِّ في المعنى الدفينْ

ويعيشون حياتي مثلما تعجبُهُمْ،
بَدَلاً مني،
ويمشون على اسمي حَذِرينْ
وأَنا، يا سيِّدي القاضي هنا
في قاعة الماضي، سجينْ
مَضَتِ الحربُ. وضُبَّاطُكَ عادوا سالمينْ
والكرومُ انتشرتْ في لغتي، يا سيِّدي
القاضي ــ وهذا شأنيَ الشخصيُّ ــ إِنْ
ضاقتْ بيَ الزنزانةُ امتدَّتْ بِيَ الأرضُ،
ولكنَّ رعاياكَ يجُسُّون كلامي غاضبينْ
ويَصيحُون بآخابَ وإِيزابيلَ: قُوما، وَرِثا
بستانَ نابوتَ الثمين!
ويقولون: لنا اللهُ
وأَرضُ الله
لا للآخرينْ!
ما الذي تطلبه، يا سيدي القاضي،
من العابر بين العابرين؟
في بلادٍ يَطْلُبُ الجلاّدُ فيها

من ضحاياهُ مديحَ الأَوسمةْ!
آنَ لي أَن أَصرُخَ الآنَ
وأَن أُسْقِطَ عن صوتي قناعَ الكَلِمةْ:
هذه زنزانةٌ، يا سيِّدي، لا مَحْكَمةْ
وأَنا الشاهدُ والقاضي. وأَنت الهيئةُ المُتَّهمَةْ
فاتركِ المقعدَ، واذهب: أَنتَ حُرٌّ أَنتَ حُرٌّ،
أيها القاضي السجينْ
إنَّ طياريكَ عادوا سالمينْ
والسماءَ انكسرتْ في لُغَتي الأُولى ـــ
وهذا شأنِيَ الشخصيُّ ـــ كي يرجِعَ
موتانا إلينا ـــ سالمينْ!

خلاف، غير لُغوي،
مع امرىء القيس

أَغلقوا الـمَشْهَدَ
تاركين لنا فُسْحَةً للرجوع إلى غَيرنا
ناقصينَ. صَعِدْنا على شاشة السينما
باسمينَ، كما يَنْبَغي أَن نكونَ على
شاشة السينما، وارْتَجَلْنا كلاماً أُعِدَّ
لنا سَلَفاً، آسفين على فُرصَةِ
الشُّهَداءِ الأخيرةِ. ثم انْحَنَيْنا نُسَلِّمُ

أَسماءَنا للمُشَاة على الجانبين. وَعُدْنا
إلى غَدِنا ناقصينْ ...

□

أَغلقوا المَشْهَدَ
انتصروا
عَبَروا أَمسَنا كُلَّهُ،
غَفَروا
للضحيَّةِ أخطاءَها عندما اعتَذَرَتْ
عَنْ كلامٍ سيخطُرُ في بالها،
غيَّروا جَرَسَ الوقتِ
وانتصروا ...

□

عندما أَوْصَلُونا إلى الفَصْلِ قبل الأخيرِ
التَفَتْنا إلى الخلف: كان الدخانُ
يُطِلُّ مِنَ الوقت أَبيضَ فوق الحدائق
من بَعْدنا. والطواويسُ تنشُرُ مروحةَ

اللون حول رسالة قَيْصَر للتائبينَ
عن الـمُفْرَدات التي اهتَرأَتْ. مثلاً:
وَصْفُ حُرِّيَّةٍ لم تجدْ خُبْزَها. وَصْفُ
خُبْزٍ بلا مِلْحِ حُرِّيَّةٍ، أَو مديحُ حمامٍ
يطيرُ بعيداً عن الشُّوقِ ...
كانت رسالةُ قَيْصَرَ شمبانيا للدخانِ
الذي يتصاعَدُ من شُرْفَةِ الوقت
أَبيض ...

□

أَغلقوا الـمَشْهَدَ
انتظروا
صَوِّروا ما يريدونَهُ من سماواتنا
نجمةً .. نجمةً
صَوِّروا ما يريدونه من نهاراتنا
غيمةً غيمةً،
غَيِّروا جَرَسَ الوقتِ
وانتصروا ...

□

إلتفتنا إلى دَوْرِنا في الشريط الـمُلَوَّنِ،
لكننا لم نَجِدْ نجمةً للشمال ولا خيمةً
للجنوب. ولم نَتَعَرَّفْ على صوتنا أَبداً.
لم يكن دَمُنا يتكلَّمُ في الميكروفونات في
ذلك اليوم، يَوْمَ اتَّكأْنا على لُغَةٍ
بَعْثَرَتْ قلبها عندما غيَّرتْ دَرْبَها. لم
يَقُلْ أَحدٌ لامرئ القيس: ماذا صنعتَ
بنا وبنفسكَ؟ فاذهبْ على درب
قَيْصَرَ، خلف دُخانٍ يُطلُّ مِنَ
الوقت أَسْوَدَ. واذْهَبْ على درب
قَيْصَرَ، وَحْدَكَ، وَحْدَكَ، وَحْدَكَ
واترِكْ لنا، ههنا، لُغَتَكْ!

مُتَتاليات
لزمن آخر

كانَ يوماً مُسْرِعاً. أَنصتُّ للماءِ
الذي يأخُذُهُ الماضي ويمضي مُسْرِعاً،
تحْتَ،
أَرى نفسيَ تَنْشَقُّ إلى اثنين:
أَنا،
واسمي ...

□

لكي أَحلُم لا يلزمُني شيءٌ: قليلٌ
من سماءٍ لزياراتي سيكفي لأَرى
الوقتَ خفيفاً وأَليفاً
حَوْلَ أَبراج الحمامْ

□

وقليلٌ من كلام الله للأَشجارِ
يكفيني لكي أَبنيَ بالألفاظِ
مأوى آمناً
للكراكيِّ التي أَخطأها الصيَّادُ ...

□

كَمْ كان على ذاكرتي أَن تحفَظَ
الأسماءَ. كَمْ أَخطأتُ في تَهْجِيَةِ
الأَفعال. لكنْ هذه النجمةُ من
صُنْعِ يدي فوق الرخامْ ...

□

كان يوماً مُسْرِعاً. لم يَعْتَذِرْ
أَحَدٌ من أَحَدٍ فيه. ولم يسقُطْ
على الشارع غيمُ الشجر العالي
ولم يَلْمَعْ دَمٌ فوق الكلامْ

□

كلُّ شيءٍ هادئٌ في مُلْتَقَى البَحْرَينِ
لا تاريخَ للأيام منذ اليوم،
لا موتى ولا أَحياءَ. لا هُدْنَةَ،
لا حَرْبَ علينا أَو سلامْ

□

وحياتي في مكانٍ آخرٍ. ليس مُهِمّاً
وَصْفُ مقهى وحوارٍ بين شُبَّاكَيْنِ
مَهْجُورَيْنِ. أَو وَصْفُ خريفٍ يمضَغُ
العِلْكَةَ في هذا الزحامْ

□

... ولكي أَحلُمَ لا يلزَمُني بَيْتٌ
كبيرٌ. فقليلٌ من نُعاس الذئبِ
في الغابة يكفي لأرى، فوقَ،
سماءً لزياراتي ...

□

حياتي في مكانٍ آخرٍ. ليس مُهمّاً
أَن تراها بنتُ جنكيزخانَ في سروالها
أَو يراها قارىءٌ تدخُلُ في المعنى
كما يدخُلُ حبرٌ في الظلامْ

□

كان يوماً مُسْرِعاً. والغَدُ ماضٍ
قادمٌ من حفلة الشاي. غداً كُنّا!
وكان الأمبراطورُ لطيفاً معنا. كنا
غداً... نشهَدُ تدشينَ الرُّكامْ ...

□

كُلُّ شيء هادئٌ. ليس مُهمّاً
وَصْفُ حدَّادينَ لم يُصْغوا إلى
التانْجُو، ولا موتي ينامون، كما
ناموا ولم يَعْتَذِروا للسيد التاريخ ...

□

كي أَحلُم، لا يلزمُني لَيْلٌ كهذا ...
وقليلٌ من سماءٍ لزياراتي، سيكفي
لأرى الوقتَ خفيفاً،
وأَليفاً،
وأَنام ...

... عندما يبتعد

للعدُوِّ الذي يشربُ الشايَ في كوخنا
فَرَسٌ في الدخانِ. وبنْتٌ لها
حاجبان كثيفانِ. عينانِ بُنّيتان. وشَعْرٌ
طويلٌ كَلَيْلِ الأغاني على الكَتِفَيْنِ. وصورَتُها
لا تفارقُهُ كُلَّما جاءنا يطلُبُ الشايَ. لكنَّهُ
لا يُحَدِّثنا عن مشاغلها في المساء، وَعَنْ
فَرَس تَرَكَتْهُ الأغاني على قمَّة التلِّ .../

○

... في كوخنا يستريحُ العَدُوُّ من البُندقيَّة،
يترُكُها فوق كُرسيٍّ جَدِّي. ويأْكُلُ من خبزنا
مثلما يفعَلُ الضيفُ. يغفو قليلاً على
مقعد الـخَيْزَرانِ. ويحنُو على فَرْوِ
قِطَّتنا. ويقولُ لنا دائماً:
لا تلوموا الضحيَّةَ!
نسألُهُ: مَنْ هِيَ؟
فيقولُ: دَمٌ لا يُجَفِّفُهُ الليل .../

○

... تلمعُ أَزرارُ سُتْرَتِهِ عندما يبتعدْ
عِمْ مساءً! وسَلِّمْ على بئرنا
وعلى جِهَةِ التين. وامشِ الـهُوَيْنَى على
ظلِّنا في حقول الشعيرِ. وسَلِّمْ على سَرْونا
في الأعالي. ولا تَنْسَ بوَّابةَ البيت مفتوحةً
في الليالي. ولا تَنْسَ خَوْفَ
الحصان من الطائراتِ،
وسَلِّمْ علينا، هُنَاكَ، إذا اتَّسَعَ الوقتُ.../

○

هذا الكلامُ الذي كان في وُدِّنا
أَن نَقولَ على الباب ... يَسْمَعُهُ جيِّداً
جيِّداً، ويُخبِّئُهُ في السُّعال السريعِ
ويُلْقي به جانباً.
فلماذا يزورُ الضحيَّةَ كُلَّ مساءٍ؟
ويحفَظُ أَمثالَنا مِثْلَنا،
ويُعيدُ أَناشيدَنا ذاتها،
عن مواعيدنا ذاتها في المكان المُقدَّسِ؟
لولا المسدسُ لاختلط النايُ في الناي .../

○

... لن تنتهي الحربُ ما دامتِ الأرضُ
فينا تدورُ على نفسها!
فلنَكُنْ طَيِّبيـنَ. ويقرأُ شِعراً
لطيّار «ييتْس: أَنا لا أُحبُّ الذينَ
أُدافعُ عنهُمْ، كما أَنني لا أُعادي

الذينَ أُحارِبُهُمْ ...
ثم يخرجُ من كوخنا الخشبيِّ،
ويمشي ثمانينَ متراً إلى
بيتنا الحجريِّ هناك على طَرَفِ السَّهْلِ .../

○

سَلِّمْ على بيتنا يا غريبُ.
فناجينُ
قهوتنا لا تزال على حالها. هل تَشُمُّ
أَصابعَنَا فوقها؟ هل تقولُ لبنتك ذاتِ
الجديلةِ والحاجبين الكثيفين إنَّ لها
صاحباً غائباً،
يتمنَّى زيارَتَها، لا لِشيءٍ ...
ولكنْ ليدخل مِرْآتَها ويرى سِرَّهُ:
كيف كانت تُتابع من بعده عُمْرهُ
بدلاً منه؟ سَلِّمْ عليها
إذا اتَّسَعَ الوقت.../

○

هذا الكلامُ الذي كان في وُدِّنا
أَن نقولَ له، كان يسمعُهُ جيِّداً
جَيِّداً،
ويُخبِّئُهُ في سُعالٍ سريعٍ،
ويُلقى به جانباً، ثم تلمَعُ
أزرارُ سُتْرَتِهِ عندما يَبْتَعِدْ ...

جداريّة

قصيدة
[كتبت عام ١٩٩٩]

هذا هُوَ ٱسمُكَ/
قالتِ ٱمرأةٌ،
وغابتْ في المَمَرِّ اللولبيِّ ...

أَرى السماءَ هُنَاكَ في مُتَناوَلِ الأَيدي.
ويحملُني جناحُ حمامةٍ بيضاءَ صَوْبَ
طُفُولَةٍ أُخرى. ولم أَحلُمْ بأني
كنتُ أَحلُمُ. كُلُّ شيء واقعيٌّ. كُنْتُ
أَعلَمُ أَنني أُلْقي بنفسي جانباً ...
وأَطيرُ. سوف أكونُ ما سأَصيرُ في

الفَلَك الأَخيرِ. وكُلُّ شيء أَبيضُ،
ٱلبحرُ المُعَلَّقُ فوق سقف غمامةٍ
بيضاءَ. واللّا شيء أَبيضُ في
سماء المُطْلَق البيضاءِ. كُنْتُ، ولم
أَكُنْ. فأنا وحيدٌ في نواحي هذه
الأَبديَّة البيضاء. جئتُ قُبَيْل ميعادي
فلم يَظْهَرْ ملاكٌ واحدٌ ليقول لي:
«ماذا فعلتَ، هناك، في الدنيا؟»
ولم أَسمع هُتَافَ الطيِّبينَ، ولا
أَنينَ الخاطئينَ، أَنا وحيدٌ في البياض،
أَنا وحيدُ ...

لا شيءَ يُوجِعُني على باب القيامةِ.

لا الزمانُ ولا العواطفُ. لا
أُحِسُّ بخفَّةِ الأشياء أَو ثِقَلِ
الهواجس. لم أَجد أَحداً لأسأل:
أَين «أَيْني» الآن؟ أَين مدينةُ
الموتى، وأَين أَنا؟ فلا عَدَمٌ
هنا في اللا هنا ... في اللا زمان،
ولا وُجُودُ

وكأنني قد متُّ قبل الآن ...
أَعرفُ هذه الرؤيا، وأَعرفُ أَنني
أَمضي إلى ما لَسْتُ أَعرفُ. رُبَّما
ما زلتُ حيّاً في مكانٍ ما، وأَعرفُ

ما أُريدُ ...

سأصيرُ يوماً ما أُريدُ

سأَصير يوماً فكرةً. لا سَيْفَ يحملُها
إلى الأرضِ اليبابِ، ولا كتابَ ...
كأنَّها مَطَرٌ على جَبَلٍ تَصَدَّعَ من
تَفَتُّح عُشْبَةٍ،
لا القُوَّةُ انتصرتْ
ولا العَدْلُ الشريدُ

سأَصير يوماً ما أُريدُ

سأصير يوماً طائراً، وأَسُلُّ من عَدَمي

وجودي. كُـلَّما ٱحتَرقَ الجناحانِ
ٱقتربتُ من الحقيقةِ، وانبعثتُ من
الرمادِ. أَنا حوارُ الحالمين، عَزَفْتُ
عن جَسَدي وعن نفسي لأُكْمِلَ
رحلتي الأولى إلى المعنى، فأَحْرَقَني
وغاب. أَنا الغيابُ. أَنا السماويُّ
الطريدُ.

سأَصير يوماً ما أُريدُ

سأَصيرُ يوماً شاعراً،
والماءُ رَهْنُ بصيرتي. لُغتي مجازٌ
للمجاز، فلا أَقولُ ولا أشيرُ

إلى مكانٍ. فالمكان خطيئتي وذريعتي.
أَنا من هناك. «هُنا»يَ يقفزُ
من خُطَايَ إلى مُخَيَّلتي ...
أَنا من كُنْتُ أَو سأكونُ
يَصْنَعُني ويَصْرعُني الفضاءُ اللانهائيُّ
المديدُ.

سأَصير يوماً ما أُريدُ

سأَصيرُ يوماً كرمةً،
فَلْيَعْتَصِرني الصيفُ منذ الآن،
وليشربْ نبيذي العابرون على
ثُرَيَّات المكان السُكَّريِّ!
أَنا الرسالةُ والرسولُ

أَنا العناويـنُ الصغيرةُ والبريدُ

سأَصير يوماً ما أُريدُ

هذا هُوَ ٱسمُكَ/
قالتِ ٱمرأةٌ،
وغابتْ في مَمَرِّ بياضها.
هذا هُوَ ٱسمُكَ، فاحفظِ ٱسْمَكَ جَيِّداً!
لا تختلفْ مَعَهُ على حَرْفٍ
ولا تَعْبَأْ براياتِ القبائلِ،
كُنْ صديقاً لاسمك الأُفُقيِّ
جَرِّبْهُ مع الأحياء والموتى
ودَرِّبْهُ على النُطْق الصحيح برفقة الغرباء

واكتُبْهُ على إحدى صُخُور الكهف،
يا ٱسمي: سوف تكبَرُ حين أَكبَرُ
سوف تحمِلُني وأَحملُكَ
ٱلغريبُ أَخُ الغريب
سنأخُذُ الأُنثى بحرف العِلَّة المنذور للنايات
يا ٱسمي: أَين نحن الآن؟
قل: ما الآن، ما الغَدُ؟
ما الزمانُ وما المكانُ
وما القديمُ وما الجديدُ؟

سنكون يوماً ما نريدُ

لا الرحلةُ ابتدأتْ، ولا الدربُ ٱنتهى

لم يَبْلُغِ الحكماءُ غربتَهُمْ
كما لم يَبْلُغ الغرباءُ حكمتَهمْ
ولم نعرف من الأزهار غيرَ شقائقِ النعمانِ،
فلنذهب إلى أَعلى الجداريات:
أَرضُ قصيدتي خضراءُ، عاليةٌ،
كلامُ الله عند الفجر أَرضُ قصيدتي
وأَنا البعيدُ
أَنا البعيدُ

في كُلِّ ريحٍ تَعْبَثُ ٱمرأةٌ بشاعرها
ــ خُذِ الجهةَ التي أَهديتني
ٱلجهةَ التي انكَسَرتْ،
وهاتِ أُنوثتي،

لم يَبْقَ لي إلاّ التَأمُّلُ في
تجاعيد البُحَيْرَة. خُذْ غدي عنِّي
وهاتِ الأمس، واتركنا معاً
لا شيءَ، بعدَكَ، سوف يرحَلُ
أَو يَعُودُ

ـ وخُذي القصيدةَ إن أَردتِ
فليس لي فيها سواكِ
خُذي «أَنا» كِ. سأُكْملُ المنفى
بما تركَتْ يداكِ من الرسائل لليمامِ.
فأيُّنا منا «أَنا» لأكون آخرَها؟
ستسقطُ نجمةٌ بين الكتابة والكلامِ
وتَنْشُرُ الذكرى خواطرها: وُلِدْنا

في زمان السيف والمزمار بين
التين والصُبَّار. كان الموتُ أَبطأَ.
كان أَوْضَح. كان هُدْنَةَ عابرين
على مَصَبِّ النهر. أَما الآن،
فالزرُّ الإلكترونيُّ يعمل وَحْدَهُ. لا
قاتلٌ يُصْغي إلى قتلى. ولا يتلو
وصيَّتَهُ شهيدُ

من أَيِّ ريح جئتِ؟
قولي ما ٱسمُ جُرْحِكِ أَعرفِ
الطُرُقَ التي سنضيع فيها مَرّتينْ!
وكُلُّ نَبْضٍ فيكِ يُوجعُني، ويُرْجِعُني
إلى زَمَنٍ خرافيّ. ويوجعني دمي

والملحُ يوجعني ... ويوجعني الوريدُ

في الجرّة المكسورةِ انتحبتْ نساءُ
الساحل السوريّ من طول المسافةِ،
واحترقْنَ بشمس آبَ. رأيتُهنَّ على
طريق النبع قبل ولادتي. وسمعتُ
صَوْتَ الماء في الفخّار يبكيهنّ:
عُدْنَ إلى السحابة يرجعِ الزَمَنُ الرغيدُ

قال الصدى:
لا شيء يرجعُ غيرُ ماضي الأقوياء
على مِسلاَّت المدى ... [ذهبيّةٌ آثارُهُمْ

ذهبيّةٌ] ورسائلِ الضعفاءِ للغَدِ،
أَعْطِنا خُبْزَ الكفاف، وحاضراً أَقوى.
فليس لنا التقمُّصُ والحُلُولُ ولا الخُلُودُ

قال الصدى:
وتعبتُ من أَملي العُضَال. تعبتُ
من شَرَك الجماليّات: ماذا بعد
بابلَ؟ كُلَّما اتَّضَحَ الطريقُ إلى
السماء، وأَسْفَرَ المجهولُ عن هَدَفٍ
نهائيّ تَفَشَّى النثرُ في الصلوات،
وانكسر النشيدُ

خضراءُ، أَرضُ قصيدتي خضراءُ عاليةٌ ...

تُطِلُّ عليَّ من بطحاء هاويتي ...
غريبٌ أَنتَ في معناك. يكفي أَن
تكون هناك، وحدك، كي تصيرَ
قبيلةً ...
غَنَّيْتُ كي أَزِنَ المدى المهدُورَ
في وَجَع الحمامةِ،
لا لأَشْرَحَ ما يقولُ اللهُ للإنسان،
لَسْتُ أَنا النبيَّ لأَدَّعي وَحْياً
وأُعْلِنَ أَنَّ هاويتي صُعُودُ

وأَنا الغريب بكُلِّ ما أُوتيتُ من
لُغَتي. ولو أخضعتُ عاطفتي بحرف
الضاد، تخضعني بحرف الياء عاطفتي،
وللكلمات وَهْيَ بعيدةٌ أَرضٌ تُجاوِرُ

كوكباً أَعلى. وللكلمات وَهْيَ قريبةٌ
منفى. ولا يكفي الكتابُ لكي أَقول:
وجدتُ نفسي حاضراً مِلْءَ الغياب.
وكُلَّما فَتَّشْتُ عن نفسي وجدتُ
الآخرين. وكُلَّما فتَّشْتُ عَنْهُمْ لم
أَجد فيهم سوى نَفسي الغريبةِ،
هل أَنا الفَرْدُ الحُشُودُ؟

وأَنا الغريبُ. تَعِبْتُ من «درب الحليب»
إلى الحبيب. تعبتُ من صِفَتي.
يَضيقُ الشَّكْلُ. يَتّسعُ الكلامُ. أَفيضُ
عن حاجات مفردتي. وأَنْظُرُ نحو

نفسي في المرايا:
هل أَنا هُـوَ؟
هَل أُؤدِّي جَيِّداً دَوْرِي من الفصل
الأخيرِ؟
وهل قرأتُ المسرحيَّةَ قبل هذا العرض،
أَم فُرِضَتْ عليَّ؟
وهل أَنا هُـوَ من يؤدِّي الدَّوْرَ
أَمْ أَنَّ الضحيَّة غَيَّرتْ أَقوالها
لتعيش ما بعد الحداثة، بعدما
ٱنْحَرَفَ المؤلّفُ عن سياق النصِّ
وانصرَفَ الـمُـمَثِّلُ والشهودُ؟

وجلستُ خلف الباب أَنظُرُ:
هل أَنا هُـوَ؟

هذه لُغَتي. وهذا الصوت وَخْزُ دمي
ولكن المؤلِّف آخَرٌ ...
أَنا لستُ مني إن أَتيتُ ولم أَصِلْ
أَنا لستُ منِّي إن نَطَقْتُ ولم أَقُلْ
أَنا مَنْ تَقُولُ له الحُروفُ الغامضاتُ:
ٱكتُبْ تَكُنْ!
وٱقرأْ تَجِدْ!
وإذا أردْتَ القَوْلَ فافعلْ، يَتَّحِدْ
ضدَّاكَ في المعنى ...
وباطِنُكَ الشفيفُ هُوَ القصيدُ

بَحَّارَةٌ حولي، ولا ميناء
أَفرغني الهباءُ من الإشارةِ والعبارةِ،

لم أَجد وقتاً لأعرف أَين مَنْزِلَتي،
الـهُنَيْهةَ، بين مَـنْزِلَـتَيْنِ. لم أَسأل
سؤالي، بعد، عن غَبَش التشابُهِ
بين بابَيْنِ: الخروج أم الدخول ...
ولم أَجِدْ موتاً لأَقْتَنِـصَ الحياةَ.
ولم أَجِدْ صوتاً لأَصرخَ: أَيُّها
الزَمَنُ السريعُ! خَـطَـفْتَني مما تقولُ
لي الحروفُ الغامضاتُ:
ألواقعيُّ هو الخياليُّ الأَكيدُ

يا أيها الـزَمَنُ الذي لم ينتظِرْ ...
لم يَـنْـتَظِرْ أَحداً تأَخَّر عن ولادتِهِ،
دَعِ الماضي جديداً، فَـهْـوَ ذكراكَ

الوحيدةُ بيننا، أيَّامَ كنا أَصدقاءك،
لا ضحايا مركباتك. وٱترُكِ الماضي
كما هُوَ، لا يُقَادُ ولا يَقُودُ

ورأيتُ ما يتذكَّرُ الموتى وما ينسون ...
هُمْ لا يكبرون ويقرأون الوَقْتَ في
ساعات أيديهِمْ. وَهُمْ لا يشعرون
بموتنا أَبداً ولا بحياتهِمْ. لا شيءَ
ممَّا كُنْتُ أو سأكونُ. تنحلُّ الضمائرُ
كُلُّها. «هو» في «أنا» في «أَنت».
لا كُلَّ ولا جُزْءٌ. ولا حيٌّ يقول
لميِّتٍ: كُنِّي!

.. وتنحلُّ العناصرُ والمشاعرُ. لا

أَرى جَسَدي هُنَاكَ، ولا أُحسُّ
بعنفوان الموت، أَو بحياتيَ الأُولى.
كأنِّي لَسْتُ منّي. مَنْ أَنا؟ أَأَنا
الفقيدُ أَم الوليدُ؟

ألوقْتُ صِفْرٌ. لم أُفكِّر بالولادة
حين طار الموتُ بي نحو السديم،
فلم أكُن حَيّاً ولا مَيْتاً،
ولا عَدَمٌ هناك، ولا وُجُودُ

تقولُ مُمَرِّضتي: أَنتَ أَحسَنُ حالاً.
وتحقُنُني بالمُخَدِّر: كُنْ هادئاً
وجديراً بما سوف تحلُمُ
عما قليل...

رأيتُ طبيبي الفرنسيَّ
يفتح زنزانتي
ويضربني بالعصا
يُعَاونُهُ ٱثنانِ من شُرْطة الضاحيةْ

رأيتُ أَبي عائداً
من الحجِّ، مُغمىً عليه

مُصَاباً بضربة شمسٍ حجازيّة
يقول لرفٍّ ملائكةٍ حَوْلَهُ:
أَطفئوني! ...

رأيتُ شباباً مغاربةً
يلعبون الكُرَةْ
ويرمونني بالحجارة: عُدْ بالعبارةِ
وٱترُكْ لنا أُمَّنا
يا أَبانا الذي أخطَأَ المقبرةْ!

رأيت «ريني شار»
يجلس مع «هيدغر»
على بُعْدِ مترين منِّي،

رأيتهما يشربان النبيذَ
ولا يبحثان عن الشعر...
كان الحوارُ شُعَاعاً
وكان غدٌ عابرٌ ينتظرْ

رأيتُ رفاقي الثلاثَةَ ينتحبونَ
وَهُمْ
يَخيطونَ لي كَفَناً
بخُيوطِ الذَّهَبْ

رأيت المعرِّي يطرد نُقَّادَهُ
من قصيدتِهِ:
لستُ أعمى
لأُبْصِرَ ما تبصرونْ،

فإنَّ البصيرةَ نورٌ يؤدِّي
إلى عَدَمٍ .... أَو جُنُونْ

رأيتُ بلاداً تعانقُني
بأَيدٍ صَبَاحيّة: كُنْ
جديراً برائحة الخبز. كُنْ
لائقاً بزهور الرصيفْ
فما زال تَنُّورُ أُمِّكَ
مشتعلاً،
والتحيَّةُ ساخنةً كالرغيفْ!

خضراءُ، أَرضُ قصيدتي خضراءُ. نهرٌ واحدٌ يكفي لأهمس للفراشة: آهِ، يا أُختي، ونَـهْـرٌ واحدٌ يكفي لإغواءِ الأساطير القديمة بالبقاء على جناح الصَّقْر، وَهْوَ يُـبَدِّلُ الراياتِ والقممَ البعيدةَ، حيث أَنشأتِ الجيوشُ ممالِكَ النسيان لي. لا شَعْبَ أَصْغَرُ من قصيدته. ولكنَّ السلاحَ يُـوَسِّعُ الكلمات للموتى وللأحياء فيها، والـحُرُوفَ تُـلَـمِّعُ السيفَ الـمُـعَلَّقَ في حزام الفجر، والصحراء تنقُصُ بالأغاني، أَو تزيدُ

لا عُمْرَ يكفي كي أَشُدَّ نهايتي لبدايتي.

أَخَذَ الرُّعَاةُ حكايتي وتَوَغَّلُوا في العشب فوق مفاتن الأنقاض، وانتصروا على النسيان بالأبواق والسَّجَع المشاع، وأورثوني بُحَّةَ الذكرى على حَجَرِ الوداع، ولم يعودوا...

رَعَويَّةٌ أَيَّامنا رَعَويَّةٌ بين القبيلة والمدينة، لم أَجد لَيْلاً خُصُوصِيّاً لهودجِكِ المُكَلَّلِ بالسراب، وقلتِ لي:

ما حاجتي لاسمي بدونكَ؟ نادني، فأنا خلقتُكَ عندما سَمَّيْتَني، وقتلتَني حين امتلكتَ الاسمَ ... كيف قتلتَني؟ وأنا غريبةُ كُلِّ هذا الليل، أَدْخِلْني

إلى غابات شهوتك، ٱحتضنِّي واعْتَصِرْني، واسفُك العَسَلَ الزفافيَّ النقيَّ على قفير النحل. بعثرني بما ملكتْ يداك من الرياح ولُمَّني.

فالليل يُسْلِمُ روحَهُ لك يا غريبُ، ولن تراني نجمةٌ إلاّ وتعرف أَنَّ عائلتي ستقتلني بماء اللازوردِ، فهاتِني ليكونَ لي ــ وأَنا أُحطِّمُ جَرَّتي بيديَّ ــ حاضِريَ السعيدُ

ــ هل قُلْتَ لي شيئاً يُغَيِّر لي سبيلي؟
ــ لم أَقُلْ. كانت حياتي خارجي
أَنا مَنْ يُحَدِّثُ نفسَهُ:

وَقَعَتْ مُعَلَّقتي الأَخيرةُ عن نخيلي
وأَنا المُسَافِرُ داخلي
وأَنا المُحَاصَرُ بالثنائياتِ،
لكنَّ الحياة جديرَةٌ بغموضها
وبطائرِ الدوريِّ ...
لم أُولَدْ لأَعرفَ أَنني سأموتُ، بل لأُحبَّ محتوياتِ ظلِّ اللّهِ
يأخُذُني الجمالُ إلى الجميلِ
وأُحبُّ حُبَّك، هكذا متحرراً من ذاتِهِ وصفاتِهِ
وأَنا بديلي ...

أَنا من يُحَدِّثُ نَفْسَهُ:

مِنْ أَصغر الأشياءِ تُولَدُ أكبرُ الأفكار
والإيقاعُ لا يأتي من الكلمات،
بل مِنْ وحدة الجَسَدَيْنِ
في ليلٍ طويلٍ ...

أَنا مَنْ يحدِّثُ نَفْسَهُ
ويروِّضُ الذكرى ... أأَنتِ أَنا؟
وثالثُنا يرفرف بيننا «لا تَنْسَيَاني دائماً»
يا مَوْتَنا! خُذْنَا إليكَ على طريقتنا، فقد نتعلَّمُ
الإشراق ...
لا شَمْسٌ ولا قَمَرٌ عليَّ
تركتُ ظلِّي عالقاً بغصون عَوْسَجَةٍ
فخفَّ بِيَ المكانُ

وطار بي روحي الشَّرُودُ

أَنا مَنْ يحدِّثُ نفسَهُ:
يا بنتُ: ما فَعَلَتْ بكِ الأشواقُ؟
إن الريح تصقُلُنا وتحملنا كرائحة الخريفِ،
نضجتِ يا ٱمرأتي على عُكَّازَتيَّ،
بوسعك الآن الذهابُ على «طريق دمشق»
واثقةً من الرؤيا. مَلاَكٌ حارسٌ
وحمامتان ترفرفان على بقيَّة عمرنا، والأرضُ عيدُ
...

الأرضُ عيدُ الخاسرين [ونحن منهُمْ]

نحن من أَثَرِ النشيد الملحميِّ على المكان، كريشةِ النَّسْرِ العجوز خيامُنا في الريح. كُنَّا طيِّبين وزاهدين بلا تعاليم المسيح. ولم نكنْ أَقوى من الأعشابِ إلاّ في ختام الصَيْفِ،

أَنتِ حقيقتي، وأَنا سؤالُكِ

لم نَرِثْ شيئاً سوى ٱسْمَيْنَا

وأَنتِ حديقتي، وأَنا ظلالُكِ

عند مفترق النشيد الملحميِّ ...

ولم نشارك في تدابير الإلٰهات اللواتي كُنَّ يبدأن النشيد بسحرهنَّ وكيدهنَّ. وكُنَّ يَحْمِلْنَ المكانَ على قُرُون الوعل من زَمَنِ المكان إلى زمان آخرٍ...

كنا طبيعيِّين لو كانت نجومُ سمائنا أَعلى قليلاً من
حجارة بئرنا، والأَنبياءُ أَقَلَّ إلحاحاً، فلم يسمع مدائحَنا
الجُنُودُ ...

خضراءُ، أرضُ قصيدتي خضراءُ
يحملُها الغنائيّون من زَمَنٍ إلى زَمَنٍ كما هِيَ في
خُصُوبتها.
ولي منها: تأمُّلُ نَرْجسٍ في ماء صُورَتِهِ
ولي منها وُضُوحُ الظلِّ في المترادفات
ودقَّةُ المعنى ...
ولي منها: التَّشَابُهُ في كلام الأَنبياءِ
على سُطُوح الليلِ
لي منها: حمارُ الحكمةِ المنسيُّ فوق التلِّ
يسخَرُ من خُرافتها وواقعها ...
ولي منها: احتقانُ الرمز بالأضدادِ

لا التجسيدُ يُرجِعُها من الذكرى
ولا التجريدُ يرفَعُها إلى الإشراقة الكبرى
ولي منها: «أَنا» الأُخرى
تُدَوِّنُ في مُفَكِّرَة الغنائيِّين يوميَّاتها:
«إن كان هذا الحُلْمُ لا يكفي
فلي سَهَرٌ بطوليٌّ على بوابة المنفى ...»
ولي منها: صَدَى لُغتي على الجدران
يكشِطُ مِلْحَهَا البحريَّ
حين يخونني قَلْبٌ لَدُودُ ...

أَعلى من الأَغوار كانت حكمتي
إذ قلتُ للشيطان: لا. لا تَمْتَحِنِّي!

لا تَضَعْني في الثُّنَائيّات، واتركني
كما أَنا زاهداً برواية العهد القديم
وصاعداً نحو السماء، هُنَاكَ مملكتي
خُذِ التاريخَ، يا ابنَ أَبي، خُذِ
التاريخَ ... واْصنَعْ بالغرائز ما تريدُ

وَلِيَ السكينةُ. حَبَّةُ القمح الصغيرةُ
سوف تكفينا، أَنا وأَخي العَدُوّ،
فساعتي لم تَأْتِ بَعْدُ. ولم يَحِنْ
وقتُ الحصاد. عليَّ أَن أَلِجَ الغيابَ
وأَن أُصدِّقَ أوَّلاً قلبي وأتبعَهُ إلى
قانا الجليل. وساعتي لم تأتِ بَعْدُ.

لَعَلَّ شيئاً فيَّ ينبذُني. لعلِّي واحدٌ
غيري. فلم تنضج كُرومُ التين حول
ملابس الفتيات بَعْدُ. ولم تَلِدْني
ريشةُ العنقاء. لا أَحَدٌ هنالك
في انتظاري. جئْتُ قبل، وجئتُ
بعد، فلم أَجد أحداً يُصَدِّق ما
أرى. أنا مَنْ رأى. وأَنا البعيدُ
أَنا البعيدُ

مَنْ أَنتَ، يا أَنا؟ في الطريقِ
اْثنانِ نَحْنُ، وفي القيامة واحدٌ.
خُذْني إلى ضوء التلاشي كي أَرى
صَيْرُورتي في صُورَتي الأُخرى. فَمَنْ

سأكون بعدَكَ، يا أَنا؟ جَسَدي
ورائي أم أَمامَكَ؟ مَنْ أنا يا
أَنت؟ كَوِّنِّي كما كَوَّنْتُكَ، ٱدْهَنِّي
بزيت اللوز، كَلِّلني بتاج الأرز.
واحملني من الوادي إلى أَبديّةٍ
بيضاءَ. عَلِّمني الحياةَ على طريقتِكَ،
ٱختَبِرْني ذَرَّةً في العالم العُلْوِيِّ.
ساعِدْني على ضَجَر الخلود، وكُنْ
رحيماً حين تجرحني وتبزغ من
شراييني الورودُ ...

لم تأت ساعتُنا. فلا رُسُلٌ يَقِيسُونَ

الزمانَ بقبضة العشب الأخير. هل استدار؟ ولا ملائكةٌ يزورون المكانَ ليتركَ الشعراءُ ماضِيَهُمْ على الشَّفَق الجميل، ويفتحوا غَدَهُمْ بأيديهمْ.

فغنِّي يا إلٰهتيَ الأَثيرةَ، يا عناةُ،
قصيدتي الأُولى عن التكوين ثانيةً ...
فقد يجدُ الرُّوَاةُ شهادةَ الميلاد
للصفصاف في حَجَرٍ خريفيّ. وقد يجدُ
الرعاةُ البئرَ في أَعماق أُغنية. وقد
تأتي الحياةُ فجاءةً للعازفين عن
المعاني من جناح فراشةٍ عَلِقَتْ
بقافيةٍ، فغنِّي يا إلٰهتيَ الأَثيرةَ
يا عناةُ، أَنا الطريدةُ والسهامُ،

أَنا الكلامُ. أَنا المؤبِّنُ والمؤذِّنُ
والشهيدُ

ما قلتُ للطَّلَلِ: الوداع. فلم أَكُنْ
ما كُنْتُ إلاّ مَرَّةً. ما كُنْتُ إلاّ
مرَّةً تكفي لأَعرف كيف ينكسرُ الزمانُ
كخيمة البدويِّ في ريح الشمال،
وكيف يَنْفَطِرُ المكانُ ويرتدي الماضي
نُثَارَ المعبد المهجور. يُشبهُني كثيراً
كُلُّ ما حولي، ولم أُشْبِهْ هنا
شيئاً. كأنَّ الأرض ضَيِّقَةٌ على
المرضى الغنائيِّين، أَحفادِ الشياطين

المساكين المجانين الذين إذا رأوا
حُلْماً جميلاً لَقَّنُوا الببغاءَ شِعْر
الحب، وانفتَحتْ أَمامَهُمُ الحُدُودُ ...

وأُريدُ أَن أَحيا ...
فلي عَمَلٌ على ظهر السفينة. لا
لأُنقذ طائراً من جوعنا أَو من
دُوَارِ البحر، بل لأُشاهِدَ الطُوفانَ
عن كَثَبٍ: وماذا بعد؟ ماذا
يفعَلُ الناجونَ بالأرض العتيقة؟
هل يُعيدونَ الحكايةَ؟ ما البدايةُ؟
ما النهايةُ؟ لم يعد أَحَدٌ من
الموتى ليخبرنا الحقيقة .../

أَيُّـها الموتُ ٱنتظرني خارج الأرض،
انتظرني في بلادِكَ، ريثما أُنهي
حديثاً عابراً مَعَ ما تبقَّى من حياتي
قرب خيمتكَ، ٱنتظِرْني ريثما أُنهي
قراءةَ طَرْفَةَ بنِ العَبْد. يُغْريني
الوجوديّون باستنزاف كُلِّ هُنَيْهَةٍ
حريةً، وعدالةً، ونبيذَ آلهةٍ .../
فيا مَوْتُ! ٱنتظرني ريثما أُنهي
تدابيرَ الجنازة في الربيع الهَشّ،
حيث وُلدتُ، حيث سأمنع الخطباء
من تكرار ما قالوا عن البلد الحزين
وعن صُمُود التينِ والزيتونِ في وجه
الزمان وجيشِهِ. سأقول: صُبُّوني

بحرف النون، حيث تَعُبُّ روحي
سورةُ الرحمٰن في القرآن. وٱمشوا
صامتين معي على خطوات أَجدادي
ووقع الناي في أَزلي. ولا
تَضَعُوا على قبري البنفسجَ، فَهْوَ
زَهْرُ المُحْبَطين يُذَكِّرُ الموتى بموت
الحُبِّ قبل أَوانِهِ. وَضَعُوا على
التابوتِ سَبْعَ سنابلٍ خضراءَ إنْ
وُجِدَتْ، وبَعْضَ شقائقِ النُعْمانِ إنْ
وُجِدَتْ. وإلاّ، فاتركوا وَرْدَ
الكنائس للكنائس والعرائس/
أَيُّها الموت ٱنتظر! حتى أُعِدَّ
حقيبتي: فرشاةَ أسناني، وصابوني

وماكنة الحلاقةِ، والكولونيا، والثيابَ.
هل المناخُ هُنَاكَ مُعْتَدِلٌ؟ وهل
تتبدَّلُ الأحوالُ في الأبدية البيضاء،
أم تبقى كما هِي في الخريف وفي
الشتاء؟ وهل كتابٌ واحدٌ يكفي
لِتَسْلِيَتي مع اللاَّ وقتِ، أمْ أَحتاجُ
مكتبةً؟ وما لُغَةُ الحديث هناك،
دارجةٌ لـكُلِّ الناس أَم عربيّةٌ
فُصْحى/
.. ويا مَوْتُ انتظرْ، يا موتُ،
حتى أستعيدَ صفاءَ ذِهْني في الربيع
وصحّتي، لتكون صيَّاداً شريفاً لا
يَصيدُ الظَّبْيَ قرب النبع. فلتكنِ العلاقةُ
بيننا وُدّيَّةً وصريحةً: لَكَ أَنتَ

ما لَكَ من حياتي حين أَملأها..
ولي منك التأمُّلُ في الكواكب:
لم يَمُتْ أَحَدٌ تماماً. تلك أَرواحٌ
تغيِّر شَكْلَها ومُقَامَها/
يا موت! يا ظلِّي الذي
سيقودُني، يا ثالثَ الاثنين، يا
لَوْنَ التردُّد في الزُمُرُّد والزَّبَرْجَدِ،
يا دَمَ الطاووس، يا قَنَّاصَ قلب
الذئب، يا مَرَض الخيال! اجلسْ
على الكرسيّ! ضَعْ أَدواتِ صيدكَ
تحت نافذتي. وعلِّقْ فوق باب البيت
سلسلةَ المفاتيح الثقيلةَ! لا تُحَدِّقْ
يا قويُّ إلى شراييني لترصُدَ نُقْطَةَ

الضعف الأَخيرةَ. أَنتَ أَقوى من
نظام الطبّ. أَقوى من جهاز
تَنَفُّسي. أَقوى من العَسَلِ القويّ،
ولَسْتَ محتاجاً ـ لتقتلني ـ إلى مَرَضي.
فكُنْ أَسْمَى من الحشرات. كُنْ مَنْ
أَنتَ، شفَّافاً بريداً واضحاً للغيب.
كن كالحُبِّ عاصفةً على شجر، ولا
تجلس على العتبات كالشحَّاذ أو جابي
الضرائبِ. لا تكن شُرطيّ سَيْرٍ في
الشوارع. كن قويّاً، ناصعَ الفولاذ، واخلَعْ عنك
أَقنعةَ الثعالب. كُنْ
فروسياً، بهياً، كامل الضربات. قُلْ
ما شئْتَ: «من معنى إلى معنى
أَجيءُ. هِيَ الحياةُ سُيُولَةٌ، وأَنا

أكثِّفُها، أُعرِّفُها بسُلْطاني وميزاني» ../
ويا مَوْتُ انتظرْ، واْجلس على
الكرسيّ. خُذْ كأسَ النبيذ، ولا
تفاوِضْني، فمثلُكَ لا يُفاوِضُ أَيَّ
إنسانٍ، ومثلي لا يعارضُ خادمَ
الغيبِ. اْسترح... فَلَرُبَّما أُنْهِكْتَ هذا
اليوم من حرب النجوم. فمن أَنا
لتزورني؟ أَلَدَيْكَ وَقْتٌ لاختبار
قصيدتي. لا. ليس هذا الشأنُ
شأنَكَ. أَنت مسؤولٌ عن الطينيِّ في
البشريِّ، لا عن فِعْلِهِ أو قَوْلِهِ/
هَزَمَتْكَ يا موتُ الفنونُ جميعُها.
هزمتك يا موتُ الأغاني في بلاد
الرافدين. مِسَلَّةُ المصريّ، مقبرةُ الفراعنةِ،

النقوشُ على حجارة معبدٍ هَزَمَتْكَ
وانتصرتْ، وأَفْلَتَ من كمائنك
الخُلُودُ ...
فاصنع بنا، واصنع بنفسك ما تريدُ

وأَنا أُريدُ، أريدُ أَن أَحيا ...
فلي عَمَلٌ على جغرافيا البركان.
من أَيام لوط إلى قيامة هيروشيما
واليبابُ هو اليبابُ. كأنني أَحيا
هنا أَبداً، وبي شَبَقٌ إلى ما لست
أَعرف. قد يكونُ «الآن» أَبعَدَ.
قد يكونُ الأمس أَقربَ. والغَدُ الماضي.
ولكني أَشدُّ «الآن» من يَدِهِ ليعبُرَ
قربيَ التاريخُ، لا الزَّمَنُ المُدَوَّرُ،

مثل فوضى الماعز الجبليّ. هل
أَنجو غداً من سرعة الوقت الإلكترونيّ،
أَم أَنجو غداً من بُطْء قافلتي
على الصحراء؟ لي عَمَلٌ لآخرتي
كأني لن أَعيش غداً. ولي عَمَلٌ ليومٍ
حاضرٍ أَبداً. لذا أُصغي، على مَهَلٍ
على مَهَل، لصوت النمل في قلبي:
أَعينوني على جَلَدي. وأَسمع صَرْخَةَ
الحَجَر الأسيرةَ: حَرِّروا جسدي. وأُبصرُ
في الكمنجة هجرةَ الأشواق من بَلَدٍ
تُرَابيٍّ إلى بَلَدٍ سماويّ. وأَقبضُ في
يد الأُنثى على أَبَدِي الأليفِ: خُلِقْتُ
ثم عَشِقْتُ، ثم زهقت، ثم أَفقتُ
في عُشْبٍ على قبري يدلُّ عليَّ من

حينٍ إلى حينٍ. فما نَفْعُ الربيع
السمح إن لم يُؤْنسِ الموتى ويُكْمِلْ
بعدهُمْ فَرَحَ الحياةِ ونَضْرةَ النسيان؟
تلك طريقةٌ في فكِّ لغز الشعرِ،
شعري العاطفيّ على الأَقلِّ. وما
المنامُ سوى طريقنا الوحيدة في الكلام/
وأَيُّها الموتُ ٱلتَبِسْ وٱجلسْ
على بلَّوْرِ أَيامي، كأَنَّكَ واحدٌ من
أَصدقائي الدائمين، كأَنَّكَ المنفيُّ بين
الكائنات. ووحدك المنفيُّ. لا تحيا
حياتَكَ. ما حياتُكَ غير موتي. لا
تعيش ولا تموت. وتخطف الأطفالَ
من عَطَشِ الحليب إلى الحليب. ولم

تكن طفلاً تهزُّ له الحساسينُ السريرَ،
ولم يداعِبْكَ الملائكةُ الصغارُ ولا
قُرونُ الأيِّل الساهي، كما فَعَلَتْ لنا
نحن الضيوفَ على الفراشة. وحدك
المنفيُّ، يا مسكين، لا ٱمرأةٌ تَضُمُّك
بين نهديها، ولا ٱمرأةٌ تقاسِمُك
الحنين إلى اقتصاد الليل باللفظ الإباحيِّ
المرادفِ لاختلاط الأرض فينا بالسماءِ.
ولم تَلِدْ وَلَداً يجيئك ضارعاً: أَبتي،
أُحبُّكَ. وحدك المنفيُّ، يا مَلِكَ
الملوك، ولا مديحَ لصولجانكَ. لا
صُقُورَ على حصانك. لا لآلىءَ حول
تاجك. أَيُّها العاري من الرايات
والبُوق المُقَدَّسِ! كيف تمشي هكذا

من دون حُـرَّاسٍ وجَـوْقَةِ منشدين،
كَـمِشْيَة اللصِّ الجبان. وأَنتَ مَـنْ
أَنتَ، الـمُـعَـظَّـمُ، عاهلُ الموتى، القويُّ،
وقائدُ الجيش الأَشوريِّ العنيدُ
فاصنع بنا، واصنع بنفسك ما تريدُ

وأَنا أُريدُ، أُريد أَن أَحيا، وأَن
أَنساك ... أَن أَنسى علاقتنا الطويلة
لا لشيءٍ، بل لأَقرأ ما تُـدَوِّنُـهُ
السماواتُ البعيدةُ من رسائلَ. كُـلَّـما
أَعددتُ نفسي لانتظار قدومِكَ
اْزددتَ ابتعاداً. كلما قلتُ: ابتعدْ
عني لأُكمل دَوْرَةَ الـجَسَدَيْنِ، في جَسَدٍ

يفيضُ، ظهرتَ ما بيني وبيني
ساخراً: «لا تَنْسَ مَوْعِدَنا ...»
ـ متى؟ ـ في ذِرْوَة النسيان
حين تُصَدِّقُ الدنيا وتعبُدُ خاشعاً
خَشَبَ الهياكل والرسومَ على جدار الكهف،
حيث تقول: «آثاري أَنا وأَنا ٱبنُ نفسي». ـ أَين موعدُنا؟
أَتأذن لي بأن أَختار مقهىً عند
باب البحر؟ ـ لا .... لا تَقْتَرِبْ
يا ٱبنَ الخطيئةِ، يا ٱبن آدمَ من
حدود الله! لم تُولَدْ لتسأل، بل
لتعمل... ـ كُن صديقاً طَيِّباً يا
موت! كُنْ معنىً ثقافياً لأُدرك
كُنْهَ حكمتِكَ الخبيئةِ! رُبَّما أَسْرَعْتَ

في تعليم قابيلَ الرمايةَ. رُبَّما
أَبطأتَ في تدريب أَيُّوبٍ على
الصبر الطويل. وربما أَسْرَجْتَ لي
فَرَساً لتقتُلَني على فَرَسي. كأني
عندما أَتذكَّرُ النسيانَ تُنقِذُ حاضري
لُغَتي. كأني حاضرٌ أَبداً. كأني
طائر أَبداً. كأني مُذْ عرفتُكَ
أَدمنتْ لُغَتي هَشَاشَتَها على عرباتك
البيضاءِ، أَعلى من غيوم النوم،
أَعلى عندما يتحرَّرُ الإحساس من عبء
العناصر كُلّها. فأنا وأَنتَ على طريق
الله صوفيّانِ محكومان بالرؤيا ولا يَرَيَان/
عُدْ يا مَوْتُ وحدَكَ سالماً،

فأنا طليق هٰهنا في لا هنا
أو لا هناك. وَعُدْ إلى منفاك
وحدك. عُدْ إلى أدوات صيدك،
وانتظرني عند باب البحر. هَيِّئ لي
نبيذاً أَحمراً للاحتفال بعودتي لِعِيادَةِ
الأرضِ المريضة. لا تكن فظّاً غليظ
القلب! لن آتي لأَسخر منك، أَو
أَمشي على ماء البُحَيْرَة في شمال
الروح. لكنِّي ــ وقد أَغويتَني ــ أهملتُ
خاتمةَ القصيدةِ: لم أَزفَّ إلى أَبي
أُمِّي على فَرَسي. تركتُ الباب مفتوحاً
لأندلُسِ الغنائيِّين، واخترتُ الوقوفَ
على سياج اللوز والرُمَّان، أَنفُضُ

عن عباءة جدِّيَ العالي خُيُوطَ
العنكبوت. وكان جَيْشٌ أَجنبيٌّ يعبر
الطُرُقَ القديمةَ ذاتها، ويَقِيسُ أَبعادَ
الزمان بآلة الحرب القديمة ذاتها.../

يا موت، هل هذا هو التاريخُ،
صِنْوُكَ أَو عَدُوُّك، صاعداً ما بين
هاويتين؟ قد تبني الحمامة عُشَّها
وتبيضُ في خُوَذ الحديد. وربما ينمو
نباتُ الشِّيحِ في عَجَلاتِ مَرْكَبَةٍ مُحَطَّمةٍ.
فماذا يفعل التاريخُ، صنوُكَ أو عَدُوُّكَ،
بالطبيعة عندما تتزوَّجُ الأرضَ السماءُ
وتذرفُ المَطَرَ المُقَدَّسَ؟/
أَيها الموت، انتظرني عند باب

البحر في مقهى الرومانسيِّين. لم
أَرجِعْ وقد طاشَتْ سهامُكَ مَرَّةً
إلاّ لأُودِعَ داخلي في خارجي،
وأُوزِّعَ القمح الذي امتلأتْ به رُوحي
على الشحرور حطَّ على يديَّ وكاهلي،
وأُودِّعَ الأرضَ التي تمتصُّني ملحاً، وتنثرني
حشيشاً للحصان وللغزالة. فانتظرني
ريثما أُنهي زيارتي القصيرة للمكان وللزمان،
ولا تُصَدِّقْني أَعودُ ولا أَعودُ
وأَقول: شكراً للحياة!
ولم أكن حَيّاً ولا مَيْتاً
ووحدك، كنتَ وحدك، يا وحيدُ!

تقولُ مُمَرِّضتي: كُنْتَ تهذي
كثيراً، وتصرخُ: يا قلبُ!
يا قَلْبُ! خُذْني
إلى دَوْرَة الماءِ .../

ما قيمةُ الروح إن كان جسمي
مريضاً، ولا يستطيعُ القيامَ
بواجبه الأوليِّ؟
فيا قلبُ، يا قلبُ أَرجعْ خُطَايَ
إليَّ، لأَمشي إلى دورة الماء
وحدي!

نسيتُ ذراعيَّ، ساقيَّ، والركبتين
وتُفَّاحةَ الجاذبيَّةْ
نسيتُ وظيفةَ قلبي
وبستانَ حوَّاءَ في أَوَّل الأبديَّةْ
نسيتُ وظيفةَ عضوي الصغير
نسيتُ التنفُّسَ من رئتيّ.
نسيتُ الكلام
أَخاف على لغتي
فاتركوا كُلَّ شيء على حالِهِ
وأَعيدوا الحياة إلى لُغَتي! ..

تقول مُمَرِّضتي: كُنْتَ تهذي
كثيراً، وتصرخ بي قائلاً:

لا أُريدُ الرجوعَ إلى أَحَدِ
لا أُريدُ الرجوعَ إلى بلدِ
بعد هذا الغياب الطويل ...
أُريدُ الرجوعَ فَقَطْ
إلى لغتي في أقاصي الهديل

تقولُ مُمَرِّضتي:
كُنْتَ تهذي طويلاً، وتسألني:
هل الموتُ ما تفعلين بي الآنَ
أَم هُوَ مَوْتُ اللُغَةْ؟

خضراءُ، أَرضُ قصيدتي خضراءُ، عاليةٌ ...
على مَهَلٍ أُدوِّنُها، على مَهَلٍ، على
وزن النوارس في كتاب الماءِ. أَكتُبُها
وأُورِثُها لمنْ يتساءلون: لمنْ نُغَنِّي
حين تنتشرُ المُلُوحَةُ في الندى؟ ...
خضراءُ، أكتُبُها على نَثْرِ السنابل في
كتاب الحقلِ، قَوَّسَها امتلاءٌ شاحبٌ
فيها وفيَّ. وكُلَّما صادَقْتُ أَو
آخَيْتُ سُنْبُلةً تَعَلَّمْتُ البقاءَ من
الفَنَاء وضدَّه: «أَنا حَبَّةُ القمح
التي ماتت لكي تَخْضَرَّ ثانيةً. وفي
موتي حياةٌ ما ...»

كأني لا كأنّي
لم يمت أَحَدٌ هناك نيابةً عني.
فماذا يحفظُ الموتى من الكلمات غيرَ
الشُّكْرِ: «إنَّ اللّه يرحَمُنا» ...
ويُؤْنِسُني تذكُّرُ ما نَسِيتُ مِنَ
البلاغة: «لم أَلِدْ وَلَداً ليحمل مَوْتَ
والِدِهِ» ...
وآثَرْتُ الزواجَ الحُرَّ بين المُفْرَدات ...
سَتَعْثُرُ الأُنثى على الذَّكَر المُلائِمِ
في جُنُوح الشعر نحو النثر ...
سوف تشُبُّ أَعضائي على جُمَّيزَةٍ،
ويصُبُّ قلبي ماءَهُ الأَرضيَّ في
أَحَدِ الكواكب ... مَنْ أنا في الموت
بعدي؟ مَنْ أَنا في الموت قبلي

قال طيفٌ هامشيٌّ: «كان أوزيريسُ
مثْلَكَ، كان مثلي. وٱبنُ مَرْيَمَ
كان مثلَكَ، كان مثلي. بَيْدَ أَنَّ
الـجُرْحَ في الوقت المناسب يُوجِعُ
العَدَمَ المريضَ، ويَرْفَعُ الموتَ المؤقَّتَ
فكرةً ...».
من أَين تأتي الشاعريَّةُ؟ من
ذكاءِ القلب، أَمْ من فِطْرة الإحساس
بالمجهول؟ أَمْ من وردةٍ حمراءَ
في الصحراء؟ لا الشخصيُّ شخصيٌّ
ولا الكونيُّ كونيٌّ ...

كأني لا كأني .../
كلما أَصغيتُ للقلب ٱمتلأتُ

بما يقول الغَيْبُ، وارتفعتْ بِيَ
الأشجارُ. من حُلْم إلى حُلْمٍ
أَطيرُ وليس لي هَدَفٌ أَخيرٌ.
كُنْتُ أُولَدُ منذ آلاف السنين
الشاعريَّةِ في ظلامٍ أَبيض الكتّان
لم أَعرف تماماً مَنْ أَنا فينا ومن
حُلْمي. أَنا حُلْمي
كأني لا كأني ...
لم تَكُنْ لُغتي تُودِّعُ نَبْرها الرعويَّ
إلاّ في الرحيل إلى الشمال. كلابُنا
هَدَأَتْ. وماعِزُنا توشَّح بالضباب على
التلال. وشجَّ سَهْمٌ طائش وَجْهَ
اليقين. تعبتُ من لغتي تقول ولا

تقولُ على ظهور الخيل ماذا يصنعُ
الماضي بأيَّامِ ٱمرىء القيس المُوَزَّعِ
بين قافيةٍ وقَيْصَرَ .../
كُلَّما يَمَّمْتُ وجهي شَطْرَ آلهتي،
هنالك، في بلاد الأرجوان أَضاءني
قَمَرٌ تُطَوِّقُهُ عناةُ، عناةُ سيِّدَةُ
الكِنايةِ في الحكايةِ. لم تكن تبكي على
أَحَدٍ، ولكنْ من مَفَاتِنِها بَكَتْ:
هَلْ كُلُّ هذا السحرِ لي وحدي
أَما من شاعرٍ عندي
يُقَاسِمُني فَرَاغَ التَخْتِ في مجدي؟
ويقطفُ من سياج أُنوثتي
ما فاض من وردي؟

أَما من شاعر يُغْوي
حليبَ الليل في نهدي؟
أَنا الأولى
أَنا الأُخرى
وحدِّي زاد عن حدِّي
وبعدي تركُضُ الغِزلانُ في الكلمات
لا قبلي ... ولا بعدي/

سأحلُمُ، لا لأُصْلِحَ مركباتِ الريحِ
أَو عَطَباً أَصابَ الروحَ
فالأسطورةُ اتَّخَذَتْ مكانَتَها / المكيدةَ
في سياق الواقعيّ. وليس في وُسْعِ القصيدة

أَن تُغَيِّرَ ماضياً يمضي ولا يمضي
ولا أَنْ تُوقِفَ الزلزالَ
لكنني سأحلُمُ،
رُبَّما ٱتسَعَتْ بلادٌ لي، كما أَنا
واحداً من أَهل هذا البحر،
كفَّ عن السؤال الصعب: «مَنْ أَنا؟ ...
هٰهنا؟ أَأَنا ٱبنُ أُمي؟»
لا تساوِرُني الشكوكُ ولا يحاصرني
الرعاةُ أو الملوكُ. وحاضري كغدي معي.
ومعي مُفَكِّرتي الصغيرةُ: كُلَّما حَكَّ
السحابةَ طائرٌ دَوَّنتُ: فَكَّ الحُلْمُ
أَجنحتي. أنا أَيضاً أطيرُ. فَكُلُّ
حيّ طائرٌ. وأَنا أَنا، لا شيءَ

آخَـرَ/

واحدٌ من أَهل هذا السهل ...
في عيد الشعير أَزورُ أطلالي
البهيَّة مثل وَشْمٍ في الـهُوِيَّةِ.
لا تبدِّدُها الرياحُ ولا تُؤبِّدُها.../
وفي عيد الكروم أَعُـبُّ كأساً
من نبيذ الباعة المتجوِّليـنَ ... خفيفةٌ
روحي، وجسمي مُثْقَلٌ بالذكريات وبالمكان/
وفي الربيع، أكونُ خاطرةً لسائحةٍ
ستكتُبُ في بطاقات البريد: «على
يسار المسرح المهجور سَوْسَنَةٌ وشَخْصٌ
غامضٌ. وعلى اليمين مدينةٌ عصريَّـةٌ»/

وأَنا أَنا، لا شيء آخَرَ ...

لَسْتُ من أَتباع روما الساهرينَ
على دروب الملحِ. لكنِّي أسَدِّدُ نِسْبَةً
مئويَّةً من ملح خبزي مُرْغَماً، وأَقول
للتاريخ: زَيِّنْ شاحناتِكَ بالعبيد وبالملوك الصاغرينَ،
ومُرَّ ... لا أَحَدٌ يقول
الآن: لا.

وأَنا أَنا، لا شيء آخر
واحدٌ من أَهل هذا الليل. أَحلُمُ
بالصعود على حصاني فَوْقَ، فَوْقَ ...
لأَتبع اليُنْبُوعَ خلف التلِّ.
فاصمُدْ يا حصاني. لم نَعُدْ في الريح مُخْتَلِفَيْنِ
...
أَنتَ فُتُوَّتي وأَنا خيالُكَ. فانتصِبْ
أَلِفاً، وصُكَّ البرقَ. حُكَّ بحافر

الشهوات أَوعيةَ الصَـدَى. واصعَدْ،
تَـجَدَّدْ، وانتصبْ أَلفاً، توتَّرْ يا
حصاني وانتصبْ أَلفاً، ولا تسقُطْ
عن السفح الأَخير كرايةٍ مهجورةٍ في
الأَبجديَّة. لم نَعُدْ في الريح مُخْتَلِفَيْنِ،
أَنت تَعِلَّتي وأَنا مجازُكَ خارج الركب
الـمُرَوَّضِ كالمصائرِ. فاندفِعْ واحفُرْ زماني
في مكاني يا حصاني. فالمكانُ هُوَ
الطريق، ولا طريقَ على الطريق سواكَ
تنتعلُ الرياحَ. أَضِئْ نُجوماً في السراب!
أَضئْ غيوماً في الغياب، وكُنْ أَخي
ودليلَ برقي يا حصاني. لا تَمُتْ
قبلي ولا بعدي عَلى السفح الأَخير
ولا معي. حَدِّقْ إلى سيَّارة الإسعافِ

والموتى ... لعلِّي لم أَزل حيّاً/

سأَحلُمُ، لا لأُصْلِحَ أَيَّ معنىً خارجي.
بل كي أُرمِّمَ داخلي المهجورَ من أَثَر
الجفاف العاطفيِّ. حفظتُ قلبي كُلَّهُ
عن ظهر قلبٍ: لم يَعُدْ مُتَطفِّلاً
ومُدَلّلاً. تَكْفيهِ حَبَّةُ «أَسبرين» لكي
يلينَ ويستكينَ. كأَنَّهُ جاري الغريبُ
ولستُ طَوْعَ هوائِهِ ونسائِهِ. فالقلب
يَصْدَأُ كالحديدِ، فلا يئنُّ ولا يَحِنُّ
ولا يُجَنُّ بأَوَّل المطر الإباحيِّ الحنينِ،
ولا يرنُّ كعشب آبَ من الجفافِ.

كأنَّ قلبي زاهدٌ، أَو زائدٌ
عني كحرف «الكاف» في التشبيهِ.
حين يجفُّ ماءُ القلب تزدادُ الجمالياتُ
تجريداً، وتـدَّثرُ العواطف بالمعاطفِ،
والبكارةُ بالمهارةِ/

كُلَّما يَمَّمْتُ وجهي شَطْرَ أُولى
الأغنيات رأيتُ آثارَ القطاة على
الكلام. ولم أَكن ولداً سعيداً
كي أَقولَ: الأمس أَجملُ دائماً.
لكنَّ للذكرى يَدَيْنِ خفيفتين تُهَيِّجانِ
الأرضَ بالحُمَّى. وللذكرى روائحُ زهرةٍ
ليليَّةٍ تبكي وتُوقظُ في دَمِ المنفيِّ

حاجتَهُ إلى الإنشاد: «كُوني
مُرْتَقى شَجَني أَجدْ زمني» ... ولستُ
بحاجةٍ إلاّ لِخَفْقَةِ نَوْرَسٍ لأتابعَ
السُفُنَ القديمةَ. كم من الوقت
انقضى منذ اكتشفنا التوأمين: الوقتَ
والموتَ الطبيعيَّ المُرَادِفَ للحياة؟
ولم نزل نحيا كأنَّ الموتَ يُخطئنا،
فنحن القادرين على التذكُّر قادرون
على التحرُّر، سائرون على خُطى
جلجامشَ الخضراءِ من زَمَنٍ إلى زَمَنٍ.../

هباءٌ كاملُ التكوينِ ...
يكسرُني الغيابُ كجرَّةِ الماءِ الصغيرة.
نام أَنكيدو ولم ينهض. جناحي نام
مُلْتَفّاً بحَفْنَةِ ريشِهِ الطينيِّ. آلهتي
جمادُ الريح في أَرض الخيال. ذِراعِيَ
اليُمْنى عصا خشبيَّةٌ. والقَلْبُ مهجورٌ
كبئرٍ جفَّ فيها الماءُ، فاتَّسَعَ الصدى
الوحشيُّ: أنكيدو! خيالي لم يَعُدْ
يكفي لأُكملَ رحلتي. لا بُدَّ لي من
قُوَّةٍ ليكون حُلْمي واقعيّاً. هاتِ
أَسْلِحتي أُلَمِّعْها بِملح الدمعِ. هاتِ
الدمعَ، أنكيدو، ليبكي المَيْتُ فينا
الحيَّ. ما أنا؟ مَنْ ينامُ الآن
أنكيدو؟ أَنا أَم أَنت؟ آلهتي

كقبض الريحِ. فانهَضْ بي بكامل
طيشك البشريِّ، وٱحلُمْ بالمساواةِ
القليلةِ بين آلهة السماء وبيننا. نحن
الذين نُعَمِّرُ الأرضَ الجميلةَ بين
دجلةَ والفراتِ ونحفَظُ الأسماءَ. كيف
مَلَلْتَني، يا صاحبي، وخَذَلْتَني، ما نفْعُ حكمتنا
بدون فُتُوّةٍ... ما نفعُ حكمتنا؟ على باب المتاهِ
خذلتني،
يا صاحبي، فقتلتَني، وعليَّ وحدي
أَن أرى، وحدي، مصائرنا. ووحدي
أَحملُ الدنيا على كتفيَّ ثوراً هائجاً.
وحدي أُفتِّشُ شاردَ الخطوات عن
أَبديتي. لا بُدَّ لي من حَلٍّ هذا

اللُغْزِ، أنكيدو، سأحملُ عنكَ
عُمْرَكَ ما استطعتُ وما استطاعت
قُوَّتي وإرادتي أَن تحملاكَ. فمن
أَنا وحدي؟ هَبَاءٌ كاملُ التكوينِ
من حولي. ولكني سأُسْنِدُ ظلَّك
العاري على شجر النخيل. فأين ظلُّكَ؟
أَين ظلُّكَ بعدما انكسرَتْ جُذُوعُك؟
قمَّةُ
الإنسان
هاويةٌ ...
ظلمتُكَ حينما قاومتُ فيكَ الوَحْشَ،
بٱمرأةٍ سَقَتْكَ حليبَها، فأنِسْتَ ...
واستسلمتَ للبشريِّ. أَنكيدو، ترفَّقْ
بي وعُدْ من حيث مُتَّ، لعلَّنا

نجدُ الجوابَ، فمن أَنا وحدي؟
حياةُ الفرد ناقصةٌ، وينقُصُني
السؤالُ، فمن سأسألُ عن عبور
النهر؟ فانهَضْ يا شقيقَ الملح
واحملني. وأَنتَ تنامُ هل تدري
بأنك نائمٌ؟ فانهض ... كفى نوماً!
تحرَّكْ قبل أَن يتكاثَرَ الحكماءُ حولي
كالثعالب: [كُلُّ شيء باطلٌ، فاغنَمْ
حياتَكَ مثلما هِيَ برهةً حُبْلَى بسائلها،
دَمِ العُشْب المُقَطَّرِ. عِشْ ليومك لا
لحلمك. كلُّ شيء زائلٌ. فاحذَرْ
غداً وعشِ الحياةَ الآن في ٱمرأةٍ
تحبُّكَ. عِشْ لجسمِكَ لا لِوَهْمِكَ.

وانتظرْ
ولداً سيحمل عنك رُوحَكَ.
فالخلودُ هُوَ التَّنَاسُلُ في الوجود.
وكُلُّ شيءٍ باطلٌ أو زائل، أو
زائل أو باطلٌ]

مَنْ أَنا؟
أَنشيدُ الأناشيد
أم حِكْمَةُ الجامعةْ؟
وكلانا أَنا ...
وأَنا شَاعرٌ
ومَلِكْ
وحكيمٌ على حافّة البئرِ
لا غيمةٌ في يدي
ولا أَحَدَ عَشَرَ كوكباً
على معبدي
ضاق بي جَسَدي
ضاق بي أَبدي
وغدي
جالسٌ مثل تاج الغبار

على مقعدي

باطلٌ، باطلُ الأباطيل ... باطلْ
كُلُّ شيء على البسيطة زائلْ

ألرياحُ شماليَّةٌ
والرياحُ جنوبيَّةٌ
تُشْرِقُ الشمسُ من ذاتها
تَغْرُبُ الشمسُ في ذاتها
لا جديدَ، إذاً
والزَمَنْ
دائريُّ الخطى.
ما يكونُ غداً

كان أَمسِ،
سُدىً في سُدَى.
ألهياكلُ عاليةٌ
والسنابلُ عاليةٌ
والسماءُ إذا انخفضت مَطَرتْ
والبلادُ إذا ارتفعت أَقفرت
كُلُّ شيء إذا زاد عن حَدِّهِ
صار يوماً إلى ضدِّهِ.
والحياةُ على الأرض ظلٌّ
لما لا نرى ...

باطلٌ، باطلُ الأباطيل ... باطلْ
كلُّ شيء على البسيطة زائلْ

١٤٠٠ مركبة
و ١٢,٠٠٠ فرس
تحمل ٱسمي المُذَهَّبَ من
زَمَنٍ نحو آخر ...
عشتُ كما لم يَعِشْ شاعرٌ
مَلكاً وحكيماً ...
هَرِمْتُ، سَئِمْتُ من المجدِ
لا شيءَ ينقصني
أَلهٰذا إذاً
كلما ٱزداد علمي
تعاظَمَ هَمِّي؟
فما أُورشليمُ وما العَرْشُ؟
لا شيءَ يبقى على حالِه

للولادة وَقْتٌ
وللموت وقتٌ
وللصمت وَقْتٌ
وللنُّطق وقْتٌ
وللحرب وقْتٌ
وللصُّلحِ وقْتٌ
وللوقتِ وقْتٌ
ولا شيءَ يبقى على حالِهِ ...
كُلُّ نَهْرٍ سيشربُهُ البحرُ
والبحرُ ليس بملآنَ،
لا شيءَ يبقى على حالِهِ
كُلُّ حيّ يسيرُ إلى الموت
والموتُ ليس بملآنَ،
لا شيءَ يبقى سوى ٱسمي المُذَهَّبِ

بعدي:
«سُلَيمانُ كانَ» ...
فماذا سيفعل موتى بأسمائهم
هل يُضيءُ الذَّهَبْ
ظلمتي الشاسعةْ
أَم نشيدُ الأناشيد
والجامعةْ؟

باطلٌ، باطلُ الأباطيل ... باطلْ
كُلُّ شيء على البسيطة زائلْ/ ...

مثلما سار المسيحُ على البُحَيْرَةِ،
سرتُ في رؤيايَ. لكنِّي نزلتُ عن
الصليب لأَنني أَخشى العُلُوَّ، ولا
أُبَشِّرُ بالقيامةِ. لم أُغيِّرْ غَيْرَ
إيقاعي لأَسمَعَ صوتَ قلبي واضحاً.
للملحميِّين النُّسُورُ ولي أَنا: طوقُ
الحمامةِ، نجمةٌ مهجورةٌ فوق السطوح،
وشارعٌ مُتَعرِّجٌ يُفْضي إلى ميناءِ
عكا ــ ليس أكثرَ أَو أَقلَّ ــ
أُريد أَن أُلقي تحيَّاتِ الصباح عليَّ
حيث تركتُني ولداً سعيدا [لم
أَكَنْ ولداً سَعيدَ الحظِّ يومئذٍ،

ولكـنَّ المسافةَ، مثلَ حـدَّادينَ ممتازيـنَ،
تصنَـعُ من حديدٍ تافهٍ قمراً]
ـ أَتعرفني؟
سألتُ الظلَّ قرب السورِ،
فانتبهتْ فتاةٌ ترتدي ناراً،
وقالت: هل تُكَـلِّمني؟
فقلتُ: أُكَـلِّـمُ الشَـبَحَ القرينَ
فتمتمتْ: مجنونُ ليلى آخرٌ يتفقَّـدُ
الأطلالَ،
وانصرفتْ إلى حانوتها في آخر السُوق
القديمةِ ...
هٰـهنا كُنَّا. وكانت نَـخْـلَتانِ تحـمِّـلان
البحرَ بعضَ رسائلِ الشعراءِ ...
لم نكبر كثيراً يا أَنا. فالمنظرُ

البحريُّ، والسُّورُ الـمُـدَافِعُ عن خسارتنا،
ورائحةُ البَـخُور تقول: ما زلنا هنا،
حتى لو انفصَلَ الزمانُ عن المكانِ.
لعـلَّنا لم نفترق أَبداً
ـــ أتعرفني؟
بكى الوَلَـدُ الذي ضـيَّـعتُـهُ:
«لم نفترق. لكننا لن نلتقي أَبداً» ...
وأَغْلَقَ موجتين صغيرتين على ذراعيه،
وحـلَّق عالياً ...
فسألتُ: مَنْ منَّـا الـمُـهَـاجِرُ؟/
قلتُ للسّجَّـان عند الشاطىء الغربيّ:
ـــ هل أَنت ٱبنُ سجّـاني القديمِ؟
ـــ نعم!

ـ فأين أَبوك؟
قال: أَبي توفِّـيَ من سنين.
أُصيبَ بالإحباط من سَأَم الحراسة.
ثم أَوْرَثَني مُـهمَّـتَهُ ومهنته، وأوصاني
بأن أَحمي المدينةَ من نشيدكَ ...
قُلْـتُ: مَنْذُ متى تراقبني وتسجن
فيَّ نفسَكَ؟
قال: منذ كتبتَ أُولى أُغنياتك
قلت: لم تَـكُ قد وُلِـدْتَ
فقال: لي زَمَنٌ ولي أَزليَّةٌ،
وأُريد أن أَحيا على إيقاعِ أمريكا
وحائطِ أُورشليمَ
فقلتُ: كُنْ مَنْ أَنتَ. لكني ذهبتُ.
ومَنْ تراه الآن ليس أنا، أنا شَبَحي

فقال: كفى! أَلستَ ٱسمَ الصدى
الحجريِّ؟ لم تذهَبْ ولم تَرْجِعْ إذاً.
ما زلتَ داخلَ هذه الزنزانة الصفراءِ.
فاتركني وشأني!
قلتُ: هل ما زلتُ موجوداً
هنا؟ أأَنا طليقٌ أَو سجينٌ دون
أن أدري. وهذا البحرُ خلف السور بحري؟
قال لي: أَنتَ السجينُ، سجينُ
نفسِكَ والحنينِ. ومَنْ تراهُ الآن
ليس أَنا. أَنا شَبَحي
فقلتُ مُحَدِّثاً نفسي: أَنا حيٌّ.
وقلتُ: إذا التقى شَبَحانِ
في الصحراء، هل يتقاسمانِ الرملَ،

أَم يتنافسان على احتكار الليل؟/

كانت ساعَةُ الميناءِ تعمَلُ وحدها.
لم يكترثْ أَحَدٌ بليل الوقت، صَيَّادو
ثمار البحر يرمون الشباك ويجدلون
الموجَ. والعُشَّاقُ في الـ «ديسكو».
وكان الحالمون يُرَبِّتُون القُبَّراتِ النائماتِ
ويحلمون ...
وقلتُ: إن متُّ انتبهتُ ...
لديَّ ما يكفي من الماضي
وينقُصُني غَدٌ ...
سأسيرُ في الدرب القديم على

خُطَايَ، على هواءِ البحر. لا
ٱمرأةٌ تراني تحت شرفتها. ولم
أملكْ من الذكرى سوى ما ينفَعُ
السَّفَرَ الطويلَ. وكان في الأيام
ما يكفي من الغد. كُنْتُ أصْغَرَ
من فراشاتي ومن غَمَّازتينِ:
خُذي النُّعَاسَ وخبِّئيني في
الرواية والمساء العاطفيّ/
وَخبِّئيني تحت إحدى النخلتين /
وعلِّميني الشِعْرَ / قد أَتعلَّمُ
التجوال في أنحاء «هومير» / قد
أُضيفُ إلى الحكاية وَصْفَ
عكا / أقدمِ المدنِ الجميلةِ،

أَجملِ المدن القديمةِ/ علبَةٌ
حَجَرِيَّةٌ يتحرَّكُ الأحياءُ والأمواتُ
في صلصالها كخليّة النحل السجين
ويُضْرِبُونَ عن الزهور ويسألون
البحر عن باب الطوارئ كُلَّما
اشتدَّ الحصارُ / وعلّمني الشِعْرَ /
قد تحتاجُ بنتٌ ما إلى أُغنية
لبعيدها: «خُذْني ولو قَسْراً
إليكَ، وضَعْ منامي في
يَدَيْكَ». ويذهبان إلى الصدى
مُتَعانِقَيْنِ / كأنّني زوَّجتُ ظبياً
شارداً لغزالةٍ / وفتحتُ أبوابَ
الكنيسةِ للحمام ... / وعَلّمني

الشِعْرَ / مَنْ غزلتْ قميصَ
الصوف وانتظرتْ أمام الباب
أَوْلَى بالحديث عن المدى، وبخَيْبَةِ
الأَمَلِ: ٱلمُحاربُ لم يَعُدْ، أو
لن يعود، فلستَ أَنتَ مَن
انتظرتُ ... /

ومثلما سار المسيحُ على البحيرة ...
سرتُ في رؤيايَ. لكنّي نزلتُ عن
الصليب لأنني أَخشى العُلُوَّ ولا
أُبشِّرُ بالقيامة. لم أُغيِّر غيرَ إيقاعي

لأَسمع صوتَ قلبي واضحاً ...
للملحميِّين النُسُورُ ولي أَنا طَوْقُ
الحمامة، نَجْمَةٌ مهجورةٌ فوق السطوح،
وشارعٌ يُفضي إلى الميناء ... /
هذا البحرُ لي
هذا الهواءُ الرَّطْبُ لي
هذا الرصيفُ وما عَلَيْهِ
من خُطَايَ وسائلي المنويِّ ... لي
ومحطَّةُ الباصِ القديمةُ لي. ولي
شَبَحي وصاحبُهُ. وآنيةُ النحاس
وآيةُ الكرسيّ، والمفتاحُ لي
والبابُ والحُرَّاسُ والأجراسُ لي

لِيَ حَذْوَةُ الفَرَسِ التي
طارت عن الأَسوار ... لي
ما كان لي. وقصاصَةُ الوَرَقِ التي
انتُزِعَتْ من الإنجيل لي
والمِلْحُ من أَثر الدموع على
جدار البيت لي ...
وٱسمي، وإن أخطأتُ لَفْظَ ٱسمي
بخمسة أَحْرُفٍ أُفُقيّةِ التكوين لي:
ميمُ/ المُتَيَّمُ والمُيتَّمُ والمتمِّمُ ما مضى
حاءُ/ الحديقةُ والحبيبةُ، حيرتانِ وحسرتان
ميمُ/ المُغَامِرُ والمُعَدُّ المُسْتَعدُّ لموته
الموعود منفيّاً، مريضَ المُشْتَهَى

واو/ الوداعُ، الوردةُ الوسطى،
ولاءٌ للولادة أَينما وُجدَتْ، وَوَعْدُ الوالدين
دال / الدليلُ، الدربُ، دمعةُ
دارةٍ دَرَسَتْ، ودوريّ يُدَلِّلُني ويُدْميني /
وهذا الاسمُ لي ...
ولأصدقائي، أينما كانوا، ولي
جَسَدي المُؤَقَّتُ، حاضراً أم غائباً ...
مِتْرانِ من هذا التراب سيكفيان الآن ...
لي مِتْرٌ و٧٥ سنتمتراً ...
والباقي لِزَهْرٍ فَوْضَويّ اللونِ،
يشربني على مَهَلٍ، ولي
ما كان لي: أَمسي، وما سيكون لي

غَدِيَ البعيدُ، وعودة الروح الشريدِ
كأنَّ شيئاً لم يَكُـنْ
وكأنَّ شيئاً لم يكن
جرحٌ طفيف في ذراع الحاضر العَبَثيِّ ...
والتاريخُ يسخر من ضحاياهُ
ومن أَبطالِهِ ...
يُلْقي عليهمْ نظرةً ويمرُّ ...
هذا البحرُ لي
هذا الهواءُ الرَّطْبُ لي
واسمي ــ
وإن أخطأتُ لفظ ٱسمي على التابوت ــ
لي.
أَما أَنا ــ وقد امتلأتُ

بكُـلِّ أَسباب الرحيل ــ
فلستُ لي.
أَنا لَستُ لي
أَنا لَستُ لي ...

صدر للشاعر

- أوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أُحبك، أو لا أُحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق
- أعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أُغنية، هي أُغنية
- ورد أَقل

- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أرى ما أريد
- أحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش (جزآن)

وعن
«رياض الريّس للكتب والنشر»

لماذا تركت الحصان وحيداً

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

سرير الغريبة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

جدارية

الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

حالة حصار

الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢

الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢

لا تعتذر عما فعلت

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

الأعمال الجديدة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤

كزهر اللوز أو أبعد

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥

الطبعة الثانية: تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

الديوان: الأعمال الأولى (٣ أجزاء)

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

في حضرة الغياب (نص)

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦

ذاكرة للنسيان

الطبعة الثامنة: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

يوميات الحزن العادي

الطبعة الرابعة: حزيران/يونيو ٢٠٠٧

حيرة العائد

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٧



الأعمال
الجديدة الكاملة

محمود
درويش



ISBN 9953-21-158-2
9 789953 211589

RIAD EL-RAYYES BOOKS



الأعمال الجديدة الكاملة

محمود درويش

٢

طبعة جديدة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

الأعمال الجديدة

محمـود درويـش

الأعمـال الجديـدة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

THE NEW COMPLETE WORKS

(2)

By Mahmoud Darwich

First Published in January 2009

BEIRUT- LEBANON
info@elrayyesbooks.com . www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-398-4

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩

المحتويات

سرير الغريبة

!

القصائد

كُتبت هذه المجموعة
في عامي ١٩٩٦ ـ ١٩٩٧

كان ينقصنا حاضر

لِنَذْهَبْ كما نَحْنُ:
سيِّدةً حُرَّةً
وصديقاً وفيّاً،
لنذهبْ معاً في طريقَيْنِ مُخْتَلِفَيْنْ
لنذهَبْ كما نحنُ مُتَّحِدَيْن
ومُنْفَصِلَيْنْ،
ولا شيءَ يُوجِعُنا
لا طلاقُ الحمام ولا البردُ بين اليَدَيْن
ولا الريحُ حول الكنيسة تُوجِعُنا...

لم يكن كافياً ما تفتَّح من شَجَر اللوز
فابتسمي يُزْهِرِ اللوزُ أكثرَ
بين فراشات غمازَتَيْنْ.

وعمَّا قليلٍ يكونُ لنا حاضرٌ آخَرٌ
إن نَظَرْتِ وراءك لن تبصري
غيرَ منفى وراءك:
غُرْفَةُ نومِكِ،
صفصافةُ الساحةِ،
النهرُ خلف مباني الزجاج،
ومقهى مواعيدنا... كُلُّها، كُلّها
تَسْتَعِدُّ لتصبح منفىً، إذاً
فلنكن طيّبين!

لِنَذْهَبْ كما نَحْنُ:

إنسانةً حُـرّةً
وصديقاً وفيّاً لناياتها،
لم يكن عُـمْرُنا كافياً لنشيخ معاً
ونسيرَ إلى السينما متعبين
ونَـشْهَدَ خاتمةَ الحرب بين أَثينا وجاراتها
ونرى حفلة السلم ما بين روما وقرطاج
عـمَّا قليل.
فعـمَّا قليلٍ ستنتقل الطَـيْرُ من زَمَنٍ نحو آخرَ،
هل كان هذا الطريقُ هباءً
على شَكْل معنى، وسار بنا
سَفَراً عابراً بين أسطورتين
فلا بُدَّ منه، ولا بُدَّ منا
غريباً يرى نَفْسَهُ في مرايا غريبته؟
«لا، ليس هذا طريقي إلى جَسَدي
«لا حُلول ثقافيَّةً لـهُمُومٍ وُجوديَّةٍ

«أَينما كنتَ كانت سمائي
حَقِيقيَّةً
«مَنْ أَنا لأُعيد لَكَ الشَمْسَ والقَمَرَ السابقين
فلنكن طيّبين ...

لنذهبْ، كما نحن:
عاشقةً حُرَّةً
وشاعِرَها.
لم يكن كافياً ما تساقط من
ثلج كانون أَوَّلَ، فابتسمي
يندف الثلج قطناً على صلوات المسيحيِّ،
عمَّا قليلٍ نعود إلى غَدِنا، خَلْفَنا،
حَيْثُ كُنَّا هناك صغيرين في أوَّل الحب،
نلعب قصة روميو وجولييت
كي نتعلَّم مُعْجَمَ شكسبير...

طار الفَرَاشُ مِنَ النَوْمِ
مثل سرابِ سلامٍ سريع
يُكَلِّلُنا نجمتين
ويَقتلُنا في الصراع على الاسم
ما بين نافذتين
لنذهب، إذاً
ولنكن طيِّبين

لِنَذْهَبْ، كما نَحْنُ:
إنسانةً حُرَّة
وصديقاً وفيّاً،
لنذهَبْ كما نحن. جئنا
مَعَ الريح من بابلٍ
ونسيرُ إلى بابلٍ ...
لم يَكُنْ سَفَرِي كافياً
ليصير الصَنَوْبَرُ في أَثَري

لفظةً لمديح المكان الجنوبيِّ
نحن هنا طَيِّبونَ. شَماليَّةٌ
ريحُنا، والأغاني جَنُوبيَةٌ
هل أَنا أَنتِ أُخرى
وأَنت أَنا آخر؟
«ليس هذا طريقي إلى أرض حُريَّتي
ليس هذا طريقي إلى جَسَدي
وأَنا، لن أكون «أنا» مَرَّتين
وقد حلَّ أَمسِ مَحَلَّ غدي
وانقَسَمْتُ إلى ٱمرأتين
فلا أَنا شرقيَّةٌ
ولا أنا غربيَّةٌ،
ولا أَنا زيتونةٌ ظَلَّلَتْ آيتَيْنْ
لِنَذْهَبْ، إذاً.
«لا حلولَ جماعيَّةً لهواجسَ شخصيَّةٍ
لم يكن كافياً أَن نكون معاً

لنكون معاً...
كان ينقُصُنا حاضرٌ لنرى
أَين نحن. لنذْهَبْ كما نحن،
إنسانةً حُرَّةً
وصديقاً قديماً
لنذهبْ معاً في طريقين مختلفين
لنذهب معاً،
ولنكن طيّبين...

سوناتا [I]

إذا كُنْتِ آخرَ ما قالَهُ اللهُ لي، فليكُنْ
نزولُك نُونَ الـ «أَنا» في الـمُثَنَّى. وطوبى لنا
وقد نَوَّر اللوزُ بَعْدَ خُطَى العابرين، هنا
على ضفتيك، ورفَّ عليك القطا واليمامُ

بقَرْنِ الغزال طَعَنْتِ السماء، فسال الكلامُ
ندى في عروق الطبيعة. ما ٱسمُ القصيدةْ
أَمام ثُنَائيَّة الـخَلْقِ والحق، بين السماء البعيدة
وأَرْزِ سريركِ، حين يحنُّ دَمٌ لدمٍ، ويئنُّ الرخامُ؟

ستحتاجُ أسطورةٌ للتشمُّس حولك. هذا الزحامُ
إلٰهاتُ مِصْرَ وسُومَرَ تحت النخيل يُغيِّرن أَثوابهنَّ
وأَسماءَ أَيامهن، ويُكْملن رحلاتهنَّ إلى آخر القافية...

وتحتاج أنشودتي للتنفُّسِ: لا الشعرُ شعرٌ
ولا النثرُ نثرٌ. حلمت بأَنَّكِ آخرُ ما قالَهُ
لِيَ اللهُ حين رأيتكما في المنام، فكان الكلامُ...

سماء منخفضة

هُنَالِكَ حُبٌّ يسيرُ على قَدَمَيْهِ الحَرِيرِيَّتَيْنْ
سعيداً بغُرْبَتِهِ في الشوارع،
حُبٌّ صغيرٌ فقيرٌ يُبَلِّلُهُ مَطَرٌ عابرٌ
فيفيض على العابرين:
«هداياىَ أكبرُ منّي
كُلُوا حِنْطَتي
وٱشربوا خَمْرَتي
فسمائي على كتفيَّ وأَرضي لَكُمْ...

هَلْ شَمَمْتِ دَمَ الياسمينِ المَشَاعَ
وفكَّرْتِ بي
وانتظرتِ معي طائراً أَخضرَ الذَيْلِ
لا ٱسْمَ لَهُ؟

هُنَالِكَ حُبٌّ فقيرٌ يُحدِّقُ في النهرِ
مُسْتَسْلِماً للتداعي: إلى أَين تَرْكُضُ
يا فَرَسَ الماءِ؟
عما قليل سيمتصُّكَ البحرُ
فامش الهوينى إلى مَوْتكَ الاختياريِّ،
يا فَرَسَ الماء!

هل كنتِ لي ضَفَّتَيْنْ
وكان المكانُ كما ينبغي أن يكون
خفيفاً خفيفاً على ذكرياتِكِ؟

أَيَّ الأغاني تُـحِبِّينَ
أيَّ الأغاني؟ أَتلك التي
تتحدَّثُ عن عَطَشِ الـحُبِّ،
أَمْ عن زمانٍ مضى؟

هنالك حُبّ فقير، ومن طَرَفٍ واحدٍ
هادئٌ هادئٌ لا يُكَسِّرُ
بِلَّوْرَ أَيَّامِكِ الـمُنْتَقَاةِ
ولا يُوقدُ النارَ في قَمَرٍ باردٍ
في سريرِكِ،
لا تشعرينَ بهِ حينَ تبكينَ من هاجسٍ،
رُبَّما بدلاً منه،
لا تعرفين بماذا تُـحِسِّين حين تَضُمِّينَ
نفسَكِ بين ذراعيكِ!
أَيَّ الليالي تريدين، أيَّ الليالي

وما لوْنُ تِلْكَ العيونِ التي تحلُميـنَ
بها عندما تحلمين؟
هُنَالِكَ حُـبٌّ فقيرٌ، ومن طرفين
يُقَلِّلُ من عَدَد اليائسين
ويرفَعُ عَرْشَ الـحَمَام على الجانبين.
عليكِ، إذاً، أَن تَقُودي بنفسِكِ
هذا الربيعَ السريعَ إلى مَنْ تُحبّيـنَ
أَيَّ زمانٍ تريدين، أَيَّ زمان
لأُصبحَ شاعِرَهُ، هكذا هكذا: كُـلَّما
مَضَتِ ٱمرأةٌ في المساء إلى سرِّها
وَجَدَتْ شاعراً سائراً في هواجسها.
كُلَّما غاص في نفسه شاعرٌ
وَجَدَ امرأةً تتعرَّى أَمام قصيدتِهِ...

أَيَّ منفىً تريديـنَ؟

هل تذهبين معي، أَمْ تسيرين وَحْدَكِ
في ٱسْمك منفىً يُكَلِّلُ منفىً
بِلأْلاَئِهِ؟

هُنَالِكَ حُبٌّ يَمُرُّ بنا،
دون أَن نَنْتَبِهْ،
فلا هُوَ يَدْري ولا نحن نَدْري
لماذا تُشرِّدُنا وردةٌ في جدارٍ قديم
وتبكي فتاةٌ على مَوْقف الباص،
تَقْضِمُ تُفَّاحَةً ثم تبكي وتضحَكُ:
«لا شيءَ، لا شيءَ أكثر
من نَحْلَةٍ عَبَرَتْ في دمي...

هُنالِكَ حُبّ فقيرٌ، يُطيلُ
التأمُّلَ في العابرين، ويختارُ

أَصغَرَهُمْ قمراً: أَنتَ في حاجةٍ
لسماءٍ أَقلَّ ارتفاعاً،
فكن صاحبي تَتَّسعْ
لأَنانيَّةِ ٱثنين لا يعرفان
لمن يُهْدِيانِ زُهُورَهُما ...
رُبَّما كان يَقْصِدُني، رُبَّما
كان يقصدُنا دون أَن نَنْتَبِهْ

هُنَالِكَ حُبّ ...

نمشي على الجسر

تُصابين، مثلي، برحلةِ طَيْرِ
ويحدُثُ ذلك بعد الظهيرةِ،
حيث تقولين: خُذْني إلى النهرِ
يا أَجنبيٌّ، إلى النهر خذني
فإنَّ طريقي على ضَفَّتَيْكَ طويلُ

ونُصغي إلى ما يَقُولُ المُشَاةُ
على الجسر:
«لي عَمَلٌ آخرٌ غيرُ هذا،

«ولي مقعدٌ في السفينة
«لي حصَّةٌ في الحياة
«وأَمَّا أَنا،
فعليَّ اللحاقُ بمترو الضواحي
«تأخَّرتُ عن ذكرياتي
وعن موعد الساكسفون،
وَلَيْلي قليلُ

ونُصغي إلى ما بنا من حنينٍ خفيّ
إلى شارعٍ غامضٍ: لي حياتي هناك
حياتي التي صنعَتْها القوافلُ وانصرَفَتْ،
وهنا لي حياتي على قَدْر خبزي
وأَسئلتي عن مصيرٍ يُعَذِّبُه حاضرٌ
عابرٌ، وغَدٌ فوضويٌ جَميلُ

صدىً للصدى، أَيُّنا قال هذا الكلام، أَنا
أَمِ الأَجنبيَّةُ؟ لا أَحَدٌ يستطيعُ
الرجوع إلى أَحد. تصنع الأَبديَّةُ
أَشغالها اليدويَّةَ من عمرنا وتُعَمِّرُ...
فليكُنِ الحُبُّ ضرباً من الغَيْبِ، وليكُنِ
الغيبُ ضرباً من الحُبِّ. إني عجبتُ
لمن يعرفُ الحبَّ كيف يُحِبُّ! فقد
يتعَبُ الحُبّ فينا من الانتظار ويمرَضُ،
لكنَّهُ لا يَقُولُ

لدى غدنا ما سيكفي من الوقت، يكفي
لنمشي على الجسر عَشْرَ دقائقَ أُخرى،
فقد نتغيَّرُ عما قليلٍ وننسى ملامح
ثالثِنا/ الموتِ، ننسى الطريقَ إلى البيت
قرب السماء التي خذلتنا كثيراً،

خذيني إلى النهر، يا أَجنبيَّةُ،
قد نتغيَّر عمَّا قليل. وقد يحدثُ
المستحيلُ

كما في الكتابة، يأتي الضروريُّ
في حينه قمراً أُنثوياً لملء فراغ
القصيدة. لا تتركيني تماماً، ولا
تأخذيني تماماً. ضعي في المكان الصحيح
الزمانَ الصحيح. فأنتِ السبيلُ وأَنتِ الدليلُ

بلاد حقيقيَّةٌ، لا مجاز، ذراعاك
حولي... هنالك قرب الكتاب المُقَدَّس
أَو هٰهنا. أَيُّنا قال: قد تحفَظُ
اللغةُ الأَرضَ مما يُلِمُّ بها من
غيابٍ إذا انتصر الشعرُ؟ مَنْ

قال منا: سأنسى، وأَغفر للقلب
أكثر من خطأ واحد، كلما طال
هذا الرحيلُ...

ليلُكِ من ليلكٍ

يجلسُ الليلُ حيث تكونين. ليلُك من
لَيْلَكٍ. بين حين وآخرَ تُفْلتُ إيماءةٌ
من أَشعَّة غمَّازتَيْك فتكسر كأسَ النبيذ
وتُشْعل ضوء النجوم. وليلُك ظِلُّكِ ـ
قطعةُ أرضٍ خرافيَّةٍ للمساواة ما بين
أَحلامنا. ما أَنا بالمسافر أَو بالمُقيم على
لَيْلِكِ الليلكيِّ، أَنا هُوَ مَنْ كان يوماً
أَنا، كُلَّما عَسْعَسَ الليلُ فيك حَدَسْتُ
بمَنْزِلَةِ القلب ما بين مَنْزِلَتَيْنْ: فلا

النفسُ ترضى، ولا الروحُ ترضى. وفي
جَسَدَيْنا سماءٌ تُعانق أَرضاً. وكُلُّك
ليلُكِ... لَيْلٌ يشعُّ كحبر الكواكب. لَيْلٌ
على ذمَّة الليل، يزحف في جسدي
خَدَراً كنُعاس الثعالب. ليل ينثُّ غموضاً
مضيئاً على لُغَتي، كُلَّما اتَّضَحَ آزدَدْتُ
خوفاً من الغد في قبضة اليد. ليلٌ
يُحدِّقُ في نفسه آمناً مطمئناً إلى لا
نهاياته، لا تحفُّ به غيرُ مرآته
وأَغاني الرُعاة القُدَامى لصيف أَباطرةٍ
يمرضون من الحبِّ. ليل ترعرع في شِعْرِهِ
الجاهليِّ على نزوات آمرىء القيس والآخرين،
ووسَّع للحالمين طريقَ الحليب إلى قمرٍ
جائعٍ في أَقاصي الكلامْ...

سوناتا [II]

لعلَّكِ حين تُديرينِ ظِلَّكِ للنهر لا تطلبين
مِنَ النهر غيرَ الغُموض. هُناكَ خريفٌ قليلْ
يَرُشُّ على ذَكَرِ الأَيِّلِ الماءَ من غيمةٍ شاردةْ
هُناكَ، على ما تَرَكْتِ لنا من فُتَاتِ الرحيلْ

غموضُك دَرْبُ الحليب. غبارُ كواكبَ لا ٱسم لها
وَلَيْلٌ غُمُوضُكِ في لُؤْلُؤ لا يُضيءُ سوى الماء،
أَمَّا الكلامُ فمن شأنه أَن يضيء بمفردةٍ واحدةْ

«أُحبُّكِ» لَيْلَ المهاجر بين مُعَلَّقَتَيْنْ وَصَفَّيْ نخيلْ

أَنا مَنْ رأى غَدَهُ إذْ رآكِ. أَنا مَنْ رأى
أَناجيلَ يكتبها الوثنيُّ الأَخيرُ على سفحِ جلعادَ
قبل البلادِ القديمةِ أَو بعدها. وأنا الغيمةُ العائدةْ
إلى تِينَةٍ تحملُ ٱسمي، كما يحملُ السيفُ وَجْهَ
القتيلْ

لعلَّكِ، حين تُديرين ظلَّك لي، تمنحين المجاز
وقائعَ معنىً لما سوف يحدث عمَّا قليلْ...

وقوع الغريب
على نفسه في الغريب

واحدٌ نحن في اثنين/
لا اسمَ لنا، يا غريبةُ، عند وُقُوع
الغريب على نفسه في الغريب. لَنَا من
حديقتنا خلفنا قُوَّةُ الظلِّ. فلتُظْهري
ما تشائين من أرض ليلك، ولتُبْطِني
ما تشائين. جئنا على عَجَلٍ من غروب
مكانين في زمن واحد، وبحثنا معاً
عن عناويننا: فاذهبي خَلْف ظلِّك،

شَرْقَ نشيد الأَناشيد، راعيةً للقطا،
تجدي نجمةً سَكَنَتْ موتها، فاصعدي جَبَلاً
مُهْمَلاً تجدي أَمسِ يُكْمِلُ دورتَهُ في غدي.
تجدي أَين كنا وأَين نكون معاً،
واحدٌ نحن في ٱثنين/
فاذهب إلى البحر، غَرْبَ كتابك،
واغطُسْ خفيفاً خفيفاً كأَنَّك تحمل
نَفْسَكَ عند الولادة في موجتين،
تجدْ غابةً من حشائش مائيةٍ وسماءً
من الماء خضراءَ ، فاغطسْ خفيفاً
خفيفاً كأنك لا شيء في أَيِّ شيء،
تجدنا معاً...
واحدٌ نحن في ٱثنين/
ينقُصُنا أَن نرى كيف كنا هنا، يا
غريبةُ، ظلّين ينفتحانِ وينغلقانِ على ما

تشكَّل من شكلنا: جَسَداً يختفي ثم يظهَرُ
في جَسَدٍ يختفي في التباس الثنائية
الأَبدية. ينقُصُنا أَن نعودَ إلى ٱثنين
كي نتعانق أكثر. لا اسم لنا يا غريبة
عند وقوع الغريب على نفسه في الغريب!

غيمة من سدوم

بَعْدَ لَيْلِكِ، ليلِ الشتاء الأَخير
خَلاَ شارعُ البحر من حَرَسِ الليل،
لا ظلَّ يتبعُني بعدما جَفَّ لَيْلُكِ
في شمس أُغنيتي. مَنْ يقول لي
الآن: دعك من الأَمس واحْلُمْ بكامل
لا وعيك الـحُرّ؟
حُرّيتي تجلس الآن قربي، معي، وعلى
ركبتيَّ كقطٍ أليف. تُحدِّق بي وبما
قد تركتِ من الأمس لي: شالكِ

الليلكيَّ، شرائطَ فيديو عن الرقص بين الذئاب، وعقداً
من
الياسمين على طُحْلُب القلب...

ماذا ستصنع حُرِّيتي، بعد ليلك،
ليل الشتاء الأَخير؟
«مَضَتْ غَيْمَةٌ من سَدُومَ إلى بابلٍ،
من مئات السنين، ولكن شاعرها «بول
تسيلان» ٱنتحر، اليومَ، في نهر باريس.
لن تأخذيني إلى النهر ثانية. لن يسائلني
حارسٌ: ما ٱسمُكَ اليومَ؟ لن نَلْعَنَ
الحربَ. لن نَلْعَنَ السلْمَ. لن نتسَلَّقَ سُورَ
الحديقة بحثاً عن الليل ما بين صفصافتين
ونافذتين، ولن تسأليني: متى يفتح
السِلْمُ أَبوابَ قلعتنا للحمام؟

بعد ليلك، ليل الشتاء الأخير
أقام الجنودُ معسكرهم في مكان بعيد
وحطَّ على شرفتي قمر أبيض
وجلست وحُرّيتي صامتين نُحَدِّقُ في ليلنا
مَنْ أَنا؟ مَنْ أنا بعد لَيْلِكِ
ليلِ الشتاءِ الأَخير؟

شادنا ظبية توأمان

مساءً، على نَمَش الضوءِ ما بين
نهديك، يقتربُ الأَمسُ والغدُ مِنِّي.
وُجِدْتُ كما ينبغي للقصيدة أَن تُوجَدَ...
اَلليلُ يُولَدُ تحت لِحَافِك، والظلُّ
مُرْتَبِكٌ ههنا وهنالك بين ضفافك
والكلماتِ التي أَرْجَعَتْنا إلى نَبْرِها:
«وضعتُ يميني على شَعْرها
وشِمالي على شادِنَيْ ظَبْيَةٍ توأمين
وَسِرْنا إلى لَيْلنا الخاصِّ...»

هل أَنتِ حقاً هنا؟ أَم أَنا
عاشقٌ سابقٌ يتفقَّدُ أَحوالَ ماضِيهِ؟
نامي على نفسك المطمئنَّةِ بين
زُهُور الملاءات. نامي يداً فوق صدري
وأُخرى على ما سيَنْبُتُ من زَغَبٍ لِفِراخ
اليمامات. نامي كما ينبغي للحديقة من
حولنا أَن تنام... امتلأنا بأَمسِ،
امتلأنا بوسواس جيتارةٍ لا سرير لها.
يا لها... مِنْ فَتَاةٍ خُلاَسيَّةٍ تبعت ظلَّها.
يا لها... من هياجٍ يُمزِّقُ ما يتناثر من
وَرَقِ الورد حول السياج. فنامي
على نَفَسي نَفَساً ثانياً قبل أَن يفتح
الأَمسُ نافذتي كُلَّها. ليس لي طائرٌ
وطنيٌّ، ولا شَجَرٌ وطنيٌّ، ولا زَهْرَةٌ
في حديقة منفاك. لكنني ـــ ونبيذي

يُسَافِرُ مثلي ــ أُقاسِمُكِ الغَدَ والأَمس.
لولاك لولا الرذاذُ الذي يتلألأ في نَمَش
الضوء ما بين نهديك، لانحرفتْ لُغتي
عن أُنوثتها. كم أَنا والقصيدة أُمُّك،
وأَبناك، نغفو على شَادِنَيْ ظَبْيَةٍ
تَوْأَمَيْنْ!

سوناتا [III]

أُحبُّ من الليل أَوَّلَهُ، عندما تأتيان معا
يداً بيد، ورويداً رويداً تَضُمَّانِني مَقْطَعاً مقطعا
تطيران بي، فوق. يا صاحبيَّ أَقيما ولا تُسْرِعا
وناما على جانبيَّ كمثل جناحيْ سُنُونُوَّة مُتْعَبَهْ

حريرُكما ساخِنٌ. وعلى الناي أَن يتأَنّى قليلا
ويصقُلَ سُوناتَةً، عندما تقعان عليَّ غموضاً جميلا
كمعنى على أُهْبَةِ العُرْيِ، لا يستطيعُ الوصولا

ولا الانتظارَ الطويلَ أَمامَ الكلام، فيختارني عَتَبهْ
أُحبُّ من الشعر عَفْوِيَّةَ النثر والصورةَ الخافيةْ
بلا قَمَرٍ للبلاغةِ: حين تسيرين حافيةً تترُكُ القافية
جِماعَ الكلام، وينكسِرُ الوَزْنُ في ذروة التجربةْ

قليلٌ من الليل قربك يكفي لأخرج من بابلي
إلى جوهري ــ آخري. لا حديقةَ لي داخلي
وكُلُّكِ أَنتِ. وما فاض منك «أَنا» الحُرَّةُ الطيِّبةْ

خُذي فرسي
وٱذبحيها ...

أَنتِ، لا هَوَسي بالفتوحات، عُرْسي
تَرَكْتُ لنفسي وأقرانها من شياطين نفسِكِ
حُرِيَّةَ الامتثال لما تطلبين،
خُذي فَرَسي
وٱذبحيها،
لأَمشي مثلَ المُحَارِبِ بَعْدَ الهزيمةِ
من غَيْرِ حُلم وحسٍّ ...
سلاماً على ما تُريدين من تَعَبٍ

للأَمير الأسير، ومن ذهبٍ لاحتفال
الوصيفات بالصيف. أَلْفَ سلام عَلَيْكِ
جميعك حافلةً بالـمُريدين من كُلِّ جنٍّ وإنسٍ،
سلاماً على ما صَنَعْتِ بنفسك من
أَجل نفسك: دَبُّوسُ شَعْرِكِ يكسر
سيفي وتُرْسي
وزرٌّ قميصك يحمل في ضَوْئه
لفظةَ السرِّ للطير من كُلِّ جنسٍ،
خُذي نَفَسِي أَخْذَ جيتارَةٍ تستجيبُ
لما تطلبين من الريح. أَندلسي كُلُّها
في يديك، فلا تَدَعي وَتَراً واحداً
للدفاع عن النفس في أَرْض أَندَلُسِي
سوف أُدرك، في زمن آخر،
سوف أدرك أَني انتصرتُ بيأسي
وأَني وجدت حياتي، هنالك

خارجها، قرب أَمسي
خذي فَرسي
وٱذبحيها، لأَحمل نفسيَ حيّاً ومَيْتاً،
بنفسي...

أرض الغريبة/
أَرض السكينة

فيَّ، مثلكِ، أَرضٌ على حافَّةِ الأرضِ
مأهُولَةٌ بكِ أَو بغيابكِ. لا أَعرفُ
الأُغنيات التي تجْهَشين بها، وأَنا سائرٌ
في ضبابكِ. فلتَكُنِ الأَرضُ ما
تومئين إليه... وما تفعلينَهْ

جنوبيَّةٌ،
لا تكفُّ عن الدَوَران على نفسها
وعليك. لها موعدانِ قصيرانِ حول

السماء: شتاءٌ وصَيْفٌ. وأَمَّا الربيعُ
وأَطوارُهُ، فَهْوَ شَأْنُكِ وَحْدَكِ.
قُومي إلى أَيَّةِ ٱمرأةٍ فيك تنتشرِ
المرغريتا على كُلّ نافِذَةٍ في المدينهْ

مُذهَّبَةٌ،
مثل صَيْفِ الأميرِ الصغير. وأَمَّا
الخريفُ وتأويلُهُ ذَهَباً مُتْعَباً، فهو
شأني أنا، حين أُطْعِمُ طَيْرَ الكنائسِ
خُبْزي. وأَنسى وأَنتِ تسيرين بين
التماثيل حريَّةَ الحَجَرِ المرمرِيّ، وأَتْبَعُ
رائحةَ المندرينهْ

مسافرةٌ،
حول صُورَتها في مراياكِ: «لا

أُمَّ لي يا ٱبْنَتي فَلِدِيني هنا»
هكذا تَضَعُ الأرضُ في جَسَدٍ سرّها،
وتُزوِّجُ أُنثى إلى ذَكَرٍ. فخذيني
إليها إليكِ إليَّ. هُنَاكَ هُنا. داخلي
خارجي. وخُذيني لتَسْكُنَ نفسي
إليكِ، وأَسْكُنَ أَرضَ السكينهْ

سَمَاوِيَّةٌ،
لَيْس لِي ما أَقولُ عن الأرض فيكِ
سوى ما يقولُ الغريبُ: سَمَاوِيَّةٌ ...
رُبَّما يُخْطِئُ الغُرَباءُ بلفظِ حُروفٍ آراميَّةٍ.
رُبَّما يَصْنَعُون إلٰهَتَهُمْ من مَوَادَّ
بدائيَّةٍ وَجَدوها على ضفَّة النهر،
لكنهُم يُتْقِنُونَ الغناءَ: سماويَّةٌ
هٰذِهِ الأرضُ مِثْلُ سَحَابٍ خَفِيفٍ

تَبَخَّرَ من ياسمينهْ

مجازيَّةٌ،
كالقصيدةِ قبل الكتابةِ: «لا أَبَ
لي يا بُنَيَّ، فَلِدْني» تقولُ لِيَ الأرضُ
حين أَمرُّ خفيفاً على الأرض، في
لَيْل بِلَّوْرِكِ المتلالىء بين الفراشات.
لا دَمَ فوق المحاريثِ. عُذْرِيَّةٌ تتجدَّدُ
لا ٱسمَ لما ينبغي أن تكون عليه
الحياةُ سوى ما صَنَعْتِ بروحي وما تصنعينه...

حليب إنانا

لَكِ التَوْأمانِ: لَكِ النثرُ والشعرُ يَتَّحدان، وأَنتِ
تطيرين من زَمَنٍ نحو آخَرَ، سالمةً كاملةْ
على هَـوْدَجٍ من كواكب قَتْلاَكِ ــ حُرَّاسِكِ الطّيبين
وَهُمْ يحملون سماواتِكِ السَبْعَ قافلةً قافلةْ.
رُعاةُ خُيُولِكِ بين نخيلِ يَدَيْكِ ونَهْرَيْكِ يقتربون
مِنَ الماء «أُولى الإلٰهات أكثرُهُنَّ ٱمتلاءً
بنا». خالِقٌ عاشِقٌ يَتَأَمَّلُ أَفعالَهُ، فيُجَنُّ
بها ويَحِنُّ إليها: أَأَفعَلُ ثانيةً ما فَعَلْتُ؟

وكُتّابُ بَرْقِكِ يحترقون بحِبْرِ السماء، وأَحفادُهُمْ
يَنْشُرون السنونو على مَوْكب السُومريّة...
صاعدةً كانتِ السومريَّةُ، أَمْ نازلة

لَكِ، أَنتِ المَدِيدَة في البَهْوِ
ذاتِ القميص المُشَجَّر، والبنطلونِ
الرماديِّ، لا لمجازك، أوقظُ
برِّيَتي، وأَقولُ لنفسي: سيطلع
من عَتْمتي قَمَرُ...

دَعِي الماءَ ينزلْ من الأُفُق السومريّ
علينا، كما في الأَساطير. إنْ كانَ
قلبي صحيحاً كهذا الزجاجِ المحيطِ بنا
فامْلَئِيهِ بغيمكِ حتى يَعُودَ إلى أَهله
غائماً حالماً كصلاة الفقيرِ. وإنْ كانَ
قلبي جريحاً فلا تَطْعَنيه بقَرْنِ الغزال،

فلم تَبْقَ حول الفُرَات زهورٌ طبيعيَّةٌ
لـحُلُول دمي في الشقائق بعد الحروب.
ولم تَبْقَ في معبدي جَرَّةٌ لنبيذ الإلهاتِ
في سُومَرَ الأَبديَّة، في سُومَرَ الزائلةْ

لَكِ، أَنت الرشيقة في البَهْوِ
ذاتِ اليَدَيْنِ الـحَرِيرِيَّتَيـنْ
وخاصرة اللَـهْوِ،
لا لرموزك،
أُوقظُ بريَّتي، وأَقول:
سأستلُّ هٰذي الغزالَةَ من سِرْبها
وأَطعن نفسي... بها!

لا أُريد لأُغنيَّة أَن تكون سريرك،
فليَـصْقُلِ الثورُ، ثورُ العراقِ

الـمُجَنَّحُ قَرْنَيْهِ بالدَهْر والـهَيْكَل الـمُتَصَدِّعِ
في فضّة الفجرِ. وليَحْمِلِ الموتُ آلَتَهُ
المعدنيَّةَ في جَوْقة المنشدين القُدامى
لشمسِ نَبُوخَذنَصَّر. أَما أَنا، المتحدِّر
من غير هذ الزمان، فلا بُدَّ لي
من حِصَانٍ يُلائم هذا الزفاف. وإنْ كانَ
لا بُدَّ من قَمَرٍ فَليكُنْ عالياً... عالياً
ومن صُنْعِ بَغْدادَ، لا عربيّاً ولا فارسياً
ولا تدَّعِيهِ الإلهاتُ من حولنا. وليَكُنْ خالياً
من الذكريات وَخَمْرِ الـمُلُوك القدامى،
لِنُكْمِلَ هذا الزفافَ الـمُقَدَّسَ، نكملُهُ يا ٱبْنَةَ
القمر الأبَديِّ هنا في المكان الذي نَزَّلَتْهُ
يداكِ على طَرَفِ الأرض من شُرْفَة الجنَّة الآفلة! ...

لَكِ، أنت التي تَقْرَئِينَ

الجريدةَ في البَهْو،
أَنتِ المُصَابةِ بالإنفلُوَنْزا
أَقولُ: خُذِي كأسَ بابُونجٍ ساخنٍ
وَخُذي حَبَّتَيْ «أسبرين»
ليهدأ فيكِ حليبُ إِنانا،
ونعرفَ ما الزَمَنُ الآن
في مُلْتَقَى الرافِدَيْن!

سوناتا [IV]

بِبُطءٍ أُمسِّدُ نومَكِ. يا ٱسمَ الذي أَنا فيهِ
من الـحُلْم نامي. سيلتحِفُ الليلُ أَشجارَهُ، وسيغفو
على أَرضه سيّداً لغيابٍ قليل. ونامي لأَطفو
على نُقَط الضوء ترشَحُ من قَمَرٍ أَحتويه...

يُخيِّمُ شَعْرُكِ فوق رُخَامك بَدْواً ينامون سَهْواً
ولا يحلمون. يُضِيئُك زَوْجا يَمَامِك من كَتِفَيْكِ
إلى أُقحوان منامك. نامي عليك وفيك. عليك
سلامُ السماوات والأَرض تفتحُ أَبهاءها لَكِ بَهْواً فبهوا

يُغَلِّفُك النوم بي. لا ملائكةٌ يحملون السرير
ولا شَبَحٌ يُوقِظ الياسمينة. يا ٱسميْ المؤنَّثَ، نامي
فلا نايَ يبْكي على فَرَسٍ هاربٍ من خيامي

كما تحلمين تكونين، يا صَيْفَ أرضٍ شماليَّةٍ
يُـخَدِّرُ غاباته الألفَ في سَطْوَةِ النوم. نامي
ولا توقظي جَسَداً يشتهي جَسَداً في منامي

لا أَقل، ولا أكثر

أَنا ٱمرأةٌ. لا أَقلَّ ولا أَكثرَ
أَعيشُ حياتي كما هِيَ
خَيْطاً فَخَيْطاً
وأَغزِلُ صُوفي لألبسَهُ، لا
لأُكملَ قصَّةَ «هُوميرَ»، أَو شمسَهُ
وأَرى ما أَرى
كما هُوَ، في شَكْلِهِ
بيد أَنِّي أُحدِّقُ ما بين حينٍ
وآخرَ في ظلِّهِ

لأُحِسَّ بنبض الخسارةِ،
فاكتُبْ غداً
على وَرَقِ الأمس: لا صَوْتَ
إلاّ الصدى.
أُحبُّ الغموضَ الضروريَّ في
كلمات المسافر ليلاً إلى ما ٱختفى
من الطير فوق سُفُوح الكلام
وفوق سُطُوح القُرى
أَنا امرأة، لا أَقلَّ ولا أكثرَ

تُطَيِّرُني زَهْرَةُ اللوز،
في شهر آذار، من شرفتي
حنيناً إلى ما يقول البعيدُ:
«ٱلمسيني لأُوردَ خيليَ ماء الينابيع»
أَبكي بلا سَبَبٍ واضح، وأُحبُّكَ

أَنْتَ كما أَنتَ، لا سَنَداً
أَو سُدَى
ويطلع من كتفيَّ نهارٌ عليك
ويهبط، حين أَضمُّكَ، ليلٌ إليك
ولستُ بهذا ولا ذاك
لا، لستُ شمساً ولا قمراً
أَنا امرأةٌ، لا أَقلَّ ولا أكثرَ

فكُنْ أَنتَ قَيْس الحنين،
إذا شئتَ. أَمَّا أَنا
فيُعجِبُني أَن أُحَبَّ كما أَنا
لا صُورَةً
مُلَوَّنَةً في الجريدة، أو فكرةً
مُلَحّنةً في القصيدة بين الأَيائلِ...
أَسْمَعُ صرخة ليلى البعيدة

من غرفة النوم: لا تتركيني
سجينةَ قافيةٍ في ليالي القبائلِ
لا تتركيني لهم خبرا...
أَنا ٱمرأةٌ، لا أَقلَّ ولا أكثرَ

أَنا مَن أَنا، مثلما
أَنت مَنْ أَنت: تسكُنُ فيَّ
وأَسكُنُ فيك إليك ولَكْ
أُحبّ الوضوح الضروريَّ في لغزنا المشترك
أَنا لَكَ حين أَفيضُ عن الليل
لكنني لَسْتُ أَرضاً
ولا سَفَراً
أَنا ٱمرأةٌ، لا أَقَلَّ ولا أكثرَ

وَتُتْعبُني

دَوْرَةُ القَمَر الأنثويّ
فتمرضُ جيتارتي
وَتَراً
وَتَراً
أنا ٱمرأةٌ،
لا أَقلَّ
ولا أكثرَ!

أُغنية زفاف

وانتقلتُ إليكَ، كما انتقل الفلكيّونَ
من كوكبٍ نحو آخرَ. روحي تُطلُّ
على جسدي من أَصابعك العَشْر.
خُذْني إليك، ٱنطلق باليمامة حتى
أَقاصي الهديل على جانبيك: المدى
والصدى. وَدَعِ الخَيْلَ تركُضْ ورائي
سدى. فأنا لا أَرى صورتي، بَعْدُ،
في مائها... لا أَرى أَحدا

لا أَرى أَحداً، لا أَراكَ. فماذا
صنعتَ بحريتي؟ مَنْ أَنا خلف
سُورِ المدينةِ؟ لا أُمَّ تعجنُ شَعْري
الطويلَ بحنّائها الأَبديّ، ولا أُخْتَ
تضفِرُهُ. مَنْ أنا خارج السور بين
حقولٍ حياديَّةٍ وسماء رماديّةٍ. فلتكن
أَنتَ أُمِّيَ في بَلَد الغُرَبَاء. وخذني
برفق إلى مَنْ أَكونُ غدا

مَنْ أكونُ غداً؟ هل سأُولَدُ من
ضلعِكَ ٱمرأةً لا هُمُومَ لها غيرُ زينةِ
دُنْيَاكَ. أمْ سوف أَبكي هناك على
حَجَرٍ كان يُرْشِدُ غيمي إلى ماء بئرك؟
خذني إلى آخر
الأرض قبل طلوع الصباح على قَمَرٍ كان

يبكي دماً في السرير، وخُذْني برفق
كما تأخُذُ النجمةُ الحالمين إليها سُدىً
وسُدى

وسدىً، أَتطلَّعُ خلف جبال مُؤَاب،
فلا ريح تُرْجعُ ثوب العروس. أُحبُّكَ
لكنَّ قلبي يرنّ برجع الصدى ويحنُّ
إلى سَوْسَنٍ آخر. هل هنالك حُزْنٌ أَشدُّ
التباساً على النفس من فَرَح البنت
في عُرْسها؟ وأُحبك مهما تذكَّرْتُ
أَمسِ، ومهما تذكرتُ أَني نسيتُ
الصدى في الصدى

أَلصدى في الصدى، وانتقلتُ إليكَ
كما انتقلَ الاسمُ من كائنٍ نحو آخر.

كنا غريبين في بلدين بعيدين قبل قليل،
فماذا أكون غداةَ غد عندما أُصبحُ
اثنين؟ ماذا صَنَعْتَ بحُريَّتي؟ كلما
ازداد خوفيَ منك اندفعتُ إليك،
ولا فضل لي يا حبيبي الغريب سوى
وَلَعي، فلتكن ثعلباً طيِّباً في كرومي،
وحدِّق بخُضْرة عينيك في وجعي. لن
أعود إلى ٱسمي وبرِّيتي، أبداً
أَبداً
أَبدا.

تدبير منزلي

- ١ -

كم أَنا
في الصباح ذهبتُ إلى سوق يوم
الخميس. اشتريتُ حوائجنا المنزليّة،
واخترتُ أُوركيدَةً وبعثتُ الرسائل.
بلَّلني مَطَرٌ فامتلأتُ برائحة البرتقالة.
هل قُلْتَ ليْ مَرَّةً إنني نَخْلَةٌ حاملٌ،
أَم تخيَّلْتُ ذلك؟ إن لم تجدني
أَرفُّ عليك، فلا تَخْشَ ضَعْفَ الهواءِ،
وَنَمْ يا حبيبيَ نَوْمَ الهنا...

- ٢ -

كم أَنا؟
في الظهيرة، لَمَّعْتُ كُلَّ مراياي. أَعددتُ
نفسي لعيدٍ سعيدٍ. ونهدايَ، فَرْخا
يمامٍ لياليكَ يمتلئان بشهوة أَمس.
أَرى في عُروق الرخام حليبَ الكلام
الإباحي يجري ويصرخ بالشُعَراء
ٱكتبوني، كما قال ريتسوس. أَين
اختفيت وأَخفيت منفايَ عن رغبتي؟
لا أرى صُورَتي في المرايا، ولا صُورَةَ
ٱمرأةٍ من نساء أَثينا تُدِيرُ تَدَابِيرَها
العاطفيَّةَ مثلي هُنا.

ـ ٣ ـ

كم أَنا؟
في المساء، ذهبتُ إلى السينما
مع إحدى الصديقات. كان الـهُنُودُ
القدامى يطيرون في زمن الحرب والسلم
كالشُّهُب الأَثريَّة، مثلي ومثلك.
حدَّقْتُ في طائرٍ فرأيتُ جناحَيْكَ
يرتديان جناحيّ في شجر الأكاليبتوس.
ها نحن ننجو نجاة الغبار من
النهر. مَنْ كان فينا الضحيّةَ فليْحلُمِ
الآن أكثرَ من غيره، بيننا.

- ٤ -

كم أَنا؟
بعد مُنْتَصفِ الليل، أَشْرَقَتِ
الشمسُ في دمنا
كم أنا أنْتَ، يا صاحبي
كم أَنا! مَنْ أنا!

سوناتا [V]

أَمسُّكِ مَسَّ الكمان الوحيد ضواحي المكان البعيد
على مَهلٍ يطلب النهرُ حصَّته من رذاذ المطرْ
ويدنو، رويداً رويداً، غَدٌ عابرٌ في القصيد
فأحملُ أَرضَ البعيد وتحملني في طريق السفرْ

على فَرَسٍ من خصالك تنسجُ روحي
سماء طبيعيَّة من ظلالك، شرنقةً شرنقةْ
أَنا ٱبن فعالك في الأرض، وٱبنُ جروحي
وقد أَشعلَتْ وحدها جُلَّنارَ بساتينك المغلقة

من الياسمين يسيل دمُ الليل أَبيضَ. عطرُكِ
ضعفي وسرُّكِ، يتبعني مثل لدغة أَفعى. وشَعْرُكِ
خيمةُ ريحٍ خريفيَّة اللونِ. أَمشي أَنا والكلامْ
إلى آخر الكلمات التي قالها بدويٌّ لزوجي حمام

أَجسُّكِ جَسَّ الكمان حريرَ الزمان البعيدْ
وينبت حولي وحولك عُشْبُ مكانٍ قديمٍ ــ جديدْ

طائران غريبان
في ريشنا

سمائي رماديَّةٌ. حُكَّ ظهري. وفُكَّ
على مَهَلٍ، يا غريبُ، جدائلَ شعري. وقُلْ
لِيَ في مَ تُفَكِّرُ. قُلْ لِيَ ما مَرَّ
في بال يُوسُفَ. قل لِيَ بعضَ الكلام
البسيطِ... الكلامِ الذي تشتهي آمرأةٌ
أَن يُقَالُ لها دائماً. لا أُريدُ العبارةَ
كاملةً. أَكتفي بالإشارة تنثُرُني في مَهَبِّ
الفراشاتِ بين الينابيع والشمس. قُل لِيَ

إِنِّي ضروريَّةٌ لَكَ كالنوم، لا لامتِلاء
الطبيعة بالماء حولي وحولك. وأبسُطْ
عليَّ جناحاً من الأزرق اللانهائيِّ...
إنَّ سمائي رماديَّةٌ،
ورماديَّةٌ مثل لَوْحِ الكتابة، قبل
الكتابة. فاْكتُبْ عليها بحبر دمي أَيَّ
شيء يُغيِّرُها: لفظةً... لفظتين بلا
هَدَفٍ مُسْرِفٍ في المجاز. وقُلْ إِنَّنا
طائرانِ غريبانِ في أَرضِ مِصْرَ وفي
الشام.
قل إننا طائران غريبان في
ريشنا. واكتُبِ اْسميَ واْسمَكَ تحت
العبارةِ. ما الساعة الآن؟ ما لَوْنُ
وجهي ووجهك فوق المرايا الجديدةِ؟
ما عُدْت أَملكُ شيئاً ليُشْبِهَني. هل

أَحبَّتك سيِّدةُ الماء أكثرَ؟ هل راوَدَتْك
على صخرة البحر عن نفسِكَ، ٱعْتَرِفِ
الآن أَنَّكَ مَدَّدْتَ تِيهَكَ عشرين عاماً
لتبقى أَسيرَ يديها. وقُلْ ليَ في مَ
تُفَكِّرُ حين تصيرُ السماءُ رماديَّة اللون...
إنَّ سمائي رماديَّةٌ
صرتُ أُشْبهُ ما ليس يشبهني.
هل تريدُ الرجوع إلى ليل منفاك
في شَعْر حُوريّةٍ؟ أَم تريد الرجوع
إلى تين بيتك. لا عَسَلٌ جارحٌ للغريب
هنا أَو هناك. فما الساعَةُ الآن؟
ما ٱسمُ المكان الذي نحن فيه؟ وما
الفرق بين سمائي وأَرضك. قل ليَ
ما قال آدَمُ في سَرِّه. هل تَـحَرَّرَ
حين تَذَكَّرَ. قل أَيّ شيء يُغَيِّر لون

السماء الرماديَّ. قُلْ ليَ بعضَ الكلام
البسيط، الكلام الذي تشتهي ٱمرأةٌ
أَن يُقال لها بين حينٍ وآخرَ. قُلْ
إنَّ في وسع شخصين، مثلي ومثلك،
أَن يحملا كل هذا التشابه بين الضباب
وبين السراب، وأَن يَرْجِعَا سالمين. سمائي
رماديَّةٌ، فبماذا تفكِّرُ حين تكونُ السماءُ
رماديَّةً؟

لم أنتظر أحداً

سأَعرفُ، مهما ذَهَبْتَ مَعَ الريح، كيفَ
أُعيدُكَ. أَعرفُ من أَين يأتي بعيدُكَ.
فاذهَبْ كما تذهبُ الذكرياتُ إلى بئرها
الأَبديَّةِ، لن تَجِدَ السومريَّةَ حاملةً جَرَّة
للصدى في انتظارِكَ
أَمَّا أَنا، فسأعرف كيف أُعيدُكَ
فاذهبْ تقودُكَ ناياتُ أَهل البحار القدامى
وقافلةُ الملح في سَيْرِها اللانهائيِّ. واذهبْ
نشيدُكَ يُفْلِتُ منِّي ومنك ومن زَمَني،

باحثاً عن حصان جديدٍ يُرَقِّصُ إيقاعَهُ
الـحُرَّ. لن تجد المستحيلَ، كما كان يَوْمَ
وَجَدْتُكَ، يوم وَلَدْتُكَ من شهوتي
جالساً في انتظارِك،
أَمَّا أَنا، فسأعرف كيف أُعيدُكَ،
وٱذهب مع النهر من قَدَرٍ نحو
آخر، فالريحُ جاهزةٌ لاقتلاعك من
قمري، والكلامُ الأخيرُ على شجري جاهزٌ
للسقوط على ساحة التروكاديرو. تَلَفَّتْ
وراءك كي تجد الـحُلْمَ، واذهب
إلى أَيِّ شَرْقٍ وغربٍ يزيدُك منفىً،
ويُبْعدُني خطوةً عن سريري وإحدى
سماوات نفسي الحزينةِ. إنَّ النهاية
أُختُ البداية، فاذهبْ تَجِدْ ما تركتَ
هنا، في انتظارك

لم أَنتظِرْكَ، ولم أَنتظر أَحداً.
كان لا بُدَّ لي أَن أُمشِّطَ شعري
على مَهَلٍ أُسْوَةً بالنساء الوحيدات
في ليلهنَّ، وأَن أَتدبَّرَ أَمري، وأكسِرَ
فوق الرخام زجاجةَ ماء الكولونيا، وأَمنعَ
نفسي من الانتباه إلى نفسها في
الشتاء، كأني أَقولُ لها: دَفِّئيني
أُدفِّئْكِ يا ٱمرأتي، وٱعْتَني بيديك،
فما هو شأنُهما بنزول السماء إلى
الأرض أَو رحْلةِ الأرض نحو السماء،
ٱعتني بيديك لكي تَحْمِلاَكَ «يَدَاكِ
هُما سَيِّداكِ» كما قال إيلور.. فاذهب
أُريدُكَ أو لا أريدُك.

لمَ أنتظِرْكَ، ولم أنتظر أَحداً.

كان لا بُدَّ لي أَن أَصبَّ النبيذَ
بكأسين مكسورتين، وأَمنعَ نفسي من
الانتباه إلى نفسها في انتظارك!

جفاف

هذه سَنَةٌ صَعْبَةٌ
لم يَعِدْنا الخريف بشيءٍ
ولم ننتظرْ رُسُلاً
والجفافُ كما هُوَ: أَرضٌ مُعَذَّبَةٌ
وسماءٌ مُذَهَّبَةٌ،
فليكُنْ جَسَدي مَعْبَدِي

... وَعَلَيْكَ الوُصُولُ إلى خبز روحي
لتعرف نفسَكَ. لا حدَّ لي

إن أَردتُ:
أُوَسِّعُ حقلي بسنبلَةٍ
وأُوسِّعُ هذا الفضاء بترْغَلَّةٍ،
فليكن جَسَدي بَلَدي

والجفاف يُحَدِّقُ في النهر،
أَو يتطلَّعُ نحو النخيلِ
ويُخْطِئُ بئري العميقة،
لا حَدَّ لي بكَ...
إنَّ السماءَ حقيقيَّةٌ في الخريف
تخيَّلْ، ولو مَرَّةً، أَنَّكَ آمرأةٌ
لترى ما أَرى.
جسدي سيِّدي

والجفافُ على حاله: كُلَّما

جَفَّتِ الفكرةُ ازدهَرَتْ جوقةُ
المنشدين المريدين: ماء، وماء
فما حاجتي للنُبُوءةِ؟ إنَّ الملائكةَ
الطيِّبين ضيوفٌ على غيمة الحالمين.
وما حاجتي لكتابِكَ ما دام ما بكَ... بي؟
جَسَدي يَتَفتَّحُ في جَسَدي

والجفافُ يودِّعُ سَبْعَ السنين العجاف
فلا بُدَّ من هُدْنَةٍ في المدينة،
لا بُدَّ من ماعز يَقْضِمُ العُشْبَ
من كُتُب البابليين أَو غيرهم،
كي تصير السماءُ حقيقيةً...
فأَضِيءْ عَتْمتي ودمي بنبيذكَ
وأسْكُنْ، معي، جسدي!

سوناتا [VI]

صنَوْبَرَةٌ في يمينك. صَفْصَافَةٌ في شمالك. هذا
هُوَ الصيفِ: إحدى غزالاتك المائةِ استسلمت
للندى
ونامت على كَتِفِي، قُرْبَ إحدى جهاتك، ماذا
لو انتبَهَ الذئبُ، واحترقتْ غابةٌ في المدى

نعاسُك أَقوى من الخوف. بريَّةٌ من جمالكِ
تغفو، ويصحو ليحرس أَشجارَها قمرٌ من ظلالك
ما اسمُ المكان الذي وَشمَتْهُ خُطَاكِ على الأرض

أَرضاً سماويَّة لسلام العَصَافير، قرب الصدى؟
وأَقوى من السيف نومُك بين ذراعيك مُنْسَابَتَيْنْ
كنهريـنِ في جنَّة الحالميـنَ بما تصنعيـنَ على الجانبين
بنفسِكِ محمولةً فوق نفسك. قد يحمل الذئبُ ناياً
ويبكي على ضفَّة النهر: ما لم يُؤَنَّثْ... سُدَى

قليلٌ من الضعف في الاستعارة يكفي غدا
لينضج توتُ السياج، وينكسِرَ السَيْفُ تحت الندى

رزق الطيور

رُزقتُ مع الخبز حُبَّكْ
ولا شأن لي بمصيريَ،
ما دام قُرْبَكْ
فخُذْهُ إلى أَيِّ معنى تريدُ
معي، أَو وحيداً
ولا بَيْتَ أَقرَبَ ممَّا أُحِسُّ به
هٰهُنا في الربيع السريع
على شجر الآخرين...

رُزِقْتُكَ أُماً، أَباً، صاحباً
وأَخاً للطريق، ولا تحمل الطَيْرُ
أكثرَ من وُسْعها: ريشَها والحنين
وحبَّةَ قمحٍ ضروريَّةً للغناء، فكن
في سمائي كما
أَنا في سمائك، أَو بعض ذلك،
كُنْ يا غريب المُوَشَّح لي. مثلما
أَنا لَكَ: مائي لمائك، ملحي
لملحك، وٱسمي على ٱسمكَ تعويذةٌ
قد تُقَرِّبنا من تلال سَمَرقَنْدَ
في عصرها الذهبيِّ. فلا بُدَّ مني
ولا بُدَّ منك، ولا بُدَّ من آخرين
لنسمع أَبواق إخوتنا السابقين
وهم يمتطون ظهور الخيول، من الجانبين
ولا يرجعون. فكن يا غريبُ سلامَ

الغريبةِ في هُـدْنَةِ الـمُـتْـعَبين
وكن حُلْمَ يقظتها، كُـلَّما
أَلـمَّ بها قَـمَرٌ عائدٌ من أَريحا، كما
تعود الإلٰهاتُ بعد الحروب إلى الحالمين
فكُلُّ هُنَاكَ هنا. وأَنا
لا أُحبّ الرجوع إلى نجمتي
بعدما كبرت حكمتي، هاتِ
هات البعيد إلى خيمتي سُلّماً
لنصعد أَعلى كغُصْنَيْ بَتُولا على
حائط الآخرين [ونحن نصير غداً آخرين]
فلا بَيْتَ أَقرَبَ مما أُحسُّ به هٰهنا
وأَنا حاملٌ بالربيع السريع
رَزقت مع الخبز حُبَّكْ
ولا شأن لي بمصيرِيَ
ما دام قُرْبَكْ

ويا ليتني لم أُحبَّك
يا ليتني لم أُحبَّكْ!

رُبَّما، لأَن الشتاء تأخَّر

ـ ١ ـ

أَقَلُّ من الليل تحت المَطَرْ
حنينُ خُماسِيّةٍ
إلى أَمسها المُنْتَظَر،
وأكثرُ ممَّا تقولُ يَدٌ لِيَدٍ
على عَجَلٍ في مَهَبِّ السَفَرْ

ـ ٢ ـ

شِماليَّةٌ هذِهِ الريحُ
فليكتبِ العاطفيّون، أَهْلُ الكلامِ الجريح،

رسائلَ أُخرى إلى ما وراءَ الطبيعةِ
أَمَّا أَنا
فَسَأَرْمي بنفسيْ إِلى الريح.../

ـ ٣ ـ

لا لَيْلَ عِنْدَكِ، إذ تَدْلِفينَ
إلى الليل وَحْدَكِ. أَنتِ هُنا
تَكْسِرِينَ بنظرتِكِ الوَقْتَ. أَنتِ
هنا في مكانك بعدي وبعدك
لا أَنْتِ تنتظرين، ولا أَحَدٌ يَنْتَظِرْ

- ٤ -

لَعَلَّ خياليَ أَوضحُ من واقعي
والرياحُ شماليَّةٌ. لن أُحبَّكِ أكْثَرَ
إنْ لم تكوني معي
هنا، الآن ما بين أَيْقُونَتَينْ
وجيتارةٍ فَتَحَتْ جُرْحَها للقَمَرْ

ـ ٥ ـ

أَنا والمسيحُ على حالنا:
يَـمُوتُ ويحيا، وفي نَـفْسِهِ مريمُ
وأَحيا، وأَحْـلُـمْ ثانيةً أَنني أَحلُـمُ
ولكنَّ حُـلْمي سريعٌ كبرقيَّةٍ
تُـذَكِّـرُني بالأُخُـوَّةِ بين السماوات والأرض.../

ـ ٦ ـ

مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ،
يصيرُ الحصى لُغَةً أَو صدى
والعواطفُ في مُتَنَاوَلِ كُلِّ يَدٍ.
ربما كان هذا الحنينُ طريقَتَنا في البقاء
ورائحة العُشْب بعد المَطَرْ

- ٧ -

بلا غايةٍ، وَضَعَتْنَا السماءُ
على الأرض إِلْفَيْن مؤتلفين وبٱسمين مُخْتَلِفَيْنِ،
فلا ٱسميَ كان يُزَيِّنُ خاتَمَكِ الذهبيَّ
ولا ٱسْمُكِ كان يَرِنُّ
كقافيةٍ في كتاب الأَساطير.../

- ٨ -

أَمثالُنا لا يموتون حُبّاً،
ولو مَرَّةً، في الغناء الحديث الخفيف
ولا يقفون، وحِيدِين، فوق الرصيف
لأنَّ القطاراتِ أكثرُ من عَدَد المُفْرَدَات
وفي وُسْعنا دائماً أَن نُعِيدَ النظَرْ

ـ ٩ ـ

وأَمثالُنا لا يعودون إلَّا
لِيَسْتَحْسِنُوا وَقْعَ أَقدامهم
على أَرض أَحلامهم،
أَو ليعتذروا للطفولة عن حِكْمَةٍ
بلغوها على حافة البئر.../

- ١٠ -

بي مثلُ ما بِكِ من وَحَم الليلِ
يصرُخُ شَخْصٌ: «أَنا آمرأتي
في المنام. وتصرخ أُنثى: «أنا رَجُلي»
أَيُّنا أَنتَ. أنتِ؟ نَضِيقُ

نَضِيقُ، ويتَّسِعُ المُنْحَدَرْ.../

- ١١ -

أَضُمُّكِ، حتى أَعود إلى عَدَمي
زائراً زائلاً. لا حياةَ ولا
موتَ في ما أُحِسُّ بِهِ
طائراً عابراً ما وراء الطبيعةِ
حين أَضُمُّكِ.../

- ١٢ -

ماذا سنفعلُ بالحُبِّ؟ قُلْتِ
ونحن ندسُّ ملابسنا في الحقائبِ
نأخذُهُ مَعَنا، أَمْ نُعَلِّقُهُ في الخزانةِ؟
قلتُ: ليَذْهَبْ إلى حيثُ شاءَ
فقد شبَّ عن طَوْقنا، وانتشرْ

ـ ١٣ ـ

هَشَاشَتُنا لُؤْلُؤُ الخاسرين
وأَمثالنا لا يزورون حاضِرَهُمْ أَبداً
لا يريدون أَن يبلغوا بلداً
في الطريق إلى الريح، حيث وُلدنا
على دفعتين: أَنا وجمالُك.../

- ١٤ -

قرْبَ حياتي نَبَتٌّ كإحدى
حدائقِ قَيْصَرَ. كَمْ تَرَكَ الأَقوياءُ
لنا شجراً. كَمْ قطفتُ زنابقَ
سريَّةً من سياجك. كَمْ كنتِ
معنى وصورتَه في أعالي الشَجَرْ

ـ ١٥ ـ

أَضمُّكِ، بيضاءَ سمراءَ، حتى التلاشي
أُبَعْثِرُ لَيْلَكِ. ثمَّ أُلَمُّكِ كُلَّكِ...
لا شيءَ فيك يزيدُ وينقُصُ عن
جَسَدي. أَنت أُمُّك وابنتُها
تُولَدِين كما تطلبين من الله.../

- ١٦ -

ماذا سنصنع بالأمس؟ قُلتِ
ونحن نُهيل الضباب على غدنا
والفُنُونُ الحديثةُ ترمي البعيدَ إلى
سلَّة المهملات. سيتبعُنا الأمْسُ،
قلتُ، كما يتبع النَـهَـوَنْدُ الوَتَـرْ

- ١٧ -

على الجسر، قُرْب حياتِكِ، عشتُ
كما عاش عازفُ جيتارةٍ قرب نجمته.
غنِّ لي مائةً من أَناشيد حُبِّكَ تَدْخُلْ
حياتي! فغنَّى عن الحبِّ تسعاً
وتسعين أُغنيَّةً، وانتحرْ

- ١٨ -

يمرُّ الزمانُ بنا، أَو نمرُّ به
كضيوفٍ على حنطة الله
في حاضرٍ سابقٍ، حاضر لاحق،
هكذا هكذا نحن في حاجة للخرافة
كي نتحـمَّلَ عبءَ المسافة ما بَـيْنَ بابين.../

- ١٩ -

منفىً سخيٌّ على حافَّةِ الأرض
لَوْ لم تكوني هُنَاكَ لَمَا
أَنشأَ الغُرَباءُ القلاعَ وشاعَ التصوُّفُ،
لو لم تكوني هنا لاكتَفيْتُ بما
يصنعُ النهرُ بي... وبوجه الحَجَرْ

- ٢٠ -

ويكفي، لأَعرفَ نفسيْ البعيدةَ، أَن
تُرْجِعِي لِيَ بَرْقَ القصيدةِ حين انقسمتُ
إلى ٱثنين في جَسَدِكْ
أَنا لَكِ مِثْلُ يَدِكْ
فما حاجتي لغدي
بعد هذا السفر؟

من أَنا، دون منفى؟

غريبٌ على ضفة النهر، كالنهر ... يَرْبِطُني
باسمك الماءُ. لا شيءَ يُرْجعُني من بعيدي
إلى نخلتي: لا السلامُ ولا الحربُ. لا
شيء يُدْخِلُني في كتاب الأَناجيلِ. لا
شيء... لا شيء يُومِضُ من ساحل الجَزْر
والمدّ ما بين دجْلَةَ والنيلِ. لا
شيء يُنْزِلُني من مراكب فرعون. لا
شيء يَحْملني أو يُحَمِّلني فكرةً: لا الحنينُ
ولا الوَعْدُ. ماذا سأفعل؟ ماذا

سأفعل من دون منفى، وليلٍ طويلٍ
يُحَدِّقُ في الماء؟

يربطُني
بٱسمكِ
الماءُ ...
لا شيء يأخذني من فراشات حُلْمي
إلى واقعي: لا الترابُ ولا النارُ. ماذا
سأفعل من دون وَرْدِ سَمَرْقَنْدَ؟ ماذا
سأفعل في ساحةٍ تصقُلُ المُنْشدين بأحجارها
القمريَّةِ؟ صِرْنا خَفِيفَيْنِ مثلَ منازلنا
في الرياح البعيدةِ. صرنا صَدِيقَيْنِ للكائنات
الغريبةِ بين الغيوم... وصرنا طَلِيقَيْنِ من
جاذبيَّة أَرْضِ الهُوِيَّةِ. ماذا سنفعل... ماذا
سنفعل من دون منفى، وليلٍ طويلٍ

يُحَدِّقُ في الماء؟

يربطني
بٱسمك
الماءُ ...
لم يبقَ منّي سواكِ، ولم يبق منك
سوايَ غريباً يُمَسِّدُ فَخْذَ غريبتِهِ: يا
غريبةُ! ماذا سنصنع في ما تبقّى لنا
من هُدُوءٍ... وقَيْلُولَةٍ بين أسطورتين؟
ولا شيء يحمِلُنا: لا الطريقُ ولا البيتُ.
هل كان هذا الطريق كما هُوَ، منذ البداية،
أَم أَنَّ أَحلامنا وَجَدَتْ فرساً من خيول
الـمَغُول على التلِّ فٱسْتَبْدَلَتْنا؟
وماذ سنفعلُ؟
ماذا
سنفعلُ

من
دون
منفى؟

أَنا، وجميلُ بُـثَيْنة

كَبِرْنا، أَنا وجميلُ بُثَيْنَةَ، كُلٌّ
على حِدَةٍ، في زمانين مُـخْـتَلِفَيـنْ...
هُوَ الوقْتُ يفعل ما تفعل الشمسُ
والريحُ: يَصْقُلُنا ثم يقتلُنا حينما
يحملُ العقلُ عاطفةَ القلبِ، أَو
عندما يبلُـغُ القلبُ حكمتَهُ

يا جميلُ! أَتكبَـرُ مِثْلَكَ، مثلي،
بثينةُ؟

تكبَرُ، يا صاحبي، خارجَ القلب
في نَظَر الآخرين. وفي داخلي تستحمُّ
الغزالةُ في نبعها المتدفّق من ذاتها

هِيَ، أَم تلك صُورَتُها؟

إنها هِيَ يا صاحبي. دَمُها، لحمُها،
وٱسمُها. لا زمان لها. رُبّما استَوْقَفَتْني
غداً في الطريق إلى أَمسها

هل أَحبَّتْكَ؟ أَم أَعْجَبَتْها استعارتُها
في أَغانيك، لؤلؤةً كُلَّما حدَّقتْ في
لياليكَ وٱغرورقتْ ... أَشرقَتْ قمراً قلبُهُ
حَجَر يا جميل؟

هو الـحُـبُّ، يا صاحبي، موتُنا الـمُنْتَقَى
عابرٌ يَتَزَوَّجُ من عابرٍ مُطْلقاً ...
لا نهايةَ لي، لا بدايةَ لي. لا
بُثَيْنَةُ لي أَو أَنا لبثينةَ. هٰذا
هو الحبُّ، يا صاحبي. ليتني كُنْتُ
أَصغرَ منِّي بعشرين باباً لكان
الهواءُ خفيفاً عليَّ، وصورتُها الجانبيَّةُ
في الليل أَوضحَ من شامةٍ فوق
سُرَّتها...

هل هَـمَـمْتَ بها، يا جميل، على عكس
ما قال عنك الرُواةُ، وهَـمَّتْ بكَ؟

تزوَّجتُها. وهَزَزْنا السماءَ فسالَتْ
حليباً على خُبْزِنا. كُـلَّما جئتُها فَتَّحَتْ

جَسَدي زهرةً زهرةً، وأَراق غدي
خمرَهُ قطرةً قطرةً في أَباريقها

هل خُلِقْتَ لها، يا جميل،
وتبقى لها؟

أُمِرْتُ وعُلِّمْتُ. لا شأنَ لي
بوجودي المُراقِ كماءٍ على جلدها
العِنَبيّ. ولا شأنَ لي بالخلود
الذي سوف يتبعُنا ككلاب الرعاة.
فما أَنا إلاَّ كما خَلَقَتْني بُثَيْنَةُ

هل تشرَحُ الحُبَّ لي، يا جميلُ،
لأَحفظَهُ فكرةً فكرةً؟

أَعْرَفُ الناس بالـحُبِّ أكثرُهُمْ حَيْرَةً،
فاحترِقْ، لا لتعرف نفسك، لكن
لتُشْعِلَ لَيْلَ بُثَيْنَةَ ...

أَعلى من الليل، طار جميل
وكسَّر عُكَّازتَيْه. ومال على أُذُني
هامساً: إن رأيت بثينةَ في ٱمرأةٍ
غيرها، فاجعل الموت، يا صاحبي،
صاحباً. وتلألأ هنالك، في ٱسم
بثينة، كالنون في القافيةْ!

قناع ... لمجنون ليلى

وجدتُ قناعاً، فأعجَبَني أَنْ
أكون أَنا آخَري. كنتُ دُونَ
الثلاثين، أَحْسَبُ أَنَّ حدودَ
الوجود هِيَ الكلماتُ. وكنتُ
مريضاً بليلى كأيِّ فتىً شَعَّ
في دَمِهِ الملحُ. إنْ لم تكُنْ هِيَ
موجودةً جسداً فلها صُورَةُ الروح
في كُلِّ شيء. تُقَرِّبُني من
مدار الكواكب. تُبْعِدُني عن حياتي

على الأرض. لا هِيَ مَوْتٌ ولا
هي ليْلى. «أَنا هُوَ أَنتِ،
فلا بُدَّ من عَدَمٍ أَزرقٍ للعناق
النهائيِّ». عَالجني النهرُ حين
قذفتُ بنفسي إلى النهر مُنْتَحِراً،
ثم أَرجعني رَجُلٌ عابر، فسألتُ:
لماذا تُعيد إليَّ الهواء وتجعلُ
موتيَ أَطولَ؟ قال: لتعرف
نفسك أَفضَلَ... مَنْ أَنتَ؟
قلتُ: أَنا قَيْسُ ليلى، وأَنتَ؟
فقال: أَنا زوجُها

ومَشَيْنا معاً في أَزقَّةِ غرناطةِ،
نَتَذَكَّرُ أَيَّامَنا في الخليج... بلا أَلَمٍ
نتذكَّر أَيَّامنا في الخليج البعيد.

□

أَنا قَيْسُ ليلى
غريبٌ عن ٱسمي وعن زمني
لا أَهزُّ الغيابَ كجذع النخيل
لأَدفع عني الخسارةَ، أَو استعيدَ
الهواء على أَرض نَجْدٍ. ولكنني،
والبعيدُ على حالِهِ وعلى كاهلي،
صوتُ ليلى إلى قلبها
فلتكن للغزالة بريَّةٌ
غيرُ دربي إلى غَيْبها
هل أُضيِّقُ صحراءها أم أَوسِّعُ لَيْلِي
لتجمعنا نجمتان على دربها؟
لا أَرى في طريقي إلى حُبِّها
غيرَ أَمسِ يُسَلِّي بشِعري القديمِ
نُعَاسَ القوافل في ليلها، ويُضيءُ
طريقَ الحريرِ بجرحي القديم

لعلَّ التجارةَ في حاجةٍ هِيَ أَيضاً
لما أَنا فيه. أَنا من أولئك،
ممَّنْ يموتون حين يُحبُّونَ. لا شيءَ
أَبعدُ من فَرَسي عن معلَّقة الجاهليِّ
ولا شيءَ أَبعدُ من لُغَتي عن أمير
دِمَشْقَ. أَنا أَوَّلُ الخاسرين. أنا
آخرُ الحالمين وعَبْدُ البعيد. أَنا
كائنٌ لم يكن. وأَنا فكرةٌ للقصيدةِ
ليس لها بَلَدٌ أَو جَسَدْ
وليس لها والدٌ أَو وَلَدْ.

□

أَنا قيس ليلى، أنا
وأَنا ... لا أَحَدْ!

درس من كاما سوطرا

بكأس الشراب المرصَّع باللازوردِ
أنتظرها،
على بركة الماء حول المساء وزَهْر الكُولُونيا
أنتظرها،
بصبر الحصان المُعَدّ لمُنْحَدرات الجبالِ
أنتظرها،
بذَوْقِ الأمير الرفيع البديع
أنتظرها،
بسبعِ وسائدَ مَحْشُوَّةٍ بالسحابِ الخفيفِ

ٱنتظرها
بنار البَخُور النسائيِّ ملءَ المكانِ
ٱنتظرها،
برائحة الصَنْدَلِ الذَكَريَّةِ حول ظُهُور الخيولِ
ٱنتظرها،
ولا تتعجَّلْ، فإن أقبلَتْ بعد موعدها
فانتظرها،
وإن أقبلتْ قبل موعدها
فانتظرها،
ولا تُجْفِل الطيرَ فوق جدائلها
وانتظرها،
لتجلس مرتاحةً كالحديقة في أَوْج زِينَتِها
وانتظرها،
لكي تتنفَّسَ هذا الهواء الغريبَ على قلبها
وانتظرها،

لترفع عن ساقها ثَوْبَها غيمةً غيمةً
وانتظرها،
وخُذْها إلى شرفة لترى قمراً غارقاً في الحليبِ
انتظرها،
وقدِّمْ لها الماءَ، قبل النبيذِ، ولا
تتطلَّعْ إلى تَوْأَمَيْ حَجَلٍ نائمين على صدرها
وانتظرها،
ومُسَّ على مَهَل يَدَها عندما
تَضَعُ الكأسَ فوق الرخامِ
كأنَّكَ تحملُ عنها الندى
وانتظرها،
تحدَّثْ إليها كما يتحدَّثُ نايٌ
إلى وَتَرٍ خائفٍ في الكمانِ
كأنكما شاهدانِ على ما يُعِدُّ غَدٌ لكما
وانتظرها

وَلَمِّع لها لَيْلَها خاتماً خاتماً
وانتظرها
إلى أَن يقولَ لَكَ الليلُ:
لم يَبْقَ غيركُما في الوجودِ
فخُذْها، بِرِفْقٍ، إلى موتكَ المُشْتَهى
وانتظرها!...

طوقُ الحمامة الدمشقيّ

أ.

في دِمَشْقَ،
تطيرُ الحماماتُ
خَلْفَ سِياجِ الحريرِ
ٱثْنَتَيْنِ ...
ٱثْنَتَيْن ...

ب.

في دِمَشْقَ:
أَرى لُغَتي كُلَّها
على حبَّة القَمْحِ مكتوبةً
بإبرة أُنثى،
يُنَقِّحُها حَجَلُ الرافِدَيْن

ت.

في دِمَشْقَ:

تُطَرِّزُ أَسماءُ خَيْلِ العَرَبْ،

مِنَ الجاهليَّةِ

حتى القيامةِ،

أَو بَعْدَها،

... بخُيُوطِ الذَهَبْ

ث.

في دِمَشْقَ:

تسيرُ السماءُ
على الطُرُقات القديمةِ
حافيةً، حافيةْ
فما حاجةُ الشُعَراءِ
إلى الوَحْيِ
والوَزْنِ
والقافِيَةْ؟

ج.

في دمَشْقَ:

ينامُ الغريبُ

على ظلّه واقفاً

مثل مِئْذَنَةٍ في سرير الأَبد

لا يَحنُّ إلى بَلدٍ

أَو أَحَدْ ...

ح.

في دمَشْقَ:
يُواصِلُ فِعْلُ المُضَارِع
أَشغالَهُ الأُمويَّةَ:
نمشي إلى غَدِنا واثِقِينَ
من الشمس في أَمسنا.
نحن والأَبديَّةُ،
سُكَّانُ هذا البَلَدْ!

خ.

في دِمَشْقَ:

تَدُورُ الحوارات

بين الكَمَنْجَةِ والعُود

حَوْلَ سؤال الوجودِ

وحول النهاياتِ:

مَنْ قَتَلَتْ عاشقاً مارقاً

فَلَهَا سِدْرَةُ المنتهى!

د.

في دِمَشْقَ:
يُقَطِّعُ يوسُفُ،
بالنايَ،
أَضْلُعَهُ
لا لشيءٍ،
سوى أَنَّهُ
لم يَجِدْ قلبَهُ مَعَهُ

ذ.

في دِمَشْقَ:
يَعُودُ الكلامُ إلى أَصلِهِ،
ٱلماءِ:
لا الشِعْرُ شِعْرٌ
ولا النَثْرُ نَثْرٌ
وأَنتِ تقولين: لن أَدَعَكْ
فخُذْني اليكَ
وخُذْني مَعَكْ!

ر.

في دِمَشْقَ:
ينامُ غزالٌ
إلى جانب ٱمرأةٍ
في سرير الندى
فتخلَعُ فُسْتَانَها
وتُغَطِّي بِهِ بَرَدَى!

ز.

في دِمَشْقَ:
تُنَقِّرُ عُصْفُورَةٌ
ما تركتُ من القمحِ
فوق يدي
وتتركُ لي حَبَّةً
لتُريني غداً
غَدِي!

س.

في دِمَشْقَ:

تـدَاعِبُني الياسمينةُ:

لا تَبْتَعِدْ

واْمشِ في أَثَري

فَتَغارُ الحديقةُ:

لا تقتربْ

من دَمِ الليل في قَمَري

ش.

في دِمَشْقَ:
أُسامِرُ حُلْمي الخفيفَ
على زَهْرة اللوزِ يضحَكُ:
كُنْ واقعياً
لأُزْهرَ ثانيةً
حول ماءِ ٱسمها
وكُنْ واقعيّاً
لأُعبر في حُلْمها!

ص.
في دِمَشْقَ:
أُعرِّفُ نفسي
على نفسها:
هٰـهنا، تحت عَيْنَيْنِ لوزيَّتَيْنْ
نطيرُ معاً تَوْأَمَيْن
ونُرْجِىء ماضِينَا المشتركْ

ض.
في دِمَشْقَ:
يرقُّ الكلامُ
فأسمع صَوْتَ دَمٍ
في عُرُوق الرخام:
ٱخْتَطِفْني مِنَ ٱبني
تقولُ السجينةُ لي
أَو تحجَّرْ معي!

ط.

في دِمَشْقَ:
أَعدُّ ضُلُوعي
وأُرْجِعُ قلبي إلى خَببَهِْ
لعلَّ التي أَدْخَلَتْني
إلى ظِلِّها
قَتَلَتْني،
ولم أَنْتَبِهْ ...

ظ.

في دِمَشْقَ:
تُعيدُ الغريبةُ هَوْدَجَها
إلى القافِلَةْ:
لن أَعودَ إلى خيمتي
لن أُعلِّقَ جيتارتي،
بَعْدَ هذا المساءِ،
على تينة العائلةْ ...

ع.

في دِمَشْقَ:
تَشِفُّ القصائدُ
لا هِيَ حِسِّيَّةٌ
ولا هِيَ ذهْنيَّةٌ
إنَّها ما يقولُ الصدى
للصدى...

غ.

في دِمَشْقَ:
تجفُّ السحابةُ عصراً،
فتحفُرُ بئراً
لصيف المحبِّينَ في سَفْح قاسْيُون،
والنايُ يُكْملُ عاداته
في الحنين إلى ما هُوَ الآن فيه،
ويبكي سدى

ف.

في دِمَشْقَ:
أُدوِّنُ في دَفْتَرِ ٱمرأةٍ:
كُلُّ ما فيكِ
من نَرْجسٍ
يَشْتَهِيكِ
ولا سُورَ، حَوْلَكِ، يحميكِ
مِنْ ليل فِتْنَتِكِ الزائدةْ

ق.

في دِمَشْقَ:

أَرى كيف ينقُصُ ليلُ دِمَشْقَ
رويداً رويداً
وكيف تزيدُ إلٰهاتُنا
واحدةً!

ك.

في دِمَشْقَ:

يغنِّي المسافر في سرِّه:
لا أَعودُ من الشام
حياً
ولا ميتاً
بل سحاباً
يخفِّفُ عبءَ الفراشة
عن روحِيَ الشاردةْ

كزهر اللوز،
أَو أَبعد ...

القصائد

I أَنت

II هُو

III أَنا

IV هي

V منفى (١)

VI منفى (٢)

VII منفى (٣)

VIII منفى (٤)

«أحسن الكلام ما .... قامت صورته بين نَظْمٍ كأنه نثر، ونثرٍ كأنه نظم...»

أبو حيان التوحيدي

الإمتاع والمؤانسة

[الليلة الخامسة والعشرون]

I

أَنت

فكِّر بغيرك

وأَنتَ تُعِدُّ فطورك، فكِّرْ بغيركَ
[لا تَنْسَ قُوتَ الحمامْ]
وأَنتَ تخوضُ حروبكَ، فكِّرْ بغيركَ
[لا تنس مَنْ يطلبون السلامْ]
وأَنتَ تُسدِّدُ فاتورةَ الماء، فكِّرْ بغيركَ
[مَنْ يرضَعُون الغمامْ]
وأَنتَ تعودُ إلى البيت، بيتِكَ، فكِّرْ بغيركَ
[لا تنس شعب الخيامْ]
وأَنت تنام وتُحْصي الكواكبَ، فكِّرْ بغيركَ
[ثمَّةَ مَنْ لم يجد حيّزاً للمنام]

وأَنتَ تحرِّرُ نفسك بالاستعارات، فكِّرْ بغيركَ
[مَنْ فَقَدُوا حَقَّهم في الكلامْ]
وأَنتَ تفكِّر بالآخرين البعيدين، فكِّرْ بنفسك
[قُلْ: ليتني شمعةٌ في الظلامْ]

الآن ... في المنفى

ٱلآن، في المنفى ... نَعَمْ في البيتِ،
في السِّتينَ من عُمْرٍ سريعٍ
يُوقدون الشَّمْعَ لَكْ

فافرَحْ، بأقصى ما استطعتَ من الهدوء،
لأَنَّ موتاً طائشاً ضَلَّ الطريقَ إليك
من فرط الزحام ... وأَجَّلكْ

قَمَرٌ فضوليٌّ على الأطلال،
يضحك كالغبيّ
فلا تصدِّقْ أنه يدنو لكي يستقبلَكْ

هُوَ، في وظيفته القديمةِ، مثل آذارَ
الجديدِ ... أَعادَ للأشجار أَسماءَ الحنينِ
وأَهمَلكْ

فلتحتفلْ مع أَصدقائكَ بانكسار الكأس.
في الستين لن تَجِدَ الغَدَ الباقي
لتحملَهُ على كَتِفِ النشيد... ويحملَكْ

قُلْ للحياةِ، كما يليقُ بشاعرٍ متمرِّسٍ:
سِيري ببطء كالإناث الواثقات بسحرهنَّ
وكيدهنَّ. لكلِّ واحدةٍ نداءٌ ما خفيٌّ:
هَيْتَ لَكْ / ما أَجملَكْ!

سيري ببطءٍ، يا حياةُ، لكي أَراك
بِكامل النُقْصَان حولي. كم نسيتُكِ في

خضمِّكِ باحثاً عنِّي وعنكِ. وكُلَّما أدركتُ
سرّاً منك قُلْتِ بقسوةٍ: ما أَجهلَكْ!

قُلْ للغياب: نَقَصْتَني
وأَنـا حـضـرتُ ... لأُكْملَكْ!

حين تطيل التأمُّل

حين تُطيلُ التأمُّلَ في وردةٍ
جَرَحَتْ حائطاً، وتقول لنفسكَ:
لي أَملٌ في الشفاء من الرملِ /
يخضرُّ قلبُكَ...

حين تُرَافِقُ أُنثى إلى السيرك
ذاتَ نهارٍ جميلٍ كأَيقُونةٍ ...
وتحلُّ كضيفٍ على رقصة الخيلِ /
يحمرُّ قلبُكَ ...

حين تَعُدُّ النجومَ وتُخْطىءُ بعد
الثلاثةَ عشرَ، وتنعس كالطفل

في زُرقَة الليلِ /
يبيضُّ قلبُكَ ...

حين تَسيرُ ولا تجد الحُلْمَ
يمشي أَمامك كالظلّ /
يصفرُّ قلبك ...

إن مشيت على شارع

إن مَشَيْتَ على شارعٍ لا يُؤَدِّي إلى هاويةْ
قُلْ لمن يجمعون القمامةَ: شكراً!

إن رجعتَ إلى البيت، حيّاً، كما ترجع القافيةْ
بلا خَلَلٍ، قُلْ لنفسك: شكراً!

إن توقَّعْتَ شيئاً وخانك حَدْسُك، فاذهبْ غداً
لترى أَين كُنْتَ، وقُلْ للفراشة: شكراً!

إن صرختَ بكُلِّ قواك، وردَّ عليك الصدى
«مَنْ هناك؟» فقل للهويّة: شكراً!

إن نظرتَ إلى وردةٍ دون أن توجعَكْ
وفرحتَ بها، قل لقلبك: شكراً!

إن نهضت صباحاً، ولم تجد الآخرين مَعَكْ
يفركون جُفُونَكَ، قل للبصيرة: شكراً!

إن تَذَكَّرْتَ حرفاً من ٱسمكَ وٱسمِ بلادكَ،
كُنْ وَلَداً طيِّباً!
ليقول لك الربُّ: شكراً!

مقهى، وأَنت مع الجريدة

مقهىً، وأَنتَ مع الجريدة جالسٌ
لا، لَسْتَ وحدَك. نِصْفُ كأسك فارغٌ
والشمسُ تملأ نصفها الثاني...
ومن خلف الزجاج ترى المشاة المسرعين
ولا تُرى [إحدى صفات الغيب تلك:
تَرَى ولكن لا تُرَى]
كم أَنت حُرٌّ أَيها المنسيُّ في المقهى!
فلا أَحَدٌ يرى أَثَرَ الكمنجة فيك،
لا أَحَدٌ يحملقُ في حضوركَ أو غيابكَ،
أَو يدقِّقُ في ضبابك إن نظرتَ
إلى فتاةٍ وانكسرت أَمامها...
كم أنت حُرٌّ في إدارة شأنك الشخصيِّ

في هذا الزحام بلا رقيب منك أَو
من قارىء!
فاصنع بنفسك ما تشاء، إِخلَعْ
قميصك أو حذاءك إن أَردتَ، فأنت
منسيٌّ وحُرٌّ في خيالك، ليس لاسمكَ
أَو لوجهكَ ههنا عَمَلٌ ضروريٌّ. تكون
كما تكون... فلا صديقَ ولا عَدُوَّ
هنا يراقب ذكرياتِكَ /
فالتمسْ عُذْراً لمن تركتك في المقهى
لأنك لم تلاحظ قَصَّةَ الشَّعْرِ الجديدةَ
والفراشاتِ التي رقصتْ على غمَّازَتَيْها /
والتمسْ عذراً لمن طلب ٱغتيالكَ،
ذات يومٍ، لا لشيءٍ... بل لأنك لم
تَمُتْ يوم ارتَطمْتَ بنجمة... وكَتَبْتَ
أُولى الأغنيات بحبرها...

مقهىً، وأَنت مع الجريدة جالسٌ
في الركن منسيّاً، فلا أَحد يُهين
مزاجَكَ الصافي،
ولا أَحَدٌ يُفكرُ باغتيالكْ
كم أنت منسيٌّ وحُرٌّ في خيالك!

II

هُوَ

هو، لا غيره

هُوَ، لا غيره، مَنْ ترجَّل عن نجمةٍ
لم تُصِبْهُ بأَيِّ أَذى.
قال: أسطورتي لن تعيش طويلاً
ولا صورتي في مخيِّلة الناس /
فلتَمْتَحِنِّي الحقيقةُ
قلت له: إن ظَهَرْتَ انكسَرْتَ، فلا تنكسرْ
قال لي حُزْنُهُ النَّبَويُّ: إلى أين أذهبُ؟
قُلت إلى نجمةٍ غيرِ مرئيّةٍ
أو إلى الكهف /
قال: يحاصرني واقعٌ لا أُجيد قراءته
قلت: دَوِّنْ إذنْ، ذكرياتِكَ عن نجمة بَعُدَتْ
وَغَدٍ يتلكّأُ، واسألْ خيالك: هل

كان يعلم أنَّ طريقَكَ هذا طويل؟
فقال: ولكنني لا أُجيدُ الكتابةَ يا صاحبي!
فسألت: كذبت علينا إذاً؟
فأجاب: على الـحُلْم أن يرشد الحالمين
كما الوَحْيُ /
ثم تنهَّد: خُذْ بيدي أيها المستحيل!
وغاب كما تتمنَّى الأساطيرُ /
لم ينتصر ليموت، ولم ينكسر ليعيش
فَخُذْ بيدينا معاً، أيها المستحيل!

لم ينتظر أحداً

لم ينتظر أَحداً،
ولم يشعر بنقصٍ في الوجودِ،
أَمامه نَهْرٌ رماديٌّ كمعطفه،
ونُورُ الشمس يملأ قلبَهُ بالصَّحْوِ
والأشجارُ عاليةٌ /

ولم يشعر بنقصٍ في المكانِ،
المقعدُ الخشبيٌّ، قهوتُهُ، وكأسُ الماءِ
والغرباءُ، والأشياءُ في المقهى
كما هِيَ،
والجرائدُ ذاتُها: أَخبارُ أمسِ، وعالمٌ
يطفو على القتلى كعادتِهِ /

ولم يَشْعُرْ بحاجتِهِ إلى أَملٍ ليؤنسَهُ
كأنْ يخضوضرَ المجهولُ في الصحراءِ
أَو يشتاقَ ذئبٌ ما إلى جيتارةٍ،
لم ينتظر شيئاً، ولا حتى مفاجأةً،
فلن يَقْوَى على التكرار... أَعرفُ
آخر المشوار مُنْذُ الخطوة الأولى ــ
يقول لنفسه ــ لم أَبتعِدْ عن عالمٍ،
لم أقتربْ من عالمٍ

لم ينتظر أَحداً.. ولم يشعر بنقصٍ
في مشاعره. فما زال الخريفُ مضيفَهُ الملكيَّ،
يُغْريهِ بموسيقى تُعيدُ إليه عصر النهضةِ
الذهبيَّ ... والشعرَ الـمُقَفى بالكواكب والمدى

لم ينتظر أَحداً أمام النهر /

في اللا إنتظار أُصاهرُ الدوريَّ
في اللا إنتظار أكون نهراً ــ قال ــ
لا أَقسو على نفسي، ولا
أَقسو على أَحدٍ،
وأَنجو من سؤالٍ فادحٍ:
ماذا تريد
ماذا تريد؟

برتقاليّة

بُرْتُقَاليّةً، تدخلُ الشمس في البحرِ /
والبرتقالةُ قنديلُ ماءٍ على شَجَرٍ باردٍ

برتقاليةً، تَلِدُ الشمسُ طفلَ الغروب الإلهيَّ /
والبرتقالةُ، إحدى وصيفاتها، تتأمَّلُ مجهولها

برتقاليةً، تسكب الشمسُ سائلها في فم البحرِ /
والبرتقالةُ خائفةٌ من فمٍ جائعٍ

برتقاليةً، تدخل الشمسُ في دَوْرَة الأبديّةِ /
والبرتقالةُ تحظى بتمجيد قاتِلِها:
تلك فاكهةٌ مثل حَبَّة شمسٍ

تُقَشَّرُ باليد والفمِ، مَبْحُوحَةُ الطعمِ
ثرثارةُ العطر سكرى بسائلها...
لونها لا شبيهَ له غيرها،
لونها صِفَةُ الشمس في نومها.
لونها طعمها: حامضٌ سُكَّريٌّ،
غنيٌّ بعافية الضوء والڤيتامين C..

وليس على الشعر من حَرَجٍ إنْ
تلعثم في سَرْدِهِ، وانتبهْ
إلى خَلَلٍ رائعٍ في الشَّبَهْ!

هنالك عُرْس

هنالك عُرْسٌ على بُعْدِ بيتين منا،
فلا تُغْلِقُوا البابَ... لا تحجبوا نزوةَ
الفَرَح الشاذِّ عنا. فإن ذبلت وردةٌ
لا يحسُّ الربيع بواجبه في البكاء.
وإن صَمَتَ العندليبُ المريضُ أَعارَ الكناريَّ
حصَّتَهُ في الغناء. وإن وقعت نجمةٌ
لا تُصَابُ السماء بسوء...
هنالك عُرْسٌ،
فلا تغلقوا الباب في وجه هذا الهواء
المضمَّخ بالزنجبيل وخوخ العروس التي
تَنْضجُ الآن [تبكي وتضحك كالماء.
لا جُرْحَ في الماء. لا أَثَرٌ لدمٍ

سال في الليل]
قيل: قويٌّ هو الـحُبُّ كالموت!
قُلْتُ: ولكن شهوتنا للحياة،
ولو خذلتنا البراهينُ، أَقوى من
الحبّ والموتِ /
فَلْنُنْهِ طقس جِنازتنا كي نشاركَ
جيراننا في الغناء
الحياة بديهيَّةٌ ... وحقيقيَّةٌ كالهباء!

فراغ فسيح

فراغ فسيح. نحاس. عصافير حنطيَّةُ
اللون. صفصافَةٌ. كَسَلٌ. أُفُقٌ مُهْمَلٌ
كالحكايا الكبيرة. أَرضٌ مجعَّدةُ الوجه.
صَيْفٌ كثير التثاؤب كالكلب في ظلِّ
زيتونةٍ يابسٍ. عَرَقٌ في الحجارة.
شمسٌ عمودية. لا حياةَ ولا موت
حول المكان. جفافٌ كرائحة الضوء في
القمح. لا ماءَ في البئر والقلب.
لا حُبَّ في عَمَل الحُبّ... كالواجب الوطنيّ
هو الـحُبُّ. صحراءُ غيرُ سياحيّةٍ، غير
مرئيَّةٍ خلف هذا الجفاف. جفافٌ
كحرية السجناء بتنظيف أعلامهم من

بُراز الطيور. جفافٌ كحقّ النساء
بطاعة أزواجهنَّ وهجر المضاجع. لا
عشب أَخضر، لا عشب أَصفر. لا
لون في مَرَض اللون. كُلُّ الجهات
رماديّةٌ

لا انتظار إذاً
للبرابرة القادمين إلينا
غداة احتفالاتنا بالوطنْ!

III

أنا

ها هي الكلمات

ها هي الكلماتُ ترفرفُ في البال /
في البال أرضٌ سماويَّةُ الاسم تحملها الكلماتُ.
ولا يحلم الميِّتون كثيراً، وإن حلموا
لا يصدِّقُ أَحلامَهُمْ أَحَدٌ..
ها هي الكلماتُ ترفرف في جسدي نحلةً
نحلةً... لو كتبتُ على الأزرقِ الأزرقَ
اخضرّتِ الأغنياتُ وعادت إليَّ الحياةُ.
وبالكلمات وجدت الطريق إلى الاسم
أَقصَرَ... لا يفرح الشعراء كثيراً، وإن
فرحوا لن يصدِّقهم أَحَدٌ...
قلت: ما زلت حيّاً لأني أرى الكلمات
ترفرف في البال /

في البال أُغنيّةٌ تتأرجح بين الحضور
وبين الغياب، ولا تفتح الباب إلّا
لكي توصد الباب... أُغنيةٌ عن
حياة الضباب، ولكنها لا تُطيع سوى ما
نسيتُ من الكلمات!

لوصف زهر اللوز

ولوصف زهر اللوز، لا موسوعةُ الأزهار
تسعفني، ولا القاموسُ يسعفني...
سيخطفني الكلامُ إلى أَحابيل البلاغةِ /
والبلاغَةُ تجرح المعنى وتمدح جُرْحَهُ،
كمذكَّرٍ يُمْلي على الأُنثى مشاعرها /
فكيف يشعُّ زهر اللوز في لغتي أَنا
وأَنا الصدى؟
وَهُوَ الشفيفُ كضحكة مائية نبتت
على الأغصان من خَفَر الندى ...
وَهُوَ الخفيفُ كجملةٍ بيضاءَ موسيقيّةٍ...
وَهُوَ الضعيف كلمح خاطرةٍ
تُطِلُّ على أَصابعنا

ونكتبها سُدَى...
وهو الكثيف كبيت شِعْرٍ لا يُدَوَّنُ
بالحروف /
لوصف زهر اللوز تَلْزُمني زيارات إلى
اللاوعي تُرْشِدُني إلى أَسماء عاطفةٍ
مُعَلَّقةٍ على الأشجار. ما ٱسمُهْ؟
ما اسم هذا الشيء في شعريَّة اللاشيء؟
يلزمني اختراقُ الجاذبيةِ والكلام،
لكي أُحِسَّ بخفَّة الكلمات حين تصير
طيفاً هامساً، فأكونها وتكونني
شفَّافَةً بيضاءَ /
لا وَطَنٌ ولا منفى هِيَ الكلماتُ،
بل وَلَعُ البياض بوصف زهر اللوز /
لا ثَلْجٌ ولا قُطْنٌ / فما هُوَ في
تعاليهِ على الأشياء والأسماء

لو نجح المؤلِّفُ في كتابة مقطعٍ
في وصف زهر اللوز، لانحسر الضبابُ
عن التلال، وقال شَعْبٌ كاملٌ:
هذا هُوَ /
هذا كلامُ نشيدنا الوطنيّ!

في البيت أجلس

في البيت أَجلس، لا حزيناً لا سعيداً
لا أَنا، أَو لا أَحَدْ

صُحُفٌ مُبَعْثَرَةٌ. وورِدُ المزهريَّةِ لا يُذكِّرني
بمن قَطَفَتْهُ لي. فاليوم عُطْلَتُنا عن الذكرى،
وعُطْلَةُ كُلِّ شيء... إنه يوم الأَحدْ

يوم نرتِّبُ فيه مطبخنا وغُرْفَةَ نومنا،
كُلٌّ على حِدَةٍ. ونسمع نشرةَ الأَخبار
هادئةً، فلا حَرْبٌ تُشَنُّ على بَلَدْ

ألأمبراطورُ السعيدُ يداعبُ اليومَ الكلابَ،

ويشرب الشمبانيا في ملتقى نَهْدَين من
عاجٍ... ويَسْبَحُ في الزَّبَدْ

ألأمبراطور الوحيدُ اليوم في قيلولةٍ،
مثلي ومثلك، لا يُفكِّر بالقيامة... فَهْيَ
مُلْك يَمينِهِ، هِيَ والحقيقةُ والأَبدْ!

كَسَلٌ خفيفُ الوزن يطهو قهوتي
والهالُ يصهَلُ في الهواء وفي الجَسَدْ

وكأنني وحدي. أنا هو أو أنا الثاني
رآني واطمأَنَّ على نهاري وابتعدْ

يوم الأَحد
هو أوَّل الأيام في التوراة، لكنَّ

الزمان يغيِّر العاداتِ: إذ يرتاح
ربُّ الحرب في يوم الأحدْ

في البيت أجلس، لا سعيداً لا حزيناً
بين بين. ولا أُبالِي إن علمت بأنني
حقاً أنا... أو لا أَحَدْ!

أحبّ الخريف وظل المعاني

أُحبُّ الخريفَ وظلَّ المعاني، ويُعْجِبُني
في الخريف غموضٌ خفيفٌ شفيفُ المناديل،
كالشعر غِبَّ ولادته إذ «يُزَغْلِلُهُ»
وَهَجُ الليل أو عتمةُ الضوء. يحبو
ولا يجد الاسم للشيء /

يعجبني مَطَرٌ خَفِرٌ لا يُبَلِّل إلَّا
البعيداتِ
[في مثل هذا الخريف تَقَاطَعَ موكبُ عُرْسٍ
لنا مع إحدى الجنازات، فاحتفل الحيُّ
بالـمَيْتِ والـمَيْتُ بالحيِّ]

يعجبني أن أرى ملكاً ينحني لاستعادة
لؤلؤة التاج من سَمَكٍ في البحيرة /

تُعْجِبُني في الخريف مشاعيَّةُ اللون، لا
عَرْشَ للذَّهَبِ المُتَواضعِ في وَرَقِ الشجر
المُتَواضِعِ، مثل المساواة في ظمأ الحبِّ /

يعجبني أَنه هدنةٌ بين جَيْشَيْنِ ينتظران
المباراة ما بين شاعِرَتَيْنِ تحبّان فصل الخريف،
وتختلفان على وجهة الاستعارةْ

ويُعجبني في الخريف التواطؤُ بين
الرُّؤَى والعبارةْ!

وأَمَّا الربيع

وأَمَّا الربيعُ، فما يكتب الشعراءُ السكارى
إذا أَفلحوا في التقاط الزمان السريع
بصُنَّارة الكلمات... وعادوا إلى صحوهم سالمين.

قليلٌ من البرد في جَمْرَةِ الـجُلَّنار
يُخفِّفُ من لسعة النار في الاستعارة
[لو كنتُ أَقربَ منكِ إليَّ
لقبَّلْتُ نفسي]

قليلٌ من اللون في زهرة اللوز يحمي
السماوات من حجَّة الوَثَنيِّ الأخيرةِ
[مهما اختلفنا سَنُدْرِكُ أَنَّ السعادةَ

ممكنةٌ مثل هَزَّةِ أرضٍ]

قليلٌ من الرقص في مهرجان الزواج الإباحيّ
بين النباتات سوف ينشِّط دورتنا الدمويَّة
[لا تعرف البذرةُ الموتَ
مهما ابتعدنا]

ولا تخجلُ الأبديَّةُ من أَحَدٍ
حين تمنَحُ عانَتَها للجميع
هنا... في الربيع السريع

كنت أحبّ الشتاء

كُنْتُ في ما مضى أَنحني للشتاء احتراماً،
وأصغي إلى جسدي. مَطَرٌ مطر كرسالة
حب تسيلُ إباحيَّةً من مُجُون السماء.
شتاءٌ. نداءٌ. صدى جائع لاحتضان النساء.
هواءٌ يُرَى من بعيد على فرس تحمل
الغيم... بيضاءَ بيضاءَ. كنت أُحبُّ
الشتاء، وأَمشي إلى موعدي فرحاً
مرحاً في الفضاء المبلَّل بالماء. كانت
فتاتي تنشِّفُ شعري القصير بشعر طويل
تَرَعْرَعَ في القمح والكستناء. ولا تكتفي
بالغناء: أنا والشتاء نحبُّكَ، فابْقَ
إذاً مَعَنا! وتُدَفّىءُ صدري على

شادِنَيْ ظبيةٍ ساخنين. وكنت أُحبُّ
الشتاء، وأسمعه قطرة قطرة.
مطر، مطر كنداءٍ يُزَفُّ إلى العاشق:
أُهطلْ على جسدي!... لم يكن في
الشتاء بكاء يدلُّ على آخر العمر.
كان البدايةَ، كان الرجاءَ. فماذا
سأفعل، والعمر يسقط كالشَّعْر،
ماذا سأفعل هذا الشتاء؟

كما لو فرحت

كما لو فَرِحْتُ: رجعت. ضغطتُ على
جرس الباب أكثرَ من مرّةٍ، وانتظرتُ...
لعلِّي تأخرتُ. لا أَحَدٌ يفتح الباب، لا
نأمةٌ في الممرِّ.
تذكرتُ أَن مفاتيح بيتي معي، فاعتذرتُ
لنفسي: نسيتُك فادخلْ
دخلنا ... أَنا الضيف في منزلي والمضيف.
نظرتُ إلى كل مُحْتَويات الفراغ، فلم أَرَ
لي أَثَراً، ربما... ربما لم أكن ههنا. لم
أَجد شَبَهاً في المرايا. ففكَّرْتُ: أَين
أنا، وصرخت لأوقظ نفسي من الهذيان،
فلم أَستطع... وانكسرتُ كصوتٍ تَدَحرَجَ

فوق البلاط. وقلت: لماذا رجعت إذاً؟
واعتذرت لنفسي: نسيتُكَ فاخرجْ!
فلم أَستطع. ومشيت إلى غرفة النوم،
فاندفع الحلم نحوي وعانقني سائلاً:
هل تغيَّرتَ؟ قلت تغيّرتُ، فالموتُ
في البيت أَفضلُ من دَهْسِ سيَّارةٍ
في الطريق إلى ساحة خالية!

فرحاً بشيء ما

فَرِحاً بشيءٍ ما خفيٍّ، كُنْتُ أَحتضن
الصباح بقُوّة الإنشاد، أَمشي واثقاً
بخطايَ، أَمشي واثقاً برؤايَ. وَحْيٌ ما
يناديني: تعال! كأنَّه إيماءةٌ سحريّةٌ،
وكأنه حُلْمٌ ترجَّل كي يدربني على أَسراره،
فأكون سيِّدَ نجمتي في الليل... معتمداً
على لغتي. أَنا حُلْمي أنا. أنا أُمُّ أُمّي
في الرؤى، وأَبو أَبي، وابني أَنا.

فرحاً بشيءٍ ما خَفيٍّ، كان يحملني
على آلاته الوتريّةِ الإنشادُ. يَصْقُلُني

ويصقلني كماس أَميرة شرقية
ما لم يُغَنَّ الآن
في هذا الصباح
فلن يُغَنّى

أَعطنا، يا حُبُّ، فَيْضَكَ كُلَّه لنخوض
حرب العاطفيّين الشريفةَ، فالـمُناخُ ملائمٌ،
والشمس تشحذ في الصباح سلاحنا،
يا حُبّ! لا هدفٌ لنا إلّا الهزيمةَ في
حروبك... فانتصرْ أَنت انتصرْ، وٱسمعْ
مديحك من ضحاياكَ: ٱنتصر! سَلِمَتْ
يداك! وَعُدْ إلينا خاسرين... وسالماً!

فرحاً بشيءٍ ما خفيٍّ، كنتُ أَمشي
حالماً بقصيدة زرقاء من سطرين، من

سطرين... عن فرح خفيف الوزن،
مرئيٍّ وسرّيّ معاً
مَنْ لا يحبُّ الآن،
في هذا الصباح،
فلن يُحبّ!

لا أعرف الشخص الغريب

لا أَعرف الشخصَ الغريبَ ولا مآثِرَهُ...
رأيتُ جِنازةً فمشيت خلف النعش،
مثل الآخرين مطأطىء الرأس احتراماً. لم
أَجد سَبَباً لأسأل: مَنْ هُو الشخصُ الغريبُ؟
وأين عاش، وكيف مات [فإن أسباب
الوفاة كثيرةٌ من بينها وجع الحياة].
سألتُ نفسي: هل يرانا أَم يرى
عَدَماً ويأسفُ للنهاية؟ كنت أَعلم أنه
لن يفتح النَّعْشَ المُغَطَّى بالبنفسج كي
يُودِّعَنا ويشكرنا ويهمسَ بالحقيقة
[ما الحقيقة؟]. رُبَّما هُوَ مثلنا في هذه
الساعات يطوي ظلَّهُ. لكنَّهُ هُوَ وحده

الشخصُ الذي لم يَبْكِ في هذا الصباح،
ولم يَرَ الموت المحلِّقَ فوقنا كالصقر...
[فالأحياء هم أَبناءُ عَمِّ الموت، والموتى
نيام هادئون وهادئون وهادئون] ولم
أَجد سبباً لأسأل: من هو الشخص
الغريب وما اسمه؟ [لا برق
يلمع في اسمه] والسائرون وراءه
عشرون شخصاً ما عداي [أنا سواي]
وتُهْتُ في قلبي على باب الكنيسة:
ربما هو كاتبٌ أو عاملٌ أو لاجئٌ
أو سارقٌ، أو قاتلٌ... لا فرق،
فالموتى سواسِيَةٌ أمام الموت.. لا يتكلمون
وربما لا يحلمون...
وقد تكون جنازةُ الشخصِ الغريب جنازتي
لكنَّ أَمراً ما إلهياً يُؤَجِّلُها

لأسبابٍ عديدةْ

من بينها: خطأ كبير في القصيدةْ!

IV

هـي

الجميلات هن الجميلات

ألجميلات هُنَّ الجميلاتُ

[نَقْشُ الكمنجات في الخاصرةْ]

أَلجميلات هُنَّ الضعيفاتُ

[عرشٌ طفيفٌ بلا ذاكرةْ]

ألجميلاتُ هُنَّ القويّاتُ

[يأسٌ يضيء ولا يحترقْ]

ألجميلاتُ هنَّ الأميراتُ

[رَبَّاتُ وَحْيٍ قَلِقْ]

ألجميلاتُ هُنَّ القريباتُ

[جاراتُ قوس قُزَحْ]

ألجميلاتُ هُنَّ البعيداتُ

[مثل أغاني الفرحْ]

ألجميلات هُنَّ الفقيراتُ

[كالورد في ساحة المعركةْ]

ألجميلاتُ هُنَّ الوحيداتُ

[مثل الوصيفات في حضرة الملكةْ]

ألجميلات هُنَّ الطويلاتُ

[خالات نخل السماءْ]

الجميلات هن القصيرات

[يُشْرَبْنَ في كأس ماءْ]

ألجميلات هُنَّ الكبيراتُ

[مانجو مُقَشَّرَةٌ ونبيذٌ مُعَتَّقْ]

ألجميلات هُنَّ الصغيراتُ

[وَعْدُ غدٍ وبراعمُ زنبقْ]

ألجميلاتُ، كُلُّ الجميلات، أنتِ

إذا ما اجْتَمَعْنَ ليخْتَرْنَ لي أَنبل القاتلات!

كمقهى صغير هو الحبّ

كمقهى صغير على شارع الغرباء ـــ
هو الحُبُّ... يفتح أَبوابه للجميع.
كمقهى يزيد وينقُصُ وَفْق المُناخ:
إذا هَطَلَ المطرُ ازداد رُوَّادُهُ،
وإذا اعتدل الجوُّ قَلُّوا ومَلُّوا...
أَنا هٰهنا ـــ يا غريبةُ ـــ في الركن أجلس
[ما لون عينيكِ؟ ما ٱسمك؟ كيف
أناديك حين تَمُرِّين بي، وأَنا جالس
في انتظاركِ؟]
مقهى صغيرٌ هو الحبُّ. أَطلب كأسَيْ
نبيذٍ وأَشرب نخبي ونخبك. أَحمل
قُبَّعتين وشمسيَّةً. إنها تمطر الآن.

تمطر أكثر من أَيّ يوم، ولا تدخلين.
أَقول لنفسي أَخيراً: لعلَّ التي كنت
أنتظرُ انتظَرَتْني... أَو انتظرتْ رجلاً
آخرَ ــ انتظرتنا ولم تتعرف عليه / عليَّ،
وكانت تقول: أَنا هٰهنا في انتظاركَ.
[ما لون عينيكَ؟ أَيَّ نبيذٍ تحبُّ؟
وما ٱسمُكَ؟ كيف أناديكَ حين
تمرُّ أَمامي]
كمقهى صغيرٍ هو الـحُبّ...

يد تنشر الصحو

يَدٌ تَنْشُرُ الصَحْوَ أَبيضَ، تسهَرُ،
تنهى وتأمرُ، تنأى وتدنو، وتقسو
وتحنو. يَدٌ تكسر اللازورد بإيماءةٍ،
وترقِّصُ خيلاً على النَّهَوَنْد. يَدٌ تتعالى.
تثرثرُ حين يجفُّ الكلامُ. يَدٌ تسكب
البرق في قَدَح الشاي، تحلُبُ ثَدْيَ
السحابة، تستدرج الناي «أَنتَ صدايَ».
يَدٌ تتذكّرُ ما سوف يحدث عما قليل.
يَدٌ تتلألأ في أنجمٍ خمسةٍ... تحرم
الليلَ من حَقِّه في النعاس. يَدٌ تعصُرُ
المفردات فترشح ماءً. يَدٌ تتحدث عن
هجرة الطير منها إليها. يَدٌ ترفع

المعنوياتِ في الكلمات، يَدٌ تأمر
الجيشَ بالنوم في الثكنات. يَدٌ تتحرَّشُ
بالموج في جسدي. يَدُها هَمْسَةٌ تلمَسُ
الأوجَ: خذني... هنا الآن... خذني!

قال لها:
ليتني كنت أصغر

قال لها: ليتني كُنْتُ أَصْغَرَ...
قالت لَهُ: سوف أكبر ليلاً كرائحة
الياسمينة في الصيفِ
ثم أَضافت: وأَنت ستصغر حين
تنام، فكُلُّ النيام صغارٌ. وأَمَّا أَنا
فسأسهر حتى الصباح ليسودَّ ما تحت
عينيَّ. خيطان من تَعَبٍ مُتْقَنٍ يكفيان
لأَبْدوَ أكبرَ. أَعصرُ ليمونةً فوق
بطني لأُخفيَ طعم الحليب ورائحةَ القُطْنِ.
أَفرك نهديَّ بالملح والزنجبيل فينفر نهدايَ
أكثر /

قال لها: ليس في القلب مُتَّسَعٌ
للحديقة يا بنت... لا وقت في جسدي
لغدٍ... فاكبري بهدوءٍ وبُطْءٍ
فقالت له: لا نصيحةَ في الحب. خذني
لأكبَرَ! خذي لتصغرَ
قال لها: عندما تكبرين غداً ستقولين:
يا ليتني كُنْتُ أصغرَ
قالت له: شهوتي مثل فاكهةٍ لا
تُؤَجَّلُ... لا وَقْتَ في جسدي لانتظار
غدي!

لا أنام لأحلم

لا أَنامُ لأحلم ــ قالت لَهُ
بل أَنام لأنساكَ. ما أطيب النوم وحدي
بلا صَخَبٍ في الحرير، اْبتعدْ لأراكَ
وحيداً هناك، تفكِّر بي حين أَنساكَ /
لا شيء يوجعني في غيابكَ
لا الليل يخمش صدري ولا شفتاكَ ...
أنام على جسدي كاملاً كاملا
لا شريك له،
لا يداك تشقَّان ثوبي، ولا قدماكَ
تَدُقَّانِ قلبي كبُنْدقَةٍ عندما تغلق الباب /
لا شيء ينقصني في غيابك:
نهدايَ لي. سُرَّتي. نَمَشي. شامتي،

ويدايَ وساقايَ لي. كُلُّ ما فيَّ لي
ولك الصُّوَرُ المشتهاةُ، فخذْها
لتؤنس منفاكَ، وٱرفع رؤاك كَنَخْبٍ
أخير. وقل إن أَردت: هَواكِ هلاك.

وأَمَّا أَنا، فسأُصْغي إلى جسدي
بهدوء الطبيبة: لا شيء، لا شيء
يُوجِعُني في الغياب سوى عُزْلَةِ الكون!

نسيتْ غيمةً في السرير

نسيتْ غيمةً في السرير. على عَجَلٍ
وَدَّعتني وقالت: سأنساك. لكنها
نسيتْ غيمة في السرير. فغطّيتُها بالحريرِ
وقلتُ لها: لا تطيري ولا تتبعيها.
ستأتي إليكِ.
[وكانت عصافيرُ زرقاءُ، حمراءُ،
صفراءُ ترتشف الماء من غيمةٍ
تتباطأ حين تطل على كتفيها]
ستُدْرِكُ حين تعود إلى بيتها، دون
حاشيةٍ من عصافيرَ، أنَّ المناخ تغيّر
في ساحل الكتفين، وأن السحاب تبخر/
عندئذٍ تتذكَّرُ ما نسيتْ: غيمةً في

سريري، فترجع كي تستعيد تقاليدها
الملكية في غيمة...
فشمَمْتُ بها وابتسمتُ.
وحين دخلتُ سريري لأَرقد في
الاستعارة بَلَّلني الماء

هـي / هـو

هِيَ: هل عرفتَ الحبَّ يوماً؟
هُوَ: عندما يأتي الشتاء يمسُّني
شَغَفٌ بشيء غائب، أُضفي عليه
الاسمَ، أَيَّ اسمٍ، وأنسى...
هي: ما الذي تنساه؟ قُلْ!
هو: رَعْشَةُ الحُمَّى، وما أهذي به
تحت الشراشف حين أَشهق: دَثِّريني
دثِّريني!
هي: ليس حُباً ما تقول
هو: ليس حباً ما أَقول
هي: هل شعرتَ برغبة في أن تعيش
الموت في حضن امرأةْ؟

هو: كلما اكتمل الغيابُ حضرتُ...
وانكسر البعيد، فعانق الموتُ الحياةَ
وعانَقَتْهُ... كعاشقين

هي: ثم ماذا؟

هو: ثم ماذا؟

هي: واتَّحدتَ بها، فلم تعرف يديها
من يديك وأَنتما تتبخَّران كغيمةٍ زرقاءَ
لا تَتَبيَّنان أأنتما جسدان... أم طيفان
أَمْ؟

هو: مَنْ هي الأنثى ـــ مجازُ الأرض
فينا؟ مَنْ هو الذَّكَرُ ـــ السماء؟

هي: هكذا ابتدأت أغاني الحبِّ. أَنت إذن
عرفتَ الحب يوماً!

هو: كلما اكتمل الحضورُ ودُجِّن المجهول...
غبتُ

هي: إنه فصل الشتاء، ورُبَّما
أَصبحتُ ماضيَكَ المفضَّل في الشتاء

هو: ربما... فإلى اللقاء

هي: ربما.. فإلى اللقاء!

هي لا تحبك أنت

هي لا تحبُّكَ أَنتَ
يعجبُها مجازُكَ
أَنتَ شاعرُها
وهذا كُلُّ ما في الأَمرِ /

يُعْجِبُها اندفاعُ النهر في الإيقاعِ
كن نهراً لتعجبها!
ويعجبُها جِماعُ البرق والأصوات
قافيةً ...
تُسيلُ لُعَابَ نهديها
على حرفٍ
فكن أَلِفاً ... لتعجبها!

ويعجبها ارتفاعُ الشيء
من شيء إلى ضوء
ومن ضوءٍ إلى جِرْسٍ
ومن جِرْسٍ إلى حِسٍّ
فكن إحدى عواطفها... لتعجبَها

ويعجبها صراعُ مسائها مع صدرها:
[عذَّبْتَني يا حُبُّ
يا نهراً يَصُبُّ مُجُونَهُ الوحشيَّ
خارج غرفتي...
يا حُبُّ! إن لم تُدْمِني شبقاً
قتلتك]

كُنْ ملاكاً، لا ليعجبها مجازُك
بل لتقتلك انتقاماً من أُنوثتها

ومن شَرَك المجاز ... لعلَّها
صارت تحبُّكَ أَنتَ مُذْ أَدخلتها
في اللازورد، وصرتَ أنتَ سواك
في أَعلى أعاليها هناك...
هناك صار الأمر ملتبساً
على الأبراج
بين الحوت والعذراء...

لم تأتِ

لم تأتِ. قُلْتُ: ولنْ ... إذاً
سأعيد ترتيب المساء بما يليق بخيبتي
وغيابها:
أطفأتُ نار شموعها،
أشعلتُ نور الكهرباء،
شربتُ كأس نبيذها وكسرتُهُ،
أَبدلتُ موسيقى الكمنجات السريعةِ
بالأغاني الفارسيّة.
قلت: لن تأتي. سأنضو رَبْطَةَ
العنق الأنيقة [هكذا أرتاح أكثر]
أرتدي بيجامة زرقاء. أمشي حافياً
لو شئتُ. أَجلس بارتخاءِ القُرْفُصاءِ

على أريكتها، فأنساها
وأَنسى كل أشياء الغياب /
أَعَدْتُ ما أَعددتُ من أدوات حفلتنا
إلى أدراجها. وفتحتُ كُلَّ نوافذي وستائري.
لا سرَّ في جسدي أمام الليل إلّا
ما انتظرتُ وما خسرتُ...
سخرتُ من هَوَسي بتنظيف الهواء لأجلها
[عطرته برذاذ ماء الورد والليمون]
لن تأتي... سأنقل نَبْتَةَ الأُوركيدِ
من جهة اليمين إلى اليسار لكي أعاقبها
على نسيانها...
غَطّيتُ مرآةَ الجدار بمعطفٍ كي لا أَرى
إشعاع صورتها ... فأندم /
قلتُ: أَنسى ما اقتبَسْتُ لها
من الغَزَل القديم، لأنها لا تستحقُّ

قصيدةً حتى ولو مسروقةً...
ونسيتُها، وأَكلتُ وجبتيَ السريعةَ واقفاً
وقرأتُ فصلاً من كتابٍ مدرسيّ
عن كواكبنا البعيدةْ
وكتبت، كي أنسى إساءتها، قصيدةْ
هذي القصيدةْ!

وأَنتِ معي

وأنتِ معي، لا أَقول: هنا الآن
نحن معاً. بل أَقول: أَنا، أَنتِ،
والأَبديةُ نسبح في لا مكانْ

هواءٌ وماءٌ. نفكُّ الرموز. نُسَمِّي،
نُسَمَّى، ولا نتكلّم إلّا لنعلم كم
نَحْنُ نَحْنُ... وننسى الزمانْ

ولا أَتذكَّرُ في أَيِّ أرضٍ وُلدتِ،
ولا أَتذكر من أَيّ أَرض بُعثتُ.
هواءٌ وماء، ونحن على نجمة طائرانْ

وأَنتِ معي يَعْرَقُ الصمتُ، يغرورقُ
الصَّحْوُ بالغيم، والماءُ يبكي ويبكي الهواء،
على نفسه كلما ٱتَّحد الجسدانْ

ولا حُبَّ في الحبِّ،
لكنه شَبَقُ الروح للطيرانْ

الآن بعدك

ألآن، بَعْدَكِ... عند قافيةٍ مناسبةٍ
ومنفى، تُصلح الأشجارُ وقفتها وتضحك.
إنه صيف الخريف... كَعُطْلَةٍ في غير
موعدها، كثقبٍ في الزمان، وكانقطاعٍ
في نشيدِ

صيف الخريف تَلفُّتُ الأيام صَوْبَ حديقةٍ
خضراءَ لم تنضج فواكهُها، وصَوْبَ حكايةٍ
لم تكتمل: ما زال فينا نَوْرسان يُحَلِّقان
من البعيد إلى البعيدِ

أَلشمسُ تضحَكُ في الشوارع، والنساءُ

النازلاتُ من الأَسِرَّة، ضاحكاتٍ ضاحكاتٍ،
يغتسلن بشمسهنَّ الداخلية، عارياتٍ عارياتٍ.
إنه صيف الخريف يجيء من وقت إضافيٍّ
جديد.

صيف الخريف يشُدُّني ويشدُّكِ: ٱنتظرا!
لعلَّ نهايةً أُخرى وأجملَ في انتظاركما أمام
محطة المترو. لعلَّ بدايةً دخلت إلى
المقهى ولم تخرج وراءكما. لعلَّ خطابَ
حبّ ما تأخَّرَ في البريدِ.

ٱلآن، بعدك... عند قافية ملائمة
ومنفى... تُصْلِحُ الأشجارُ وقفتها وتضحك.
أَشتهيك وأَشتهيك وأنت تغتسلين،
عن بُعْدٍ، بشمسك. إنه صيف الخريف

كعطلة في غير موعدها. سنعلم أَنه
فَصْلٌ يدافع عن ضرورته، وعن حُبّ
خرافيّ... سعيدِ

الشمسُ تضحكُ من حماقتنا وتضحكُ،
لن أَعود ولن تعودي!

٧ منفى (١)

نهار الثلاثاء والجوُّ صافٍ

نهارَ الثُّلاثاء، والجوُّ صافٍ، أَسيرُ
على شارعٍ جانبيّ مُغَطّى بسقف من
الكستناء... أَسير خفيفاً خفيفاً كأني
تبخَّرتُ من جسدي، وكأني على موعد
مع إحدى القصائد. أَنظر في ساعتي
شارداً. أَتصفَّحُ أوراق غيم بعيد
تدوِّنُ فيه السماءُ خواطرَ عليا، أُقلِّبُ
أحوال قلبي على شجر الجوز: خالٍ
من الكهرباء ككوخ صغير على شاطىء
البحر. أسْرَعَ، أبطأَ، أسرعَ أَمشي.
أُحدِّق في اللافتات على الجانبين...
ولا أَحفظ الكلمات. أدندن لحناً

بطيئاً كما يفعل العاطلون عن العمل:
«النهر كالمهر يجري إلى حتفه / البحرِ
والطيرُ تختطف الحَبَّ من كتِفِ النهر».
أَهجس، أهمس في السرّ: عِشْ
غدك الآن! مهما حَييتَ فلن تبلغ
الغَدَ... لا أرضَ للغد، واحلُمْ
ببطء، فمهما حلمت ستدرك أنَّ
الفراشة لم تحترق لتضيئك /

أَمشي خفيفاً خفيفاً. وأَنظر حولي
لعلّي أرى شَبَهاً بين أوصاف نفسي
وصفصاف هذا الفضاء فلا أَتبيّن
شيئاً يشير إليَّ

[إذا لم يُغَنِّ الكناريُّ

يا صاحبي لَكَ... فاعلمْ
بأنك سجان نفسك، إن
لم يُغَنِّ الكناريُّ]

لا أَرضَ ضيِّقةً كأصيص الورود
كأرضك أنتَ.. ولا أرضَ واسعةً
كالكتاب كأرضك أنتَ.. ورؤياك
منفاك في عالم لا هُويَّة للظلّ
فيه، ولا جاذبيّة /

تمشي كأنك غيرك /

لو أستطيع الحديث إلى أَحد في
الطريق لقُلْتُ: خُصُوصيَّتي هي ما
لا يدلُّ عليَّ، وما لا يُسَمَّى

من الموت حلماً، ولا شيء أكثر /
لو أستطيع الحديث إلى امرأة
في الطريق لقلتُ: خصوصيتي لا
تثير انتباهاً: تكلُّسُ بعض الشرايين
في القدمين، ولا شيء أكثر، فامشي
الهوينى معي مثل مشي السحابة
«لا هي رَيْثٌ... ولا عجل»...

ولو أَستطيع الحديث إلى شبح الموت
خلف سياج الأضاليا لقلت: وُلدنا
معاً توأمين، أَخي أنت يا قاتلي،
يا مهندس دربي على هذه الأرض...
أمي وأمِّكَ، فارمِ سلاحكَ /

لو أستطيع الحديث إلى الـحُبِّ، بعد

الغداء، لقلت له: حين كنا
فَتيَّين كنا لُهَاثَ يدين على زَغَب
المفردات، وإغماءةَ المفردات على
ركبتين. وكُنْتَ قليل الصفات، كثيرَ
الحراك، وأوضحَ: فالوجه وَجْهُ
ملاكٍ يجيء من النوم، والجسم
كَبْشٌ بقُوَّة حُمَّى. وكنت تُسمَّى
كما أَنت «حباً» فيُغْمى علينا
وُيغمى على الليل /

أَمشي خفيفاً، فأكبر عَشْرَ دقائقَ،
عشرين، ستِّين... أَمشي وتنقص
فيَّ الحياةُ على مهلها كسُعالٍ خفيف.
أفكِّر: ماذا لو أني تباطأتُ، ماذا
لو أني توقّفْتُ؟ هل أوقف الوقت؟

هل أربك الموت؟ أَسخر من فكرتي،
ثم أسأل نفسي: إلى أين تمشين
أَيتها المطمئنة مثل النعامة؟ أَمشي
كأن الحياة تعدِّل نقصانها بعد حين.
ولا أتلفت خلفي، فلن أَستطيع
الرجوع إلى أي شيء، ولا أستطيع
التماهي

ولو أستطيع الحديث إلى الربِّ قلت:
إلهي إلهي! لماذا تخلَّيْتَ عني؟
ولستُ سوى ظلِّ ظلك في الأرض،
كيف تخلَّيْتَ عني، وأَوقعتني في
فخاخ السؤال: لماذا خلقت البعوض
إلهي إلهي؟

وأَمشي بلا موعدٍ، خالياً من
وعود غدي. أَتذكَّرُ أني نسيتُ،
وأَنسى كما أَتذكَّرُ:

أَنسى غراباً على غصن زيتونةٍ
أَتذكَّرُ بُقْعَةَ زيتٍ على الثوبِ

أنسى نداء الغزال إلى زَوْجِهِ
أتذكَّرُ خَطَّ النمال على الرملِ

أَنسى حنيني إلى نجمةٍ وقعتْ من يدي
أتذكَّرُ فَرْوَ الثعالبِ

أنسى الطريق القديم إلى بيتنا
أَتذكَّرُ عاطفةً تشبه المندرينةَ

أَنسى الكلامَ الذي قُـلْـتُـهُ
أَتذكَّر ما لم أَقل بعد

أَنسى رواياتِ جدي وسيفاً على حائطٍ
أَتذكَّر خوفي من النومِ

أَنسى شفاهَ الفتاة التي امتلأت عنباً
أتذكَّرُ رائحةَ الخسِّ بين الأَصابعِ

أَنسى البيوت التي دَوَّنت سيرتي
أتذكر رَقْمَ الهُويـَّـةِ

أَنسى حوادث كبرى وهزَّةَ أرض مُدمِّرةً
أَتذكَّر تبغ أبي في الخزانة

أَنسى دروب الرحيل إلى عَدَمٍ ناقصٍ
أتذكر ضوء الكواكب في أطلس البدو

أَنسى أزيز الرصاص على قرية أَقفرت
أتذكر صوت الجداجد في الحرش

أَنسى كما أتذكر، أو أتذكر أني نسيت

[ولكنني
أتذكر
هذا النهار،
نهار الثلاثاء
والجوُّ صافٍ]

وأَمشي على شارع لا يؤدي إلى

هدف. رُبَّما أرشدتني خُطَايَ إلى
مقعد شاغر في الحديقة، أو
أرشدتني إلى فكرة عن ضياع الحقيقة
بين الجماليِّ والواقعيّ. سأجلس وحدي
كأني على موعد مع إحدى نساء
الخيال. تخيَّلتُ أني انتظرت طويلاً،
وأني ضجرت من الانتظار، وأني انفجرت:
لماذا تأخَّرتِ؟ تكذب: كان الزحامُ
شديداً على الجسر. فاهدأْ. سأهدأُ
حين تداعب شعري. سأَشعر أَنَّ
الحديقة غرفتنا والظلالَ ستائرُ

[إن لم يُغَنِّ الكناريُّ
يا صاحبي لَكَ ... فاعلم
بأنك أفرطتَ في النوم

إن لم يغنِّ الكناريُّ]

وتسأل: ماذا تقول؟
أقول لها: لم يغنّ الكناريُّ لي
هل تذكَّرتِني يا غريبةُ؟ هل أُشبه
الشاعر الرعويَّ القديمَ الذي توَّجَتْهُ
النجومُ مليكاً على الليل، ثم تنازل
عن عرشه حين أَرسلته راعياً
للغيوم؟ تقول: وهل يشبه اليومُ أَمسِ،
كأنك أَنتَ...

[هناك، على المقعد الخشبي المقابلِ
بنتٌ يُفتِّتُها الانتظار
وتبكي،
وتشرب كأس عصير...

تُلَمِّع بلّور قلبي الصغير
وتحمل عني عواطف هذا النهار]

وأسألها: كيف جئتِ؟
تقول: أتيتُ مصادفةً. كنت أمشي
على شارع لا يؤدي إلى هدفٍ.
قلت: أمشي كأني على موعد...
ربما أرشدتني خُطَايَ إلى مقعد شاغر
في الحديقة، أو أرشدتني إلى فكرة
عن ضياع الحقيقة بين الخياليِّ والواقعيّ.
وهل أنت أيضاً تذكرتني يا غريب؟
وهل أُشبه امرأةَ الأمس، تلك الصغيرةَ،
ذات الضفيرةِ، والأغنيات القصيرةِ
عن حبنا بعد نوم طويل

أقول: كأنَّكِ أنتِ ...

[هناك فتىً يدخل الآن
باب الحديقة،
يحمل خمساً وعشرين زنبقةً
للفتاة التي انتظرته
ويحمل عني فُتُوَّة هذا النهار]

صغير هو القلب... قلبي
كبير هو الحب... حُبّي
يسافر في الريح، يهبطُ
يفرطُ رُمَّانةً، ثم يسقطُ
في تيه عينين لوزيتين
ويصعد من فجر غمَّازتين
وينسى طريق الرجوع إلى بيته واسمه

صغير هو القلب... قلبي
كبير هو الحب !..

هل كان ذاك الذي كُنْتُهُ ــ هُو؟
أم كان ذاك الذي لم أكنه ــ أَنا؟

تقول: لماذا تحكُّ الغيومُ أَعالي الشجرْ؟
أقول: لتلتصق الساقُ بالساق
تحت رذاذ المطرْ

تقول: لماذا تحملق بي قطَّة خائفةْ؟
أقول: لكي توقفي العاصفةْ

تقول: لماذا يحنُّ الغريب إلى أَمسِهِ
أَقول: ليعتمد الشعر فيه على نفسِهِ

تقول: لماذا تصير السماءُ رماديَّةَ اللون
عند العشيةْ؟
أَقول: لأنك لم تسكبي الماء في المزهريّةْ

تقول: لماذا تبالغ في السخريةْ؟
أقول: لكي تأكل الأغنيةْ
قليلاً من الخبز ما بين حين وحين

تقول: لماذا نحبّ، فنمشي على طُرُقٍ خاليةْ؟
أقول: لنقهر موتاً كثيراً بموت أَقلّ
وننجو من الهاويةْ

تقول: لماذا حلمتُ بأني رأيت سُنُونُوَّةً في يدي؟
أقول: لأنك في حاجةٍ لأَحدْ

تقول: لماذا تذكِّرني بغد لا أراه
معك؟
أقول: لأنك إحدى صفات الأبدْ

تقول: ستمضي إلى نَفَقِ الليل وحدك
بعدي
أقول: سأمضي إلى نفق الليل بعدك
وحدي

... وأَمشي ثقيلاً ثقيلاً، كأني على موعد
مع إحدى الخسارات. أَمشي وبي شاعر
يستعدّ لراحته الأبديّةِ في ليل لندن.
يا صاحبي في الطريق إلى الشام! لم نبلغ
الشام بعد، تمهَّل تمهّل، ولا تجعل
الياسمينة ثكلى، ولا تمتحنّي، بمرثيَّة:

كيف أحمل عبء القصيدة
عنك وعني؟

قصيدةُ من لا يُحبُّونَ وَصْفَ الضباب
قصيدتُـــهُ
معطفُ الغيم فوق الكنيسةِ
معطفُهُ
سرّ قلبين يلتجئان إلى بَرَدى
سرّهُ
نخلة السومرية، أمِّ الأناشيد،
نخلتُهُ
ومفاتيحُ قرطبةٍ في جنوب الضباب
مفاتيحُهُ
لا يُذَيِّلُ أشعاره بٱسمه
فالفتاة الصغيرة تعرفُهُ

إن أَحسَّتْ بوخز الدبابيس
والملح في دمها.
هو، مثلي، يطارده قــلبُــهُ
وأَنا، مثله، لا أُذيّل باسمي الوصيَّــة
فالريح تعرف عنوان أهلي الجديد
على سفح هاوية في جنوب البعيد
وداعاً، صديقي، وداعاً وسلِّم على الشام |

لَسْتُ فـتـيّـاً لأحمل نفسي
على الكلمات، ولست فـتـيّـاً
لأكمل هذي القصيدةَ/

أَمشي مع الضاد في الليل ــ
تلك خصوصيتي اللغويةُ ــ أَمشي
مع الليل في الضاد كهلاً يحثّ

حصاناً عجوزاً على الطيران إلى برج
إيڤل. يا لغتي ساعديني على الاقتباس
لأحتضن الكون. في داخلي شُرْفَةٌ لا
يَمُرُّ بها أَحَدٌ للتحيَّة. في خارجي عالم
لا يردُّ التحيَّة. يا لغتي! هل أكون
أنا ما تكونين؟ أم أنت ــ يا لغتي ــ
ما أكون؟ ويا لغتي دَرِّبيني على
الاندماج الزفافيّ بين حروف الهجاء
وأعضاء جسمي ــ أَكن سيّداً لا صدى.
دَثِّريني بصوفك يا لغتي، ساعديني
على الاختلاف لكي أبلغ الائتلاف. لِدِيني
أَلِدْك. أنا ابنك حيناً، وحيناً أبوك
وأُمُّك. إن كنتِ كنتُ، وإن كُنْتُ
كُنْتِ. وسَمِّي الزمان الجديد بأسمائه
الأجنبيّةِ يا لغتي، واستضيفي الغريب

البعيد ونَثْرَ الحياة البسيطَ لينضج
شعري. فَمَنْ ــ إن نطقتُ بما ليس
شعراً ــ سيفهمني؟ مَنْ يُكَلّمني
عن حنينٍ خفيٍّ إلى زمن ضائع إن
نطقتُ بما ليس شعراً؟ ومن ــ إن
نطقت بما ليس شعراً ــ سيعرف
أرض الغريب؟

سجا الليل، واكتمل الليل، فٱسْتَيْقَظَتْ
زهرةٌ للتنفُّس عند سياج الحديقة.

قُلْتُ: سأشهد أَنيَ ما زلت حياً،
ولو من بعيد. وأني حلمت بأن الذي
كان يحلم، مثلي، أنا لا سواي...
وكان نهاري، نهار الثلاثاء رحباً طويلاً،

وليلي وجيزاً كفصلٍ قصيرٍ أُضيف
إلى المسرحية بعد نزول الستارة. لكنني
لن أُسيء إلى أحد...
إن أَضَفْتُ: وكان نهاراً جميلاً،
كقصةِ حُبٍّ حقيقيةٍ في قطار سريع

[إذا لم يغنِّ الكناريّ
يا صاحبي،
لا تَـلُمْ غير نفسك.
إن لم يُـغَنِّ الكناريُّ
يا صاحبـي لَكَ
غنِّ له أَنت ... غَنِّ له]

VI منفى (٢)

ضباب كثيف على الجسر

قال لي صاحبي، والضبابُ كثيفٌ
على الجسر:
هل يُعْرَفُ الشيءُ من ضدِّهِ؟
قلت: في الفجر يتَّضحُ الأمرُ
قال: وليس هنالك وقتٌ أَشدّ
التباساً من الفجر،
فاترك خيالك للنهر /
في زرقة الفجر يُعْدَمُ في
باحة السجن، أو قرب حرش الصنوبر
شابٌّ تفاءل بالنصر /
في زرقة الفجر ترسم رائحةُ الخبز
خارطةً للحياة ربيعيَّةَ الصيف /
في زرقة الفجر يستيقظ الحالمون

خفافاً ويمشون في ماء أَحلامهم
مرحين
ــ إلى أَين يأخذنا الفجرُ، والفجر
جِسْرٌ، إلى أَين يأخذنا؟
قال لي صاحبي: لا أريد مكاناً
لأُدفَنَ فيه. أريد مكاناً لأَحيا،
وأَلعنَهُ إن أردتُ.
فقلت له ــ والمكان يمرُّ كإيماءة
بيننا: ما المكان؟
فقال: عُثُورُ الحواسِّ على موطىء
للبديهة،
ثم تنهد:

يا شارعاً ضيقاً كان يحملني
في المساء الفسيح إلى بيتها

في ضواحي السكينةْ
أَما زلت تحفظ قلبيَ
عن ظهر قلب،
وتنسى دخان المدينة؟

قلت له: لا تراهن على الواقعيّ
فلن تجد الشيء حياً كصورته في
انتظارك...
إنَّ الزمان يُدجِّن حتى الجبال
فتصبح أَعلى، وتصبح أوطأ مما عرفت.
إلى أَين يأخذنا الجسرُ؟
قال: وهل كان هذا الطريقُ
طويلاً إلى الجسرِ؟
قلت: وهل كان هذا الضبابُ
كثيفاً على دَرَج الفجرِ؟

كم سنةً كُنْتَ تشبهني؟
قال: كم سَنَةً كُنْتَ أَنتَ أَنا؟
قلتُ: لا أَتذكَّرُ
قال: ولا أتذكر أني تذكرت
غير الطريق

وغنَّى:
[على الجسر، في بلد آخرٍ
يعلن الساكسفونُ انتهاءَ الشتاء
على الجسر يعترف الغرباء
بأخطائهم، عندما لا يشاركهم
أَحَدٌ في الغناء]

وقلت له: منذ كم سنة نَسْتَحِثُّ
الحمامة: طيري إلى سدرة المنتهى،

تحت شباكنا، يا حمامة طيري وطيري
فقال: كأني نسيت شعوري
وقال: وعما قليل نقلِّد أَصواتنا
حين كنا صغيرين. نلثغ بالسين واللام.
نغفو كزوجي يمام على كرمة ترتدي
البيت. عما قليل تطلُّ علينا الحياةُ
بديهيَّةً. فالجبال على حالها، خلف
صورتها في مخيلتي. والسماءُ القديمةُ
صافية اللون والذهن، إن لم
يَخُنّي الخيال، تظلُّ على حالها
مثل صورتها في مخيّلتي، والهواء
الشهيُّ النقيّ البهيّ يظل على
حاله في انتظاري.. يظلُّ على حاله.

قلت: يا صاحبي، أَفْرَغتني الطريقُ

الطويلة من جسدي. لا أحس بصلصاله.
لا أُحسُّ بأحواله. كلما سرت طرت.
خطايَ رؤاي. وأَما «أنا» ي، فقد
لَوَّحَتْ من بعيد:

«إذا كان دربُكَ هذا
طويلاً
فلي عَمَلٌ في الأساطير»

أَيدٍ إلهيَّةٌ دَرَّبتنا على حفر أسمائنا
في فهارس صفصافة. لم نكن واضحين
ولا غامضين. ولكنَّ أسلوبنا في
عبور الشوارع من زمنٍ نحو آخرَ
كان يثير التساؤل: مَنْ هؤلاءِ
الذين إذا شاهدوا نخلةً وقفوا

صامتين، وخرّوا على ظلِّها ساجدين؟
ومن هؤلاء الذين إذا ضحكوا أزعجوا
الآخرين؟

على الجسر، في بلد آخر، قال لي
يُعْرَفُ الغرباءُ من النَّظَر المتقطِّع في الماء،
أو يُعْرَفُون من الانطواء وتأتأة المشي.
فابنُ البلاد يسير إلى هدفٍ واضحٍ
مستقيمَ الخطى. والغريب يدور على
نفسه حائراً

قال لي: كُلُّ جسرٍ لقاء... على
الجسر أدخل في خارجي، وأسلم
قلبي إلى نَحْلَةٍ أو سُنُونُوَّةٍ
قلت: ليس تماماً. على الجسر أمشي

إلى داخلي، وأروِّض نفسي على
الانتباه إلى أمرها. كُلُّ جسرٍ فصام،
فلا أنت أنت كما كنت قبل قليل،
ولا الكائنات هي الذكريات

أنا اثنان في واحد
أم أنا
واحدٌ يتشظى إلى اثنين
يا جسْرُ يا جسرُ
أيّ الشَّتِيتيَنْنِ منا أَنا؟

مشينا على الجسر عشرين عاما
مشينا على الجسر عشرين مترا
ذهاباً إياباً،

وقلت: ولم يبقَ إلّا القليل
وقال: ولم يبقَ إلّا القليل
وقلنا معاً، وعلى حدة، حالمين:

ــ سأمشي خفيفاً، خُطَايَ على الريحِ
قوسٌ تدغدغ أرضَ الكمان
سأسمعُ نبض دمي في الحصى
وعُرُوق المكان

ــ سأُسندُ رأسي إلى جذع خَرُّوبةٍ،
هي أُمِّي، ولو أنْكَرَتْني
سأغفو قليلاً، ويحملني طائران صغيران
أعلى وأعلى... إلى نجمةٍ شرّدَتْني

ــ سأُوقظُ روحي على وَجَعٍ سابق

قادم، كالرسالة، من شرفة الذاكرةْ
سأهتف: ما زلتُ حيّاً، لأنيَ
أَشعر بالسهم يخترق الخاصرةْ

ـ سأنظر نحو اليمين، إلى جهة الياسمين
هناك تعلَّمْتُ أُولى أغاني الجسدْ
سأنظر نحو اليسار، إلى جهة البحر
حيث تعلَّمتُ صَيْدَ الزَّبَدْ

ـ سأكذب مثل المراهق: هذا الحليب
على بنطلوني ثُمَالَةُ حُلْمٍ تحرَّش بي... وانتهى
سأنكر أني أُقلِّدُ قيلولة الشاعر
الجاهليِّ الطويلةَ بين عيون المها

ـ سأشرب من حَنَفيّة ماء الحديقة حفنةَ

ماء. وأَعطش كالماء شوقاً إلى نفسِهِ
سأسأل أوّل عابر درب: أَشاهدتَ
شخصاً على هيئة الطيف، مثلي، يُفتِّش
عن أَمسِه؟

ـ سأحمل بيتي على كتفيَّ... وأَمشي
كما تفعل السلحفاة البطيئةْ
سأصطاد نسراً بمكنسة، ثم أسأل:
أَين الخطيئة؟

ـ سأبحث في الميثولوجيا وفي الأركيولوجيا
وفي كل جيم عن اسمي القديم
ستنحازُ إحدى إلٰهات كَنْعَانَ لي، ثُمَّ
تحلف بالبرق: هذا هو ابني اليتيم

ــ سأُثني على امرأةٍ أنجبتْ طفلةً

في الأنابيب. لكنها لا تمتُّ إليها بأيِّ شَبَــهْ
سأبكي على رجل مات حين انـتَـبهْ

ــ سآخذ سطر الـمَعَرّيِّ ثم أُعدِّلُه:
جَسَدي خرقَةٌ من تراب، فيا خائطَ
الكون خِطْني!
سأكتب: يا خالقَ الموت، دعني
قليلاً... وشأني!

ــ سأوقظ موتايَ: نحن سواسيةٌ أيها
النائمون، أما زلتُم مثلنا تحلمون
بيوم القيامةْ؟
سأجمع ما بعثرته الرياحُ من الغزَل

القُرْطُبيِّ، وأكملُ طَوْقَ الحمامةْ

ــ سأختار من ذكرياتي الحميماتِ
وَصْفَ الملائم: رائحةُ الشرشف المتجعّد
بعد الجِماع كرائحة العشب بعد المطرْ
سأشهد كيف سيخضرُّ وجه الحجرْ

ــ سيلسعُني وَرْدُ آذارَ، حيث وُلدتُ
لأَوّل مَرّةْ
ستحمل بي زهرةُ الجُلَّنار، وأُولَدُ منها
لآخر مَرَّةْ!

ــ سأَنأى عن الأمس، حين أُعيد
له إرثه: الذاكرةْ
سأدنو من الغد حين أطارد قُبَّرةً

ماكرةْ
ـ سأعلم أَني تأخَّرْتُ عن موعدي

وسأعرف أنَّ غدي
مَرّ، مَرّ السحابةِ، منذ قليل،
ولم ينتظرني
سأعلم أن السماء ستمطر بعد قليل
عليَّ
وأَنّي
أَسير على الجسرا

هل نطأ الآن أرض الحكاية؟ قد
لا تكون كما نتخيَّلُ «لا هي سَمْنٌ
ولا عَسَلٌ» والسماء رماديَّةُ اللون.
والفجر ما زال أزرقَ ملتبساً. ما

هو الزمن الآن؟ جسرٌ يطول
ويقصُرُ... فجر يطول ويمكر. ما
الزمن الآن؟ /

تغفو البلادُ القديمةُ خلف قلاع
سياحيّةٍ. والزمان يهاجر في نجمة
أَحرقت فارساً عاطفياً. فيا أيها
النائمون على إبر الذكريات! أَلا
تشعرون بصوت الزلازل في حافر الظبي؟

قلت له: هل أَصابتك حُمَّى؟
فتابع كابوسه: أَيها النائمون! ألا
تسمعون هسيس القيامة في حبة
الرمل؟
قلت له: هل تكلمني؟ أم تكلِّم

نفسك؟
قال: وصلتُ إلى آخر الحلم...
شاهدتُ نفسي عجوزاً هناك،
وشاهدتُ قلبي يطارد كلبي هناك
وينبحُ... شاهدتُ غرفةَ نومي
تُقَهْقِهُ: هل أنتَ حيّ؟ تعال
لأحمل عنك الهواء وعكازك الخشبيَّ
المرصَّع بالصدف المغربيِّ!! فكيف
أُعيد البداية، يا صاحبي، من أَنا؟
من أنا دون حُلْم ورفقة أُنثى؟

فقلت: نزور فتات الحياة، الحياة
كما هي، ولنتدرَّبْ على حبّ أشياء
كانت لنا، وعلى حُبّ أشياء ليست
لنا... ولنا إن نظرنا إليها معاً من

علٍ كسقوط الثلوج على جَبَلٍ
قد تكون الجبال على حالها
والحقول على حالها
والحياة بديهية ومشاعاً،
فهل ندخل الآن أرض الحكاية يا
صاحبي؟
قال لي: لا أُريد مكاناً لأُدفن فيه
أريد مكاناً لأحيا، وألعنه لو أردت...

وحملق في الجسر: هذا هو الباب.
باب الحقيقة. لا نستطيع الدخول ولا
نستطيع الخروج
ولا يُعْرَفُ الشيء من ضدِّهِ
أَلممراتُ مُغْلَقَةٌ
والسماءُ رماديَّةُ الوجه ضَيِّقَةٌ

ويدُ الفجر ترفع سروال جنديّةٍ
عالياً عالياً...

وبقينا على الجسر عشرين عاماً
أكلنا الطعام المعلّب عشرين عاماً
لبسنا ثياب الفصول،
استمعنا إلى الأغنيات الجديدة،
جَيِّدةِ الصنع،
من ثكنات الجنود
تزوَّج أولادنا بأميرات منفى
وغيَّرن أسماءهم،
وتركنا مصائرنا لهواة الخسائر
في السينما.
وقرأنا على الرمل آثارنا
لم نكن غامضين ولا واضحين

كصورةِ فجرٍ كثيرِ التثاؤُبِ /

قلت: أما زال يجرحك الجرح، يا
صاحبي؟
قال لي: لا أُحسُّ بشيء
فقد حوَّلت فكرتي جسدي دفتراً للبراهين،
لا شيء يثبت أَني أنا
غَيْرُ موتٍ صريحٍ على الجسر،
أَرنو إلى وردة في البعيد
فيشتعل الجمر
أرنو إلى مسقط الرأس، خلف البعيد
فيتسع القبرُ /

قلت: تمهل ولا تَمُتِ الآن. إنَّ الحياةَ
على الجسر ممكنةٌ. والمجاز فسيح المدى

هٰهنا بَرْزَخٌ بين دنيا وآخرةٍ
بين منفى وأرضٍ مجاورةٍ...
قال لي، والصقور تحلق من فوقنا:
خُذِ اسمي رفيقاً وحدِّثْهُ عني
وعش أنت حتى يعود بك الجسر
حيّاً غدا
لا تقل: إنه مات، أو عاش
قرب الحياة سدى!
قل: أطلَّ على نفسه من علٍ
ورأى نفسه ترتدي شجراً، واكتفى
بالتحيَّةِ: /

إن كان هذا الطريق طويلاً
فلي عَمَلٌ في الأساطير ا

كنت وحيداً على الجسر، في ذلك
اليوم، بعد اعتكاف المسيح على
جبل في ضواحي أريحا.. وقبل القيامة.
أمشي ولا أستطيع الدخول ولا أستطيع
الخروج... أدور كزهرة عبَّاد شمسٍ.
وفي الليل يوقظني صوت حارسة الليل
حين تغنّي لصاحبها:

لا تَعِدْني بشيء
ولا تُهدِني
وردةً من أريحا!

VII منفى (٣)

كوشم يد
في معلقة الشاعر الجاهليّ

أَنا هُوَ، يمشي أَمامي وأَتبعُهُ
لا أَقول له: هٰهنا، هٰهنا
كان شيء بسيط لنا:
حَجَرٌ أَخضَرٌ. شَجَرٌ. شارعٌ.
قَمَرٌ يافعٌ. واقعٌ لم يعد واقعاً.
هو يمشي أمامي
وأَمشي على ظلِّه تابعاً...
كُلَّما أسرعَ ارتفَعَ الظلُّ فوق التلال
وغطَّى صنَوْبرةً في الجنوب
وصفصافةً في الشمال،
أَلم نفترق؟ قلتُ، قال: بلى.
لَكَ مني رجوعُ الخيال إلى الواقعيّ
ولي منك تُفَّاحة الجاذبيَّةِ

قلت: إلى أَين تأخذني؟
قال: صوب البداية، حيث وُلِدْتَ
هنا، أنت وٱسمك /

لو كان لي أَن أُعيد البداية لاخترتُ
لاسمي حروفاً أَقَــلَّ
حروفاً أَخفَّ على أُذُن الأَجنبيّــة /

آذار شهر العواصف والشبق العاطفيّ.
يطلُّ الربيع كخاطرةٍ في مسامرة اثنين
بين شتاء طويل وصيف طويل. ولا
أَتذكَّر إلّا المجاز، فما كدتُ أُولَدُ
حتى انتبهتُ إلى شَبَــهٍ واضــحٍ بين
عُرْفِ الحصان وبين ضفائر أُمّي

ـ دع الاستعارة، وٱمشِ الهوينى
على زغب الأرض ـ قال، فإن الغروب
يعيد الغريب إلى بئره، مثل أُغنية
لا تُغَنَّى، وإن الغروب يُهيِّجُ فينا
حنيناً إلى شغف غامض
ـ ربما ... ربما. كل شيء يُؤَوَّلُ عند
الغروب. وقد توقظ الذكريات نداء
شبيهاً بإيماءة الموت عند الغروب،
وإيقاع أُغنية لا تغنّى إلى أَحد

[على شجر السرو
شرق العواطف،
غيمٌ مُذَهَّبْ
وفي القلب سمراء كالكستناء
وشفافة الظل كالماء تُشْرَبْ

تعال لنلعب
تعالي لنذهب
إلى أيِّ كوكبْ]

أَنا هو، يمشي عليَّ، وأَسأله:
هل تذكرتَ شيئاً هنا؟
خَفِّف الوطءَ عند التذكُّر،
فالأرض حبلى بنا.
قال: إني رأيتُ هنا قمراً ساطعاً
ناصع الحزن كالبرتقالة في الليل،
يرشدنا في البراري إلى طرق التيه...
لولاه، لم تلتقِ الأمهاتُ بأطفالهنَّ
ولولاه، لم يقرأ السائرون على
الليل أسماءهم فجأة: «لاجئين»
ضيوفاً على الريح /

كان جناحي صغيراً على الريح عامئذٍ...
كُنْتُ أَحسب أنَّ المكان يُعَرَّفُ
بالأُمَّهات ورائحة المريميَّة. لا أَحَدٌ
قال لي إن هذا المكان يُسَمَّى بلاداً،
وإن وراء البلاد حدوداً، وأن وراء
الحدود مكاناً يُسمَّى شتاتاً ومنفى
لنا. لم أَكن بَعْدُ في حاجةٍ للهويّة.
لكنهم... هؤلاء الذين يجيئوننا فوق
دبابة ينقلون المكان على الشاحنات
إلى جهة خاطفةْ

المكان هو العاطفةْ

ــ تلك آثارنا، مثل وَشْمِ يدٍ في
معلقة الشاعر الجاهليّ، تمر بنا

ونمرُّ بها ــ قال من كنتُهُ يوم لم
أَعرف المفرداتِ لأعرف أسماء أشجارنا...
وأُسمِّي الطيورَ التي تتجمَّع فيَّ بأسمائها.
لم أكن أحفظ الكلمات لأحمي المكان
من الانتقال إلى اسمٍ غريب يُسَيِّجه
الأكاليبتوس. واللافتات تقول لنا:
لم تكونوا هنا.

تهدأ العاصفة
والمكان هو العاطفة

ــ تلك آثارنا ــ قال من كنتُهُ...
هٰهنا يلتقي زمنان ويفترقان، فمن
أَنت في حضرة «الآن»؟
قلتُ: أنا أَنت لولا دخانُ المصانعِ

قال: ومن أنت في حضرة الأمس؟
قلتُ: أنا نحن لولا تطفُّلُ فَعْلِ
المضارعِ
قال: ومن أنت في حضرة الغد؟
قلت: قصيدة حب ستكتبها حين
تختار، أنت بنفسك أسطورة الحبِّ /

[حنطيّــةٌ كأغاني الحصاد القديمة
سمراءُ من لسعة الليل
بيضاءُ من فرط ما ضحك الماءُ
حين اقتربتِ من النبع...
عيناكِ لوزيّــتـان
وجرحان من عَسَلٍ شفتاك
وساقاك برجان من مرمر
ويداك على كتفي طائران

ولي منك روح ترفرف
حول المكان]

ـ دع الاستعارة، وامشِ معي. هل
ترى أثراً للفراشة في الضوء؟
قُلْتُ: أراك هناك أراك تمرُّ
كخاطرةٍ من خواطر أسلافنا
قال لي: هكذا تستعيد الفراشةُ
أشغالها الشاعريَّةَ: أُغنيةً لا
يُدَوِّنُها الفلكيون إلّا دليلاً على
صحة الأبديَّة /

أَمشي الهوينى على نفسي ويتبعني
ظلّي وأَتبعه، لا شيء يرجعني
لا شيء يرجعُهُ

كأنني واحدٌ مني يودِّعني
مستعجلاً غَدَهُ: لا تنتظر أَحداً
لا تنتظرني، ولكن لا أُودِّعُهُ

كأنَّهُ الشعرُ: فوق التل تخدعني
سحابةٌ غزلت حولي هُويتها
وأَورثتني مداراً لا أضيِّعُهُ

للمكان روائحه،
للغروب تباريحه،
للغزالة صيّادها،
للسلاحف درع الدفاع عن النفس،
للنمل مملكةٌ،
للطيور مواعيدُ،
للخيل أسماؤها،

للسنابل عيدٌ،
وأمَّا النشيد، نشيد الختام السعيد
فليس له شاعرٌ./

في الهزيع الأخير من العمر نُصْغي
إلى أيّ صوت بدون اكتراث،
ويوقظنا وَجَعٌ في المفاصل من نومنا،
أو بَعُوضٌ يطنُّ كأستاذ فلسفةٍ...
في الهزيع الأخير، نُحسُّ بآلام
ساقين مقطوعتين، كأن الشعور
تأخر. لم ننتبه حين كنا صغاراً
إلى جرحنا الداخليِّ، فقد كان
كالرسم بالزيت ناراً تؤجِّجُ أَلوان
أعلامنا، وتهيِّجُ ثور أناشيدنا.
في الهزيع الأخير من العمر لا

يبزغ الفجر إلَّا لأنَّ ملائكةً طيّبين
يُؤَدُّون واجبهم صاغرين...

أَنا هو، حوذيُّ نفسي
ولا خيل تصهل في لغتي

قال: نمشي ولو في الهزيع الأخير
من العمر، نمشي ولو خذلتنا الدروب.
نطير، كما يفعل المتصوف، في الكلمات...
نطير إلى أيِّ أَين!

على تلَّة بارتفاع يدين سماويتين صعدنا.
مشينا على إبر الشوك والسنديان،
التحفنا بصوف النبات اليتيم، اتحدنا
بمعجم أسمائنا. هل تحس بوخز الحصى

وبمكر القطا؟ قال لي: لا أُحسّ
بشيء، كأن الشعور رفاهيَّةٌ. وكأنِّي
هنا صفة من صفات الغياب الكثيرة.
ليست حياتي معي... تركتني كما تترك
المرأةُ الرجل ــ الشَّبَحَ، انتظرتني
وملَّت من الانتظار، ودلَّت سواي
على كنزها الأُنثويِّ /

إذا كان لا بُدَّ من قمرٍ
فليكن كاملاً كاملاً
لا كقرنٍ من الموز /

قلت: ستحتاج وقتاً لتعرف نفسك،
فاجلسْ على برزخ بين بين،
فلا كيف كيف، ولا أَين أَين

على صخرتين سماويتين انتظرنا غروب
الغزالة... عند الغروب يحسّ الغريب
بحاجته لعناق الغريب، وعند الغروب
يحسّ الغريبان أن هنالك، بينهما،
ثالثاً يتدخل في ما يقولان أو لا
يقولان...

قولا وداعاً لما كان
قولا وداعاً لما سيكون
وداعاً لقافية النون
في اسم الـمُثَنّى
وفي بلد الأرجوان!

أقول له: مَنْ هو؟
يقول صدى من بعيد: هو الواقعيُّ

هنا. صوتُ أَقدارنا هُوَ. سائقُ
جرّافةٍ عدَّلتْ عفوية هذا المكان،
وقصت جدائل زيتوننا لتناسب قصَّة
شعر الجنود، وتفتح شِعْباً لبغل
نبيّ قديم. هو الواقعيُّ، مُرَوِّضُ
أُسطورة. ثالث الجالِسَينْ على صخرتين
سماويتين، ولكنه لا يرانا كما نحن:
شيخاً تأبط طفلاً، وطفلاً تورَّط
في حكمة الشيخ /

قلنا: سلام على الإنْسِ والجنّ
من حولنا
قال: لا أفهم الاستعارة
قلنا: لماذا تغلغلت في ما نقول
وفي ما نحس؟

فقال: طريقة ظلّكما في ارتداء الحصى
والقطا أَفزعتني
سألناه: ممَّ تخاف؟
فقال: من الظلّ ... للظلّ رائحة الثوم
حيناً ورائحةُ الدم حيناً
سألناه: من أَين جئتَ؟
فقال: من اللامكان، فكُلُّ مكانٍ
بعيدٍ عن الله أَو أَرضه هو منفى.
ومن أَنتما؟
فقلنا له: نحن أحفاد روح المكان.
وُلدنا هنا.. وهنا سوف نحيا إذا
بقي الربُّ حيّاً. وكُلُّ مكانٍ بعيدٍ
عن الله أو أَرضه هو منفى
فقال: طريقة ظلّكما في ارتداء المكان
تثير الشكوك

سألناه: فيم تشكّ؟
فقال: بظلٍّ ينازع ظلاًّ
فقلنا له: أَلِأَنَّ المسافة ما بين أَمس
وحاضرنا لم تزل خَصْبَةً لثلاثيَّةِ الوقت؟
قال: قتلتكما أَمس
قلنا: عفا الموت عنا
فصاح: أَنا حارس الأبدية
قولا: وداعاً لما سيكون
وما كان
قولا وداعاً لرائحة الثوم
والدم في ظلّ هذا المكان

أَلشيء معنىً هنا، والشيء يصنعني
ذاتاً تعيد إلى المعنى ملامحه
فكيف أُولد من شيء... وأَصنعهُ

أَمتدُّ في الشجر العالي فيرفعني
إلى السماء، وأَعلو طائراً حَذِراً
لا شيء يخدعه، لا شيء يصرعُهُ

في كُلِّ شيء أرى روحي ويوجعني
ما لا أُحسّ به، أو لا يحسُّ
بروحي حين توجعُهُ

أَنا وأَنا لا نصدِّق هذا الطريق الترابيَّ،
لكننا سائران على أَثَر النمل [إنَّ
القيافة خارطةُ الحَدْس] لا الشمس
غابت تماماً، ولا القمر البرتقاليُّ ضاءَ

أَنا وأَنا لا نصدِّق أَنَّ البداية
تنتظر العائدين إليها، كأمّ على

دَرَج البيت. لكننا سائران ولو
خذلتنا السماء
أَنا وأنا لا نصدِّق أن الحكاية
عادت بنا شاهدين على ما فعلنا:
نسيتُكَ مثل قميصي المُبقّع بالتوت
حين ركضت إلى غابة وندمت..
وأَمَّا أنا فنسيتك حين احتفظت
بريشةِ عنقاءَ لي... وندمت

ــ أَلا نتصالحُ؟ قلتُ
فقال: تريَّثْ. هناكَ على بعد مترين
مدرستي، فتعال نخلِّصْ حروف الهجاء
من العنكبوت، ونتركْ له أحرف العلّة
الباكيات!
تذكرتُها: حائطانِ قديمانِ من دون

سقف كحرفين من لغة شوَّهتها الرمالُ
وهزَّةُ أرض سدوميَّةٌ. بقراتٌ سمانٌ
تنام على الأبجدية. كَلْبٌ يُحَرِّكُ ذيل
الرضا والفكاهة. ليلٌ صغيرٌ يرتِّبُ
أَشياءه لنشاط الثعالب /
قال: الحياة تواصل روتينها بعدنا.
يا لها! يا لها من إباحيَّةٍ لا تفكِّر إلّا
بإشباع شهوتها
قلتُ: هل نتصالح كي نتقاسَمَ هذا
الغياب. فنحن هنا وحدنا في القصيدة؟
قال: تريَّثْ. هناك على حافة التلِّ،
من جهة الشرق، مَقْبَرَةُ الأهل. فلنمضِ
قبل هبوط الظلام على الميتين

سلام على النائمين
سلام على الحالمين
ببستان فردوسهم آمنين
سلام على الصاعدين خفافاً
على سُلَّم الله /

في حضرة الموت لا نتشبَّث إلّا
بصحَّة أسمائنا...

عَبَثٌ ماجنٌ. لم نجد حجراً واحداً
يحمل اسم الضحية، لا اسمي ولا
اسمك /
ــ مَنْ مات منا، سألت، أَنا أم
أنا؟
قال: لا أعرف الآن

قلت: ألا نتصالح؟
قال: تريّث!
فقلت: أتلك هي العودة المشتهاة؟
فقال: وملهاة إحدى إلٰهاتنا العابثات،
فهل أَعجبتك الزيارة؟
قلت: أتلك نهاية منفاك؟
قال: وتلك بداية منفاك
قلت: وما الفرق؟
قال: دَهَاءُ البلاغةِ
قلت: البلاغةُ ليست ضروريّة للخسارةِ
قال: بلى، فالبلاغةُ تقنع أرملةً
بالزواج من السائح الأَجنبيِّ، وتحمي
ورود الحديقة من عَبَثِ الريحِ
قلت: أَلا نتصالَحُ؟
قال: إذا وقَّعَ الحيُّ والميت، في

جسد واحد، هدنةً
قلت: هذا أنا الميت والحيّ
قال: نسيتك، من أنت؟
قلت: أنا نسخة عن «أنا» ك التي انتبهت لكلام
الفراشة لي: يا أَخي في الهشاشة...
قال: ولكنها احترقت
قلت: لا تحترق مثلها

والتفتُّ إليه، فلم أَره، فصرخت
بكُلِّ قوايَ: اْنتظرني! وخذ كل شيء
سوى الاسم /
لم ينتظرني، وطار.. وأَدركني الليل
فاستدرجت صرختي شبحاً عابراً
قلت: من أنت؟

قال: السلام عليك، فقلت: عليك السلام
فمن أنت؟

قال: أنا سائح أَجنبي أُحب أساطيركم
وأحب الزواج بأرملةٍ من بنات عناة!

VIII منفى (٤)

طباق

[إلى إدوارد سعيد]

نيويورك / نوفمبر / الشارعُ الخامسُ /
الشمسُ صَحْنٌ من المعدن المتطاير /
قُلْتُ لنفسي الغريبة في الظل:
هل هذه بابل أم سدوم؟

هناك، على باب هاوية كهربائـيَّـةٍ
بعُلُوٍّ السماء، التقيتُ بإدوارد
قبل ثلاثين عاماً،
وكان الزمان أَقَلَّ جموحاً من الآن
قال كلانا:
إذا كان ماضيك تجربةً
فاجعلِ الغَدَ معنى ورؤيا!
لنذهبْ،

لنذهبْ إلى غدنا واثقين
بصدق الخيال، ومعجزة العشبِ /

لا أَتذكَّر أنَّا ذهبنا إلى السينما
في المساء. ولكنْ سمعْتُ هنوداً
قدامى ينادونني:
لا تَثِقْ بالحصان، ولا بالحداثةِ /

لا، لا ضحيَّــةَ تسأل جلّادها:
هل أَنا أَنت؟ لو كان سيفيَ
أكبرَ من وردتي، هل ستسأل
إن كُنْتُ أَفعل مثلَكْ؟

سؤالٌ كهذا يثير فُضُولَ الروائيِّ
في مكتبٍ من زجاج يُطلُّ على

زنبقٍ في الحديقة... حيث تكونُ
يَدُ الفرضيّة بيضاءَ مثل ضمير
الروائيّ، حين يُصَفِّي الحساب
مع النزعة البشرية: لا غَدَ
في الأمس، فلنتقدَّمْ إذاً! /

قد يكون التقدُّمُ جسرَ الرجوع
إلى البربريَّــة ...|

نيويورك. إدوارد يصحو على كسل
الفجر. يعزف لحناً لموتسارت. يركض
في ملعب التنس الجامعيّ. يفكّر في
هجرة الطير عبر الحدود وفوق الحواجز.
يقرأ «نيويورك تايمز». يكتب تعليقَهُ
المتوتّر. يلعن مستشرقاً يرشد الجنرال

إلى نقطة الضعف في قلب شرقيّة.
يستحمُّ. ويختار بدلَتَهُ بأناقة دِيكٍ.
ويشرب قهوته بالحليب. ويصرخ
بالفجر: هيّا، ولا تتلكّأ /

على الريح يمشي. وفي الريح
يعرف مَنْ هُوَ. لا سقف للريح.
لا بيت للريح. والريح بُوصلةٌ
لشمال الغريب.

يقول: أَنا من هناك. أَنا من هنا
ولستُ هناك، ولستُ هنا
لِيَ اسمانِ يلتقيان ويفترقان
ولي لُغتان، نسيت بأيِّهما
كنتُ أَحلُمُ،

لي لُغَةٌ إنجليزيَّةٌ للكتابة،
طيِّعةُ المفردات،
ولي لغةٌ من حوار السماء مع
القدس، فضيَّةُ النَّبْرِ، لكنها
لا تُطيعُ مخيّلتي!

والهويَّةُ؟ قلتُ
فقال: دفاعٌ عن الذات...
إنَّ الهويةَ بنتُ الولادة، لكنها
في النهاية إبداعُ صاحبها، لا
وراثة ماضٍ. أَنا المتعدِّد. في
داخلي خارجي المتجدِّدُ... لكنني
أَنتمي لسؤال الضحيَّة. لو لم
أكن من هناك لدرَّبْتُ قلبي
على أن يُربِّي هناك غزال الكِنايَةِ.

فاحملْ بلادك أَنَّى ذَهَبْتَ...
وكُنْ نرجسيّاً إذا لزم الأَمرُ /

ــ منفىً هو العالم الخارجيُّ
ومنفىً هو العالم الداخليُّ
فمن أَنت بينهما؟
ء لا أُعرِّفُ نفسي تماماً
لئلّا أُضيِّعها. وأَنا ما أَنا
وأنا آخري في ثُنَائيّةٍ
تتناغم بين الكلام وبين الإشارةْ.
ولو كنت أكتب شعراً لقلت:

أنا اثنان في واحد
كجناحَيْ سُنُونُوّةٍ،
إن تأخَّر فَصْلُ الربيع

اكتفيتُ بحمل البشارةْ

يحبُّ بلاداً، ويرحل عنها
[هل المستحيل بعيد؟]
يحبُّ الرحيل إلى أيِّ شيء
ففي السفر الحر بين الثقافات
قد يجد الباحثون عن الجوهر البشريّ
مقاعدَ كافيةً للجميع.
هنا هامش يتقدَّمُ. أو مركز يتراجع
لا الشرقُ شرقٌ تماماً
ولا الغربُ غربٌ تماماً
لأن الهويَّةَ مفتوحةٌ للتعدُّد
لا قلعةً أو خنادقَ /

كان المجازُ ينام على ضفّة النهر،

لو لا التَلَوُّ ثُ،
لاحْتَضَنَ الضفَّةَ الثانيةْ
ــ هل كتبتَ الروايةَ؟
□ حاولتُ ... حاولت أن أستعيد بها
صورتي في مرايا النساء البعيدات،
لكنهن توغَّلْنَ في ليلهنَّ الحصين
وقلن: لنا عالم مستقلٌّ عن النصّ
لن يكتب الرجلُ المرأةَ اللغزَ والحُلْمَ
لن تكتب المرأةُ الرجل الرمز والنجمَ
لا حُبَّ يشبه حباً
ولا ليل يشبه ليلاً
دعونا نُعدِّدْ صفات الرجال ونضحكْ!

ــ وماذا فعلتَ؟
□ ضحكت على عبثي

ورميتُ الروايةَ في سلة المهملات!

| المُفَكِّرُ يكبَحُ سَرْدَ الروائيّ
والفيلسوفُ يُشَرِّحُ وَرْدَ المُغَنّي |

يحبُّ بلاداً ويرحل عنها:
أنا ما أكون وما سأكون
سأصنع نفسي بنفسي
وأختار منفايَ
منفايَ خلفيّةُ المشهد الملحميّ
أُدافع عن حاجة الشعراء
إلى الغد والذكريات معاً
وأدافع عن شَجَرٍ ترتديه الطيورُ
بلاداً ومنفى
وعن قمر لم يزل صالحاً لقصيدة حُبّ

أُدافع عن فكرة كسرتها هشاشةُ أصحابها
وأُدافع عن بلد خَطَفَتْهُ الأساطيرُ /

ــ هل تستطيع الرجوعَ إلى أي شيء؟
□ أمامي يجرُّ ورائي ويُسرع...
لا وقت في ساعتي لأَخُطَّ سطوراً
على الرمل. لكنني أستطيع زيارة أمس،
كما يفعل الغرباء،
إذا استمعوا في المساء
إلى الشاعر الرَّعَوِيِّ:

[فتاةٌ على النبع تملأ جَرَّتها
بحليب السحابْ
وتبكي وتضحك من نَحْلَةٍ
لسعت قلبها في مهبِّ الغيابْ

هل الحُبُّ ما يوجع الماءَ
أَم مَرَضٌ في الضبابْ..؟
إلى آخر الأُغنية]

ـــ إذن، قد يصيبك داءُ الحنين؟
□ حنينٌ إلى الغد.. أبعد أَعلى
وأَبعد. حُلْمي يقود خُطاي. ورؤيايَ
تُجْلسُ حُلْمي على ركبتيّ كقطٍّ أَليف.
هو الواقعيُّ الخياليُّ وابن الإرادة:

في وسعنا
أَن نُـغيِّــر
حتميَّــة الهاويةْ!

ـــ والحنينُ إلى أمس؟

□ عاطفةٌ لا تَخُصّ المفكِّر إلَّا
ليفهم تَوْقَ الغريب إلى أدوات الغياب.
وأَمَّا أنا، فحنيني صراعٌ على حاضرٍ
يُمْسِكُ الغَدَ من خِصْيَتيه

ــ ألم تتسلّلْ إلى أمس، حين ذهبتَ
إلى البيت، بيتك، في حارة الطالبيّة؟
□ هَيَّأتُ نفسي لأن أَتمدَّد في
تخت أُمي، كما يفعل الطفل حين يخاف
أَباه. وحاولت أن أستعيد ولادة
نفسي، وأَن أَتتبَّع درب الحليب
على سطح بيتي القديم، وحاولتُ أن
أتحسَّس جلدَ الغياب ورائحةَ الصيف
من ياسمين الحديقة. لكن وحش الحقيقة
أَبعدني عن حنين تلفَّتَ كاللص خلفي

ــ وهل خفت؟ ماذا أخافك؟

□ لا أستطيع لقاء الخسارة وجهاً
لوجه. وقفت على الباب كالمتسوّل.
هل أطلب الإذن من غرباء ينامون فوق
سريري أنا... بزيارة نفسي لخمس دقائق؟
هل أَنحني باحترامٍ لسُكان حلمي الطفوليِّ؟
هل يسألون: مَنِ الزائرُ الأجنبيُّ
الفضوليُّ؟ هل أستطيع الكلام عن
السلم والحرب بين الضحايا وبين ضحايا
الضحايا، بلا جملة اعتراضيّةٍ؟ هل
يقولون لي: لا مكان لحلمين في
مَخْدَع واحدٍ؟

[لا أنَا، أَو هُوَ
ولكنه قارئ يتساءل عمّا

يقول لنا الشعرُ في زمن الكارثةْ]

دَمٌ،

ودمٌ،

ودمٌ

في بلادك،

في اسمي وفي اسمك، في زهرة
اللوز، في قشرة الموز، في لبن
الطفل، في الضوء والظلّ، في
حبة القمح، في عُلبة الملح /
قَنَّاصَةٌ بارعون يصيبون أَهدافهم
بامتياز

دماً،

ودماً،

ودماً..
هذه الأرض أَصغرُ من دم أبنائها
الواقفين على عتبات القيامة مثل
القرابين. هل هذه الأرض حقاً
مباركةٌ أَم مُعَمَّدَةٌ
بدمٍ،
ودمٍ،
ودمٍ

لا تُجفِّفُهُ الصلوات ولا الرمل.
لا عَدْلَ في صفحات الكتاب المُقَدَّس
يكفي لكي يفرح الشهداءُ بحريّة
المشي فوق الغمام. دم في النهار.
دم في الظلام. دم في الكلام.

يقول: القصيدةُ قد تستضيفُ الخسارة
خيطاً من الضوء يلمع في قلب جيتارة.
أو مسيحاً على فرس مثخناً بالمجاز
الجميل. فليس الجماليّ إلّا حضورَ
الحقيقيِّ في الشكل /

في عالم لا سماء له، تصبح الأرضُ
هاويةً. والقصيدة إحدى هبات العزاء
وإحدى صفات الرياح، شماليةً أو جنوبيةً.
لا تَصِفْ ما ترى الكاميرا من جروحك.
واصرخ لتسمع نفسك، واصرخ لتعلم
أنك ما زلتَ حيّاً وحيّاً، وأن الحياة
على هذه الأرض ممكنةٌ. فاخترع أملاً
للكلام، ابتكرْ جهة أو سراباً
يطيل الرجاء،

وغنِّ، فإنَّ الجماليَّ حريَّةٌ /
أقول: الحياة التي لا تُعَرَّفُ إلَّا
بضدِّ الموت... ليست حياة

يقول: سنحيا، ولو تركتنا الحياةُ
إلى شأننا. فلنكن سادة الكلمات
التي سوف تجعل قُرَّاءها خالدين ـــ
على حدّ تعبير صاحبك الفذّ ريتسوس /

وقال: إذا متُّ قبلك
أُوصيكَ بالمستحيلْ!
سألت: هل المستحيل بعيد؟
فقال: على بُعْد جيلْ
سألت: وإن متّ قبلك؟
قال: أُعزِّي جبال الجليلْ

واكتب: «ليس الجماليُّ إلّا بلوغَ
الملائم». والآن، لا تنس:
إن متُّ قبلك أوصيك بالمستحيلْ

عندما زرتُهُ في سَدُومَ الجديدةِ،
في عام ألفين واثنين، كان
يقاوم حَرْبَ سَدُومَ على أهل بابل
والسرطان معاً،
كان كالبطل الملحميِّ الأخير
يدافع عن حَقّ طروادةٍ
في اقتسام الرواية /

نسرٌ يودِّع قمَّـتَـهُ عالياً
عالياً،
فالإقامة فوق الأولمب

وفوق القِمَمْ
قد تـثير السَّـأمْ

وداعاً،
وداعاً لشعر الأَلَمْ!

في حضرة الغياب

نص

يقولون: لا تبعد، وهم يدفنونني
وأين مكان البُعْد إلّا مكانيا؟

مالك بن الريب

I

سَطْراً سَطْراً أَنثركَ أَمامي بكفاءةٍ لم أُوتَها إلّا في المطالع /

وكما أَوصيتَني، أقِفُ الآن باسمكَ كي أشكر مُشَيِّعيكَ إلى هذا السفر الأخير، وأدعوهم إلى اختصار الوداع، والانصرافِ إلى عشاءٍ احتفاليّ يليق بذكراك /

فلتأذنْ لي بأن أراكَ، وقد خرجتَ مني وخرجتُ منك، سالماً كالنثر المُصَفَّى على حجرٍ يخضرّ أو يصفرّ في غيابك. ولتأذن لي بأن أُلـمّكَ، واسمَكَ، كما يلمُّ السابلةُ ما نَسِيَ قاطفو الزيتون من حبّات خبّأها الحصى. ولنذهبنَّ معاً أنا وأنت في مَسَارَيْن:

أنتَ، إلى حياةٍ ثانية، وَعَدَتْكَ بها اللغة، في قارىء قد ينجو من سقوط نَيْزَكٍ على الأرض.

وأَنا، إلى موعدٍ أرجأْتُهُ أكثرَ من مرَّة، مع موتٍ وَعَدْتُهُ بكأس نبيذٍ أَحمرَ في إحدى القصائد. فليس على الشاعر من حَرَجٍ إن كذب. وهو لا يكذب إلّا في الحب، لأن أَقاليم القلب مفتوحة للغزو الفاتن.

أمَّا الموت، فلا شيء يُهينُهُ كالغدر: اختصاصِهِ الـمُجَرَّب. فلأذهبْ إلى موعدي، فور عثوري على قبرٍ لا ينازعني عليه أَحدٌ من غير أَسلافي، بشاهدةٍ من رخام لا يعنيني إن سقط عنها حرف من حروف اسمي، كما سقط حرف الياء من اسم جدِّي سهواً.

ولأذهبنَّ، بلا عُكَّاز وقافية، على طريق سلكناه، على غير هدى، بلا رغبة في الوصول، من فرط ما قرأنا من كُتُب أَنْذَرَتْنا بخُلُوِّ الذرى مما بعدها، فآثرنا الوقوف على سفوحٍ لا تخلو من لهفة الترقّب لما تُوحي الثنائيّاتُ من امتنانٍ غير مُعْلَنٍ بين الضدِّ والضدّ. لو عرفتُكَ لامتلكتُكَ، ولو عرفتني لامتلكتني، فلا أكون ولا تكون.

هكذا سَمّينا، بتواطُؤٍ إيقاعيّ، ما كان بيننا من هاويةٍ

سفحاً. ونَسَبْنَا إلى كتب قرأناها عجْزَنا عن الوصول إلى ذروة تطلُّ على عَدَمٍ ضروريٍّ لاختبار الوجود يا صاحبي! يا «أنا» ي النائم على بزوغ البياض مِن أبدية، وعلى تلويحِ الأبدية ببياضٍ لا لون بعده. فبأيِّ معنى من معانيكَ أُقيم الشكل اللائق بعَبَثٍ أَبيض؟ وبأيِّ شكلٍ أَحمي معناك من الهباء ... ما دامت رحلتنا أَقصرَ من خطبة الكاهن في كنيسة مهجورة، في يوم أَحدٍ، لم يسلم فيه أحدٌ من غضب الآلهة؟

لكنك مُسَجّى أَمامي، أَعني في كلامي الخالي من عثور الاستعارات على مصادرها، وعلى رابطٍ خفيٍّ بين أَرضٍ متديِّنةٍ، وسماء وثنيَّة. من هناك إلى هناك يرحل الغيم برفقة قمر لم يحرمنا افتضاحُ سرِّه الصخريّ من تذكُّر حُبٍّ سابق. ولم يمنعنا جفافُ القلب من مداواة أوجاع المفاصل بذكرى التمدُّد على العشب، تماماً كما أنت مسجّى أمامي في كلامي الذي لن يخذله غدٌ شخصيٌّ كفَّ عن الخداع، لا لأنه تأدَّب وتهذّب، بل لأنه يحتضر الآن ويصير إلى خبر، لا عَدُوَّ له ولا صديق... خبر عن مسافرين اثنين، أنت وأنا، لم يفترقا في مرآة أو طريق ... لم يفترقا إلّا لساعاتٍ يتأكَّدان خلالها من سطوة الأنثى على الذكر /

حيث يرى المرء نفسه في حرائق البرق، كما هي، معافاةً مُصَفَّاة من شوائب التشبيه بما ليس موتاً يُحْيِي... وحياةً تُحيا على حصَّة العاشق من سخاء المودة بين المخلوق والخالق. فلا جنة معلنة بالحواس وبالحدس سوى العاشقة، ولا جحيم إلّا خيبة العاشق.

فلتأذنْ لي، إذاً، ونحن نفترق على هذا البرزخ، بأن أَفسخ العَقد المبرم بين عبثٍ وعبث، فلا نعلم مَن انتصر منا ومن انكسر، أنا أم أنت أم الموت، لأننا لم نعترف من قبل، لننتصر، بأن العدوَّ أذكى منا وأدهى، فلا شيء يغوي الهزيمة أكثر من مجافاة هذا الاعتراف، يا صاحبي المُتْرَفَ بالأوصاف النقيضة، المُسْرِفَ في البحث عن عبث لا بُدَّ منه لتدريب النفس على التسامح، ولتحظى بنعمة التأمُّل في ماء يضحك في الغمازات، ويطيرُ فراشاتٍ فراشاتٍ تخلق الشعر من كل شيء حيّ. فالخفَّة، كالندى، قاهرةُ المعدن، وعذراء الزمن، هي التي تدرِّب الوحش على النفخ في النايات /

فلا تصالح شيئاً إلّا لهذا السبب المبهم، ولا تندم على حرب أَنضجتك كما يُنْضجُ آبُ أكوازَ الرّمان على

منحدرات الجبال المنهوبة، فلا جهنم أخرى في انتظارك.
ما كان لك صار عليك /

وعليك أن تدافع عن حروف اسمك المفكَّكة، كما تدافع القطَّة عن جِرائها. وعليك ما عليك: أن تدافع عن حقِّ النافذة في النظر إلى العابرين، فلا تسخرْ من نفسك إن كنت عاجزاً عن البرهان، الهواء هو الهواء ولا يحتاج إلى وثيقة دم. ولا تندم .. لا تندم على ما فاتك، حين غفوت، من تدوينٍ لأسماء الغزاة في كتاب الرمل، النمل يروي والمطر يمحو، وحين تصحو لا تندم لأنك كنت تحلم، ولم تسأل أحداً: هل أنت من القراصنة؟ لكنَّ أحداً ما سيسألك: هل أنت من القراصنة؟ فكيف تزوِّد البديهةَ بالوثائق والبنادق، وفيها ما يكفيها من محاريثَ خشبية، وجرارٍ من فخّار، وفيها زيت يضيء وإن لم تمسسه نار، وقرآن، وجدائل من فلفل وبامية، وحصان لا يحارب /

فلا تعاتب أسلافك على ما أورثوك من براءة النظر إلى التلال بلا استعدادٍ لتلقِّي الوحي من سماء خفيضة، بل لعدِّ النجوم على أصابع يديك العشر. فأنّى لك أن تثبت البديهة بالبرهان، والبرهان متعطِّش لنهب البديهة تعطّش القرصان إلى سفينة ضالة؟ البديهةُ عزلاء كظبي مطعون

بالأمان، مثلك مثلك، في هذا الحقل المفتوح لعلماء الآثار المسلحين الذين لم يكفّوا عن استجوابك: مَنْ أنت؟ فتحسستَ أعضاءك كلها، وقلتَ: أنا أنا. قالوا: ما البرهان؟ فقلتَ: أنا البرهان. فقالوا: هذا لا يكفي، نحتاج إلى نقصان. فقلتَ: أنا الكمال والنقصان. فقالوا: قل إنك حجرٌ كي ننهي أعمال التنقيب، فقلت لهم: ليت الفتى حجرٌ، فلم يفهموك /

وأَخرجوك من الحقل. أما ظلّك، فلم يتبعك ولم يخدعك، فقد تسمَّر هناك وتحجَّر، ثمّ اخضرّ كنَبْتَة سُمْسُمٍ خضراءَ في النهار، زرقاءَ في الليل. ثم نما وسما كصفصافةٍ في النهار خضراءُ، وفي الليل زرقاءُ /

مهما نأيتَ ستدنو / ومهما قُتِلَت ستحيا / فلا تظننَّ أنك مَيْتٌ هناك / وأنك حيٌّ هنا /فلا شيء يثبت هذا وذلك إلّا المجاز / المجاز الذي درَّب الكائنات على لعبة الكلمات / المجاز الذي يجعل الظلّ جغرافيا / والمجاز الذي سيلمّك واسمَكَ / فاصعد وقومَك / أَعلى وأَبعد مما يعدّ تراث الأساطير لي ولك / اكتب بنفسك تاريخ قلبك / منذ إصابة آدمَ بالحبِّ / حتى قيامة شعبك / واكتب بنفسك تاريخ جنسك / منذ اقتبست من البحر إيقاعه ونظامَ

التنفُّس / حتى رجوعك حيّاً إليّ / فأنت مسجّىٍ أمامي / كقافية غير كافية لاندفاع كلامي إليك / أَنا المرثيُّ والراثي / فكّني كي أكونك / قُمْ لأحملك / اقترب مني لأعرفك / ابتعد عني لأعرفك!

II

وُلدنا معاً على قارعة الزنزلخت، لا توأمين ولا جارين، بل واحداً في اثنين أو اثنين في واحد. لم يصدِّق أحد من الجالسين في ظلِّ شجرة التوت أنك ستحيا، من فرط ما شَرَقْتَ بحليب أُمك واختنقت. نحيلاً كنتَ كخاطرةٍ عابرة. نحيلاً كنبتة شعيرٍ خاليةٍ من الحَبّ كنت. لكن لشهر آذار، القادر على سفك دم المكان شقائقَ نعمان، مهارةَ الإنقاذ من موت مبكر لا تنساه إلّا لتتذكر أن الحياة لم تأت إليك على طبق من ذهب أو فضّة، هاشَّةً باشَّةً، بل جاءتك على استحياء كجاريةٍ مدفوعةِ الأجر، صعبة وعذبة، وشديدة الممانعة. لكن التدريب الطويلَ على الألفة هو ما يجعل الحياة ممكنة.

وممكنةٌ هي مراوِغة الثعالب، أولى حيواناتك الماكرة، بعيونها الخضراء أُنثوية الإغراء ... تخافها ولا تقوى على الابتعاد، كجاذبيةٍ تدفعك إلى الرغبة في القفز من علٍ إلى جُرْف أو هاوية.

هكذا سكنتك منذ البداية فتنة الثعلب والهاوية،

وجرَّك فضولُ القطط، دون حذرها، إلى ملامسة الخطر. فغافَلْتَ أهلك المشغولين بفرم أوراق التبغ بسكاكين حادة، وتناولتَ إحداها ووضعتَ على شفرتها ركبتك اليسرى، وضغطت لتعرف إن كانت السكين تفعل بلحمك الطريّ ما تفعله بأوراق التبغ، ففاجأك السائل الأحمر. ولم تتوجَّع إلّا حين نزعوا السكين من ركبتك، وضمّدوا جرحك وعاقبوك على طيش التجربة.

هكذا رأيتَ الدم الأول ... دَمَكَ الذي علَّمك أن الندبة ذاكرة لا تكفّ عن العمل، كلما نظرت إليها شممت رائحة التبغ الذهبيِّ، وعباءةَ جدك المعلقة كخيمة في الريح. وكلما لمستَ الندبة استمعت إلى بكاء الدم وكرهت الحناء ... على أيدي العرائس وأَقدامهنَّ، وأَشَحْتَ بوجهك عن رقصة الديك الأخيرة، وعن خروف العيد، ولم تشارك أترابك لعبة تعذيب العصافير /

وحلمت، وما زلت تحلم حتى الهزيع الأخير من الحلم، بأنّ عصفوراً حطَّ على يدك، فضممته وشممته وفاحت من ريشه رائحة الصيف، ولثمته، ثم كلمته قائلاً: يا أَخي! عُدْ إلى فضائك، فعاد إليك في حلم الليلة التالية.

كأنك طفلي، كأني أَبوك. ولم يدلّلك أبوك لئلا يرميك إخوتك في جُبّ الحكاية. فاحملني كما حملتك، لأرى من بعيد إلى ذلك الأزرق المنساب من كل بعيد تُصَفّيه المسافة من كل شائبة، ففي الحكاية حقل أوسع مما كان.

ولم أكن طفلاً آنذاك، ولكني هو الآنَ في وداع يفتح لفعل الماضي الناقص باب المدائح على مصراعين: المكان المفقود، والزمان المفقود. ليس المكان هو الفخ إذ يصير إلى صورة، ففي الذاكرة ما يكفي من أدوات التجميل لتثبيت المكان في مكانه، وما يكفي لترتيب الأشجار على ذبذبة الرغبة، لا لأنه فينا وإن لم نكن فيه، بل لأن الأمل هو قوة الضعيف المستعصية على المقايضة. وفي الأمل ما يكفي من العافية لقطع المسافة الطويلة من اللامكان الواسع إلى المكان الضيّق. أما الزمان الذي لم نشعر به إلّا متأخرين، فهو الفخ الذي يتربَّص بنا على حافة المكان

الذي جئنا إليه متأخرين، عاجزين عن الرقص على البرزخ الفاصل بين البداية والنهاية!

فاحْمِلْني كما حَمَلَتْكَ الفراشاتُ إلى مدارج الضوء، خفيفاً مثلها، كلما انبلج الصبح من ثقوب بابك الخشبي، وانهمرت ألوانٌ طائرةٌ لم تعرف أسماءها، كخواطرَ سماويّةٍ مبعثرة، على حقول خالية من الجيش. هناك، حسبتَ أَن الأرض تطير وترقص. فوقفت على صخرةٍ وفتحتَ ذراعيك للريح وقفزت إلى أعلى لتطير، فأحاطت بك الفراشات كشقيقات، وأعانتك على الطيران... ولم تفلح. لكنها أدخلتك إلى مدار اللازورد، ودرّبتك على فقه العزلة. فابتعدت عن البيت، وخلوت إلى الشجر الذي لم تعرف من أسمائه إلّا ما خفَّ لفظه، كالزيتون والخرنوب والسنديان والبلُّوط. ولم تعرف من أسماء النباتات إلّا الخبيزة والهندباء ذات الزهر الليلكي كلون عيني جدتك.

هناك سكنتك فتنة الطيران والعزلة. وهناك، حاولت أن تولد من حلمك، دون أن تدرك الفارق بين الحلم والخيال. في مساءٍ ما، تسلَّلتَ من خلوتك الشجرية إلى بوابة الدار الجنوبية ودعوت الحصانَ إلى الخروج معك،

فأطاعك وخرج. وعلى محاذاة صخرة عالية أوقفتَ الحصان الفاتن وقفزت على ظهر أملس دون سرج. قادك، كما يقود الهواءُ سحابةً، إلى منحدرٍ يؤدي إلى حقل لا نهايةَ له. فهمزْتَهُ فاستجاب، وصار الهواء ريحاً فانتشيت: إني أطير. كل شيء يطير. الشجر، الأرض، الجهات، النباتات، الريح. ولا غايةَ من هذا الطيران سوى لذة الطيران إلى المجهول، حتى هبط الليل على المجهول وعلى المعلوم، وصار المكان أَعمى. لم تعلم أنك قد سقطت. لكن الحصان العائد بلا فارسه الصغير هو مَنْ دلَّ أهلك على موقع طيشك. ضمدوا الجرح في حاجبك الأيمن، ثم عاقبوك.

أما الندبة على حاجبك الأيمن، الندبة التي لا تراها غير الأنثى الخبيرة باستجواب قلب الذكر فهي ذاكرة فراشة تقلِّد نسراً.

وعلى سبابة يدك اليسرى ندبة أخرى. جلست وبنتاً صغيرة كيمامتين على حجرين في كرم زيتون. سأقاسِمُكِ هذه التفاحة، قلتَ لها، وأنت تنظر في عينيها وتمرِّر السكّين الصدئة على إصبعك بدلاً من التفاحة. خافت من الدم وهربت وأنت تناديها: خذي التفاحة كلّها!

وداويت جرحك بحفنة من تراب مخلوط بالعشب اليابس.

لم أسألك وأنت تكبر أمامي عما يجعلك تجرح نفسك كلما غبت في حضور، ألِكي تثير الانتباه، أم لتعوِّد الألم على رائحة البصل؟

سَمَّوكَ الشقيَّ، وأنت أطلقت على طائر الدوريِّ لقب الشقي. هو شبيهك في التوتّر، ونقيضك في الحذر. لكنك أحببت مهارته العالية في مراوغة الصيّاد، فلا عشّ له إلّا الحيلة. وأَحببتَ فيه حيرةَ اللون بين الحنطة والضوء، وخفةَ الطيران على ارتفاع منخفض وعال برفرفة واحدة، ومخاتلةَ المشي بين الناس، بلا وجل، كمخبر قادر على الإفلات من قبضة اليد الخائبة.

وسَمَّوكَ الشقيَّ لأنك تبكي من فرح أو من حزن، دون أن يُؤَوِّل أحدٌ صوتَ الريح في قَصَب سرعان ما يتحوَّلُ نايات. ماذا يقول الناي؟ هل يحمل في ما يحمل هذيان الريح، أمْ ينقل فرح الرُعاة بولادة حَمَل جديد، أم خوفهم من قطيع ذئاب يحاصر قطيع الأغنام؟. يستدرجك الناي إلى البعيد، وتبكي كمن يستبق الفاجعة. لا غيم أسود في الأفق /

فلماذا تبكي والموت بعيد؟ / وحديقةُ بيتك عاليةٌ / والشرفة عاليةٌ / والصفصافةُ عاليةٌ / فلماذا تبكي / وطريق التّبانة واضحةٌ / والليل يُضيئك من خصلة شعرك حتى أخمص قدميك؟ / وأَنت تطيع الناي وتركض تركض / لا ذئبٌ يعوي في الليل على قمر أصفر كالليمونة / لا شبحٌ يطلع من جذع الزيتونة كي يغتال أباك / لماذا تبكي؟ / هل خوفك من فرح يبكيك؟ سألتك / لكنني أدرك أن هواء الليل على جبل مثقوب بالناي سيرشح دمعاً سمَّيناه ندى / ستصير غداً ناياً سحرياً / قلت / فلم تسمعني / لم يكبر جرحك بعد / فلا تتركني في هذا الوادي أبحث عنك سدى / لم تسمعني /

والآن وأنت مُسَجّىً فوق الكلمات وحيداً، ملفوفاً بالزنبق، والأخضر والأزرق، أدرك ما لم أدرك:

إن المستقبل مُنْذُئذٍ،

هو ماضيك القادم!

III

للحروف البيضاء على اللوح الأسود مهابةُ فجر ريفيّ. وكما يُصُبُّون الماء، على مهل، في جَرّة لا تمتلىء، تشرَّبتَ الشكل الناقص وصوته معاً، بتعذيب الحنجرة وتطويعها للإشارة، وبإخضاع الحلق لما تراه العينان.

حين يُجْمَعُ حرفٌ إلى حرف، أي عَبَثٌ إلى عبث، يُسْفِرُ غامضُ الشكل عن وضوح صوتٍ ما، ويفتح هذا الوضوح البطيء مجرى لمعنى له صورة، فتصير ثلاثة أحرف باباً أو داراً. وهكذا تبني حروفٌ خاملة، لا قيمة لها إذا افترقت، بيتاً إذا اجتمعت.

يا لها من لعبة! يا له من سحر. يولد العالم تدريجياً من

كلمات. هكذا تصير المدرسة ملعباً للخيال ... فتركض إليها بفرح الموعود بهدية اكتشاف، لا لتحفظ الدرس فحسب، بل لتعتمد على المهارة في تسمية الأشياء. كلُّ بعيدٍ يقترب. وكل مُغْلَقٍ ينفتح. إذا لم تخطىء في كتابة كلمة نهر، فسيجري النهر في دفترك. السماء أيضاً تصبح جزءاً من مقتنياتك الشخصية إذا لم تخطىء في الإملاء.

كلُّ ما لا تبلغه يداك الصغيرتان مُلْكُ يديك الصغيرتين إذا أَتْقَنْتَ التدوين بلا أخطاء. من يكتب شيئاً يملكه. ستشمُّ رائحة الوردة من حرف التاء المربوطة كبرعم يتفتح. وستتذوَّق طعم التوت من جهتين: من التاء المُتَّصلة ومن التاء المفتوحة كراحة اليد /

الحروف أمامك، فخذْها من حيادها والعب بها كالفاتح في هذيان الكون. الحروفُ قلقة، جائعة إلى صورة، والصورةُ عطشى إلى معنى. الحروفُ أواني فخّار فارغةٌ فاملأها بسهر الغزو الأول. والحروفُ نداءٌ أخرسُ في حصى متناثر على قارعة المعنى. حُكَّ حرفاً بحرف تولد نجمة، قرِّب حرفاً من حرف تسمع صوت المطر، ضَعْ حرفاً على حرف تجد اسمك مرسوماً كَسُلّم قليل الدرج /

كُلُّ الحروف جاهزة لاستقبال الشكل / الكائن، الباحث

عن يد ماهرة تخلق الحاجة إلى الانسجام. ما عليك إلّا أن تسمِّي بيدك كائناتٍ تعرفها من قبل، وكائنات تعرِّفك على نفسها فيما بعد ./

ويَسْتَهْويكَ حرفُ النون المستقل كصحن من نحاس يتسع لاستضافة قمر كامل التكوين. يرنّ ويحنُّ إلى أي امتلاء ولا يمتلىء، ولا يكفّ عن الرنين مهما ابتعد ومهما ابتعدت. سيكبر فيك وتكبر فيه، ويُحْيِيكَ، ويُقْصِيكَ عن نفسك كَحُبٍّ ملحاح، ويُدْنيكَ من الآخرين... نون النسوة والجماعة والـمُثَنَّى وقلب «الأنا» وجناحا «نحن» الطليقان. ستأخذك سورة الرحمن إلى الإيمان المصحوب بالطرب، فتحبُّ اللّه وتشفى من قلق السؤال الأول: «من خلق اللّه»؟ /

وتحبُّ الشعر ويأخذك الإيقاعُ المهموزُ بحرف النون إلى ليل أَبيض. كلمات تنقل فرساناً من حب الحرب دفاعاً عن بئر الماء، إلى حرب الحب دفاعاً عن أميرة مخطوفة في بلاد الجن. لا تستقيم الحكاية إلّا بثلاثية الفروسية والشعر والحب. مقادير يصارعها السيف والقصيدة معاً، فلا تكون غلبة إلّا بهما مجتمعين. لم تنتصر قبيلة بلا شاعر، ولم ينتصر شاعر إلّا مهزوماً في الحبّ.

حين ينفضّ الساهرون من ديوان جدِّك، ويحملك جدك إلى النوم، تكون الحكاية قد هَيَّأتك لتحلم وفق خيالها المفتوح: ستتابع حروب عنترة تارة، والمهلهل تارة. وستدخل غرفاً لا تعرفها في تناسل الحكاية من الحكاية في ليالي شهرزاد التي لا تبلغ النهاية، فتصير جزءاً من حكاية في عالم سحريّ التكوين لا يشبه شيئاً مما حولك.

هكذا سكنتك فتنة الإيقاع والحكاية.

فابتعدتَ، وحيَّرك الخيط المقطوع بين الواقع والخيال، بين حرب تُروى وحرب تُرى.

في مساء ما، رأيت نساء الحيّ ذاهباتٍ آيبات بحماسة، يحملن على رؤوسهن أكياساً ملأى بحجارة يكدِّسنها على سطوح المنازل كالذخيرة، والرجال منهمكون بتدبيب رؤوس العصيّ بالمسامير. ما هذا؟ سألت، فقيل لك: غداً، صباحاً تندلع الحرب بين الحمولتين الكبيرتين في القرية. لنا حلفاء من الأنسباء ولهم حلفاء ... لكننا سننتصر. لم تسأل عن سبب الحرب، فلعلَّه الضجر أو خلاف على ظلِّ شجرة، ولعلَّه اختراع حكاية. لكن المعركة التي امتدت من الصباح إلى المساء لم تسفر عن قتلى أو نصر، بل فتحت أبواب السجون للمحاربين، وأَغلقتْ باب

الحكايات في دار جدِّك. وكان عليك أن تبكي من فقر الليل. وكان عليك أن تكمل الحكايات وحدَك وعلى قدر حلمك، بلا رُواة ومعاونين!

أَما الحروف البيضاء على اللوح الأسود، فقد تشقَّقت ككلسٍ صدىء، لأن كابوساً ما رافقك إلى المدرسة: هل مات أَبي؟. وحين يسألك المعلم: ما معنى هذه الجملة: «انتظرِ السيارةَ حتى تعبر» تجيبهُ وأنت شارد الذهن: يعني إذا رأيت سيارة على الشارع، فلا تمش على الشارع حتى تزمِّر السيارة. يضحك المعلم: ما علاقة تعبر بـ تزمِّر؟ فتقول: أليست كلمة «تعبر» هي «تزمِّر» لأن للسيارة زُمَّارة. فيقول لك موبّخاً: تعبر معناها تمرّ. حتى الآن، وبعد ستين عاماً من هذه الوعكة اللغوية، ما زلت تسمع صوت الزمّور كلما قرأت أو سمعت كلمة «تعبر». وتضحك في سرِّك من قدرة الأخطاء الأولى على الحفر في الصخر. وتسأل: متى أشفى من تعريف الكلي بالجزئيّ؟ فالريشة ليست هي الطائر، والشجرة ليست هي الغابة، والعتبة ليست هي البيت.

لكن الكلمات هي الكائنات. ستسحرك اللعبة حتى تصبح جزءاً منها. وستقضي العمر في الدفاع عن حق

اللعبة في استدراجك إلى المتاهة، وفي استدراجها إلى الفكاهة. تقرأ ولا تفهم ما تقرأ، فتقرأ أكثر مستمتعاً بقدرة الكلمات على الاختلاف عن العاديّ. الكلمات هي الأمواج. تتعلَّم السباحة من إغواء موجة تلفّك بالزبَد. وللكلمات إيقاع البحر ونداء الغامض: فلتأتينّ إليَّ إليَّ بحثاً عما لا تعرف ــ ناداك الأزرق. وأَنقذك الحَظّ وحَرَسُ الشاطىء من انقطاع أكيد مع صوت الكلمات. لكن قنديل البحر ما زال يحكّك دون أن تتوب عن حبّ البحر، ودون أن تعلم أن البحر هو مصدر الإيقاع الأول. فكيف يسجن البحر في أحرف ثلاثة، ثانيها طافح بالملح؟ كيف تتسع الحروف لكل هذه الكلمات؟ وكيف تتسع الكلمات لاحتضان العالم؟

تكبر على مهل وببطء. وتودُّ لو تقفز أسرع أسرع في السباق إلى غد تروِّض فيه الكلمات، وتقول شعراً حماسياً مدفوعاً بقوة الحبّ وبواجب الدفاع عن القبيلة، فينفتح لك السرّي الخفيّ بانفتاح الكلمات على الوعي، فلا تكون لعبةً كما ظننت، بل تحديق الظاهر إلى الباطن، وتجلِّي الباطن في الظاهر، فتكونها وتكونك، فلا تعرف التمييز بين القائل والقول. ستسمّي البحر سماء مقلوبة،

وتسمّي البئر جرّة لحفظ الصوت من عبث الريح، وتسمِّي السماء بحراً معلقاً على الغيوم.

ثمة شيء يتزيَّا بالغامض، لا يُشَمُّ ولا يلمس ولا يتذوق ولا يبصر، هو ما يجعل الطفولة حاسَّة سادسة، فسمَّوك الحالم من فرط ما ركَّبتَ للكلمات من أَجنحة لا يراها الكبار، وتحرشت بالغامض، واغتربت /

فانهض من هذا الأبيض

عُدْ طفلاً ثانية / عَلِّمني الشعر / وعلِّمني إيقاع البحر / وأَرجعْ للكلمات براءتها الأولى / لِذْني من حبة قمح، لا من جرح، لِذْني / وأَعدني، لأضمَّك فوق العشب، إلى ما قبل المعنى / هل تسمعني: قبل المعنى / كان الشجر العالي يمشي مَعَنا شجراً لا معنى / والقمر العاري يحبو معنا / قمراً / لا طَبَقاً فضّياً للمعنى / عُدْ طفلاً ثانيةً / علِّمني الشعر / وعلِّمني إيقاع البحر / وخُذْ بيدي / كي نعبر هذا البرزخ ما بين الليل وبين الفجر معاً / ومعاً نتعلَّم أُولى الكلمات / ونبني عشاً سرياً للدوريّ: / أخينا الثالث / عُدْ طفلاً لأرى وجهي في مرآتك / هل أنت أنا / وأنا أنت؟ / فعلِّمني الشعر لكي أرثيك الآن الآن الآن / كما تَرْثيني!

١٧

لَكَ لَيْلٌ على هذا الوادي، فاهبط أَسرع من حَجَلٍ مذعور. الهواء ساكن لا يحرّك ريشة، ولا دليل لرحيلك هذا أوضح من غراب يرافق النازحين إلى حدود الليل /

لك ليل، ولا إقامة لنا ولك، منذ الآن، تحت أشجار الزيتون، ولا درب خارج ما ينشره الظلّ الداكن لعرباتٍ نسمعها ولا نراها. الليل مكبّرات صوت. الليل طبل الصدى. لك ليل صارخ فاهدأ. واسمك الصغير وأسماؤنا كلها تتهيّأ للإقلاع إلى مصائرها العشوائية في فوضى التكوين.

يوقظونك من زمنك الخاص، ويقولون لك: اكبر الآن معنا

في زمن القافلة، واركض معنا لئلا يفترسك الذئب. فلا وقت لنا لنودِّع أي شيء ساخن. فاترك بقيَّة منامك نائماً على نافذة مفتوحة، ليلحق بك حين يصحو عند الفجر الأزرق. الحلم هو الذي يجد الحالمين، وما على الحالم إلّا أن يتذكر /

فاخرج معنا إلى هذا الليل الخالي من الرحمة. ستعرف فيما بعد كيف تنضِّد الكواكبَ في خزانة الذاكرة، وكيف تعوِّض الخسارة بقوة العبارة وتنتصر. أمَّا الآن، فلا تنظر إلى النجمة لئلا تخطفك وتضيع. وتعلَّقْ بثوب أُمِّك ... الدليل الوحيد على أن الأرض تركض حافية القدمين، ولا تبك كأخيك الصغير، المولود منذ أيام، لئلّا يرشد البكاءُ الجنودَ إلى جهتنا المرمية في الهواء كيفما اتفق.

لن يقوى أَحدٌ على إخفاء الوجع عنك، فهو مرئيٌّ، ملموس، مسموع، كانكسار المكان المدوّي. وها أنت ذا معنا ترى الوجع الذي ينهبنا كل شيء، دفعة واحدة، وينسلُّ منا كنصل السكّين جالساً قبالتنا شامتاً، على الضفة الأخرى لنهر كان حاجزاً وصار لفظة حجرية. الوجع يسامرنا، عن بعد، ويعوي كإناث الوحوش: تعالوا إليَّ تعالوا! فلا نذهب ولا نرجع.

لم نكن بعد في حاجة للأساطير، لكن ما حدث فيها يحدث الآن فينا ... في هذا اليوم المهروس بجنازير الدبابة. فمن يروي قصّتنا نحن السائرين على هذا الليل، مطرودين من المكان ومن الأسطورة التي لم تجد منّا أَحداً يشهد على أن الجريمة لم تقع. فإذا لم نكن نحن نحن، فليسوا هم هم. لكن الخصوصية هي الخصوصية، ذريعة السارق.

فلا تنظر إلى نفسك في ما يكتب عنك. ولا تبحث عن الكنعانيِّ فيك لتثبت أنك موجود. بل اقبض على واقعك هذا، واسمك هذا، وتعلّم كيف تكتب برهانك. فأنت أنت، لا شبحك، هو المطرود في هذا الليل.

لك ليل. وللحنطة آباء هم آباؤك، وللمنازل بُناة هم أجدادك، وللجرح المبكر فيك صرخة هي أنت، لا ولد آخر أصابه سهواً سهم إلٰهة ماجنة. هكذا ستكتب عن تاريخ لا عن أسطورة، فليس من شأن نِساء الملح أن يشهدن عليك أو لك ... ولك أن تستعين بآلهة الأساطير، كذاكرة متخفّية، لتحمي الشعر من غلبة الجيش على الإيقاع وعلى تاريخ القمح، ولتحمي الزمن من هيمنة الراهن ... فلك في تعدّد الآلهة نصيبٌ ما من

عدل ممكن، ولك من هذا الماضي نصيب من طفولة لا تريد أن تشيخ سريعاً بلا حكمة. لكن ما هو راسخ هو أن اسمك هو اسم الأرض /

ولم تكن للأرض من أنوثة أجمل من الكنعانيات السابحات على السهل والتلّ مموَّهاتٍ بشقائق النعمان، والمريمية، وعصا الراعي، والنرجس المنحني بجلال الأمير على الماء /

الكنعانياتُ الكنعانياتُ المزهُوَّاتُ بصبوات الربيع، الشهوانياتُ، الطالعاتُ من صهيل الصافنات، ومن تأهُّب النايات للإمساك بأول الأرض الهارب من الخاصرة إلى جداول ترعى بين أقدامهن /

للاسم هنا رنَّةُ الفضة، وطعنةُ الرمح الطائش في خصور الكنعانيات المنذورات لتعليق الأرض، بحروف الأبجدية السامية، على قرون الأيائل /

وليس للاسم هنا قربان الحي للميت ولا غفران الميت للحيّ. فالكنعانيات، وقد أغواهنّ البابونج، أخرجن الأرض من وحشتها في الكهوف إلى بيوت على شاكلة الإيقاع الحجريّ /

وكنا أمام البحر شُهُودَ التُفَّاحات الأولى في الرحيل من

فردوس إلى آخر، وجنوداً لا سلاح لنا غير أعواد الذرة وقُوَّة القمح العظمى /

ورأينا كيف يخضرّ الظلّ ويحمرّ من شمس أريحا، ويبيضّ من رقة سلامنا الحار، سلامنا الزراعي السائر خفيفاً خفيفاً بين نارنا الأولى وما انقطع من رسائلنا الشفهية

من ريح إلى ريح /

سلامنا المنشور كالأزرق الأبدي على أرض تغطي جرحها الأنثوي بورق التين وبصوف الخراف الساعية بلا أجراس إلى ماء الينابيع /

سلامنا المكشوف كرائحة الفواكه الناضجة الفاضحة في ليالي الأعراس /

فلتغتسلن، أيتها الكنعانيات، بالماء والضوء والحبق، ليمتلىء المكان بأنوثة تهرول خلف قطيع الماعز. الفلفل أيضاً يشرئبّ كأثداء الشاة، ويشهد على سلام الفرح. ويلهب الأفخاذ المُبقَّعة بحليب العنب اللزج /

فاسبحن، أيتها الكنعانيات، اسبحن في النور الساخن، لتطفح قصيدةُ شاعرٍ ما بتراث الماء الصافي قبل الغزو ...

شاعر لم يولد على قارعة هذا الرحيل، بل وُلد منذ الأزل، منذ التقى آدم بحواء لتزجية الأبدية. شاعر لم يولد، هو وأسلافه إلّا على هذه الأرض المسمّاة بكنّ، المُدَمَّاة بشوك الورد الذي زرعتن.

لم تكن بنا حاجة للأساطير إلّا لتفسير العلاقة بين القمر والدورة الشهرية، وبين الشمس ودورة الفصول، وإضفاء السحر على الكلام في ليالي الشتاء الطويلة، وتدريب الوحوش على طاعة النغم.

فلتحفظْ ليل الألم هذا عن ظهر قلب. فقد تكون الراوي والرواية والمرويّ، فلا تنس هذا الطريق الضيِّق المتعرج الذي يحملك وتحمله إلى المجهول العربيد الذي سيرميك، وأهلَك، بالشبهات.

وتسأل: ما معنى كلمة «لاجىء»

سيقولون: هو من اقتُلِعَ من أرض الوطن.

وتسأل: ما معنى كلمة «وطن»؟

سيقولون: هو البيت، وشجرة التوت، وقنّ الدجاج، وقفير النحل، ورائحة الخبز، والسماء الأولى.

وتسأل: هل تتَّسع كلمة واحدة من ثلاثة أحرف لكل

هذه المحتويات ... وتضيق بنا؟

وبسرعة تكبر على وقع الكلمات الكبيرة، وعلى الحافة بين عالم ينهار خلفك، وعالم لم يتشكل بعد أمامك ... عالم مرميّ كحجر طائش في لعبة أقدار. تسأل نفسك: من أنا؟ ولا تعرف كيف تعرِّف نفسك. ما زلتَ صغيراً على سؤال يحيِّر الفلاسفة. لكن سؤال الهوية الثقيل قد أقعد الفراشة عن الطيران.

تنتحي ركناً قصيّاً على صخرة مهجورة على البحر اللبنانيّ. تبكي كأمير صغير أنزلوه عن عرش الطفولة، قبل أن يُلَقِّنُوه فِقْهَ الرُشْد التدريجيّ، ودرس الجغرافيا الضروريّ لمعرفة المسافة بين «هنا» و«هناك»:

يا بحر، يا بحر ... ولا تفلح في تركيب النداء الكافي. لكن حرف الحاء يدرِّب الحلق على بُحَّة الملح: يا بحر، يا بحر! وتبكي، فيذوب قليل من الملح الصاعد إلى العينين، وتتضح وُجْهة النداء: يا بحر، يا بحر .. خذني إلى هناك.

يدنو طائر أبيض منك، طائر بحريٌّ، سحريٌّ يهبط برفق إليك، وبرفق يطوي عليك جناحيه ويلمُّك كأنك واحد من فراخ سلالته، ويقلع ويطير على ارتفاع منخفض، فلا

تدري إن كنت أنت الطائر أم صفةً من صفاته. تحلقان على طول الساحل المتعرِّج المتدرّج بين الأزرق والأخضر. وبلا ألم تهبطان على باحة البيت الواقف كالأم على التلة. النافذة ما زالت مفتوحة. يفرد الطائر الأبيض جناحيه برفق على سريرك، فتنام خفيفاً كما على غيمة. لكن أصواتاً عالية توقظك فجأة: ماذا تفعل هنا أيها الولد الأحمق؟ كيف تنام على هذه الصخرة المهجورة على شاطىء البحر، في مثل هذا الليل؟ ألا بيت لك ولا أهل؟ فانتبهت إلى أنك تحلم /

لَكَ حُلْمٌ يسبق الشعر، بهيٌّ

ونداءٌ يسبق الإيقاع، بحريّ

كأنَّ الليل هذا

خلوةُ الخالق بالمخلوق:

كن سيِّد أوصافك منذ الآن،

يا ابني لك حُلْمٌ

فاتبعِ الحُلْمُ بما أوتيتَ من ليلٍ! وكن إحدى صفات الحلم

واحلُمْ تَجِدِ الفردوسَ في موضعِهِ!

٧

ظلام، ظلام، ظلام. نجاةُ اللون من التأويل، وخيالٌ يهب الأعشى ما فاته من فروق الإملاء، ومساواةٌ ترجِّح كفَّة الخطأ. لو خلا الليل منا لعاد صيّادو الأشباح إلى ثكناتهم خائبين. ولو خلا الليل منهم لعدنا إلى بيوتنا سالمين.

الأشجار سوداء عمياء بلا أَسماء وبلا ظلال. وفي كل حجر سرّ ما. كأنَّ الموت الذي لم تره من قبل ينصب فخاخه بدهاءٍ تامّ السرية. فماذا تفعل في هذا الخلاء الكامل لو نقصت هذه القافلة الصغيرة؟ ومن أَية جهة تنجو، وماذا تفعل بنجاتك؟ إلى أَين تأخذها وأنت لا تعرف أيَّ طريق؟

لم تفكر بموتك أنت، فما زلت صغيراً على هذه التجربة، إذ لم تدرك بعد أَنَّ بمقدور الصغار أَيضاً أَن يموتوا. لكن، كيف تمضي وحيداً إلى حياة لا تعرفها ولا تعرف مكانها؟ فأبكاك احتمالٌ يُهيل عليك، بلا رأفة، سماءً ثقيلة الوطأة. ويروي لك، بلا رحمة، نهاية قصة عن ضياع أَبديّ في ليل وحشيّ مُطبِقٍ على بغلتين، وطريقٍ صخريّ، وسمسارِ حنينٍ يقود خمسة عائدين إلى خطاهم المعاكسة.

وستروي إلى لا أَحد واضحِ الملامح: لم يكن لنا من عَدُوٍّ، وقتئذٍ، إلّا الضوء والصوت. ولم يكن لنا، ليلتئذٍ، من حليف سوى الحظّ، ينهرك صوت الخوف الخفيض: لا تسعل أيها الولد، ففي السعال دليل الموت إلى مقصده. ولا تشعل عود الثقاب، أيها الأب، فإنَّ في بصيص نارك الصغيرة إغواءً لنار البنادق.

وخُيِّل لك أن الليل هذا هو خباء الموت الواسع، وأنك تمشي أو تزحف أو تقفز كالجندب في برية الذئاب الخالية من المارة. وخيَّل لك أن الضوء القادم من نجمة شاردة، أو من سيارة بعيدة، هو أَحد الأدلّاء السرّيين لصاحب هذه البرية. وعليك إذا لاح الضوء من بعيد أن تتخذ هيئة

شجرة واطئة أو صخرة صغيرة، وأن تحبس أنفاسك لئلّا يسمعك الضوء الواشي.

وستروي لي عندما أتقن التدوين، أَو ستروي للا أحد كيف عثرت هناك، في ذلك الليل، على قرون استشعار جاهزة لالتقاط الرسائل البعيدة، وكيف تدرّبت على الإقامة في المغامرة، وكيف اكتويت بجمرة الثنائيات، وجاهدت في مكابدة الضد للضد، وتجنَّبت تعريف العكس بالعكس، فليس كل عكس لما هو خطأ صواباً دائماً. وليس الوطن هو النهار، دائماً. وليس المنفى هو الليل...

ظلامٌ يوحِّد العناصر في كهف الوجود الخالي من الصُّوَر. يطفح المجهول المحمول على عواء الذئاب وعلى هسيس العشب الدامي. وتمشي خطوةً على خواطرَ سوداء، وعلى صخرةِ ليلٍ خطوةً. وأنت تسأل في سرِّك عمّا يجعل العتمة صلبة، وعما يجعل الحياة صعبة. وتحنُّ إلى مطر في الجنوب، إلى مطر يذيب هذا الحبر الكوني الهائل، وتقول: لو هطل المطر علينا في هذا الليل لذاب الظلام ورأينا خطانا والطريق، وقادتنا رائحة المطر إلى الشجر الذي شبَّ في الغياب ودخلت أغصانه العالية إلى الغرف.

لكن همساً مالحاً يأمرك بأن تنبطح على الأرض. هو

الضبع ــ يقولون لك وهم يشيرون إلى ضوء سيارة من بعيد، ولا يأذنون لك بأن تسأل: هل يقود الضبعُ سيارة؟ لم تعرف المجاز بعد، فلم تعرف أن الضبع هو «حرس الحدود». إذ ظَنُّوا أن الضبع لمن هو في سنك أرحم. فهو لا يحمل بندقية ولا يعرف المحاججة. ويكفيك، لتنجو منه، أن تخفي خوفك في جيبك، وتتظاهر بالمشية اللامبالية. يبتعد الضوء، وتزدرد الخوف، وتمشي مع بغلتين، وعائلة، وسمسار حنين على هدي الظلام.

وأَنا الراوي، لا أنت، أُذكِّرك الآن بمنادي قريةٍ كان يقف على سطح بيت ويصرخ: جاء الضبع. فيهرول عشرات من أَمثالك إلى كهف القرية، إلى أن يعود الجنود من حملة التفتيش عمن عادوا إلى بلدهم «متسللين». تلك القرية المنحوتة في سفح جبل ذات بيوت من جدران ثلاثة. أما الرابع فهو ظهر الجبل. بيوت لو نظرتَ إليها من تحت، من كرْم الزيتون، لرأيتَ لوحة عشوائية رسمها فنَّان أعمى على عجل، صخرةً على صخرةٍ، ونَسِيَ أن يرشَّ عليها شيئاً من نعمة اللون، فقد كان خائفاً من أن يرى، فجأة، ما صنعت يداه. أَما النوافذ فإنها تطل على جهة واحدة: جهة الضبع!

هناك، عرفت من آثار النكبة المدمرة ما سيدفعك إلى كراهية النصف الثاني من الطفولة. فإنَّ كنزة صوف واحدة، منتهية الصلاحية، لا تكفي لعقد صداقة مع الشتاء. ستبحث عن الدفء في الرواية، وستهرب مما أَنت فيه إلى عالم متخيَّل مكتوب بحبر على ورق. أما الأغاني، فلن تسمعها إلّا من راديو الجيران. وأمَّا الأحلام فلن تجد متسعاً لها في بيت طيني، مبنيّ على عجل كقنّ دجاج، يُحْشَرُ فيه سبعةُ حالمين، لا أَحد منهم ينادي الآخر باسمه منذ صار الاسم رقماً. الكلام إشارات يابسة تتبادلونها في الضرورات القصوى، كأنْ يغمى عليك من سوء التغذية، فتُداوى بزيت السمك ... هبةِ العالم المتمدن لمن أخرجوا من ديارهم. تشربه مكرهاً كما تُكْرِهُ الألم على إخفاء صوته في ادعاء الرضا.

تتذكر مذاق العسل الجارح الذي كان جدك يرغمك على تناوله فتأبى، وتهرب من مشهد جدتك التي تضع المنخل على وجهها لتتّقي عقصات النحل وتقطف الشَّهْد بيد جريئة. كل شيء هنا برهان على الخسارة والنقصان. كل شيء هنا مقارنة موجعة مع ما كان هناك. وما يجرحك أكثر هو أن «هناك» قريبة من «هنا». جارة ممنوعة من الزيارة. ترى إلى حياتك التي يتابعها مهاجرون من اليمن

دون أن تتدخل في ما يفعلون بها، فهم أصحاب الحقّ الإلهي وأنت الطارىء اللاجىء.

وحين تقول لأهلك: لم أذق في حياتي طعماً أسوأ من زيت السمك، يسخر منك الكبار: ألك حياة يا ابن السابعة .. أَلك ذكريات؟ تقول: نعم. وهذا هو الفارق. وُلد الماضي فجأة كالفطر. صار لك ماضٍ تراه بعيداً. وبعيد هو البيت الذي يسكنه وحيداً. وُلد الماضي من الغياب. ويناديك الماضي بكل ما ملكتْ يداه من أزهار الصُبَّار الصفراء على طريق يصعد فوق التلال، ومن رائحة الحنين الشبيهة برائحة البلّوط المشويّ في المواقد، ومن عباءة جدِّك البنيّة كالتبغ الذي بلّله الماء، الخفَّاقة كصوت صراع وُدّي بين الحكمة والعبث. ولد الماضي كأثداء كلبة توشك على الولادة، ومن خوفك من الغد وُلد الماضي كاملاً جاهزاً لخطف العروس على حصان الحكاية. من كل ما أنت فيه، ومن كل ما فيك من بؤس الحاضر الجائع إلى تعريف الهوية ... وُلد الماضي.

وكما لو كنت تهذي: البعيد هو السعيد. والسعيد هو البعيد. سأجعل الليل إثمداً لأستعيد عافية الماضي وأداوي بها حُمَّى أصابت الأرض المتشعبة فيَّ كالنَّجيل. وأهذي

وأَعرف أني أهذي، ففي الهذيان وعْي المريض برؤياه، لأنه أَنبل مراتب الألم.

سيقول الطبيب مرة أخرى: إنه يشكو من سوء التغذية، فهل أقلع عن تناول زيت السمك؟ كلا، ولكنه يتذكر أشياء لا يحتملها من هو في مثل عمره. يتمنَّى أن يكون فراشة، فهل للفراشات ذكريات؟ الفراشات هي الذكريات لمن يتقنون الغناء قرب نبع الماء، فهل غنّى؟ ما زال صغيراً فأنَّى له أن يدحرج الكلام على مصطبة من رمل؟ إنه يشكو من سوء الحاضر، فلتأخذوه إلى الغد.

ليس لنا في اليد حيلة ولا غد ــ قالوا ــ ونحن على هذه الحال، مربوطون إلى مصائر متينة التركيب، ومشدودون إلى هاوية بعد هاوية. نشتري الماء من آبار الجيران، ونقترض الخبز من سخاء الحجر. ونحيا، إن كان لنا أن نحيا، في ماض رضيع مزروع في حقول كانت لنا، منذ مئات السنين، إلى ما قبل قليل ... قبل أن يختمر العجين وتبرد أباريق القهوة. بساعة نحس واحدة دخل التاريخ كلصّ جَسور من باب، وخرج الحاضر من شباك. وبمذبحة أو اثنتين، انتقل اسم البلاد، بلادنا، إلى اسم آخر. وصار الواقع فكرة وانتقل التاريخ إلى ذاكرة.

الأسطورة تغزو، والغزو يعزو كل شيء إلى مشيئة الرب الذي وعد ولم يخلف الميعاد. كتبوا روايتهم: عدنا. وكتبوا روايتنا: عادوا إلى الصحراء. وحاكمونا: لماذا وُلدتم هنا؟ فقلنا: لماذا وُلد آدم في الجنة؟

تذكَّرْ، لتكبر، نفسك قبل الهباءْ

تذكر تذكرْ

أصابعك العشر، وانس الحذاءْ

تذكر ملامح وجهك،

وانس ضباب الشتاءْ

تذكَّر مع اسمك، أمَّكَ

وانس حروف الهجاء

تذكر بلادك، وانس السماءْ

تذكر تذكّرْ!

VI

وعشتَ، لأنَّ يداً إلٰهية حَمَلَتْكَ من عين العاصفة إلى وادٍ غير ذي زرع. وعشتَ في منزلة الصفر، أو أَقلَّ وأكثر. عشتَ عصيَّ القلب، قصيَّ الالتفات إلى ما يوجع ويجعل الوجع جهةً، وإلى ما يرجع من صدى أَجراس تضع المكان على أُهبة السفر: من هنا مرت الغجريات المصابات بحُمَّى الرقص والإغواء. علَّقن سراويلهن على أغصان الشجر وارتدين العري المتخفِّي في رشاقة الحركة. على الخيال وحده أن يرى فضيحة العُرْي في إيمان الفنِّ بذاته المتمنِّعة عن الإفصاح. فالغجريات الماهرات بدسِّ البرق في عظام المشاهدين، هُنَّ هُنَّ القادرات على ستر

العري بضوء يسطع من نهود ترشح حبيبات ماءٍ يضحك ...

في كلٍّ وَلَدٍ غجريَّةٌ. وفي كل غجرية سَفَرٌ مرتجل. وفي كل سفر حكاية لا تُروى إلّا بعد اجتياز الذكرى سنَّ الخجل من أَصحابها. ألهذا حَمَلْتَ الغجر معك كلما افترق المكان عن زمانه، وكلما تشرَّد المكان في سُكّانه الباحثين عنه في ما تبقَّى من روائح هي الدليل على حسيَّة الروح؟ ألهذا بحثت في النساء الغريبات عن فوضى الجسد في شهوة الغجريات الراقصات على حبال الريح، واصطحبت المعنى الخالي من الزركشة، في الحب، إلى آخر العبث؟

وعشتَ، لأن يداً إلٰهية أنقذتك من حادثة. عشت في كل مكان كمسافر في قاعة انتظار في مطار يُرْسِلُكَ، كبريدٍ جوّيّ، إلى مطار .. عابراً عابراً بين اختلاط الهُنا بالهناك، وزائراً متحرراً من واجبات التأكُّد من أي شيء. هكذا مرّت الغجرياتُ على حقل أيامك البعيدة، في طريقهن الشريد من الهند إلى ما يرد على حاسة التيه من هواجس بلا خرائط وهويات ... جميلات وبائسات وراقصات بلا سبب، سوى ما للدم الساخن من نسب إلى الإيقاع. هُنَّ

هُنَّ، سِرْبُ خيامٍ مهاجرة إلى مغامرة قد يَجِدْنَ فيها كفاف حياة في متناول اليد. ولا يودِّعن شيئاً لئلَّا يَحْزنَّ، فالحزن مهنة لا تليق بهنَّ، فهنّ الحزينات منذ وُلِدْنَ. ويرقصن كي لا يَمُتْنْ. ويَترُكْنَ الأمس وراءهن حفنةً من رماد موقدٍ مؤقت. ولا يفكرن بالغد لئلَّا يعكِّر التوقع صفو الارتجال. اليوم اليوم هو الزمن كله /

فاحذر طريق الغجريات، لأنه لا يوصل إلى أَيّ هدف.

وعشتَ، لأن كثيراً من الرصاص الطائش مرَّ من بين ذراعيك ورجليك ولم يصبك في قلبك، كما لم يَشُجَّ حَجَرٌ طائشٌ رأسك. وعشتَ لأن سائق الشاحنة انتبه في اللحظة الأخيرة إلى ولد يصرخ بين مؤخرة الشاحنة وبين الجدار الذي تلتصق به. وعشتَ، لأن سائق سيارة رأى في الظلام قميصاً أَبيض واقفاً على حافة الشارع، فأنقذك من خطر الليل وأعادك إلى الأهل المشغولين بتقليب الافتراضات على جمر الخوف. وعشتَ، لأن ضوء القمر اخترق الماء وأضاء صخوراً مدببة أقنعتك بأن الموت سيكون مؤلماً لو قفزت من تلك الصخرة إلى البحر، لا سباحةً في مياه الأبدية.

وعشتَ، دون أن تعرف كيف تصوغ كلمات الشكر

البسيطة: حمداً للحياة حمداً. ولم تسأل إلّا متأخراً: كم مرة متُّ ولم أنتبه؟ وكلما متُّ وانتبهتَ التهمتَ الحياة كحبة خوخ، فلا وقت طويلاً للخوف من المجهول ما دامت الحياة، وهي أنثى، مشغولة عن الموتى بتجديد صباها وفجورها وتقواها، على مرأى من المحرومين.

تجلس في مطعم المطار في ركن قصيّ، وتفكِّر في جدوى الرحلة: هل أنا في ذهاب أم إياب. لا أحد ينتظرني في الذهاب ولا سبب يدعوني إلى الإياب. لي أكثر من اسم وأكثر من تاريخ ميلاد في جوازات سفر جليلة الأغلفة، حمراء وزرقاء وخضراء. وحُرٌّ أنا في هذا الزحام المسافر، وآمِنٌ كبضائع الحوانيت المعفاة من الجمارك، ومحروس بأجهزة الإنذار الإلكترونية. لا أحد يسألني من أنت ولا أَحد يلتفت إلى مشيتي المتلعثمة، وإلى الزر المقطوع في معطفي، وإلى بقعة الزيت على قميصي. كأني شخص هارب من إحدى الروايات المعروضة في كشك الصحف، هارب من المؤلف والقارىء والبائع. وفي وسعي أن أضيف وأن أحذف وأن أعدِّل وأن أبدِّل وأن أَقْتُلَ وأن أُقْتَلَ وأن أمشي وأن أجلس وأن أطير وأن أصير ما أريد وأن أحبّ وأن أكره وأن أَعلو وأن أهبط وأن أسقط من أعالي الجبال ولا أصاب بسوء لأني لا أَعتدي على حقوق

المؤلف، ولي في المصائر، أعني مصائري، وجهة نظر أخرى /

لم يَنْهَكَ أحدٌ في المطار عن الإفراط في الخروج من انضباط المؤلف، فاسترسلتَ في طرق المعلوم على فولاذ المجهول، فتطاير شَرَرُ الممكن من خيال كلما ضاقت عليه الجدران شعّ كبلّور مكسور في مجاز السجين. فرأيت إلى نفسك في المطار التالي شخصاً غير مرغوب فيه، لافتقار الوثائق إلى فِقْهِ الربط بين الجغرافيا وأسمائها: فَمَنْ وُلِدَ في بلدٍ لا يوجد .. لا يوجد هو أيضاً. وإن قلتَ مجازاً إنك من لا مكان قيل لك: لا مكان للامكان هناك. وإن قلت له، لموظف الجوازات: اللامكان هو المنفى، أجابك: لا وقت لدينا للبلاغة .. فاذهب إذا كنت تحبُّ البلاغة إلى لا مكان آخر /

ورأيتَ إلى نفسك في مطار ثالث ورابع وعاشر تشرح لموظفين لا مبالين درساً في التاريخ المعاصر عن شعب النكبة الموزع بين المنافي والاحتلال، دون أن يفهموك وأن يمنحوك إذناً بالدخول. ورأيتَ إلى نفسك في شريط سينمائيّ طويل تروي على رسلك ما حلَّ بأهلك مسروقي اللسان، والقمح والبيت والبرهان... منذ هَبَطَتْ عليهم

جرّافة التاريخ العملاقة وجرفتهم من مكانهم وسوَّت المكان على مقاس أسطورة مدجّجة بالسلاح وبالمقدّس. مَنْ لم يكن آنئذٍ في الأسطورة لن يكون الآن. وتساءلت: هل من جلاّد مقدس؟ ورأيتَ إلى نفسك تكمل ما تيسَّر لك من عمرك، بلا مؤرخين ومؤلفين في المطار المزدحم بالمسرعين إلى مواعيدهم التجارية والغرامية /

وأَنت المُفْرَغُ من لقاء أو وداع، تجلس على المقعد الجلديِّ وتنام. وتستيقظ لأن مسافراً مستعجلاً تعثّر بك واعتذر دون أن ينظر إليك. تمضي إلى الحمَّام وتغسل ثيابك الداخلية وجوربيك وتحلق ذقنك، ثم تتوجَّه إلى الكافتيريا لتحتسي فنجان قهوة، وتبحث في الجرائد عن آخر أَخبارك: هل من بلد يقبل بي؟ فلا تجد فيها، في الجرائد، إلّا أخباراً مُفَصَّلة عن الحروب والزلازل والفيضانات. لعل الله غاضب على ما يفعل البشر بالأرض! لعل الأرض حبلى بالقيامة!

ما معنى أن يحيا إنسان في المطار؟ تهجس: لو كنتُ مكاني لكتبتُ مديحاً لحريتي في المطار: أنا والذبابة حُرَّان / أُختي الذبابة تحنو عليَّ / تحطُّ على كتفي ويدي/ وتُذَكِّرني بالكتابة / ثم تطير. وأكتب سطراً:

كأن المطار بلاد لمن لا بلاد له / وتعود الذبابة بعد قليل / وتمحو الرتابة، ثم تطير تطير تطير / ولا أستطيع الحديث إلى أحد / أين أختي الذبابة، أين أنا؟

ترى إلى نفسك في شريط سينمائي تُحَدِّق إلى امرأة تجلس في الركن المقابل لك في الكافتيريا. وحين تراك وأنت تراها تتشاغل بتنظيف قميصك من قطرة نبيذ، وَقَعَتْ ككلمةٍ شاردة من عبارةٍ كُنْتَ ستقولها لها لو كانت معك: جمالك هذا كثير عليَّ كسماء، فارفعي السماء قليلاً لأتمكَّن من الكلام. ترفع عينيك عن صحن الحساء الساخن، فتراها تراك، لكنها سرعان ما تتشاغل برشِّ الملح على طعامها بيد يرتجف عليها الضوءُ، فتخاطبها في سرِّك: لو كنتِ مثلي ممنوعةً من الخروج، لو كنتِ مثلي! تشعر بأنك أَحْرَجْتَها، فتتظاهر بأنك تخاطب النادل: لا، عفواً. لُؤْلُؤةٌ من عَرَقٍ تلمع في جيدها المرفوع للثناء، فتقول لها في سرِّك: لو كُنْتُ مَعَكِ لَلَحَسْتُ حبَّة العرق. الرغبة ماثلة واضحة كالصحن، كالشوكة والملعقة والسكين، كزجاجة الماء، كالشرشف، وكأرجل الطاولة. والهواء مُعَطَّر. تلتقي النظرتان وتشعران بالحرج فتفترقان. هي تحتسي جرعة من كأس النبيذ الذي ذابت فيه اللؤلؤة. وأنت تشعر بأنها قد سمعتْ بكاءَ الحوت في محيط

عميق، وإلّا، فما الذي يُغْرِقُها في هذا الصمت الكثيف؟ تقول لها في سرّك: إن أعلنوا أن قنبلةً ستنفجر في المطار، فلا تصدِّقي.. لأني أنا من أطلق هذه الشائعة لأقترب منك وأقول لك إني، لا غيري، من أطلق هذه الشائعة. يخيَّل لك أنها اطمأنت، فرفعتْ نخبك متلألئاً، وانسلَّ خيط من الرغبة من أطراف أناملها، وحرَّك في عمودك الفقريّ نبضة كهربائية، وهزتك قشعريرة ... فتولَّهْتَ وتأوهت، وفاحت رائحة المانجو من سرير سرّي مُعَلَّقٍ في الهواء، وناحت كمنجات بعيدات وارتخت أوتارها في نهاية الهياج /

لم تنظر إليها، لأنك تعلم أنها تنظر إليك ولا تراك، فقد حَلَكَ الضبابُ على طاولتك الدائخة من فرط ما كدَّستَ عليها من أدوات التأويل، ومن أوراق بيضاء لا يكفي عشرون مؤلفاً لإشباعها بالكنايات. لم يكن النادل، بل هي من ربَّتت على إغمائك، وقالت: هل كانت وجبتك شهيّة؟ وأنتِ ــ سألتها، فقالت: سعدتُ بلقائك ... هل تذكرتَني؟ قلتَ: قد يفقد المرء ذاكرته في المطارات. فقالت: وداعاً! لم تنظر إليها وهي تبتعد، لأنك لا تريد أن ترى الرغبة وهي تدقُّ بكعبين عاليين رخام الكاتدرائيات، وتوقظ في أجساد الكمنجات شبقاً إلى

الرحيل. لكنك تذكَّرتها حين تسلَّل النعاس، كما تسلَّل خدر النبيذ إلى جسدك، بدءاً من الركبتين إلى ما لا تتذكر من غابة الجسد. أمَّا اسمها، فقد تعرفه غداً، على طاولة أخرى في مطار آخر!

VII

ألسجنُ كثافةٌ. ما مِنْ أحدٍ قضى ليلةً فيه إلّا درَّب حنجرته على ما يُشْبِهُ الغناء، فتلك هي الطريقةُ المتاحةُ لترويض العُزْلة وصيانةِ كرامة الألم. أن تسمَعَ صوتك المبحوح يعني أن آخَرَك قد سامَرَكَ وأسرَّ لك بأخبارك الشخصية، في غرفة كلما ضاقت اتسع ما وراءها واحتضنتَ العالم بشَغَفِ المصالحة /

وأَنتَ إذ تغنِّي لا تُغَنِّي لتتقاسم الليل مع أحد. ولا تغني لتقيس إيقاع وقتٍ بلا إيقاع ولا علامة، بل تغنِّي لأنّ الزنزانة تُغْريك بمناجاة الخارج، نُقْصانِكَ في كمال العزلة: تأتي الحقول إليك بحفيف السنابل الذهبية. والشمس تملأ

قلبك بضوء البرتقال. وتأتي إليك زهور السفوح المبعثرة كشعر فتاة فوضوية. ورائحةُ القهوة المشحونةِ بهياج الهال تأتي إليك. كأنك لم تنتبه من قبل إلى ما في خارجك من سعة ودعة... وإلى ما كان ينقصك من احتفاء بالطبيعة.

وكما في القصائد والغَسَق، يحتفل الغموض بالوضوح، لأن بؤرة سرية تطلق إشعاعها في الجهات وفي الكلمات، وتحرم الظلام من أبديَّة الصفات. تزورك الذكرياتُ الصغيرة قطيعاً من ماعز وأيائل تتقافز كأكواز صنوبر على طريق جبليّ. في كل أغنية فتاةٌ تنتظر على محطة باص أو على شرفة. وعلى كل شرفة منديلٌ يلوِّحُ وحمامةٌ آمنة.

وأَنتَ، أنتَ وأكثر /

مأهولٌ، كمجمّع سكانيّ، بالصاعدين على الدرج وبالنازلين إلى الشارع. مأهول بأدوات المطبخ والغسالات ونزاع الأزواج على أفضل طريقة لتقشير البطاطا وقلي السمك. وَجَعٌ خفيفٌ في المعدة يتبعُهُ وَجَعٌ ميتافيزيقيّ: هل تصاب الملائكة بالزكام؟

وأنتَ، أنتَ وأقلّ /

لا تستطيع وُلُوجَ يومٍ جديد بلا حمّام، وحلاقة، وصحيفة، وفنجان قهوة. حجم الأرض هنا متران مربّعان لهما بابٌ حديديٌّ دائمُ الإغلاق. أصواتُ أحذيةٍ غليظةٌ تحمل إليك حساء العدس المطبوخ بالسوس، فتدرك أن نهاراً جديداً قد حلَّ ضيفاً على العالم. لكنك لا تُحصي الأيّام، فلا خَرَزَ في زنزانتك ولا حصى للتقويم الجديد. ولا تعلم إن كانت حرب جديدة قد اندلعت، أو كانت الحرب القديمة قد وضعت أوزارها. ولا تعرف إن كانت ثيابك قد توقفت عن بثّ رائحتها، أم أن حاسة الشمّ فيك هي التي تعطلت.

لا جديد إذاً. لا جديد في هذه القطيعة الصلبة مع الزمن. لا جديد سوى قديمك الزاحف منك وإليك، متحولاً فكرةً وصورةً تتناوبان، بلا مهارة، ذرائعَ هدوئك الذي لا غنىً لك عنه للتنفُّس الطبيعي في هواء فاسد. لا شيء رهن إشارة القلب الذي كان يأمرك فتنصاع، ويأمرك بأن تعصى فتعصى، ويأخذك إلى أقصى ما في مطاردة الحجل من بريّة، وإلى أَقسى ما في الكلام من خشونة الهجاء.

كم أنت هادىء لتقول: الهجاءُ فحولةُ اللغة القادرةِ على مناطحة الجنادل، كلما توقفت البلابل عن الغناء، وامتثلت

فرسٌ غير أَصيلةٍ، إلى إغواء حمار. الهجاء فروسيَّةٌ مقهورةٌ تعوِّض نقصان التشبّه بالقادر برفع إنشاء الخاسر إلى مرتبة العرش، لكنه، الهجاء، يُطرب الجمهور الغاضب، ويعذّب الغالب بطنين الأولاد الذين يلاحقونه بأصوات التنك والشتائم، ويحرمه من تتويج النصر بالطرب.

وأَنت، تقريباً أَنت /

لا سجين ولا طليق. فالسجن كثافة. ما من أَحد قضى ليلة فيه إلّا وأَمضى الليل كله في تدليك عضلات الحرية المتشنّجة، من فرط السهر على الأرصفة، حافيةً وعاريةً وجائعة. وها أنت ذا تحتضنها من كل ناحية، حراً متحرراً من عبء البرهان. ما أصغرَها وما أَبسطها وما أسرعها في الاستجابة إلى نشاط السراب. وهي فيك وفي متناول يدك التي تدقُّ بها جدران الزنزانة: في اقتباسك أُمثولة الطير، وفي هطول المطر، وفي هبوب الرياح، وفي ضحكة الضوء على حجر منسيّ، وفي كبرياء شحاذ يُوَبّخ مانحيه إذا بخلوا، وفي حوار غير متكافىء مع سجانك حين تقول له:

أنت، لا أنا، هو الخاسر، فمن يحيا على حرمان غيره من الضوء يغرق نفسه في عتمة ظلّه. ولن تتحرر مني إلّا إذا

بالَغَتْ حريّتي في الكرم، كأنْ تعلِّمك السلام وترشدك إلى بيتك. أنت الخائف، لا أنا، مما تفعله الزنزانة بي، يا حارس نومي وحلمي وهذياناتي الملغومة بالإشارات. لي الرؤيا ولك البرجُ وسلسلة المفاتيح الثقيلة والبندقية المصوَّبة إلى شبح. لي النعاسُ حريريُّ الطبع والملمس، ولك السَهَرُ عليَّ لئلا يسحب النعاسُ سلاحَكَ من يدك قبل أن يرتدَّ إليك طرْفك. الحلم مهنتي، ومهنتك استراق السمع، سدىً، إلى حديث غير وُديّ بيني وبين حريتي /

لا يصغي السجّان إليك، ولا يراك وأَنت تغافله وتدخل في نفسك دخول الغريب إلى مقهى على الرصيف. لم تحبَّ المقاهي وملاهي الليل، كما أشاعوا عنك. المقهى هو امتلاء الروائيِّ بفضول النص المتعطش إلى مراقبة المصائر. المقهى هو إفراغ الوقت من ضجرٍ مصاحب للكائن في كؤوس نميمة. والضجر مُذلٌّ كالشهوة المتأججة في غير موضعها. المقهى هو الشَّرَكُ الملائم لاصطياد أفكار نسيها أصحابها مع البقشيش على الموائد، واقتباسات غير دقيقة لعناوين ثقافية تشبه الوجبات السريعة.

لكنك تحسُّ الآن برغبة ملتهبة في الذهاب من الزنزانة إلى المقهى. ستجلس وحدك مع فنجان قهوة وجريدة قد

تقرأها وتنسى ما قرأت. وقد لا تقرأها وتتذكر ما لم تقرأ. لكنها ستارة ورقية لاختلاس النظر إلى الآخرين: إلى سيِّدة تخاطب كلبها بحنان عائليّ، وإلى جنرال يأكل بنهم، فالجنرال هو أَيضاً كائن يجوع... وإلى فتاة تنزل خصلة شعر على جبينها بنزق المنتظرة... وإلى صحافيّ يدوِّن ملاحظات عن رجل أمامه يحاول حل الكلمات المتقاطعة. وحين تختلس النظر إلى نفسك، تكتشف أنك لا تفكر بشيء ولا تنتظر أحداً، ولا تشعر بفراغ أو امتلاء أو ضجر.

الضوءُ ساطع، فتخرج إلى الشارع النازل من قِمَمِ الصنوبر إلى البحر. السجنُ هو حرمان الكائن من مشهد الشجرة والبحر. والحرية هي المخيّلة القادرة على استدعائهما إلى السجن، وجعل ما ليس مرئياً مرئياً. لا .. هذا ما يفعله الشعر. الشعر إذاً فعل حريّة، ويجعل ما هو مرئيّ غير مرئيّ عند مواجهة الخطر. والمشي رياضة وحرّية. تتخيّل أنك تمشي على شارعك الشخصي بطيئاً في البداية. تتملَّى شبابيك مفتوحةً على الداخل، على أسرار صغيرة وحمّامات. تقيس المسافة بين لقاء طويل ووداع صغير، فينتابك شعور حامض بالندم على خطأ لم ترتكبه: لست أنا المسؤول عما حدث. لكنَّ الحربَ أعادت كُلاًّ منا إلى

خيمته. أنتِ إلى نشيدكِ الوطني، وأنا إلى السجن، فلم تَعُدْ أغنيةُ الجَسَديْنِ مشتركة!

المشي رياضةٌ وحريّةٌ. تتخيَّل أنك تمشي على شارعك الشخصيِّ سريعاً سريعاً لتحرق السعيرات الزائدة لساندويتش الشورما وألواح الشوكولاته. ألدِّهْنُ والسّكّر هما شهوة السجين إلى استرداد عافية المألوف. والمشي رياضة الكلمات وتدريب الذاكرة على ما تحتاج إليه من نسيان الزؤان والإهانة. المشي السريع يخفِّف عن الكلمات شحم النعوت والمترادفات وما يجعل السهم طائشاً. المشي السريع يضع الرمزيَّ في موقعه الصحيح من الواقعيِّ مهما تحرَّش الضباب بالصورة والفكرة والرؤيا. المشي السريع يلفُّ الكلامَ بسَرْوَةِ القِوام الرشيقة تحت سماءٍ صافية. فلتُسْرِعْ قبل أن يوقفك السجَّانُ عن رياضة المجاز في منتصف هذا الشارع الواسع. ولتسرع قبل أن يوقظك، ويرمي إليك بوعاء البول الصباحيّ.

وأنتَ أنتَ ولا أنت في آن واحد /

منقسمٌ إلى داخل يخرج وإلى خارج يدخل. لكنك حُرٌّ في الاختلاء بحريّةٍ غير حَمَّالة أوجه ... حرٌ في وضع الخيال على ركبتيك. ولا تجري، كما هي العادة، مقارنة

بين سجن كبير وسجن صغير، لأن لا شيء في الزنزانة يلهيك عن التحديق إلى بؤرة سوداء تشعّ نوراً، فتغنّي له وتطير، كما يفعل المتصوف، أبعد من هدهد في أقاصي السؤال!

VIII

لم يسحرك أَكَلَةُ اللوتس بمذاق النسيان العسليّ. خرجوا من أسطورتهم سالمين، ودخلتَ وأَهلك بلا استعداد كاف في التيه. تعرف تماماً ماذا تركت وراءك: ماضياً غير مُدوَّن في نشيد، عن طُرْواديِّين جُدُدٍ لا يُرْوَى عنهم إلّا ما يقول أعداؤهم عنهم. لكنهم لم يخطفوا هيلين ولم يكونوا سبباً للحرب. كانوا طيّبين مسالمين، ولا ذنب لهم غير أنهم وُلِدُوا على سفوحٍ شُبّهتْ بالدرج المؤدِّي إلى الله. وكانوا شجعاناً بلا سيوف، وعفويين بلا بلاغة، فانكسروا أمام الدبابات، وهُجِّروا وبعثروا في مهبِّ الريح، دون أَن يفقدوا إيمانهم بالشفاء من جرح التاريخ.

فمن أَنت في هذه الرحلة؟ أَشاعر طرواديّ نجا من المذبحة

ليروي ما حدث، أم خليط منه ومن إغريقي ضلَّ طريق العودة؟ إنَّ فتنة الأسطورة تجعلك نهباً لانتقاء الاستعارات... فَخُذْ منها ما يصلح لصعود النشيد إلى ختام آخر، يتّسع لصوت الضحية الطروادِيِّ المفقود، ولعجز النصر الإغريقي عن إعادة الشباب إلى المحارب الذي شاخ في ثنائية البيت والطريق.

مشدوداً كالوتر بين الماضي والغد، تعرف كل ما خسرت وتركت وراءك. ولا تتبيّن أمراً من أمور الأمام. لكن جاذبية أُفقية تدفعك بقوة العاصفة إلى محتويات الأمام، إلى مجهول فاتن في قصيدة لم تكتمل تبدأها أنت، ثم تقوم هي بتولّي مسارها، حيث يتغلَّب المصنوع على الصانع والوليد على الوالدة. سمّوك الحالم، حين قلت إن الطروادي يقاوم. وفسروا أحلامك قبل أن تراها. وقلتَ: ابتعدتُ قليلاً لأقترب، فقالوا: هذه هي طريقة النادم في الكلام. فهل ندمتَ حقاً على هذا السفر؟ قلتَ: لا أَعرف ما دمتُ في أوّل الطريق.

وكان عليك أن تختار الهامش لتعرف أَين أَنت. الهامش نافذة تطل على العالم، فلا أنت فيه ولا أنت خارجه. الهامش زنزانة بلا جدران. الهامش كاميرا شخصية تنتقي

من المشهد ما تشاء من صور، فلا يكون الملك هو الملك. ولا يكون مقلاع داود إلّا سلاح جوليات. هل صحيح أنَّ من يكتب قصته قبل الآخر يكسب أرض القصة؟ لكن الكتابة تحتاج إلى مخالب كي تحفر الأثر في الصخر.

وسَمَّوْكَ الحالم حين اخترتَ الهامش لترى حلمك ويراك مُنْكَبّاً على تذكّر اسمك القديم الذي يتبعك كظلّك، ولا ينطق. لو نطق الظلُّ لأرشدني ــ قلت لي. أمَّا أنا فذهبت إلى الشارع أهتف وأنزف وأهتف بسقوط الذرائع والأسباب، حتى خُيِّل لي أَنني حَرَّرتُ وَتَحرَّرتُ وكَفَّرتُ عن ذنوب لم أرتكبها. وكنت تنظر إليَّ من الهامش، لأن المسافة كما قلت لي مصفاة ومرآة. وفي المساء التقينا، كما هي العادة، فعانَقْتَني وربّتَّ على كتفي وقلت لي: سأمضي غداً معك، لأن الهامش يتأمَّلُ ولا يفعل.

طريق يعلو ويهبط، يتموَّج ويتعرَّج ويطول، ويتفرع إلى طرق لا حصر لها ولا نهاية تجتمع بالبداية. كم مرة نبدأ من البداية؟ ونجونا من موت كثير، وهزمنا النسيان، وقلت لي: نحن ننجو ولا ننتصر، وقلت لك: النجاة هيَ انتصار الطريدة الممكن على الصيّاد. الصمود هو البقاء والبقاء هو أول الوجود. وصمدنا، وسال دمٌ غزير على السواحل

والصحارى... دمٌ فاض عن حاجة الاسم إلى هوية، وحاجة الهوية إلى الاسم.

وبحثنا عن زهرتنا الوطنية، فلم نجد أفضل من شقائق النعمان التي سمَّاها الكنعانيون «جراح الحبيب»، وبحثنا عن طائرنا الوطني، فاخترنا «الأخضر» تَيَمُّناً بانبعاثه من الرماد، وتجنّباً لسوء فهم مع أخوة «الفينيق»، وبحثنا عن علَمنا الوطني، فأرشَدَنا بُعْدُنا القوميُّ إلى بيت الشعر إياه، الذي أغدق على الألوان الأربعة أوصافاً قد تجافي الموصوف، ولكنها تهيِّج الحماسة.

وسال دم غزير حتى صارت قيافَةُ الدمِ... دَمِنا دليلَ العدوّ إلى طمأنة ذاته الخائفة مما فعل بنا، لا مما قد نفعل به. فنحن الذين لا وجود لنا على «الأرض الموعودة» صرنا شبح القتيل الذي يطارد القاتل في النوم وفي اليقظة وفي ما بينهما، فيضطرب ويكتئب ويشكو من الأرق ويصرخ: «ألم يموتوا بعد؟» كلا... فقد بلغ الشَبَحُ سنَّ الفطام وسنّ الرشد وسنَّ المقاومة وسنَّ العودة. الطائرات تطارد الشبح في الهواء. الدبابات تطارد الشبح في البر. والغوّاصات تطارد الشبح في البحر. والشبح يكبر ويحتلُّ وعيَ القاتل حتى يصيبه بالجنون:

على شرفة في مشفى الأمراض النفسية تطلّ على آثار دير ياسين، يجلس ملك إسرائيل الجديد ويهذي: هنا، هنا كانت بداية معجزتي. هنا قتلتُهُمْ ورأيتُهم قتلى. رأيتهم موتى ملء البصر والسمع. هنا سمعت أنين الوحوش البشرية الذي لم يعكّر صَفْوَ مُوسيقاي . ومن هنا نشرتُ أصواتهم شمالاً لتُفْزِعَ سائر القطيع الذي يُرَنِّق ماء الأرض المقدسة. ومن هنا أذعت الذعر في ما تبقى من حيوانات تدبُّ على اثنتين .... ليدخلوا في رحلة التيه. لا، لا فالتّيه ليس اللفظ الملائم لمصيرهم. التيهُ خُصُوصيَّتي. التيهُ يفضي إلى الهداية. التيه يفضي إلى عودة. التيه احتكاري كما هو الله لي. يتناول الملك أقراص المهدّىء ويتذكّر: لولا بطولتي، لولا ما فعلت بدير ياسين، لما قامت مملتكي. لولا الغياب، غيابهم، لما حضرت. أن لا يكونوا هو أن أكون. فمن أين طلعوا عليَّ، أنا الذي لم أرض بهم جيراناً أو عبيداً، لا حطّابين ولا سقاة ماء. يضغط الملك على كأس الماء بعصبيّة فيهشِّمه، فيبزغ من يده خيط دم، فيهذي: لم أرَ دم الشبح الذي يطارده جيشي في لبنان وأرى دمي؟ هنا قتلتُهُم ورأيتهم قتلى، فكيف غَشُّوا الموت وعصوا أوامري... وأنا من يهَب الموت والحياة... أنا الملك، ملك إسرائيل الجديد. وكيف صار الميت شبحاً وكيف تطاول

الشبح عليَّ؟ أأَنا في حلم أم في كابوس أنا؟ أما من شرفة في هذا العالم تطلّ على نهاية أخرى؟ أبعدوا عني دير ياسين ثانية، أبعدوا عني صراخ هذه الأشباح، أو أَبعدوني عنها ... فلا أستطيع الاعتذار لها ولا أريد. حيرام! حيرام يا ملك صور أَسْعِفْني. لقد غضب عليَّ شعبي، وقال إن حربي عبث، وإن اغتيال الشبح عبث، وإن سلامي عبث. أَسعفني يا حيرام ولو بصُلْحٍ كَذِب، أخدِّر به عقلي وقلبي وشعبي، وأشفى من أتراحي. ألا تعرفني؟ ... ألا تسمعني يا ابن الكلبة والكلب! لا أحد يستمع إلى الملك المعتكف في بيته المطل على موقع جريمته الأولى. وحين يخرج متكئاً على عكاز لزيارة قبر زوجته لا يتكلم مع أَحد. الشبح هو رفيقه الوحيد. عدوُّه الذي لا يغادره، عدوُّهُ الذي يعوده في مرضه، ويقوده إلى لقائهما الأول: هنا قَتَلْتَني، ودَفَنْتَني في هذه الحفرة، فلا يقوى على صدِّه، وينهار: يسقط القاتل في قبر القتيل!

سألتُكَ: ما معنى ذلك؟ فقلتَ لي: قد يحتاج المعنى إلى وقتٍ آخر لينضج في ملح الأرض. وقد يحتاج إلى شاعر آخر خلو من الطرواديين والإغريق، شاعرٍ ينظر من علٍ إلى هاويةٍ لم يَقَعْ فيها، فتصير بحيرة. أمَّا الآن، فنكتفي من المعنى بتلويحة يد من بعيد: ما زلنا أحياء، وقادرين على

تعديل النصِّ الإغريقي، فالفصل الأخير، فصل النهاية مفتوح إلى ما لا نهاية!

المجازُ، الكنايةُ، والاستعارةُ، والتوريةْ

هي ظلُّ الكلام، فلا

صورةُ الشيء كالشيء ... أو عكسُهُ

إنها حيلةُ الشعر في التسميةْ

ولي في المجاز مآربُ أخرى

كأنْ أترك الأغنيةْ

على رِسْلها ...

تتلفَّتُ شرقاً وغرباً

وتقفز بين السماوات والأوديةْ

وتعالج أوجاعها

بقليلٍ من السخريةْ

IX

سألتُكَ، فقاطَعَتْني قذيفةٌ تبحث عن هدف مراوغ. هبطنا إلى ملجأ وسألتُكَ بمكرٍ تعرفه فيّ: متى تُبْحرُ السُفُن؟ قلتَ بنزق: إلى أَين؟ قلتُ: إلى ما لا نعرف .. إلى مجهول جديد. أَليس هذا هو طريق المعنى؟ لم تعجبك السخرية التي تحلّ في غير مقامها، كأنْ يضحك المرء في جنازة، أو يبكي في عرس. فأشحتَ بوجهك عني وابتعدت وغبت، وأَصغيتَ إلى صوتٍ فيك يناديك ويرميك بوَخْزِ الإبر، كلما وصلتَ إلى مفترق أو منحدر: لماذا ... لماذا نزلتُ عن جبل الكرمل؟ لم تصدِّق مَنْ صدَّقوك. فقد عاملوك كما يعامل المضيفون طائراً مهيض الجناح توارى عن

السرب، فعالجوك ودرَّبوكَ على الطيران التدريجيِّ، فطرت. وعلَّموك الغناء فغنَّيتَ وقلت: أنا ما سأكون.

في القاهرة الساحرة الساهرة تحلم بأنك في الجنة، فتقوم في الليل وتفتح النافذة لتتأكد من صحَّة الأبديَّة كلما رأيتَ النيل. لكن، لماذا نزلت عن الكرمل؟ يغيب السؤال عن الآخرين ويحضر فيك وحدك، سرّياً خفيّاً كآلام الشبح التي يوقظها عُضْوٌ مبتور. فتقول: كفى هذا. وتنام.

يوقظك سؤالي: متى تبحر السفن؟ فتجيب بعصبيّة تستدرج المعنى إلى العبث: لن أَخرج! فأذكِّركَ بأن بيروت ليست حيفا. وكان عليك أَن تقول ذلك هناك، فتخجل من تصويب الخطأ بالخطأ، وتستدرك: أَعني لن أَخرج من جهة البحر، لأني لا أُجيد السباحة. أُمازحك قليلاً: لكنَّ كلامَكَ منظوماً بحريٌّ كله، وأَنت لا تعرف البحر؟ تهدأ وتقول: البحر سرير استعارات مائية. البحر مشهدٌ لغويّ. البحر إيقاعات.

خرجنا من الملجأ إلى شوارعَ خاليةٍ من المارة والقذائف. إنها هدنة تصمّ الآذان. لقد أُفرغتِ السماءُ من الطائرات وامتلأت بالأزرق الذي يتصبَّب بُخاراً. بوسعك الآن أن تحصي دقات القلب، في الوداع الحزين لثورةٍ تبحث عن

طريق أبعد أَبعد، للوصول إلى أرضها التي كانت على مرمى تفاحة، فسألتك: هل ابتعدتَ لتقترب، أم اقتربتَ لتبتعد؟ قلتَ: المناخُ غيرُ ملائمٍ لتمليح الجرح وتشريح التورية.

وبكيتَ كما لم تفعل من قبل. بكيت من كل الحواس. بكيت كأنك لا تبكي، بل تذوب دفعة واحدة وتمطر. فلممتك من كل جهاتك وحملتك إلى شُقّتك الصغيرة في الطابق الثامن من بناية تطل، من بعيد، على البحر الذي ستبحر فيه السُفُن. كل شيء يبكي: السماء الواطئة. الرصاص الذي يودِّع المقاتلين يبكي. الشوارع تبكي، والشرفات وأطلال البنايات، والشعارات على جدران المدينة تبكي، والمواعيد المرمية في الممكن والمستحيل تبكي.

تركتُكَ وخرجتُ ألقي نظرات الوداع على مَنْ تدرّبوا على إخفاء الدموع ولوَّحوا بالبنادق باسمين، فأوجَعَتْني إشاراتُ النصر المرسومةُ بأصابع لم ينتبه أبطالُها إلى ما بُترَ منها. وسمعت هتافات تزفّ البطولة إلى بدايات جديدة. الفكرة جمرة. والطريق هو البحث عن صواب الطريق. وسننجو وننتصر. لم أَعد قادراً على البكاء، فقد أحرق

الغضب دموعي، ولم أَعد قادراً على النظر إلى الحاضر، فقد رفعتني الحماسةُ إلى أَعلى مدارجها، وأضاءت شمسُ الغد أنفاقي كُلَّها. فكأني أقوى مني ما دامت البداية فينا حيَّة، وفينا من كثافة الغيم ما يروي الصحراء لو تقطَّر ومطر. وفينا من آثار الظلم ما يُغنينا عن طلب العدالة بفصاحة اللسان والتبيين والبيان. لم يعد البحر مجهولاً وكفَّ صوت السفن المبحرة عن العويل، وصرختُ: من كل مرفأ .. نبدأ.

وحين عدتُ إليك، ورأيتُ الأخضر الرماديَّ في عينين صافيتين، سألتُكَ: هل تعجبك الهمزةُ في آخر الكلمة؟ فأجبتَ: تعجبني أينما وَقَعَتْ، ولا يعجبني سؤالك. فاذهبْ عني، فقد اشتقتُ إلى الصمت!

بيروت نائمةٌ حالمةٌ بيوم آخر. غداً تحصي قتلاها وجرحاها. وتمددتَ على هدير الصمت. الصمت كُلّيٌّ كونيّ مشحون بوحشةٍ بريَّة، يعلو ويهبط صدىً لصدى خلاء السماء من عواء الفولاذ. كأنك تسمع قطرات الماء تُنَقِّطها حَنَفيَّةٌ غيرُ مُحْكَمَةِ الإغلاق.. أو تصغي إلى خطوة تتقدم من الباب ولا تصل أَبداً. للصمت نميمة الجدران، ووشاية الفراغ للفراغ. وللصمت صوت العتمة

التي تنساب وتنساح بهيبة جيش سريّ المواقع. وللصمت هَسِيسُ حاسَّةٍ تتطلّع إلى وظيفة حاسة أخرى بين النوم واليقظة. الصمت تَأْتَأَةٌ ثرثارةٌ بين عناصرَ لا تتقن الكلام. الصمت ما يتناهى إلينا من قَهْقَهَةِ عاصفةٍ بعدما أدَّتْ واجبها العبثيَّ بنجاح. الصمت طنين يحوِّل غرفة النوم غابة أشباح.

تصرخ وتصرخ كي تكسر هذا الصمت الملحاح بصمت أعلى، فيندحر الصمت ثم يعود إليك مستعيناً بطاغوت الأرق، فتوقد شمعة وترشد الصمت إلى باب الخروج: من هنا... من هنا تمضي وتصل إلى مقرّك الدائم: ضمير العالم، فيطيعُكَ ويمضي مُخَلِّفاً لك الأرق... وتلك مسألة أخرى يسبِّبها سوءُ التفاهم المتبادل بين الوعي وأعضاء الجسد، وسوء الفهم الدائم بين الواقع والخيال. لكنك اعتدت حلّها بالمراوغة، إذ قلتَ للواقع: أنتَ الخياليُّ الوحيد، وقلتَ للخيال: أنت الواقعيُّ الأكيد.

ونمت. همت بجسدك وهام بك. تعب شهيُّ الخَدَر يَلِجُكَ سُمّاً سُمّاً. ويرفرف عليك سربٌ من النوارس المتزاحمة على نشيد البحر للسفن. نشيدٌ شجيّ يلتفت إلى الوراء، إلى يابسة تبتعد وإلى زمن يبتعد كنصٍّ زائدٍ

دوّنه شعب زائد لا كتاب له على اليابسة. فجأة، تخلع النوارسُ بياضها وترمَدّ وتسوَدّ، ويشتدّ سوادها وتصير إلى جوارح تنقضُّ على أطفال ينامون في العراء، تخطفهم بمخالب مُقوَّسة، فيصرخون من الهلع والوجع، ويصرخون ويصرخون ثم يتوقفون عن الهلع والوجع والصراخ في بطن الوحش.

يضربك الكابوسُ بقبضته الحديدية فتصرخ بلا صوت. تتفقَّد أعضاء جسمك التي قطَّعها الكابوس بمهارة جزّار، فتجدها سوية سليمة لكنها ترتجف وتصرخ من أَثر الذبح. تحاول أن تنهض من السرير لترى أين قُتِلْتَ، فلا ترى دماً في الغرفة. تبحث عن وجهك في المرآة، وعن قدميك في الحذاء، وعن يدك حول كأس الماء، وعن قلبك تحت القميص. وتتأكّد من أنك حيّ، أو ميت وجد نفسه حيّاً، من آثارك لا من حياتك /

أنتَ والفجر وحيدان. وحيدان أنت والفجر في الشارع. الفُرْنُ مغلق والباعة غائبون والأبواب موصدة. لا قطط في الشارع المزدحم بأكوام القمامة. والشجرة الوحيدة واقفة وحدها على باب البناية، لاستقبال الفجر المبشِّر بأبدية لا تعني أَحداً في هذا الوقت الزائد. أَنت والفجر وحيدان

غريبان اجتمعا عنوة، دون أن تجمعهما أُلفة ولا فضول. لا تدري إلى أين تمشي، لكنك تمشي على خُطَىً سابقةٍ ريثما يدلق الفجر زرقته الكحلية وينصرف. وتعترف بأنك أخطأت: لماذا نزلتُ عن الكرمل، ولم أكمل رحلتي مع إخوتي إلى البحر... إلى ما لا أعرف؟

ترى دَبَّابَةً عملاقة في منتصف الشارع، فلا تدري إن كان عليك أن تعود القهقرى أم تواصل السير كأنك لا ترى ما ترى. تنظر إلى الساعة كأنك على موعد، وتمشي بخطى تسابق دقات قلبك إلى لا هدف، فلا يكترث بك الجنود المأخوذون بمتعة التعرُّف إلى أول عاصمة عربية يغزونها. ستعلم من الإذاعات أن ليل صبرا وشاتيلا كان مضاءً كُلُّهُ، لينظر القَتَلَةُ في عيون قتلاهم فلا تفوتهم لحظة نشوة على موائد الذبح، وستقرأ ما سيكتبه جان جونيه:

«يا لها من حفلات ومآدب فاخرة تلك التي أقيمت حيث كان الموت يبدو وكأنه يشارك في مسرّات الجنود المنتشين بالخمرة والكراهية. ولا شك أنهم كانوا منتشين أيضاً بكونهم قد نالوا إعجاب الجيش الإسرائيلي الذي كان يستمع وينظر ويشجع ويوبِّخ المترددين. إنني لم أرَ هذا

الجيش رؤية العين، غيرَ أني رأيت ما فعله. إنَّ قتلة قد أنجزوا العملية، لكن جماعات عديدة من فرق التعذيب هي، في غالب الظن، التي كانت تفتح الجماجم وتشرِّح الأفخاذ، وتنشر الأذرع والأيدي والأصابع. وهي التي كانت تَجُرّ، بالحبال، محتضرين معاقين، رجالاً ونساء كانوا لا يزالون على قيد الحياة. حفلة وحشية جرت هناك: سمر، نشوة، رقص، غناء، نداء، عويل، تأوّهات ... على شرف متفرّجين كانوا يضحكون وهم جالسون في الطابق الأخير من مستشفى عكا».

لا تستطيع اجتياز منطقة الألم، ولا الوصول إلى مصدر الكابوس، لتكون شاهداً على تقطيع جسدك والنظر عميقاً في عيني قاتلك الذي تعرفه جيداً. ولا تستطيع الكلام إلى أحد، فقد خلا العالم، خلا تماماً من الأحياء، واكتظّ بالقتلى الذين ودَّعوا أمس إخوتهم وحراسهم المبحرين على سُفُنٍ يونانية الصنع، طروادية الدلالة. لم يكمل القتلى عملاً من أعمالهم: لم ينهوا عشاءهم، ولا صلاتهم، ولا كوابيسهم.

وتجنَّبتَ البلاغة، فهي في غير موضعها ضرب من ضروب المشاركة في التعذيب. وفي السيّارة ذات الحصانة

الدبلوماسية، التي هرَّبتك من بيروت إلى دمشق، قال لك السفيرُ الليبيّ: لو عرفت جزءاً مما أَعرف، لكفرت باللغة العربية. قلت له: شكراً، وشَرَقْتَ بأحرف العلّة. لم تبك هذه المرة... لأن النار والدمع لا يجتمعان في عين واحدة وفي عبارة واحدة. وحين دخلتَ إلى حمَّام مطعمٍ على شاطىء طرابلس تغسلِ يديك، ونظرت إلى المرآة، رأيت وجهاً لا تعرفه: كان أَنفاً كبيراً يحمل نظارة طبية، ولا يشبهك!.. لكنه وجهك.

إذا كنتَ أنتَ أنا، وأنا أنتَ يا

صاحبي، فلنا موعدٌ مرجأ

في الأساطير. أيَّ طريق سنسلك؟

قلتَ: الطريقُ طريقُنا في الكلام عن الغد. قلتُ لك: الرحلة ابتدأت. قلتَ: كم مرَّةً ستقول لي: الرحلةُ ابتدأتْ؟

قلتُ: لا غد يبقى على حاله!

قلتَ: لكنه لم يصل

قلتُ: مرَّ بنا ومررنا به ذات يوم ولم ننتبه.

قلتَ: كم مرة ستقول لي الرحلةُ ابتدأت؟
قلتُ: إنَّ القصيدة ناقصةٌ...

X

خريفُكَ هذا. فاعْتَنِ به كما يليق بشاعرٍ يُتْقِنُ الزجَّ بنفسه في الشَبَه: كم أُحبُّ الخريف. وجُرَّ المكان برَسَنِ العبارة، قبل أَن يركلك الوقتُ إلى هاويةٍ عالية. جُرَّه ... جُرَّه بكل ما فيك من نضج خسارة، وائتمانٍ على حنين يتلفت إلى خُلُوِّ الجهات من اليقين.

هذا الخريف لَكَ، ولَكَ ما تستغني عنه الأشجار من زينةٍ ورقةً ورقةً. وما من زينة لك غيرها، وأنت تتغاوى في الدخول إلى قاعات فارغة. تدقُّ البلاط دقًّاً لتُسمع نفسَكَ صوتَ خطواتك عالياً عالياً، بلا سبب. كأنَّ الوقتَ كُلَّه يومُ أَحَد ... ما من أَحد يصحو، الساعة، ليتأكد من أيِّ

شيء. وفي الضوء على الأرصفة ثقوب فضّية كحروف من لغة لم تدوَّن بعد. وفي الورد المطمئن في المربعات فرح يُحَيِّيك ويُسَلِّيك: تمهَّلْ! وتأمَّلْ في ما ينسيك المقارنة الجاهزة، وأرخِ رسن المكان قليلاً، فالذاكرة هي أيضاً في حاجة إلى ما يرتِّبُ فوضاها، دُرْجاً دُرْجاً، في هذا الخريف.

هذا خريفك من أَوَّله، ينشر رائحة منفى فائغة، ورسائلَ فارغة، فلتمْلأْها بالأصفر البُنيِّ الذهبيِّ النحاسيّ المرسل إلى اشتقاقات اللون، غير المترادفة، من أوراقٍ تأخذ وقتها الكافي في وداع الشجرة، إذ لا ريح تهب اليوم. وأَنت، من فرط ما أنت وحيد، لا تفكّر بالوحدة. ولأنك لم تودِّع أَحداً، من البارحة، لم تكترث لظلِّك «إن كان يمشي أمامك أم خلفك». الهواء خفيف، والأرض تبدو صلبة.

وليست تلك، كما قالوا، إحدى صفات المنفى /

هذا هو خريفُكَ الخارج من صيف حارّ، من فصل كونيٍّ الإجهاد، ومن حرب لا تظهر لها نهاية. خريفٌ يُنضِجُ عِنَبَ الجبال العالية المنسيّ. خريف يُعدُّ لاجتماعات كبرى يراجع فيها مجلس الآلهة القدامى مُسَوَّداتِ مصائرَ ما

زالت قيد التأليف، ويختلفون ويتَّفقون على هُدْنَةٍ بين الصيف والشتاء. لكن خريف الشرق قصير، يمر كتلويحة يد سريعة من مسافرٍ على حصانٍ إلى مسافر على حصان في اتجاهين متعاكسين، فلا يعوِّل أَحد على خريف كهذا، على عواصفَ من غبار... وعلى زواج متعة.

أما الخريف هنا، خريف باريس العائدة من إجازتها الكبرى، فهو انكباب الطبيعة التي أَغواها المطر على كتابة أشعارها الباذخة بكل ما أُوتيتْ من مهارةٍ ونبيذ يتخمَّر. خريفٌ طويل طويل كعقد زواج كاثوليكي لا يشي بما فيه من سعادة أو شقاء لعابرٍ مثلك على المشهد. خريفٌ طويلُ البال. عناق إيروسي بين الضوء والظل والأنثى والذكر، وبين سماء تنخفض باحترام على شجر يتعرَّى بكرامة، أمام التباس الغوايات بين قطرات ضوء يُمطر، وبين قطرات ماء يشعّ ويُشْرِق... خريف يتباهى. خريف يتماهى مع أوائل فصول ثلاثة: عُرْي الصيف، وجِماع الشتاء، وفتوة الربيع.

وأَنت، أنت تمشي خفيفاً على سطح هذا النهار الخريفيّ. تنتعش وترتعش وتندهش: «أَفي مثل هذا النهار يموت أَحد؟». ولا تعرف إن كنت تسكن الخريف أم هو الذي

يسكنك، حتى لو تذكرت أنك الآن في خريف العمر، حيث يُتْقِنُ العقلُ والقلب الإنصات إلى الزمن بتناغمِ التواطؤِ بين المتعة والحكمة. إيقاع نبيل يرفع الجسد إلى مرتبة الانتباه لما ينقص، فيزداد امتلاء بما يفد إليه من جماليات الصحو والغيم. ويستعدُّ، كَمَرْصَدٍ جَوّيّ، لرصد المناخ المناسب لحوار عابر: هذا النهار جميل، أليس كذلك؟ إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا نحتسي القهوة معاً؟ لرائحة القهوة أبواب تفضي إلى سفر آخر: إلى صداقة، أو حب، أو إلى ضياع لا يؤلم... فتنتقل القهوةُ من الاستعارة إلى الملموس.

إيقاع سريّ يقود التجربة إلى ذهاب أَقصى... إلى لقاء بين خريف يتنزَّه في الساحات مع الجميع، مع الناس والحمام، وبين خريفك الخاص بك، خريفك الجوَّاني. وتتساءل كما تساءل غيرك: «هل نحن ما نصنع بالزمن، أم نحن ما يصنع الزمن بنا؟». لا تعنيك حيرةُ الإجابة قدر ما يعنيك تخفيف السرعة. لا تريد لهذا الخريف أن ينتهي، كما لا تريد للقصيدة أن تمتلىء فتنتهي. لا تريد بلوغ الشتاء. فليكن الخريف أبديتك الخصوصيَّة.

وليست تلك، كما يقولون، إحدى صفات المنفى! /

ليس المنفى سفراً، ذهاباً وإياباً، وليس إقامة في حنين. فقد يكون زيارة، وانتظاراً لما يفعل بك الزمن، وخروجاً من الذات إلى غيرها للتعارف والتآلف أو لعودة الذات إلى الصَدَفَة. لكلٍّ منفى طبيعةٌ ولكل منفيّ طبائع. في المنفى تدريب على التأمُّل في ما ليس لك، وإعجاب بما ليس لك. فالمنفى يهذِّب الجسد، يفتنك جمال الشكل، ولو كان المعنى ناقصاً، فالكمال هو وعي النقصان. تماثيل تمجِّد الماضي وتماثيل تتوثب للقفز عن عاطفة الهوية إلى هوية العاطفة، وتماثيل تحرِّر الغد من الجماليات وتحرِّر الطبيعة من نظام المخيلة الصارم. الجمال هو الغُلُوّ. لكنك تنحاز، لأنك ريفيُّ التكوين، إلى الأشجار التي تنعكس في ماء النهر، وإلى الحمام البر ــ جَوّيّ، وتتوقف طويلاً عند سوسنة نبتت، وحدها، خارج الأحواض... لا لأنها مثلك غريبة بين الأزهار، بل لأنها تعتمد على نفسها في نموّ بلا رعاية. ألمنفى سفر الشاعر في قصيدة، سفر داخل السفر، لكن اللغة المجازية تتلفت إلى الوراء.

والنظر إلى الوراء، يقولون، صفةٌ من صفات المنفى /

إلى أَين أَعود؟ تساءلتَ وأنت تعلِّق لوحاتٍ على جدران عنوانك الجديد، وإلى أَين أذهب؟ كان الأمام مؤقتاً.

وكان الوراء الطاعن في المؤقت مُشَتَّتاً. وكانت الأبدية الطالعة مع الضوء من الحديقة تقهقه. مازَحْتَها قائلاً: أنتِ أَيضاً منفى. وتساءلت: كم من مساميرَ دَقَقْتَ على جدران بيوت أخرى؟ وكم من لوحات عَلَّقْتَ، وكم من أسرَّة هجرت لينام عليها غيرك، وكم من مُسَوَّدَاتٍ ومطالعَ نسيتَ في أدراج أخرى، وكم من صور نساء ضاعت في طيات كتب لم تقرأها. وكم مرة قلت: كم مرة أسافر، أو أهاجر، أو أرحل؟ دون أن يتضح الفارق في مصيرك بين السفر والهجرة والرحيل، من كثرة ما تتسع المفردات لوهم المترادفات، ومن فرط ما تتعرض الاستعارة للتحولات: من «وطني ليس حقيبة» إلى «وطني حقيبة».

وفي المنفى تختار حيزاً لترويض العادة، حيِّزاً خصوصياً ليومياتك، فتكتب: ليس المكان هو الفخ / في وسعنا أن نقول: لنا شارع جانبيٌّ هنا / وبريد / وبائع خبز / ومغسلة للثياب / وحانوت تبغ / وركن صغير / ورائحة تتذكَّرُ...

المدن رائحة: عكا رائحةُ اليود البحري والبهارات. حيفا رائحة الصنوبر والشراشف المجعلكة. موسكو رائحة الفودكا على الثلج. القاهرة رائحة المانجو والزنجبيل. بيروت

رائحة الشمس والبحر والدخان والليمون. باريس رائحة الخبز الطازج والأجبان ومشتقات الفتنة. دمشق رائحة الياسمين والفواكه المجففة. تونس رائحة مسك الليل والملح. الرباط رائحة الحناء والبخور والعسل. وكل مدينة لا تُعْرَفُ من رائحتها لا يُعَوَّل على ذكراها. وللمنافي رائحة مشتركة هي رائحة الحنين إلى ما عداها... رائحة تتذكر رائحة أخرى. رائحة متقطعة الأنفاس، عاطفيَّة تقودك كخارطة سياحية كثيرة الاستعمال إلى رائحة المكان الأول. الرائحة ذاكرةٌ وغروب شمس. والغروب هنا توبيخ الجمال للغريب.

وليس حُبُّ الغروب، كما يقولون، صفةً من صفات المنفى /

تُدْخِلُكَ الذاكرة، وهي متحفك الشخصيّ، في محتويات الضائع... في حقل سمسم وحوض خسّ ونعناع... وفي قرص شمس يتهاوى في دخول البحر. يكبر الضائع فيك، ويكبر في هذا الغروب الذي يضفي على البعيد صفات الفردوسِ، ويُنَقِّيه من كل سوء. فكل ما هو مفقود معبود. وهو ليس كذلك!

جُرَّ المكان إذاً برسَن العبارة، واحمله كما تحمل اسمك،

لا ظلَّك، في خيالك لا في حقيبة. الكلمات هي وحدها الـمُؤَهَّلَةُ في هذا الغروب لترميم ما انكسر من زمان ومكان، ولتسمية آلهة غفلت عنك وخاضت حروبها بأسلحة بدائية. الكلمات هي المواد الأولية لبناء بيت. الكلمات وطن!

ضع قمراً على كل صفصافة، وفتاةً على كل نافذة، وغزالاً على كل نبع. وَدَعِ القصيدةَ تبني الجهة الجنوبية من العدم. إن أوجعك المنفى ولم يقتلك أرجعك إلى مهد الخيال وقوَّاك وساواك بمن يسهرون على تدجين الغامض. والمنفى، وهو سوء تفاهم بين الوجود والحدود، هو جسرٌ لعبور الحساسية بين الصور، وهو اختبار لقدرة النرجس على الزهو والتواضع معاً، ومناظرة المختلف للمختلف، ومُجَانَبَةُ الشبيه للشبيه. فليس كل ما ينبذك هنا يحتضنك هناك. وليس كل ما تشبهه هناك يحتضنك هنا. فدع للخيال ما للخيال: حرية الكلمات في إِطاعة العواطف.

لكن إعلان العاطفة ـ يقولون ـ ليس من صفات المنفى /

فلتصقل المسافة بكفاءة المحترف الماهر، لا بهشاشة المشتاق الحائر، فليس شعر المنفى ما يقول لك المنفى، بل ما تقول

له أَنت، ندّاً لندّ. المنفى هو أيضاً مضياف الاختلاف والائتلاف. فلتصنع نفسك من نفسك. ولا تنس أن تشكر المنفى بشهامة: سأمدحك، أيها المنفى، حيث يليق بك المديح. هناك... تحت شجرة التين التي تستضيفني، عند بيت أمي، عابراً في خريف عابر!

XI

عاديٌّ يومك. الغيم رماديٌّ يهمل ما تقرأ عليه وما تكتب من خواطر، ويكمل جملةً موسيقية بعيدة بعيدة في مكان ما وزمان ما. تشعل الضوء صباحاً لترى القاموس الذي تفتحه عشوائياً على كلمة ما تُجْرِي عليها تدريبك الذهنيّ. ويفرحك أن تعرف أنك لا تعرف. تصحِّح أخطاءك اللغوية، والماء يغلي في المطبخ. تضع القاموس جانباً، وتمشي إلى المطبخ. تشرب كأساً من عصير البرتقال البارد. يُنعشك السكريُّ الحامض، وتحس بتيّار عافية يسري في العضلات وفي المعنويات. تصنع قهوتك طبقاً لتقاليدك الصارمة، ولتعاليم ديك الهال. تعود إلى القاموس وتحفظ أبياتاً من الشعر مصاحبة لتنوع استخدام

الكلمة. تتجه نحو الباب فلا ينفتح. تنسى أنك قد سحبت المفتاح من القفل ووضعته على الطاولة. فأنت تفعل ذلك منذ فترة طويلة، منذ مات صاحبك في غرفة مغلقة: تبقي القفل جاهزاً لاستقبال مفتاح آخر تحتفظ به مُدبِّرة المنزل التي تأتي في منتصف النهار. فقد تموت ولا ينفتح الباب، فتبقى أنت والموت وحيدين في الداخل. يا لها من خاطرة خبيثة: تريد أن تتزوج من امرأة لا وظيفة لها إلّا إعلان موتك! يا لها من أنانية! ويا له من حُبّ يزفُّ النعي للنعي. تشرب فنجان قهوة آخر. ثم تجمع البريد الملقى خلف الباب. تفضّ الرسائل على عجل: فاتورة الهاتف، ضريبة التلفزيون، أجرة الشقة، فاتورة الكهرباء، إعلان عن موسم تنزيلات للسجاد الفارسي، إعلانات عن تخفيض في أسعار السفر إلى جزر نائية، ودعوات إلى مزاد علني لأثاث من عصر لويس الرابع عشر، وإلى معرض مجوهرات. تبتسم: لا شيء يعنيني. ثم تدير زرّ الراديو لتستمع إلى نشرة الأخبار: ثلوج ومنزلقات، ثلوج وإضرابات، ثلوج وموتى من المسنين. لا ثلج في شرق المتوسط، فلا خبر. تغلق الراديو وتمضي إلى الحمّام. تحدِّق إلى وجهك في المرآة: لا جديد سوى ارتفاع السخرية إلى الحاجبين. لا عدوّ أقوى من الزمن، ولا خصم لك أنبل من المرآة. كان الزمن، فيما مضى،

يمضي بطيئاً كنملة. وكنا نستحثّه: عجِّل بنا! فلنا موعد بعد ساعة، فلا تستجيب عقارب الساعة لخرير دمنا الساخن. كان الزمن كسولاً كتلميذ خامل، ثقيلاً كأستاذ. كان يحرِّضنا على التأفُّف من بطء الغد، ولا يمحضنا نظرة إلى الماضي، إذ لم يكن للفُتوَّة ماض بعد. وما أن أتقنَّا قراءة الكتب الصعبة، ودخلنا في التجربة، حتى تحوَّلت حكمةً مطبوخةً في قِدْر الزمن، مطبوخةً كوعل بريّ يحتاج إلى توابل يمنعنا الأطباء من تناولها، فقد تأخَّرْنا عن الوصول إلى الوليمة في موعدها الصحيِّ، ودخلنا في سباق غير متكافىء مع الزمن الذي يقود مركبته الفضائية بأقصى سرعة. وصرنا نستمهله: أيها الزمن انتظرنا! فلنا موعد بعد شهر، فلا تسرع... لا وقت كافياً لنا لانتقاء الكلمات اللائقة بالمرأة الناضجة ولحجز مقعدين في الأوبرا، والتأكد من أنَّ أَحداً لن يُقْتَلَ نيابةً عنا، من فرط الشبه بين المارة على الليل، ولا وقت كافياً لنا لمراجعة ضرورية لأسماء العاطفة في موسوعة المترادفات. ونقول للزمن أيضاً: لا تلتهمنا قبل أن نعبر النهر وننظر من الضفة الثانية إلى المقاعد الخشبية التي تركناها خلفنا، على الضفة الأولى، نظيفةً لاستقبال عشاق آخرين سينظرون إلينا ونحن ننظر إليهم قائلين: كانوا مثلنا، فهل نصير مثلهم. تحدِّق إلى وجهك في

المرآة. تضع عليه رغوة الصابون وتشرع في الحلاقة. تبدأ من الجانب الأيسر، من أسفل السالف نزولاً إلى الذقن، ثم من تحت إلى فوق. تفتح حنفية الماء الساخن لتنظيف ماكنة الحلاقة، وتباشر العملية ذاتها في الجانب الأيمن. تواجه صعوبة في حلاقة العَنْفَقَة والسامِغَيْن. وكالعادة تسيل قطرات من الدم، فتضغط على الجرح الصغير بإبهامك، ثم تنظر إلى المرآة برضا مَنْ يتناسى مخاتلة الزمن. تتعرَّى، تغطس في حوض الماء الساخن، تداعب فقاعات الصابون والرغوة الملونة كقوس قزح ذائب. تفرك أعضاءك عضواً عضواً بعناية فائقة، كأنك أمّ تُحمِّم طفلها. ويحلو لك أن تغنّي، فينقِّحُ الصدى نشاز اللحن وتطرب... وتعجب من ارتباط الماء بالغناء، صوت الماء إيقاع. ولعلَّ الموسيقى هي انتظام قطرات الماء في روح تتجلَّى بيد العازف على آلات مصنوعة من مادة مائية عاطفية. تدلف إلى غرفة النوم. تفتح خزانة الثياب. ترتدي ملابسك الداخلية البيضاء، ثم قميصاً أزرق وبنطلوناً كحلياً وجوربين كحليين [لا تميّز بين الكحلي والأسود] وتنتعل حذاء أَنيقاً أسود [الأناقة تبدأ من الحذاء]، وتمضي إلى موعدك الصباحي... إلى الغامض، إلى الهواية التي صارت حرفة، والحرفة التي ظلَّت هواية. فنجان القهوة على يسار المكتب، وعلبة الأقلام على يمينه قرب دواة

الحبر الأسود. وفي الوسط أوراق بيضاء ملأى بكتابة بيضاء. تناديك وتناديها، وفيها ما فيها من ذاكرة السابقين المتخفّية. وأنت وحدك بلا معين وبلا ضمان، تحاول أن تعثر على سطرك الخاص بك في هذا الزحام الأبيض الممتد ما بين الكتابة والكلام. لم تعد تسأل: ماذا أكتب، بل كيف أكتب؟ تستدعي حلماً فيفرُّ من الصورة، وتناشد معنى فيضيق به الإيقاع. وفي ظنك أنك قد تخطَّيتَ العتبة الفاصلة بين الأفق والهاوية، وتدرَّبت على فتح الاستعارة لغياب يحضر ولحضور يغيب بتلقائية تبدو مطيعة. وتعرف أن المعنى في الشعر يتكوّن من حركة المعنى في إيقاع يتطلع فيه النثر إلى رعوية الشعر، ويتطلع فيه الشعر إلى أرستقراطية النثر. «خذني إلى ما لستُ أعرف من صفات النهر.. خذني». جملة موسيقية كهذه تشق طريقها في مجرى الكلام، جنيناً يتكون، ويكوِّن ملامح صوت ووعداً بقصيدة. لكنها في حاجة إلى فكر يقودها وتقوده في مناخ الإمكانيات المفتوحة، وإلى أرض تحملها وإلى قلق وجودي وإلى تاريخ أو أسطورة. ألسطر الأول هو ما سمّاه الحائرون، إزاء مصدره، الإلهامَ أو الإشراق. والباقي عليك وحدك. عليك أن تجد الباقي وعناصر البناء الكفيلة بصب الشعر، شعر الحياة، في نظام القصيدة. فمنذ هبط عليك السطر الأول أصبحت أنت

الصانع الماهر والشاعر إن حالفك الحظ وأدركت الخطأ. أليس الشعر محاولة ما لإصلاح خطأ؟ تترك المكتب مطمئناً إلى أن صباح الغد سيوفر لك عملاً ما دام السطر الأول في انتظارك. تتناول وجبة الغداء مع كأس النبيذ، على وقع جيتارات جُنَّت على طريق الأندلس. ويعجبك أَن تظن أن الغيم الرماديَّ ذاكرةُ موسيقى متخفيَّة. تتمدَّد في القيلولة نصف ساعة لا أكثر، نصف ساعة تكسر روتين النهار وتهدّىء دقات القلب. تستيقظ نشيطاً بعدها، وتقضم تفَّاحة أَو أجاصة على عجل، وتذهب إلى موعدك بعد الظهر. تصل دائماً قبل الوقت بعشر دقائق. تختار مقعداً قرب الحائط الزجاجيِّ في مقهى غير مزدحم. تتصفَّح الجرائد التي لا تقرأها في الصباح. تنظر إلى الساحة المزدحمة بالمشاة والطيور الجريئة. تتأمل مشي النساء: منهنَّ مَنْ تمايلت، ومنهن مَنْ تثاقلتْ، ومنهنَّ مَنْ تَهَادَتْ، ومنهنَّ مَنْ تمادت في إيقاظ البرق بين الساق والساق. ثم تتلهَّى بالنظر إلى أشجار الجوز الباسقة السامقة تتشرَّب قطرات الضوء. وتحسُّ بيد تربِّت على كتفك. تعانق صاحبك النحّات الذي يهدِّدك: هذه آخر مرة أرشِّحُكَ فيها للخلود. تضحك من تواضعه ومن الخلود معاً: أَلم أَقل لك إن الخلود عَلَف الحمار المُفَكِّر، وَرِشْوَةٌ يعرضها الماكرُ على تاريخ أمكر؟ يتدخل النادل

وهو يضع فنجان القهوة: الخلود ورقة يانصيب رابحةٌ مات صاحبها قبل إعلان النتيجة بدقائق. يسألك النحّات: لماذا ترفض أن أصنع لك تمثالاً صغيراً تضعه إلى جانب ألبوم الصور. تقول له: ليس عندي ألبوم صور ولا أَرشيف. يسأل بدهش: وإن متّ فأين سيجدونك. تقول: في قبري. يلحّ بالسؤال: لماذا ترفض التمثال؟ تقول: لأني أريد أن أتحرّك .... أن أمدَّ يدي لأكشّ الذباب عن وجهي، وأن أمدّ لساني ساخراً، وأن أُنْزل رِجْلي إلى الشارع. يقول: ثق بي، سأجعل الحركة مرئيَّة. تقول: ولا أُريد أن يكسرني أَحد. أنا من يفعل ذلك. والتمثال غير قادر على النقد الذاتي. يقول لك: أنت إذاً حمار. تقول: كخلودك هذا. تفترقان بمودّة. تعود إلى شُقّتك ماشياً لا على أربع، لأنك لست حماراً. تبحث في التلفزيون عن مباراة كرة قدم، وعن فيلم بالأسود والأبيض، ولا تجد. تنتظر مكالمة من امرأة غضبت منك لأنها اختلفت معك على تعريف الحب. تقرأ حتى منتصف الليل. ثم تضع رأسك على المخدة وتستعرض يومك: هل أسأتُ إلى أحد؟ وتنام على سطرين:

خُذْني إلى ما لَسْتُ أَعرف من صفات النهر، خذني!
خذني إليك ...

XII

تحبُّ النوم ... اليقظةَ المغمى عليها كحالك هذا. ألنوم سيِّد وسلطان. وأَنت، نائماً، سيِّدُ نفسك وسلطانُها. حيٌّ بلا تكاليف حياة. حيّ في موت مجازي مُنْتقىً بعنايةِ ملاك، لتمرين الجسد على زيارة اللامرئيّ بهيئة اللائق باللائق. النائم لا يكبر في النوم، ولا يخاف ولا يسمع أنباء تعصر العلقم في القلب. لكنك تسأل نفسك قبل النوم: ماذا فعلتُ اليوم؟ وتنوس بين أَلم النقد ونقد الألم... وتدريجياً تصفو وتغفو في حضنك الذي يلمّك من أقاصي الأرض، ويضُمُّك كأنك أمُّك. النوم بهجة النسيان العليا. وإذا حلمت، فلأنَّ الذاكرة تذكَّرتْ ما نَسِيَتْ من الغامض.

تنام، وتعلم أنك تنام فيفرحك النوم وتمدح الكسل، صديق النوم والمواهب. ولا يهمُّك أن يُطيل النومُ عمرك، بل يهمك أن يطيل العمرُ نومَك. النوم ضيافة الأبيض على الحواس، وارتيادُ الأزرق أَرضَ المُطْلَقِ بلا مرشدين وكهنة وصوفيين. والنائمون سواسية على الرغم من اختلاف السُرُر والسرائر. لكن اليقظة هي التي تفرِّق بين النائمين، وتجرهم إلى حروبٍ ما قبل النوم وبعدَه. لو نام العالَمُ أكثرَ لصارتِ الفوارقُ أَقلَّ.

وأَنت نائم تعلم أنك نائم فتتوغَّل في النوم، وتنتشي بسحابة دافئة تحتضنك وتحتضنها، طائرين بلا موعد وبلا مقصد غير هذا العناق المجانيِّ. جناحُكَ الأيسر لك وحدك، والأيمن أَيضاً. يوقظُكَ شخيرُكَ ليذكِّركَ بما أَنت فيه من لهفة إلى مزيد من الخفة: أنت نائم. قد تنسى أين أنت ومن أين أتيت ومتى وصلت، فتشعل ضوء المصباح وتعلم أنك في أرض النوم، فتشكر خفَّة الريش المباركة. وتغفو غير آبه بشعاع يتلصَّص عليك من النافذة، وغير آبه بصخب الشارع. فالنوم، معافىً، لا يُصْغِي ولا يُبْصر.

لكنك ترى النوم وتسمعه وتشم روائحه وتذوق نعماه وتلمسه عضواً عضواً، وتنام وتعلم أنك نائم، وأنك موغل

في سفر بلا طرُق وخرائط وعناوين، في نزهة منزّهة عن أية غاية. تغادر العالم، عالم الأشياء والكلمات وما يفرق بينها، ويجمع في ساعات الليل، كأن الليل سرير. وتعجب لمن جعلوا الليل نهاراً والنهار ليلاً. النوم امتلاء الجسد بالطمأنينة والسكينة، وخلوّ الذهن من الرعب والضجر. لا ضجر في النوم ولا خطر. هو حاجة الصحو إلى غيبوبة قريبة من تشبيه الشيء بشبيهه الغائب، وتنبيه المخيلة إلى آثار الوقت السلبية فيها، إن لم نعطِّل الساعة. النوم يوقف الوقت عن العمل. ثماني ساعات، ثماني ساعات نائمة لا أَقلَّ. فإذا نَقَصَتْ لسببٍ ما، كأن يوقظها رنينُ الهاتف أو جرس الباب، كان صَحْوُكَ دائخاً ومشوباً بالكمد. كأنَّ الأرق الذي لم يُصِبْكَ في الليل قد أمسك بتلابيب النهار كلِّه.

كم كُنْتَ تمقت الأرق! لأنه يستعصي على المحاورة، عنيد شديد المراوغة سعيد بقدرته على المناورة. كلما جامَلْتَهُ ازداد ثرثرة واستبسالاً على وهن الجسد العاجز عن شرف المقاومة أو راحةِ الاستسلام، واستعان عليه، ليذلَّهُ، بتسليط الوعي على الحواس. الأرق ضَيْفٌ ثقيل يحلّ عليك بلا موعد. يحرمك من النوم ومن اليقظة معاً. الأرق طنين بعوضة، وصراع خفيّ على لحاف ومخدّة

وركبتين. وأَنت الذي تُقْتَلعُ عُنْوةً من جسدك، وتُعادُ إلى جسدك الأول مُخَدَّراً مُسَهَّداً لا تجد وصفاً لعذاب الخَدَر إذا ما طال وصحا. والنوم، إذا تدخّل الأرق لا يُفاوَض، كالوحي لا يُفاوَض، وكأيّ عضو يأبى الاستجابة لا يُفَاوَض.

تحاول أن تنتشل جسدك العالق بين النعاس واليقظة، فتضغط على زر الضوء بصعوبة. وبصعوبة تفتح كتاباً، وبصعوبة تقرأ، وبسهولة تنسى ما قرأت. تحاول أن تحلم يقظاً، أن تحلم بأنك نائم، فتنام وتعلم أنك نائم... ولا تحلم كثيراً. منذ متى لا تحلم كثيراً؟ منذ وَضَعْتَ قلماً ودفتراً على طرف النوم لتدوِّن أطراف كلام خفيف الوزن خفيف اللحن، يهبط عليك كحبيبات الندى، لا هو شعر ولا هو نثر، لا أَرضيّ ولا سماويّ. لكنه يطير بك وتطير به، فتصفو وتخفّ وتشفّ، وتفنى في معنى لا تفهمه. تستيقظ في الصباح مرحاً فرحاً كأنك تتمّم ما هبط عليك من نداء لا تتذكر منه إلّا الرعشة التي تَمُدُّكَ بطاقةِ إنشاد، فتدرك أن يومك هو امتداد حلمك... فاعرف — قُلْتَ لنفسك — كيف تحلم.

ومنذ نصبت القلم والدفتر شرَكاً لاصطياد الحلم جفل

الحلم من التدوين، ربما لأنه لا يرغب في أن يُكْتَبَ أو يُطْلَبَ عند الحاجة، فلا تنتظِرْهُ كما تنتظر الوحي. سيأتي هو السيِّد كما يأتي الحب بلا استئذان. سيأتي هو السيِّد، حين لا تنتظره، شفّافاً لتعرف أنك نائم لا ميت. وقد يأخذ بيدك كي تمشي معه في جولة تتفقَّد فيها آثار نفسك المنسية على أرض بعيدة. تقول: أنا هو، وهو الظلّ... وتركض في ذكراك. وحين يراك الحلم على وشك الانتباه إلى خارطة الذاكرة يعيرك أحد جناحيه، ويقلع بك إلى بساتين برتقال مُعَلَّقةٍ فوق الغيوم، وإلى طيور لا تعرفها، لكنها تخاطبك بمنطقها الذي تفهمه دون مكابدة... فتولد من ذاتك ذاتٌ أخرى أعلى، وتحتضن الكون ويحتضنك الكون، فَيَصير داخِلُك خارجَك، وخارجُك داخلَك. وتقول: أنا هو أنا!

تصحو في الصباح مُبلَّلاً بندى يرشح من عناق الليل والنهار، وتسير إلى الغد الذي فتحه لك الحلم بكلمات مبهمة، تأخذك إلى أعلى وأَبعد من هذا القاع. فاذهب معها... مع الكلمات، والعب بها لعبة البراءة والقَصْد. واكتب بها ما فاتك من أسماء، وتوقاً إلى طيران يجعل الأرض أكثر استدارة، تُفَّاحةً تسقط إلى فوق، وتدور على نفسها ويدور الزمان معها، فليس كل ما كان سيكون،

وليس كل ما سيكون كان. فلا تثريب عليك إذا حدث خلل طارئ في هبوط الحلم عليك. فهو مثلي ومثلك يصاب بالحُمَّى، فيهذي مثلنا بكلمات تحتكّ بكلمات لا تنتج عبارة، ويتواصل اللامعنى مع ارتفاع الحرارة.

ويأخذك الكابوسُ إلى مرتفع يُطِلُّ على مرتفعٍ بينهما هاوية لا يبلغ البصر قرارها. تحاول القفز من المرتفع إلى المرتفع فتسقط في الهاوية وتصحو على صراخك المبلَّل بالعرق. ويأخذك الكابوس إلى احتفال رسمي. وحين تصعد إلى المنصة تجد نفسك حافياً عارياً دون أن تتمكّن من النزول عن المنصة. ويأخذك الكابوس إلى امتحان في قواعد اللغة الصينية. لكنه لم يأخذك مرة واحدة إلى موت أكيد وإلى زواج طويل.

لكنك تحبُّ النوم. وتُحَيِّي هيبنوس، إلٰه النوم الإغريقي، وتنسى أَنه شقيق الموت. تحبُّ النوم... اليقظة المغمى عليها كحالك هذا، دون أن تعلم أن نومك هذا قد زاد عن حدِّه. ودون أن تعلم، هذه المرة، أنك نائم!

طال نومُكَ، فانهضْ وحُلْمَكَ، وآروِ لنا ما رأيت /

هل رأيت ملائكةً يعزفون على الناي ألحان موزارت / ولا يسكرون من الخمر؟ /

هل دَلَّلوك وهل أطعموك من العنب السُكَّريّ؟ /

وهل أخذوك إلى نزهة في ضواحي البساتين؟ /

هل كُنْتَ تشبههم عندما أنزلوك إلى النهر، طفلاً، كما كنت أيَّام رفقتهم؟ /

مَنْ تغيَّر منكم هناك، ومن قال: يا صاحبي في الطفولة؟ /

هل يشبه التينُ تينَ سياجك؟ /

هل يشبه الحُلْمُ، حلمك، أشياءَ بيضاء، خضراء، زرقاء تعرفها؟ /

طال نومك، فانهض وحُلْمَك، واروِ لنا ما رأيت؟

«هل الموتُ نومٌ طويلٌ، أم النوم موت قصير؟» تأخرت في النوم... فانهضْ!

XIII

في نوملكَ هذا ذكرى نومٍ آخر أَحملها الآن بدلاً منك: اخترقَ خنجرٌ صدرَك، فصرختَ: في أيِّ قلبٍ أُصبتُ؟ لم تسمع أَحداً يذكِّرك بأن لك قلباً واحداً، فقد أُغمي عليك في ليل ڤيينا البارد. وعشتَ، لأن يداً إلٰهيَّةً أَسْعَفَتْكَ. فلماذا لا تنهض الآن وتسألني: في أَيِّ قلب أُصبت! فأكذب عليك: من القلب المحفور على جذع شجرة!

نومٌ أبيض. نومٌ باهرٌ كان يحملك كريشة على غيوم بيضاء... تخرج من جسدك وتسبح ذرَّةً من ذرات الكون. تخرج من نفسك ولا تدخل في شكل. تسبح

كما لو كنت تطير، وتطير كما لو كُنْتَ تسبح... خفيفاً شفيفاً كأنَّك روحُك، خالياً من الماضي وخاوياً من الحاضر، مُفْرَغاً من الزمن والعاطفة. فلا أنت شيء ولا أَنت لا شيء. لكنك ترى كما لم تَرَ من قبل. ترى الضوءَ أَبيضَ والغيمَ أَبيضَ والهواءَ أَبيضَ. ولا تسأل أَين أنت. لا أَحد حولك ولا تريد أَن تعرف إلى أَين تطير ولا تخاف الطيران. كأنك صِفَةٌ من صفات المسرَّة الكبرى منثورٌ على قطن الراحة الأبدية. لا تخشى السقوط من علٍ، ولا تخشى الصعود إلى أَعلى، فلا انخفاض ولا عُلُوّ في اللامكان الدائريّ هذا. لا تُشبه نجمةً خرجت عن مسارها وظلَّت تدور في المجرَّة. ولا تتذكر متى خرجت من جسدك لأنك لا تتذكر أنك كنت في جسد. اجْتَزْتَ نفقاً ضيِّقاً نقَّطك كقطرة ماء، في الأفق. هكذا خُلِقْتَ قبلك في هذا الفضاء الأبيض المنعش. وعُدْتَ إلى أوَّلك. تنام ولا تعلم أنك نائم ولا تحلم، كأن الحلم هو اختراع المحرومين من السكنى في مثل هذه السماء. كأنك روحُكَ وقد أُعْتقتْ من أَسر الزمن والشكل، وهامت وحامت وقامت إلى لا مستقرّ.

ثم صرخت، صرختَ فجأة حين عُدْتَ إلى جسد مربوط بأسلاكٍ وأَجهزة في غرفة رمادية. أَين أَنا؟ سألتَ، فنهَوك

عن الكلام. وعلمت فيما بعد أَن صرخة الألم كانت دليلَ عودتك إلى الحياة التي تبدأ وتنتهي بصرخة. وسألت: أَين كنتُ إذاً؟ فقيل لك إن الموت قد اختطفك لمدة دقيقة ونصف الدقيقة، وأن صدمة كهربائية قد أَعادتك إلى الحياة. وفكرت: هل كان الموت جميلاً ومريحاً إلى هذا الحدّ؟ لا. ليس هذا موتاً. إنه حياة من نوع آخر. إنه نوم مُعافىً. نوم كُلّيٌّ الهناءة. وأدركت ما لم تدرك من قبل: أدركت أن الموت لا يوجع الموتى، بل يوجع الأحياء. وفي غرفة العناية الفائقة أذن لنا الأطباء بأن نحتفل بعيد ميلادك.

فاصرُخْ، يا صاحبي، لأعرف أنك حيّ. واسألني لأكذب عليك: أنا حيّ مثلك. ناجٍ من حادثةِ حياةٍ يذكّرنا الموت بمعناها فنحياها بفرح الذاهبين إلى نزهة... وينساها الموتُ فنحياها كما لو كانت غزواً بلا نهاية. وأَنا مثلك على هذا البرزخ: أَصرخ لأعرف أني حيّ. لكنك لا تصرخ مثلي لأعرف أنك حيّ. طالت خطبتي ولم تنهض. وعليَّ أن أنهي خطبتي لألتحق بما يُمْليه عليَّ الموتُ من واجب العزاء بمن ماتوا في هذه الساعات .... ولألتحق بما تُمْليه عليَّ الحياةُ من واجب التهنئة بمن وُلدوا في هذه الساعات. الصرخة هي الصرخة في البابين: باب الدخول،

وباب الخروج. أَمَّا العَدَم، فإنه يكتفي ببلاغة الوعيد من بعيد.

ومن بعيد تجيء القصائد. أشبهُكَ ولا أكونُكَ. وأكونُكَ ولا أشبهُكَ.

وفي نومك هذا ذكرى نوم آخر، أحملها الآن نيابة عنك. قال لنا الطبيب: ابدأوا منذ اليوم بإعداد الجنازة. لم نصدِّق، فلم نسأل: أين؟ لأنك لم تترك وصية. كانت باريس وضواحيها في هيجان الربيع. وكان الرذاذ يختلط بدموعنا. أَلم نحتفل قبل أُسبوع هنا بعيد ميلادك، حيث قُلْتَ لنا مازحاً: لعلَّه الأخير؟ ثم دخلت إلى غرفة العمليات بحماسة لم نفهمها.

تهذي. تضرب الهواء والأسلاك الطبية بيديك ورجليك، وتهذي. قيّدوك وخدروك ونوَّموا الثور الهائج فيك، وظللت تهذي.

سردابٌ كقاع بئر مهجورة. تصرخ ولا تسمع صراخك. تختنق بدخان ينشره خَلَلٌ ما في جهاز التنفس. لكنك تراه وتشمه وتختنق. يربطك مُمَرِّضان إلى صخرة وينهالان عليك ضرباً. ثم تنقلك حافلةٌ بلا سائق إلى زنزانة. تصرخ

ولا تسمع صراخك. ترى إلى نفسك تمشي عارياً في الشارع. تحاول أن تغطّي عورتك بيدك فتسقط منك يدك. يتناولها أَحد الصبية ويرميك بها ضاحكاً: أَبي مجنون. تصرخ ولا يخرج منك صراخك. يسقط في رئتيك كالحجر. تنزع أَحد الأجهزة الطبية، فيرنّ جرس الإنذار. يأتيك السَّجَّانُ بهراوة غليظة. تحاول أن تقول له شيئاً، فلا يخرج منك صوتك. تشير بأصابعك إلى أنك تريد ورقة وقلماً. تكتب: فقدتُ لغتي!

حين تصحو من الهلوسة وتهدأ، تعلم أنك في المستشفى، فتسأل: متى يجرون العملية الجراحية؟ يقولون لك إنها تمَّت منذ أسبوع. تواصل قراءة «باب الشمس». يزورك مؤلف الرواية وتناقشه في بعض التفاصيل وأنت صافي الذهن. وفي نهاية الزيارة تهمس له: بعد قليل، حين يتلهَّى الـحُرَّاس، خذني معك! هَرِّبني من هذا السجن! لا تفهم لماذا تدمع عيناه، وما إن يودِّعك ويخرج حتى تسقط ثانيةً في قاع البئر المهجورة، وتصرخ: أَخرجوني! فينهال عليك السجانون ضرباً إلى أن يُغْمى عليك.

كلما عادَكَ زائر بَدَوْتَ هادئاً في البداية. وفي نهاية الزيارة تروي قصة تعذيبك وتطلب منه التواطؤ على عملية

التهريب. لم تعرف أنك في صراع مع الموت. بل كنت تحسب أنك في صراع على الحرية ... حتى ظَنّت ليلى، ملاكك الحارس وأصدقاؤك نبيل وصبحي والياس وفاروق، أنَك قد أُصبت بالجنون، فاتصلتْ بالطبيب في ساعة متأخرة من الليل لتسأله إن كنت قد جُنِنْتَ حقاً. فَطَمْأَنَها إلى أَنَّ ما تراه هو هلوسةٌ ناتجة عن جرعات التخدير العالية قائلاً: إن لا وعيه هو الذي يقاوم الموت. ولكن استعدّوا لما هو أَسوأ! وفكرتَ فيما بعد: أيهما أسوأ، أن ينتصر عليك الموت فتطير في رحلة البياض؟ أم أن تنتصر على الموت بالجنون فتسير في شوارع الفضيحة؟

ورأيتَ الفأر الذي امترق من أمامك قبل عام، واختبأ في غرفة النوم. بحثتَ عنه في كل زاوية ومعطف وحذاء ودُرجٍ ولم تجده، فنمت في غرفة أخرى. وحين فتحتَ حقيبة الملابس في مدينة أخرى رأيتَهُ يقفز من الحقيبة ويختبيء في ما يشبه الهوس، فطلبت من إدارة الفندق استبدال الغرفة بغيرها. وحين عُدْتَ من السفر وفتحتَ الحقيبة رأيتَهُ يقفز ساخراً منك ويختبيء في المراوغة. هل يطاردك الفأر أم تطارده؟ هل هو فأر أم وسواس؟ هل تخافه أم يخافك؟. سرداب كقاع بئر مهجورة. وفأر يقفز من هذيان حُرّ إلى هذيان حُرّ. وأنتَ مشدود إلى صخرة

كصرخة مُكمَّمة: ليتني كنت هناك، في ذاك الموت الأول، غيمةً بين الغيوم. ولم يسمعك أَحد سواي.

ورأيتَ الشعراء ينصبون الفخاخ لصيد الحجل.

ورأيت الشهداء واقفين، كلٌّ على نجمته، سعداء بما قدَّموا للموتى الأحياء من أَمل.

ورأيتَ رأيتَ رأيت بلاداً يلبسها الشهداء ويرتفعون بها أَعلى منها / وَحْياً وحياً. ويعودون بها خضراءَ وزرقاء / وقاسيةً في تربية سلالتهم: موتوا لأعيش! / فلا يعتذرون ولا يَنْسَوْن وصاياهم لسلالتهم: أَنتم غَدُنا، فاحْيَوْا كي نحيا فيكم! / وأَحِبُّوا زهر الرُمّان / وزهر الليمون /. وصُبُّوا خمرتنا في عيد الحب /! فلم نجد الوقت لنشربها معكم /. عفواً! لم نجد الوقت /. فلا تَنْسَوْا أَنتم أن تجدوا الوقت لتحتفلوا بالحب /، وتنتقموا بالحب لنا ولكم! /

تصغي إليهم إصغاء المديح للإيقاع. فتقع الجرَّةُ من يد الموت وتنكسر. تلمّ الشظايا حرفاً حرفاً وتركِّب الاسم وتنطق. وتدرك ــ حين تراهم يحملون أقواس قزح بخفّة الصاعدين إلى أعلى ــ أن البطولة أَبسط من وصفها. وأن ثمة مشاريع وراءهم ــ أَمامك تتحرَّق لاشتقاق المعنى من

العبث. وتدرك، حين تسمعهم يُرَتِّلون ما لا تفهم، أن الموت مجاز غامض أمام كثافة الوضوح في هذا الممر الطويل. فتنهض من سريرك واثقاً من عافية الروح... وتزحف. تزحف على يديك ورجليك إلى الحمَّام، معتمداً على نفسك. وحين تسمع صوت الماء يخرخر في دورة المياه تعلم أنك حيّ. وتعيد الكَرَّة، لتسمع صوت الماء. الماء الماء الماء.

ألا تسمع صوت الماء الآن. إنها تمطر!

XIV

ألحنينُ مسامرةُ الغائب للغائب، والتفات البعيد إلى البعيد. الحنين عَطَشُ النبع إلى حاملات الجرار، والعكس أيضاً صحيح. الحنين يجرّ المسافة وراءً وراءً، كأنَّ التطلُّعَ إلى أمام، وقد سُمِّيَ أَملاً، خاطرةٌ شعرية ومغامرة. فعل المضارع حائر متردِّد، وفعل الماضي الناقص معلَّقٌ على سَرْوَةٍ وَقَفتْ خلف تلَّة، على ساقها الراسخة، والتفّت بأخضرها الداكن، وأرهفت السمع إلى صوت واحد: صوت الريح. الحنين هو صوت الريح.

وكلما توغَّلْتَ في وحدتك، كتلك الشجرة، أَخذك الحنين برفق أمومي إلى بلده المصنوع من موادَّ شفّافةٍ هشّة،

فللحنين بلد وعائلة وذوق رفيع في تصفيف الأزهار البرية. وله زمن منتقىً برعاية إلهية، زمن أسطوريّ هادىء يَنْضجُ فيه التين على مهل، وينام فيه الظَّبْيُ إلى جانب الذئب في خيال الولد الذي لم يشاهد مذبحة. ويطوف بك الحنين، كدليل جنة سياحي، في أنحاء بلاده، ويصعد بك إلى جبل كنت تأوي إليه وتتمرَّغُ في النباتات البرية، حتى تتشرَّب مسامُّ جلدك برائحة المريمية. الحنين هو الرائحة.

وللحنين فصل مُدلّل هو الشتاء. يُولَدُ من قطرات الماء الأولى على عشب يابس، فيصعِّد زفرات استغاثة أُنثوية، عطشى إلى البلل. وَعْدٌ بزفاف كونيّ هو المطر. وَعْدٌ بانفتاح المُغْلَق على جوهر، وحلولُ المطلق في ماهيّاتٍ... هو المطر.

كم من سنديانة هناك تَشْرَئِبُّ إلى اثنين: أنتَ وهي، تركضان تحت المطر، بلا مظلّة وبلا قُبَّعة، سعيدين بفضيحةٍ شريفة، سعيدين بنصف عُرْي. تركضان ولا تعرفان إلى أين، متحرّرين من الطريق ومن الهدف. تلهثان معاً من تعب لذيذ السبب. وتندسَّان في جوف سنديانة ضيِّق لا يتسع إلّا لواحد. فتلتصق بك وتلتصق بها حتى تصيرا اثنين في واحد. وتَعْتَصِرُكَ وتعتصرها فيسخن الماءُ

عليكما وفيكما وتلهثان من الدفء، ولا تحتاج الشهوة إلى ذريعة المطر الذي أدخلكما إلى مخدع السنديانة وانصرف. الحنين هو اختلاط النار في الماء.

وللحُمَّى صفةٌ أخرى هي الحنين. في كل شتاء يوجعك فرح غائب، وتمشي تحت المطر واحداً في اثنين: أنتَ ومن كُنْتَهُ في شتاء آخر، فَتُفَتْفِتُ إلى نفسك كلاماً لا تفهمه لعجز الذاكرة عن استعادة العاطفة السالفة، ولقدرة الحنين على إضفاء ما لم يكن على ما كان، كأنْ تصبح الشجرة غابة، والحجر حجلة، وكأنْ تكون سعيداً في زنزانة تراها أَوسع من حديقة عامة، وكأنْ يكون الماضي واقفاً في انتظارك غداً ككلب وفيّ. الحنين يكذب ولا يتعب من الكذب لأنه يكذب بصدق. كذب الحنين مهنة. والحنين شاعر محبط يعيد كتابة القصيدة الواحدة مئات المرات. وعجوز ما زال يحبو لأنه نسي حركة الزمن وتحاشى النظر في المرآة. الحنين هو التزوير البريء للوثائق لحماية مرجعية المنفيّ من الصدأ. وهو الكِلْسُ الضروري لتلميع البيوت المهجورة.

لكن أحداً لا يحنّ إلى وجع أَو هلع وجنازة. الحنين هو اختصاص الذاكرة في تجميل ما احتجب من المشهد،

وترميم شُبَّاك سقط دون أن يصل سقوطه إلى الشارع. والحنين قَصَاصُ المنفى من المنفيّ، وخجل المنفيّ من الإعجاب بموسيقى منفى وحدائق ... فأنْ تحنَّ يعني أن لا تغتبط بشيء، هنا، إلّا على استحياء. لو كنتُ هناك ــ تقول ــ لو كنتُ هناك لكانت ضحكتي أعلى وكلامي أوضح. فالحنين هو توق الكلمات إلى حيِّزها الأول حتى لو كانت غامضة وغريبة عن الجماعة. لكنني ــ تقول لنفسك ــ أوثر الاغتراب في المنفى على الاغتراب في البيت، ففي المنفى ما يوجب ذلك.

لذلك تحنُّ في الزحام إلى نفسك، إلى خلوة للكتابة. الكتابة اقتراب واغتراب يتبادلان الماضي والحاضر. ظمأ الكلمات إلى ماء يلمع في سراب الأسطورة، وانقلاب التشبيه على المُشَبَّه، وتمويه الواقع بالصورة، بيديْ الحنين الحريريَّتَيـنْ تروِّض المسافة ... إذ تسقف سماءك بكواكب مستعارة، وتمضي مع امرأة أخرى، حقيقيّة، إلى غرفة دافئة، معافىً من أسباب الـحُمَّى، ومن أنين متقطّع لا يكتمل. فلصوت المطر على الزجاج هياج الرغبة. ليس أكثر من هذا ليبزغ الضوء من ليل الجسد: سريرُكِ سرُّكِ / ماضيكِ يأتي غدا / على نجمةٍ لا تصيب الندى / بأذى. تلقي برأسك على ركبتيها لتستمع إلى ما يقول الجسد

الخالي من الحنين، فقد خُلِقَتْ حوّاءُ للتوِّ، وللتوِّ ولدتَ بلا ذاكرة. أنتِ غدي وحاضري ولا أمس لي ــ تقول لها. وتقول لك: أنتَ غدي وحاضري ولا أمس لي. تنامان اثنين في واحد، ولا تحلمان بما هو أكثر من هذا. لم يسأل أحد منكما الآخر عن معنى الاسم، من شدَّة ما كان مجهولكما الشهيّ عاكفاً على تأجيج الفتنة. تفتنك وتفتنها. وبعد أن تمتلكها وتمتلكك، وتمتلىء بها وتمتلىء بك، يناديك ما يناديها من أقاليم البعيد، فتحنّ هي إلى ماضيها خلف الباب، وإلى أُغنية غير أُغنيتك /

ألحنينُ إلى البداية، إلى الطريقة التي تمَّ بها إيلاج المفتاح في قفل الباب. وإخفاء النظرة عن غايتها. واختيار المقعد وموسيقى الليل بعفوية مُتَمَرِّسة ــ هو التمرين العاطفيّ على جسِّ نبض الكون. وهو، أي ذاك الحنين، استرجاعٌ للفصل الأجمل في الحكاية: الفصل الأول المُرْتَجَل بكفاءة البديهة.

هكذا يُولَدُ الحنين من كل حادثة جميلة، ولا يُولَدُ من جرح. فليس الحنين ذكرى، بل هو ما ينتقى من متحف الذاكرة. الحنين انتقائيٌّ كبستاني ماهر، وهو تكرار للذكرى وقد صُفِّيتْ من الشوائب. وللحنين أعراضٌ

جانبيَّة من بينها: إدمانُ الخيال النظرَ إلى الوراء، والحَرَجُ من رفع الكلفة مع الممكن، والإفراط في تحويل الحاضر إلى ماض، حتى في الحبِّ: تعالي معي لنصنع الليلة ماضياً مشتركاً ــ يقول المريض بالحنين. سآتي مَعَكَ لنصنع غداً مشتركاً ــ تقول المصابة بالحبّ. هي لا تحبُّ الماضي وتريد نسيان الحرب التي انتهت. وهو يخاف الغد لأن الحرب لم تنته، ولأنه لا يريد أن يكبر أكثر.

الحنين ندبة في القلب، وبصمة بلد على جسد. لكن لا أحد يحنُّ إلى جرحه، لا أحد يحن إلى وجع أو كابوس، بل يحنُّ إلى ما قبله، إلى زمن لا ألم فيه سوى ألم الملذات الأولى التي تذوّب الوقت كقطعة سكّر في فنجان شاي، إلى زمن فردوسيّ الصورة. والحنين نداء الناي للناي لترميم الجهة التي كسرتها حوافرُ الخيل في حملة عسكرية. هو المرض المتقطِّع الذي لا يُعْدِي ولا يُميت، حتى لو اتخذ شكل الوباء الجمعيّ. هو دعوةٌ للسهر مع الوحيد، وذريعةُ العجز عن المساواة مع ركّاب قطار يعرفون عناوينهم جيداً. وهو ما يُجمع لأحلام الغرباء من مواد مصنوعة من شفافية اللاشيء الجميل، ويُحمِّص لهم بُنَّ اليقظة.

ونادراً ما يأتي صباحاً. ونادراً ما يتدخل في حديث عابر مع سائق تاكسي. ونادراً ما يتطفل على قاعة مؤتمر، أو على الموعد الأول بين أُنثى وذكر... هو زائر المساء، حين تبحث عن آثارك في ما حولك ولا تجدها، حين يحطّ على الشرفة دوريٌّ يبدو لك أنه رسالة من بلد لم تحبَّه أَنت فيه، كما تحبُّه الآن وهو فيك. كان معطىً وشجرة وصخرة، وصار عناوين روح وفكرة، وجمرةً في اللغة. كان هواء وتراباً وماءً، وصار إلى قصيدة.

أَلحنين أنينُ الحقّ العاجز عن الإتيان بالبرهان على قوة الحق أمام حق القوة المتمادية... أَنين البيوت المدفونة تحت المستعمرات، يورثه الغائب للغائب، والحاضر للغائب، مع قطرة الحليب الأولى، في المهاجر والمخيمات. الحنين صوت الحرير الصاعد من التوت إلى مَنْ يحن إليه في أنين متبادل. هو اندماج الغريزة بالوعي وباللاوعي.. وشكوى الزمن المفقود من ساديَّة الحاضر.

الحنين وَجَعٌ لا يحنُّ إلى وَجَع. هو الوجع الذي يسبِّبه الهواءُ النقيُّ القادمُ من أعالي جبل بعيد، وجع البحث عن فرح سابق. لكنه وجع من نوع صحيّ، لأنه يذكرنا بأننا مرضى بالأمل... وعاطفيون!

XV

ألـحُبُّ كالمعاني على قارعة الطريق. لكنه كالشعر صعب، تعوزه الموهبةُ والمكابدةُ والصوغُ الماهر، لكثرة ما فيه من مراتب. لا يكفي أَن تحبّ ــ فذلك فِعْلٌ من أفعال الطبيعة السحرية، كهطول المطر واشتعال البرق، يأخذكَ منكَ إلى مدار الآخر لتتدبّر أَمرك بنفسك. لا يكفي أن تحبّ، بل عليك أن تعرف كيف تحبّ. فهل عرفت؟ لم تستطع الإجابة لأنك لا تستطيع استعادة الرعشات التي هزَّتك وبعثرتك على نزوات الليلك، وكَهْرَبَتْكَ وعَذبتكَ بمذاق العسل الحارق. ولا تستطيع استرجاع أكثر أطوار الموت عذوبةً وحياةً، حيث غادَرَتْكَ «أنا» ك إلى أنثاك لملاقاة نفسك الطازجة فيها كالثمرة الناضجة.

تلك اللحظات، حين تَسْترجعها الكلمات، عصيَّةٌ على رفع الجسد إلى مقام الروح. من منَّا لم يقل لأُنثاهُ: «لا وجود لي إلّا فيك» وكنا صادقين؟. وكنا صادقين أَيضاً حين وجدنا وجودنا في قول مشابه وفي مكان آخر. فهل عرفتَ كيف تحب؟ لم تستطع الإجابة، ربما لأنك لم تتبيّن أحوال الحسِّ المتنقل في الفوارق بين: الحبّ والعشق، والوَلَع والوَلَه، والهوى والجوى، والشَغَفِ والدَنَفِ، والهيام والغرام، والشَبَق والنزوة، والصبوة والشهوة، والإعجاب والانجذاب ... وغيرها من التباس الصفات على الرغبات. لكلِّ مرتبةٍ حالٌ من أحوال الجسد، ولكلِّ حالٍ من أحوال الجسد مرتبةٌ بين موت وحياة. فلا تعرف أين كنت وكيف كنت.

لكنك الآن، إذ تشرف على حياتك إشراف البحّار على خيبته من أسرار البحر التي لا تُدْرك، وتسأل: أَين مينائي؟ تحار من عودة قلبك سالماً صَلْباً كحبَّة سَفَرْجل صعبة القضم. فلماذا بكيتَ إذاً لأن العذراء لم تكن عذراء قرب الشجرة التي سَبَقَكَ إليها أَحَدُ مُرَوِّضي الريح؟ ولماذا بكيت ثانيةً لأن الثانيةَ لم تفتح لك الباب، وأنت واقف في الزمهرير مرتجفاً من الذل، لا من البرد الذي أَوقد مدفأتك؟ ولماذا بكيتَ مرّةً ثالثةً، لأن الثالثة سافرت، دون

أن تنتبه إلى أنك كنت تعانق وسادة، لا جسداً من حرير وريش نعام؟

لا حُبَّ ــ تقول ــ لأن لا حُبَّ يشبه حباً، ولا تعريف لقوة الجاذبية التي تخلع الكائن من كيانه، فلا يسأل عن ذاته وقد اغتربت، وعن حريّته وقد اقتربت من عبوديّة مختارة: أنا لك. بخصلةِ شعرٍ طائشةٍ في الريح تنتقل الجبال من أمكنتها. وبشفتين مفتوحتين تنضج بساتينُ الكرز في غير أوانها. وبكلمة لا معنى لها يُنصِّبك التأويلُ ملكاً على عرش الهباء.

وأَنتَ، أنتَ الممسوس بتيَّار كهرباء تسير على غير هدى، على أَثر ما يتساقط من أوراقك، تدور بك العاصفة والعاطفة، وتدور بهما، ولا تدري إن كنت حزيناً أم فرحاً لأن الالتباس الذي أنت فيه هو الإحساس بخفَّة الأرض وبغلبة القلب على المعرفة. وستدرك فيما بعد أن الحب، حُبَّك، هو أَوَّلُهُ. في أَوَّل الحب، تكون معدّاً، كآلة موسيقية، لإطاعة الهواء في ما يملي عليك من تأليف: كل نسمة نغمة، وكل سكون صلاةُ شكر. وتكون مُعَدّاً أَيضاً لاستطلاع ليليّ لكُلّ نأمة تفد إليك من ديار النجمة. فأَطِلْ هذا الأَوَّل، أوَّل الحب، ليمتثل الخيال لك امتثال

الفرَس للفارس، ولتغزوك اللغة وتغزوها كرجل وامرأة يتسابقان على استضافة المجهول بكرم الطاعة المتبادلة.

في أول الحبِّ تنهمرُ عليك المطالعُ، زرقاءَ زرقاءَ. وفي أوج الحب تحياه، وينساك وتنساه ويُنْسيك المطالع. وفي آخر الحب تطيل النظر إلى الساعة. وفي الغياب تعثر المطالع على المواجع المترسبة في خُلوّ الغرفة من كأس النبيذ الثانية، ومن شال أزرق، فتمتلىء القصيدة بما ينقصها. وحين تكملها بنقصان مفتوح على أخرى، تبرأ من ذكرى ومن ندم ولا يصدأ فيك الذهب. كأن الكتابة، كالحب، بنتُ السحابة إن أمْسَكتَ بها ذابت. وكأنَّ العبارة لا تتحفَّز إلّا لتعويض خسارة. فتتجلّى صورة الحب هناك: في غياب كثيف الحضور.

وحين تخرج من نفسك، كأنَّكَ أنتَ، وتنظر إليك من بعيد كأنك هُوَ: واقفاً تحت المطر، على شارع مزدحم بالمارة، وفي يدك باقة ورد أحمر، لا تشعر بالبرد، بل بسخريةٍ من وقفتك الزائغة. وتتساءل: هل كان حُبّاً أم شهوة، هل كان عشقاً أم شبقاً؟ وتنسى شعورك ... تنساه ولا تبحث عنه، فلا تتألم ولا تندم، بل تكتفي بالسلام عليه، عن بعد، وهو ينتقل إلى ذكرى بعيدة لا تُؤَرِّق،

ذكرى تتحكَّم بها كما تتحكَّم بجهاز الفيديو: تَضَعُ النهايةَ في البداية، أو تثبّتُ الصورةَ على ضرورات القلب المتقلِّب.

وتضحك خجلاً من كلام تمادى في مديح الشبق حتى احترق: يبدأ من القدمين المنحوتتين بقطعة شمس، فإلى أعلى يلمع البرق من ساقين مسكوبتين بقلق المهارات، فأعلى إلى الرُكْبَتَيْنِ الـمُصَنَّفَتَيـنْ كمعجزتين، فإلى أعلى: البطن ــ الموج في حالة جَزْر، فأعلى: يبدأ الغروب تدريجياً بامتصاصك بنَهَمٍ نبيلٍ خَفِر، فتُقْبل وتُدْبِرُ وتعلو وتهبط وتعرق وتشهق وتغرق في ليل ساخن العتمة فاتن. يداك أو يداها ــ لا تدري ــ تلمّانك وتحملانك كنسرٍ أُغمي عليه في فضاء يدلف كواكب... فتنظر إلى العينين نصف المفتوحتين على عينين نصف مغمضتين، ليتأكد كل منكما أنه ينبتُ في الآخر.

لكن أحداً لا يسكن الذروة، تسقطان دفعةً واحدة من أعلى سماء إلى نعاسٍ مبلّل بالرذاذ. تهمسان بصمت واحد، بلا شيءٍ أَوضحَ من أيِّ شيء. وتحلمان معاً، وعلى حدة، بأن يستمر هذا العناق إلى الأبد، إلى أن يتضح لكما أن لهذا الأبد عمراً قصير الأمد، وأن الأبدية لا

تنصاع إلى أحد، فهي كثيرة التداول والانتقال من لحظة إلى أخرى، ومن حالة إلى سواها.

وأَنتَ الذي لا تعرف الحب إلّا عندما تحبّ، لا تسأل ما هو ولا تبحث عنه. لكن امرأة سألتك إن كنت تحب الحب لذاته، فتملّصت وتخلصت من حيرة الجواب، وقلت: أُحبُّكِ أنتِ. فألحّتْ: ألا تُحبُّ الحب، فقلت: أحبك أنت لذاتك، فانصرفتْ عنك لأنك لا تؤتمن على غيابها. ليس الحبُّ فكرة. إنه عاطفة تسخن وتبرد وتأتي وتذهب. عاطفة تتجسَّد في شكلٍ وقوام، وله خمسُ حواسّ وأكثر. يطلع علينا أحياناً في شكل ملاكٍ ذي أجنحة خفيفة قادرة على اقتلاعنا من الأرض. ويَجْتَاحُنا أحياناً في شكل ثور يطرحنا أرضاً وينصرف. ويهبُّ أحياناً أُخرى في شكل عاصفة نتعرَّف إليها من آثارها المدمرة. وينزل علينا أحياناً في شكل ندى ليليّ حين تحلب يدٌ سحريَّةٌ غيمةً شاردة.

لكن هذه الأشكال كُلّها تجتمع في امرأة، حسية مرئية، ملموسة محسوسة، لا في فكرة. فنحبُّ الشكل الجاذب، وينكبُّ الخيال على تفحُّص ما فيه من غموض وغرائب. أما الأرواح فتتعارف وتتآلف حول الشكل المتلألىء

بالجوهر. وقد تختلف على تأويل ما يقول الجسد للجسد، فتنصرف إلى شفافية أخرى وتحلّ في أجسادٍ أكثر امتلاءً بالماء والتناغم والموسيقى. ألحبّ هو الـمُتَحَوِّلُ الـمُتَنَقِّلُ العصيُّ على الهوية. هو الانخطاف الذي يلتبس فيه الشغف مع الإشراق. هو ما لا تعرف وتعرف أنك لا تعرف. هو اكتمال المعنى باللامعنى من فرط جنوحه إلى المجانية وتبذير الحضور. وهو نقيض التكرار والإلحاح على إصلاح الهواء واللون، وإلّا صار زواجاً تحلُّ فيه صيانةُ الكلام من الزلل محلَّ الارتجال الضروريِّ لشعرٍ لا يقوم الحب إلّا عليه، فلا يصلح نثر التدبير المنزلي لإبقاء إجاصتين طازجتين على طبق المرمر، ولتحريض المجهول على إغلاق الطريق أمام المعلوم. لا بد من سرّ، لا بد من سرّ دائم، ليبقى الحب مفاجأة وهدية، فلا تفتح خزانة ثيابها الملأى بأسرار طباعها!

وإن خمد الشغف ابتعد الحب، رويداً رويداً، إلى نهار الصداقة. وتقول لها: ما أجمل الصداقة حين نشيخ معاً، وأتّكيء عليك وتتّكئين عليَّ، وأرحمك وترحمينني في دار العجزة حيث لا نقوى على التذكّر. لكنني أوثر أن أعتمد على عكازي، لا عليك. ولا أريد أن أرى روميو وجولييت، ولا قيساً وليلى، أمامي في أرذل العمر. للحبِّ

تاريخُ انتهاء، كما للعمر وكما للمعلّبات والأدوية. لكني أفضِّل سقوط الحب، بسكتة قلبية، في أوج الشبق والشغف، كما يسقط حصان من جبل إلى هاوية.

سألتُكَ: مَنْ هِيَ، فقلت: لا أعرفها من فرط تعدّدها في واحدة. هي ولا هي. هي وهُنَّ إذا ما اجتمعن في قصيدة حب كثيرة المصادر، تتوزَّعها ضروراتُ البحث عن تحقق ما لا يتحقق، وعن نداء يغمرنا دون أن ندرك أنه لم يصل، وعن تجدُّد العطش أمام النبع. هي ولا هي إن حضرت وإن غابت، فكأنَّ حضورَها غيابي فيها، وكأن غيابها حضورُ التفاصيل. لكنها تنتشر بعدة أسماء، فلا أدري إن كانت هي هي، أم من نساء مخيلتي ورغباتي المتبدِّلة. لذلك يبدو أنها اختراع، لأني لا أخطىء بالأسماء، فلا أنادي غيرها باسمها الذي نسيته من قلة الاستعمال.

وسألتك: لَمْ تعرفْ، إذاً، كيف تحب؟ فأدهشني قولُكَ: ما الحبُّ؟ كأنني لم أحبّ إلّا عندما كان يخيَّل لي أنني أحبّ ... كأنْ تخطفني من نافذة قطار تلويحةُ يد، ربما لم تكن مرسلة إليّ، فأوَّلتها وقبَّلتُها عن بعد... وكأَنْ أرى على مدخل دار السينما فتاةً تنتظر أَحداً، فأتخيَّل أني ذاك

الأحد، وأختار مقعدي إلى جوارها، وأراني وأراها على الشاشة في مشهد عاطفيّ، ولا يعنيني أن أَفرح أو أحزن من نهاية الفيلم. فأنا أبحث في ما بعد النهاية عنها. ولا أجدها إلى جواري منذ أنزلت الستارة.

وسألتك: هل كنت تمثِّل يا صاحبي؟

قلتَ لي: كُنْتُ أخترعُ الحب عند الضرورة / حين أسير وحيداً على ضفة النهر / أو كلما ارتفعتْ نسبة الملح في جسدي كنت أخترع النهر...

XVI

بين الخروج والدخول زَمَنٌ مديدٌ يأذن لك بوداع المنفى بما يستحقُّ من شَجَن. لكنك لم تفهم لماذا اختبأ الدمعُ تحت سطح الكلمات، ثم طفا وطفح، وأَنتَ تودِّعُ تونس في مسرحها البلديّ.. وتودِّع الذاهبين إلى ساحة البلاد الخلفية... الخارجين من فضاء الأسطورة إلى وعاء الواقع الضيّق. أَمَلٌ ما يرشح من أفقٍ مُغْرَوْرِقٍ ببخار الرطوبة الصيفية على أَلم لم ينتبهوا إلى آثاره الجانبية. لعلَّ الفرح بالمغامرة، مغامرة اكتشاف الأرض الموعودة من جديد، هو ما أَنسى العائدين مديح قرطاج بكلام يليق ببحرها وبحسن ضيافتها.

عائدون، عائدون بلا نشيد عالٍ وبلا راية جسور، كمتسلّلين من ثُقْب جدار تارةً، وتارةً كمحتفلين بدخول بوّابة واسعة لسجنٍ حَسَنِ التسمية، وَطَنيّ الفوضى. المهاجرون عائدون والعائدون مهاجرون. وبين الفارق والفارق بهجةُ نسيانٍ ضروريّ للشرط الذي يتحكّم بالكلمات، كما يحدث حين تنفصل الرموز عن الواقع، والتسميات عن المسميات، والألفاظ عن معانيها: عودة، استقلال، دولة، سلام، سيادة، سجّاد أحمر، وزارة، رئاسة ــ كلمات تشير إلى الشيء عن بعد ولا تعبِّر عنه ولا تشبهه. كأن الهوية العَطْشى إلى امتلاءٍ ما تمتلىء بأمنية ظنّتها محقّقة.

سجالٌ مع الذات صامتٌ تُرْجِئُهُ فرحةُ اكتمال الدائرة على أمواج البحر، بَحْرِنا هذه المرة. وفي مخيّلة العائد من إعجاز جماليات الصور ما يُكَفِّر عن خطيئة الخروج، الإجباريِّ وشبه الإجباري معاً، وما يعوّض عن سِفْرِ الهجرة. سنرى شمسنا تشرق من شرقنا، لا من جهة المنفى. ولفواكهنا تأويلُ الذهنيّ للحسيّ:

ألتفاحةُ عضُّ الشكل، بلا عقوبة على معرفة ./

ألأجّاصَةْ نَهْدٌ مثاليٌّ التكوين لا يزيد عن راحة اليد ولا ينقص /

ألعِنَبُ نداء السُكّر: أنِ ٱعتصرني في فمك أو في الجرار ./

ألمشمشُ عودةُ الحنين إلى أصله شاحباً ./

ألبرتقالةُ فكرةٌ تضيء في الليل، وتؤكل في كل حين ./

ألتينُ انفراج الشفتين، بأصبعين، لتلقّي المعنى الإيروسيّ دُفْعةً واحدة./

ألتينُ الشوكيُّ دفاعُ العذراء عن كنزها ./

ألكَرَزُ اختصار المسافة بين شهوة العينين وصبوة الشفتين./

ألسَفَرْجَلُ مشاكسةُ الأنثى للذكر تترك غَصّةً في حلق الخائب ./

ألمانجو لعاب يسيل على لذة مرئية ./

ألفراوِلَةُ حُبَيْبَات لونٍ ليس أَحمرَ وليس غير أَحمر تحيل على فضيحة الشَبَه ./

ألتوتُ، سكّريّ اللون أو أسود، ذكرى قبلة أُولى ./

ألرمّانُ اختباءُ الياقوت في التورية /

وكلما اقترب العائد من العودة صار هو إطارها الذي لا يمنع المشاعر من السيولة. بطولةٌ خجولةٌ تترجَّل عن صَهْوَةِ بلا فرس، وتدخل في استقبال العاديِّ للعاديِّ ... ستُقبِّل التراب وتعانق جذوع الشجر، وتقول كلاماً معصوماً من بلاغة المنتصر أو الأسير، بلاغة طوَّرها المنفى لتحسين شروط الإقامة على جسر، وللتبشير بحماية القلب الجماعي من التلف. وكلما اقترب العائد من أرض الأحلام الكبرى اغرورقت عيناه، وتلكأت خطاه لئلا يتعثر على طريق الرمل ... ونظر إلى الخلف مودِّعاً بطولةً أطاع طُقُوسَها بانضباط جنديّ ... بطولةً بعيدةً عما يجتاحه الآن من مشاعر تثيرها فيه، بلا ترتيب، قيلولةٌ مُشْتَهاةٌ تحت دالية عنب.

هل انتهت الرحلة أم بدأت؟ هل اقترب هو من المكان، أم افترق المكان عن صورته في المخيلة؟ العائد كبير السن هو المرشح للمقارنة وللحيرة في ترجيح الـمُتَخيَّل على الواقعي. أما المولود في المنفى على أوصاف نقيضه الحُسْنى، فقد تخذله جنَّةٌ صُنِعَتْ خصيصاً له، من مفردات تَشَرَّبها وصنع منها صوراً نمطيَّة، لتكون مُرْشدَهُ إلى الاختلاف. لقد ورث الذاكرة عن أهلٍ خافوا عليه من النسيان / رهان الآخرين.. وورث الذاكرة من إلحاح

الأناشيد على تمجيد الفولكلور والبندقية التي صارت هوية، منذ وُلد الوطن، بعيداً عن أرض الوطن.. ولد الوطن في المنفى. وُلد الفردوس من جحيم الغياب.

وأَنتَ، أنتَ لم تكن معهم. فيك من عمر المنفى ما فيك من عمرك في الوطن. لم تفهم لماذا بكيت في مسرح تونس، وبكى معك جمهور أُصيب بعدوى البكاء الغامض. فالدمع يُعدي كالتثاؤب. ألأنك لم تكن معهم، أم لأنك من صاغ إعلان الدولة المرجوَّة، وتعرف أن الدولة ما زالت نصاً أدبياً. وتشعر بأن الباب الذي يدلف منه العائدون لا يفضي إلى استقلال ودولة. صحيح أن الاحتلال قد خرج من غرفة النوم، لكنه يجلس في الصالون وفي سائر الغرف. يتحكَّم بحنفية الماء وزِّر الكهرباء وزرقة البحر. أليس هذا حسناً بعض الشيء؟ أليس هذا أَفضل من لا شيء؟ تصير إلى اثنين: واحد يقول نعم، وواحد يقول كلا! ولكن لِمَ كُلُّ هذا الصخب الاحتفالي الكاذب الذي يُخَدِّر العالم بالصُور؟

تسمَّرت أمام التلفزيون، واتخذت هيئة المحايد في حضرة الحيرة التي أقامت حاجزاً بين العقلُ القلب. العقل يقول: إنها مسرحية فاشلة باطلة. والقلب يسأل: كيف أنجو من

سحر الإخراج؟ ألعشب أخضر، والمناخ ملائم للعيد، وسيِّد العالِم جذّاب. يقترب العدوّان اللدودان ويتصافحان: أَحدهما على مضض، والثاني بثقةٍ مَرِحَة. والجمهور المنتقى بعناية باذخة يصفِّق لانعطافة التاريخ في حديقة البيت الأبيض. لكن اللغة التي تسمعها تعيد قلبك إلى صوابه: لا، ليست هذه لغتي. فأين بلاغة الضحية التي تسترجع ذاكرة عذابها الطويل، أمام شقاء اللحظة التي ينظر فيها العدوّ في عين العدوّ ويشدُّ على يده بإلحاح؟ أين أصوات القتلى السابقين والجدد الذين يطالبون باعتذار لا من القاتل فحسب، بل من التاريخ؟ أَين حيرة المعنى في لقاء الضدّ بالضد؟ وأين الصرخة الملازمة لعملية جراحية يُبْتَرُ فيها الماضي عن الحاضر في مغامرة السير إلى غد ملتبس ... وأَين لغتي؟

أَلهذا كان ردك الشخصي هو الدفاع الشعري عن الحبكة والذاكرة؟ فكتبت أَصداء سيرة شخصية ـ جماعية، وتساءلت: لماذا تركت الحصان وحيداً؟. فماذا يستطيع الشاعر أن يفعل أمام جرّافة التاريخ غير أن يحرس شجر الطرقات القديمة ونبع الماء، المرئيَّ منه وغير المرئيّ؟ وأن يحمي اللغة من ركاكة التراجع عن خصوصيتها المجازية، ومن إفراغها من أصوات الضحايا المطالبين بحصتهم من

ذكرى الغد، على تلك الأرض التي يدور الصراع عليها إلى ما هو أَبعد من قوة السلاح: قوة الكلمات.

وانهالت عليك سهام الأسئلة المسمومة: ماذا ستكتب من دون منفى؟ وماذا ستكتب من دون احتلال؟ أَما المنفى فهو الوجود. وأما الاحتلال الموجود فهو ما يعيق فاعلية الخيال. سأكتب أفضل. لكن، لماذا لا يُوَجَّه مثلُ هذه الأسئلة إلى شعراء شعوب أخرى؟ أَلأن شرط الإبداع الفلسطيني هو العبودية، أم لأن الحرية لا تليق بإيقاعاتنا؟ وما معنى أن يكون الفلسطيني شاعراً، وما معنى أن يكون الشاعر فلسطينياً؟ الأول: أن يكون نتاجاً لتاريخ، موجوداً باللغة. والثاني: أن يكون ضحية لتاريخ، منتصراً باللغة. لكن الأول والثاني واحد لا ينقسم ولا يلتئم في آن واحد.

غزة وأريحا أولاً. وإذا كنتم أَولاداً طيّبين، فلن تكون غزة وأَريحا أخيراً... وأَخيراً سافرتَ إلى غزة. لم ترها من قبل. كتبتَ لها وعنها كما رَسَمَتْ هي صورتها: قلعة محاصرة بالبحر والنخيل والغزاة والجُمّيز. قلعة لا تسقط. غزة هي العزّةُ الـمُعتَزَّةُ باسمها الـمُسْتَفَزَّةُ، بلا انقطاع، من صمت العالم على حصارها الطويل. وعلى الطريق الطويل

من القاهرة، على رمال سيناء، لم تفلح في نقل أحاسيسك المتأرجحة إلى كلمات واضحة. كان الكلام عصيّاً على الوصول من القلب إلى اللسان، كحرف اللام الروسي الذي يصعد من البطن ويقف عند سقف الحلق.

سألت السائق: أَين معين بسيسو، لماذا لم يأت معي؟ فذكّرك بأنه نام في حفرة رمل في ضاحية من ضواحي القاهرة. لم يجدوا له مكاناً في غزة. فَتَمْتَمْتَ: كُنا نبحث عن بيت، وصرنا نبحث عن قبر. آه، لو انتظر قليلاً... لو لم يسافر إلى لندن، لو لم يضع على باب غرفته في الفندق «الرجاء عدم الإزعاج» لكان مضيفي اليوم في غزة. غزة ملكيته الشخصية، ومملكته الشعرية الخاصة. كم ستبدو غزة ناقصة!

كان الغروب في العريش بطيئاً. أشعة الشمس تتمهَّل في احتضان سعف النخيل، وتتأمَّل لون النار الذي يترجَّل منها، على مَهْلٍ على مَهْل، ليُزيِّنَ أمواجَ البحر المستسلمةَ إلى غزل أَبديّ، فَتُحَيِّينا بنسائمِ صيفٍ رطبة، كمروحةٍ في يد ملاك متطوِّع. متى ندخل غزة؟ سألت صديقك المشغول بجمرة الأرجيلة، فقال: حين يحلُّ الليل. قلت: أريد أن أراها بكل الحواس، فابتسم: الوطن في الليل

أجمل. تمتَّع الآن بغروب الشمس في بحر العريش، فلن ترى البحر هناك كما تراه هنا... البحر هناك مُسْتَوْطَن. وكرَّر: الوطن في الليل أجمل، فتمهَّلْ تمهَّلْ! وضعت دفتر الملاحظات والتوقعات في حقيبة اليد وأغلقتها على عواطفك. بماذا تشعر؟ سألك ياسر. قلت: لقد استنزف الطريق الطويل مشاعري وتوقعاتي... لا أشعر الآن بشيء ولا أتوقَّع شيئاً. قال: هذا أفضل.

في الظلام دخلنا، أو تسلَّلنا إلى غزة. تركتُكَ تمشي أمامي، وحملتُ عنك خيالك. فلستَ بقادر على صيانته من الوقوع على صلابة الواقع. ورأيتُك تخفي وجهك عن إلحاح الكاميرات المنصوبة لالتقاط نشوة العائد، ولتصوير الكلمات المعدَّة لهجاء المنفى. قلت: أَتيتُ ولم أَصِلْ، وجئتُ ولم أَعُدْ. لم تكذب على أَحد ولا على نفسك، فالمناسبة ليست احتفالية. وغزة لم ترمِّم نفسها بعد. كان الدمار الذي تركه الاحتلال يتغلغل في أعماقك... وإذا لم تحلم بما هو أَبعد فسيهرب البحر من الصيَّادين في لغتك. في ذلك الليل المقطَّع بالحواجز والمستوطنات وأبراج المراقبة، يحتاج المرء إلى عِلْم جغرافيا جديد ليعرف الحدود الفاصلة بين الخطوة والخطوة التالية، وبين الممنوع

والمسموح، كصعوبة العثور على الغامض والواضح في اتفاقيات أوسلو.

عليك أن تنام في آخر الليل، مستعيناً بقرص مهدِّىء. وحين تصحو تحتاج إلى وقت ما لتقتنع بأنك في غزة التي سرعان ما نَعَتَّها بـ «مدينة البؤس والبأس». وفي الضحى الحار تذهب مع بعض الأصدقاء من العائدين لزيارة المخيمات. تمشون بصعوبة في الأزقة، وتخجل من الماء والنظافة. ولا تصدق، كما لم تصدِّق أَبداً، أن أَوعية البؤس هي الشرط الوحيد لتخليد أو تأكيد حق العودة. لكنك تتذكر ما ينبغي لك أن تنساه: ضمير العالم. وتشتم نظريات التقدم وقصدية التاريخ التي قد تعيد البشرية إلى الكهف. وتحرم نفسك، لتكون واقعياً، من مصل التفاؤل والحماسة، وتستعيض عنهُ بحبة دواء ضد ارتفاع ضغط الدم. وتقول: إذا فَكَّرْتُ بشيء آخر سأرمي بضميري إلى القطط.

تتساءل: أي داهية قانوني أو لغوي يستطيع صوغ معاهدة سلام وحسن جوار بين قصر وكوخ، بين حارس وأَسير؟. وتسير في الأزقة خَجِلاً من كل شيء: من ثيابك المكوية، ومن جَماليات الشعر، ومن تجريدية الموسيقى، ومن جواز

سفر يتيح لك إمكانية السفر إلى العالم. يُصيبك وجع في الوعي. وتعود إلى غزة المتعالية على مخيماتها وعلى اللاجئين، المتوجِّسَة من العائدين، فلا تعرف في أية غزة أنت. وتقول:

أتيت ولكنني لم أَصِلْ.

وجئتُ، ولكنني لم أَعُدْ!

XVII

على الطريق الساحليِّ، يتوثَّب قلبُكَ للقفز أمامك كَكَلْبِ صَيْد. لم تَنَمْ وإن كنتَ تحلم بالطيران كالحجل على ارتفاع منخفض. وتعلم أن لا قمة تبقى على حالها عاليةً عاليةً. فللوقت فِعْلُ النحت في الصخر، وقد تُغيِّر الأمكنةُ مواقعها إذا أُتيح للشغف أن يهبَّ على هواهُ، ويحوِّلك زَغَبةً كما أنت الآن على الطريق الساحلي الـمُصَوَّب كسهم إلى الشمال. الشمال، هل ما زال في مكانه المصنوع من جبل وبحر تَوْأَمَيْنْ؟

لم تنم جيداً منذ وصلت إلى رام الله من عمان قبل يومين، حيث وقفتَ على جسر اللنبي كأسيرٍ محترمٍ بين

جنود ينظرون إليك بفضول ثقيل، وينتظرون أوامر أخرى من أجهزة أَمْنٍ أخرى للتأكُّد من أنك أنتَ أنتَ، لا آخر يتقمَّصُكَ وينتحل اسمك ليجرِّب هذا الذلّ، ليكتب شعراً عن مراوغة الظل.

لم يكونوا مخطئين تماماً، فعلى هذا الجسر لا يكون المرء مَنْ كانه منذ قليل: متلهفاً إلى موعده مع أرض الحكايات الكبرى والصغرى، مُلْتَفّاً على ذاته كَمَلْفُوفَةٍ أو بَصَلَةٍ لم تُقَشَّر. هناك يُقَشِّرهُ الجنديُّ أو الجندية بلا كياسة. فلهما عليه حقُّ الأمر والنهي: اخلَعْ حذاءك. انزعْ ساعتك. فُكَّ حزامك. وانزعْ نظَّارتك، وادخلْ في الجهاز. يرنُّ الجهاز وتعيد الكرّة ويرنُّ الجهاز. فتخضع للتفتيش اليدويّ ويعثرون على مصدر الرنين: إنه قلم الحبر الفاخر. يُفَكِّكُونه ولا يجدون فيه غير الحبر الأسود: في المرة القادمة أخرجْ قلم الحبر من جيبك. فتقول: في المرة القادمة لن أحمل قلماً من هذا النوع.

هناك، على الجسر الذي لا نهر تحته منذ تعرَّضتْ مصادرُ مياهه للنهب، يتقشَّفُ الحلم، وتشحُب صورةُ البلاد، ولا تكون أنتَ أنتَ. تقترب من أريحا، أريحا الواقعية لا الأسطورية. أشجار النخيل على الجانبين، وتبحث عيناك

عن «وردة أريحا» الشهيرة فلا تجدها، ولا تجد آثار الأسطورة التي صارت مملَّة من فرط ما سُرِدَتْ وشكّك بها المؤرخون. بيد أن أريحا هنا في أريحا. تصعد إلى جبل التجربة، إلى دير صغير منحوت في الصخور. هنا، جاء الشيطان إلى المسيح، الذي صام أربعين يوماً وأربعين ليلة حتى جاع.

«ثم مضى به إبليس إلى جبلٍ عالٍ جداً وعرض عليه جميع ممالك الدنيا ومجدها، وقال له: أُعطيك هذا كُلَّه إن ارتميت ساجداً لي. فقال له يسوع: إليكَ عنِّي يا شيطان، فإنه مكتوب: للّه ربك تسجدُ وإيَّاه وحده تعبُدُ. فتركه إبليس، وإذا بعض الملائكة قد دنوا منه وأَخذوا يقربون له الطعام».

تجلس في مقهى قريب، ولا تستطيع احتساء فنجان القهوة الذي ينافسك عليه الذباب. ذباب بلا نهاية. ذبابٌ سَفِيهٌ. وتستعير سؤالاً قديماً: لماذا خلق الله الذباب؟

حفنةٌ من أرضٍ عشوائية التكوين خلَّفتها هَزَّةٌ هي غضبة إله. تلال رملية نبتت كالفطر على عجل وفوضى. يخيَّل لك أن الأبدية قامت بزيارة خاطفة لِتَفَقُّدِ آثار الخوف على الراهن المحدِّق إلى هاوية فرّت منها مدرّجات لولبية. هل

وصلت الحياة إلى هنا هاربة من البحر الميت؟ ها هي تُطِلُّ بتويجاتها الصغيرة من الصخور الرمادية والسوداء، شقائق نعمان طالعةً من وحشة المكان... قليلٌ من رذاذ وضوء يكفي لتتغلّب الحياة على العدم. وقليلٌ من الأمل والزمن يكفي لتعبر شِعاب الأسطورة سالماً من مصائر أسلافك. فاقْتَبِسْ من شقائق النعمان جمال الدلالة وقل: لا شأن لي ــ وإن حاصرني الموت ــ بالعدم ./

وإن سألوكَ عن قوة الشعر قل: ليس العشبُ هَشّاً كما نرى. ولا ينكسر منذ أَخفى ظلَّه المتواضع في سرّ الأرض. وفي العشب على الصخر إعجاز الكلام النازل من غيب، بلا ضجيج وأجراس. العشبُ نبوءةٌ عفويةٌ لا نبيَّ لها إلّا لونها المضاد لليباب. ألعشب نجاة المسافر من بشاعة المنظر ومن جيش يطوِّق الطريق إلى الـمُمْكن. والعشبُ شِعْرُ البديهة السلس، الممتنع السهل والسهل الممتنع. ودُنُوُّ اللغة من المعنى واقترانُ المعنى بضيافة الأمل.

وإن سألوك: هل تغرف من بحرٍ أم تنحت في صخر؟ قل: لا يقطع في الصخر سوى إزميل الماء. وإذا سألوك عن المنازلة بين الشعر والموت، فانظر إلى العشب وقل ما لا يجانب الحقيقة: لا شعر يهزم الموت في ساعة اللقاء، لكنه

يرجئه، يرجئه إلى وقت ضروريّ لاختبار جدوى الغناء في حفلة طويلة إلى أن تكتمل الأغنية، ويقع المغنّي في قبضة قنّاصه الواقف خلف الباب، وقد لا ينتبه أحدٌ إلى موت المغني، ما دامت الأغنية قد صارت جماعية، يغنّيها الساهرون. في هذا الإرجاء، يُخَيَّل للمغنين الجدد أن الموت نام، فَيْصحون في غَفْلَةٍ عنه على شقائق النعمان المرحبة بهم، كمطالعِ قصائدَ كنعانيةٍ، لم يكمل كتابتَها رعاةُ الغزلان المشغولون بمطاردة الذئاب وبنات آوى.

وعلى الطريق الساحليِّ الراكض نحو الشمال، تُفْرِغُ قلبَكَ من حمولته الزائدة، ليمتلىء بمواهب المكان من شجر ورائحة وعندلة وتواشيح وتباريح. ولا يبقى في ذهنك من أَوصاف الجنة غيرُ التفاتتِكَ الأخيرةِ، على الدرج الحجريّ إلى نافذةٍ نصفِ مفتوحة كنت ترى منها البحر والغروب وتغرب في العزلة: أنا والشمس صديقان حميمان / ومحرومانِ في الليل من المشي على الشارع / قد يعجبني المعنى / ولا يعجبني / لكنني أدمنت إيقاع الأغاني./

يَهُبُّ عليك هواء الحنين من ناحية البرتقال، على يمينك، ومن اليود البحريِّ على يسارك. ومن الشمال يهدِّدك الاقتراب من محتويات القلب بضبابٍ يُصَعِّبُ على

الذاكرة انتقاءَ الشخصيّ من العام. تخاف على الحاضر من سطوة الماضي، وتخاف على الماضي من عَبَثيَّة الحاضر، فلا تعرف أين تقف من هذا المفترق. هل أنتَ ما كنتَ أم أنتَ ما تكون الآن؟ وتخاف نسيان الغد في حمأة السؤال: في أيِّ زمن أنا؟

يَصُدُّكَ عما أنتَ فيه التباسٌ بين فضول السائح وشجن الزائر وفرح العائد. إن ثلاثة عقود من غياب الذات عن مكانها تجعل المكان ذاتاً يتيمة، وتجعل الذات قطعةً من أرضٍ مُتَنَقِّلَة ... قد توسِّع النشيد، ولكنها تثقب قلب المنشد فتزداد أَخطاؤه. ومن أخطائه أن يودِّع ما يرى، ولا يرى إلّا جمال السراب الواعد بالأمل. فماذا تفعل حين تصل إلى الكرمل غير أن تسأل: لماذا نزلتَ عن الكرمل؟ وفي نفسك الأمّارة بالحيرة جواب مبهم: لكي أتعلَّم المشي على طرق لا أعرفها.

وعلى الطريق الساحليِّ الساحر ظلالٌ من ماضيك، وجمالٌ متسامحٌ يغفر للغائب ما ارتكب من أخطاء، كَلَوْحَةٍ لا تبالي بمن غاب عنها وحضر. الصباحُ نظيفٌ ربيعيّ مشمشيٌّ مشمسٌ سَلِسُ التدفُّق. وفي قلبك استقبالٌ لغزو المشهد المتدرج بين اللازورد والأخضر عبر زجاج

السيارة المسرعة إلى الموعد المنقلب إلى ضدِّه. يا له من موعدٍ لا يَتَّسعُ إلّا لمقعد واحد: لك، أو لإميل حبيبي الذي استعجلك ليصفِّي حسابه معك، ومع حياة لا تشبه الحياة إلّا في نجاتها من شرَك الأساطير المنصوبة بإحكام الصيَّاد الماهر، فقاومه بالضحك وبالسخرية من دهاء الصيّاد ومن مكر القطاة معاً. نحت تعبير «المتشائل» ليعثر على حريّته الملتبسة بين المنزلتين. لا هُوَ هُوَ ولا هُوَ آخرُهُ. فيه منهما حالة لا يشرحها إلّا الضحك. لكنه يدافع عن حيرته وشكِّه بيقينٍ لا ينسجم مع الشك. بين نصِّه الأدبي وضجيجه الإعلامي والسياسي تناقضٌ لا يُعَالَجُ إلّا بانحياز القارىء إلى صدق الأدب، وأولوية المتن على الهامش. قال ساخراً من نفسه: كانت لي دجاجةٌ تبيض ذهباً، فالتهمتُ الدجاجة. ومن فرط إدراكه قُوَّةَ السخرية كانت تجرحه حين يكون هو هدفها. فالساخر لا يحتمل ارتدادها إليه. وكان يغمز من قناتك ـــ كما يقولون ـــ كلما اختلفت معه وعنه. لكن، وهو يعدّ جنازته، ويشرف على أرشيف حصته من الخلود، أَلَحَّ عليك، كما لو كان يكتب وصية، بأن تلتقيا في حوارٍ سينمائيّ حيث كنت تسكن في شارع عباس.

حين قلت له: كيف أَصل من رام الله، يا أبا سلام، إلى

حيفا، وَدُونَها كل هذه الدولة المدججة بالممنوعات، قال: سأبذل كل جهدي للحصول على تصريح يسمح لك بزيارة الجليل يومين. لكن لا تتأخَّرْ، فإن الموت لم يترك لي من الوقت إلّا القليل القليل. في المساء بشَّروك بأن في وسعك السفر إلى حيفا صباح الغد. وفي الليل رأيتَ دِيكَيْنْ يتبارزان أمام الكاميرا، ورأيتَ ريشاً يتطاير في الهواء. وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل أيقظوك ليخبروك أن إميل حبيبي لم يتمكن من الانتظار. لقد فارق الحياة. وعليك السفر إلى الناصرة لتشارك في الجنازة والتأبين. لقد أوصى إميل حبيبي بأن يُكْتَبَ على شاهدة قبره «باقٍ في حيفا».

وعلى الطريق الساحليِّ تساءلت: وماذا لو بقيتُ في حيفا؟ ماذا لو بقيت في أَيِّ مكان؟ ماذا لو كنت؟ ماذا لو لم أكن. تتحاشى الوصول إلى الخلاصة: باطل الأباطيل، والكل باطل. فجأة يسقط مطر خفيف يبلِّل روحك، ويبلِّل الفراشات. رذاذ وضوء. وفراشات ترفرف على ارتفاع منخفض على الطريق الساحليّ. الفراشاتُ خواطرُ مبعثرة، ومشاعرُ طائرة في الهواء ...

XVIII

يتصاعد الخيالُ مرئيّاً كالسحاب على تلال تحمل القرى على خواصرها مُتَشبِّثةً ببداية التكوين. وأَنتَ تعرف من التفاصيل ما يملأ كتاباً مفتوحاً على قراءة ناقصة لا تهدِّد القارىء ولا الكاتب بفصل النهاية. للجليل قصائدُ يكتُبها هَذَيانُ الصوفيّ، وموتى يتدربون على العودة إلى طفولة أنقذتها الفراشات من غزو النسيان. القرى المدفونة تحت الآرض ترسل ذكرياتها إلى القرى الناجية، التي يحجُّ أهلُها في الربيع إلى أَعشاب تنبت من ماضيهم: هنا وُلِدْنا، على حافة هذه البئر كما تولد الخبّيزة والهندباء والفيجن. وهنا وُلِدْتَ كما يُولَدُ الخيال تدريجياً من كل شيء، فكيف تعيد الخيال معافىً وتطير على حصان؟

لا أَثر «لِلبرْوَة»، على يمين الشارع القادم من الناصرة، غير صورتها في خيالك المطعون بقرون الثيران التي تمضغ وتجترُّ علف ذكرياتك. قلتَ: أَمرُّ بها عند الغروب لأدَّخر لخيالي غموضاً يُعينُ الغريبَ فيك على ابتكار الصور من ثنايا الحجر. وقلتَ: أَمرُّ بها في الغروب لئلا يراني أحدٌ غيري أبحث عنها في ما انقطع مني، فأُعلي للعبث مدائحَ ضروريّةً لردّ الخيال إلى طيشٍ جميل يرتِّقُ ثوب المكان. وقلتَ: أَمرّ بها في الغروب ليتّفق الشكل مع المعنى على إيوائي، وأُناجيها

هذا أَنا، هذا هُوَ

هذا هو الولد الشقيُّ ابنُ الشقيِّ / ابنُ الشقيَّة، وابنُ مائِكِ وابن نارِكِ / جئتُ منك وجئتُ من عَدَمٍ ومن إحدى قصائدك القديمة جئتُ، جئتُ من الخيال / لكي أُعيد لَكِ الخيال وأَحْفُرَ اسمَك / في الصخور كسائر الشعراء، في هذا اليباب / سَأَلْتُ بَغْلاً عن أَبيه، فقال لي:

خالي حصانٌ، ثم غاب /

سألتُ بنتاً عن أَبيها، فاستحتْ مني / وقالت: رُبَّما هو أَنتَ وٱرتَدَتِ الضباب /

سألتُ قُبَّرةً تناجي أُمَّها عن أُمِّها فَدَنَتْ، وقالت: ربما هِيَ أنتَ فاحملني / ونامت في يديَّ /

سألتُ نفسي: مَنْ أنا؟

ردّ الصدى الليليُّ حولي: مَنْ أنا؟

هذا أَنا. هذا هُو

هذا خيالي كُلُّه /

ومضيتَ إلى بيت أُمِّك المحاذي لأرض الخيال الأولى. لم تتعرف على معالم الطريق، فقد اكتظَّ المكان بالبيوت المتلاصقة العشوائية وبأولاد تكاثروا وتصايحوا: هذا عمي. هذا خالي. لم تنتبه إلّا الآن إلى أنك عمٌّ وخالٌ، كما لم تعلم إلّا الآن أن أمك تغني. تطلق الزغاريد والأناشيد التي تخاطبك باسمك الكامل، وترى إليك فارساً عائداً من رحلة الأسطورة. ترجوها أن تكفَّ عن اختراع المجد على وتيرة الحرمان والبُعْد. فما أنت إلّا ابنها وما هي إلّا أُمّك. تَضُمُّها وتضمُّك على مرأى من كاميرات الهواة المُصَوَّبة إلى قلبين.

تقول لك: أكان على صاحبك أن يموت لكي نراك؟ ألا

طريق إلى عرسنا هذا غير جنازة صاحبك؟ تسألها لتبعد المفارقة الجارحة، لماذا كانت تضربك وأَنت صغير، فيحمرّ وجهها وتقول: كان الشقاء هو السبب. أُمُّكَ هي أمك ببياضها وشعرها الطويل ولسانها الذي يجرح المبرد. موسوعة التفاصيل، وراوية المقارنات الطويلة بين الماضي والحاضر. كل ما كان أفضل مما هو الآن، فمياه الآبار أفضل من ماء الحنفية. وقناديل الكاز أفضل من مصابيح الكهرباء، والزمن البعيد هو الفردوس المفقود. طَعَنَتْها النكبةُ في القلب وحَمَّلتها تبعات الزلزال، فقاوَمتِ البؤسَ بالكبرياء وبطاقةٍ روحية أَمدَّت جسمها بقُوَّة فرس. لا تتعب، أو لا تأذن للتعب بأن ينطق بالشكوى، بل بهجاء الزمن الذي نقل أسرتها من مزارعين إلى لاجئين. وبالسخرية اللاذعة طوَّعت الشقاء على الامتناع عن الإهانة. كما دَرَّبَتْكَ على تقديس الكرامة، والاعتماد على النفس في اللعب وفي الدرس وفي كيّ ثيابك.

أمك هي أمك وأنت ابنها حين تكونان معاً. أمَّا في حضرة الآخرين فإنها تلعب دور الشاهد. تصون مسافةً تُبْقيكَ ضيفاً خاصاً على أمومتها، وشخصاً عاماً لا تدافع عن حقِّها في امتلاكه. كأنها تهجس وتهمس لنفسها: أنا وَلَدْتُهُ في البداية. لكن هو من واصل الولادة. وهي هي،

المعتمدة على شيخوختها في كل شيء. لا تأذن لأحد من أبنائها وبناتها وحفيداتها وأحفادها بأن يفرح بمساعدتها. تصحو عند الفجر... تصلّي، تُعدُّ قهوتها، تغسل بيتها. تسقي ورودها في الباحة الصغيرة، تُنَظِّفُ الهواء من الغبار، وتمسح الغبار عن مكتبتك القديمة، ثم تغسل ثيابها وتطهو طعامها، وتنتظر ضيوفها. وإذا شَكَتْ، فإنها تشكو من قلة المستمعين إلى حكاياتها. أَلَحّوا عليها لاقتناء جهاز تلفزيون يُسَلِّيها، فَأَبَتْ لأنها لا تحتمل ثرثرة المذيعات والمذيعين، ولا ترضى بأن تكون مستمعة، تريد أن تكون هي المذيعة.

في صباح اليوم التالي، تشرب معها قهوتها ذائعةَ الصيت، بعدما انتشرت رائحتُها في الأغنية التي كتبتها قبل أكثر من ثلاثة عقود في سجنك الثاني. تسألها: هل تعجبك الأغنية؟ فتبتسم بحياء وتكتفي بالقول: الله يرضى عليك. وتذكّرِكَ بأن عليك أن تذهب الآن، قبل أن يأتي الضيوف، لزيارة قبر أبيك. تنظر إلى صورته المعلّقة أمامك على الجدار. تخفي حسرتك وأَسَاكَ على أيّوب الصبر الذي نقلته النكبة من اليسر إلى العسر، وقضى العمر يبحث لك ولأخوتك عن خبز وكتاب في الصراع المضني مع الصخر. لم يُطِل التحديق، كأبيه، إلى ماضيه السعيد

المحدِّق إليه من كروم الزيتون وحقول الحنطة كيلا يلتقي المغلوب بالمنهوب. وَحَمَلَ عبء الحاضر، كما هو، كملِكٍ مخلوع لا يقوى على النظر إلى عرشه، ليأخذك إلى الغد: الغد أمامك يا ابني، فلا تنظر إلى الوراء كثيراً إلّا عندما يشتدُّ عودُكَ وقصيدُكَ. وعندما اشتدَّ عودك صار يبدو لك أنك أبو أبيك، ويبدو لك أن للشعر قدرة على إجراء تعديل ما في المصائر، فَرُحْتَ تبني بيوتاً خيالية من حطامك ومن أسماء النبات والجماد، ليقف المكان مكانه وتعود الحياة إلى ما يشبه الحياة!

وأَبوك هو أبوك. كلما جلست إليه تَكَلَّمتما على عجل، فهو لا يكشف عن جرحه أمام ابنه. وأنتَ لا تعرف كيف تخفي عنه قسوة الشفقة عليه، فورثتَ عنه الجرح. وفي صيف بعيد، على سطح بيت طينيّ بعيد، تحشرج صوت أبيك وهو يقول لكم: لم أَعد قادراً على تعليمكم، أنتم الثلاثة معاً. لقد تعبت. على واحدٍ منكم أن يتطوع بترك المدرسة ليعينني، لم يعد ظهري قادراً على حمل الصخرة وحدي. فتباريتم في الشهامة. كل واحد قال: أنا. فسالت دمعةُ أَبيك على مرأى منكم، وبكيتم معه وعليه. وفجأة قال: لا. لا أَحد. دخل القمر في المحاق

تلك الليلة، واحتضن كل واحد منكم حلمه الصغير بتؤدة ونام.

على قبر أبيك، النائم في حضن أَبيه، قرأت الفاتحة. وقلت: جاء الآن دوري. مات أبوك بضربة شمس أثناء تأديته فريضة الحج. وأَنت تهيىء الآن نفسك للموت بعد الحج إلى قبر أبيك. لا بضربة شمس تموت، فالفصل ربيع، بل بضربة قمر!

يقع الخيال من أعلى، يتدحرج كحبّة كستناء على الشارع المفضي إلى عكا، ويختفي في زحام السيارات. الخيال انبثاق الصورة عمودياً من لحظة حبلى بمعلوم يسيّره اللاوعي إلى مجهول. الخيال قرينُ الكائن السريُّ ومُعينُهُ على تصحيح أَخطاء طباعية في كتاب الكون. هو عين البصيرة التي ترى ولا تُرى، فإذا رأيناه خارج أفعاله علمنا أنه مريض. وإذا مرض الخيال مات الشعر. أَلهذا أَنتَ خائف من عكا التي نَعتَّها بأنها «أَقدم المدن الجميلة / أَجمل المدن القديمة؟». عكا مغامرة ضياعك الأولى، وبحرك الأول. هي هي، لكن الخيال يتساقط عن جدرانها كما يتساقط الكلس. وأَنت تمشي خالياً من عمل الخيال في دهاليزها المعتمة، كما تمشي على نفسك: أمام البحر

هنا باب يفضي إلى سجنك الأول. وعلى هذا الكورنيش تأملت غروب الشمس، وأكواز الذرة الصفراء في أيدي فتيات يتهادين ويروين حكايات صغيرة، تمنَّيتَ لو اندسستَ فيها وكانت لك حكاية بينهن، أو لو كنت أنت الحكاية!

وفي حيفا، تحاشيت اختبار الخيال في الغرفة التي درَّبك فيها الخيال على طريقة الخروج من ذاتك، واكتفيت بإلقاء نظرة الطائر على ريشة علقت بشجرة النارنج.

سقط الخيال عن الشجرة! فهل لك أن ترفعه قليلاً ... قليلاً إلى أعلى!

وقلت: «لو لم تكن الأرض كروية لواصلت السير»!

XIX

مُسَجَّى أَمامي بلا ضجيج، هادئاً هادئاً، ولا رأي لك في ما حولك. فوقنا سماء محايدة. وحولنا جهات تعرَّف بأنواع أشجارها:

الشرق نخلةٌ عاقر،

الغرب أَكاليبتوس لطرد البعوض،

الشمال صفصافة في ملتقى زمنين،

والجنوب زيتونة...

وأنا أتلو على مسامع المكان اللاهي عنك وعني مقاطع

من خطبتك عليك، خطبتك التي شئت أن تكون طويلة الظلال، لا لشيء... بل لأن الفراغ المحيط بنا قد يحتاج إلى ما يُسلِّيه. ولا أَحد معنا، لا أَحد يهدِّدنا بالمقاطعة من فرط الضجر، لا أَحد ينبهني إلى أَن الرثاء مديح تأخر عن موعده حياةً كاملة.

وأَنت مُسَجّى أمامي كفكرة تمتحن صبر صاحبها على احتمالها، وكقصيدة تصغي إلى شاعرها وتختبر سلامة البصر والبصيرة، فتقول: صدقت أو كذبت عليَّ!

قلت لي: أوصيك بك، فقد خانني الكثيرون ممن أَحببت .. «خانوني كالغدير». وحسدوني على جرحي البليغ، لأنه عثر على ما يشبه الوصف البليغ لسطوة الغياب الحاضر في كلامي. لذلك أَعفيتُهُم من حرَج النفاق، فلن تبلغ القلوب الحناجر إن كانت ثقيلة، وأَعفيتهم من دموع تذرفها رائحة الفلفل.

وقلت لي: لا حاجة بي إلى الاعتراف، فلا سرّ لي. وفضيحتي هي اللاسرّ، منذ سبق قلبي لساني. أحبُّ الشيء وأَنقلب عليه لئلا يستعبدني. ولا أكره إلّا الكراهية لأنها سُمّ في الطاقة المنذورة لحبّ أشياء بسيطة. لذا

أَشفقت على الكارهين من إدمان السير على ظل ظنّوه خطاهم، وسجنوا حياتهم في ابتكار وحيد: أَخطائي!

وقُلْتَ لي: لم أختلف مع امرأة إلّا على تعريف الحبّ. وقُلْتَ لي: ما يُعَرَّف يُعْرَف، وما يُعْرَفُ يُمْتَلَك، وما يُمْتَلَك يُنْتَهَك ويُسْتَهْلَك ويَهْلَك.

وقلت لي: ليس الحبُّ سعادة ولا شقاء، بل هو عثورُ الحواس على اختلاف الشَبَه وائتلافه في رغبةٍ تتجدَّد. ولو عرفنا من يُحبُّنا أكثر من معرفتنا مَنْ نحبّ... لَظلّ الحب ملتبساً كما هو دائماً، وظلّت السعادة لعبة نرد، ولكان على المتكلم أن يستعير عاطفة الغائب... لو عرفنا من يحبّنا قبل أن نعرف من نحبّ!

وقلت لي: إذا متّ قبلك، فادرأ عني الكلماتِ المُعَلَّبَةَ التي انقضت مدة صلاحيتها منذ وقف خطيب على منبر، واذرأ الأَرض التي أنام قربها لعلَّ عشبة تدلُّك على أن الموت فلاحة من نوع آخر.

فماذا أقول لك، يا صاحبي، في حضرة هذا الغياب الناصع، وقد أَمليتَ عليَّ خطبة وداعٍ متقطّعة الزمن،

خاليةً من الشجن، محكمة الفوضى، ولا دمعة فيها خوفاً على الكلام من البلل،

أجل ... أجل، لا وصيّة لك إلّا النهي عن الإفراط في التأويل. أعداؤك كثر، مرئيون وسرّيون. وقلت لي: لا تخش إلّا الذين لا يعرفون الملل. أما الأحبّة، فهم هناك منهمكون في التقاط ما تقدِّمه الحياة من هبات صغيرة وتبرعات... كتحية من زهرة عشوائية الضحك، وانتباه فتاة إلى كرز ينمو، رويداً رويداً، في أحد أقاليم الجسد، سعداء لأن أحداً من أبنائهم لم يمت اليوم، ولأن زلزالاً لم يضرب خيامهم المنصوبة على سفح هاوية. ويضجرون من الأمل كما يضجر المرء من عشاء متكرر، لكنهم يعودون إلى العشاء، وإلى الأمل.

فاحذر ــ قلت لي ــ مَنْ لا يعرفون الملل ويفرطون في التأويل. ففي وسعهم أن يُشَرِّحوا الوردة بحثاً عن التفسُّخ في مصدر الرائحة، وأن يَشْرَحُوا للعاشق أن القبلة هي تبادل أوبئة. وفي وسعهم أن يحاكموك على استعارة شعرية وعلى حرية خيال، لأن الجمال يُهينهم، ولأنَّ الشعر الوطني الصحيح هو القبيح، ولأن غيابك هذا قد يحرمهم من أسباب الحياة!

وقلت لي: أعدائي كثر، فلا تحبّني كي لا يزدادوا!

ما عليك، ما عليك. هنا، حيث لا أعرف قبرك من مسقط رأسي، لا يحاكم أَحد أحداً، ولا يقودنا هودج الكلمات إلى واقع أو خيال. هنا نصفِّي الحساب مع القلب، ونقول للفكر: ابتعد، فقد كانت للموتى حياة ما قبل هذا الموت. حياة أَقلُّ من حياة، وأكثر من زيارة عابرة. هنا ينظر القلب إلى أعلى، فيتجلَّى ندم تخلَّف عن موعده، ندم على ما لم نفعل: لماذا لم نأخذ الحياة على محمل الجد؟ لماذا أَسرعنا إلى هذا الحد، ما دامت النهاية هي الواضحة والبداية هي الغامضة.

وقلتَ لي: لم يعطنا صخب البحث عن الحياة، في الحياة، فرصة الامتثال الكامل لهدي السليقة، وقلنا: إن الشعر هو الشاعر. وكان علينا أَن نصدِّق الشعر ونكذِّب الشاعر. فهل لي أَن أقرأك من جديد لأدرك كيف تسوس المهارةُ ريح العبارة، لتجعل من كل شجرة أنثى، ومن كل أنثى شجرة، فنكذب على الأنثى وعلى الشجرة معاً؟ أبغير هذا يصدق الشعر؟

وقلتَ لي: إن تطابق الصورة مع الواقع خبر يدفع الخيال

إلى الحياد. فلتكذب صورة الشيء على الشيء لنرى ما بعد الشيء، لنرى في ضوء الرؤيا ما يجنّبنا العدم.

فبأيِّ قلبٍ من قلوبي الكثيرة أناديك: انتظرني مهما تأخرتُ. أما عِشْتَ بدلاً مني، كما مات أحد الموتى بدلاً مني دون أن أَقول له: شكراً! فما أنا إلّا هو دون أن أراه، أنا المدين لمصادفة باذخة العبث، في شارع لو أسرعتُ قليلاً أو أبطأتُ قليلاً لمتُّ نيابة عن سواي، وعاش حياتي نيابة عني؟ فما هو إلّا أنا دون أن يراني... هو المدين لمصادفة باذخة العبث. كم قلنا إن علينا أن نكمل حياة الآخرين فينا، لا كما نريدها نحن فحسب، بل كما أرادها أصحابها الذين نعيش بدلاً منهم.

وقلتَ لي: كُنِّي، ولا تَخُنّي إلّا بقدر ما يقصيك الإيقاع عني، وتُرْجعك قافيةٌ ضروريّة التكرار إليّ.

وقلتَ لي: لا تفكِّر بالخلود، فما هو إلّا أحد الآثار السلبية أو الإيجابية لحادثة الوجود، وخوف الروح، لحظة انعتاقها من جسد عرفته وأَلفته على سكنى لا عهد لها بها، أو عودتها إلى من استعرتُ منه الحياة حين مات نيابةً عني.

وأَنت مُسَجّى أمامي، لا أعرف من هو الميت فيك ومن

هو الحيّ، إلّا بقدر ما تملي عليَّ من خطبة أَرَدْتَها طويلةً لتدريب الروح على اختبار حريتها أو عبوديتها في ما يتاح لها من كائنات ومن كلمات. فإن كُنْتَ أنت القائلَ ما أقول لك الآن في صمتك هذا، فلن يكون الموت أكثر من وسيلة لاهتداء الروح إلى ما أُعدّ لها من سفر. وإن كنتُ أنا القائل ما أقول لك الآن، على هذا الحجر، فإني ذريعة الموت القصوى لتعريف الحياة بضدها الغامض، ضدها العاجز عن تعريفها بضدِّها في مكان، في لا مكان آخر، أَطلق الخائفون من العدم عليه لقب الخلود.

فنم هادئاً هادئاً إذا ما استطعت إلى ذلك سبيلاً /

ونَمْ هادئاً في كلامِكَ

واْحلم بأنك تحلُمُ،

نَمْ هادئاً ما استطعتَ

سأطرد عنك البعوضَ

ودمعَ التماسيح

والأصدقاءِ الذين أحبّوا جروحك

وانصرفوا عنك حين جعلتَ

صليبك طاولةً للكتابة

نَمْ هادئاً قرب نفسك

نَـمْ هادئاً،

سوف أحرُسُ حُلْمَكَ،

وحدي ووحدك في هذه الساعةِ

الأرضُ عاليةٌ

كالخواطر عاليةٌ

والسماء مجازيّة كالقصيدةِ

زرقاءُ، خضراءُ، بيضاءُ،

بيضاءُ، بيضاءُ، بيضاءُ

XX

سَطْراً سَطْراً، أُنثرك أمامي بكفاءةٍ لم أُوتَها إلَّا في المطالع. وأُطيل خطبتي كشاعرٍ يحتفظ بالمقطع الأخير، ليطيل التأمُّل في ما مضى من هواياته /

هواياته هي عدُّ الدرجات التي يراها أَمامه، والمشيُ على شارع جانبيّ وجمعُ الأصدافُ ... ومؤانسةُ الكسل /

أَلكَسَلُ اجتهادٌ ومهارة. إفراغُ القلب مما يزيد عن حاجته إلى الخفقان، وتمييزٌ بين الوقت والزمن. فمن يملك وقتاً أكثر يتحرر من خشية الزمن /

أَلزمنُ نهرٌ سَلِسٌ لمن لا ينتبه إليه، وحشيٌّ شَرِسٌ لمن يحدِّق إليه، فتخطفه الهاوية /

ألهاويةُ هي إغواء الأعماق وجاذبية المجهول، إذ تصبح السماء حفرة واسعة كثيفة الغيوم /

ألغيومُ تُغَطِّيك، يا صاحبي، بقطنها وتغطِّيني... في هذا المكان الهارب من صفاته إلى ما تُسْبلُ عليه الغيومُ من خفَّة الشكل ومادَّةِ المعنى /

ألمعنى أَيضاً يلوِّح، من بعيد، بيد سماويّةٍ مبتورةِ الأصابع، من شدة الحراثة في أَرض غير ذات زرع، ولا سعادة /

أَلسعادة مادَّةٌ روحيَّةٌ يختلف على تعريفها مَنْ يتفقون على أن الحظَّ موهبةٌ، والموهبةَ حظٌّ، ويختلف على مديحها مَنْ يملكونها ويدخرونها في صندوق مقفل. وما هي إلّا رشوة من المستحيل /

أَلمستحيل هو الـمُمْكن الطَموحُ، يخرج إلى الشارع شاهراً مقصّاً لتقليم الأغصان اليابسة والأفكار، وتعليم الحالم إدارة النهار على وتيرة ما يرى /

يرى أن رفرفة أجنحة الفراشة، في مروحة اللون، هي أفضل علاج للأَلم /

ألألم، إذ لا تفكر فيه، لا تحسُّ به. كأنه يُبَجِّل هدوءك هذا أمام عَدَمٍ لا يبدي رأياً فيك ولا تبدي رأياً فيه. لا يَرَى ولا يُرَى. هو اللاشيءُ وقد اكتمل /

واكتمل القَمَرُ على خلوتنا في هذا الفراغ. واكتملت ذاكرتي /

ذاكرتي رُمَّانة. هل أَفرطها عليك حبّةً حبّةً، وأَنثرها عليك لؤلؤاً أحمر يليق بوداع لا يطلب مني شيئاً غير النسيان /

أَلنسيانُ تدريبُ الخيال على احترام الواقع بتعالي اللغة، واحتفاظُ الأمل العصاميِّ بصورةٍ ناقصةٍ عن الغد /

ألغدُ، وهو هنا أمامنا الآن يا صاحبي، عارٍ من الزمن، مرميٌّ على حفرة، في انتظار ورقة توت ميتافيزيقية تُغَطِّي سَوْءَة العابر /

ألعابر من ليل الضوء إلى ضوء الليل /

أَلليلُ يهبط علينا. وعلينا أن نأبه بشواغل الذين تركونا

وذهبوا إلى ليلهم الخاصّ، ينسون أو يتذكرون مقطعاً من خطبة الوداع /

ألوداعُ هو الصمت الفاصل بين الصوت والصدى. أمّا الصوت فقد انكسر. وأَما الصدى فقد حَفَظَتْهُ وديانٌ وكهوفٌ مُرْهَفَةُ السَمْع كآذان كونيّة، وضخّمته صدىً للصدى /

ألصدى وصيّة الزائر للعابر، وقيافة الطائر للطائر، وإلحاح النهاية على إطالة الحكاية... الصدى هو نقش الاسم في الهواء /

أَلهواء باردٌ، يا صاحبي، بارد ومُنْعش. ولم يبق أحد سواي يُسلِّيك ويلهيك عما أنت فيه على مِتْرَيْ هذا العدم. ألَعَدَمُ متران محاطان بنبات يستعد لاستنشاق الأوكسجين. أَلعَدَمُ مُحَاصرٌ بهواء بارد ومنعش. سأبذر بُذُورَ بنفسجٍ على هذين المترين، وأسكب الماء لينهض العدم مهرولاً ويمضي بعيداً /

بعيداً، لا شأن لأحلامنا بما نفعل. الريحُ تحمل الليل وتمضي، ولا هدف /

أَلهدفُ يختلف من درب إلى درب. لكن الدروب كثيرةٌ ووعرة، والمؤونة من العمر قليلة /

وقليلةٌ هي الأغاني /

الأغاني، حسبنا منها استراق السمع إلى اعتذار الموت من بعض الموتى، واختلاس النظر إلى بحبوحة النثر /

ألنثر جارُ الشعر ونُزْهَةُ الشاعر /

ألشاعرُ هو الحائر بين النثر والشعر /

والشعرُ إخفاء الزوال عن الزائل، وجملةٌ اعتراضية بين الفعل والفاعل والمفعول به، كأنْ تقول: تَرَكَتِ المرأةُ، وهي تخفي دموعها، صاحبها. ففي الجملة الاعتراضية بين «تركت» و«صاحبها» وقت يكفي كي يذوب ملح الغضب، وتتلألأ النجوم /

ألنجومُ تُطِلُّ، يا صاحبي، علينا كَلَمعانِ أزرارٍ ذهبيَّة على معطف الأبدية. تُطِلُّ علينا من موت بعيد لم يصل إلينا بعد. وأنا أَتلو عليك خطبتي تندسّ نجمةٌ في كلامي وتضيء عتمتي: لعلّ الموت مجازٌ يذكّرنا بسرٍّ في الحياة لم ننتبه إليه، فما هو؟ /

ما هو؟ لو عرفناه لتغيّرتْ مشاريعُنا، فما لا نعرف موجود، وما نعرف محدود يتغيَّر. وعلى قبرك هذا ينبت عشب أقوى منك ومني، فلا أعرف هل أَحزن أم لا أحزن لأن الحياة أرملةٌ راقصةٌ لا تكترث إلّا بما ينقصها /

ينقُصُها مديحُ الموتى وعتابُهم في آن واحد: لو قُلتِ لنا مَن أنتِ، وأن هنالك موتاً أَقسى منك، لأَحْبَبْنَاكِ وقدّسناك، وخفَّفنا من أَمتعة الرحلة /

ألرحلة غاية /

والغاية إغواء المجهول /

والمجهول بعيد عنا وقريب منا... يستدرجنا إلى الامتلاء بجهل لا حدَّ له، فنجتهد لإتقانِ جهلٍ آخر. لكننا قنعنا بالبحث عن معلوم يرشدنا إلى حياةٍ ما في الحياة، فصار المعلوم عصيّاً /

وعصيّاً كان كل شيء. في ظلّك حشد ظلال، فلا تدري من يمشي فيك. وفيك تقاطع طرق ملأى بخطى غزاة هبطوا عليك كمظليّين مُدَرَّبين على استخدام محاريثك. وفي اسمك أخطاء سبَّبها حريق هائل في الخارطة. وعلى

بيتك تُبْنَى آثارٌ رومانية. أما أنت، فلا صورة لك إلّا الشبح /

شَبَحٌ يمرِّن الحارس على السهر. شايٌ وبندقية. فإذا غلب النعاسُ الساهر برد الشايُ، ووقعت من يده البندقية، وتسلَّل الهنديُّ الأَحمر إلى الحكاية /

ألحكايةُ هي أنك هندي أحمر /

أَحْمَرُ الريش، لا أحمر الدم، وأنك كابوسُ الساهر /

ألساهر على كَشِّ الغياب، وعلى تدليك عضلات الأبد /

الأَبد ملكية الحارس. عقار واستثمار. وإذا لزم الأمر فهو جنديّ منضبط في حرب لا هدنة فيها. ولا يلوح بعدها سلام /

سلام عليك يوم وُلدت، ويوم تبعث حياً في أوراق الشجرة /

الشجرةُ لفظةُ شُكْرٍ خضراءُ ترفعها الأرض كنجوى إلى جارتها السماء /

والسماءُ تكافئها بقطرات مطر /

مطر عليك وعليّ. مطر خفيف ينعشنا في أول هذا الليل. أُحصيه قطرة قطرة كما أُحصي دقات القلب الظامىء إلى بلل، فأطيل وقوفي وأطيل خطبتي، لعلَّك تنهض وتعود معي إلى أَيّ أيْن، أو أمضي معك إلى لا أَين، كما لو نُودِيَ بي أنِ انتظرِ الوحي /

أَلوحيُ برهان القلب على ما لا يعرف، على ما هو أَعلى /

أَعلى وأَبعد. وأرى طائراً يحملني ويحملك، ونحن جناحاه، إلى ما وراء الرؤيا، في رحلة لا نهاية لها ولا بداية، لا قصد ولا غاية. لا أحدِّثك ولا تحدِّثني. ولا نسمع إلَّا موسيقى الصمت /

ألصمت اطمئنانُ الصاحب للصاحب. وثِقَةُ الخيال بنفسه بين مَطَرٍ وقَوْسِ قُزَح /

قَوْسُ قُزَح هو تحرُّش الوحي بالشاعر، بلا استئذان ... وافتتان الشاعر بنثر القرآن /

فبأي آلاء ربكما تُكَذِّبان /

وغائبان أنا وأنت، وحاضران أنا وأَنت،

وغائبان /

فبأيِّ آلاء ربكما تُكَذِّبان.

أَثَرُ الفراشة

[يوميات]

المحتويات

[صفحات مختارة من يوميات،
كُتبت بين صيف ٢٠٠٦ وصيف ٢٠٠٧]

البنتُ / الصرخة

على شاطىء البحر بنتٌ. وللبنت أَهلٌ
وللأهل بيتٌ. وللبيت نافذتان وبابْ...
وفي البحر بارِجَةٌ تتسَلَّى
بصَيْدِ المُشَاة على شاطىء البحر:
أَربعَةٌ، خَمْسَةٌ، سَبْعَةٌ
يسقطون على الرمل، والبنتُ تنجو قليلاً
لأنَّ يداً من ضبابْ
يداً ما إلٰهيَّةً أَسْعَفَتْها، فنادتْ: أَبي
يا أَبي! قُمْ لنرجع، فالبحر ليس لأمثالنا!
لم يُجِبْها أبوها المُسَجَّى على ظلِّهِ

في مهبِّ الغيابْ

دَمٌ في النخيل، دَمٌ في السحابْ

يطير بها الصوتُ أَعلى وأَبعدَ مِنْ
شاطىء البحر. تصرخ في ليل برّية،
لا صدى للصدى.
فتصير هي الصرخةَ الأبديَّةَ في خَبَرٍ
عاجلٍ، لم يعد خبراً عاجلاً
عندما
عادت الطائرات لتقصف بيتاً بنافذتين وبابْ!

ذباب أخضر

أَلمشهد هُوَ هُوَ. صيفٌ وعَرَقٌ، وخيال يعجز عن رؤية ما وراء الأفق. واليوم أفضلُ من الغد. لكنَّ القتلى هم الذين يتجدّدون. يُولَدُون كُلَّ يوم. وحين يحاولون النوم يأخذهم القتلُ من نعاسهم إلى نومٍ بلا أحلام. لا قيمة للعدد. ولا أَحد يطلب عوناً من أحد. أصوات تبحث عن كلمات في البرية، فيعود الصدى واضحاً جارحاً: لا أَحد. لكن ثمَّةَ من يقول: «من حق القاتل أن يدافع عن غريزة

القتل». أمَّا القتلى فيقولون متأخرين: «من حق الضحية أن تدافع عن حَقِّها في الصراخ». يعلو الأذان صاعداً من وقت الصلاة إلى جنازات متشابهة: توابيتُ مرفوعةٌ على عجل، تدفن على عجل... إذ لا وقت لإكمال الطقوس، فإنَّ قتلى آخرين قادمون، مسرعين، من غاراتٍ أخرى. قادمون فُرَادى أو جماعات... أو عائلةً واحدةً لا تترك وراءها أيتاماً وثكالى. السماء رماديَّةٌ رصاصية، والبحر رماديٌّ أزرق. أَمَّا لون الدم فقد حَجَبَتْهُ عن الكاميرا أَسرابٌ من ذباب أَخضر!

كقصيدةٍ نثريّة

صيفٌ خريفيٌّ على التلال كقصيدةٍ نثرية. النسيم إيقاعٌ خفيف أحسُّ به ولا أَسمعه في تواضُع الشجيرات. والعشب المائل إلى الأصفرار صُوَرٌ تتقشَّفُ، وتُغري البلاغة بالتشَبُّه بأَفعالها الماكرة. لا احتفاء على هذه الشِعاب إلّا بالـمُتاح من نشاط الذُوريّ، نشاطٍ يراوح بين معنىً وعَبَث. والطبيعة جسدٌ يتخفَّف من البهرجة والزينة، ريثما ينضج التين والعنب والرُمَّان ونسيانُ شهواتٍ يوقظها المطر. «لولا حاجتي الغامضة إلى الشعر لَـمَا كنت في حاجة

إلى شيء» ـ يقول الشاعر الذي خَفَّتْ حماسته فقلَّت أخطاؤه. ويمشي لأن الأطباء نصحوه بالمشي بلا هدف، لتمرين القلب على لامبالاةٍ ما ضروريةٍ للعافية. وإذا هجس، فليس بأكثر من خاطرة مجانيّة. الصيف لا يصلح للإنشاد إلّا في ما ندر. الصيف قصيدةٌ نثريَّةٌ لا تكترث بالنسور المحلِّقة في الأعالي.

ليتني حجر

لا أَحنُّ إلى أيِّ شيءٍ
فلا أمسِ يمضي، ولا الغَدُ يأتي
ولا حاضري يتقدَّمُ أَو يتراجَعُ
لا شيء يحدث لي!
ليتني حَجَرٌ ــ قُلْتُ ــ يا ليتني
حَجَرٌ ما ليصقُلَني الماءُ
أَخضرٌ، أَصفَرٌ... أُوضَعُ في حُجْرَةٍ
مثلَ مَنْحُوتةٍ، أَو تمارينَ في النحت...
أو مادَّةً لانبثاق الضروريِّ
من عبث اللاضروريّ...

يا ليتني حجرٌ
كي أَحنَّ إلى أيٍّ شيء!

أبعد من التماهي

أَجلسُ أمام التلفزيون، إذ ليس في وسعي أن أفعل شيئاً آخر. هناك، أمام التلفزيون، أَعثُرُ على عواطفي، وأَرى ما يحدث بي ولي. ألدخان يتصاعد مني. وأَمدُّ يدي المقطوعةَ لأمسك بأعضائي المبعثرة من جسومٍ عديدة، فلا أَجدها ولا أهرب منها من فرط جاذبيّة الألم. أَنا المحاصَرُ من البرِّ والجوِّ والبحر واللغة. أقلعتْ آخرُ طائرةٍ من مطار بيروت ووضعتني أمام التلفزيون، لأشاهد بقيَّة موتي مع ملايين المشاهدين، لا شيء يثبت أني

موجود حين أفكِّر مع ديكارت، بل حين ينهض مني القربان، الآن، في لبنان. أَدخُلُ في التلفزيون، أنا والوحش. أَعلم أنَّ الوحش أقوى مني في صراع الطائرة مع الطائر. ولكني أَدمنت، ربما أكثر مما ينبغي، بُطُولَةَ المجاز: التهمني الوحشُ ولم يهضمني. وخرجتُ سالماً أكثر من مرة. كانت روحي التي طارت شَعَاعاً مني ومن بطن الوحش تسكن جسداً آخر أَخفَّ وأَقوى، لكني لا أعرف أين أنا الآن: أمام التلفزيون، أم في التلفزيون. أما القلب فإني أراه يتدحرج، ككوز صنوبر، من جبل لبناني إلى رَفَح!

العدوّ

كنتُ هناك قبل شهر. كنتُ هناك قبل سنة. وكنت هناك دائماً كأني لم أَكن إلَّا هناك. وفي عام ٨٢ من القرن الماضي حدث لنا شيء مما يحدث لنا الآن. حُوصرنا وقُتِلْنا وقاومنا ما يُعْرَضُ علينا من جهنم. القتلى / الشهداء لا يتشابهون. لكلٍّ واحد منهم قوامٌ خاصْ، وملامح خاصة، وعينان واسمٌ وعمر مختلف. لكن القتلة هم الذين يتشابهون. فَهُم واحدٌ مُوزَّعٌ على أَجهزة معدنية. يضغط على أزرار إلكترونية. يقتل ويختفي. يرانا ولا

نـراه، لا لأنـه شـبـح، بـل لأنـه قـنـاع فـولاذيّ لـفـكـرة ... لا مـلامـح لـه ولا عـينان ولا عـمـر ولا اسـم. هـو ... هـو الـذي اخـتـار أن يـكـون لـه اسم وحيد: العَدُوّ!

نيرون

ماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرّج على حريق لبنان؟ عيناه زائغتان من النشوة، ويمشي كالراقص في حفلة عُرْسٍ: هذا الجنون، جنوني، سيِّدُ الحكمة. فلتُشْعلوا النار في كل شيء خارج طاعتي. وعلى الأطفال أَن يتأدَّبوا ويتهذّبوا ويكُفُّوا عن الصراخ بحضرة أنغامي!

وماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرَّج على حريق العراق؟ يُسْعِدُهُ أن يُوقِظَ في تاريخ الغابات ذاكرة تحفظ اسمه عَدُوّاً لحمورابي

وجلجامش وأَبي نواس: شريعتي هي أُمُّ الشرائع. وعشبة الخلود تنبت في مزرعتي. والشعر؟.. ما معنى هذه الكلمة؟

وماذا يدور في بال نيرون، وهو يتفرَّج على حريق فلسطين؟ يُبهجة أن يدرج اسمه في قائمة الأنبياء نبيّاً لم يؤمن به أَحد من قبل ... نبيّاً للقتل كلَّفه الله بتصحيح الأخطاء التي لا حصر لها في الكتب السماوية: أنا أَيضاً كليمُ الله!

وماذا يدور في بال نيرون وهو يتفرَّج على حريق العالم؟ «أنا صاحب القيامة». ثم يطلب من الكاميرا وقف التصوير، لأنه لا يريد لأحد أن يرى النار المشتعلة في أَصابعه، عند نهاية هذا الفيلم الأميركي الطويل!

الغابة

لا أسمعُ صوتي في الغابة، حتى لو
خَلَتِ الغابةُ من جوع الوحشِ ...
وعاد الجيشُ المهزومُ أو الظافرُ، لا فرق،
على أشلاء الموتى المجهولين إلى الثكَنات
أو العرشِ !
ولا أسمع صوتي في الغابة، حتى لو
حملته الريحُ إليّ، وقال لي:
«هذا صوتُكَ» ... لا أَسمعُهُ

لا أسمع صوتي في الغابة، حتى لو

وقف الذئب على قدمين وصفَّق لي:
«إني أسمع صوتك، فلتأْمُرْني! »
فأقول: الغابةُ ليست في الغابة
يا أَبتي الذئبَ ويا ابني!

لا أَسمع صوتي إلّا إنْ
خَلَتِ الغابةُ مني
وخلوتُ أنا من صمت الغابة!

حَمام

رفٌّ من الحمام ينقشع فجأة من خلل الدخان. يلمع كبارقة سِلْمٍ سماوية. يحلِّق بين الرماديّ وفُتات الأزرق على مدينة من ركام. ويذكِّرنا بأن الجمال ما زال موجوداً، وبأن اللا موجود لا يعبث بنا تماماً إذ يَعِدُنا، أو نظنُّ أنه يعدنا بتجلِّي اختلافه عن العدم. في الحرب لا يشعر أَحد منا بأنه مات إذا أَحسَّ بالألم. الموت يسبق الألم. والألم هو النعمة الوحيدة في الحرب. ينتقل من حيّ إلى حيّ مع وقف التنفيذ. وإذا حالف الحظّ أحداً

نسيَ مشاريعه البعيدة، وانتظر اللا موجود وقد وُجِدَ مُحَلِّقاً في رفٍّ حمام. أرى في سماء لبنان كثيراً من الحمام العابث بدخان يتصاعد من جهة العدم!

البيتُ قتيلاً

بدقيقة واحدة، تنتهي حياةُ بيتٍ كاملة. البيتُ قتيلاً هو أيضاً قَتْلٌ جماعيّ حتى لو خلا من سُكَّانه. مقبرة جماعية للموادّ الأولية المُعَدَّةِ لبناء مبنى للمعنى، أو قصيدةٍ غير ذات شأن في زمن الحرب. البيت قتيلاً هو بَتْرُ الأشياء عن علاقاتها وعن أسماء المشاعر. وحاجةُ التراجيديا إلى تصويب البلاغة نحو التَّبَصُّر في حياة الشيء. في كل شيء كائنٌ يتوجَّع... ذكرى أَصابع وذكرى رائحة وذكرى صورة. والبيوت تُقْتَلُ

كما يُقْتَلُ سكانها. وتُقْتَلُ ذاكرةُ الأشياء: الحجر والخشب والزجاج والحديد والإسمنتُ تتناثر أشلاء كالكائنات. والقطن والحرير والكتّان والدفاتر والكتب تتمزّق كالكلمات التي لم يتسَنَّ لأصحابها أن يقولوها. وتتكسَّر الصحون والملاعق والألعاب والأسطوانات والحنفيّات والأنابيب ومقابض الأبواب والثلّاجة والغسّالة والمزهريات ومرطبانات الزيتون والمخللات والمعلبات كما انكسر أصحابها. ويُسحق الأبْيَضَان الملح والسُّكّر، والبهارات وعلب الكبريت وأقراص الدواء وحبوب منع الحمل والعقاقير المُنَشطة وجدائل الثوم والبصل والبندورة والبامية المُجَفَّفة والأرُزُّ والعدس، كما يحدث لأصحابها. وتتمزَّق عقود الإيجار ووثيقة الزواج وشهادة الميلاد وفاتورة الماء والكهرباء وبطاقات الهوية وجوازات السفر والرسائل الغرامية، كما تتمزّق قلوب أَصحابها. وتتطاير الصُّوَر وفُرَشُ الأسنان وأمشاط الشَّعْر وأدوات الزينة والأحذية والثياب الداخلية والشراشف والمناشف كأسرار عائلية

تُنْشَرُ على الملأ والخراب. كل هذه الأشياء ذاكرةُ الناس التي أُفْرِغَتْ من الأشياء، وذاكرة الأشياء التي أُفْرِغَتْ من الناس... تنتهي بدقيقة واحدة. أشياؤنا تموت مثلنا. لكنها لا تُدْفَنْ معنا!

مَكْرُ المجاز

مجازاً أقول: انتصرتُ
مجازاً أقول: خسرتُ ...
ويمتدُّ وادٍ سحيقٌ أمامي
وأَمتدُّ في ما تبقّى من السنديانْ ...
وثَمَّة زيتونتان
تَلُمَّانني من جهاتٍ ثلاثٍ
ويحملني طائرانْ
إلى الجهة الخاليةْ
من الأَوْج والهاويةْ
لئلَّا أقول: انتصرتُ
لئلَّا أقول: خسرتُ الرهانْ!

ألبعوضة

أَلبعوضةُ، ولا أَعرف اسم مُذَكَّرها، أشَدُّ فَتْكاً من النميمة. لا تكتفي بمصّ الدم، بل تزجّ بك في معركة عَبَثيّة. ولا تزور إلّا في الظلام كَحُمَّى المتنبي. تَطِنُّ وَتَزُنُّ كطائرةٍ حربية لا تسمعها إلّا بعد إصابة الهدف. دَمُكَ هو الهدف. تُشْعل الضوء لتراها فتختفي في رُكْنٍ ما من الغرفة والوساوس، ثم تقف على الحائط ... آمنةً مسالمةً كالمستسلمة. تحاول أن تقتلها بفردة حذائك، فتراوغك وتفلت وتعاود الظهور الشامت. تشتمها

بصوت عال فلا تكترث. تفاوضها على هدنة بصوت وُدِّي: نامي لأنام! تظنُّ أَنك أَقْنَعْتَها فتطفيء النور وتنام. لكنها وقد امتصت المزيد من دمك تعاود الطنين إنذاراً بغارة جديدة. وتدفعك إلى معركة جانبيّة مع الأَرَق. تشعل الضوء ثانية وتقاومهما، هي والأرق، بالقراءة. لكن البعوضة تحطُّ على الصفحة التي تقرؤها، فتفرح قائلاً في سرّك: لقد وَقَعَتْ في الفخّ. وتطوي الكتاب عليها بقُوَّة: قَتَلْتُها... قتلتُها! وحين تفتح الكتاب لتزهو بانتصارك، لا تجد البعوضة ولا الكلمات. كتابك أَبيض!. البعوضة، ولا أعرف اسم مُذَكَّرها، ليست استعارة ولا كنايةً ولا تورية. إنها حشرة تحبُّ دمك وتَشُمُّه عن بُعْد عشرين ميلاً. ولا سبيل لك لمساومتها على هدنة غير وسيلة واحدة: أن تغيِّر فصيلةَ دمك!

نسر على ارتفاع منخفض

قال المسافرُ في القصيدة

للمسافر في القصيدة:

كم تبقَّى من طريقكَ؟

ــ كُلُّهُ

ــ فاذهبْ إذاً، واذهبْ

كأنَّكَ قد وصلتَ ... ولم تصلْ

ــ لولا الجهات، لكان قلبي هُدْهُداً

ــ لو كان قلبُكَ هدهداً لتبعتُهُ

ــ مَنْ أَنتَ؟ ما اسمُكَ؟

ــ لا اسمَ لي في رحلتي

ــ أأراكِ ثانيةً؟

ــ نعم. في قِمَّتَيْ جَبَـلَيْن بينهما

صدىً عالٍ وهاويةٌ ... أراكَ

ــ وكيف نقفز فوق هاويةٍ

ولسنا طائِرَيْنِ؟

ــ إذنْ، نغنِّي:

مَنْ يرانا لا نراهُ

ومَنْ نراهُ لا يرانا

ــ ثم ماذا؟

ــ لا نغنِّي

ــ ثم ماذا؟

ــ ثم تسألني وأسألُ:

كم تبقَّى من طريقكَ؟

ــ كُلُّهُ

ــ هل كُلُّهُ يكفي لكي يَصِلَ الـمُسَافِرُ؟

ــ لا. ولكني أرى نسراً خرافياً

يحلِّقُ فوقنا... وعلى ارتفاعٍ منخفضْ!

واجب شخصي

هتفوا له: يا بطل! واستعرضوهُ في الساحات. نَطَّتْ عليه قلوب الفتيات الواقفات على الشرفات، ورششنه بالأَرُزِّ والزنبق. وخاطبه الشعراء المتمردون على القافية بقافية ضروريّة لتهييج اللغة: « يا بَطَلْ! أنتَ الأَمَلْ». وهو، هو المرفوع على الأكتاف رايةً منتصرة، كاد أن يفقد اسمه في سيل الأوصاف. خجول كعروس في حفلة زفافها. «لم أفعل شيئاً. قمت بواجبي الشخصي». في صباح

اليوم التالي، وجد نفسه وحيداً يستذكر ماضياً بعيداً يلوِّح له بيد مبتورة الأصابع «يا بطل! أنت الأمل». يتطلع حوله فلا يرى أحداً من المحتفلين به البارحة. يجلس في جُحرْ العزلة. ينقِّبُ في جسده عن آثار البطولة. ينتزع الشظايا ويجمعها في صحنِ تَنَك، ولا يتألم... «ليس الوجع هنا. الوجع في موضع آخر. لكن من يستمع الآن إلى استغاثة القلب»؟ أحسَّ بالجوع. تفقَّد معلبات السردين والفول فوجدها منتهية الصلاحية. ابتسم وغمغم: «للبطولة أيضاً تاريخ انتهاء صلاحية». وأدرك أنه قام بواجبه الوطنيّ!

عَدُوّ مشترك

تمضي الحرب إلى جهة القيلولة. ويمضي المحاربون إلى صديقاتهم متعبين وخائفين على كلامهم من سوء التفسير: انتصرنا لأننا لم نمت. وانتصر الأعداء لأنهم لم يموتوا. أمَّا الهزيمة فإنها لفظة يتيمة. لكنَّ المحارب الفرد ليس جندياً بحضرة من يُحبُّ: لولا عيناك المُصَوَّبتان إلى قلبي لاخترقتْ رصاصةٌ قلبي! أو: لولا حرصي على ألَّا أُقْتَلَ لما قتلتُ أحداً! أو: خفت عليك من موتي، فنجوت لأطمئنك عليَّ. أو: البطولة

كلمة لا نستخدمها إلّا على المقابر. أو: في المعركة لم أفكِّر بالنصر، بل فكرت بالسلامة وبالنمش على ظهرك. أو: ما أَضيق الفرق بين السلامة والسلام وغرفة نومك. أو: حين عطشتُ طلبتُ الماء من عدوي ولم يسمعني، فنطقت باسمك وارتويت... المحاربون من الجانبين يقولون كلاماً متشابهاً بحضرة من يُحِبُّون. أمَّا القتلى من الجانبين، فلا يدركون إلّا متأخرين، أن لهم عدواً مشتركاً هو: الموت. فما معنى ذلك، ما معنى ذلك؟

بقيَّةُ حياة

إذا قِيل لي: ستموتُ هنا في المساء
فماذا ستفعل في ما تبقَّى من الوقتِ؟
ــ أَنظُرُ في ساعة اليدِ
أَشربُ كأس عصيرٍ
وأَقْضُمُ تُفَّاحَةً
وأُطيلُ التأمُّلَ في نَمْلَةٍ وَجَدَتْ رِزْقها...
ثُمَّ أَنظر في ساعة اليدِ:
ما زال ثَمَّةَ وقتٌ لأَحلق ذقني
وأَغطسَ في الماء | أَهجسُ:
«لا بُدَّ من زينةٍ للكتابةِ

فليكُنِ الثوبُ أزرقَ»....
أَجلسُ حتى الظهيرة، حيّاً، إلى مكتبي
لا أرى أَثَرَ اللون في الكلمات
بياضٌ، بياضٌ، بياضٌ ...

أُعِدُّ غدائي الأخير
أَصبُّ النبيذ بكأسين: لي
ولـمَنْ سوف يأتي بلا موعدٍ.
ثُمَّ آخُذُ قَيْـلُولةً بين حُلْمينِ
لكنَّ صوتَ شخيري سيُـوقظُني ...
ثُمَّ أنظرُ في ساعة اليدِ:
ما زال ثَمَّةَ وقتٌ لأَقْرأَ
أَقرأُ فصلاً لدانتي ونصْفَ مُعَلَّقَةٍ
وأرى كيف تذهب مني حياتي
إلى الآخرين، ولا أَتساءل عَمَّنْ
سيملأُ نُقْصَانَها
ــ هكذا؟
ــ هكذا،

ثُمَّ ماذا؟

ـ أُمَشِّطُ شَعْري

وأَرمي القصيدةَ: هذي القصيدةَ

في سلَّة المهملات

وأَلبسُ أحدث قُمْصانِ إيطاليا

وأُشيِّعُ نفسي بحاشِيَةٍ من كَمَنْجات إِسبانيا

ثُمَّ

أمشي

إلى المقبرةْ!

لون أصفر

أزهارٌ صفراء توسِّع ضوء الغرفة. تنظر إليَّ أكثر مما أنظر إليها. هي أولى رسائل الربيع. أَهْدَتْنِيها سيِّدةٌ لا تشغلها الحرب عن قراءة ما تبقَّى لنا من طبيعة متقشفة. أَغبطها على التركيز الذي يحملها إلى ما هو أبعد من حياتنا المهلهلة ... أَغبطها على تطريز الوقت بإبرة وخيط أَصفر مقطوع من الشمس غير المحتلة. أُحدِّق إلى الأزهار الصفراء، وأُحسّ بأنها تضيئني وتذيب عتمتي، فأخفّ

وأشفّ وأجاريها في تبادل الشفافية. ويُغويني مجاز التأويل: الأصفر هو لونُ الصوت المبحوح الذي تسمعه الحاسة السادسة. صوت مُحَايِدُ النَّبْرِ، صوت عباد الشمس الذي لا يغيِّرُ دِينَه. وإذا كان للغيرة ـ لونِهِ من فائدة، فهي أن ننظر إلى ما حولنا بفروسية الخاسر، وأن نتعلم التركيز على تصحيح أخطائنا في مسابقاتٍ شريفة!

ليت الفتى شجرة

ألشجرة أخت الشجرة، أو جارتها الطيّبة. الكبيرة تحنو على الصغيرة، وتُمدُّها بما ينقصها من ظلّ. والطويلة تحنو على القصيرة، وترسل إليها طائراً يؤنسها في الليل. لا شجرة تسطو على ثمرة شجرة أخرى، وإن كانت عاقراً لا تسخر منها. ولم تقتل شجرةٌ شجرةً ولم تقلِّد حَطّاباً. حين صارت زورقاً تعلَّمت السباحة. وحين صارت باباً واصلت المحافظة على الأسرار. وحين صارت مقعداً لم تنسَ سماءها السابقة.

وحين صارت طاولة عَلَّمت الشاعر أن لا يكون حطاباً. الشجرة مَغْفَرةٌ وسَهَرٌ. لا تنام ولا تحلم. لكنها تُؤْتَمَنُ على أسرار الحالمين، تقف على ساقها في الليل والنهار. تقف احتراماً للعابرين وللسماء. الشجرة صلاة واقفة. تبتهل إلى فوق. وحين تنحني قليلاً للعاصفة، تنحني بجلال راهبة وتتطلع إلى فوق ... إلى فوق. وقديماً قال الشاعر: «ليت الفتى حجر». وليته قال: ليت الفتى شجرة!

وصلنا متأخرين

في مرحلة ما من هشاشةٍ نُسَمِّيها
نضجاً، لا نكون متفائلين ولا متشائمين.
أَقلعنا عن الشغف والحنين وعن تسمية
الأشياء بأضدادها، من فرط ما التبس
علينا الأمر بين الشكل والجوهر، ودرَّبنا
الشعورَ على التفكير الهادئ قبل البوح.
للحكمة أسلوبُ الطبيب في النظر إلى
الجرح. وإذ ننظر إلى الوراء لنعرف أَين
نحن منَّا ومن الحقيقة، نسأل: كم ارتكبنا
من الأخطاء؟ وهل وصلنا إلى الحكمة

متأخرين. لسنا متأكدين من صواب الريح، فماذا ينفعنا أن نصل إلى أيّ شيء متآخرين، حتى لو كان هنالك من ينتظرنا على سفح الجبل، ويدعونا إلى صلاة الشكر لأننا وصلنا سالمين ...

لا متفائلين ولا متشائمين، لكن متأخرين!

غريبان

يرنو إلى أَعلى
فيبصر نجمةً
ترنو إليهْ!

يرنو إلى الوادي
فيبصر قبرَهُ
يرنو إليهْ

يرنو إلى امرأةٍ،
تعذِّبُهُ وتعجبُهُ

ولا ترنو إليه

يرنو إلى مرآتِهِ
فيرى غريباً مثله
يرنو إليهْ!

ماذا ... لماذا كُلُّ هذا؟

يُسَلِّي نفسه، وهو يمشي وحيداً، بحديث قصير مع نفسه. كلمات لا تعني شيئاً، ولا تريد أن تعني شيئاً: «ماذا؟ لماذا كل هذا؟» لم يقصد أن يتذمر أو يسأل، أو يحكَّ اللفظة باللفظة لتقدح إيقاعا يساعده على المشي بخفَّةِ شاب. لكن ذلك ما حدث. كلما كرَّر: ماذا ... لماذا كل هذا؟ أحسَّ بأنه في صحبة صديق يعاونه على حمل الطريق. نظر إليه المارة بلا مبالاة. لم يظن أَحد أنه

مجنون. ظنوه شاعراً حالماً هائماً يتلقّى وحياً مفاجئاً من شيطان. أما هو، فلم يَتَّهم نفسه بما يسيء إليها. ولا يدري لماذا فكَّر بجنكيزخان. ربما لأنه رأى حصاناً بلا سرج يسبح في الهواء، فوق بناية مُهَدَّمة في بطن الوادي. واصل المشي على إيقاع واحد: «ماذا ... لماذا كل هذا؟» وقبل أن يصل إلى نهاية الطريق الذي يسير عليه كل مساء، رأى عجوزاً ينتحي شجرة أكاليپتوس، يسند على جذعها عصاه، يفك أزرار سرواله بيد مرتجفة، ويبول وهو يقول: ماذا ... لماذا كل هذا؟. لم تكتف الفتيات الطالعات من الوادي بالضحك على العجوز، بل رمينه بحبَّات فستق أَخضر!

موهبة الأمل

كلما فكَّر بالأمل أنهكه التعب والملل، واخترع سراباً، وقال: بأيّ ميزانٍ أَزِنُ سرابي؟ بحث في أدراجه عمَّن كانه قبل هذا السؤال، فلم يعثر على مُسَوَّداتٍ كان فيها القلبُ سريعَ العطب والطيش. ولم يعثر على وثيقة تثبت أنه وقف تحت المطر بلا سبب. وكلما فكَّر بالأمل اتسعت المسافة بين جسد لم يعد خفيفاً وقلبٍ أصيب بالحكمة. ولم يكرِّر السؤال: مَنْ أنا؟ من فرط ما هو

مُجَافٍ لرائحة الزنبق وموسيقى الجيران العالية. فتح النافذة على ما تبقَّى من أفق، فرأى قطَّتين تمازحان جَرْواً على الشارع الضيِّق، وحمامةً تبني عشاً في مدخنة. وقال: ليس الأمل نقيض اليأس، ربما هو الإيمان الناجم عن لا مبالاة آلهةٍ بنا ... تركتنا نعتمد على مواهبنا الخاصة في تفسير الضباب. وقال: ليس الأمل مادَّةً ولا فكرة. إنه موهبة. تناول قرصاً مضاداً لارتفاع ضغط الدم. ونسي سؤال الأمل ... وأَحسَّ بفرح ما ... غامض المصدر!

ما أنا إلّا هو

بعيداً، وراء خطاه
ذئابٌ تَعَضُّ شعاع القمرْ

بعيداً، أمام خطاه
نجوم تضيء أَعالي الشجرْ

وفي القرب منه
دمٌ نازفٌ من عروق الحجرْ

لذلك، يمشي ويمشي ويمشي

إلى أن يذوب تماماً
ويشربه الظلّ عند نهاية هذا السفرْ

وما أنا إلّا هُوَ
وما هو إلّا أنا
في اختلاف الصُّوَرْ!

لم أحلم

متنبّهاً إلى ما يتساقط من أَحلامي، أَمنع عطشي من الإسراف في طلب الماء من السراب. أَعترفُ بأني تعبت من طول الحلم الذي يعيدني إلى أَوَّله وإلى آخري، دون أن نلتقي في أيِّ صباح. «سأصنع أحلامي من كفاف يومي لأتجنَّب الخيبة». فليس الحالم أن ترى ما لا يُرى، على وتيرة الـمُشْتَهى، بل هو أن لا تعلم أنك تحلم. لكن، عليك أن تعرف كيف تصحو. فاليقظة هي نهوض الواقعي من الخياليّ مُنَقَّحاً،

وعـودةُ الـشِعْـر سـالماً مـن سـمـاءِ لُغَـةٍ مـتـعـالـيـة
إلـــى أرض لا تـــشـــبـــه صـــورتـــهـــا. هـــل في
وســعــي أن أخــتــار أحــلامــي، لــئــلا أحــلــم
بما لا يـتـحـقّـق، كـأن أكـون شـخـصـاً آخـر ...
يـحـلـم بـأنـه يـرى الـفـرق بـين حـيّ يـرى
نـفـسـه مـيـتـاً، وبـين مـيـت يـرى نـفـسـه حـيّـاً؟
هـــا أَنـــذا حـــيّ، وحـــين لا أحـــلـــم أَقـــول:
«لم أحـــلـــم، فـــلـــم أَخـــســـر شـــيـــئـــاً»!

جار الصغيرات الجميلات

يمشي على الشارع ذاته، في الموعد ذاته، مكتفياً بما يمنحه المساء من تذوّق متمهّل لطعم الهواء. يأسف كلما لاحظ النقصان المتزايد في أشجار الزيتون، حيث تزداد البنايات ارتفاعاً كآلامنا وتُقَلِّص كمية الفضاء. لكن الفتيات الصغيرات يكثرن ويكبرن وينضجن دون أن يخشين الزمن المتربِّص بهن عند نهاية الشارع النازل إلى الوادي، ينظر إليهن بلا اشتهاء. وينظرن إليه بفضول، ويقلن له: مساء الخير يا عم!. يُحِبُّهنَّ

بلا غصَّةٍ سفرجليَّة، ويحتفي بجمال نضارتهنَّ وبنضارة آمالهنّ، كما يحتفي بموسيقى، وبلوحة مائية، وبطائر أزرق الذيل. هُنَّ يستعجلن الزمن ليصبغن أظافرهن بالأحمر المتحرّش بثيران خفيّة، ولينتعلن الكعب العالي لكسر ثمار الجوز وإيقاظ النائم. وهو يستمهل الزمن ليطيل متعة المرور بينهن جاراً لجمال مستقلّ. ولا بأس في أن يتذكر أنه عندما كان أَصغر كان يغبط نفسه كلما مشى برفقة مُهْرَةٍ على طرق أخرى: «هل كُلُّ هذا الكليّ لي؟» ثم يواصل المشي على الشارع وحيداً. يَعُدُّ على أصابع يديه ما تبقَّى من أشجار الزيتون، ويفرح بغزلان تتقافز حوله بحياد متبادل. لا يغبط نفسه على شيء!.. ولا يحسد غيره!

كم البعيد بعيد

«كم البعيدُ بعيدٌ»؟
كم هي السُبُـلُ؟
نمشي
ونمشي إلى المعنى
ولا نَصِلُ ...

هُوَ السرابُ
دليلُ الحائرين
إلى الماء البعيد
هو البُـطْلَان ... والبَـطَلُ

نمشي، وتنضج في الصحراءِ
حكمتُنا
ولا نقول: لأنّ التِيهَ يَكْتملُ

لكن حكمتنا تحتاجُ أُغنيةً
خفيفةَ الوزن،
كي لا يتعب الأَمَلُ

«كم البعيد بعيدٌ»؟
كم هِيَ السُبُلُ؟

يرى نفسه غائباً

أنا هنا منذ عشر سنوات. وفي هذا المساء، أجلس في الحديقة الصغيرة على كرسيّ من البلاستيك، وأنظر إلى المكان منتشياً بالحجر الأحمر. أَعُدُّ الدرجات المؤدية إلى غرفتي على الطابق الثاني. إحدى عشرة درجة. إلى اليمين شجرةُ تين كبيرة تُظَلِّل شجيرات خوخ. وإلى اليسار كنيسةٌ لوثريَّة. وعلى جانب الدرج الحجري بئر مهجورة ودلو صدىء وأزهار غير مرويَّة تمتصّ حبيبات من حليب أوَّل الليل. أنا هنا، مع أربعين شخصاً، لمشاهدة مسرحية قليلة

الكلام عن منع التجوُّل، ينتشر أبطالها المنسيّون في الحديقة وعلى الدرج والشرفة الواسعة. مسرحية مرتجلة، أو قيد التأليف، كحياتنا. أسترق النظر إلى نافذة غرفتي المفتوحة وأتساءل: هل أنا هناك؟ ويعجبني أن أدحرج السؤال على الدرج، وأدرجه في سليقة المسرحية: في الفصل الأخير، سيبقى كل شيء على حاله ... شجرةُ التين في الحديقة. الكنيسةُ اللوثرية في الجهة المقابلة. يوم الأحد في مكانه من الرُزنامة. والبئر المهجورة والدلو الصدىء. أما أنا، فلن أكون في غرفتي ولا في الحديقة. هكذا يقتضي النص: لا بد من غائب للتخفيف من حمولة المكان!

قال: أنا خائف

خافَ. وقال بصوت عال: أنا خائف. كانت النوافذ مُحْكَمَةَ الإغلاق، فارتفع الصدى واتّسع: أنا خائف. صَمَتَ، لكن الجدارن ردَّدتْ: أنا خائف. الباب والمقاعد والمناضد والستائر والبُسُط والكتب والشموع والأقلام واللوحات قالت كُلُّها: أنا خائف. خاف صوت الخوف فصرخ: كفى! لكن الصدى لم يردِّد: كفى! خاف المكوث في البيت فخرج إلى الشارع. رأى شجرة حَوْرٍ،

مكسورة فخاف النظر إليها لسبب لا يعرفه. مرت سيارة عسكرية مسرعة، فخاف المشي على الشارع. وخاف العودة إلى البيت لكنه عاد مضطراً. خاف أن يكون قد نسي المفتاح في الداخل، وحين وجده في جيبه أطمأنّ. خاف أن يكون تيار الكهرباء قد انقطع. ضغط على زر الكهرباء في ممر الدرج، فأضاء، فاطمأن. خاف أن يتزحلق على الدرج فينكسر حوضه، ولم يحدث ذلك فاطمأنّ. وضع المفتاح في قفل الباب وخاف ألا ينفتح، لكنه انفتح فاطمأنّ. دخل إلى البيت، وخاف أن يكون قد نسي نفسه على المقعد خائفاً. وحين تأكد أنه هو من دخل لا سواه، وقف أمام المرآة، وحين تعرَّف إلى وجهه في المرآة اطمأنّ. أَصغى إلى الصمت، فلم يسمع شيئاً يقول: أنا خائف، فاطمأنّ. ولسببٍ ما غامض ... لم يعد خائفاً!

هدير الصمت

أُصغي إلى الصمت. هل ثمة صمت؟ لو نسينا اسمه، وأَرهفنا السمع إلى ما فيه، لسمعنا أَصوات الأرواح الهائمة في الفضاء، والصرخات التي اهتدت إلى الكهوف الأولى. الصمت صوت تبخّر واختبأ في الريح، وتكسّر أَصداء محفوظةً في جِرارٍ كونيّة. لو أرهفنا السمع لسمعنا صوتَ ارتطام التفاحة بحجر في بستان الله، وصرخةَ هابيل الخائفةَ من دمه الأول، وأَنينَ الشهوة الأصلي بين ذكر وأُنثى

لا يعرفان ما يفعلان، ولسمعنا تأملاتِ يونس في بطن الحوت، والمفاوضاتِ السرية بين الآلهة القدامى. ولو أرهفنا السمع إلى ما وراء حجاب الصمت، لاستمعنا إلى أحاديث الليل بين الأنبياء وزوجاتهم، وإلى إيقاعات الشعر الأولى، وإلى شكوى الأباطرة من الضجر، وإلى حوافر خيل في حرب مجهولة الزمان والمكان، وإلى الموسيقى المصاحبة لطقس الدعارة المقدس، وإلى بكاء جلجامش على صاحبه أَنكيدو، وإلى حيرة القرد حين قفز من الشجرة إلى عرش القبيلة، وإلى الشتائم المتبادلة بين سارة وهاجر. لو أَرهفنا السمع إلى صوت الصمت ... لصار كلامنا أَقلّ!

شخص يطارد نفسه

كما لو كنتَ غيرك سادراً،
لم تنتظر أَحداً
مشيتَ على الرصيف
مشيتُ خلفك حائراً
لو كنتَ أنتَ أنا لقلتُ لَكَ:
انتظرني عند قارعة الغروب
ولم تقل: لو كنتَ أنتَ أنا
لما احتاج الغريب إلى الغريب.
ألشمس تضحك للتلال. ونحن نضحك
للنساء العابرات. ولم تقل إحدى النساء:

هناك شخص ما يُكَلِّم نفسه ...
لم تنتظر أحداً
مشيتَ على رصيفك سادراً
ومشيتُ خلفك حائراً.
والشمسُ غابت خلفنا ...
ودَنَوْتَ مني خطوةً أو خطوتين
فلم تجدني واقفاً أو ماشياً
ودَنَوْتُ منك فلم أجدك ...
أكنتُ وحدي دون أن أدري
بأني كنت وحدي؟ لم تقل
إحدى النساء: هناك شخصٌ ما
يطارد نَفْسَهُ!

حنين إلى نسيان

ظلام. وقعتُ عن السرير ممسوساً بسؤال: أَين أنا؟ بحثت عن جسدي فأحسستُ به يبحث عني. وبحثت عن مفتاح النور لأرى ما يحدث لي، فلم أَجده. تعثَّرتُ بكرسيّ فأسقطتُهُ وأسقطني على ما لا أَعرف. وكأعمى يرى بأصابعه الأشياء فَتَّشت عن جدار أَستند إليه، فارتطمتُ بخزانة. فتحتُها ... فلامستْ يدي ثياباً شَمَمْتُها فعثرتُ على رائحتي. أدركت أني في حيِّز من العالم يخصني، وانفصل عني أو انفصلت عنه. تابعتُ البحث عن

مفتاح النور لأرى إن كان ذلك صحيحاً، فوجدته. تعرفت إلى أشيائي: هذا سريري، وهذا كتابي، وهذه حقيبتي، وهذا الذي في البيجامة هو أَنا تقريباً. فتحت النافذة، وسمعت نباح كلاب في الوادي. ولكن، لم أتذكر متى عدت، ولا أتذكر أني وقفتُ على الجسر. ظننتُ أني أحلم بأني هنا ولستُ هنا. غسلت وجهي بماء بارد، وتأكدت من يقظتي. سرت إلى المطبخ فرأيت فواكه طازجة، وصحوناً غير مغسولة تدلُّ على أنني تناولت العشاء هنا. لكن، متى حدث ذلك؟ تصفحت جواز السفر فأدركت أني وصلت اليوم، دون أن أتذكر أني سافرت. هل حصل فصامٌ ما في ذاكرتي؟ هل انفصل وجودي النفسي عن وجودي الفيزيائي. خفتُ .. واتصلتُ بصديق في ساعة متأخرة من الليل: أُعاني من وعكة في الذاكرة ... أين أنا؟ قال: أنت في رام الله. سألته: متى أتيت؟ قال: اليوم، وكنا معاً بعد الظهر في حديقة ڤاتشي. سألته: لماذا لا أتذكر،

هل تظن أني مريض؟ قال: يحدث ذلك مع مرضى
مـن نـوع آخـر: مـرضـى الحنـين إلـى الـنـسـيـان!

نهر يموت من العطش

كان نهرٌ هنا،
وله ضفّتان
وأُمٌّ سماويَّةٌ أرضَعَتْهُ السحابَ المُقَطَّرَ،
نهرٌ صغيرٌ يسير على مهله
نازلاً من أعالي الجبال
يزور القرى والخيام كضيف لطيف خفيف
ويحمل للغَوْر أشجارَ دفلى ونخل
ويضحك للساهرين على ضفتيه:
«اشربوا لَبَنَ الغيمِ
واسقوا الخيول

وطيروا إلى القدس والشام»
كان يغني فروسيةً مرةً
وهوى مَرةً ...
كان نهراً له ضفتان
وأُمٌّ سماويّةٌ أرضعته السحاب المُقَطَّر
لكنهم خطفوا أُمَّه،
فأصيب بسكتة ماء
ومات، على مهله، عطشاً!

الجدار

أَفعى معدنية ضخمة تلتفُّ حولنا. تبتلع جدراننا الصغيرة الفاصلة بين غرفة النوم والحمام والمطبخ وغرفة الاستقبال. أَفعى لا تسعى بخط مستقيم لئلَّا تَتَشَبَّه بنظراتنا إلى أمام. تتلوَّى وترفع كابوسها المصنوع من فقرات إسمنت مُقَوَّى بحديد مرن ... يُسَهِّلُ عليها الحركة إلى ما تبقَّى لنا من فُتات جهاتٍ وأحواضِ نعناع. أَفعى تسعى لوضع بيضها بين زفيرنا والشهيق: لنقول مرة واحدة: نحن،

من فرط ما نختنق، نحن الغرباء. ننظر في مرايانا فلا نرى غير اقتراب الأفعى من أعناقنا. لكننا، وبقليل من جهد الرؤيا، نرى ما فوقها: نرى سماء تتثاءب ضجراً من مهندسين يسقفونها بالبنادق والبيارق. ونراها في الليل تتلألأ بكواكب تحدِّق إلينا بحنان. ونرى أَيضاً ما خلف جدار الأفعى: نرى حُرَّاس الچيتو خائفين مما نفعل خلف ما تبقى لنا من جدران صغيرة... نراهم يُزَيِّتون أَسلحتهم لقتل العنقاء التي ظنوها تختبىء عندنا، في قنّ دجاج. فلا نملك إلّا أَن نضحك!

شريعة الخوف

ينظر القاتل إلى شَبَح القتيل، لا إلى عينيه، بلا ندم. يقول لمن حوله: لا تلوموني، فأنا خائف. قتلتُ لأني خائف، وسأقتل لأني خائف. بعض المشاهدين المدربين على تفضيل التحليل النفساني على فقه العدل، يقول: إنه يدافع عن نفسه. والبعض الآخر من المعجبين بتفوُّق التطور على الأخلاق، يقول: العدل هو ما يفيض من كرم القوة. وكان على القتيل أن يعتذر عما سبَّب للقاتل من صدمة!

والبعض الآخر، من فقهاء التمييز بين الواقع والحياة، يقول: لو وقفتْ هذه الحادثة العادية في بلاد أخرى غير هذه البلاد المقدسة، أكان للقتيل اسم وشهرة؟ فلنذهبنَّ، إذن، إلى مواساة الخائف. وحين مشوا في مسيرة التعاطف مع القاتل الخائف، سألهم بعض المارة من السُيَّاح الأجانب: وما هو ذنب الطفل؟ فأجابوا: سيكبر ويسبِّب خوفاً لابن الخائف. وما هو ذنب المرأة؟ قالوا: ستلد ذاكرة. وما هو ذنب الشجرة؟ قالوا: سيطلع منها طائر أَخضر. وهتفوا: الخوف، لا العدل، هو أساس الملك. أما شبح القتيل، فقد أطلَّ عليهم من سماء صافية. وحين أطلقوا عليه النار لم يروا قطرة دم واحدة!.. وصاروا خائفين!

على قلبي مشيت

على قلبي مشيتُ، كأنَّ قلبي
طريقٌ، أو رصيفٌ، أو هواءُ
فقال القلبُ: أَتْعَبَنِي التماهي
مع الأشياء، وانكسر الفضاءُ
وأَتعبني سؤالُكَ: أَين نمضي
ولا أرضٌ هناك ... ولا سماءُ
وأَنتَ تطيعني ... مُرني بشيء
وصوِّبْني لأفعل ما تشاءُ
فقلتُ له: نسيتُكَ مذ مشينا
وأَنتْ تَعِلَّتي، وأنا النداءُ

تمرَّدْ ما استطعت عليَّ، وٱركُضْ
فليس وراءنا إلَّا الوراءُ!

روتين

مُنْخَفَضٌ جويّ. الرياح شمالية غربية، زخّات من مطر. البحر مجعَّد رمادي. أشجار السرو عالية. وغيوم الخريف تسقط اليوم ثلاثين شهيداً شمالي غزة، بينهم امرأتان اشتركتا في مظاهرة تطالب بحصة النساء من الأمل. السماء عالية. البحر هادىء أزرق. الرياح شمالية. الرؤية صافية. لكن غيوم الخريف ــ الاسم الرمزي للقتل ــ تقضي على أسرة كاملة مكونة من سبع عشرة حياة ... تبحث الأخبار عن أسمائهم تحت الأنقاض. ما عدا ذلك،

تبدو الحياة غير العادية عاديَّةَ الوتيرة. ما زال الشيطان يتباهى بخلافه الطويل مع الله. وما زال الأفراد إذا صحوا أحياء قادرين على القول: صباح الخير. ثم يذهبون إلى أشغالهم الروتينية: تشييع الشهداء. ولا يعرفون إن كانوا سيعودون سالمين إلى ما تبقى من بيوت تحاصرها جرافات ودبابات وأشجار سرو مكسورة. والحياة، من فرط لامبالاتها، لا تُرَى إلّا تخطيطاً أولياً لأمنيّة عصيّة على التدوين: المساواة مع بنات آوى في الاستمتاع بكهف آمن. لكننا مطالبون بمهمة صعبة: الوساطة بين الله والشيطان للتوصل إلى هدنة قصيرة ندفن خلالها شهداءنا!

بندقيَّة وكفن

«لن يهزمني أَحد. ولن أَنتصر على أَحد» ــ قال رَجُلُ الأمن المُقَنَّعُ المُكَلَّفُ مهمَّة غامضة. أطلق النار على الهواء، وقال: على الرصاصة وحدها أن تعرف مَنْ هو عدوِّي. ردَّ عليه الهواء برصاصة مماثلة. لم يكترث المارة العاطلون من العمل بما يدور في بال رجل الأمن المقنع العاطل مثلهم من العمل، لكنه يبحث عن حربه الخاصة منذ لم يجد سلاماً يدافع عنه. نظر إلى السماء فرآها عالية صافية. وبما أنه لا يحبُّ الشعر فلم ير فيها مرآة للبحر. كان

جائعاً، وازداد جوعاً حين شمَّ رائحة الفلافل، فأحسَّ بأن بندقيته تُهينُهُ. أطلق رصاصة على السماء لعلَّ عنقوداً من عنب الجنّة يسَّاقط عليه. ردّت عليه رصاصة مماثلة، فأجَّجت حماسته المكبوتة إلى القتال. فاندفع إلى حرب متخيَّلة، وقال: عثرت أخيراً على عمل. إنها الحرب. وأَطلق النار على رجل أَمن مُقَنَّع آخر، فأصاب عدوَّه المُتَخَيَّل، وأُصيب بجرح طفيف في ساقه. وحين عاد إلى بيته في المخيّم متكئاً على بندقيته، وجد البيت مزدحماً بالمعزّين، فابتسم لأنه ظنَّ أنهم ظنوا أنه شهيد، وقال: لم أَمت!. وعندما أخبروه أنه هو قاتل أخيه، نظر إلى بندقيته باحتقار، وقال: سأَبيعها لأشتري بثمنها كفناً يليق بأخي!

إن أردنا

سنصيرُ شعباً، إن أَردنا، حين نعلم أَنا لسنا ملائكةً، وأَنَّ الشرَّ ليس من اختصاص الآخرينْ

سنصير شعباً حين لا نتلو صلاة الشكر للوطن المقدَّس، كلما وجد الفقيرُ عشاءَهُ ...

سنصير شعباً حين نشتم حاجبَ السلطان والسلطان، دون محاكمةْ

سنصير شعباً حين يكتب شاعرٌ وصفاً إباحياً لبطن الراقصةْ

سنصير شعباً حين ننسى ما تقولُ لنا القبيلة...، حين يُعْلي الفرد من شأن التفاصيل الصغيرةْ

سنصير شعباً حين ينظر كاتبٌ نحو النجوم، ولا يقول: بلادنا أَعلى... وأجملْ!

سنصير شعباً حين تحمي شرطةُ الآداب غانيةً وزانيةً من الضرب المبرِّح في الشوارعْ!

سنصير شعباً حين لا يتذكَّرُ الفردُ الفلسطينيُّ رايته سوى في ملعب الكرة الفسيح، وفي مسابقة الجمال، ويوم نكبته فقطْ

سنصير شعباً، إن أَردنا، حين يؤذن للمغنِّي أَن يرتِّل آية من «سورة الرحمن» في حفل الزواج الـمُخْتَلَطْ

سنصير شعباً حين نحترم الصواب، وحين نحترم الغَلَطْ!

وَقْتٌ مغشوش

لأنَّ أَحـــداً لا يـــأتـــي في مـــوعـــده. ولأنَّ الانـتـظـار يـشبـه الجلوس عـلى صـفـيح سـاخـن... أَعـاد عـقـارب سـاعـتـه الـيـدوية عـشـريـن دقـيـقـة إلـى الـوراء. هـكـذا خـفَّـف عـن نـفـسـه عـذاب الانـتـظـار، ونـسـي الأَمـر. لـكـنـه، ومـنـذ غـشَّ الـوقـت، لم يـصـل إلـى أيّ مـوعـد. يـجـلـس عـلى حقيبته في المحطة منتظراً قطاراً لا يـصـل أبـداً، دون أن يـنـتـبـه إلـى أن الـقـطـار مَـرَّ في مـوعـده الـدقـيـق، وإلـى أنـه هـو الـذي تـأخـر. يـعـود إلـى بـيـتـه خـائـبـاً. يـفـتـح حـقـيـبـة الـسـفـر

ويعيد محتوياتها إلى الأدراج ككُل عائدٍ من سفر. ثم يتساءل غاضباً: لماذا لا يحترمون الوقت؟ وحين دقَّ الموتُ على بابه مستأذناً بالدخول، وبَّخه قائلاً: لماذا وصلت قبل الموعد بعشرين دقيقة؟. اختبأ في الحمام. ولم يفتح له الباب، كأنه مات في الحمَّام!

إتقان

فضاء لازورديّ، عالٍ وعريض ومغسول بماء الضوء. وإنْ ظَهَرَتْ غيمةٌ خفيفة كفقاعة صابون، فلا تلبث أن تذوب في قصيدة منسية. فضاء دائري محمول على أشجار الغابة الباسقة وعلى أَجنحة النوارس، محمول على هودج في ذاكرة الحجاج إلى الأرض المقدسة. فضاء شاسع واسع مُتْقَنُ التكوين والتلوين. من فرط الإتقان ... أَخشى من حريق في الغابة، ومن غارة على النوارس، ومن سطو على

زوجة نبي. أَخشى من خلل طارىء في نظام الأشياء ... وأخشى من كتابة قصيدة موزونة ... على سطح هذه الشفافية!

واحد، اثنان، ثلاثة

صعد الممثِّل إلى خشبة المسرح مع مهندس الصوت: واحد، اثنان، ثلاثة. توقَّفْ! سنجرِّبُ الصوت مرة ثانية: واحد، اثنان، ثلاثة، توقَّفْ! هل تفضّل قليلاً من الصدى؟ قال: لا أَعرف ... افعل ما تشاء!. كانت القاعة خالية تماماً. مئات المقاعد الخشبية تحملق فيه بصمتِ مقبرةٍ جماعيّة، وتدعوه إلى المغادرة أو إلى الانضمام إليها. آثر الخيار الثاني، واختار مقعداً في الوسط ... ونام. أَيقظه المخرجُ ليجري البروفة الأخيرة. صعد

إلى الخشبة، وارتجل فصلاً طويلاً إذ أعجبته فكرة أن يخاطب المقاعد الفارغة، وأن لا يصفق له أَحد ما عدا المخرج. ثم ارتجل فصلاً آخر بلا أَخطاء. وفي المساء، حين امتلأت القاعة بالمشاهدين، ورُفِعَت الستارة، وقف واثقاً من سلامة الصمت ... نظر إلى الصّفّ الأمامي، وتذكر نفسه جالساً هناك، فارتبك. نسي النصَّ المكتوب وتبخَّر النصُّ المرتجل ... ونسي المشاهدين، واكتفي بتجريب الصوت: واحد، اثنان، ثلاثة. ثم كَرَّر: واحد، اثنان، ثلاثة ... حتى أُغمي عليه وضجَّت القاعة بالتصفيق!

صناديق فارغة

إذا كان السلامُ هدنةً بين حربين، فإنَّ للموتى حقَّ الإدلاء بأصواتهم: سنختار الجنرال. وإذا كانت الحرب حادثةَ سيرٍ وقعت على الأوتوستراد السريع، فإنَّ على الأحياء واجب الإدلاء بأصواتهم: سنختار الحمار. لكن الأحياء لم يذهبوا إلى صناديق الاقتراع، لا لأن الثلج كان يندف، بل لأن شللاً مفاجئاً أصاب سكان المدينة، وحين فتحوا النوافذ رأوا عناكب تبني بيوتها في الثلج، فأصيبوا بالعمى. وحين

أرهفوا السمع إلى ما يحدث، هبَّت عواصف لا عهد لهم بأصواتها الوحشية، فأصيبوا بالصمم. وقال المنجمون: هي فوضى الكون على باب القيامة. ومن حُسْن حظنا أو من سوئه، أن المؤرخين الأجانب الخبراء في مصائرنا وتاريخنا الشفهي لم يكونوا هنا، فلم نعرف ما حلَّ بنا!

عن اللا شيء

هو اللا شيء يأخذنا إلى لا شيء،
حدَّقنا إلى اللاشيء بحثاً عن معانيه ...
فجرَّدنا من اللاشيء شيءٌ يشبه اللاشيءَ
فاشتقنا إلى عبثية اللاشيء
فهو أخفّ من شيء يُشَيِّئنا ...
يحبُّ العبدُ طاغيةً
لأن مَهابة اللاشيء في صنم تُؤَلِّهُهُ
ويكرهُهُ
إذا سقطت مهابته على شيء
يراهُ العبد مرئياً وعاديّاً

فَيَـهْوَى العبدُ طاغيةً سواهُ
يطلُّ من لا شيءَ آخرَ ...
هكذا يتناسل اللاشيء من لا شيء آخرَ ...
ما هو اللاشيء هذا، السيِّـدُ المتجدِّدُ،
المتعدِّدُ، المتجبرٌ، المتكبرٌ، اللزجُ
الـمُهَرِّجُ... ما هو اللاشيء هذا

رُبَّما هو وعكةٌ رُوحيَّـةٌ
أو طاقةٌ مكبوتةٌ
أو، ربما هو ساخرٌ متمرِّسٌ
في وصف حالتنا!

خيالي ... كلب صيد وفيّ

على الطريق إلى لا هدف، يُبَلِّلني رذاذ ناعم، سقطتْ عليَّ من الغيم تُفَّاحةٌ لا تشبه تفاحة نيوتن. مددتُ يدي لألتقطها فلم تجدها يدي ولم تَرَها عيناي. حدَّقتُ إلى الغيوم، فرأيتُ نُتَفاً من القطن تسوقها الريح شمالاً، بعيداً عن خزانات الماء الرابضة على سطوح البنايات. وتدفَّق الضوءُ الصافي على إسفلت يَتَّسع ويضحك من قلَّة المشاة والسيارات ... وربما من خطواتي الزائغة. تساءلتُ: أَين التفاحة التي

سقطت عليَّ؟ لعلَّ خيالي الذي استقلَّ عني هو الذي اختطفها وهرب. قلت: أَتبعه إلى البيت الذي نسكنه معاً في غرفتين متجاورتين. هناك، وجدت على الطاولة ورقة كُتِبَ عليها، بحبر أَخضر، سطر واحد: «تفاحة سقطت عليَّ من الغيوم»، فعلمت أَن خيالي كلب صيد وفيّ!

لو كنتُ غيري

في العزلة كفاءةُ المُؤْتَمَن على نفسه ــ يكتب العبارة، وينظر إلى السقف. ثم يضيف: أن تكون وحيداً ... أن تكون قادراً على أن تكون وحيداً هو تربية ذاتيَّة. ألعزلة هي انتقاء نوع الأَلم، والتدرّب على تصريف أفعال القلب بحريّة العصاميّ ... أَو ما يشبه خلوَّك من خارجك وهبوطك الاضطراري في نفسك بلا مظلَّة نجاة. تجلس، وحدك، كفكرة خالية من حجة البرهان، دون أن تحدس بما يدور من حوار بين

الظاهر والباطن. العزلة مصفاة لا مرآة. ترمي ما في يدك اليسرى إلى يدك اليمنى، ولا يتغيَّر شيء في حركة الانتقال من اللافكرة إلى اللامعنى. لكن هذا العَبَثَ البريء لا يؤذي ولا يجدي: وماذا لو كنتُ وحدي؟ العزلة هي اختيار المُتْرَف بالممكنات ... هي اختيار الحرّ. فحين تجفّ، وتضيق بك نفسُك، تقول: لو كنتُ غيري لانصرفتُ عن هذه الورقة البيضاء إلى محاكاة رواية يابانية، يصعد كاتبها إلى قمة الجبل ليرى ما فعلت الكواسر والجوارح بأجداده الموتى. لعلَّه ما زال يكتب، وما زال موتاه يموتون. لكن تنقصني الخبرة. والقسوة الميتافيزيقية تنقصني. وتقول: لو كنتُ غيري، كما أنا الآن، لنزلتُ إلى بطن الوادي، حيث تؤجّج فتاة مكبوتة شهوتها بورقة تين خشنة وتَعَضُّ سروالها، لكن، تنقصني مهارة الوصف. والجرأة الإباحية تنقصني!

اغتيال

يغتالني النُّقَّادُ أَحياناً:
يريدون القصيدةَ ذاتَها
والاستعارة ذاتها ...
فإذا مَشَيْتُ على طريقٍ جانبيّ شارداً
قالوا: لقد خان الطريقَ
وإنْ عثرتُ على بلاغة عُشْبَـةٍ
قالوا: تخلَّى عن عناد السنديان
وإن رأيتُ الورد أَصفرَ في الربيع
تساءلوا: أَين الدمُ الوطنيُّ في أوراقِهِ؟
وإذا كتبتُ: هي الفراشةُ أُختيَ الصغرى

على باب الحديقةِ
حرّكوا المعنى بملعقة الحساء
وإن هَمَسْتُ: الأمُّ أمٌّ، حين تثكل طفلها
تذوي وتيبس كالعصا
قالوا: تزغرد في جنازته وترقُصُ
فالجنازةُ عُرْسُهُ ...

وإذا نظرتُ إلى السماء لكي أَرى
ما لا يُرَى
قالوا: تَعَالى الشعرُ عن أَغراضه...

يغتالني النقّادُ أَحياناً
وأَنجو من قراءتهم،
وأشكرهم على سوء التفاهم
ثم أَبحثُ عن قصيدتيَ الجديدةْ!

حفيف

كَمُصْغٍ إلى وَحْيٍ خفيّ، أُرهف السمع إلى صوت أوراق الشجر الصيفيّ ... صوتٍ خَفِرٍ مُخَدَّر مُتَحدِّرٍ من أَقاصي النوم ... صوتٍ شاحب ذي رائحة حنطية قادم من عزلة ريفيّة ... صوتٍ متقطعٍ مُوَزَّع بتقاسيمَ مرتجلةٍ على أوتار نسيم مُتَمَهِّل. لا يسترسل ولا يطيل الفواصل. لصوت أوراق الشجر في الصيف تَقَشُّف الهمس وتعفُّف النداء. كأنَّ الصوت هذا لي وحدي، يخطفني من ثقل المادة إلى خفّة

الإشـــراق: هـــنـــاك، وراء الـــتـــلال، ومـــا بعد الخيال، حيث يتساوى الظاهر والباطن، أَسـبـح خـارج ذاتـي في ضـوء بـلا شـمـس. بـعـد غـفـوة تـشـبـه الـصـحـوة، أو بـعـد صـحـوة تـشـبـه الـغـفـوة، يـعـيـدنـي حـفـيـف الـشـجـر إلـى ذاتـي مـعـافـىً مُـصَـفّـىً مـن الـوسـاوس والـهـواجـس. لا أَسـأل عـن مـعـنـى هـذا الـصـوت: هـل هـو نجوى ورقـة إلى أختها في هذا الخلاء، أم هو حنين الهواء إلى قـيـاولـة؟ صـوت بـلا كـلام يـهـدهـدنـي ويمسّـدنـي ويـحـولـنـي وعـاء يـنـضـح بمـا لـيـس مـنـه... ولا فيه. كـأنـه عـاطـفـة تـبـحـث عـن عـاطـفيّ ... شـبـيـه!

إستعارة

في هذا النهار الأزرق، تُطيل الوقوفَ على جبل مرتفع، وتطيل النظر إلى غيومٍ تَحْتَكَ، تغطّي البحر والسهل. فتظنُّ أنك أعلى من نفسك ... شِبْهُ طائرٍ لم يوجد إلَّا في استعارة. وتُغْريك الاستعارةُ بأن تنفصل عنها وتنظر إلى سماء مهجورة، كصحراء زرقاء، خلوٍ من سراب. ثم تناديك الاستعارة للرجوع إلى مصدرها، فلا تجد طريقاً في الغيوم.

وفي هذا الليل الأزرق، ترى الجبال

تنظر إلى النجوم، وترى النجوم تنظر إلى الجبال. وتظن أنها تراك، فتشكرها على لطف المسامرة. ولا تريد الخروج من الاستعارة لئلّا تسقط في بئر الوحدة!

في صحبة الأشياء

كنا ضيوفاً على الأشياء، أكثرُها
أقلُّ منَّا حنيناً حين نهجُرُها

النهر يضحك، إذ تبكي مسافرةٌ:
مُرِّي، فأُولى صفات النهر آخِرُها

لا شيء ينتظرُ. الأشياءُ غافلةٌ
عنا، ونحن نُحَـيِّيها ونشكرها

لكننا إذ نُسَمِّيها عواطِفَنا

نصدِّقُ الاسم. هل في الاسم جوهرُها؟

نحن الضيوف على الأشياء، أكثرنا
ينسى عواطِفَهُ الأولى ... ويُنْكِرُها!

شال حرير

شال على غصن شجرة. مرَّتْ فتاةٌ من هنا، أو مرت ريح بدلاً منها، وعلَّقت شالها على الشجرة. ليس هذا خبراً. بل هو مطلع قصيدة لشاعر متمهِّل أَعفاه الحُبُّ من الأَلم، فصار ينظر إليه ــ عن بعد ــ كمشهد طبيعةٍ جميل. وضع نفسه في المشهد: الصفصافة عالية، والشال من حرير. وهذا يعني أن الفتاة كانت تلتقي فتاها في الصيف، ويجلسان على عشب ناشف. وهذا يعني أيضاً أنهما كانا يستدرجان العصافير

إلى عرس سري، فالأفق الواسع أَمامهما، على هذه التلة، يغري بالطيران، ربما قال لها: أَحنُّ إليكِ، وأَنتِ معي، كما لو كنتِ بعيدة. وربما قالت له: أَحضنكَ، وأَنت بعيد، كما لو كنتَ نهديَّ. وربما قال لها: نظرتك إليَّ تذوِّبني، فأصير موسيقى. وربما قالت له: ويدك على ركبتي تجعل الوقت يَعْرَق، فافْرُكْني لأذوب ...
واسترسل الشاعر في تفسير شال الحرير، دون أن ينتبه إلى أن الشال كان غيمة تعبر، مصادفة، بين أغصان الشجرة عند الغروب.

ما يشبه الخسارة

أَصعدُ من هذا الوادي، على درجات نفسي تقريباً. أَصعد إلى ربوة عالية لأرى البحر. لا أُغنية تحملني ولا سوء تفاهم مع الكينونة. أَتسلَّى بمراوغة ظلِّي، وبالتفكير المريح في مآل قوس قزح الذي يلهيني، فجأة، عن ظلِّي المشتبك بعوسجة جرحته ولم ينزف. أَنحني عليه لأسعفه من وخزات الشوك، فتنغرز شوكةٌ في يدي وتسيل قطرةُ دمٍ حمراءُ خِلْتُها، في البداية، انعكاساً لأحد ألوان قوس قزح.

لكن أَلماً خفيفاً في يدي نَبَّهني إلى أن ما تفعله الشمسُ بكثافة الماء الطائرِ هو شيء آخر. ضمَّدتُ جرحي التافه بمنديل ورقيّ، وواصلتُ الصعود إلى الربوة العالية لأرى البحر. لكن الغيوم تكاثفت وغطَّت السهلَ والجهاتِ والبحرَ الذي وقع أَسيراً في إحدى الحروب. هبط الليل على كل شيء، وظهرتْ أضواء المستعمرات من كل ناحية. وحين نزلتُ على درجات نفسي تقريباً، من الربوة العالية إلى الوادي، تذكَّرتُ أني نسيتُ ظلِّي عالقاً بعوسجة. لا أعرف إن كنت حزنت أَم لا، فإنَّ خسارةً أدبيَّةً مثلَ هذه لا تصلح للتدوين. وقلت: غداً أصعد إلى ربوة أعلى لأرى البحر خلف المستعمرات. لكني سأربط ظلي برَسَنٍ لئلّا أُضيّعه مرة ثانية!

أَرضٌ فضيحة

أَرضٌ ضيِّقةٌ هي تلك الأرض التي نسكنها وتسكننا. أَرض ضيِّقة لا تَتّسع لاجتماع قصير بين نبيّ وجنرال. وإذا تعارك ديكان على دجاجة وعلى خُيَلاء، تطاير ريشهما عن الأسوار. أرضٌ ضيِّقة لا حميميةَ فيها لنكاح بين ذكر الحمام وأُنثى الحمام. أَرضٌ فضيحةٌ. أَرضٌ صفراءُ الصيف ينقر الشوك فيها وجه الصخر لتزجية الوقت، حتى لو قالت قصائدنا عكس ذلك، وأَمدَّتها بمختارات من أَوصاف

الفردوس لإشباع جوع الهوية إلى جماليات. ونحن، رواةَ ما تحتاج إليه البداهةُ من وثائق رسمية وشعرية، نعلم أن السماء لن تتخلّى عن أشغالها الكثيرة لتدلي بشهادتها. أَرض ضيّقة ... ونحبّها. ونظن أَنها تحبّنا أَحياء وموتى. نحبها، ونعلم أنها لا تتسع لضحكة الفاجر، ولا لصلاة الراهبة، ولا لنشر الغسيل بعيداً عن فضول الجيران، ولا تَتّسع للسطر الرابع عشر من سوناتة مترجمة. أرضٌ ضيِّقة لا ساحة فيها تكفي لمعركة حقيقيّة مع عَدُوّ خارجيّ، ولا قاعة تسع المجتمعين لصوغ ديباجة عريضة عن سلامٍ كَذِب. ومع ذلك، أو لذلك... يقولون إن أَحد الآلهة الضجرين اختارها كهفاً للخلوة، والاختفاء عن المتطفلين الذين سرعان ما سرقوا قرون أكباشنا، واستخدموها سلاحاً لإبعادنا عن باب الكهف المُقَدَّس!

صيف وشتاء

لا جديد. الفصولُ هنا اثنانِ:
صَيْفٌ طويل كمئذنة في أقاصي المدى.
وشتاءٌ كراهبةٍ في صلاة خشوعْ.
وأَمَّا الربيعْ
فلا يستطيع الوقوف على قدميه
سوى للتحية: أَهلاً بكم
في صعود يسوعْ.
وأَمَّا الخريف،
فليس سوى خُلْوةٍ
للتأمُّل في ما تساقط من عمرنا

في طريق الرجوعْ.
فأين نسينا الحياةَ؟ سألت الفراشةَ
وهي تُحوِّم في الضوء
فاحترقتْ بالدموع!

غيمة مُلوَّنة

وأَنا أَغسل الصحون، أمتلىء بفراغ منعش وأَملأ الوقت بفقاعات الصابون. لماء الحنفيَّة إيقاعٌ يفتقر إلى آلة موسيقية. أُصاحبه بصفير متقطّع، وبمقطع من أُغنية شائعة لا شخصية لها. أَلهو بالرغوة الشبيهة بغيمة تلمع فيها أَلوانٌ موسميَّةٌ وتنطفىء. أُمْسِكُ الغيمةَ بيديّ وأوزِّعها على الصحون والكؤوس والفناجين والملاعق والسكاكين. تَنْتَفِخُ الغيمة كُلَّما سالت عليها قطراتُ الماء. أحفِنها وأُطيِّرها

في الهواء فتضحك لي، وأزداد امتلاء بفراغي. لا أفكِّر بشيء كأني ظهيرة لا مبالية. لكن صُوَر ذكريات محايدة تهبط من مكان بعيد إلى حوض الماء، ذكريات لا تجرح ولا تفرح، كنزهة في حرش صنوبر، أو كانتظار حافلة تحت المطر، فأغسلها بحرصِ مَنْ يحمل إناء من بلّور أدبي. وحين أتأكد من أنها لم تنكسر تعود سالمةً إلى مصادرها الأولى في حرش صنوبر، وأَبقى هنا. أَلهو برغوة الصابون، وأسهو عمّا ليس موجوداً. أنظر برضا إلى ذهني الصافي كزجاج المطبخ، وإلى خُلُوِّ قلبي من الشوائب كصحن مغسول بعناية. وحين أحسّ بأني امتلأت تماماً بالفراغ المنعش، أملأ الفراغ بكلمات لا تخصّ أحداً سواي: بهذه الكلمات!

ربيع سريع

مَرَّ الربيعُ سريعاً
مثل خاطرةٍ
طارت من البالِ ـ
قال الشاعر القَلِقُ

في البدء، أَعجبه إيقاعُهُ
فمشى سطراً فسطراً
لعلَّ الشكل ينبثقُ

وقال: قافيةٌ أخرى

تساعدني على الغناء
فيصفو القلبُ والأُفُقُ

مَرّ الربيع بنا
لم ينتظر أَحداً
لم تنتظرنا «عصا الراعي»
ولا الحَبَقَ

غنّى، ولم يجد المعنى
وأَطربَهُ
إيقاعُ أُغنية ضاقت بها الطُرُقُ

وقال: قد يُولَدُ المعنى
مصادفةً
وقد يكون ربيعي ... ذلك القَلَقُ!

ألحياة ... حتى آخر قطرة

وإن قيل لي ثانيةً: ستموت اليوم، فماذا تفعل؟ لن أَحتاج إلى مهلة للرد: إذا غالبني الوَسَنُ نمتُ. وإذا كنتُ ظمآنَ شربتُ. وإذا كنتُ أكتب، فقد يعجبني ما أكتب وأتجاهل السؤال. وإذا كنت أتناول طعام الغداء، أضفتُ إلى شريحة اللحم المشويّة قليلاً من الخردل والفلفل. وإذا كنتُ أُحلق، فقد أجرح شحمة أذني. وإذا كنتُ أقبِّل صديقتي، التهمتُ شفتيها كحبة تين. وإذا كنت

أقرأ قفزت عن بعض الصفحات. وإذا كنتُ أقشِّر البصل ذرفتُ بعض الدموع. وإذا كنتُ أمشي واصلتُ المشي بإيقاع أبطأ. وإذا كنتُ موجوداً، كما أنا الآن، فلن أفكِّر بالعدم. وإذا لم أكن موجوداً، فلن يعنيني الأمر. وإذا كنتُ أستمع إلى موسيقى موزارت، اقتربتُ من حيِّز الملائكة. وإذا كنتُ نائماً بقيتُ نائماً وحالماً وهائماً بالغاردينيا. وإذا كنتُ أضحك اختصرتُ ضحكتي إلى النصف احتراماً للخبر. فماذا بوسعي أن أفعل؟ ماذا بوسعي أن أفعل غير ذلك، حتى لو كنتُ أشجع من أحمق، وأَقوى من هرقل؟

أثر الفراشة

أَثَرُ الفراشة لا يُرَى
أَثَرُ الفراشة لا يزولُ

هو جاذبيّةُ غامضٍ
يستدرج المعنى، ويرحلُ
حين يتَّضحُ السبيلُ

هو خفَّةُ الأبديِّ في اليوميّ
أشواقٌ إلى أَعلى
وإشراقٌ جميلُ

هو شامَةٌ في الضوء تومىء
حين يرشدنا إلى الكلماتِ
باطننا الدليلُ

هو مثل أُغنية تحاولُ
أن تقول، وتكتفي
بالاقتباس من الظلالِ
ولا تقولُ ...

أَثَرُ الفراشة لا يُرَى
أَثَرُ الفراشة لا يزولُ!

لم أكن معي

محدِّقاً إلى السقف، واضعاً يدي على خدِّي، كمن يتلصَّص على فكرة بيضاء، أو يتربَّص بإشراقة وحي. أَنْتَبِهُ بعد ساعات إلى أَنني لم أكن هناك في السَقف ولا هنا على المقعد، ولم أُفكر بشيء. كنت مستغرقاً في اللا شيء... في الفراغ الكلي الكامل، منفصلاً عن وجودي، جاراً لعَدَمٍ غيرِ متطفِّل، وخالياً من الألم. لم أحزن ولم أفرح، فلا شأن للّاشيء بالعاطفة، ولا شأن له بالزمن. لم توقظني يَدُ ذكرى واحدة من غيبوبة الحواس. ولم توقظني خشيةُ

الأقدار من نسيان الغد. إذ كنت، لسبب ما، متأكداً من أنَني سأحيا إلى الغد. لم أسمع صوت المطر يكسِّر رائحةَ الهواء في الخارج، ولا الناياتِ تحمل الداخل وترحل. كنت لا شيء في حضرة اللا شيء. وكنت هادئاً، آمناً، مطمئناً. فما أجمل أن يكون المرء لا شيء، مرة واحدة، مرة واحدة فقط ... لا أكثر!

وجوه الحقيقة

ألحقيقةُ أُنثى مجازيّةٌ
حين يختلط الماءُ والنارُ
في شكلها

والحقيقةُ نسبيّةٌ
حين يختلط الدمُ بالدمِ
في ليلها

والحقيقةُ بيضاءُ ناصعةٌ
حين تمشي الضحيَّةُ

مبتورةَ القَدَمَيْنِ
على مهلها

و«الحقيقةُ شخصيّةٌ»
في القصيدةِ
لا هِيَ ما هِيَ
أو عكسها
إنها ما تقطّر من ظلِّها!

كما لو كان نائماً

صحا من النوم دفعةً واحدة. فتح النافذة على ضوء فاتر وسماء صافية وهواء معافى. تحسَّس جسده، عضواً عضواً، فوجده سليماً. نظر إلى الوسادة ولم يرَ شعراً تساقط في الليل. نظر إلى الملاءة ولم يرَ دماً. فتح جهاز الترانزستور ولم يسمع خبراً عن قتلى جدد في العراق وغزة وأفغانستان. ظنَّ أنه نائم. فَرَكَ جفنيه أمام المرآة وتعرَّف إلى وجهه بسهولة. هتف: أنا حيّ. مشى إلى

المطبخ لإعداد القهوة. وضع ملعقةً من العسل في كأس الحليب الخالي من الدَّسَم. رأى على الشرفة كناريّاً زائراً يقف على حوض زهور نسي أن يسقيها. قال للكناريّ: صباح الخير، ونثر حوله فتات خبز. طار الكناريّ وحطَّ على فَنَنِ شجيرة وغنّى. مرة أخرى، ظن أنه نائم. نظر إلى المرآة ثانية وقال: أنا هو. استمع إلى نشرة أخبار جديدة. لا قتلى جداً في أي مكان. فرح بهذا الصباح الشاذ. قاده الفرحُ إلى طاولة الكتابة وفي باله سطر واحد: «أنا حيّ على الرغم من أنني لا أشعر بالألم». كان ممتلئاً بشغف الإنشاد لصفاءٍ بِلَّوْريّ هبط عليه من مكان بعيد: من مكانه هذا! وحين جلس إلى طاولة الكتابة وجد السطر مكتوباً على ورقة بيضاء: «أنا حيٌّ على الرغم من أنني لا أشعر بالألم». لم يظن هذه المرة أنه نائم. كان متأكداً من ذلك!

موسيقى مرئيّة

وأَنا أستمع إلى الموسيقى، تنفتح حولي حدائق، فتصير النغمةُ زهرةً أسمعها بعينيّ. للصوت صورة، وللصورة صوت متدرِّج متموِّج ... أَبعد من مجاز أَدبي. يَخْرُجُ القرنفلُ من أحواضه، وينتشر على طاولات المطاعم الراقية لتعويض الغريب عن خسارة منسية، أو للإمعان في تدريب المُنْتَظِرِ على مفاجآت القادم. وليس على النرجس من حَرَجٍ إن أطال الاستماع إلى أُغنية الفرح في الماء، وظنَّها أُغنيةَ مديحه. أَمَّا

الزنبق الأبيض، إذا اتسع الصالون لرائحته الشاسعة اللاذعة، فإن خواطره تُضَلِّلني، على عكس البنفسج الذي يوقفني على تقاطع صوتين يتداخلان ويذوبان في تشابه الدموع بين عرس وجنازة ... وعلى عكس شقائق النعمان المكتفية بغناء الهامش الفسيح على سفوح الرَعَويَّات. كل هذا لأقول: إن الوردة الحمراء موسيقى مرئية. وإن الياسمين رسالة حنين من لا أَحد إلى لا أحد!

الطريق إلى «أين»

[إلى سركون بولص]

أَلطريقُ طويلٌ إلى أَين؟ مرتفعاتٌ
ومنخفضاتٌ. نهارٌ وليلٌ على الجانبين.
شتاء قصير وصيف طويل. نخيلٌ
وسروٌ، وعبّاد شمسٍ على الجانبين.
مَحَطَّاتُ كازٍ، مقاهٍ، ومستوصفاتٌ،
وشرطةُ سير على الجانبين. وسجنٌ
صغير، ودكّانُ تبغ وشاي، ومدرسةٌ
للبنين، وأقبيةٌ للبنات، وأَجهزةٌ
لقياس المُناخ، ولافتةٌ للأجانب: أهلاً

بكم في الطريق إلى أين؟ مرتفعات
ومنخفضات. وآثار مَوْتى رأوا موتهم
واقفاً في الطريق، فألقوا عليه التحيَّة.
قال: إلى أين؟ قالوا: إلى «أَين»!
نمشي كأنَّا سوانا. كأنَّ هناك | هنا
بين بين. كأن الطريق هو الهدف
اللانهائيُّ، لكنْ إلى أين نمضي، ومن
أين نحن إذن؟ نحن سُكَّان هذا
الطريق الطويل إلى هدف يحمل اسماً
وحيداً: إلى «أين»؟

فكاهة الخلود

للمقابر هَيْبَةُ الهواء وسَطْوَةُ الهباء. تُشَيِّع صديقك ممدوح، وتنتظر دورك ... تنقلك روائحُ الزهور الذابلة وحفيف الأشجار إلى البعيد ... إلى ما وراء الشيء ... إلى عنوانك الأخير في ناحية من نواحي العدم. لكنك تفكِّر في ما هو أَبسط: أَلقبورُ مراتب. فمنها ما يبدو لك أنه راحة النائم. ومنها ما يحرم النائم من التطلُّع إلى سمائه المدفونة. ومنها، كالمحاذية لساحة التروكاديرو في باريس، ما يجعل النائم جزءاً من وتيرة

الحياة. فهو قريب من المقاهي والمتاحف ومواعيد الأحياء. الحياةُ في متناول قبره الرخامي. وحوله مِنْ تَنَوُّع الزهر والشجر والطير والبشر ما يُغْنيه عن الخروج إلى نزهة، بعدما أنفق مُدَّخَراته لامتلاك خُصُوصيّةِ هذا العنوان الدائم. ومن القبور ما يجعل العدم مادة مرئية، كتلك القبور المرمية في الصحراء بعيداً عن الشجر والماء. لا أَنيس للنائم الذي يحترق في حرّ الصيف ويتجمد من البرد في الشتاء. كأنه يواصل الموت بلا نهاية، حيث يخلو الموت من استعارة النوم. لكن الذين يشرفون على تشييد قبورهم، وتأثيثها بصُوَرهم، لا يُفَكِّرون براحة النوم قريباً من صداقة الأحياء، إنما يفكرون بتدريب التاريخ على القراءة. ويفكرون بما هو أَصعب: برشوة الخلود. دون أن يعلموا أن الخلود لا يزور القبور. وأَنه يحبُّ الفكاهة!

اللامبالي

لا يُبالي بشيء. إذا قطعوا الماءَ
عن بيته قال: لا بأس! إن الشتاء
قريبٌ. وإن أَوقفوا ساعةَ الكهرباء
تثاءَبَ: لا بأس، فالشمسُ تكفي.
وإن هدَّدوهُ بتخفيض راتبه قال: لا
بأس! سوف أَصوم عن الخمر
والتبغ شهراً. وإن أَخذوهُ إلى السجن
قال: ولا بأس، أَخلو قليلاً إلى النفس
في صحبة الذكريات
وإن أرجعوهُ إلى بيته قال:

لا بأس! فالبيتُ بيتي.

وقلت له، مرة، غاضباً: كيف تحيا غداً؟
قال: لا شأن لي بغدي. إنه فكرةٌ
لا تراودني. وأنا هكذا هكذا: لن
يغيِّرني أيُّ شيء، كما لم أُغيِّر أنا
أيَّ شيء ... فلا تحجب الشمس عني!
فقلتُ له: لستُ اسكندر المتعالي
ولست ديوجين
فقال: ولكنَّ في اللامبالاة فلسفةً،
إنها صِفَةٌ من صفات الأَملْ!

اللوحة والإطار

إذا انـكـسـر إطـارُ الـلـوحـة، بـسـبـب هـزة أرضـيّـة خـفـيـفـة، تحـمـلُ الـلـوحـةَ إلـى صـانـع أُطُـرٍ مـاهـر، فيضـع لـهـا إطـاراً رُبَّمـا أَجـمـل. أمـا إذا تـشـوّهـت الـلـوحـة، بـسـبـب خـلـل فـنـيّ أصـلـيّ، وبـقـي إطـارهـا سـلـيـمـاً، فـلـن تحـتـاج إلـيـه إلّا إذا نـقـص الحطـب في المدفـأة. كـذلـك هـي الـفـكـرة: إذا انـكـسـر إطـارهـا وجـدتَ لـهـا إطـاراً أقـوى وأصـلـب. أمَّـا إذا انـكـسـرت الـفـكـرة، فـلـن يـكـون إطـارهـا الـسـلـيـم غـيـرَ ذكـرى حـزيـنـة، تحـتـفـظ بـهـا كـمـا

يحتفظ راع خائب بجَرَس كبش من قطيعه،
افترسته الذئاب!

ثلج

تكثَّفَ الهواءُ الأبيض، وتباطأ وانتشر كالقطن المنفوش في الفضاء. وحين لامس جَسَدَ الليل أضاءه من كل ناحية. ثلج. انقطع التيار الكهربائي، فاعتمدت على ضوء الثلج لأهتدي إلى الممر، الفاصل الموسيقي، بين جدارين، فإلى الغرفة المجاورة لشجرات النخيل الست الواقفات كراهبات على كتف الوادي. فَرَحٌ شِبْهُ ميتافيزيقي يأتيني من كُلِّ ما هو خارجي، وأَشكر الريح التي جاءت بالثلج من أقاليم لا تصل إليها

إلّا الروح. لو كنتُ غيري لاجتهدت في وصف الثلج. لكنني إذ أنخطفُ في هذا العشب الكونيّ الأبيضِ، أتخفف من نفسي فلا أكون أنا، ولا أكون غيري، فكلانا ضيفان على جوهر أبيض، مرئيّ وواسع التأويل. وحين عاد التيار الكهربائي، أطفأت الضوء وبقيت واقفاً أمام النافذة لأرى كم أنا هناك... طيفاً في ما وراء الثلج!

عَدْوَى

قال لي، بعدما كسر الكأسَ:
لا تَصِفِ الشعرَ، يا صاحبي، بالجميل
ولا بالقويّ،
فليس هنالك شعر قويّ وشعر جميل
هنالك شعر يُصِيبُكَ، سرّاً
بعَدْوى الكتابة والانفصام، فتهذي
وتخرجُ ذاتُكَ منك إلى غيرها ... وتقول:
أنا هُوَ هذا وهذا، ولستُ أنا. وتطيل
التأمُّل في الكلمات. وحين تجس لها
نبضها، تشرئبُّ وتهمس في أُذنيك:

اقترب وابتعد، واغترب واتّحد. ويسيل
حليب من الليل. تشعر أنك طفلٌ
سيُولَدُ عما قليل!

حوض خزامى

محتشمةً متكتّمةً، على طِيبك، كحوض خُزَامى، تجلسين قبالة مطالعي. وأَصابعي تحكُّ أصابعي، فيسقط فنجان قهوتي ــ ذريعتي وخديعتي، لتقرِّبي طِيبَكِ مني، وأَلُمَّهُ مع شظايا الهال ... فلا يصل. لأن رائحة الخزامى لا تنتقل من خِدْرها الحذر إلى المُنْتَظِر سخاءَ المخفيّ. أكثرُ من حاسة فاقدةِ الصبر تشرئبُّ إلى ما سيهبُّ من جهتك المتقشّفة المنصرفة إلى صون بكارة الرائحة الملتفّة بأوراق الكشافة. أَدنو

منك كمُقْبِل على مغامرة، كمدبر عن خوفه.
أمدّ يديَّ إلى حوض الخزامى. أفركها وأَحضنها وأَشمّها وأَضمّها، ولا تقولين شيئاً. كأنك حقاً خزامى... تؤخذ رائحتها باليدين!

أَكثر وأَقلّ

حتى لو لم تكوني ما أَنتِ عليه من حضور باهر، سأكون أنا ما أنا عليه من غياب فيك ... باطنٍ وظاهر. شفّافٌ حضورك بلّوري أرى ما وراءه من حدائق، فأنخطف إلى متاهات عليا لا يبلغها خيال تبهجه سعة المجاز ويُخرِجُهُ فقرُ الكلام المتداول. أَقول ما أقول لك بلغة تفتقر إلى كثافة العسل وخفَّة الفراشة... في حضرة هذا الممكن المتمكن من رفع المصادفة إلى مرتبة الإعجاز. فإلى أين يأخذنا صمتك المضفي على الكلام الغامض

إغواءَ التورية؟ كأني لم أكتب من قبل، ولم أحفظ ما كتبتُ لكِ في سرِّي. وشفَّافٌ حضورك، فلا أدري إن كانت روحك تسكن جسدك، أم أن جسدك يلبس روحك ويشعّ لؤلؤة في عتمتي. يختلط عليَّ الشكل والجوهر، فأرى الشكل جوهراً، والجوهر شكل الكمال. وأباريك في الصمت لئلا تزلَّ بي كلمة فأسقط على ما كنتهُ قبلك من ارتجالٍ مُتَعَثِّر. لا، لستُ شاعراً ينتظر قصيدته في ما تنثرين من إيماءات، أنت وأنا ــ إن كان لنا أَن نجتمع في عبارة واحدة كما نحن هنا في غرفة واحدة ــ ضيفان خفيفان على ما يسبق المعنى من غيوم، ممتلئان بحنين الطير إلى شجر الليل، بلا فكرة عن غد لا يعدنا بغير الأمل. فأحضر وتغيبين. وأنظر إلى غيابك يُهيل عليَّ سماء ما. حتى لو لم تكوني ما أنت عليه من غياب. سأكون أنا ما أنا عليه من حضور. كأنك معي. كأني في حاجة أكثر إلى ما هو أقلّ!

أَغبطُ كُلَّ ما حولكِ

أغبطُ حواسي. للهواء لون الغاردينيا ... ولرائحتك على كتفيّ أقواسُ نَصْرٍ وَضَحِك. أَغبط الخناجرَ المسالمةَ النائمةَ في أَغمادها أمامك على المنضدة، في انتظار إشارة منكِ لقتلي. أَغبط المزهرية، تستغني عن وردها الأصفر بما تغدقين عليها من قرمز الشفتين الجائعتين إلى جُوعي. وأَغبط اللوحة المحدقة إليك بضراعة: انظري إليَّ أَطول لأكمل ما ينقصني من بحيرات وبساتين كرز. وأُغبط أعشاب السجّادة تشرئبُّ إلى حجلة

تهبط إليها من عل، وإلى حجلة تستريح على الركبة، فيسخن رخام الغرفة وخيالي. وأُغبط المكتبة المضطربة المكتئبة لخلوّها من كتاب شهواني في مديح ربوتين عاجيتين صغيرتين مكشوفتين أمامها على هياج الجيتارات، ومغلقتين بموجة حرير يتنهد، وأُغبط أصابعي تلتقط ما يفيض عن حاجة يديك إلى حوار الضوء والظل وحركة الملعقة في فنجان الشاي، وتحريك الملح في جسد يحنّ إلى عاصفة لتأجيج نار النشيد: يا هذه الأشياء لُمّيني وضُمّيني لأغبط ذكرياتي عنك في ما بعد. وأَغبط لساني الذي يناديك باسمك بحرص مَنْ يحمل أربع كؤوس كريستال بيدٍ واحدة. أتذوّق حروف اسمك، حرفاً حرفاً، كفواكه موسيقية. ولا أشرب الماء معها لأحافظ على مذاق الدُّراق وعلى عطش حواسي... وأغبط خيالي يحتضنك ويسكنك ويقبّلك ويدلّلُك ويطويك ويرخيك ويدنيك ويُقْصيك ويرفعك وينزلك، ويخضعك ويخضع لك، ويفعل ما لا أَفعل!

قِلّي كوكباً

هل كُلُّ هذا أَنتِ؟
غامضةً وواضحةً
وحاضرةً وغائبةً معاً..
عيناكِ ليلٌ حالكٌ ... ويُضيئني
ويداك باردتان ترتجفان
لكنْ، تُوقدان الجمرَ في جسدي
وصوتك نغمةٌ مائيَّةٌ ... وتُذيبني في الكأس
أنتِ كثيفةٌ وشفيفةٌ، وعصيّةٌ وأَليفةٌ
عذراءُ، أُمٌّ لابنتين:
قصيدتي

وقصيدةٍ أودى بصاحبها خيالٌ قاصرٌ!

هل كل هذا أنت؟

صيفٌ في الشتاء، وفي الخريف ربيعُ نفسكِ

تكبرين وتصغرين على وتيرة نايك السحريِّ

يخضرُّ الهواءُ على مهبِّك

يضحكُ الماءُ البعيدُ إذا نظرتِ إلى السحاب

ويفرحُ الحَجَرُ الحزينُ إذا مررتِ بكعبك العالي ...

أَهذا ... كُلُّ هذا أنت؟

قِلِّي كوكباً أو كوكبين لكي أصدِّقَ

أنك امرأة تُجَسُّ،

ولستِ موسيقى تكسِّرني كحبة بندقٍ

قلِّي قليلاً، واستقلِّي عن مجازك

كي أضمَّكِ من جهاتك

ما عدا الجهة التي أشرعتها للريح ...

مواعيد سريّة

أوصدتُ الباب ووضعتُ المفتاح في جيبي. أغلقتُ النوافذ وأسدلت الستائر. مسحتُ الغبار عن المرآة والمنضدة ونظارتي، وشَذّبت زهور المزهرية، واخترتُ ليليات شوپان، ونزعت سلك الهاتف لئلّا تحرجني صديقتي بسؤال عما أفعل الليلة. فكيف أقول لها إني على موعد سري مع نفسي؟ هجستُ بأن الليل، كالعالم، لم يعد مكاناً آمناً ... وانتظرتُ بلا قلق موعدي. صببتُ نبيذاً أحمر في كأسين. وفكّرتُ بلا تركيز في ما

سأقول لزائرتي ـ نفسي. وَحَدَسْتُ بطريقتها الخاصة في تعريتي ونزع أَقنعتي، وبسؤالها الساخر: منذ متى لم نلتق؟ سأقول لها: منذ امتلأتِ بي وامتلأتُ بك، ولجأتِ إلى صورتي عنك، ولجأتُ إلى صورتك عني. ستسألني: لماذا إذن لم تنسَ أن تنساني؟ سأقول لها: لئلا تسرقني المصادفات من الممكنات في طريقي إلى مجهولك. ستقول لي: لا أفهمك. سأقول: ولا أنا. لم يعد العالم مكاناً آمناً، أحتاج إليك خلاصاً ... لماذا تأَخَّرْتِ عن الموعد؟ ستسألني: أي موعد؟ سأقول لها: هذا الموعد ـ هل نسيتِ؟ لكنني لا أسمع جواباً، وأَتطلع إلى كأسها فلا أجدها. شربت كأسي وثملت وقلت: أَنا وحدي في ثيابي. أَعدت تشغيل الهاتف، واتصلت بصديقتي متوسلاً: تعالي إليَّ. فقالت: لا أستطيع الخروج من البيت، لأنني على موعد سِرِّيّ مع ... نفسي!

قالت له

«الليل تاريخُ الحنين، وأَنتِ لَيْـلي» ـــ
قلتَ لي، وتَرَكْتَني
وتركتَ لي لَيْـلي ولَيْـلَكَ باردين ...
وسوف يوجعني الشتاءُ وذكرياتُكَ
سوف يوجعك الهواءُ معطراً بزنابقي
لا بأس!
سوف أُحبُّ أوَّل عابرٍ
يبكي على امرأةٍ رَمَتْهُ إلى الهباء كما فعلتَ
سنعتني [أنا والغريبُ] بلَيْلنا ونضيئه.
سنؤثِّث الأَبد الصغير... سننتقي

[أنا والغريبُ] سريرنا وشعورنا بعنايةٍ.
ولربما نتلو معاً [أنا والغريب]
قصيدة الحب التي أَهْدَيْتَني:
«الليلُ تاريخُ الحنين
وأَنتِ ليلي»!

عَطْس

الإحباط هو ما يلي الإحساس الزائف بالسعادة التي تشبه العطس بسبب رائحة البنزين. أَسعدني أني عطست، لكن ذلك لا يصلح لاختراع ذكرى أستعيدها. وحين أسأل: ما هي السعادة؟ أتفلسف بلا فلسفة. ولا أُحاول أَن أَتصوّف بحثاً عنها في الماوراء. قد أجدها مصادفة، وقد لا أجدها. لكني لا أبحث عنها بقدر ما أبحث عن جواب يُعزِّيني ويُسَلِّيني. وكلما تساءلت: هل

أنا الليلةَ سعيد؟ خجلت من سذاجتي،
وفتحت النافذة لأرى أحوال السماء، لأن
البرد أيضاً يجعلني أَعطس، ولأن النجوم
كلمات في طريقها إليَّ، هكذا تأتي
هنيهة السعادة من خارجي. فالفرح
ليس أكثر من ورقة يانصيب رابحة
لا تلزمنا بغير تقديم الشكر للمصادفة.
هل حياتي هي تغاضي العدم
عني الآن؟ حين كتبت هذا السؤال،
انقطع التيار الكهربائي، وشعرت بالبرد
دون أن أعطس!

مديحُ النبيذ

أَتأمَّل النبيذ في الكأس قبل أَن أذوقه / أتْركُهُ يتنفَّس الهواء الذي حُرم منه سنين. إخْتَنَقَ ليحمي الخصائص. وتخمَّر في سُبَاته، وٱدَّخَر الصيفَ لي وذاكرةَ العنب /. أتركُهُ ينتقي لونه المُسَمَّى، خطأً، أحمر. فهو مزيج من قُرْمُزيّ تشرَّب غيمة خفيفة السواد. لون لا لون له إلّا اسمه: نبيذيّ، لنرتاح من مراوغة الوصف ./ وأترُكُهُ يحترم رائحته، الرائحةَ المتكبرة المتعالية كالمُحْصَنَات من النساء. إن شئتَ

أن تَشُمَّها فلا تأتي هي إليك. عليك أنت أن تتأكَّد من طهارة يدك وخلوِّها من العطر، ثم تمدَّها بلينٍ عاطفيّ إلى الكأس كأنها تقترب من نَهْد. تقرِّبُ الكأس من أَنفك بأناة نحلة، فتبعثرك رائحةٌ عميقة سرّية: رائحةُ اللون التي تُدْخِلُكَ إلى أَدْيِرَةٍ قديمة ./ وأَتركه يستجمع خواطر مذاقه إلى أن نكون، أنا وهو، جاهِزَيْن عطشاً لاستقبالِ وَحْيٍ بالفم. لا أَتعجَّل ولا أَتمهل، فكلاهما كسر في إيقاع المتعة. أُقرِّبُ الكأس من شفتيّ بخفر المتسوِّل قبلةً أولى من امرأةٍ غامضة العواطف. أرتشف جرعة خفيفة. وأَنظر إلى أَعلى بعينين نصف مغمضتين إلى أن يسري سُلافُ نشوةٍ في شرايينى. وتنفتح شهيَّتي على ما يليق بالنبيذ من حاشِيةٍ ملكية. هو النبيذ يرفعني إلى مرتبة أعلى، لا هي سماوية، ولا هي أرضية. ويقنعني بأنَّ في وسعي أن أكون شاعراً، ولو لمرة واحدة!

على أَعالي السرو

قالت له: هل أنتَ مَنْ كَتَبَ القصيدةَ؟
قال: لا أدري. حلمتُ بأَنني حيٌّ
فقالت: ثم ماذا؟
قال: صدّقتُ المنام، وَطِرْتُ من فَرَحي
إليكِ إليكِ
قالت: ثم ماذا؟
قال: حين نطقت باسمك ردَّد الوادي
الصدى، واغرورقتْ عينايَ بالرؤيا
فقالت: ثم ماذا؟
قال: لم أحلم بما هو أكثرُ

المرآةُ صافية أمامي. أنت أنت
كما رأيتك حالماً. وأنا أنا
قالت: وماذا بعد؟
قال لها: الحياة قصيرةٌ وجميلةٌ ...
هل أنتِ مَنْ كَتَبَتْ قصيدتيَ الأخيرةَ لي؟
فقالت: لا. أَنا شَبَحٌ
فقال: أنا كذلك، ربما تتسامَرُ الأشباحُ
كالأرواح
قالت: أَين نحن الآن؟
قال: على أعالي السَرْو...!

وجهة نظر

ألفارق بين النرجس وعبّاد الشمس هو الفرق بين وجهتي نظر: الأول ينظر إلى صورته في الماء، ويقول: لا أَنا إلَّا أنا. والثاني ينظر إلى الشمس ويقول: ما أنا إلَّا ما أَعبد.

وفي الليل، يضيق الفارق، ويتسع التأويل!

رصاصة الرحمة

أَغار من الحصان: فإذا انكسرتْ ساقه وأحسّ بإهانة العجز عن الكر والفر في الريح ... عالجوه برصاصة الرحمة. وأَنا، إذا انكسر شيء فيّ، جسديٌّ أو معنوي، أُوصي بالبحث عن قاتل ماهر، حتى لو كان من أَعدائي. سأدفع له أَجرَهُ وثمنَ الرصاصة. سأُقبِّلُ يده والمسدَّس. وإذا كنتُ قادراً على الكتابة، مَدَحْتُهُ بقصيدة عصماء، يختار هو وزنها والقافية!

حياء

بحياء، أَنظر إلى طاسة الشحّاذ.
بحياء، أستمع إلى أغنية قديمة من أسطوانة مشروخة.
بحياء، أشمُّ عطر وردة ليست لي.
بحياء، أتذوَّق طعم التوت البريّ.
بحياء، أحكُّ أَحد أعضائي.
بحياء، أستعمل حواسي الخمس.
بحياء، أُطيع حاستي السادسة.
بحياء، أَحيا، كما لو كنتُ ضيفاً على غجريّ يتأهَّبُ للرحيل.

الكمال كفاءة النقصان

أَلوقتُ طار، ولم أَطِرْ مَعَهُ ...
توقَّفْ ــ قلتُ ــ لم أكمل عشائي بعد،
لم أشرب دوائي كُلَّهُ،
لم أكتب السطر الأخير من الوصيّةِ،
لم أُسدِّد أيَّ دَيْن للحياة...
وقد رأَتْني جائعاً قرب السياج
فأَطْعَمَتْني حَبَّةً من تينها ...
ولقد رأتني عارياً تحت السماء
فألبستني غيمةً من قطنها ...
ولقد رأتني نائماً فوق الرصيف

فأَسكنتني نجمةً في صدرها ...
قالت: تَعَلَّمْني تَجِدْني في انتظارِكَ!
قلت: شكراً للحياة، فإنها هِبَـةٌ وموهبةٌ ...
تَعَلَّمتُ الحياة بما استطعت من الشقاء
وعلَّمتني كيف أَنساها لأحياها ...

وقال الموت لي مُتَطفِّلاً:
لا تَنْسَني فأنا أخوها،
قلت: أُمُّكُما سؤالٌ غامض لا شأن لي فيه ...
وطار الموتُ من لُغتي إلى أَشغالِهِ.

تحيا الحياةُ ــ هتَفْتُ حين وجدتُها عفويَّـةً
فطريَّةً، تلهو وتضحك للهواء. تُحبُّنا ونحبّها ...
وتكون قاسيةً وناعمةً، وسيِّدةً وجاريةً ..
ولا تبكي على أَحد. فلا وقتٌ لديها.
تدفن الموتى على عجل، وترقص مثل غانيةٍ
وتنقص ثم تكتمل. الكمالُ كفاءةُ النقصانِ
والذكرى هي النسيانُ مرئيّاً ...

ولكني لعبتُ مع الحياة كأنها كُرَةٌ ولُعْبَـة يانصيبٍ...
لم أفكِّر مرَّةً باللغز: ما هي؟
كيف أملأها وتملأني ـــ سألَتْ وقد
رأيتُ الموت يتركني على مهلي ... لأسأل
وانتظرت الوقت. قلت: غداً سأمعن في السؤال
عن الحياة. ولم أَجد وقتاً
لأن الوقت راوغني وغافلني ... وطار!

صبَّار

أَلصَّبَّارُ الذي يسيِّج مداخل القرى كان حارساً مخلصاً للعلامات. حين كنا أولاداً، قبل دقائق، أرشَدَنَا الصبَّارُ إلى المسالك. لذلك أطلنا السهر خارج البيوت، برفقة بنات آوى والنجوم. كذلك خبَّأنا مسروقاتنا الصغيرة من بلح وتين مجفّف ودفاتر في مخدعه الشائك. وحين كبرنا دون أَن ندري كيف ومتى حدث ذلك، أَغوتنا أزهارُهُ الصفراءُ بملاحقة البنات على طريق النبع الضاحك، وتباهينا بما على أيدينا من شوك.

ولما انطفأت الزهرة ونتأت الثمرة، كان الصَّبَّار عاجزاً عن صد سلاح الجيش الفاتك. لكنه ظلّ حارساً مخلصاً للعلامات: هنالك، خلف الصبار منازل موءودة وممالك، ممالك من ذكرى، وحياة تنتظر شاعراً لا يحبُّ الوقوف على الأطلال، إلَّا إذا اقتضت القصيدة ذلك!

في الساحة الخالية

ساحةٌ خالية. ذباب وظهيرة وشجرة تينٍ لا تؤنس أَحداً. ينبح كلب من بعيد، وأنا أَقترب من الساحة الخالية. أفكِّر في ما وراءها، وفي ما وراء قصيدة يكتبها شاعر محبط عن رهبة الساحة الخالية: «أنا والكلام الذي قُلْتُهُ، والكلام الذي لم أَقله، وصلنا إلى ساحة خالية». هناك يرنُّ الجفافُ كقطعةٍ معدنية. وتُحْدِثُ خطاك صوتاً مشابهاً «كأنك غيرك» ... يتبعه صدى هواء ناشف «كأني

هو». وحين تكون الساحةُ خاليةً تمتدُّ الخواطرُ إلى ما قبل: إلى حياةٍ كانت هنا. جاءت من أزقَّةٍ ضيّقة، لتتشمَّس أو تتنفَّس أو لتعرض براهينها على الممكنات. لم أسأل: من أين جئتُ؟ بل سألتُ: لماذا وصلتُ إلى الساحة الخالية؟. خفت. وحاولت الرجوع إلى أيِّ زقاق ضيِّق، فتحوَّلَت الأزقةُ كُلُّها أَفاعي. أَغمضتُ عينيّ وَفَرَكْتُهُما وفتحتهما لأرى كابوسي أمامي. لم يكن كابوساً. كان واقعاً كابوسياً. لكن الساحة الخالية اتسعت، وشجرة التين ارتفعت، والظهيرة سطعت، وتكاثر الذباب. أما نباح الكلاب فقد آنسني من بعيد، ثمَّةَ حياة هناك. ولسبب ما، غامض، تذكرت الكلام الذي لم أَقله ... تذكرته ونسيته.

إِجازة قصيرة

صدَّقتُ أَني مِتُّ يوم السبت،
قُلْتُ: عليَّ أن أوصي بشيء ما
فلم أَعثر على شيء ...
وقلتُ: عليَّ أن أدعو صديقاً ما
لأخبره بأني مِتُّ
لكن لم أَجد أَحداً ...
وقلتُ: عليَّ أَن أَمضي إلى قبري
لأملأه، فلم أَجد الطريقَ
وظلَّ قبري خالياً مني
وقلتُ: عليَّ واجبُ أن أؤدّي واجبي:

أن أكتب السطرَ الأخيرَ على الظلال
فسال منها الماءُ فوق الحرفِ ...
قلتُ: عليَّ أن آتي بفعلٍ ما
هنا، والآن
لكنْ لم أَجد عملاً يليق بميِّتٍ

فصرختُ: هذا الموت لا معنى له.
عَبَثٌ وفوضى في الحواس،
ولن أُصدِّق أنني قد متُّ موتاً كاملاً
فلربما أنا بين بين
وربما أنا ميِّت متقاعدٌ
يقضي إجازته القصيرة في الحياة!

الشهرة

أَلشهرةُ فضيحةُ الكائن المحرومِ من الأسرار. تُغَيِّرُ مشية صاحبها بين سريعة وبطيئة، لتلائم ما يريد لها المُشَاهِد من ثقة بصلابة الأرض. على الهامة ألَّا ترتفع كثيراً لتبقى السماءُ وجهةَ نظرٍ عامة. وعلى القامة أن تنحني قليلاً لتحية المارة والطيور التي قد تحلِّق على ارتفاع منخفض. اليد اليسرى، حاملةُ الساعة المُخْتَلَفُ على معدنها بين ذَهَبِيّ وماسيّ، تندسُّ في جيب البنطلون ذي اللون الرمادي المحايد.

واليد اليمنى تضبط حركتها بالقبض على كتاب أو جريدة. لون المعطف كُحْليّ .. لأن أي لون آخر يُهَيِّجُ الشائعات. الشهرة، وهي غُرْيُ الكائن، تقتضي حماية ما تحت الثياب من الكاميرات السرية الملأى بالصور قبل التصوير. والشهرة تغري النميمة بالارتفاع إلى مستوى الجريمة، بارتكاب اغتيال معنوي لا يعاقب عليه القانون. والشهرةُ عقوبةٌ على اللّاخطأ، تُمْلي على صاحبها ارتداء قناع الترضية ليبتسم وفق الطلب والوقوف الطويل مع الواقفين حتى لو كان حاقناً. وتملي على لسانه المفردات الجاهزات الخاويات من المعنى والقصد. الشهرة عدوّ السليقة والفطرة والبداهة، واختلاف ما يقال عما يجب أن يقال. وتحويل الواحد إلى اثنين يتحاوران في غرفة مغلقة النوافذ: من منا يراوغ نصفه الثاني ... أنا أم أنت؟. ألشهرة ضُرَّةُ العفوي ... وسجنٌ كثير النوافذ، حَسَنُ الإضاءة، والمراقبة!

لو كنتُ صيّاداً

لو كُنْتُ صيّـاداً
لأعطيتُ الغزالة فرصةً أُولى
وثانيةً
وثالثةً
وعاشرةً،
لتغفو ...
واكتفيتُ بحصَّتي منها:
سلامِ النفس تحت نُعاسِها.
أَنا قادرٌ لكنني أَعفو
وأَصفو

مثل ماء النبع قرب كِناسها.

لو كنتُ صيّاداً
لآخيتُ الغزالة ...
«لا تخافي البندقية
يا شقيقتيَ الشقيّة»
واستمعنا، آمِنَيْن، إلى
عواء الذئب في حقل بعيد!

كابوس

إذ أَصحو فجراً يمرض نهاري. لا يأتيني الكابوس من الليل، بل من فجر فاجر، كما لو أن حزناً ميتافيزيقياً يجرني إلى غابة كُحْليَّة: هناك مُسَلَّحون مُقَنَّعُون وكاميرا. يشدون وثاقي إلى جذع نخلة عراقية ثكلى، قرب نخلة أخرى رُبط إلى جذعها جواد عربي. يسألونني عن اسمي الرباعي، فأخطىء في اسم أبي وجدِّي من وطأة الفجر. لا أرى سخريتهم المُقَنَّعة، لكني أسمعهم يتهامسون: لن نُعْدِمَهُ الآن

دَفْعةً واحدة ... فما زلنا في الفصل الأول من الرواية. نقتله بالتقسيط وعلى دفعات. وسنكتفي بإعدام الحصان. وعندما فكّوا وثاقي دَسُّوا في جيبي شريط ڤيديو، وقالوا: هذا للتدريب على التعذيب ... وأعادوني إلى البيت. حين شاهدتُ الشريط لم أَفرح بأني حيّ. حزنت لأن الحصان كان ينظر إليَّ بمزيج من الشفقة والتأنيب!

ليل العراق طويل

[إلى سعدي يوسف]

ألعراقُ، العراقُ دَمٌ لا تُجَفِّفُهُ الشمسُ،
والشمسُ أَرملةُ الربّ فوق العراق. يقول
القتيلُ العراقيُّ للواقفين على الجسر: عِمْتُمْ
صباحاً، فما زلتُ حيّاً. يقولون: ما زلتَ
مَيْتاً يُفَتِّشُ عن قبره في نواحي الهديلْ

ألعراق، العراق ... ولَيْلُ العراق طويل.
ولا يبزغ الفجرُ إلّا لقتلى يُصَلُّون نصف صلاةٍ
ولا يكملون السلام على أَحَدٍ ... فالمغول

يجيئون من باب قصر الخليفة في كتف النهر،
والنهر يجري جنوباً جنوباً، ويحمل أَمواتنا
الساهرين إلى أَقرباء النخيلْ

ألعراقُ، العراقُ مدافنُ مفتوحةٌ كالمدارس
مفتوحة للجميع، من الأرمنيّ إلى التركمانيّ
والعربيّ. سواسية نحن في درس علم
القيامة. لا بُدَّ من شاعر يتساءل:
بغدادُ: كم مَرَّة تخذلين الأساطير؟ كم
مرّة تصنعين التماثيل للغد؟ كم مَرَّةً
تطلبين الزواجَ من المستحيلْ؟

أَلعراقُ، العراق ... هنا يقف الأنبياءُ هنا
عاجزين عن النطق باسم السماء. فَمَنْ
يقتل الآن مَنْ في العراق؟ الضحايا شظايا
على الطرقات وفي الكلمات. وأَسماؤهم نُتَفٌ
من حروفٍ مُشَوَّهَةٍ مثل أَجسادهم. وهنا
يقف الأنبياء معاً عاجزين عن النطق باسم

السماء، وباسم القتيلْ

أَلعراقُ، العراق، فمن أَنت في حضرة الانتحار؟
أنا لا أنا في العراق. ولا أَنت أنت. وما
هو إلّا سواهُ. تخلَّى الإله عن الحائرين
فمن نحن؟ مَنْ نحن. لسنا سوى خبر
في القصيدة: لَيْـلُ العراق طويلٌ طويلْ!

في قرطبة

أبواب قرطبة الخشبية لا تدعوني إلى الدخول لإلقاء تحيَّةٍ دِمَشْقِيَّةٍ على نافورة وياسمينة. أمشي في الأزقة الضيّقة في نهارٍ ربيعيّ مُشْمسٍ سَلِس. أَمشي خفيفاً كأني ضيف على ذاتي وذكرياتي، كأني لست قطعة أَثريّةً يتداولها السُيَّاح. لا أُربت على كتف ماضيَّ بفرحٍ يتيم، كما تتوقَّعُ مني قصيدةٌ مُرْجَأَة. ولا أخاف الحنين منذ أغلقت عليه حقيبة السفر، بل أخاف الغد الراكضَ أمامي

بخطى إلكترونية. كلما تطفَّلتُ عليه نَهَرَني قائلاً: إبحثْ عن الحاضر. لكنَّ الشعراء كثر في قرطبة. أجانب وأندلسيون. يتحدثون عن ماضي العرب وعن مستقبل الشعر. وفي حديقةٍ، قليلةِ الشأن والشجر، أرى نصباً بحجم الكفّ لابن زيدون وولّادة، فأسأل أحد شعرائي المفضّلين، ديريك ولكوت، إن كان يعرف شيئاً عن الشعر العربي، فلا يأسف عندما يقول: كلا.. لا شيء. ومع ذلك، بقينا معاً ثلاثة أيام لم نتوقف فيها عن الضحك والسخرية من الشعر والشعراء الذين وصفهم بأنهم لصوص استعارات ... سألني: كم استعارة سَرَقْتَ، فأخفقتُ في الجواب. وتبارَيْنا في مغازلة القرطبيات، وسألني: إذا أُعجبت بامرأة فهل تتقدَّم منها؟ قلت: على قدر جمالها تكون جرأتي ... وأنت؟ قال: أمَّا أنا، فإذا أَعجبتني امرأة جاءت هي إليّ. قلت: لأنك ملك وٱبن ... ما لا أعرف. وكانت زوجته الثالثة تضحك.

وفي قرطبة، وقفتُ أمام بوابة بيت خشبية
وبحثت في جيبي عن مفاتيح بيتي القديم،
كما فعل نزار قباني. لم أذرف دمعة،
لأن الجرح الجديد يخفي ندبة الجرح القديم.
لكن ديريك ولكوت فاجأني بسؤال جارح:
لمن القدس؟ لكم أم لهم؟ ...

في مدريد

شمسٌ ورذاذٌ وربيعٌ حائر. والأشجار عتيقة وعالية في حديقة «بيت الطلبة». الممرات مرصوفة بحصى يجعل المشي عليه أَقرب إلى تدريب ساحر على رقصة فلامنكو. والظلال مثقوبة بضوء مترجرج. من على هذه التلة نطلُّ على مدريد الواسعة المنخفضة كحوض أخضر. ونجلس، أَنا والشاعر الكندي / الأميركي مارك ستراند، على مقعد خشبي لالتقاط الصور مع الطالبات والطلبة... وللتوقيع على كتبنا

المترجمة إلى الإسبانية، نتبارى في إخفاء فرح الشاعر بقارئه المجهول، غير المتوقّع ... وبسَفَرِ شعره الذي كتبه في غرفة مغلقة إلى هذه الحديقة. اقتربتْ سيدة أَنيقة مني وقالت: أنا حفيدة لوركا، فعانقْتها لأشمّ ما تسرَّب من ذراعيه إليها. وسألتها: ماذا تتذكرين منه؟ فأجابت بأنها وُلدت بعد مصرعه. قلت لها: هل تعلمين كم نحبّه؟ قالت: كل الناس تقول ذلك، فأشعر بالزهو. إنه أيقونة. وذكَّرني مدير البيت بأن هذا المكان هو أحد معالم مدريد. مَنْ لم يقرأ شعراً هنا فهو الخاسر. هنا عاش لوركا وأَلبرتي وخيمينيث وسلفادور دالي.

في نهاية الندوة المشتركة طُلِب مني أن أوجِّه سؤالاً إلى مارك ستراند. فسألته: ما هي الحدود الواضحة بين الشعر والنثر؟ تلعثم كما يتلعثم الشعراء الحقيقيون أمام صعوبة التحديد. ثم قال ... وهو الذي يكتب الشعر النثري: الإيقاع الإيقاع. الشعر يُعَرَّفُ بالإيقاع.

وحين خرجنا إلى الحديقة نتمشَّى على ممرَّات الحصى، لم نتكلَّم كثيراً لئلا نكسر إيقاع الليل على الأشجار العالية. ولا أَعرف لماذا تذكرت قول نيتشه الحاذق: «الحكمة هي المعنى محروماً من الغناء»!

عالٍ هو الجبل

يمشي على الغيم في أَحلامه، ويرَى
ما لا يُرَى. ويظنُّ الغيمَ يابسةً ...
عالٍ هو الجَبَلُ

أعلى وأَبعد. لا شيء يُذَكِّرُهُ
باللامكان، فيمشي في هواجسِهِ
يمشي ... ولا يَصِلُ

كأنه هُوَ، أو إحدى صفات «أَنا»
وقد تقاسمها الضدان بينهما:

أليأسُ والأمَلُ

كان الضبابُ كثيفاً في قصيدتِهِ
وكان يصعد من حلمي، فقلتُ له:
عالٍ هو الجبلُ!

لا أَنتبه

أرى ما أَرى
دون أَن أَنتبهْ
وإذ، لا أرى ما أرى
يُوَرِّطني القلبُ بهْ
وأَحيا
كأني أنا
أو سوايَ
ولا أَنتبهْ!

تلك الكلمة

أَعجبتْهُ كلمةْ
فَتَحَ القاموسَ،
لم يعثر عليها،
وعلى معنىً ضبابيّ لها ...
لكنها تسكنُهُ في الليل
موسيقيّـةً منسجمهْ
مع ذاتٍ مُبهَمةْ

قال: لا بُدَّ لها من شاعرٍ
ومجازٍ ما لتخضرّ وتحمرّ

على سطح الليالي الـمُعْتِمَةْ

ما هِيَ؟
وَجَدَ المعنى
وضاعتْ منه تلك الكلمةْ

صدى

في الصدى بئرٌ
وفي البئر صدى
والمدى
يبدو رماديّـاً حياديّـاً
كما لو أَنَّ حرباً لم تقع
أَو وَقَعَتْ أَمسِ،
وقد تأتي غداً ...

في الصدى بئرٌ
وفي البئر صدى

وأَنا أَبحث ما بينهما

عن مصدر الصوت

سدى!

شجرة الزيتون الثانية

شجرة الزيتون لا تبكي ولا تضحك. هي سيِّدةُ السفوح المحتشمة. بظلِّها تغطّي ساقها، ولا تخلع أوراقها أمام عاصفة. تقف كأنها جالسة، وتجلس كأنها واقفة. تحيا أُختاً لأبدية أَليفة وجارةً لزمن يُعينُها على تخزين الزيت النورانيّ وعلى نسيان أسماء الغزاة، ما خلا الرومان الذين عاصروها واستعاروا بعض أغصانها لضفر الأكاليل. لم يعاملوها كأسيرة حرب، بل كجدة محترمة ينكسر السيف أمام

وقارها النبيل. في فِضَّة خضرتها المتقشّفة خَفَرُ اللون من الإفصاح، والنَظَرُ إلى ما وراء الوصف، فلا هي خضراء ولا فضيّة. هي لون السلام إذا احتاج السلام إلى فصيلة لون. لا يقول لها أَحد: كم أنت جميلة! لكنه يقول: كم أنت نبيلة وجليلة. وهي، هي التي تدرِّب الجنود على نزع البنادق، وتمرِّنهم على الحنين والتواضع: «عودوا إلى بيوتكم، وأَضيئوا بزيتي القناديل». لكن هؤلاء الجنود، هؤلاء الجنود الجدد، يحاصرونها بالجرافات ويجتثّونها من سلالة الأرض ... ينتصرون على جدّتنا التي انقلبت وصار فرعها في الأرض وجذرها في السماء. لم تبك ولم تصرخ. إلَّا أن أَحد أحفادها ممن شاهدوا عملية الإعدام، رمى جندياً بحجر، واستشهد معها. وعندما مضى الجنود منتصرين، دفنَّاهُ هناك: في الحفرة العميقة ـ مهد الجدة. ولسبب ما، كُنَّا متأكدين من أنه سيصبح، بعد قليل، شجرة زيتون ... شجرة زيتون شائكة ... وخضراء!

صفصافة

صفصافةٌ في ملتقى دربين: هل
جاء الشماليون؟ أم ذَهَبَ الجنوبيّون؟
لا حربٌ هناك ولا سلامٌ، والسماءُ
نظيفة وخفيفة فوق المكان ...
وقال لي، متأبطاً كُرّاسَهُ الشعريَّ:
هذا، يا غريب، هُويَّتي

متداخلاً في الأبجدية. كُلُّ حَرْفٍ ربوةٌ
وحديقةٌ. هو، لا أنا، في الحرف
سيِّدُ نفسه. يختار عالمه الخياليَّ

البعيد من الطبيعة: رُبَّما نَقَّحْتُ
أخطاء الخريطة. ربما أَصلحتُ ما فعل
النحاسُ بإخوتي..
ويقول لي: أنا حاضر في كُلِّ شيء
غائب عن كُلِّ شيء، بين أَمس
وحاضري صفصافة
صفصافة في ملتقى زمنين
قلت: فمن تكون؟
فقال لي، متأبطاً كُرَّاسَهُ
متورطاً بكلامه الشعري:
هذا ما تبقَّى من حُطام هُويَّتي!

حق العودة إلى الجنة

إذا كان الله قد عاقب آدم، بطرده من الأبدية إلى الزمن، فإن الأرض منفى، والتاريخ مأساة... بدأت بحرب عائلية بين قابيل وهابيل، ثم تطورت إلى حروب أهلية وإقليمية وعالمية، ما زالت مستمرة إلى أن يقضي أحفادُ التاريخ على التاريخ. فماذا بعده؟ ماذا بعد التاريخ؟ يبدو أن حق العودة إلى الجنة محفوف بالعدم وبالأسرار الإلهية. أما الطريق الممهَّد الوحيد فهو الطريق إلى الهاوية، حتى إشعار آخر ...

حتى صدور العفو الإلهي.

لولا الخطيئة

لا كما ظنَّ آدَمْ!

لولا الخطيئةُ
لولا النزولُ إلى الأرض
لولا اكتشافُ الشقاء
وإغواءُ حوّاء
لولا الحنين إلى جنّـةٍ غابرةْ
لَـمَا كان شِعْرٌ
ولا ذاكرةْ
ولما كان للأبديّـة معنى العزاء!

خريف إيطالي

أُغنية تفتقر إلى كلمات إيطالية. يا له من خريف ... ويا له من خريف. السماء لا هي زرقاء ولا هي بيضاء ولا رمادية، لأن الألوان وجهاتُ نظر تختلف وتأتلف. الغيومُ الصغيرة مناشف تمسح الرذاذ عن أَعالي الجبال. وترتفع الجبال كلما دَنَتْ منها السماء. الأشجار كائنات أُنثوية خرجت للتو من حمَّام السحاب لارتداء طيورٍ لا تهاجر اليوم، لأن الخريف لا يومىء إلى زمن ذابل وَشَجَن. هو عرض أزياء احتفاليّ

لاشتقاق اللون من اللّالون. يهيِّج الحنين إلى ما يتلو الوصف، ويسبق حشرجة الكهرمان في المضاجع. الخريف شحوب الرخام إذا ما استيقظت الحواس على نداء العسل. وأَنا هنا، في ضواحي أكويلا الإيطالية، جالس وراء شرفة زجاجية واسعة ترشد النظر إلى ما ينتظر القلب من سكينة: في الوادي أَبدية تلقي التحية العابرة على زُوَّارها الصاعدين إلى سفوح جبالٍ نَقَشَ عليها التاريخُ قلاعاً حصينة لصدّ البرابرة. ثم هبط إلى الوادي مجعَّداً مطاطىء الرأس. لا شيء يثير فزع الغزلان والأرانب. ولا شيء يرسل حنيني إلى شيء، وأَنا أتابع أوراق الشجرة المتباطئة في الهبوط التدريجي إلى الأرض، كامرأة تتعرَّى على مهلها في خيال العاشق. أنا هنا ورقة الشجرة يحملني الهواء إلى نوم شتائي أصحو منه على بُرْغُمي. هنا، قرب هذه الأبدية الأليفة، اللامبالية بتاريخ القلاع، يعثر

زائـر مـثـلـي عـلـى مـعـنـى مـا مـن مـعـانـي
الـغـيـوم، فيقـول: حـمـداً لـلـخِـفَّـة .. حـمـداً!

مسافران إلى نهر

رأيتُ الحبّ عن بعد خمسة أمتار. رأيته جالساً على مقعد في قاعة المسافرين إلى عناوين غير مرتجلة. ألمطار مزدحم. الفتى الفرنسيّ والفتاة اليابانية غريبان عن الزحام. ملفوفان، كما بدا لي، بغمامة واحدة زرقاء. يتناوبان النُعاس ولا يلتفتان إلى ما هو خارجهما. تنظر إليه حين يضع رأسه على كتفها نظرةً حريريَّةً تحرص على ألَّا تخترقه. كأنها لا تريد له أن يراها تراه، كأنهما في أوَّل الحب وتخجل من أن

يعرف كم ستحبُّه. ثم يتبادلان الخَفَر ... ينظر إليها حين تضع رأسها على كتفه نظرة مَنْ يخشى على تُحْفَةٍ بلّورية هشّة من الانكسار. وحين تلتقي النظرتان على شغف وشفافية، تنهض الفتاة لتشتري زجاجة ماء. تسقي الفتاةُ الفتى كأنها ترضعه، ويسقيها كما لو أنه يُقَبِّلها. طويتُ رواية الرحلة لأرى صورة الحب عن بعد. ارتعشت وانتعشت بموجة عطر خفيّ هَبَّتْ عليَّ من فتاة يابانية وفتى فرنسي بلغا من الرهافة منزلة غزال وظبية. لم يقل لها شيئاً. ولم تقل له شيئاً. فقد اكتفيا بفواصل الصمت في الموسيقى اليابانية. لعلهما لم يبلغا سنَّ الكلام عمَّا هما فيه من تلاشي الواحد في الآخر. لو قالت له شيئاً لكان: النهر الذي سنجتازه بعد هذه الرحلة يمرُّ قرب بيتنا. ولو قال لها شيئاً لكان: النهر الذي سنجتازه بعد هذه الرحلة هو بيتنا!

قاتل وبريء

هُوَ الحُبُّ، كالموجِ
تكرارُ غبطتنا بالقديم ــ الجديد
سريع، بطيء
بريء كظبي يسابق درّاجةً
وبذيء ... كديكْ
جريء كذي حاجةٍ
عصبيُّ المزاج رديء
هادىء كخيالٍ يرتِّب ألفاظه
مظلمٌ، معتمٌ ... ويضيء
فارغٌ ومليء بأضداده

هو الحيوان | الملاك
بقوّة أَلف حصان، وخفَّة طيف
وملتبسٌ، شَرِسٌ، سَلِسٌ
كلما فرَّ كرَّ
ويُحْسنُ صنعاً بنا ... ويُسيء
يفاجئنا حين ننسى عواطفنا
ويجيء ...
هو الفوضويّ | الأنانيّ |
والسيِّد | الواحد | المتعدِّدُ

نُؤْمنُ حيناً، ونكفر حيناً
ولكنه لا يُبالي بنا
حين يصطادنا واحداً واحدةْ
ثم يصرعنا بيد باردةْ

إنه قاتلٌ ... وبريء!

كأنها أغنية

كما لو حلمتُ: رأيتكِ بيضاءَ، سمراءَ،
حنطيّةً ... تَصْطَفين من اللون تأويله.
تجلسين على ركبتيَّ، كأنك أنتِ. كأني
أنا. ولنا ما يُعدُّ لنا الليل من
نُزْهَةٍ في حدائقه الليلكيّة. كُلٌّ هناك
هنا. كُلٌّ شيء لنا. أنتِ لي، وأنا لك
والظل ـــ ظلّك يضحَكُ كالبرتقالة. والحلم
أدَّى مهمته مثل ساعي البريد، وطار
إلى غيرنا. فعلينا إذن أن نكون
جديرَيْن، هذا المساء، بنا ... وبنهر
يرافقنا، ونفيض به ويفيض بنا!

شاعري / آخَري

أَلقصيدةُ تُولَدُ في الليل من رحم الماء.
تبكي، وتحبو، وتمشي، وتركض في الحلم
زرقاءَ بيضاءَ خضراءَ. ثم تَشبُّ وتهربُ
في الفجر |
يَحْدُثُ هذا، وشاعرها نائم لا يُحسُّ بها
وبما حوله. لا يراها تغافله وتطير إلى
غيره.
في الصباح، يقول: كأني حلمت بها،
بالقصيدة ... أَين هي الآن؟
يشرب قهوته شارداً، حاسداً غيره
ويقول أخيراً: هنيئاً له شاعري | آخري!

سماء صافية وحديقة خضراء

أَلسماءُ الصافية تفكير بلا فكرة كحديقةٍ كُلُّها خضراء. قصيدة لا عيب فيها سوى إفراطها في الوضوح. تفتقر السماء إلى غيمة ولو عابرة لتوقظ الخيال من خَدَر الأزرق. وتفتقر الحديقة الخضراء إلى لون آخر، أحمر أو أصفر أو ليلكي، وإلى بنات آوى، لكي يحار القلب بين الأنواع. فالجاهز خصم الحافز. والقصيدة محتاجة إلى ما يشبه الخلل الماكر لكي نصدِّق الشاعر حين يكذب ويكتب عن حيرة الروح

بين سماء صافية وحديقة خضراء. فما حاجتنا للشعر إذا قال الشاعر: إن السماء صافية. وإن الحديقة خضراء؟

كلمة واحدة

هسيسُ الكلمة في اللَّامرئيّ هو موسيقى المعنى، يتجدد في قصيدة يظنُّ قارئها، من فرط ما هي سريَّة، أنه كاتبها!

كلمةٌ واحدةٌ، كلمة واحدة فقط، تشعُّ كماسة أو يراعة في ليل الأجناس، هي ما يجعل النثر شعراً!

وكلمةٌ عاديَّةٌ، يقولها لا مبالٍ للا مبالٍ آخر، على مفترق طرق أو في السوق، هي ما يجعل القصيدة ممكنة!

وجـــمـــلـــةٌ نـــثـــريَّـــةٌ، لا وزن فيهـــا ولا إيـــقـــاع، إذا أَحسن الشاعر استضافتها في سياق الملائم، ساعدته على ضبط الإيقاع، وأضاءت له طريق المعنى في غَبَش الكلمات.

بيت القصيد

ألشيء الناقص في القصيدة، ولا أَعرف ما
هو، هو سرّها المُشِعّ. وهو، ذلك
الناقص، ما أُسمِّيه «بيت القصيد»

□

حين تكون القصيدةُ واضحةً في ذهن الشاعر،
قبل كتابتها، من السطر الأول حتى الأخير،
يصبح الشاعر ساعي بريد، والخيالُ درَّاجة!

□

أَلطريق إلى المعنى، مهما تشعّب وطال،

هو رحلة الشاعر. كُلَّما ضلَّلته الظلال اهتدى!

□

ما هو المعنى؟ لا أعرف. لكني قد أَعرف ما هو نقيضه. نقيضه هو استسهال العَدَم!

□

ليس الألم موهبة. هو امتحانها: فإمَّا أَن تقهره ... أو يقهرها!

□

كُلُّ شِعْرٍ جميلٍ ... مقاومة

□

أَلتراث الحيّ هو ما يُكْتَبُ اليوم ... وغداً

□

أَلشاعر الكبير هو مَنْ يجعلني صغيراً حين

أكتب ... وكبيراً حين أَقرأ!

□

أَمــشــي بــين أبــيــات هــومــيــروس والمتنبــي
وشيــكسبيـر ... أَمشـي وأَتـعثـر كنـادلٍ مُتَـدرِّب
في حفلة ملكية!

□

ألــغــيــمــة في خــيــال الــشــاعــر ... فــكــرة.

□

الــشــعــر ... مــا هــو؟ هــو الــكــلام الــذي نــقــول
حــين نــســمــعــه أو نــقــرؤه: هــذا شــعــر!
ولا نحتاج إلى برهان.

هجاء

لا يستقيم مديح السلطانة إلَّا بقصيدة عمودية: الصَّدْرُ للصدريَّة. والعَجُزُ للعَجِيزة!

ورثاء السلطان مديحٌ تأخَّر لأسباب بروتوكولية: لم يأذن الحاجب للشاعر بدخول القصر وتأدية الواجب. لكن أَذِنَ له بزيارة القبر.

لا أكره شاعراً يكرهني. لكني أعتذر عما سبَّبْتُ له من ألم!

في الخطابة والخطيب

أَلخطابة، في معظمها الآن، هي فَنُّ ابتذال المهارة. طبلٌ يناجي طبلاً في ساحة كلما اتسعتْ، وجد الصوتُ متسعاً لامتلاء الصدى بضجيج الفراغ. يتلقَّفه الخطيب ليحشوه بمزيد من هباء المعنى. الصوت، لا الكلام، هو السيِّد مرفوعاً على صدى تحميه الأكفُّ من خطر السقوط على الحقيقة. الخطابة ليست ما يريد الخطيبُ ـ المهرِّجُ قوله، فالصوت يسبق القول الغائب، والخطبة هي الغاية ... هي ما ترتجاله الغريزة

من حماسة الفتك بالخصم، وما يُعْجِبُ مشاهدي مصارعة الثيران الساديين من نصال فارس بلا فروسية. الخطابة هي إعدام المعنى في ساحة عامة. المبتدأ يبدأ بعد استراحة الصوت القصيرة لارتشاف جرعة ماء. أما الخبر المتأخّر فهو متروك للارتجال المتبختر الذي تسنده آيةٌ قرآنية أُخرجت من سياقها، أو بيت شعر قاله شاعر في مدح أمير أمويّ ظنَّه الخطيب عباسياً، فأثار التصفيق. التصفيق هو المبتغى والقصد، يستعيد خلاله الخطيب اللاأفكار القادمة عليه من المشهد، فيبتسم كمن يكافىء جمهوره على حسن ظنهم بذكائهم المكتسب من فائض ذكائه، ويمنحهم نكتة تنوس بين الفكاهة والتفاهة، فيضحكون ويضحك. الخطابة هي تأليب الضجر على الضجر ببلاغة الشكوى مما لحق بالأمة من خطر الضجر. يخلع الخطيب معطفه ليدل الجمهور على موضع ضميره الحيّ. يضع يده في جيب بنطاله بحثاً عن فكرة،

ويتحرك يميناً ويساراً لأنه حائر في تمايز القوم. فإن كانوا يمينيين صدقوه، وإن كانوا يساريين صدقوه. ثم يعود إلى منزلة بين المنزلتين. ولا يكفّ عن ترديد كلمة: صَدِّقوني! الخطابة هي الكفاءة العالية في رفع الكذب إلى مرتبة الطرب. وفي الخطابة يكون «الصدق زلة لسان»!

مناصفة

تحيا مناصفةً،
لا أنتَ أَنتَ، ولا
سواكَ
أَين «أنا» في عتمة الشَبَـهِ؟

كأنني شَبَـحٌ
يمشي إلى شَبَـحٍ
فلا أكون سوى شخص مررتُ بِهِ

خَرَجْتُ من صورتي الأولى

لأدركه

فصاح حين اختفى:

يا ذاتِيَ انتبهي!

أَظن

أَظنُّ،
ولا إثْمَ في مثل ظني
ولا وَهْمَ،
أني
بخيط حريرٍ أَقُصُّ الحديد
وأَني
بخيط من الصوف
أَبني خيام البعيد
وأَهرب منها
ومني
لأني ... كأنِّي!

السطر الثاني

أَلسطرُ الأوَّلُ هِبَةُ الغيب للموهبة. أَما السطر الثاني فقد يكون شعراً أو خيبة أَمل [فروست]. السطر الثاني هو صراع المجهول مع المعلوم. خلاء الطرق من الإشارات، وامتلاء الممكن بالأضداد، فكُلُّ ممكن ممكن، وهو حيرة تقليد المخلوق الخالقَ. هل الكلمة تقود قائلها أم قائلها يقودها؟ السطر الثاني لا يوهب، بل يُصنع بكفاءة ترويض اللامرئيّ. فأنت ترى ولا ترى من شدّة التباس الضوء مع العتمة. وأنت... أنت

الذي مَنَحَكَ الإلهامُ إشارة البدء. وتخلَّى عنك لتمضي وحدك في مغامرة بلا بوصلة. أنت كمن يخرج إلى غابة دون أن تعرف ما ينتظرك: قُطّاع طرق، أم طلقة، أم صاعقة، أم امرأة تسألك: ما الزمن؟ فتقول لها: «توقّف الزمن فمرِّي» [بيسّوا]. الممكن غابة. فعلى جذع أية شجرة تسند خيالك، ومن أيّ وحش تنجو؟. إذا اهتديت إلى السطر الثاني في متاهة الممكن، عرفت الطريق المعبَّد إلى موعد مع المستحيل!

أَعلى وأَبعد

رَطْبٌ هواءُ البحر |
عَذْبٌ شَدْوُ عصفورٍ على الشُبَّاك |

هذا ما تبقى من كلام الحلم ...
حين صَحَوْتُ، عند الفجر، قُلْتُ:
لعلَّ لاوعيي البريءَ يفضِّلُ الإيقاعَ
حين يقول لي:
«رَطْبٌ هواءُ البحر
عَذْبٌ شَدْوُ عصفور على الشُبَّاك»

لكن، كان وعيي يرشد المعنى إلى الإيقاع

[أو بالعكس]
حين يقول لي:
صَعْبٌ صعود التلّ ... فاصعَدْ
أَعلى وأَبعدْ!

الكناري

قرب ما سيكون
استمعنا إلى ما يقولُ الكناريُّ
لي ولَك:
ألشَّدْوُ في قَفَصٍ ممكنٌ
والسعادةُ ممكنةٌ ...

والكناريُّ حين يُغَنِّي
يقرِّب ما سيكون
غداً تنظرين إلى اليوم ــ أمسِ
تقولين: كان جميلاً

وكان قليلاً
ولا تفرحين ولا تحزنين

غداً، نتذكَّر أنَّا تركنا الكناريَّ
في قفص، وحده
لا يغنِّي لنا
بل يغنِّي لقنَّاصةٍ عابرين...

في مركب على النيل

مركبٌ على النيل. يوم الثلاثاء. قهوةٌ وشايٌ ودخانُ سجائر. وكلام عن الدنيا التي لا نعرف غيرها. أمَّا ما يتخيَّلُهُ كل واحد من المتحلقين حول نجيب محفوظ عما وراء الدنيا، فيتقاسمه سراً مع طيور تحلِّق فوق نهر الأبدية. وهو، هو المستمع بأذن انتقائية، تأخذ الكلمات وقتَها في الوصول إليه، لا يريد للمريدين أن يفسروا كلامه المتقشف بأكثر مما فيه. يعرف من المدائح ما يكفي ليجعل العبث

زُهْداً. ولا يريد لأحد أن يحدِّق إلى صنم أو منحوتة. لكننا نحجُّ إليه، لا لنعرفه ... فقد امتلأنا برواياته وتقمَّصْنا شخوصها، بل لنحيّيه على ما كتب، ولنحيِّي أنفسنا جالسين بحضرة أسطورة حية خرجت من مخطوطة فرعونية. رأيت نساءً قادماتٍ من أقاصي حرف الضاد يُقَبِّلْنَ يده، فيخجل ولا يعرف السبب، كأنه هو ولا هو في آن واحد. ثم يضحك ضحكة عالية، ويطلب سيجارة حان وقتها ليبدِّد بسحابة دخانها قداسةً لا يصدقها ماكرٌ مثله، وللناس التأويل. عاش ليكتب. ومنذ طعنه خنجر في الرقبة تخلَّى عن سرد التفاصيل بدأب النملة، واختار تقطير النحلة. من يومها، ونحن نجيء إليه مُوَدِّعين، فالحياة انتبهت إلى نقصانها وسئم الموتُ التأجيل ... دون أن نشي بذلك، ونحن من حوله في مركب على النيل، يوم الثلاثاء! لكن يوم الثلاثاء لم يعد موعدنا!

إدمانُ الوحيد

أَسْتَمِعُ إلى أم كلثوم كل ليلة، منذ كان الخميس جوهرتها النادرة، وسائر الأيام كالعقد الفريد. هي إدمانُ الوحيد. وإيقاظُ البعيد على صهيل فَرَسٍ لا تُرَوَّض بسرج ولجام. نسمعها معاً فنطرب واقفين، وعلى حدة فنظلُ واقفين ... إلى أَن تومىء لنا الملكة بالجلوس فنجلس على متر من ريح. تُقَطِّعنا مقطعاً مقطعاً بوَتَرٍ سحريّ لا يحتاج إلى عود وكمان... ففي حنجرتها جوقة إنشاد وأوركسترا كاملة، وسرّ

من أسرار الله. هي سماء تزورنا في غير أوقات الصلاة، فنصلِّي على طريقتها الخاصة في التجلّي. وهي أرض خفيفة كفراشة لا نعرف إن كانت تحضر أم تغيب في قطرة ضوء أَو في تلويحة يد الحبيب. لآهتها المتلألئة كماسةٍ مكسورةٍ أن تقود جيشاً إلى معركة... ولصرختها أن تعيدنا من التهلكة سالمين. ولهمستها أَن تُمْهِلَ الليل فلا يتعجّل قبل أن تفتح هي أولاً باب الفجر. لذلك لا تغمض عينيها حين تُغَنِّي لئلا ينعس الليل. هي الخمرة التي تسكرنا ولا تنفد. الوحيدةُ الوحيدةُ سعيدةٌ في مملكتها الليلية ... تُجنِّبُنا الشقاء بالغناء، وتحبِّبُنا إلى إحدى حفيدات فرعون، وتُقرِّبنا من أبدية اللحظة التي تحفرها على جدار معبد ينصاع فيه الهباء إلى شيء ملموس. هي في ليلنا مشاع اللا أحد. منديلها، ضابط إيقاعها، بيرقٌ لفيلقٍ من عُشّاقٍ

يـتنافـسـون عـلـى حُـبّ مَـنْ لا يـعـرفـون.
أمـا قـلـبـهـا، فـلا شـأن لـنـا بـه ... مـن
فـرط مـا هـو قـاس ومـغـلـق كـحـبـة جَـوْزٍ
يابسة!

في الرباط

في مدينة الرباط، المرفوعةِ على أمواجِ الأطلسي العالية، يمشي الشاعرُ على الشارع بحثاً عن مُصَادَفَة المعنى وعن معنى المصادفة. يعرف النخيل جيّداً، ويسأل المارة عن أسماء الأشجار الأخرى، حاملةِ الجَمْر، دون أن يحصل على جواب واحد، كما لو أَن الشجر وجهةُ نظر أو استعارة. لكن المارة يسألونه عن وجهة الاستعارة في قصيدةٍ ما نسي أنه كاتبها، فلا يقدّم جواباً واحداً، كما لو أن الاستعارة شجرةٌ مجهولة الاسم.

من تحية إلى تحية، يمشي الشاعر على الشارع كأنه يمشي في قصيدة غير مرئية، يفتتحها شيخ مغربي ينحني على كسرة خبز ... ينفض عنها التراب، ويقبِّلها ويَدَّخرها رزقاً للطيور في ثغرة جدار. ولي ... في مدينة الرباط مكان شخصي هو مسرح محمد الخامس. هناك تمتلىء نفسي بما ينقصها من ضفاف. ما أَعرفه عن نفسي ــ وهو قليلٌ ــ يكفي لأن أتوحَّد مع هذا المعبد المفتوح لمفاجآت الإلهام. كأني هناك لا أَقرأ ولا أُنشد، بل أَرتجل ما يملي عليَّ الصمتُ والضوء الخافت والعيونُ التي ترسل الإشارات، فأصوغها في عبارات وأعيدها إلى أَيدٍ تمسك بها كما لو كانت مادة شفَّافة، مصنوعةً من هواء. كأني أقرأ شعر غيري، فأطرب لأنه شعر غيري. وأنا لا أنا إلّا بقدر ما يكون الشعر هو الشاعر. لكني أسترق النظر إلى فتاة تضحك وتبكي في ركن القصيدة القصيّ، فأبكي وأَضحك لها

متواطئاً معها على فتح أبواب المسرح للتأويل. وللمغاربة أن يقولوا: نحن مَنْ أوحى إليه!

وصف

مَرَّتْ كحادثةٍ،

على الكتفين صَقْرانِ استراحا في العُلُوِّ ...

وصدرها يعلو ويهبط مثل فِعْلِ الحُبِّ،

يحمل توأمين تغامزا وتقافزا فوق الرخام...

وركبتاها ترسلان البرق للأَعمى ...

وساقاها عمودا هيكلٍ من مَرْمَرٍ

يتبادلان الريحَ والإعجازَ ...

والقدمان عصفوران شرّيران جوِّيان ـــ برّيانِ

والشَعْرُ المبعثر في مهبّ الريح

بيرقُ عسكريٍّ يفتح الصحراء ...

والعينان لا تتطلّعان إلى ضحاياها
فلا أَحدٌ رأى العينين كي يروي
بأيِّ بَنَفْسَجٍ صَرَعَتْهُ
تلك المرأة ــ الجنيَّةُ ــ القَدَرُ
التي مَرَّتْ كحادثة ...
ولكني نجوتُ، ولم يُصِبْني أَيُّ سوء
غير ضعف الوصف في هذي القصيدة!

في سكوغوس

سكوغوس، من ضواحي ستوكهولم. غابةٌ من أشجار البتولا والصنوبر والحور والكرز والسرو. وسليم بركات في عزلته المنتقاة بمهارة المصادفة التي تهبُّ بها الريح على المصائر. لا يخرج منها منذ صار جزءاً من المشهد، محاطاً بطيور الشمال: العقعق والغراب وكسَّار الجوز ونقَّار الخشب والزرياب والقُرْقُفُ والشحرور الأسود والسمَّان والذيل الحرير. صادقها ريشاً ومنقاراً وذيلاً وهجرة، ومنحها صفاتٍ

كُرديَّةً من مشتقات القلق، لا ليكسر العُزلة، بل ليؤثِّث شروط الإقامة في البعيد ... بعيداً عما يفعل الكُتَّاب بالكتاب إذا غاروا من بلاغة المنفيّ ... وقريباً من أُلْفَةِ السناجب، والأرانب والغزلان والثعالب التي تلقي عليه التحية عبر النافذة، وتهرب وتلعب خلف تمارينه اللغوية. يستيقظ على تحرُّشات الطير بزجاج البيت المبنيّ بالطوب والخشب. يجرُّ عربته الصغيرة إلى سوق اللحم: نداءِ الحسيّ للحسيّ. يختار منه الصريح المتعطِّش إلى تدريب المتوحِّش على آداب الطهو. ويختار، لتأجيج الرغبة بين الآكل والمأكول، توابلها الحارقة الحاذقة... الفُطْر المخصَّص لمذاق التورية، ونبيذاً شيرازيّ النَّسَبِ يُوقِظُ في الشاعر نزعته إلى الطرب في خريف المنفى. يجرُّ عربته الصغيرة وسط الغابة برفقة طيور الشمال التي تعرفه من فانيلّته المبلَّلة بالمطر والعرق.

فلا أَحد سوى كرديّ مثله يتجاسر على مناخ البلطيق. وهو إذ يهجس الآن فلا يهجس إلَّا بالطهو: قصيدةِ نهاره المرئية. الطهو موهبة اليد المدرَّبةِ على وضع الملائم في الملائم، وعلى إدراك المتخيّل الشعوري بالرائحة والطعم، وعلى إبداع المعنى الحسي مما كان بدائي الشكل. الطّهْوُ شِعْرُ الحواس إذا اجتمعت في يد ... قصيدةٌ تؤكل ولا تتحمَّل خللاً في التوازن بين العناصر. وسليم بركات لا يتحمَّل الثناء، منذ صار سريع البكاء!

جهة المنفيّ

يَتَلَفَّتُ المنفيُّ نحو جهاتِهِ
وتفرُّ منه المفرداتُ ـ الذكرياتُ
ليس الأمام أَمامَهُ
ليس الوراء وراءَهُ
وعلى اليمين إشارةٌ ضوئيةٌ
وعلى اليسار إشارةٌ أُخرى
فيسأل نفسه:
من أَين تبتدىء الحياةُ؟
ـ لا بُدَّ لي من نرجسٍ
لأكون صاحب صورتي!

ويقول: إنَّ الحُرَّ مَنْ يختار منفاهُ
لأَمرٍ ما ...
أَنا حُرٌّ إذن
أَمشي ... فَتَتَّضِحُ الجهاتُ

بوليفار سان ـ جيرمان

يقول لي جورج شتاينر: على الشاعر أن يكون ضيفاً ...
أقول: ومضيفاً!

□

الأوراقُ الذابلةُ، النازلةُ من شجرٍ يَتَعرَّى، كلمات تبحث عن شاعر ماهر يُعيدها إلى الأغصان!

□

كلما تخفَّى الإيقاعُ في الصورة صار موسيقى

مصاحبة للفكرة!

□

جالساً مع پيتر بروك، تحلّق فوقنا طيور أرسطوفان وفريد الدين العطار في رحلة مشتركة إلى تُخوم المعنى.

□

منفى؟ يحنُّ إليه الزائر، لأنه نزهة الطائر في رحلة لا يسأله فيها أحد: ما اسمك؟ وماذا تريد؟

□

في الحافلة، أَتطلّع إلى الرصيف، فأراني جالساً على مقعد المحطة في انتظار حافلة!

□

أَلتَظَاهُرُ بالحياد الصعب، في القصيدة والرواية، هو الجريمة الأخلاقية الوحيدة التي تُغْتَفَر!

□

كَسْرُ الإيقاع، بين حين وآخر، هو ضرورة إيقاعية.

□

أَتْرُكُ الجانب الآخر من حياتي، حيث يريدُ الإقامة. وأَتبع ما تبقَّى من حياتي بحثاً عن الجانب الآخر منها.

□

إحساسي يقفز مني، يحمل مظلَّةً ويسير تحت المطر. إحساسي فِعْلٌ خارجيٌّ كالمطر.

□

رياح الخريف تكنس الشارع، وتعلِّمني مهارة الحذف. الحذف كتابة.

يكون الأَمر مختلفاً

لا. لن يكون الأمرُ مختلفاً كما
كنا نظنُّ ... لو انتظرنا ساعةً أخرى ـــ
يقول لها ... ويذهَبُ |

ـــ رُبَّما، لو حطَّ عصفورٌ على كتفي
لكان الأمر مختلفاً ـــ
تقول له ... وتذهَبُ |

يذهبان معاً. وينفصلان عند محطة المترو
كنصْفَيْ خَوْخَةٍ، ويودّعان الصيف ...

يعبر عازفُ الجيتار بينهما، ويضحك
عندما يبكي. ويبكي حين يضحك قائلاً:
لا. قد يكون الأمر مختلفاً لو استمعا
إلى الجيتار في الوقت المناسب.
قلتُ: كلا! قد يكون الأمرُ
مختلفاً لو التفتا إلى ظلّيهما يتعانقان
ويعرقان ويسقطان على الرصيف
كمثل أوراق الخريف!

حياة مبتدئة

في حانوت خبز، على ناصية شارع باريسي ضيِّق ... أَحتسي قهوتي الأولى. صباحاً تختلط رائحة الخبز برائحة القهوة، وتوقظان فيَّ شهية على حياة طازجة .. حياة مبتدئة، وعلى سلام طوعي مع الأشياء الصغيرة، ومع حمامات تُؤْثِرُ المشي بين المارة والسيارات على الطيران. لا أَجد غيري يجلس وحيداً إلَّا من دفتر يوميات. لكني أحس بأني أشارك السيدات المتقدمات في العمر حماستهنّ تجاه تفاصيل يروينها عن

حياةِ غيرهنّ. وأُشارك بائعات الخبز والنادلات الجميلات حيادهنَّ اللبق تجاه مغازلات الزبائن المتقدمين، أكثر مني، في السن. أَتباطأ في احتساء قهوتي لأحافظ على صحبة مفترضة مع ما حولي، فليس للغريب إلَّا اختراع أُلفة ما مع مكان ما. وأَنا اخترت هذا الركن من حانوت الخبز لتأليف عادة يومية، كأني على موعد مع ذكريات مجتهدة تعتمد على نفسها في النمو. وأَسترسل في التفكير بتاريخ الخبز: كيف اكتُشِفَتْ حَبَّةُ القمح الأولى في سنبلةٍ خضراء مجدولةٍ كضفيرة. وكيف راقبها شخص ما إلى أن نضجت واصفَرَّتْ؟ وكيف خطر على باله أن يطحنها ويعجنها ويخبزها حتى وصل إلى هذه المعجزة؟ أَرى حقولاً بعيدة في زمن بعيد، وأتساءل: كم استغرق هذا الإبداع من الوقت؟ تعلو رائحة الخبز الطازج، وأنظر في ساعتي ... ثم أَعود من آلاف السنين إلى حياة مبتدئة!

يد التمثال

يَـدُ الـتـمـثـال، تمـثـالِ الجنـرال أو الـفـنـان،
ممـدودةٌ ... لا لـتـحـيَّـة الـشـمـس والمطـر،
أو الجنـود الـقـدامـى والمعـجـبـين الجدد.
يَـدُ الـتـمـثـال ممـدودةٌ كـيـد مـتـسـوِّل نـبـيـل
يـطـلـب تـبـرعـاتٍ مـن الـعـابـريـن، لا لمسـاعـدتـه
عـلـى المشـي .. بـل لـدفـع نـفـقـات الخلـود.
فـلا تحـظـى يَـدُ الـغـرانـيـت المـمـدودةُ،
لا تحـظـى في أحـسـن الأحـوال، إلّا
بـبـاقـة وردٍ حـمـلـهـا رجـلٌ إلـى امـرأة...
تـرَكَتْهُ وحيداً قرب التمثال!

في بيروت

بيروتُ: شمسٌ ومطر. بحر أَزرق / أَخضر وما بين اللونين من قُرْبَى ومصاهرة. لكن بيروت لا تشبه نفسها هذه المرة. تنظر إلى صورتها في المرآة، وتسأل: لماذا تريدين أن تشبهي غيرك يا جميلة؟ تضع جمالها على موجة قلقة، وتخفي أدواتِ الزينة في الأدراج. تُسَرِّحُ شعرها بيدين نزقتين وتنتظر، دون أن تعرف ما تنتظر كوردة على قارعة الطريق العام. لكن المناخ مكتظ بأسرار

الغيوم القادمة من جهتين: من الصحراء ومن البحر ... ولا سيطرة للخيال على فوضى المفاجآت. تضع خيالها جانباً، وتُسْلِمُ نفسها لأغنية تمدح اللامعنى دون أن ترقى إلى شرف العبث. بيروت محرومة من نسيان جرحها، ومحرومة من تَذَكُّر غدها المتروك لرمية نرد في لعبة بلا قواعد، كتجريبيّة شعر ما بعد الحداثة في مقاهيها الخالية من الرُوَّاد. لا أَحد يربح، والكل خاسر، حتى لو قال صديقي أنسي الحاج «والرابح يخسر والخاسر يربح». بيروت الحزينة تُخَدِّر حزنها بأغنية سابقة عن زمن سابق: عن ريفٍ وأَرْزٍ وبراءة ومُبَارَزَةٍ بين عاشقين على عروس. فينام الحزن لساعات، لكن الخوف لا ينام. بيروت خائفة على نفسها ومن نفسها، ومما تعدُّ لها العاصفة من معلومٍ في صورة مجهول!

عودة حزيران

أَربعون حزيران: دَبَّابةٌ في الطريق إلى
البيت. بُرْجُ مُراقَبَـةٍ عسكريٌّ لرصد الطيور.
حمام يُحَلِّقُ في نصف دائرةٍ. نَخْلَةٌ عاقرٌ.
ضَجَرٌ فاجر يقتل الأخُ فيه أَخاه، ويهرب
من أُمِّه. وشعارٌ يضيء الشوارع: «نحن
نحبُّ الحياة ونكره أَعداءها». شارع ضيِّـق
لا تمرُّ به الفتيات. مظاهرة للتلاميذ
ضدَّ الخرائط. «لا ربَّ ينزل عن
عرشه» ـــ قال لي عابر ساخر: ليس
لي بَطَلٌ منذ جاء حزيران مسترسلاً.

أنا واللّٰهُ صرنا وحيدين! ما الزمن
الآن؟ ــ في ساعتي خَلَلٌ ــ قلتُ.
قال: وفي ساعتي خلل مزمنٌ. مَرّتِ
الشاحنات تُقِلُّ بضائعَ عبريّةَ التسميات:
صناديق ماء. فواكه. قمحاً وخمراً. فقال:
كأنَّا نسينا ينابيعنا والكروم وأَسماءنا،
وكأنَّ القناع هو اسم الهوية: أَنْ لا
نُرى واضحين نَرَى الغامضين هنا جيِّداً.
وهنا أَربعون حزيران. أَرض تَقَلُّ وسُكَّانُها
يكثرون ... يفيضون عن حاجة العشب للفقراء،
وعن حاجة الإشكناز إلى العَمَل العربيّ.
ولكنهم يصمدون، ولو مرغمين، ولا يرحلون
إلى كندا. هذه أَرضنا، والسماء حقيقيّةٌ
لا مجاز ... وعاليةٌ مثل آمالنا. قال لي:
هل حزيران ذكرى؟ فقلت: هي الجرحُ
ينزف حيّاً وحيّا، ولو قال صاحبه: قد
نسيتُ الألَم!

ليتنا نُحْسَد

تلك المرأةُ المهرولةُ، المُكَلَّلةُ ببطانيةِ صوفٍ وجرَّة ماء ... وتجرُّ بيدها اليمنى طفلاً، وبيدها اليسرى أُختَه. ومن ورائها قطيع ماعز خائف. تلك المرأة الهاربة من ساحة حرب ضيِّقة إلى ملجأ غير موجود ... أَعرفها منذ ستِّين عاماً. إنها أُمي التي نسيتني على مفترق طرق، مع سلّة خبز ناشف وشمعة وعلبة كبريت أَفسدها الندى.

وتلك المرأة التي أراها الآن في الصورة

ذاتها على شاشة تلفزيون مُلَوَّن ... أَعرفها جيداً منذ أربعين عاماً. هي أُختي التي تكمل خطى أُمِّها ـ أُمِّي في سيرة التيه: تهرب من ساحة حرب ضيِّقة إلى ملجأ غير موجود.

وتلك المرأة التي سأراها غداً في المشهد ذاته، أَعرفها هي أيضاً. إنها ابنتي التي تركتها على قارعة القصائد، كي تتعلَّم المشي فالطيرانَ إلى ما وراء المشهد. فلعلَّها تثير إعجابَ المشاهدين وخيبةَ القنَّاصة. إذ إنّ صديقاً ماكراً قال لي: آن لنا أَن ننتقل، إذا ما استطعنا، من موضوع يُشْفَق عليه ... إلى ذاتٍ تُحْسَد!

أنت، منذ الآن، غيرك

هل كان علينا أَن نسقط من عُلُوّ شاهق،
ونرى دمنا على أَيدينا .. لندرك أَننا لسنا
ملائكةً كما كنا نظن؟

□

وهل كان علينا أن نكشف عن عوراتنا
أمام الملأ، كي لا تبقى حقيقتنا عذراء؟

□

كما كذبنا حين قلنا: نحن استثناء!

□

أن تصدِّق نفسك أسوأ من أن تكذب على غيرك!

□

أن نكون ودودين مع من يكرهوننا، وقساةً مع من يحبوننا ـ تلك هي دونية المتعالي، وغطرسةُ الوضيع!

□

أَيها الماضي! لا تغيِّرنا كلما ابتعدنا عنك!

أيها المستقبل! لا تسألنا: مَنْ أَنتم؟ وماذا تريدون مني؟ فنحن أيضاً لا نعرف.

أَيها الحاضر! تحمَّلْنا قليلاً. فلسنا سوى عابري سبيل ثقلاء الظل!

□

أَلهوية هي ما نُورِثُ لا ما نرث. ما نخترع لا ما نتذكر. الهوية هي فساد المرآة

التي يجب أن نكسرها كلما أَعجبتنا الصورة!

□

تَقَنَّعَ وتشجَّعَ، وقتل أمّه ... لأنها هي ما تيسَّر له من الطرائد ... ولأن جنديَّةً أوقفته وكشفت له عن نهديها قائلة: هل لأمك يا ابن الزانية ... مثلهما؟

□

لولا أن محمداً هو خاتم الأنبياء، لصار لكل عصابة نبيّ، ولكل صحابي ميليشيا!

□

أَعجبنا حزيران في ذكراه الأربعين: إن لم نجدْ من يهزمنا ثانية هزمنا أَنفسنا بأيدينا ... لئلا ننسى!

□

مهما نظرتَ في عينيَّ، فلن تجد نظرتي هناك. خطفتها فضيحة!

□

قلبي ليس لي ... ولا لأحد. لقد استقلَّ عني دون أن يصبح حجراً.

□

هل يعرف مَنْ يهتف على جثة ضحيته ــ أخيه: «الله أكبر» أنه كافر إذ يرى الله على صورته هو: أَصغرَ من كائن بشريّ سويٍّ التكوين.

□

أَخفى السجينُ، الطامحُ إلى وراثة السجن، ابتسامة النصر عن الكاميرا. لكنه لم يفلح في كبح السعادة السائلة من عينيه. ربما لأنَّ النص المتعجِّل كان أقوى من المُمَثِّل.

□

ما حاجتنا للنرجس ... ما دمنا فلسطينيين؟

□

وما دمنا لا نعرف الفرق بين الجامع والجامعة، لأنهما من جذور لغوي واحد، فما حاجتنا

للدولة ... ما دامت هي والأيام إلى مصير واحد؟

□

لافتة كبيرة على باب نادٍ ليليّ: نرحِّب بالفلسطينيين العائدين من المعركة. الدخول مجاناً. وخمرتنا لا تُشكر!

□

لا أستطيع الدفاع عن حقي في العمل، ماسحَ أحذيةٍ على الأرصفة، لأنَّ من حقّ زبائني أن يعتبروني لصَّ أحذية ـ هكذا قال لي أستاذ جامعيّ!

□

«أنا والغريب على ابن عمِّي. وأنا وابنْ عمي على أخي. وأنا وشيخي عليَّ». هذا هو الدرس الأول في التربية الوطنية الجديدة، في أقبية الظلام.

□

مَـنْ يـدخُـلُ الجنـة أولاً؟ مَـنْ مـات بـرصـاص الـعـدو، أم مـن مـات بـرصـاص الأخ؟ بـعـض الـفـقـهـاء يـقـول: «رُبَّ عَـدُوّ لَـكَ ولـدتـه أمُّك»!

□

حـار الـفـقـهـاء أمـام الـنـائـمـين في قـبـور مـتـجـاورة: هـل هـم شـهـداء حـريـة؟ أم ضـحـايـا مـتـنـاحـرة في عـبـث المسـرحـيـة؟ حـار الـفـقـهـاء واتـفـقـوا عـلـى أمر واحد هو: أن الله أعلم.

□

القاتل قتيل أيضاً!

□

سـألـنـي: هـل يـدافـع حـارس جـائـع عـن دارِ سـافَـر صـاحـبـهـا، لـقـضـاء إجـازتـه الـصـيـفـيـة في الـريـفـيـيـرا الـفـرنـسـيـة أو الإيـطـالـيـة ... لا فـرق. قلت: لا يدافع!

□

وسألني: هل أنا + أنا = اثنين
قلت: أنت وأنت أَقلُّ من واحد.

□

لا أَخجل من هويتي، فهي ما زالت قيد التأليف، لكني أخجل من بعض ما ورد في مقدمة ابن خلدون!

□

أنت، منذ الآن، غيرك!

أَنت، منذ الآن، أَنت

الكرملُ في مكانه السيِّد ... ينظر من علٍ إلى البحر. والبحر يتنهَّد، موجةً موجةً، كامرأةٍ عاشقةٍ تغسل قَدَمَيْ حبيبها المتكبِّر!

□

كأني لم أَذهب بعيداً. كأني عُدْتُ من زيارة قصيرة لوداع صديقٍ مسافر، لأجد نفسي جالسة في انتظاري على مقعد حجري تحت شجرة تُفَّاح.

□

كـل مـا كـان مـنـفـى يـعـتـذر، نـيـابـةً عـنـي،
لكُلّ ما لم يكن منفى!

□

ألآن، الآن ... وراء كــوالــيــس المســرح،
يــأتــي المخــاض إلــى عــذراء في الــثــلاثــين،
وتـلـدني عـلـى مـرأى مـن مـهـنـدسـي الـديـكـور،
والمصوِّرين!

□

جـرت مـيـاه كـثـيـرة في الـوديـان والأنـهـار.
ونـبـتـت أعـشـاب كـثـيـرة عـلـى الجدران. أَمَّـا
الـنـسـيـان فـقـد هـاجـر مـع الـطـيـور المهـاجـرة ...
شمالاً شمالاً.

□

ألـزمـن والـتـاريـخ يـتـحـالـفـان حـيـناً، ويـتـخـاصـمـان
حـيناً عـلـى الحدود بـيـنـهـمـا. الـصـفـصـافـةُ الـعـالـيـةُ
لا تـأبـه ولا تـكـتـرث. فـهـي واقـفـة عـلـى
قارعة الطريق.

□

أَمشي خفيفاً لئلَّا أكسر هشاشتي. وأَمشي ثقيلاً لئلَّا أَطير. وفي الحالين تحميني الأرض من التلاشي في ما ليس من صفاتها!

□

في أَعماقي موسيقى خفيَّة، أَخشى عليها من العزف المنفرد.

□

ارتكبتُ من الأخطاء ما يدفعني، لإصلاحها، إلى العمل الإضافيّ في مُسَوَّدة الإيمان بالمستقبل. من لم يخطىء في الماضي لا يحتاج إلى هذا الإيمان.

□

جبل وبحر وفضاء. أطير وأسبح، كأني طائرٌ جوّ ـ مائي. كأني شاعر!

□

كُلُّ نثر هنا شعر أوليّ محروم من صَنْعَة الماهر. وكُلُّ شعر، هنا، نثر في متناول المارة.

□

بكُلِّ ما أُوتيتُ من فرح، أُخفي دمعتي عن أوتار العود المتربِّص بحشرجتي، والمُتَلصِّص على شهوات الفتيات.

□

ألخاص عام. والعام خاص ... حتى إشعار آخر، بعيد عن الحاضر وعن قصد القصيدة!

□

حيفا! يحقّ للغرباء أن يحبُّوكِ، وأن ينافسوني على ما فيك، وأن ينسوا بلادهم في نواحيك، من فرط ما أنت حمامة تبني عُشَّها على أنف غزال!

□

أنا هنا. وما عدا ذلك شائعة ونميمة!

□

يا للزمن! طبيب العاطفيين .. كيف يُحوِّل الجرح ندبة، ويحوِّل الندبة حَبَّة سمسم. أنظر إلى الوراء، فأراني أركض تحت المطر. هنا،

وهنا، وهنا. هل كنتُ سعيداً دون أن أدري؟

□

هي المسافة: تمرين البصر على أعمال البصيرة، وصقلُ الحديد بناءٍ بعيد.

□

جمال الطبيعة يهذِّب الطبائع، ما عدا طبائع مَنْ لم يكن جزءاً منها. الكرمل سلام. والبندقية نشاز.

□

على غير هُدىً أمشي. لا أبحث عن شيء. لا أبحث حتى عن نفسي في كل هذا الضوء.

□

حيفا في الليل ... انصراف الحواس إلى أشغالها السرية، بمنأى عن أصحابها الساهرين على الشرفات.

□

يا للبداهة! قاهرة المعدن والبرهان!

□

أُداري نُقَّادي، وأُداوي جراح حُسَّادي على

حبِّ بلادي ... بزِحافٍ خفيف، وباستعارة حمَّالةِ أَوجُه!

□

لم أَرَ جنرالاً لأسأله: في أيّ عامٍ قَتَلْتَني؟ لكني رأيتُ جنوداً يكرعون البيرة على الأرصفة. وينتظرون انتهاء الحرب القادمة، ليذهبوا إلى الجامعة لدراسة الشعر العربي الذي كتبه موتى لم يموتوا. وأَنا واحد منهم!

□

خُيِّل لي أن خُطَايَ السابقة على الكرمل هي التي تقودني إلى «حديقة الأم»، وأَن التكرار رجع الصدى في أُغنية عاطفية لم تكتمل، من فرط ما هي عطشى إلى نقصان متجدِّد!

□

لا ضباب. صنوبرة على الكرمل تناجي أَرزة على جبل لبنان: مساء الخير يا أُختي!

□

في قلبي منطقةٌ ما، غيرُ مأهولة، تُرَحِّبُ

بالصغار الباحثين عن حيِّز غير محتل، لنصب مُخَيَّم صيفيّ!

□

أَعْبُرُ من شارع واسع إلى جدار سجني القديم، وأقول: سلاماً يا مُعَلِّمي الأول في فقه الحرية. كُنْتَ على حق: فلم يكن الشعر بريئاً!

□

هل قال أحدهم: إن سيد الكلمات هو سيّد المكان؟ ليس هذا زهواً ولا لهواً. إنه أُسلوب الشاعر في الدفاع عن جدوى الكلمات، وعن ثبات المكان في لغة متحركة!

□

لرائحة الشجر الصيفية نكهة إيروسية. هنا تداخلتُ في العشب والزَّغَب والنَّمَش وسواه، تحت ضوء القمر!

□

حيفا تقول لي: أنت، منذ الآن، أنت!

صدر للشاعر

- أوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أُحبك، أو لا أُحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق
- أعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أُغنية، هي أغنية
- ورد أَقل
- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أرى ما أريد

- أحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش (جزآن)

وعن
«رياض الريّس للكتب والنشر»

لماذا تركت الحصان وحيداً

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

سرير الغريبة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

جدارية

الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

حالة حصار

الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢

الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢

لا تعتذر عما فعلت

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

الأعمال الجديدة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤

كزهر اللوز أو أبعد

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥

الطبعة الثانية: تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

الديوان: الأعمال الأولى (٣ أجزاء)

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

في حضرة الغياب (نص)

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦

ذاكرة للنسيان

الطبعة الثامنة: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

يوميات الحزن العادي

الطبعة الرابعة: حزيران/يونيو ٢٠٠٧

حيرة العائد

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٧



الأعمال الجديدة الكاملة

محمود درويش



RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 9953-21-158-2
9 789953 211589



الأعمال الجديدة الكاملة

محمود درويش

٣

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

طبعة جديدة

الأعمال الجديدة

محمود درويش

الأعمال الجديدة

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

THE NEW COMPLETE WORKS
(3)

By Mahmoud Darwich

First Published in January 2009

BEIRUT- LEBANON
info@elrayyesbooks.com . www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953-21-396-8

تصميم الغلاف: محمد حمادة
الطبعة الأولى: كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٩

المحتويات

ذاكرة للنسيان

من المنام يخرج منامٌ آخر: هل أنتَ في خير، أعني هل أنتَ حيّ؟

ـ كيف عرفتِ أنني كنتُ أضع الآن رأسي على ركبتيك وأنام؟

ـ لأنكَ أيقظْتني حين تحرّكْتَ في بطني. أدركتُ أني تابوتك. هل أنتَ حيّ؟ هل تسمعني جيداً؟

ـ هل يحدث ذلك كثيراً: أن يوقظني من المنام منام آخر هو تفسيرُ المنام؟

ـ ها هو يحدث لي ولك.. هل أنت حيّ؟

ـ تقريباً.

ـ وهل أصابتك الشياطين بسوء؟

ـ لا أعرف، ولكنّ في الوقت متسعاً للموت.

ـ لا تَمُتْ تماماً.

ـــ سأحاول.

ـــ لا تمت أبداً.

ـــ سأحاول.

ـــ قل لي: متى حدث ذلك؟ أعني متى التقينا، متى افترقنا؟

ـــ منذ ثلاثة عشر عاماً.

ـــ هل التقينا كثيراً؟

ـــ مرتين: مرةً تحت المطر، ومرةً تحت المطر، وفي المرة الثالثة لم نلتقِ. سافرتُ. ونسيتُكِ. وقبل قليل تذكرت. تذكرتُ أني نسيتُكِ. كنتُ أحلم.

ـــ وهذا ما يحدث لي .. كنتُ أحلم. ولقد حصلتُ على رقم هاتفك من صديقة سويدية قابلتك في بيروت. أتمنى لك ليلة سعيدة. لا تنس أن لا تموت. ما زلتُ أريدك. وعندما تحيا، ثانية، أريدك أن تكلمني. يا للزمن.. ثلاثة عشر عاماً. لا. لقد حدث ذلك الليلة. أتمنى لك ليلة سعيدة...

الساعة الثالثة. فجرٌ محمولٌ على النار. كابوس يأتي من البحر. دُيُوكٌ معدنية. دخان. حديد يُعدُّ وليمة الحديد السيّد. وفجر يندلع في الحواس كُلّها قبل أن يظهر. وهدير يطردني من السرير ويرميني في هذا الممر الضيّق. ولا أريد شيئاً، لا أتمنى شيئاً. ولا أقدر على إدارة أعضائي في هذا الاضطراب الشامل. لا وقت للحيطة، ولا وقت للوقت. لو أعرف فقط، لو أعرف كيف أنظم

زحام هذا الموت المنصبّ، لو أعرف كيف أحرِّرُ الصراخ المحتقن في جَسَدٍ لم يعد جسدي من فرط ما حاول أن ينجو في تَتَبُّع فوضى القذائف. كفى.. كفى ــ همستُ لأعرف إن كان في وسعي أن أفعل شيئاً يدلني عليّ.. ويشير إلى مكان الهاوية المفتوحة من جهات ست. لا أستطيع أن أستسلم لهذا القدر ولا أستطيع أن أقاومه. حَديد يعوي فينبح له حديد آخر. حُمَّى المعادن هي نشيد هذا الفجر..

لو استراح هذا الجحيم خمس دقائق. وليكن من بعد ما هو بعد. خمس دقائق. أكاد أقول: خمس دقائق فقط أعدّ خلالها عُدّتي الوحيدة ثم أتدبر موتي أو حياتي. خمس دقائق هل تكفي؟ نعم.. تكفي لأتسرّب من هذا الممر الضيّق المفتوح على غرفة النوم، المفتوح على غرفة المكتبة، والمفتوح على حمام لا ماء فيه، والمفتوح على المطبخ الذي أتحفز لدخوله منذ ساعة ولا أستطيع.. لا أستطيع أبداً.

نمتُ قبل ساعتين. وضعتُ قِطْعَتَيْ قُطْنٍ في أُذْنيّ، ونمتُ بعدما استمعتُ إلى نشرة الأَخبار الأخيرة. لم تقل إني ميت. معنى ذلك أنني حيّ. تفقدْتُ أعضاء جسمي فوجدتها كاملة: عشر أصابع تحت. عشر أصابع فوق. عينان. أذنان. أنف طويل. إصبع في الوسط. وأما القلب فإنه لا يُرى. ولا أجد ما يشير إليه سوى قدرتي الخارقة على إحصاء أعضائي، ومسدس ملقى على أحد رفوف المكتبة.. مُسدس أنيق، نظيف، لامع، وصغير الحجم بلا رصاص. أهدوني مع المسدس علبة رصاص لا أعرف أين خبأتها

منذ عامين خوفاً من حماقة، خوفاً من فورة غضب طائشة، خوفاً من رصاصة طائشة. إذن، أنا حيّ، وبتعبير أدقّ: أنا موجود.

لا أحد يستمع إلى الرجاء المرفوع على الدخان: أريد خمس دقائق، لأتمكن من وضع هذا الفجر، أو حصتي منه، على قدميه، ومن التأهب للدخول في هذا اليوم المولود من عويل. هل نحن في آب؟ نعم، نحن في آب. وتحولت الحرب إلى حصار. أبحث في الراديو، المتحول إلى يد ثالثة، عما يحدث الساعة فلا أجد شاهداً ولا خبراً، فالراديو نائم.

لم أعد أتساءل متى يتوقف عواء البحر الفولاذي. أسكن على الطابق الثامن في بناية تغري أي صيّاد بالإصابة، فما بالك بأسطول حربي يحوّل البحر إلى أحد مصادر جهنم؟ واجهة البناية الشمالية كانت تُمتِّع سكانها بمشهدٍ ما لسقف البحر المتجعِّد، لأَنها واجهة من زجاج، والآن انقلبت إلى عراء المصرع. لماذا سكنتُ هنا؟ ما هذا السؤال الأَحمق! فمنذ عشر سنين وأنا أسكن هنا، ولا أشكو من فضيحة الزجاج.

ولكن، كيف أَصلُ إلى المطبخ؟

أريد رائحة القهوة. لا أريد غير رائحة القهوة. ولا أريد من الأَيام كلها غير رائحة القهوة. رائحة القهوة لأتماسك، لأقف على قدميّ، لأتحول من زاحف إلى كائن، لأوقف حصتي من هذا الفجر على قدميه. لنمضي معاً، أنا وهذا النهار، إلى الشارع بحثاً عن مكان آخر.

كيف أذيع رائحة القهوة في خلاياي، وقذائفُ البحر تنقضُّ على واجهة المطبخ المطل على البحر لتنشر رائحة البارود ومذاق العدم؟ صرت أقيس المسافة الزمنية بين قذيفتين. ثانية واحدة.. ثانية واحدة أقصر من المسافة بين الزفير والشهيق، أقصر من المسافة بين دقّتيْ قلب.. ثانية واحدة لا تكفي لأن أقف أمام البوتاغاز الملاصق لواجهة الزجاج المطلة على البحر. ثانية واحدة لا تكفي لأن أفتح زجاجة الماء، ثانية واحدة لا تكفي لأن أصبّ الماء في الغلاية. ثانية واحدة لا تكفي لإشعال عود الثقاب. ولكن ثانية واحدة تكفي لأن أحترق...

أقفلت مفتاح الراديو. لم أتساءل إن كان جدار الممر الضّيّق يقيني فعلاً مطر الصواريخ. ما يعنيني هو أن ثمة جداراً يحجب الهواء المنصهر إلى معدن يُصيب اللحم البشري، بشكل مباشر، أو يتشظّى، أو يخنق. وفي وسع ستارة داكنة ــ في مثل هذه الحالات ــ أن توفِّر غطاء الأمان الوهميّ. فالموت هو أن ترى الموت.

أريد رائحة القهوة. أريد خمس دقائق.. أريد هدنة لمدة خمس دقائق من أجل القهوة. لم يعد لي من مطلب شخصي غير إعداد فنجان القهوة. بهذا الهوس حدّدت مهمتي وهدفي. توثبت حواسي كلُّها في نداء واحد واشرأبّت عطشى نحو غاية واحدة: القهوة...

والقهوة، لمن أدمنها مثلي هي مفتاحُ النهار.

والقهوة، لمن يعرفها مثلي، هي أن تصنعها بيديك، لا أن تأتيك

على طبق، لأَن حامل الطبق هو حامل الكلام، والقهوة الأولى يفسدها الكلام الأول لأنها عذراء الصباح الصامت. الفجرُ، أعني فجري، نقيضُ الكلام. ورائحة القهوة تتشرّب الأصوات، ولو كانت تحيةً مثل «صباح الخير»، وتفسد...

لذا، فإن القهوة هي هذا الصمتُ الصباحي، الباكر، المتأني، والوحيد الذي تقف فيه، وحدك، مع ماء تختاره بكسل وعزلة في سلام مبتكر مع النفس والأَشياء، وتسكبه على مهل وعلى مهل في إناء نحاسيّ صغير داكن وسريّ اللمعان، أصفر مائل إلى البنّي، ثم تضعه على نار خفيفة.. آه لو كانت نار الحطب...

ابتعدْ قليلاً عن النار الخفيفة، لتطلّ على شارع ينهض للبحث عن خبزه، منذ تورط القردُ بالنزول عن الشجرة وبالسير على قدمين، شارع محمول على عربات الخضار والفواكه وأصوات الباعة المتميزة بركاكة المدائح وتحويل السلعة إلى نعت للسعر، واستنشق هواء قادماً من برودة الليل، ثم عُدْ إلى النار الخفيفة ــ آه لو كانت نار الحطب ــ وراقب بمودة وتؤدة علاقة العنصرين: النار التي تتلوّن بالأخضر والأزرق، والماء الذي يتجعّد ويتنفّسُ حبيبات صغيرة بيضاء تتحوّل إلى جلد ناعم، ثم تكبر.. تكبر على مهل لتنتفخ فقاعاتٍ تتسع وتتسع بوتيرة أسرع وتنكسر، تنتفخ وتنكسر عطشى لالتهام ملعقتين من السُكّر الخشن الذي ما إن يداخلها حتى تهدأ بعد فحيح شحيح، لتعود بعد هنيهة إلى صراخ الدوائر المشرئبة إلى مادة أخرى، هي البُنّ الصارخ، ديكاً من الرائحة والذكورة الشرقية...

أبعد الإناء عن النار الخفيفة لتجري حوار اليد الطاهرة من رائحة

التبغ والحبر مع أولى إبداعاتها، مع إبداع أول سيحدِّد لك، منذ هذه الهنيهة، مذاق نهارك وقوس حظّك. سيحدّد لك إن كان عليك أن تعمل أم تتجنب العلاقة مع أحد طيلة هذا اليوم. فإن ما سينتج من هذه الحركة الأولى ومن إيقاعها ومما يحركها من عالم النوم الناهض من اليوم السابق، ومما يكشف من غموض نفسك، سيكون هوية يومك الجديد.

لأن القهوة، فنجان القهوة الأول، هي مرآة اليد. واليدُ التي تصنع القهوة تُشيع نوعية النفس التي تحركها. وهكذا، فالقهوة هي القراءةُ العلنية لكتاب النفس المفتوح.. والساحرة الكاشفة لما يحمله النهار من أسرار.

ما زال الفجر الرصاصيّ يتقدم من جهة البحر على أصوات لم أعرفها من قبل. ألبحرُ برمته محْشُوٌّ في قذائف طائشة. ألبحرُ يبدل طبيعته البحرية ويتمعدن. أَلِلْمَوتِ كُلُّ هذه الأَسماء؟ قلنا: سنخرج. فلماذا ينصب هذا المطر الأَحمر ــ الأسود ــ الرمادي على من سيخرج وعلى من سيبقى من بشر وشجر وحجر؟ قلنا: سنخرج. قالوا: من البحر. قلنا: من البحر. فلماذا يسلحون الموج والزبد بهذه المدافع؟ ألكي نعجِّل الخطى نحو البحر؟ عليهم أن يفكوا الحصار عن البحر أولاً.. عليهم أن يخلوا الطريق الأخير لخيط دمنا الأخير. وما دام الأمر كذلك، وهو كذلك... فلن نخرج، إذن، سأعدُّ القهوة...

صحت عصافيرُ الجيران في السادسة صباحاً. تابعت تقاليد الغناء المحايد منذ وجدت نفسها، وحيدة، مع بدايات الضوء. لمن تغني

في زحام هذه الصواريخ؟ تغنّي لتشفي طبيعتها من ليل سابق، تُغَنِّي لها لا لنا. هل كنا نعرف ذلك فيما مضى؟ لقد شقّت الطيور فضاءها الخاص في دخان المدينة المحترقة. كانت سهام الصوت المتعرجة تلتفّ على القنابل وتشير إلى أرض سالمة في الفضاء. للقاتل أن يقتل. للمقاتل أن يقاتل. وللعصفور أن يُغنِّي. ولكنني أكفّ عن طلب الكناية، أكفُّ تماماً عن التأويل، لأن من طبيعة الحروب أن تُحقِّر الرموز، وتعود بعلاقات البشر والمكان والعناصر والوقت إلى خاماتها الأولى، لنفرح بماء يتدفق من ماسورة مكسورة على طريق، لأن الماء هنا يتقدم منّا معجزة.

من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ للماء لون يتفتّح في انفتاح العطش. للماء لون أصوات العصافير، الدوري بخاصة، العصافير التي لا تكترث بهذه الحرب القادمة من البحر ما دام فضاؤها سالماً. وللماء طعم الماء، ورائحةٌ هي رائحةُ الهواء القادم، بعد الظهيرة، من حقل يتموج بسنابل القمح الممتلئة، في امتدادِ متقطِّع الضوء كبُقع الضوء المخطوفة التي يتركها وراءه توتُّر جناح الدوري الصغير وهو يطير طيراناً واطئاً على حقل. وليس كل ما يطير طائرة. ولعلّ أسوأ الكلمات العربية هي أن الطائرة تأنيث «الطائر». الطيور تواصل غناءها وتثبِّتُ أصواتها وسط هدير المدافع البحرية. ومن قال إن الماء لا طعم له ولا لون ولا رائحة. ومن قال إن هذه الطائرة هي تأنيث هذا الطائر؟

ولكن العصافير تصمت فجأة. تكفُّ عن الكلام وعن التحليق الروتيني في هواء الفجر منذ هَبَّت عاصفةُ الحديد الطائر. أَمِنْ

هديرها الفولاذي سكتت، أم من تشابُهٍ غير متعادل في الشكل والاسم: جناحان من حديد وفضّة في مقابل جناحين من ريش. حيزوم من حديد وكهرباء في مقابل منقار من نشيد. حمولة من صواريخ في مقابل حبة قمح وقشة. توقفت العصافير عن الغناء، واكترثت بالحرب، لأَن أرض سمائها لم تعد سالمة...

ألسّماء تنخفض، كأنها سقف إسمنتي يقع. ألبحر يتحوّلُ إلى يابسة ويقترب. السماء والبحر من مادة واحدة. البحر والسماء يضيقان عليَّ الخناق. أدرتُ مفتاح الراديو لأعرف أخبار السماء. لم أسمع شيئاً. تجمد الوقت. جلس عليَّ ليخنقني. مرّت الطائرات من بين أصابعي. اخترقت رئتي. كيف أصل إلى رائحة القهوة. كيف أموت يابساً بلا رائحة القهوة. لا أريد.. لا أريد.. فأين إرادتي؟

وَقَفَتْ هناك، على الطرف الثاني من الشارع، يوم أطلقنا النداء المضاد لزحف الخرافة علينا من الجنوب. يوم كوّر اللحم البشري عضلة الروح وصاح: لن يمروا.. ولن نخرج. اشتبك اللحم مع الحديد وتغلّب على علم الحساب العسير، فتوقّف الغزاة على السور. هنالك وقت لدفن الموتى، وهنالك وقت للسلاح، وهناك وقت ليمرّ الوقت على هوانا.. لتطول البطولة، فنحن، نحنُ أصحابُ الوقت...

كان الخبز يصعد من التراب. وكان الماء ينبجس من الصخر. كانت صواريخهم تحفر لنا آبار الماء، وكانت لغة قتلهم تغرينا بالنشيد: لن نخرج، وكنا نرى وجوهنا على شاشة الآخرين تغلي

بالوعد العظيم وتخترق الحصار بشارات نصر لا تنكسر. لن نفقد شيئاً منذ الآن، ما دامت بيروت هنا، وما دمنا هنا في بيروت ـــ وسط هذا البحر، على بوابة هذه الصحراء أسماءً لوطن مختلف، وعودةَ المعاني إلى مفرداتها، هنا خيمة للتائهة من المعاني، والضالّة من الألفاظ، ولشتات الضوء اليتيم المطرود من السوط...

فهل عرف هؤلاء الفتية المدججون بجهلٍ خلاّق لموازين القوى، وبمطالع أغنيات سابقة، وبقذائف يدوية، وزجاجات جعَةٍ ساخنة، وبشهوات فتيات في ملجأ، وبقصاصات هوية ممزقة، وبرغبات واضحة في الانتقام من آباء حكماء، وبجنون الخلاص من شيخوخة الفكرة، وبما لا يدرون من رياضة الموت النشيط... هل، هل عرفوا أنهم يصححون، بجراحهم وطيشهم المبدع، حبرَ اللغة التي ساست شرق المتوسط كُلّه في اتجاه غرب لا يطلب من العبودية غير تحسين شروط التحاقها، منذ حصار عكّا في العصور الوسطى حتى حصار بيروت المُكَلف بالانتقام من كل التاريخ في العصور الوسطى؟

وهل عرفوا حين انصرفوا إلى محاصرة الحصار، أنهم ينوبون عن الأُسطورة في انتشال الواقع من الخارق إلى البسيط، ليرشدوا قارىء الرمل المضلّل إلى أسرار البطولة المكوّنة من البسيط إلى البسيط؟ كأن يُمْتَحَن رجل برجولته، وتمتحن أنثى بأنوثتها، وكأن يكون للكرامة قوة الاختيار بين الدفاع عنها أو الانتحار، وكأن لا يرضى الفارس باشتراط فروسيته الذاتية، الأخلاقية والجسدية، بعودة عصر الفروسية الرسمية.. وأن يشق بنفسه، وحيداً، هذا

الفضاء المتطاول فيصوِّب مساراً لما فيه من غموض الحافز. وكأن تشقّ حفنة من البشر عصا الطاعة على المألوف كي لا يتساوى هذا الشعب، هذا الشعب المخلوق من مزاج النار العنيدة، مع قطعان الغنم التي يريد أن يسوسها راعي القمع وراعي الخرافة، معاً، عبر سياج التواطؤ.

لن يمروا على حياتنا. فليمروا، إن استطاعوا أن يمروا، على ما تلفظه الروحُ من جثث،

فأين إرادتي؟

وقفتُ هناك، على الرصيف الثاني من الصوت الجماعي. أما الآن، فلا أريد أكثر من رائحة القهوة. خجلتُ. خجلتُ من خوفي وممن يدافعون عن رائحة البلاد البعيدة، الرائحة التي لم يشموها لأنهم لم يولدوا فيها. وُلدوا منها بعيداً عنها. وتعلموها بلا انقطاع وبلا كلل أو ملل. تعلموها من ذاكرة مسلطة ومن مطاردة ملحة:

لستم من هنا ـــ قيل لهم هناك.

ولستم من هنا ـــ قيل لهم هنا.

وبين «هنا» و«هناك» شدّوا أجسادهم قوساً تتوتَّر، حتى اتخذ الموت فيهم هذه الصيغة الاحتفالية. لقد أخرج آباؤهم من هناك ليحلوا ضيوفاً على هنا، ضيوفاً مؤقتين، من أجل إخلاء ساحات الوطن من المدنيين، ليتسنى للجيوش النظامية تطهير أرض العرب وشرفهم من العار والدنس: «أخي جاوز الظالمون المدى، فحقّ

الجهاد وحقّ الفدا.. طلعنا عليهم طِلوع المنون، فكانوا هباء وكانوا سدى». وبقدر ما كانت تلك الأَغاني تطارد فلول الغزاة وتحرِّر الأرض سطراً سطراً، كان هؤلاء، هنا، يولدون بلا مهد، وكيفما اتفق، على حصير أو في سلّة من قصب، أو على أوراق الموز، يولدون كيفما اتفق بلا شهادة ميلاد وبلا سجل أسماء، بلا فرح وبلا ميلاد، كانوا أعباء على أهلهم وعلى جيران الخيمة، وباختصار: كانوا ولادة زائدة، كانوا بلا هوية.

وانتهى الأمر إلى ما انتهى إليه. عادت الجيوش النظامية. وبقي هؤلاء يولدون بلا سبب، ويكبرون بلا سبب، ويتذكرون بلا سبب، ويحاصرون بلا سبب. جميعهم يعرف القصة، شديدة الشبه بحادثة سير كونية وبواقعة طبيعية. ولكنهم قرأوا كثيراً في كتاب أجسادهم وأكواخهم، قرأوا تمييزهم وقرأوا الخطاب القومي، وقرأوا صادرات وكالة الغوث، وقرأوا سياط الشرطة. وظلّوا يكبرون ويزيدون عن حزام المخيم وعن مراكز الاعتقال. وقرأوا تاريخ الحصون والقلاع التي وقّعها الغزاة لتخليد أسمائهم على أرض ليست لهم، ولتزوير هوية الحجارة والبرتقال على سبيل المثال. أليس التاريخ قابلاً للرشوة؟ وإلّا، فلماذا يحمل المكان، البحيرات والجبال والمدن، أسماءَ قادةٍ عسكريين لا لشيء إلّا لأَن أولئك القادة قد تنفسوا انطباعاً أولياً لدى المشاهدة، فتحولت كلمات الانطباع إلى أسماء نتناقلها حتى الآن؟ أو.. هريد ــ ما أجملها ــ هكذا قال قائد روماني حين رأى البحيرة في مقدونيا، فصار هذا الدهش هو اسمها. وقس على ذلك مئات الأَسماء

التي نشير بها إلى أمكنة أشار إليها قبلنا عسكري منتصر، وصار من الصعب فكُّ الهوية عن هزيمتها. قلوع وحصون هي محاولات لحماية اسم لا يثق بخلوده من النسيان. حجارة مضادة للنسيان، حروب عكس النسيان. لا أحد يريد أن يَنْسى. وبشكل أدق: لا أحد يريد أن يُنْسى. وبشكل سلمي: ينجبون الأطفال ليحملوا أسماءهم، ليحملوا عنهم عبء الاسم أو مجده. إنه تاريخ طويل من عملية البحث عن توقيع على زمان أو مكان، ومن حلٍّ عقدة الاسم في مواجهة قوافل النسيان الطويلة...

فلماذا يطالب هؤلاء الذين ألقت بهم أمواج النسيان على ساحل بيروت أن يشذوا عن قاعدة الطبيعة البشرية؟ لم يطالبون بهذا القدر من النسيان؟ ومن هو القادر على تركيب ذاكرة جديدة لهم لا محتوى لها غير ظل مكسور لحياة بعيدة في وعاء من صفيح صارخ؟

أهناك ما يكفي من النسيان كي ينسوا؟

ومن سيساعدهم على النسيان في هذا القهر الذي لا يتوقف عن تذكيرهم باغترابهم عن المكان والمجتمع؟ من يرضى بهم مواطنين؟ من يحميهم من سياط الملاحقة والتمييز: لستم من هنا!

يستعرضون الهوية المرفوعة للتدليل على خطر الدخول وخطر الخروج، لمحاصرة الأوبئة، ويراقبون براعة استخدامها رافعةً قومية، هؤلاء المنسيون، المطرودون من النسيج الاجتماعي الداخلي، المنبوذون، المحرومون من حق العمل والمساواة، مطالبون في الوقت

ذاته بأن يصفقوا لقمعهم لأنه يُوفّر لهم نعمة الذاكرة. وهكذا يُدْفَعُ المطالب بالنسيان أنه إنسان إلى قبول استثنائه من الحقوق ليتدرب على التحرّر من داء نسيان الوطن. عليه أن يُصاب بالسلّ كيلا ينسى أن له رئة، وعليه أن ينام في العراء كي لا ينسى أن له سماء أخرى. وعليه أن يعمل خادماً كيلا ينسى أن له مهمة وطنية. ويمنع من التوطين كيلا ينسى فلسطين. وباختصار، عليه أن يكون «آخر» أخيه العربي لأنه منذور للتحرير..

حسناً.. حسناً. لقد عرف واجبه: هويتي ــ بندقيتي، فلماذا يكيلون عليه تهماً لا تُحصى: إثارة الشغب، الإخلال بأصول الضيافة، التوريط، نشر عدوى السلاح؟ حين استكان أخرجوا روحه للكلاب الضالة، وحين تحرّك في اتجاه الوطن أخرجوا جسده للكلاب الضالّة. ولكن المثقفين القادرين على ارتداء أحدث الأزياء النظرية، أقنعوه بأنه بديل السائد، وحين انقضّ عليه السائد، طالبوه بالنقد الذاتي لأنه أفرط في الوطنية، أفرط إلى درجة الخروج عن حظيرة السائد! الظروف ليست ناضجة. الظروف ليست ناضجة. وكان عليه أن ينتظر. ما العمل.. ما العمل؟ الثرثرة في مقاهي بيروت. لقد ثرثر حتى قيل له إن بيروت قد أفسدته. وامتشقت سيدات المجتمع البنادق الرشاشة، المحاطة بوسوسة المجوهرات، ليخطبن في حفلات الدفاع عن وطنية «المجدرة». وحين خجل وقال ما يعني أن الوطن ليس هذا الطعام، وتناول السلاح ليستخدمه خارج الحفلة، على الحدود، قالوا له: هذا تجاوز. وحين استخدم السلاح في معارك الدفاع عن النفس،

في الداخل، ضد مندوبي الصهيونية المحليين قيل له: هذا تدخُّل في الشؤون الطائفية. ما العمل؟ إذن، ما العمل لينهي عملية النقد الذاتي سوى الاعتذار عن وجود لم يوجد بعد. لستَ إلى هناك. ولستَ من هنا. ومن بين هذين النفيين وُلد هذا الجيل المدافع عن وعاء جسدي للروح، علّق عليه رائحة البلاد التي لا يعرفها. لقد قرأ ما قرأ، ورأى ما رأى، ولم يصدق أن الهزيمة حتمية. وتبع تلك الرائحة...

منهم أخجل، دون أن أعرف أني أخجل منهم. الغامض يتراكم على الغامض ليحتك ويقدح الوضوح. وفي وسع الغزاة أن يفعلوا كُلّ شيء، في وسعهم أن يسلطوا البحر والجو والبرّ عليَّ، ولكنهم لا يستطيعون أن يقتلعوا مني رائحة القهوة. سأصنع قهوتي الآن. سأشرب القهوة الآن. سأمتلىء برائحة القهوة الآن، لأتميز عن خروف، على الأقل، لأعيش يوماً آخر، أو أموت محاطاً برائحة القهوة...

.. تُبعد الإناء عن النار الخفيفة لتجري اليدُ أولى إبداعاتها. ولا تكترث بالصواريخ والقذائف والطائرات. فتلك إرادتي: سأذيع رائحة القهوة لأمتلك فجري. لا تنظر إلى الجبل الذي يبصق كتله النارية في اتجاه يدك. ولكنك لا تستطيع أن تنسى أنهم يرقصون هناك، يرقصون من النشوة. كانت سيدات القرنفل، في صحف البارحة، يرتمين على دبابات الغزاة في الأشرفية. كان النصف الأعلى من نهودهن، والنصف السفلي من أفخاذهن عارياً من الصيف ومن المتعة، ومعداً جيداً جيداً لاستقبال المخلّصين. قَبِّلني

يا شلومو، قبلني على فمي، ما اسمك يا حبيبي لأناديك باسمك يا حبيبي، شلومو كم انتظَرتُكَ شغافُ قلبي. ادخل، يا شلومو، ادخل رويداً رويداً أو دفعة واحدة إلى بيتي لأحسّ فيك القوة. كم أحبُّ القوة يا حبيبي. واقصفوهم يا حبيبي، واذبحوهم، واقتلوهم بكل ما فينا من انتظار. لتحمك سيدة لبنان يا سيد شلومو. اقصفوهم ريثما أُعدُّ لك كأس العرق والغذاء يا حبيبي. بعد كم ساعة تقضون عليهم، بعد كم ساعة. لقد طالت العملية، يا شلومو، طالت، فلماذا أنتم بطيئون يا حبيبي. شهران، ما بالكم لا تتقدمون؟ ولكن رائحتك كريهة، يا شلومو، لا بأس. هذا من الصيف والعرق. سأغسلك بماء الفل يا حبيبي. لماذا تبوِّل في الشارع؟ هل تتكلم الفرنسية؟ لا؟ أين وُلدت؟ في تعز؟ أين تعز هذه؟ في اليمن؟ لا بأس.. لا بأس. كنت أَظُنّكَ شيئاً آخر. ما عليك يا شلومو! اقصف من أجلي هناك.. هناك.

ملعقة واحدة من البُنّ المكهرب بالهال تُرْسَى، ببطء، على تجاعيد الماء الساخن، تحركها تحريكاً بطيئاً بالملعقة، بشكل دائري في البداية، ثم من فوق إلى تحت. تضيف إليها الملعقة الثانية، تحركها من فوق إلى تحت ثم تحركها تحريكاً دائرياً من الشمال إلى اليمين، ثم تسكب عليها الملعقة الثالثة. بين الملعقة والأخرى أبعد الإِناء عن النار ثم أعده إلى النار. بعد ذلك «لَقِّم» القهوة أي املأ الملعقة بالبن الذائب وارفعها إلى أعلى ثم أعدها عدة مرات إلى أسفل، إلى أن يعيد الماء غليانه وتبقى كتلة من البن ذي اللون الأَشقر على سطح الماء، تتموّج وتتأهب للغرق. لا تدعها تغرق.

أطفىء النار ولا تكترث بالصواريخ. خذ القهوة إلى الممرّ الضيّق. صُبّها بحنان وافتنان في فنجان أبيض، فالفناجين داكنة اللون تفسد حرية القهوة. راقب خطوط البخار وخيمة الرائحة المتصاعدة. أشعل سيجارتك الآن، السيجارة الأولى المصنوعة من أجل هذا الفنجان، السيجارة ذات المذاق الكوني التي لا يعادلها مذاق آخر غير مذاق السيجارة التي تتبع عملية الحب، بينما المرأة تدخّن آخر العرق وخفوت الصوت...

ها أنذا أولد. امتلأَت عروقي بمخدرها المنبّه، بعدما التقت بينبوع حياتها، الكافايين والنيكوتين وطقس لقائهما المخلوق من يدي. أتساءل: كيف تكتب يدٌ لا تبدع القهوة؟ كم قال لي أطباء القلب، وهم يدخنون: لا تدخّن ولا تشرب القهوة. وكم مازحتهم: الحمار لا يدخن ولا يشرب القهوة، ولا يكتب.

أعرف قهوتي، وقهوة أمي، وقهوة أصدقائي. أعرفها من بعيد وأعرف الفوارق بينها. لا قهوة تشبه قهوة أخرى. ودفاعي عن القهوة هو دفاع عن خصوصية الفارق. ليس هنالك مذاق اسمه مذاق القهوة، فالقهوة ليستْ مفهوماً وليست مادة واحدة، وليست مطلقاً. لكُلِّ شخص قهوته الخاصة، الخاصة إلى حدّ أقيس معه درجة ذوق الشخص وأناقته النفسية بمذاق قهوته. ثمة قهوة لها مذاق الكزبرة. ذلك يعني أن مطبخ السيدة ليس مُرَتّباً. وثمة قهوة لها مذاق عصير الخروب. ذلك يعني أن صاحب البيت بخيل. وثمة قهوة لها رائحةُ العطر. ذلك يعني أن السيدة شديدة الاهتمام بمظاهر الأشياء. وثمة قهوة لها ملمس الطحلب

في الفم. ذلك يعني أن صاحبها يساريّ طفولي. وثمة قهوة لها مذاق القِدم من فرط ما تألّب البن في الماء الساخن. ذلك يعني أن صاحبها يميني متطرف. وثمة قهوة لها مذاق الهال الطاغي. ذلك يعني أن السيدة محدثة النعمة...

لا قهوة تشبه قهوة أخرى. لكل بيت قهوته، ولكُلِّ يد قهوتها، لأنه لا نفس تشبه نفساً أخرى. وأنا أعرف القهوة من بعيد: تسير في خط مستقيم، في البداية، ثم تتعرج وتتلوى وتتأوّد وتتأوّه وتلتفّ على سفوح ومنحدرات، تتشبّث بسنديانة أو بلوطة، وتتفلّت لتهبط الوادي وتلتفت إلى وراء، وتتفتّت حنيناً إلى صعود الجبل وتصعد حين تتشتت في خيوط الناي الراحل إلى بيتها الأوّل..

رائحةُ القهوة عودة وإعادة إلى الشيء الأول، لأنها تنحدر من سلالة المكان الأول، هي رحلة بدأت من آلاف السنين وما زالت تعود. القهوة مكان. القهوةُ مسام تُسرِّب الداخل إلى الخارج، وانفصالٌ يُوَحِّد ما لا يتوحّدُ إلّا فيها هي رائحة القهوة. هي ضدُّ الفطام. ثدي يُرضع الرجال بعيداً. صياحٌ مولود من مذاق مُرّ، حليبُ الرجولة، والقهوة جغرافيا..

□ □ □

من هي تلك الناهضةُ من منامي؟

هل هي حقاً كانت تخاطبني قبل الفجر، أم كنتُ أهذي وأواصل المنام صاحياً؟

لم نلتق غير مرتين. في المرة الأولى حفظت اسمي، وفي المرة الثانية حفظت اسمها. وفي المرة الثالثة لم نلتقِ. فلماذا تناديني الآن من حلم كنتُ أنام فيه على ركبتها؟ لم أقل لها في المرة الأولى: أُحبك. ولم تقل لي في المرة الثانية: أحبك. ولم نشرب القهوة معاً...

□ □ □

واعتدتُ أن أحصي عدد السوس في صحن حساء العدس، الطبق اليومي في السجون.. واعتدت أن أتغلّب على الاشمئزاز، لأن الشهية تتكيّف، ولأَن الجوع أقوى من الشهية. ولكنني لم أتكيّف أبداً مع غياب القهوة الصباحية، ومع تناول غسيل الشاي. ألهذا لم أتعايش مع ظروف السجن. سألتني صديقة بعد خروجي من السجن الأول: هل استمتعت؟ قلت: لا، لأَنهم لا يقدمون القهوة. قالت: هذا شيء فظيع. وأضافت: ولكنني لا أشربُ القهوة. قلت: لا أعرف سيدات كثيرات مهووسات بصباح القهوة. الرجل هو الذي يفتتح نهاره بالقهوة، أما المرأة فإنها تُفضِّلُ المكياج!

ليس ذلك ما آلمني. لقد تمكن أحد زملائي السجناء من إحضار فنجان من القهوة لي، ذات صباح، تلقّفتُه بشبق ومنحتُ نفسي وقتاً للتأمّل، مما دفع زميلاً آخر إلى تصويب نظرة استعطاف نحو الفنجان، تجاهلتُها لأتوحّد مع ملكيتي، تجاهلتُها وتلذذت برشف القهوة بسادية أيقظتْ فيّ إحساساً بالإِثم فيما بعد. كان ذلك

قبل عشرين عاماً، وما زالت تلك النظرة المتوسلة تلاحقني إلى الآن داعية إيّاي إلى إعادة النظرِ المستمرة في نفسي وإلى تهذيب سلوكي، لأن العطاء وتقاسم الأشياء في السجن هو معيار صدق العطاء. لم أتخلّص من عقدة الذنب بما أغدقتُ عليه من أنصاف السجائر في محاول لرشوة توازني النفسي. ما أشدّ أنانيتي! لقد حرمت زميلاً في السجن من نصف فنجان من القهوة، مما دفع الأقدار إلى معاقبتي، بعد أسبوع، يوم جاءت أُمي لزيارتي ومعها إبريق من القهوة دلقه الحارسُ على العشب...

□ □ □

والقهوة لا تُشرب على عجل. القهوةُ أُختُ الوقت. تُحْتَسى على مهل.. على مهل. القهوةُ صوت المذاق، صوت الرائحة. القهوة تأمّل وتغلغل في النفس وفي الذكريات. والقهوة عادة تلازمها بعد السيجارة عادة أخرى هي.. الجريدة.

أين الجريدة؟ الساعة السادسة صباحاً. وأنا في عين الجحيم. ولكن الخبر هو ما يُقرأ لا ما يُسمع. والواقع، قبل تسجيل الواقع، ليس واقعاً تماماً. أعرف باحثاً في الشؤون الإسرائيلية لا يكفُّ عن تكذيب «الشائعات» القائلة أن بيروت محاصرة، لأنه لا يقرأ الحقيقة إلّا إذا كانت مكتوبة باللغة العبرية. وبما أن الصحف الإسرائيلية لم تصل إليه، فإنه لا يعترف بأنّ بيروت محاصرة! ليس هذا ما يُصيبني من حماقة، فالجريدة الصباحية إدمان. أين الجريدة؟

تصاعدت هستيريا الطائرات. لقد جُنَّت السماء. جُنّت تماماً. يُنذر هذا الفجر بأن هذا اليوم هو آخر أيام الخليقة. فأين يضربون؟ أين لا يضربون؟ وهل تتسع منطقة المطار لكُلّ هذه القذائف القادرة على قَتْل بحر؟ أفتح الراديو فأضطر للاستماع إلى الإِعلانات التجارية السعيدة: ساعة سيتزن لضبط الوقت. سجائر ميريت، نكهة أكثر ونيكوتين أقل. تعال إلى مارلبورو، تعال إلى حيث المتعة. ميّة الصحة.. صحة «صحة من جبل عالي». ولكن أين الماء؟ غنج متزايد من مذيعات مونت ـ كارلو الخارجات للتو من الحمام أو غرف النوم المثيرة. قصفٌ شديد على بيروت. قصفٌ شديد على بيروت؟ أهذا هو الخبر كأنه نبأ عن يوم عادي من أيام حرب عادية، عادية في نشرة الأخبار. أحوّل إبرة الراديو إلى إذاعة لندن، الفتور المميت ذاته في أصوات مذيعين يدخنون الغليون على مسمع من المستمعين، أصوات منقولة على موجة قصيرة مكبرة إلى موجة متوسطة تحوّلها إلى كاريكاتور صوتي خبيث: ويقول مراسلنا إنه يبدو للمراقبين الحذرين أن ما يبدو مما يتضح عندما يتمكن المتحدث لولا صعوبة الاتصال بالوقائع لعلّ في الأمر ما يدل على أن كلا المتحاربين يحاول عسى ولا سيما ناهيك عن غموض ما قد يسفر عن طائرات مجهولة أسماء الطيارين تُحلِّق إذا أردنا الدقة حيث قد يتأكد أن بعض الناس يظهر في زيّ حسن. لغة عربية سليمة المعلومات تنتهي بأغنية ذات لغة عربية سليمة العواطف لمحمد عبد الوهاب: يا تجيني يا تقوللي أروح لك يا تقوللي أروح منك فين.

أصوات متشابهةُ الرتابة، رمل يصف بحراً، أصوات فصيحة ونزيهة تصف الموت كما تصف الأحوال الجوية، وكما لا تصف سباق الخيل والدراجات. عمَّ أبحث؟ أفتح الباب عدة مرات ولا أعثر على الجريدة. لماذا أطلب الجريدة والبناياتُ تتساقط من الجهات كُلّها. ألا تكفيني هذه القراءة؟

ليس ذلك تماماً. فالباحث عن الجريدة وسط هذا الجحيم هاربٌ من الموت وحيداً إلى الموت الجماعي، باحث عن عينين إنسانيتين، عن صمت مشترك، وعن كلام متبادل، باحث عن مشاركة مّا في الموت، عن شاهد يشهد، عن شاهد على جثة، عن مُبلغ عن سقوط حصان، عن لغة للصمت وللكلام، عن انتظار أقلّ ضجراً لموت تأكد. فإن ما يقوله هذا الفولاذ، هذه الوحوش الفولاذية، هو أن أحداً لا يرى السكينة. ولن يحصي قتلانا..

كنت أكذب على نفسي، فليست فيّ حاجة إلى البحث عن وصف ما هو حولي وفي داخلي الدالف. حقيقةُ الأمر هي أنني كنتُ خائفاً من الوقوع بين الأنقاض، فريسةَ أنين لا يصل. كان ذلك مؤلماً، مؤلماً إلى حدّ التماهي مع الحادثة وقد حدثت. أنا الآن هناك بين الأنقاض. أحسُّ بوجع الحيوان المهروس فيّ. وأصرخ من وجعي ولا يسمعني أحد. كان ذلك «الألم ــ الشبح» القادم من اتجاه معاكس، مما قد يحدث. بعض الذين يصابون بساقهم يواصلون الإحساس بالوجع في الساق حتى بعد بترها بسنين. إنهم يمدون أيديهم لتحسس موضع الوجع في ساق لم يعد لها وجود.. وقد يلاحقهم هذا الوجع الوهمي، الوجع

الشبح إلى آخر العمر. أما أنا، فأشعر بوجع جرّاء إصابة لم تحدث.. لقد طُحِنَتْ ساقاي تحت الأَنقاض.

وهذه ظنوني: قد لا يقتلني الصاروخ بشكل خاطف دون أن أشعر. فقد ينهار عليَّ حائط على مهل على مهل في عذاب لا ينتهي واستغاثة لا تبلّغ مصيري إلى أحد. قد يطحن ساقي أو ذراعي أو جمجمتي، أو قد يربض على صدري، وأبقى حيّاً عدة أيام لا وقت فيها لأحد للبحث عن بقايا كائن. قد يختلط لحمي بالإسمنت والحديد والتراب فلا يَدُلُّ شيء عليَّ. وقد ينغرز زجاج نظارتي في عيني فأصاب بالعمى. وقد يتغلغل عمود من الحديد في خاصرتي. وقد أنسى في زحام اللحم البشري المعوس المفقود بين الأَنقاض. ولكن، لماذا أهتم بمصير جثتي وعنوانها إلى هذا الحد؟ لا أعرف. أريد جنازة حسنة التنظيم، يضعون فيها الجثمان السليم، لا المشوّه، في تابوت خشبي ملفوف بعَلَم واضح الأَلوان الأربعة، ولو كانت مقتبسة من بيت شعر لا تدلُّ ألفاظه على معانيه، محمول على أكتاف أصدقائي، وأصدقائي ــ الأَعداء.

وأريد أكاليل من الورد الأحمر والورد الأصفر. لا أريد اللون الورديّ الرخيص ولا أريد البنفسج لأنه يذيع رائحة الموت. وأريد مذيعاً قليل الثرثرة قليل البحة، قادراً على ادعاء حزن مقنع، يتناوب مع أشرطة تحمل صوتي بعض الكلام. أريد جنازة هادئة، واضحة، وكبيرة ليكون الوداع جميلاً وعكس اللقاء. فما أجمل حظ الموتى الجدد، في اليوم الأول من الوداع، حين يتبارى المودعون في مدائحهم. فرسان ليوم واحد، محبوبون ليوم واحد،

أبرياء ليوم واحد.. لا نميمة ولا شتيمة ولا حسد. حسناً، وأنا بلا زوجة وبلا ولد. فذلك يوفر على بعض الأصدقاء جهد التمثيل الطويل لدور حزين لا ينتهي إلّا بحنوِّ الأرملة على المعزِّي. وذلك يوفر على الولد مذلّة الوقوف على أبواب المؤسسات ذات البيروقراطية البدوية. حسنٌ أني وحيد.. وحيد.. لذلك ستكون جنازتي مجانية وبلا حساب مجاملة، ينصرف بعدها المشيّعون إلى شؤونهم اليومية. أريد جنازة وتابوتاً أنيق الصنع أطلُّ منه، كما يريد توفيق الحكيم أن يطلّ، على المشيّعين.. أسترقُ النظر إلى طريقتهم في الوقوف، وفي المشي، وفي التأفف، وفي تحويل اللعاب إلى دموع. وأستمع إلى التعليقات الساخرة: كان يحب النساء، وكان يبذخ في اختيار الثياب. وكان سُجّاد بيته يصل إلى الركبتين، وكان له قصر على الساحل الفرنسي اللازوردي، وفيلّلا في إسبانيا، وحساب سريّ في زيوريخ، وكانت له طائرة سرية خاصة، وخمس سيارات فخمة في مرأب بيته في بيروت. ولا نعرف إذا كان له يخت خاص في اليونان. ولكن في بيته من أصداف البحر ما يكفي لبناء مخيّم. كان يكذب على النساء. مات الشاعر ومات شعره معه. ماذا يبقى منه؟ لقد انتهت مرحلته وانتهينا من خرافته. أخذ شعره معه ورحل. كان طويل الأنف واللسان... وسأستمع إلى ما هو أقسى عندما تتحرر المخيلة من كُلِّ شيء. سأبتسم في التابوت، سأبذل جهداً لأَن أقول: كفى، سأحاول العودة فلا أستطيع.

□ □ □

أما أن أموت هنا، فلا. لا أريد الموت تحت الأَنقاض. سأدّعي لنفسي أنني ذاهب إلى الشارع للبحث عن الجريدة، فالخوف عار في حمّى البطولة المتفشّية في جميع الناس، من أولئك الذين لا نعرف أسماءهم على خطوط الاشتباك، ومن أولئك البسطاء الذين اختاروا أن يبقوا في بيروت، اختاروا أن يكرسوا أيامهم للبحث عن تنكة ماء وسط مطر القذائف، اختاروا أن يمدّدوا لحظة التحدي والصمود إلى تاريخ، اختاروا أن يدفعوا لحمهم في صراع مع الحديد المنفجر. البطولة هي هذا الجزء المشطور من بيروت في هذا الصيف الحارق. هي بيروت الغربية. ليس من يموت هو من يموت بالمصادفة. الحيُّ حيّ بالمصادفة، إذ لم يسلم شبر واحد من صاروخ، ولم يسلم موقع خطوة واحدة من انفجار. ولكنني لا أريد الموت تحت الأَنقاض. أريد الموت في الشارع.

انتشر أمامي، فجأة، الدود الموصوف في إحدى الروايات.. دود يرتب صفوفه وأنواعه وألوانه، بنظام صارم، لالتهام الجثة كأنه يسلخ اللحم كله عن العظام في دقائق. غارة واحدة.. غارتان ولا يبقى منّا غير الهيكل العظمي. دود يأتي من المجهول.. ومن التراب.. ومن الجثة ذاتها. الجثة تأكل نفسها بجيش حسن التنظيم يطلع منها في لحظات. إنها صورة تفرغ الإِنسان من بطولته ومن لحمه، وتدفع به في عراء المصير العبثي، في العبث المطلق، في العدم الكامل. صورة تجرّد الأَناشيد من مديح الموت ومن الفرار إلى الفرار. أَمِنْ أجل التغلّب على بشاعة هذه

الحقيقة، فَتَحَ الخيال البشريُّ ــ ساكنُ الجثة ــ فضاءً لخلاص الروح من هذا العدم؟ أهذا ما يقترحه الدين والشعر من حَلّ؟ ربما.. ربما..

□ □ □

.. ولأنني أعرف «سمير» منذ الطفولة، لم أذهب إلى غيبوبته في المستشفى. لقد بترت الطائرات ساقيه وذراعيه، بقرت بطنه وسملت عينيه، عندما كان يخلي المصابين في ميدان المدينة الرياضية. ماذا تبقّى منه؟ أعني ماذا تبقّى من وسامة كانت توقد الجمر تحت ثياب الفتيات؟ كنا معاً في المدرسة الثانوية في كفر ياسيف. لم يحضر الدروس كثيراً. كان ساهياً وغائباً، يُؤْثِرُ البحر واصطياد العصافير على الكتب، ولا يشارك في شغب التلاميذ. فيه حُسنُ يوسف وخَفَرٌ بلا تقوى. عينان زرقاوان صافيتان من بحر عكا وأُمّه الحسناء الطاغية. شعر كستنائي مُجعَّد، وجبين واسع يطل على ما فوقنا. كان بعيداً وقويّ البنية. ولم نعرف لماذا ابتعد عن المدرسة وعن العائلة وعن الوطن إلى أن أشعل حرب حزيران. هكذا قالت الصحف الإسرائيلية بعناوين عريضة: إلقاء القبض على فدائي تسلّل عبر الحدود لينسف حيفا. كان ذلك عشية حرب حزيران. وكان الإعلام الإسرائيلي منكباً على إعداد الذرائع لإعلان الحرب. لم نصدِّق أن «سمير» فدائي فلسطيني، إذ لم يسبق له أن انخرط معنا في نشاط عام، إلّا بعدما طالعتنا قامتُهُ المديدة في الصحف وهو يرسف في الأغلال. حدَّثني أبوه، وهو ابن عمي، كيف كانت الشرطة تُسْمِعُهُ ــ خلف جدران

الزنزانة ـــ أنين «سمير» تحت التعذيب المتواصل. قطيعٌ من الذئاب يستفرد بغزال أسير. لقد تحطم والده تماماً وهو يستمع إلى الموت البطيء المتصاعد من جسد «سمير»، المرفّه، المنعّم، المدلّل، الأنيق، الوسيم. ولكن أمّه ذات الجمال الجَهُوريّ حمت أعصابها، وتوازنها النفسي، بما أيقظ في أمومتها من حاسّة الزهو أمام تحوّل ابنها إلى رجل يتحدى دولة هزمت دولاً، فرفعت أحزانها إلى كبرياء. حكموا على «سمير» بالسجن المؤبّد. وفي السجن استطاع أن يُمَثِّل دور المتعاون مع إدارة السجن، متحملاً إهانات زملائه الفدائيين، لينفّذ خطته، ويعمل في مطبخ السجن، حيث حصل على ما يحتاج له من أدوات حادة، وعكف شهوراً على قطع قضبان الزنزانة، إلى أن حانت ساعة الصفر، وتمكن من تهريب بعض زملائه السجناء. أصرّ على أن يكون آخر الناجين، إلى أن انتبه الحراس إلى العملية وانتزعوه من قضبان النافذة ليحكموا عليه، مرة أخرى، بالسجن المؤبّد الثاني. بعد محاولة أخرى، حكم عليه بالسجن المؤبّد الثالث. وهكذا، كان على «سمير» أن يعيش ثلاثة أعمار أخرى ليتم إطلاق سراحه... وفي عملية تبادل أسرى خرج «سمير» إلى نور الوطن العربي الكبير، فلم يصدِّق الفارق بين الفكرة وصورة الفكرة، ولم يصدق التنافر بين الحلم وأداة الحلم، فلجأ إلى مفاضلة السجناء التقليدية بين الحرية الخارجية الشكلية وبين الحرية الداخلية المجازية المنبثقة من تماسك اليقين، وسلام النفس، والارتباط بالخارج برباط المثال. لقد ألفنا شكوى الخارجين من حريتهم الداخلية إلى حريتنا الـمُشَوّهة،

وألفنا خيبتهم من كُلِّ ما يخدش مخيلتهم عنا وتصوّرهُمْ عن الخارج. قال لي «سمير»، حين التقيته بعد عشرين عاماً في دمشق: أهذا هو الوضع؟ ليس من أجل هذا دخلت. وليس من أجل هذا خرجت. ولكن ما فيه من وفاء لارتباط الإطار بالفكرة حال دون ذهابه بالخيبة إلى منتهاها؛ إلى استبدال الإطار والأداة بما هو أكثر توازناً وانسجاماً. كان شديد الخيبة من المؤسسة وشديد الالتحام بها. وليس في وسع رجل مثلي ــ قال ــ أن يغيّر جلده، لا خوفاً من إرهاب المؤسسة، بل خوفاً من انهيار أحد عناصر التوازن. فلا أعتبر نفسي ــ سواء أكنت في هذا التنظيم أم في ذاك ــ خادماً لفكرة فلسطين وشعبها، دون أن أقبل الانسياق في صراع التنظيمات وفي خداع تبعية بعضها، وهي لا تشملني، إلى هذا النظام أو ذاك. كان يسيّج نفسه وتميُّزها بالجناح المطلق من الفكرة. كان يخشى أن يؤدي أيُّ تعديل في إطاره إلى الطعن في صدق تاريخه وفي حرارة تضحيته، لأن الاعتراض ــ في غياب الوطن والمجتمع وما يبلورانه من سُلّم قيم ــ قابلٌ للشك والتشكيك الشائعين في حروب كلام لا تضبطها ضوابط أخلاقية ووطنية. ولم يسفر مثل هذا النوع من «الحوار الوطني» إلّا عن اغتيال، ولم يبرأ من تراشق هذه التهم أحدٌ منا. ثم استقر «سمير» في بيروت، ليواصل أسئلته الجارحة عن الحرية في السجن، والسجن في حرية قابلة للفساد وإلغاء نظام العقوبات، حتى لو تمكن أحد الناطقين باسم هذه الحرية من تدمير بناية على ساكنيها لتصفية حساب مع عضو في التنظيم، دون أن يفقد عضويته في

القيادة، وحقّه في تمثيل نظام عربي تمثيلاً مُدَوّياً في القيادة! لعلّ المحاكمة التي تستحقها الثورة هي أنها كانت خالية، وما زالت خالية، من تقاليد محاكمة أعضاء القيادة على جرائمهم المدوية. واقتصرت المحاكمة على تتبُّع جنايات أخلاقية يرتكبها شهداء المستقبل خلال بحثهم عن متعة عابرة في سيجارة حشيش، أو امرأة تغوي، قبل أن يتحولوا إلى منصة للخطابة. كان يصعب على «سمير» وعلى أمثاله الخارجين من السجون الإسرائيلية، أن يدركوا كيف يقفز بعض ممثلي المخابرات على درجات سُلّم القيادة بذريعة المحافظة على «توازن» تعبّر عنه الثورة في علاقاتها بالدول. هل نحن جامعة الدول العربية؟ لم يتمكن من إدمان هذه التقاليد، الملتبسة، لأنه لم ينضج إلى درجة «الواقعية» التي يتطلب استيعابها الأشواط التي قطعها الخطاب السياسي الفلسطيني في علاقته المعقدة بالقاعدة العربية، والقمة العربية، وذهب كل واحد في اتجاه معاكس، فاستمدّت «الوحدة الوطنية» أحد مقوماتها من تضامن الحكومات في المنظمة لا مع المنظمة!.. ولكن «سمير» المضرج بالأسئلة عن الحرية في السجن وعن السجن في الحرية، انخرط في موجة تساهل عام جَرَفَتْنا جميعاً إلى شاطىء القدرية.

.. ولأنني أعرفه منذ الطفولة، لم أذهب إليه في المستشفى، مستشفى البربير. لن تعرفه ــ قالوا لي. وإذا كنت تحبه ــ قالوا لي ــ فصلِّ له أن يموت، لأن الموت راحتُهُ الوحيدة.. فقد دخل في «الكوما».. دخل في الموت حيّاً..

إذن، لم يُطلق سراحه. لقد لاحقوه حتى بيروت. استبدلوا أحكام

السجن المؤبّد بالإِعدام قصفاً بالطائرات. مات «سمير».. مات حَبَق العائلة.

.. لا أُريد أن أموت، مشوّهاً، بين الأنقاض، أتمنى أن أُقصف على حين غفلة.. في الشارع. أتمنى أن أحترق تماماً.. أن أتفحم، فلا يعثر دود الرواية إيّاه على وظيفته الخالدة فيّ، إذ ليس من عادة الدود أن يأكل الفحم..

وهكذا، سأقول لنفسي إنني أبحث عن جريدة.. لأبرر سيري في شارع لا قطّة فيه ولا كلب.

لم آبه بما يحدث خارج الزجاج. قذائف. صواريخ. بوارج. طائرات. مدفعية. تهبُّ عليَّ كما تهبّ الرياح. تنزل كما يهطل المطر. تتحرك كما يتحرك الزلزال. لا تستطيع الإرادة البشرية أن تفعل حيالها شيئاً كأنه قدر لا يُرد. كُلُّ ما تمخّض عنه الخيال البشري من إبداعات الشر الخارقة، وما بلغته التكنولوجيا من تقدم، يجري امتحان فاعليتها في أجسادنا اليوم. أيكون هذا اليوم أطول يوم في التاريخ؟ لا أحد يغسل الموتى، فليغسل الميت نفسه بنفسه، أعني بدم فاض عن الماء. أجمع ثروتي المائية، وأستخدم كل قطرة منها بحرص فائق. لكُلّ قطرة دور. أكاد أعُدُّ قطرات الماء. خمسمائة قطرة لغسل الشعر. ألفان للجسد. مائة للفم. مائة للحلاقة. عشرون لكُلِّ أُذن. خمسون لكُلِّ إبط.. و.. و.. لكُلِّ قطرة قطعة من الجسد.

ما الماء؟ من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ ما الماء؟

كيماوياً: H_2O. ياء. دال. اثنان. ألف. أهذا هو كل شيء؟ ولكن، ما هذه النشوة التي تفتح الجلد لتوصلنا إلى عيدٍ هناك.. في أرجاء الجسد وضواحيه فنقترب من طباع الفراش. الماء فرح الحواس وما يحيط بها من هواء. الماء هو الهواء المقطّر الملموس المحسوس المغموس بالضوء. ولهذا حثّ الأنبياء شعوبهم على حب الماء ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾. أتذكر رسالة ابن فضلان فأتقزز من ماء في وعاء كان يغسل جيشاً بأكمله. لقد قطع عنا ممثلو الصليبيين الماء، بينما كان صلاح الدين الأيوبي يرسل الثلج والفواكه إلى أعدائه «لعل قلوبهم ترقّ» كما كان يقول. وأضحك فجأة من أغنية تقول «الميّة تروي العطشان»، وأتساءل: كيف عرف المغنّي هذا الاكتشاف المبهر؟ وفي تل الزعتر كان القتلة يصطادون الفلسطينيات على نبع الماء، على ماسورة الماء المكسورة، كما يصطاد الصيادون الغزلان العطاش. الماء القاتل. الماء المخلوط بدم العطشى الذين غامروا بحياتهم من أجل كوب ماء. الماء الذي أشعل حروب البدو في الزمان القديم. الماء الصالح لتحسين شروط التفاوض لدى من لم يلمس الماء إنسانيتهم اليابسة. الماء الذي حَرَّك ملوك العرب وحمّلهم مشقة الاتصال الهاتفي بالرئيس الأميركي لإجراء مقايضة رابحة: خذ الدم، وهات الماء. خذ النفط وهات الماء. خذنا، وهات الماء!

وصوتُ الماء ضجيج عرس، أعلى أعلى من أصوات الطائرات.

صوت الماء مرايا لعروق الأرض الحيّة. صوت الماء هو الحرية. صوتُ الماء هو الإنسانية.

وما إن يعلن «البيت الأبيض» في واشنطن عودة الماء إلى بيروت الغربية حتى يهبّ المحاصرون إلى حنفياتهم إلّا نحن.. نحن سُكّان هذه البناية العالية، العالية إلى أعلى نداء العطش. فقد حاصرنا صاحبها قبل حصار بيروت بسنين، منذ انحلّت السلطة، فجُنّ هو بسلطته: السلطة على الماء. ما إن يتشاجر مع أحد المستأجرين، أو مع زوجته، أو مع حسابه في البنك، حتى يهبّ إلى قطع الماء عنا جميعاً. لذلك ربّى فينا، من زمان، هذا الصبر على الماء. ربّى فينا مدائح الماء. وعلّمنا أن نفرح بالماء، حين يتدفق ساعة، كما لم تفرح به قبائل داحس، وحوّلنا إلى حراس أنابيب، نتجسّس منذ الفجر على صوت الماء المرتقب. وحين نسمع غرغرة الماء نعلن العيد ونجمع ما تهبنا رحمته في الأواني والقناني والصحون والكؤوس وفي جيوب المعاطف الجلدية، فالماء في هذه البناية كنز نجلّله بالطقوس، ونتحدث عن سيرته في سهراتنا. لقد وحّدنا حديث الماء وحوّلنا إلى عائلة واحدة. ولكن صاحب البناية يغار من شارون، وينافسه في السادية. فحين تبتهج بيروت الغربية بالإفراج عن الماء، نكتفي نحن بدور التضامن، لأن هذه البهجة لا تشملنا ولأن الماء لا يصل إلينا. نحن آخر الأسرى يا أبا ربيع. اغفر لنا ذنوباً لم نرتكبها يا أبا ربيع. الدنيا حرب يا أبا ربيع. والعفو عند المقدرة يا أبا ربيع. وما من سميع وما من شفيع، إلى أن اضطررت إلى الاستعانة باللجان الشعبية المسلحة

التي أفرجت عن الماء بقوة، فنسينا الحرب ونسينا الحصار من فرط ما فرحنا بالماء..

لي .. ولمن اكتوى، مثلي، بجروح الماء، قدّم «ابن سيده» أسماء الماء ونعوته، هذا غيض من فيضها:

ماء. ماءة. مويه. أمواه. مياه. ماهة. بلال. رجع. أبيض. أسود. عتيق. عدّ. كَرَع. غَمْر. عُلْجوم. بَلاثِق. زَغْرُب. السعْبَر. الطيْس. الطيسل. الرَيْب. الجوار. الخِضْرَم. القَلَيْذَم. العُبام. الهُرْ. الهرهور. الهرهار. الهراهر. اليهمور. الزمزم. الزُمزوم. الزمزام. القاموس. الجُراجر. اليهيري. الضحضاح. الكوثر. الأهْيَغ. الجبجاب. الهُلاهل. الطرطبيس. البثق. الحائر. الحَفْل. الأزْيَب. الثَمَد. المشفوه. المضفوف. الرقراق. الرقّ. الفَراش. الطَسْل. الضَهْل. السَمَل. البرْضُ. النُطْفة. الرزَغ. الصُبّة. الشَوْل. الرَفَض. الخِبْط. الصُبابة. القصملة. الصلاصل. الضُلْضُل. الذُفاف. الذُفّ. الذُفف. القطرب. الزَرْجُون. المَزّة. المجّة. النُقْمة. النُغْبة. المُكْلَة. النُشْفة. الغُرْفة. القُرحة. الحُسْوة. المُزْعة. السؤر. الوَشَل. اللزب. الجحْقة. الهلال. الرشْفُ. الطمْلَة. الدغْث. الحَيْل. الطلح. النقَاخ. الزلال. الفُرات. الرُضاب. الفضيض. الشريب. الشروب. الهُجُهج. المُخْضم. الزُعاق. الذُعاق. النمير. المَسُوس. الباضع. الغريض. البُسر. الحنبريت. القراح.

وغيرها .. وغيرها.. وغيرها.

□□□

.. أهبط على الدرج الحجري الطويل وسط الزجاج المهشّم. لا أعرف إن كانت الطوابق السفلى قد أُصيبت. وأتساءل: ماذا أفعل لو انقضّت عليَّ جثة؟ كيف سأحملها ولمن أنقلها؟.. ماذا أفعل لو لم أجد أحداً أتحدث إليه، لمن أنقل كلامي ومن يشاطرني صمتي؟ سأُصفِّر لحناً.. مطلع أغاني بيروت المتفجرة من هذه الحرب. لم تكن بيروت للغناء، ولم يستخدم الشعر اللبناني اسم بيروت القابل للاستعمال في جميع بحور الشعر. اسم موسيقي ينساب بسلاسة في قصيدة النثر وفي القصيدة.. وماذا أفعل لو لم أجد قطة أُداعبها؟ ماذا سأفعل لو لم أجد ما أفعل؟

على الطابق الرابع باب مفتوح. صباح الخير يا أُستاذي. هكذا كنت أُخاطبه منذ عشر سنين. في الثمانين من العمر، وسيم، هادىء، كأنه قلب يمشي على قدمين. رحل عن منزله الكائن على خطوط التماس بعدما انهارت عليه جدرانه الثلاثة، وأقام في شقتي ستة شهور عندما كنت مختفياً في أوروبا، ثم أقام في شقة ابنته. كنت أزوره يومياً وأحمل عنه عبء الحرب، وأحمل له الكعكة والجريدة. كان شاعراً مجدداً، ولعله أول من كتب قصيدة النثر ثم توقف عن كتابة الشعر ليتفرغ، كلية، لمجلته الأدبية الشهرية. كان هو هيئة التحرير والإدارة والموزِّع والمصحِّح. لم تعادل شكواه من وحشية القصف غير شكواه من الماء وصاحب البناية. كان يأنس إليَّ وإلى أحفاده، ويتقبّل اضطهاد زوجته ذات الشخصية الطاغية بابتسامة اعتذار عن ذنب لم يرتكبه. وحين كان يصرخ من الألم العصبيّ الذي يسبّبه إلحاح الطائرات المغيرة:

كفى، ماذا تريدون منّا. نحن نعرف أنكم أقوى منّا. ونعرف أنكم تمتلكون طائرات أحدث، وأسلحة أشد فتكاً. ولكن ماذا تريدون منا.. كفى! كانت زوجته تزجره: دعهم.. وشأنهم.. عايزين يضربوا.. وأنت مالك ــ تقولها باللهجة المصرية الرادعة دون أن تخجل من وجودي: عايزين يضربوا الفلسطينيين. وكنت أمازحه لأقطع تيار الحرب المكهرب: حقاً، لماذا تعرقل عمل الطيارين؟ فيضحك، وهي لا تضحك. كانت في داخلها التربوي المعادي لما هو خارج طائفتها تحتفل بالخدمة المجانية التي يقدمها الإسرائيليون لبطل أحلامها الوحيد: بشير الجميل. كانت تعتقد أن هذه الحرب هي مجرد تطوع إسرائيلي لتنظيف لبنان من الغرباء والمسلمين. وحين ستنتهي بوصول بطل أحلامها إلى رئاسة الجمهورية، وبخروج الغرباء من لبنان، سيعود الإسرائيليون من حيث جاءوا دون أن يحصلوا على أيّ أجر. كان في وسعك أن تجادلها في سيرة السيد المسيح والسيدة مريم العذراء ورسائل بولس دون أن تنفعل. أما البشير، فتحيط اسمه بحزام التابو المقدّس. يا سيدة لبنان احفظيه لنا!.. ومع ذلك لم أكنّ لها العداء، بل الإحساس بالشفقة على ما قطعته من أشواط الوهم ورفض «الآخر». ولم أحمل لها الضغينة، بل حملت لها ما أجده لدى الباعة من خبز وعنب. فأمام مثل هذا الانغلاق الصلب والتشكُّل النهائي تتوقف محاولات الإقناع. وعبثاً حاول الأستاذ، ذو الماضي العلماني، أن يقنعها بأن الإسرائيليين لا يحبون لبنان ولا يدافعون عن لبنان، وأن صاروخاً واحداً من طائراتهم سيحولنا،

نحن الموارنة والمسلمين الجالسين في هذه الشقة، إلى كَفْتة! وهي، هي المحصنة بيقينها النهائيّ، تحبُّ المناقشة العقيمة. ويسألني الأستاذ رأيي ليساعدني عليها، فأتجنب الاستفزاز وما قد تغدقه عليَّ من باطن، قائلاً: ليست تلك مشكلتي، فتحرك الماء الراكد: إذن، ما هي مشكلتك؟

أُناور قائلاً: مشكلتي هي أن أعرف ما هي مشكلتي. وفي المناسبة، هل أفرج صاحب البناية عن الماء؟

تقول: لا تتهرب مما نحن فيه. أنت تعرف أن لا مشكلة بين الموارنة واليهود.

أقول: لا أعرف ذلك.

تقول: أنت تعرف أننا حلفاء.

أقول: لا أعرف.

تقول: إذن، ماذا تعرف؟

أقول: أعرف أن للماء لوناً وطعماً ورائحة.

تقول: لماذا لا تذهبون إلى بلادكم وتنتهي المشكلة؟

أقول: هكذا. ببساطة. نعود إلى بلادنا. وتنتهي المشكلة؟

تقول: نعم.

أقول: ألا تعرفين أنهم لا يسمحون لنا بالذهاب إلى بلادنا؟

تقول: إذن حاربوهم.

أقول: ها نحن نحاربهم. ألسنا في حالة حرب؟

تقول: أنتم تحاربون لتبقوا هنا، ولا تحاربون لتعودوا.

أقول: كي نعود إلى هناك. لا بد من أن نكون في مكان ما، فالعائد ــ إن عاد ــ لا يعود من عدم.

تقول: لماذا لا تقيمون في البلاد العربية وتحاربون منها؟

أقول: قالوا لنا ما تقولينه الآن لنا. طردونا. وها نحن نقاتل هنا مع اللبنانيين دفاعاً عن بيروت، ودفاعاً عن وجودنا.

تقول: حربكم بلا هدف ولا توصل إلى نتيجة.

أقول: ربما لن توصل إلى نتيجة. ولكن هدفها هو الدفاع عن النفس.

تقول: عليكم أن تخرجوا من هنا.

أقول: لقد وافقنا على الخروج. سنخرج. وها هم يمنعوننا من الخروج. ولكن، ألا يعنيك إلى أين سنخرج؟

تقول: لا يعنيني.

وارتفع من الراديو صوت فيروز: بحبك يا لبنان. ارتفع من إذاعتين متحاربتين.

قلت: ألا تحبين هذه الأغنية؟

قالت: أُحبها. وأنت؟

قلت: أُحبها كثيراً، وتوجعني.

قالت: بأي حق تُحبّها؟ ألا ترى إلى أيّ حد تماديتم.

قلت: إنها أغنية جميلة.. ولبنان جميل. وهذا كل ما في الأمر.

قالت: عليك أن تحبّ القدس.

قلت: أُحبّ القدس. والإسرائيليون يحبون القدس ويغنون لها. وأنت تحبين القدس.. وفيروز تغني للقدس.. وريكاردوس أحب القدس.. و..

قالت: لا. أنا لا أُحبُّ القدس.

□□□

الشارع. الساعة السابعة. الأفق بيضة ضخمة من فولاذ. لمن أقدم صمتي البريء. صار الشارع أعرض. أمشي على مهل. وأمشي على مهل.. وأمشي على مهل كي لا تخطئني طائرة. يفتح العدم أشداقه ولا يبتلعني. أسير بلا هدف كأنني أتعرف على هذه الشوارع للمرة الأولى، وكأنني أسير عليها للمرة الأخيرة. وداع من طرف واحد. أنا المُشَيِّعُ والمُشيَّعُ. لو قطة.. لو أجد قطة. لا حزن. لا فرح. لا بداية. لا نهاية. لا غضب. لا رضا. لا ذكرى. لا حلم. لا ماض. لا غد. لا صوت. لا صمت. لا حرب. لا سلام. لا حياة. لا موت. لا نعم. لا لا. تزوّج الموجُ طحلبَ الصخرة على شاطىء بعيد وخرجتُ، للتو، من هذا الزواج الذي دام مليون سنة. خرجت للتو فلم أعرف أين أنا. لم أعرف مَنْ أنا. لم أعرف ما اسمي، ولا اسم هذا المكان. لم

أعرف أن في وسعي أن أمتشق ضلعاً من ضلوعي لأجد فيه حواراً لهذا السكون المطلق. ما اسمي، مَنْ سيُسمّيني: آدم!.

□ □ □

«... ثم إن الله خلق، بعد القلم وبعد أن أمره فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، سحاباً رقيقاً هو الغمام الذي قال فيه النبيّ (ﷺ)، وقد سأله أبو رزين العقيلي: أين كان رَبُّنا قبل أن يخلق الخلق؟

فقال: في غمامٍ، ما تحته هواء وما فوقه هواء، ثم خَلقَ عرشه على الماء.

قلت: هذا فيه نظر، لأنه قد تقدم أن أوَّل ما خلق الله تعالى القلم وقال له: اكتب... فجرى في تلك الساعة، ثم ذُكر أن الله خلق بعد القلم، وبعد أن جرى بما هو كائن، سحاباً، ومن المعلوم أن الكتابة لا بُدّ فيها من آلة يُكتب بها، وهو القلم، ومن شيء يُكتب فيه، وهو اللوح المحفوظ. فكان ينبغي أن يذكر اللوح المحفوظ ثانياً للقلم، والله أعلم.. ويحتمل أن يكون تُرك ذكره لأنه معلوم من مفهوم اللفظ بطريق الملازمة.

ثم اختلف العلماء فيمن خلق الله بعد الغمام، فروى الضحّاك عن ابن مزاحم عن ابن عبّاس: أوّلُ ما خلق اللهُ العرش، فاستوى عليه. وقال آخرون: خلق الله الماءَ قبل العرش، وخلق العرش فوضعه على الماء.

وقيل: إن الذي خلق الله تعالى بعد القلم الكرسيّ، ثم العرش، ثم الهواء، ثم الظلمات، ثم الماء، فوضع العرش عليه.

قال: وقول من قال: إن الماء خلق قبل العرش أولى بالصواب لحديث أبي رزين عن النبي (ﷺ)، وقد قيل: إن الماء كان على متن الريح حين خُلق العرش، قاله سعيد بن جبير عن أبي عباس، فإن كان كذلك، فقد خُلقا قبل العرش.

وقال غيره: إن الله خلق القلم قبل أن يخلق شيئاً بألف عام.

واختلفوا أيضاً في اليوم الذي ابتدأ الله تعالى فيه خلق السموات والأرض. وقال عبد الله بن سلام، وكعب، والضحّاك، ومجاهد: ابتداء الخلق يوم الأحد. وقال محمد بن إسحاق: ابتداء الخلق يوم السبت.. وكذلك قال أبو هريرة.

واختلفوا أيضاً فيما خلق كُلّ يوم، فقال عبد الله بن سلام، إن الله تعالى بدأ الخلق يوم الأحد، فخلق الأرضين يوم الأحد والاثنين، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء، وخلق السموات يومي الخميس والجمعة، ففرغ آخر ساعة من الجمعة، فخلق فيها آدم، عليه السلام، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة.

وقال ابن عباس من رواية عكرمة عنه: إن الله تعالى وضع البيت على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بألفي عام، ثم دُحيت الأرض من تحت البيت.

وروى السريُّ عن أبي صالح، وعن أبي مالك عن ابن عبّاس، وعن مُرّة الهمذاني وعن ابن مسعود: إن الله عزَّ وجلّ كان عرشه

على الماء، ولم يخلق شيئاً مما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً، فارتفع فوق الماء، فسما عليه، فسمّاه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة، فَتَقَها فجعلها سبع أرضين في يومين: يوم الأحد ويوم الاثنين. فخلق الأرض على حوت، والحوت النون الذي ذكره تعالى القرآن في قوله: ﴿ن والقلم﴾. والحوت في الماء. والماء على ظهر صفاة، والصَفَاةُ على ظهر مَلَك، والملك على صخرة، والصخرةُ في الريح، وهي الصخرة التي ذكرها لُقمان ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرك الحوت، فاضطربت وتزلزلت الأرضُ، فأرسى عليها الجبال فقرّت.

قال ابن عباس والضحّاك ومجاهد وكعب وغيرهم: كُلُّ يوم من هذه الأيام الستة التي خلق الله فيها السماء والأرض كألف سنة.

.. واختلف العلماء في الليل والنهار، أيُّهما خُلِق قبل صاحبه، بعضهم يقول: «إن الليل خلق قبل النهار. وقال آخرون: كان النهار قبل الليل، واستدلوا بأن الله تعالى كان ولا شيء معه، ولا ليل ولا نهار، وأن نوره كان يضيء له كل شيء خلقه حتى خلق الليل. قال ابن مسعود: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار. نور السموات من نور وجهه. وقال عبيد بن عمير الحارثي: كنتُ عند علي فسأله ابن الكوّاء عن السواد الذي في القمر فقال: ذلك آيةٌ محيت. وروى أبو جعفر حديثاً طويلاً عن ابن عباس عن النبي(ﷺ)، في خلق الشمس والقمر وسيرهما، فإنهما على عجلتين، لكلِّ عجلة ثلاث مائة وستون عُروة، يجرها بعددها من

الملائكة، وأنهما يسقطان عن العجلتين فيغوصان في بحر بين السماء والأرض، فذلك كسوفهما، ثم إن الملائكة يخرجونهما فذلك تجليتهما من الكسوف...».

ابن الأثير [«الكامل في التاريخ»]

□ □ □

.. أسير وسط الشارع تماماً، ولا يهمني أن أعرف إلى أين أنا سائر، وكأنني في سرنمة. لا أَخرج من شيء ولا أدخل في شيء. ولكن هدير هواجسي المتلاطمة يعلو على هدير طائرات لا أكترث بها..

لم نفهم لبنان. لم نفهم لبنان أبداً. ولن نفهم لبنان. لن نفهم لبنان إلى الأبد..

لم نر من لبنان غير صورتنا على وجه الحجر المصقول، مُخيّلة تُعيد خلق العالم على شاكلتها، لا لأنها واهمة بل لأنها في حاجة إلى أن تضع للخيال موطىء قدم . شيء من صناعة الفيديو: نكتب القصة، والسيناريو والحوار والمنتج والمخرج، ونوزِّع الأدوار دون أن ننتبه إلى أننا نحن الموزعون في أدوار. وحين نرى إلى وجوهنا ودمنا على الشاشة، نصفِّق للصورة ناسين أنها من صناعتنا. وما إن يتحول الإنتاج إلى إعادة إنتاج حتى نُصَدِّق أن «الآخر» هو الذي يشير إلينا.

هل كان في مقدورنا أن نرى بشكل آخر غير ما يُسَهِّل علينا تأليب الواقع على ماديته؟ بنيتُنا التحتية هي المعنويات. ماركس

واقفاً على رأسه، معيداً هيغل للوقوف على قدميه بأدوات ميكافيللي الذي أسلم على باب خيمة من خيام صلاح الدين.

أَلأَنّ لبنان هو هكذا، يستعصي على الدراسة والإدراك؟ أم لأننا لا نملك من أدوات معرفة لبنان غير هذه الطريقة في التوفيق؟

لا أتورّط بمحاولة الإجابة، بقدر ما أزجُّ نفسي في حيرة: لا أحد يفهم لبنان، لا أصحابه المجازيون، ولا صُناعه، لا مُدمِّروه ولا بُناتُهُ، لا حُلفاؤه ولا أصدقاؤه، لا الداخلون ولا الخارجون، ألأنَّ الواقع المفكَّك لا يُدْرَك، أم لأن الوعي المفكِّك لا يُدْرِك...؟.

ولا أُريد جواباً صحيحاً، بقدر ما أُريد سؤالاً صحيحاً.

لم نر من لبنان غير اللغة التي تُشيع فينا غريزة الوجود، وعلاقة قربى رفعها إلى مستوى الخطاب القومي ذلك المصريُّ الكبير عبد الناصر الذي خاطب في سكان القارة المتحولة إلى فسيفساء حاسّة الغياب المرهفة، وسمّى من النهر ضفافاً تُخفي ما في النهر من وحل، وطوائف، وقبائل كانت تجدِّد حياتها، في هدوء الظلام، خلف دويِّ الخطاب.. إلى أن انكسر الخطاب فتقدمت بخطابها شبه المشترك.

فيديو ..

أن نرى ما تريحنا رؤيته، في لحظة يتحول فيها شرط حياتنا إلى هذه الرؤية، المنحدرة من الخطاب الكبير، في محاولة لتحويلها إلى وعدٍ تراجع عن الوعي، فصار ممثلو الأغلبية أقلية محاصرة.

فيديو ..

لأن الزمن ليس زمن أنبياء تتحول فيه العزلة إلى بوصلة صواب، والأقلية المترسبة من مشروع الأكثرية ــ إلى هداية.

فيديو ..

لأن حزيران المصنوع ليكون نهاية الفكرة العربية لا تحيله الأنظمة، المشاركة في صناعته، إلى انتقام الشارع ليكون بداية البديل، بل لامتصاص ما ينبغي امتصاصه من غضب لا يرد، تجري أثناءه الأنظمة عملية تثبيت انعطافها نحو سيادة الفكرة الإقليمية، والفكرة الطائفية.

فيديو ..

لأن ماركيز صيدا الذي ينتظر إذن البابا بوضع أُخته تحت مسلم، وإلّا فبنت أُخته، لا يصلح حليفاً حقيقياً ضد الإنكليز الذين يحاصرون عكا..

وفيديو ..

لأن سقوط المركز بالتوقيع على معاهدة تضمن نهاية الحروب، يأذن بهجوم الأطراف على مركز الموضوع، ونقله من موضوع دعوة إلى موضوع انشقاق وفتنة.

وفيديو ..

لأن اقتسام الساحل والجبل بين العرب والإفرنج، في هذه الشروط المعاصرة لا يرمي إلى ضمان احتفاظ العرب بما تبقّى لهم من

قلاع ومدى، لمواصلة الصراع، بل يرمي إلى منح العدو هدنة توفر له إمكانية تأسيس نماذجه الكفيلة بانتقاله من استثناء إلى قاعدة.

فيديو ..

لأن هذا الضلع من الجزيرة، الضلع المكسور، مطلوب للمحاكمة بتهمة الاعتداء على راحة العروش بترويج كلمات ممنوعة التداول في الأطراف العربية: امرأة، معارضة، كتاب، أحزاب، برلمان، حرية، خنزير، ديموقراطية، شيوعية، علمانية.

وفيديو ..

لأن فلسطين تتطور من وطن إلى شعار ليس للتطبيق، بل للتعليق على الأحداث، ولتزويق خطاب الانقلاب، وحلّ الأحزاب، ومنع زراعة القمح، واستبدال الكدح بالربح السريع، وإلى تطوير صناعة الانقلاب، الثقيلة منها والخفيفة، إلى أن يُعْقَد القِران على آخر حفيدات الخليفة.

وعلى الحدود، تُعلن الحرب على الحدود.

لذلك، كان علينا أن نرى من لبنان ما رأيناه من صناعة الأمل، وجه البطولة الساطع المتفجر من المدافعين عن يأسهم العظيم أمام أمل الصَدَفة المنغلقة ومن هجوم بحر الصحراء على جزيرة الروح الصغيرة. أسماء الأمكنة تضيق وتضيق وتنكمش. من الوطن الممتد من المحيط إلى الخليج إلى ما هو أضيق: شرم الشيخ، جبل الشيخ، الضفة الغربية لنهر الأردن، مدرسة البنات في نابلس، حارة السجعية في غزة، غاليري سمعان، شارع أسعد الأسعد في

بيروت، فندق طابا في سيناء، بئر العبد هنا، مخيم شاتيلا، مستديرة المطار، إلى متراس أخير تكون بعده الصحراء أو البحر...

□□□

لتتقدّسْ أيديكم، أيها القابضون على الحجر وعلى الجمر الأخير..

لتتقدّسْ أيديكم الرافعة، وحدها، جبالاً من أنقاض الفكرة اليتيمة.

وليتحول ظلكم المحروق إلى رماد عنقاء يجدِّدكم لتبنوا منه ومنكم مغارة لطفل يُولد.

ولتنبت أسماؤكم حبقاً وريحاناً على سهل يمتد من خطاكم، سهل لتهتدي حَبَّة القمح إلى ترابها المسروق؛

أيها المشرقون فينا أقماراً يعجنها دم سخيّ ينادي حُرّاس القلعة الهاربين إلى صفوف الأعداء، فلا يجيب سوى الصدى الساخر:

وحدكم!..

من آثار خُطاكم، الخطى التي لا تخطو إلّا تحت أو فوق، سنلُمّ الجزر المتطايرة المتنافرة كما يلمُّ الشاعرُ البرق المتناثر من حوافر خيل على صُوّان.

ومن خيمة هي ما يسيل علينا من ريش الصقور سندلُّ القبائل على حدود أسمائها.

.. وحدكم!

فاحموا حدّ النشيد، كما تحمون، مما يثلم القلب في هذه البريّة الضيقة، الضيقة كمدى لا يطلُّ من النافذة..

.. وحدكم!

البحر من ورائكم، والبحر من أمامكم، والبحر عن يمينكم، والبحر عن يساركم، ولا يابسة إلّا هذه اليد الممسكة بحجر هو الأرض.

.. وحدكم

فارفعوا مائة مدينة أخرى على هذا الزناد، لتخرج المدن القديمة من اصطبلاتها ومن سلطة الجراد النابت في خيام الفراء الصحراوي..

دلّونا علينا لنفرغ ما فينا من حمولة جثث ليست لنا، ومن ثمر فاسد تدلّى من لغة ليست لنا، ولنتابع المشي على خطانا لا على خطى قيصر.. لصّ الهوية والطريق..

لم يبق لنا من موت إلّا موت الموت..

وحدكم،

تحمون سلامة هذا الساحل من اختلاط المعاني، فلا يكون التاريخ سلس المراس، ولا يكون المكان إرثاً يورث.

ولتتقدّس أيديكم أيها القابضون على الحجر وعلى الجمر الأخير.

ــ وداعاً سيدي

ــ إلى أين؟

ــ إلى الجنون

ــ أيّ جنون؟

ــ أيّ جنون ... فقد صرتُ كلاماً..

□□□

.. مَسّني ما مسّني من حماسة. وواصل الفضاء المحتل، والبحر المحتل، وجبل الصنوبر المحتل قصف الهواجس الأولى وسيرة خروج آدم من الجنة، المتعدد في سيَر خروج لا تنتهي. لم يعد لي وطن، ولم يعد لي جسد. وواصل القصفُ قصف أناشيد المدائح وحوارات الموت المتحركة في دم كالضوء يحرق الأسئلة الباردة. عمَّ أبحث؟ عن امتلاء بالبارود، عن تخمة لغضب النفس. تدخل الصواريخ في مسام جلدي وتخرج سالمة. ما أقواها! ولا أُحسُّ بالجحيم التي يوزعها الهواء ما دمت أَتَنَفَّسُ الجحيم وأَتَصَبَّبُ جهنم. وأُريدُ أن أُنشد. نعم، أن أُنشد لهذا النهار المحروق. أُريد أن أُنشد. أُريد أن أجد لغة تحول اللغة إلى حديد للروح، إلى لغة مضادة لهذه الطائرات.. الحشرات الفضية اللامعة.. أُريد أن أُنشد. أُريد لغة تسندني وأسندها، وتشهدني وأشهدها على ما فينا من قوة الغلبة على هذه العُزلة الكونية، وأمشي..

.. أمشي لأراني ماشياً، ثابت الخطوة، حُرّاً حتى من نفسي. في منتصف الشارع، منتصف الشارع تماماً. تنبح عليَّ الوحوش الطائرة. تبصق نارها ولا أُبالي. لا أسمع إلّا وقع خطاي على الإسفلت المحفور. ولا أرى أحداً. عمَّ أبحث؟ لا شيء. لعلّ عناد التحدّي الذي يخفي خوف الوحدة، أو الخشية من الموت بين

الأنقاض هو ما يُمسك بخطاي ويضرب بها الشوارع النائمة. لم أر بيروت، من قبل في مثل هذا النوم الصباحي. ولأول مرة أرى الأرصفة، أرصفة واضحة. ولأول مرة أرى الشجر، شجراً واضحاً، بجذوع وأغصان وأوراق دائمة الخضرة. هل بيروت جميلة في حد ذاتها؟ كانت الحركة، والحوار، والزحام، وضوضاء التجارة تخفي هذه الملاحظة، وتحوّل بيروت من مدينة إلى مفهوم، ومعنى، ومصطلح، ودلالة. كانت تطبع الكتب، وتوزع الصحف، وتعقد الندوات والمؤتمرات لتعالج قضايا العالم ولا تنتبه إلى ذاتها. كانت مشغولة بمدّ لسان السخرية لما حولها من رمل وقمع. كانت ورشة حرية. وكانت جدرانها تحمل موسوعة العالم الحديث. وكانت مصنع ملصقات. وقد تكون هي أول مدينة في العالم طوّرت صناعة الملصقات إلى مستوى الجريدة اليومية. ولعل قدراتها التعبيرية المتشكلة من تنوع، وموت، وفوضى، وحرية، وغربة، وهجرة، وشعوب، قد امتلأت وفاضت عن جميع أشكال التعبير المعروفة، فوجدت في الملصق ما يستوعب فائض التعبير عن اليومي، حتى أصبح الملصق لفظة دارجة في القصائد والقصص ليشير إلى خصوصية. وجوه على الجدران، شهداء طازجون خارجون للتو من الحياة ومن المطبعة، موت يُعيد إنتاج موته. شهيد يزيح وجه شهيد آخر عن الحائط ويجلس مكانه إلى أن يزيحه شهيد جديد أو مطر. وشعارات تمحو شعارات، تتبدل، وترتب أولويات الحماسة والواجبات الأممية اليومية. كل ما يحدث في العالم يحدث هنا، انعكاساً تارة، ونموذجاً تارة، وقد يتشاجر

مثقفان في مقهى باريسي، فينقلب شجارهما الكلامي إلى اشتباك مُسَلَّح هنا. لأن على بيروت أن تتضامن أو تتزامن مع كل جديد، ومع كل قديم يتجدّد، ومع كل حركة جديدة ونظرية جديدة. سينما ثورات سريعة الدوران. فيديو للتطبيق المباشر. القائد الجديد أو النجم الجديد، في أي مجال، مرشح ليكون قائدها أو نجمها. تطفح جدرانها بالصور والكلمات، ويلهث المارّة وراء وعي يتبدّل. لذا، فإن أعمار النجوم والقادة قصيرة، لا لأن الجمهور هنا سريع الضجر، فالجمهور ليس هنا، بل لأن السباق يجري على النمط الأميركي ولو كانت أهدافه معادية لأميركا، فهنا مندوبون دائمون لأيّ وعي جديد، ولأية نغمة جديدة، ولأية طفرة جديدة، من الولاعة المتدلية من صدر فتاة الجينز دليلاً على الإفراط في اليسارية، إلى حجاب يغطي الوجه واليدين دليلاً على الأصالة، إلى تلقف كل إشارة تضع كارل ماركس في فهرست الاستشراق، دليلاً على هبوب ريح الشرق. هنا محطة تحويل كونية لكُلّ خروج عن السياق، وتعميمه إلى برنامج عمل لشعب مشغول بتأمين خبزه، ومائه، وبدفن قتلاه...

أمشي في شارع لا يمشي فيه أحد. أتذكّر أني مشيت، من قبل، في شارع لم يمشِ فيه أحد. وأتذكّر أن أحداً لم يكن معي قال لي:

ــ دَعْكَ من هذا الحوار، وتعال معي.

ــ إلى أين؟

ــ لترى هذا الرجل.

ــ ماذا يفعل هذا الرجل؟

ــ يذهب إلى بيته.

ــ ولكنه يمشي إلى الأمام ويعود إلى الوراء.

ــ تلك طريقته في المشي.

ــ إنه لا يمشي. إنه يتأرجح. إنه يرقص.

ــ راقبه جيداً. عُدّ خطواته..

واحدة، اثنتان، أربع، سبع، تسع إلى الأمام.. واحدة، اثنتان، ثلاث، سبع، ثمانٍ إلى الوراء..

ــ ماذا يعني ذلك؟

ــ إنه يمشي. في هذه الطريقة وحدها يعرف الطريق إلى البيت: عشر خطوات إلى الأمام وتسع خطوات إلى الوراء. أي أنه يتقدم خطوة.

ــ وإذا سرح ذهنه، وأخطأ في العدّ؟

ــ عندها لا يصل إلى بيته.

ــ هل تعني شيئاً؟

ــ لا أعني شيئاً...

□ □ □

.. قريباً من فندق «الكافالييه» نظرت إلى ساعتي. هل صحا

الشاعر (ي) من النوم؟ من يستطيع النوم تحت هذه القطعان من الطائرات؟ أثار فضولي أن أعرف كيف يقدر شاعر على الكتابة، كيف يجد لغة لهذه اللغة. و(ي) هو الشاعر صاحب القصيدة اليومية، المرئية، المتأنية، القادرة على التقاط تفاصيل دالّة على جوهر إنساني. هو الشاعر القادر على تحريك الفرح من الركام وعلى إيقاظ الدهش. وهو حين يكتب يغنيني عن الكتابة، لأنه يقول نيابة عنا ما نحسُّ بالرغبة في قوله. يملأني بشجن يوقظ صفاؤه فيّ مادة الفرح. وما دام هذا الشاعر يكتب فلن أجد دليلاً ملموساً على مأزق الشعر. وهو باختصار شاعري. التقيته أول مرة في بغداد. وسرعان ما حاول اغتيالي، لأنه يشرب ما تُيَسّره المائدة من كحول لا تتجانس إلّا للتشاكس، فهو لا يعترف بفروق الكحول. الكحول هي الكحول. ما الفرق: بيرة، ويسكي، نبيذ، عرق، جنّ، كُلُّها تُجنِّن. وحين كان يوصلني في آخر الليل بسيارته إلى فندق «بغداد»، كان يحاول دفع السيارة، بمن فيها، للسباحة في نهر دجلة لولا استغاثتنا الصاحية. قال ليهدىء من روعنا: لا تخافوا، فأنا الآن موظف في دائرة الري. صحنا: الري؟ قال: الريّ، نعم، الريّ. وأخيراً انتقل من دائرة الريّ في بغداد إلى دائرة الدم في بيروت. كُنّا نحيي أُمسيات مشتركة في بيروت ودمشق، وفي صور منذ أسابيع، في إحدى قواعد المقاتلين. رأيته ليلة أمس قرب فندق بلازا. تعرّف عليَّ وسط الظلام الكحلي بواسطة مصباح يدوي، فصرخ بي: كيف تسير وحدك بلا حراسة. قال: لماذا تقف هنا؟ قلت: أنتظر سيارة أجرة لأذهب إلى غرفة العمليات.

□ □ □

أنتظر الشاعر في ردهة الفندق. ولكن، لماذا يطلع الحلزون في وجهي. حلزون طويل. حلزون لا يكفُّ عن استعراض رخاوته. يلعب على المقاعد والجدران. يدلق لعابه الأخضر على فتاة تعزف على البيانو. حلزون يبكي. حلزون يضحك. حلزون يسكر. يدخل الشاشة. يخرج من الشاشة. يعلِّق بصره الزائغ على اللاشيء. حلزون لا ينظر. يتهاوى. يتمايل. يتأوه. يتنهد. يتخلّع. يتسكع. حلزون يسير على قدمين من مطاط يتأرجح. ولماذا يطلع الحلزون في وجهي هذا الصباح؟ اللهم احفظنا من بشاعة المنظر!

□ □ □

.. ينزل الشاعر من غرفته مُتّكئاً على جرادة..

أوف .. أهذه أيضاً. ما الذي جاء بي إلى هذا المكان. نتعانق. أهزّ على كتفيه لأنفض عنه سموات النعاس. كيف حالك؟ متشائم. هذا يوم عجيب يا أخي. مش معقول يا أخي. لم يتوقف القصف ثانية واحدة. إنهم يحرثون المدينة. أين كنت؟ في شقتي. مَجنون.. مجنون يا أخي كيف تنام هناك؟ غداً سأنام هنا.. ولكن أينقصنا أن يُسفر القصف عن حلزون وجرادة؟. ماذا تعني؟ لا أعني شيئاً. عشر خطوات إلى الأمام، وتسع إلى الوراء. النتيجة خطوة إلى الأمام. حسناً! هذا حسن..

حطت جرادة أُخرى، خائفة، على حضني. إرتَدَتْ عِفّة الخوف من الطائرات لتحتك بما يُحكّ. قلت لها مازحاً وناصحاً: هذا

يوم لا نهاية له. عندهم ألف طائرة تستطيع القيام بعشرة آلاف غارة، وإذا واصلتِ الرد على كل غارة بهذا الاحتكاك، فإني سأجف، سأَصير رجلاً مثموداً! والتفتُّ إلى الشاعر: قل لي: لماذا تندلع شهوات الفتيات في أَسوأ الحالات؟ أَهذا هو وقت الحب! ليس هذا وقت الحب. إنه وقت الشهوة الخاطفة. يتعاون جسدان عابران على صدّ موت عابر بموت آخر هو موت العَسَل.

جاء صديقنا الكبير «ف» ليساعدني على رفع الشاعر عن عبارة سقطت تحته: يا أخي مش معقول.

هذا مش معقول. يا أَخي هذا شيء غير معقول. اشتبك مع العبارة. خنقها. وتكوّم فوقها. ساعدني يا «ف» ساعدني على تخليص العبارة من تأتأة «ي». نضحك. كان علينا أن نضحك ونقهقه إلى حد أزعجنا معه فتاة البيانو. قلنا لها: ليس هذا وقت البيانو، ولا الضحك، ولا الشعر. هذا وقت الطائرات. وهذا وقت الحلزون.

هل تكتبان؟ سألنا «ف»..

«ي» يكتب يومياً.. وقرأ لنا إحدى لقطات الكاميرا الداخلية الحسّاسة التي لا يتخلى عنها.

وأنت؟ سألاني.

قلت: إني أختزن حتى الاختناق، وأُثير سخرية الزملاء القائلين: ما جدوى القصيدة.. ما جدواها بعدما تنتهي الحرب. ولكنني أَصرخ في لحظة لا يصل فيها الصراخ. ويبدو لي أن على اللغة ألا تزج

بنفسها في معركة أَصوات غير متكافئة. صوتك الخافت يا «ي» أَفضل.

ــ ولكن ماذا تكتب؟

قلت: أَتأتىء صرخة:

أشلاؤنا أسماؤنا.. لا.. لا مفَرٌّ

سقط القناع عن القناع عن القناع

سقط القناعُ

لا إخوة لك يا أخي، لا أصدقاء

يا صديقي، لا قلاعُ

لا الماء عندك، لا الدواء ولا السماء ولا الدماء ولا الشراعُ

ولا الأَمام ولا الوراءُ

حاصر حصارك.. لا مَفَرٌّ

سقطتْ ذراعك فالتقطها

واضربْ عدوّك.. لا مَفَرٌّ

وسقطتُ قربك، فالتقطني

واضرب عدوك بي، فأنت الآن حُرٌّ

حُرٌّ

وحُرٌّ ..

قتلاك أو جرحاك فيك ذخيرة
فاضرب بها. اضرب عدوك.. لا مَفَرُّ

أَشلاؤنا أَسماؤنا. أَسماؤنا أَشلاؤنا
حاصِرْ حصارك بالجنون
وبالجنون
وبالجنون
ذهب الذين تحبهم، ذهبوا
فإمّا أن تكون
أَو لا تكون
سقط القناعُ عن القناع
سقط القناعُ، ولا أَحدْ
إلّاكَ في هذا المدى المفتوح للأَعداء والنسيان
فاجعل كُلَّ متراس بَلَد
لا .. لا أَحد
سقط القناعُ
عرب أَطاعوا رُومهم
عرب وباعوا روحهم

عرب .. وضاعوا

سقط القناعُ

سقط القناعُ

.. سألنا «ف»: إِلى أَين ستخرجان؟

قال «ي»: إلى عدن..

ـ وأَنت؟ سأَلني

قلت: لا أَعرف..

صمت. صمت من حديد. كنا ثلاثة، فصرنا واحداً في ما ينهار حولنا من عالم. كأننا نعتني بمواد قابلة للانكسار ونحن نستعدُّ لاستيعاب عملية انتقال الواقع، برمته، إلى ذكريات تتأَلّف على مرأَى منّا. ونحن نبتعد لنشهد صيرورتنا إلى ذكريات. نحن الذكريات. ابتداءً من هذه اللحظة سيتذكر بعضنا البعض كما نتذكر عالماً بعيداً تلاشى في زرقة صارت أَشدّ زرقةً مما كانت عليه. سنفترق في أَوج اللهفة. ونحن الثلاثة نعرف الحقيقة: سنخرج. ونعرف قسوة أَقسى لا يجرؤ أَحد على أَن يُرى وهو يراها: أن الناس معنا لأَننا خارجون.

قلت: لن أخرج، لأنني لا أعرف إلى أَين أخرج. ولأَنني لا أَعرف إِلى أَين أَخرج، فلن أَخرج.

وسأَلت «ف»: وأَنت؟

قال: أنا باقٍ. أَنا لبناني. وهذه بلادي. إِلى أَين أَذهب!

خجلت من سؤالي، ومن فرط ما صارت بيروت نشيدي... ونشيد مَنْ لا وطن له!... خجلت من شدّة التباس الفكرة.

□□□

«.. في ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر. فاجتمعت إليه جموع كثيرة حتى أنه دخل السفينة وجلس. والجمع كُلُّه وقف على الشاطىء فكلمهم كثيراً بأَمثال قائلاً هو ذا الزارع قد خرج ليزرع. وفيما هو يزرع سقط بعضٌ على الطريق، فجاءت الطيور وأكلته. وسقط آخر على الأَماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالاً إذ لم يكن له عمق أَرض. ولكن لما أَشرقت الشمس احترق. وإذ لم يكن له أَصلٌ جفّ. وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه. وسقط آخر على الأَرض الجيدة فأَعطى ثمراً...

«... ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحي صور صيدا. وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة إِرحمني يا سيّد يا ابن داود، ابنتي مجنونة جداً. فلم يُجبها بكلمة. فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين اصرفها لأَنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال لم أُرسَل إلّا إلى خراف بيت إسرائيل الضالّة. فأَتت وسجدت له قائلة يا سيّد أعنّي. فأَجاب وقال ليس حسناً أن يؤخذ خبز البنين ويُطرَح للكلاب. فقالت نعم يا سيّد. والكلاب أَيضاً تأكل من الفتات الذي يسقط من مائدة أَربابها.

حينئذٍ أجاب يسوع وقال لها يا امرأَة عظيمٌ إيمانك. ليكن لك ما تريدين. فشُفيت ابنتها من تلك الساعة»

[إنجيل متّى]

□ □ □

.. وفي فندق الكومودور، معقل الصحافيين الأَجانب، يستجوبني كاتب صحافي أميركي: ماذا تكتب أيها الشاعر في الحرب؟

ــ أَكتب صمتي.

ــ هل تعني أن الكلام للمدافع؟

ــ نعم. صوتها أعلى من أي صوت.

ــ ماذا تفعل إِذن؟

ــ أَدعو إلى الصّمود.

ــ وهل ستنتصرون في هذه الحرب؟

ــ لا. المهم أَن نبقى. بقاؤنا انتصار.

ــ وماذا بعد ذلك؟

ــ سيبدأُ زمن جديد.

ــ ومتى تعود إلى كتابة الشعر؟

ــ حين تسكت المدافع قليلاً. حين أُفجر صمتي المليء بجميع هذه الأَصوات.

حين أَجد لغتي الملائمة.

ــ أَليس لك من دور؟

ــ لا. لا دور لي في الشعر الآن. دوري خارج القصيدة. دوري أن أَكون هنا، مع المواطنين، ومع المقاتلين.

.. لقد وجد بعض المثقفين وقت الحصار ملائماً لتصفية حساباتهم الصغيرة. فشرعوا أَقلامهم السّامة في صدور زملائهم. وعبثاً كنا نصرخ: ما لكم وهذه الصغائر. فليس أحد من الكتّاب هو الذي يحاصر بيروت. وليس تقصيرهم أو هروبهم هو الذي يهيل البنايات على سكانها. وفي أسوإِ الأحوال ليست كتابتهم هذه أدباً. وليست مدافع فعّالة مضادة للطائرات في أفضل الأَحوال. كلا ــ يقولون: هذا هو المحك الأول والأَخير لثورية الكاتب والشاعر. فإما أن تولد القصيدة الآن، وإما أن تحرم من حقّها في الولادة. وكنا نسخر: ولماذا أَذنتم لهوميروس أن يكتب الإِلياذة والأُوديسة؟ ولماذا سمحتم لأسخيليوس ويوربيدوس وأرسطوفان وتولستوي وغيرهم؟ ليس ردُّ الفعل واحداً ــ أَيها الكتّاب ــ فمن يستطع الكتابة الآن فليكتب. ومن يستطع الكتابة بعد الآن فليكتب. وإذا أَذنتم لي بأن أُبدي رأيي ــ ودون اتهام ــ فسأعبر عن ظنّي بأن الجرحى والعطاشى والباحثين عن الماء والخبز والملجأ لا يطالبونكم بالغناء، والمقاتلين لا يكترثون بغنائكم. غنوا إذا شئتم، أو فاصمتوا إذا شئتم. فنحن هامشيون في الحرب. وفي وسعنا أن نقدم خدمات أُخرى للناس، فإن تنكة من الماء تساوي وادي عبقر. المطلوب منا الآن هو الفاعلية الإنسانية لا الجمالية

الإبداعية. فلْتُوقفوا عمليات الاغتيال: وماذا لو انهارت أعصاب الناقد وخرج من بيروت؟ وماذا لو عجز الكاتب المسرحي عن اجتياز الشارع من الخوف؟ وماذا لو أضاع الشاعر إيقاعه قليلاً؟ أَلأَنّ الناقد لم يُعْجَبْ برواياتكم وقصائدكم تضربون عليه الحصار وتقصفونه بالتشهير؟

لقد اعتادت الأوساط الأدبية العربية أن تطرح سؤال الشعر في سياق الحرب المندلعة، استجابةً للراسب الثقافي فينا الذي يربط صيحة الحرب بحماسة الشعر، باعتبار الشاعر معلقاً على الأحداث، حاضّاً على الجهاد، أو مراسلاً حربياً. في كل معركة يقولون: أين القصيدة؟ لقد اختلط مفهوم الشعر السياسي بمفهوم الحدث، معزولاً عن السياق التاريخي..

وفي هذه اللحظة المحددة، حيث تحرث الطائرات أَجسادنا، يطالب المثقفون المتحلقون حول جسد غائب بقصيدة تُعادل قوة الغارة أو تقلب موازين القوى على الأَقل. إذا لم تولد القصيدة «الآن» فمتى تولد؟ وإذا وُلدت فيما بعد، فما هي قيمتها «الآن». سؤال بسيط ومعقّد يحتاج إلى جواب مُركّب كأَن يتاح لنا القول إن القصيدة تُولد الآن: تولد في مكان ما، في لغة ما، في جسد ما، ولكنها لا تصل إلى الحنجرة والورق. سؤال بريء يحتاج إلى جواب بريء لولا أنه مليء ــ في هذه الجلسة ــ بالرغبة في اغتيال الشاعر الذي يجرؤ على الإعلان أنه يكتب صمته.

ومن المثير للمرارة أن ننتزع من زمن الغارات هذا الوقت للثرثرة، وللدفاع عن دور الشاعر الذي يستمد خاصيته من تاريخ كتابته

الشعر في علاقته بتطور الواقع، أمام لحظة يتوقف فيها كل شيء عن الكلام، لحظة تصوغ فيها الملحمة الشعبية تاريخها وإبداعها الجماعي. بيروت هي الكتابة الإبداعية المثيرة. شعراؤها الحقيقيون ومنشدوها هم مقاتلوها وناسها الذين لا يحتاجون إلى ترفيه وتشجيع على عودٍ مقطوع الأوتار. هم التأسيس الحقيقي لكتابة ستبحث طويلاً عن المعادل اللغوي لبطولتهم وحياتهم المدهشة. فكيف تستطيع الكتابة الجديدة، المحتاجة إلى كسل، أن تتبلور وتتشكّل في أوج معركة لها هذا الإيقاع الصاروخي؟ وكيف يستطيع الشعر التقليدي ــ وكُلّ الشعر تقليدي في هذه اللحظة ــ أن يصف هذا الشعر الجديد المختمر في بطن الزلزال؟ صبراً أيها المثقفون! فسؤال الحياة والموت المهيمن الآن، سؤال الإرادة التي تدفع بأسلحتها كُلّها في هذه الساحة، سؤال الوجود الذي يصوغ شكله المادي والأُلوهي، أهمُّ من السؤال الأخلاقي عن دور الشعر والشاعر. ومن اللائق أن نحترم الرهبة التي تنشرها هذه الساعات، ساعات انتقال الوجود الإنساني من ضفة إلى أُخرى، ومن طور إلى طور. من اللائق أن يعرف الشعر القديم كيف يصمت، في خشوع، أمام حضرة هذا المولود الجديد. وإذا كان من الضروري أن يتحول المثقفون أو بعضهم إلى قنّاصة، فليحاولوا قنص مفاهيمهم القديمة وأسئلتهم القديمة وأخلاقهم القديمة. نحن الآن لا نصف بقدر ما نوصف. نحن نولد تماماً أو نموت تماماً..

ولكن صديقنا الكبير، الباكستاني فايز أحمد فايز كان مشغولاً بسؤال آخر:

أَين الرسامون؟

قلت: أَيُّ رسامين يا فايز؟

قال: رَسّامو بيروت.

قلت: ماذا تريد منهم؟

قال: أن يرسموا هذه الحرب على جدران المدينة.

قلت: ماذا دهاك يا فايز؟ ألا ترى سقوط الجدران؟

□ □ □

.. لماذا أرى الطاووس، الطاووس العجوز، يدبُّ على عصا من عاج، مدججاً بمسدسين، مترعاً بالزهو، ثملاً بالهجاء، مفتوناً ببُصاق مُتَوّج؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، سارق الريش الملوّن، يرشوني بابتسامة حانقة، ويغمد خنجراً في نُخاعِي؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، يرمي عليّ رائحة العرق والعرق، ويحاول أن يُقَبِّل حذائي، ليدس لي قبراً تحت الحذاء؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، يشرئبُّ إلى المقعد والجدار، ليطلّ على قلبي ويسرق حزن الليمون، ويهربه إلى قبطان سفينة لا تصل، ظنّها سفينة نوح ولم تصل؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، مزداناً بحذوة حصان قتيل ظنّها وسام الشرف؟

لماذا أرى الطاووس العجوز، مدججاً بمسدسين: واحدٍ لقتلي، وواحدٍ لقفاه الجَشِع؟

لماذا أرى الطاووس العجوز؟

لماذا أرى الطاووس؟

لماذا أرى؟

لماذا؟

□ □ □

احترق المكتب. قذيفة بحرية جعلته مخزناً للفحم. احترق قبل وصولنا بساعات. أين نجد مكاناً لنتابع الثرثرة: مهنتنا الخالدة في الحرب وفي الهدنة. الثرثرة. أين نتابعها: نخرج، أم لا نخرج؟ فقد حسب المثقفون المنصهرون في ورشة الصمود الرائعة انصهاراً مدهشاً أن هذا السؤال هو سؤالهم. وحسبوا أن لهم حق الفيتو على القرار السياسي. وكان بعضهم يعتقد أن نشرة «المعركة» هي التي ستحدِّد مصير المعركة. وقرروا أن هذا المنبر الشجاع هو الذي سيشهد للتاريخ أن المثقفين هم الذين يقودون انعطاف التاريخ. ما أجملهم! ما أجملهم!

ألسّاعة الحادية عشرة، وعشرين ألَف قذيفة، وثلاثين ثانية. خرجنا من المكتب المحترق إلى فضاء مشتعل. السماءُ تعانق الأَرض عناقاً دُخانياً. تتدلّى مثقلة بالرصاص المصهور، برماديّ داكن لا يفتح انغلاقه العدميّ سوى لون برتقالي تَبُولُهُ الطائرات الفضية المائلة

إلى بياض الوهج. طائرات رشيقة، خفيفة، تثب على هواء آمن كأن فيه أَخاديد.

قال: «ز»: هيّا بنا. قلت: إلى أين؟ قال: نبحث عن أيّ شيء، عن غداء مثلاً. ما الحالة؟ زفت. شروط الخروج مذلّة، ونحن نناور، نحاول أن نشتري الوقت. بأي ثمن؟ بأي ثمن.. بمدافع مضادة للطائرات نفدت ذخيرتها، ببطولة شباب حيّروا العلم العسكري وحيّروا الجنون. إلى متى؟ إلى أن يحدث شيء ما لن يحدث. لم يحدث تغيير. ما زلنا وحدنا. هل سيدخلون بيروت؟ لن يدخلوا بيروت. سيتكبدون خسائر لا يتحملون نتائجها. ولكنهم يحاولون قضم أطراف المدينة. حاولوا عند المتحف وفشلوا. معنويات الشباب عالية، عالية جداً. إنهم شياطين. يائسون من النجدة. يائسون من تحرك العالم العربي. يائسون من التوازن الاستراتيجي، ولذلك يقاتلون بجنون. هل يبلغهم حديث الخروج؟ نعم، يبلغهم ولا يصدقون. يقولون: تلك مناورة، ويقاتلون. ويعرفون أن هذا الصمت الذي يتوِّج العالم يعطيهم منصّة الكلام. دمهم، وحده، هو الذي يتكلّم في هذا الزمن. وماذا سنكتب في «المعركة» أمام حديث المفاوضات والخروج؟ ندعو إلى القتال والصمود. ندعو إلى الصمود والقتال.

بيروت من الخارج: محاصرة بالدبابات الإسرائيلية وبالشلل العربي الرسمي. بيروت غارقة في الظلام والابتزاز. بيروت تعطش..

ولكن بيروت الداخل، بيروت من الداخل، تعد حقيقتها الأخرى،

تمتلك إرادتها. وترفع بنادقها لتحافظ على إشراق معانيها: عاصمة الأَمل العربي..

بشعار «إنقاذ» بيروت الجهنمي، السلس، القاتل كالسم الناعم، يُراد لهذا الأَمل أن ينتحر في مسادة عربية منقولة عن الذاهبين إلى انتحارهم في أوج انتصارهم. والشرط الوحيد الذي يضعه مبتكرو لفظة «الإنقاذ» هو: الاستسلام. استسلام تاريخ من المعاني المسقيّة بالدم. استسلام كامل الغضب. استسلام كل السلاح. استسلام بلا تكاليف.

ولكن، هل يعرف خبراء صناعة الابتزاز ما معنى هذا اليأس، ما نتائج هذا اليأس؟ لا نقول ابتزازاً مضاداً، ولا نُهدِّد بسقوط الهيكل علينا وعلى أعدائنا وعلى حلفائنا. ولكننا نُشهر حريتنا الوحيدة وشرطنا الوحيد على مائدة المفاوضات: أن نقاتل.

بيروت ليست رهينة. ونحن فيها خلف متاريسنا لا نرهن حياتنا لغير المستقبل، ولتجدد دورة الدم في عروق الأَجيال كُلّها. إذ لا خيار لنا إلّا الاحتفاظ بشرط حياتنا الحاضر: السلاح. السلاح الذي يعني تجريدنا منه تجريدنا من أداة الوجود، ومن حماية شعلة أوقدناها بغابة من أشجار دمائنا، ومن الاستمرار في إيقاظ القارة العربية النائمة تحت قمع الأَنظمة.

إن صمودنا في قلعة بيروت، غير القابلة للتدمير، هو الأَداة الوحيدة لتحريك العملاق العربي المتمدِّد ما بين شاطىء محيطين.

وهو الأُفق الوحيد المطلّ من فوهة بندقية ومن ثقب جزمة مقاتل، ومن جرح يضيء في هذا العصر الأسود.

هكذا.. هكذا نفك الحصار عن بيروت، وعن غضب الملايين..

وهكذا تكون صورة بيروت من الداخل نقيض صورة بيروت من الخارج..

.. وهكذا كنا نكتب، فماذا نكتب الآن؟

قال «ز» بلا تردد: الكلام إياه. وما هو رأي الناس، أهل بيروت؟ قال: الصمود. قلت: مع الصمود حتى الخروج.. هل نستطيع أن نتجاهل ذلك؟ قال: لا نستطيع أن نتجاهل ذلك، ولكن ما العمل؟ ما العمل؟

□ □ □

صوت يشذ عن الأصوات المألوفة، لا لأَنه أقوى، بل لأَنه مختلف وبعيد. صوت يسرق المكان ويهرول. صوت يقصُّ الفضاء ويُحدث تجويفاً في الضوء.

هيا بنا.. لم نعبر طريق الروشة منذ أيام. شارع عريض مهجور يتوسع من غياب الخطى، كأنه ملكية خاصة للبحر. بنايات تدخن. نار تهبط من أعلى إلى أسفل. حريق مقلوب. نوافذ تشيخ وتتساقط على مهل. وتصل إلينا استغاثات الطوابق العليا واضحة جارحة. ناس تحاصرهم النار والانهيارات التدريجية الخارجة من هول الصدمة الأولى. رجال الإِسعاف المدني كانوا

هناك، يحاولون إنقاذ اللحم البشري المعجون بالحديد والأسمنت والزجاج.

لا أستطيع أن أشيح بوجهي عن مشهد المكان المجروح. للدم على الأرض وعلى الجدران جاذبيّةُ الوحشية. لا أستطيع أن أنصرف ولا أستطيع أن أخمد إحساس العجز. الزحام شديد. يدعونا رجال الدفاع المدني إلى الانصراف لأننا نعرقل مهمتهم، ولأن الطائرات ستعود لتقصف هذا الحشد الشهيّ. بلّل وجهي ماء ساخن يبعثه احتقان الغيظ. شدّني صاحبي من ذراعي: هيا بنا، هيا بنا.

أغاروا من جديد. من جديد أغاروا. ما هذا اليوم؟ هل هو أطول يوم في التاريخ؟ نظرت إلى البناية المقابلة، نظرتُ إلى مكتبي الصغير نظرة وداع أخير.

□ □ □

موجة من بحر، كنتُ أتابعها من هذه الشرفة، وهي تنكسر على صخرة الروشة الشهيرة بانتحار العُشّاق..

موجة من بحر تحملُ بعض الرسائل الأَخيرة، وتعود إلى الشمال الغربي الأزرق، والجنوب الغربي اللازوردي، ترجع إلى شواطئها وقد طرّزت انكساراتها بالقطن الأبيض..

موجة من بحر، أعرفها، ألاحقها بالشجن، وأراها وهي تتعب قبل بلوغ حيفا، أو الأندلس. تتعب فترتاح على شواطىء جزيرة قبرص.

موجة من بحر، لن تكون أنا. وأنا، لن أكون موجةً من بحر..

□ □ □

كم أحببتُ هذا المكان، المهدّد منذ البداية. ماذا نُهديك؟ نباتات وورد. زهور ونباتات. حوّلتُهُ إلى ما يُشبه العش. أردتُ له أن يكون نصاً من نُصوص المجلة. حروف بُنيّة مطبوعة على ورق أصفر ويُطلُّ على بحر. أردتُ له أن يكون مزهرية ثابتة على صهوة جواد جامح. أردتُ له شبهاً بالقصيدة. ولكن، لا نكاد نُعلِّق لوحة حتى تنفجر سيارة مُفخَّخة تحت، وتطيح كل ترتيب. وما كدت أسند رأسي إلى مِرفق يدي اليُسرى، في انتظار فنجان القهوة، حتى وجدت نفسي خارج المكتب. لقد رفعني دويُّ الانفجار، كما أنا بقلم الحبر والسيجارة، ووضعني سالماً أمام المصعد. وجدتُ وردة على قميصي. وبعد دقيقة حاولتُ العودة إلى المكتب الذي اختفى بابه وتحوَّل إلى ساحة من زجاج مكسور وورق متطاير، فتصدّى لي الانفجار الثاني ليبقيني متجمداً قرب المصعد. ردّ الحارس الفتى على الانفجار بطلقات من مسدسه. ماذا تفعل؟ قلت: قال: أطلق النار. قلت: على مَ تطلق النار وفي أي اتجاه؟ لعلّ أحداً لم يسأله هذا السؤال من قبل، لذلك استهجنه، فهكذا يحدث دائماً. رد الفعل الفوري، التلقائي، وربما الغريزي، على أي حدث أو إحساس عنيف أو خبر أو إصابة كروية هو: إطلاق النار. مجزرة جديدة على الروشة: عشرون قتيلاً آخر من هذه الحُمَّى الجديدة: حُمَّى السيارات المفخخة التي أتقن «الموساد» صناعتها مع عملائه المحليين. لقد مهدت هذه

السيارات لعملية الغزو، مهدت الأرض النفسية لتحويل هذا الحصار إلى حادث طبيعي. أحصنة طروادة معاصرة تصهل في الوعي: لا أمن ولا أمان في بيروت الغربية. وكل سيارة واقفة على رصيف هي وعد بالموت.. فليدخل البرابرة!

□ □ □

موجة من بحر في يدي. تتسرب وتفلت. تناور حول صخرة صدري، ثم تقترب، ترتخي، وتستسلم. تستعين، لئلا تعود إلى طبيعتها، بشَعْر الصدر. حرٌّ ورطوبة. موجة كالقطة تقضم تُفَّاحة. ثم تقبلني بطيش العابث: يحق لي أن أحبك. يحق لك أن تحبني. ليس الحب حقاً، يا قطة، وأنا الآن في تمام الأربعين.. تنزوي في ركن: وأنا نصفُ قَمَرٍ أُنثوي يتبع ذكراً. حرّ ورطوبة. ولكن الجسد الصغير مُكَيَّف: دافىء في الشتاء. طريٌّ في الصيف. جسد طازج كشاطىء بحر جديد لم تلمس الحيوانات الصغيرة طحلبه بعد. ينزلق ويبتعد. يحترق ويقترب. وتفصلني عنه رائحةُ حليب. لم لا نُعلِّق آب على كرسي؟ لم لا نسبح في بياض النوم؟ وتغطي عينين لامعتين ليلاً. لأنك صغيرة. تزأر: لستُ صغيرة. أنا نصف قمر أنثوي يتبع ذكراً. يتبع رائحة الهال. ألا تحقُ لي السباحة؟ ولكن، ليس هذا البياض بحراً، تغضب وتقضم تفاحةً وأظافر يدها. أجمع الشفتين بأصبعي لتكبرا قليلاً.. لتصيرا قبلة. ها أنت تحبني. اعترف بأنك تحبني. قل لي إنك تحبني. فلماذا لا تشرب ملحي؟ لأَن العطش يكسر أناقة روحي. تغضب وتعود إلى الركن، تقرفص في الركن: لا أريد الشِعْر.. لا

أحب الشِعْر.. أريد الجسد.. أريد قطعة جسد.. جبان! جبان! من أجلِك لا من أجلي. ما شأنك أنتَ بما هو لي. أنا حرة في ما أملك. تقف. تقترب. يخشوشن مُواؤها: أعطني شيئاً ألعب به، أعطني لعبة.. أي لعبة.. قطاً صغيراً مُتَوتراً مشدوداً أمرر عليه يدي برفق إلى أن يسيل لُعَابُهُ على صدري...

كانت الموجة توشك على الغرق، لولا انفجار عنيف هزّ صخور البحر، فطارت الموجة إلى الطريق.. وطرتُ إلى السرير.

□ □ □

.. منذ ساعة، لم أتبادل الكلام مع صاحبي «ز». يقود سيارته بلا هدف: أين أنت؟ سأل كلانا الآخر. قلت: أنا أعرف أين كنت. قل الحقيقة، أما كنت هناك تفعل أمراً إدّاً مع زوجة الطيار؟ اندهش: كيف عرفت؟ قلت: لأنني عائد من أمر مشابه. لهذا عرفتُ إلى أين يأخذنا الموت..

قال: آن لنا أن نأكل. قلت: السردين مرة أخرى؟ قال: أي شيء. لم يكن هذا الـ «أي شيء» أيّ شيء. فجأة أوقف سيارته وصاح: خروف مذبوح. كنا في أول شارع الكومودور القادم من الروشة. عرفنا البائع. لم يكن جزاراً. كان صانع جنازات. يلتصق بأي قائد في أية جنازة ليظهر في المشهد والصورة. قلت: كم في ظاهرتنا من مفارقات. ومن حسن حظي أني لستُ كاتباً مسرحياً لئلا أكتب عن الجانب الآخر للصورة. هل تعرف أن عين الكاتب سلبية، كما أن أذن القائد سلبية. تفتنها المفارقة الجارحة هنا

والنميمة هناك. لقد شاعت النميمة في حياتنا بشكل مُدَمر. وكانت مصاحبة لظاهرة التضخم الذاتي، لتمدُّد الجسد وانكماش قلق السؤال. فُتحت مكاتب بأكملها، مكيفة الهواء، صالونات للنميمة وبثّ الشائعات. وازدهرت تجارة الشهداء عند بعض التنظيمات الصغيرة: ما زلنا في حاجة إلى عشرين شهيداً لنملأ القائمة! وصراع مسلح على شهيد مجهول التنظيم. وإعدام مقاتل رفض إطلاق الرصاص على صديق له ينتمي إلى تنظيم آخر، فألقوا بجثته في بئر مهجورة إلى أن عثرت عليها العرّافة. و..

قاطعني «ز»: سأريك الليلة لعبة الكاميرا والظل..

قلت: لا أريد.

قال: أين سنأكل. نحتاج إلى فحم وإلى بناية شبه آمنة. دهشنا حين رأينا السماء زرقاء صافية لا تعكرها أية طائرة. منذ دقيقة لم تمر الطائرات. هل تعبوا؟

امتلأت الشقة الآمنة في البناية، شبه الآمنة، في ساقية الجنزير بالأصدقاء الجياع. خرج الناس من الملاجىء. لا طائرات.. لا طائرات. قال أحدهم: أين كُتُبُ باختين؟ رد آخر: لقد حملها الناقد ــ وهو ساكن الشقة ــ ورحل. حاول البعض أن يُشَهِّر. قال آخر: كفى، فنحن في حاجة إلى فلسطيني حي، يهتم بالماركسية وعلم اللغة. عدّوا ذلك فاتحة نميمة وتأهبوا، لكن عاصفةً من الطائرات هبّتْ علينا لتنقذ الناقد الغائب وترمينا إلى الشارع.

.. وهذا الصوت لا نعرفه من قبل. خفيض، بعيد، عميق، سريّ، كأنه صاعد من جوف الأرض، كأنه صوت القيامة المهيب. شعرنا جميعاً ــ وقد صرنا خبراء في علم الأصوات القاتلة ــ بأن شيئاً غير عادي، في هذه الحرب غير العادية، قد حدث. وبأن سلاحاً جديداً قد جُرِّب. متى ينتهي هذا اليوم الطويل؟ متى ينتهي لنعرف إن كنا أحياء أم موتى!

قال الحامل فخذ الخروف: ماذا نفعل بفخذ الخروف؟ تجاهلنا سؤاله الجشع. لكنه ألحَّ بالسؤال السخيف، ونحن مشغولون بالعثور على ما يَلُمُّ أشلاءنا.. ألحّ حتى قلت له: خذ هذه اللحمة إلى أقرب ملجأ، اثقبها. وانكحها. وخلِّصنا منها ومنك!

ولكن ذلك الصوت البعيد حرَّك فينا قلق الغابات الأولى السحيقة. مشيت أنا و«ز» وراء مخاوفنا. كانت «حديقة الصنايع» تشهد أحد مظاهر يوم الحشر. مئات الخائفين يحيطون بتابوت حجري ضخم. الوجوم يحمل ثقل المعادن تحت شمس محجبة بجميع ألوان الرماد. نندس بين الحشود لنجد مكاناً للتطلع خلف الأكتاف المتزاحمة، خلف السياج البشري المشدود على خوف وغضب، فنرى:

بناية ابتلعها قاع الأرض.

اختطفتها أيدي الوحش الكوني المتربِّص بالعالم الذي ينشئه الإنسان على أرض لا تطل إلّا على شمس وقمر وهاوية.. ليوقعه في حفرة لا قاع لها، حفرة ندرك على حافتها أننا لم نتعلّم

المشي، والقراءة، واستعمال اليد، إلّا لنصل إلى نهاية ننساها، ننساها لنتابع البحث عن مُبرِّر لهذه الملهاة، لنكسر خيط العلاقة بين البداية والنهاية، لنتوهم أننا استثناء الحقيقة الوحيدة.

ما اسم هذا الشيء؟

قنبلة فراغية، تحفر ما تحت الهدف فراغاً هائلاً يُجرِّد الهدف من قاعدة يجلس عليها، فيمتصه الفراغ ويحوله إلى مقبرة مدفونة، بلا تعديل ولا تغيير. وهناك، تحت، في الحيِّز الجديد، يواصل الشكل الاحتفاظ بشكله. ويواصل سكان البناية الاحتفاظ بهيئاتهم السابقة، وبآخر أشكال حركتهم المختنقة. هناك، تحت، تحت ما كان تحتهم قبل ثانية، يتحولون إلى منحوتات من لحم، ولكن لا حياة فيه حتى للوداع. فمن كان نائماً يظل نائماً. ومن كان يحمل طبق القهوة يظل حاملاً طبق القهوة. ومن كان يفتح النافذة ظل يفتح النافذة. ومن كان يرضع من ثدي أمه ظل يرضع من ثدي أمه. ومن كان نائماً على زوجته ظل نائماً على زوجته.. ولكن الذي كان واقفاً على سطح البناية، بالمصادفة، استطاع أن ينفض الغبار عن ثيابه وأن يهبط إلى الشارع، من غير حاجة إلى استعمال المصعد، فقد سُوِّيت البناية بمستوى سطح الأرض. لذلك بقيت العصافير، حيةً، في أقفاصها الجالسة على السطح.

لماذا فعلوا ذلك؟ القائد كان هنا... وغادر منذ قليل. هل غادر حقاً؟ لقد نقله سؤالنا الخائف من أب إلى ابن. ولم نجد وقتاً لمحاكمة السؤال: وماذا لو كان هنا، فهل يُبرِّر ذلك لهم إبادة مائة

إنسان؟ كان سؤال آخر يشغلنا: هل نجا من محاولة اغتياله بالطائرات وبأحدث سلاح: القنبلة الفراغية؟ كان أمس يلعب الشطرنج أمام الكاميرا الأميركية ليدفع بيغن إلى مزيد من الجنون، وليحرمه من لياقة الشتيمة السياسية واستبدالها بالشتيمة الإنسانية «هؤلاء الفلسطينيون ليسوا بشراً. إنهم حيوانات تدبُّ على اثنتين». كان عليه أن يجردنا من الصفة الإنسانية ليبرر قتلنا، فإن قتل الحيوانات ـــ إذا لم تكن كلاباً ـــ ليس محرماً في الشريعة الغربية. كان بيغن يستعيد تاريخ جنونه وجرائمه، فقد ظن أن جنوده، صيادي هذه الحيوانات، يقومون بنزهة صيد، فألقيت في وجهه مئات التوابيت المرفوعة على آلاف تصرخ: إلى متى؟ ولسنا بشراً لأَننا لم نسمح له بدخول عاصمة عربية. وهو لا يستطيع أن يصدق أن البشر هم الذين يحولون دون تحول الخرافة إلى محكمة مطلقة لمحاكمة كُل القيم وكل البشر، في كل زمان وفي كل مكان: محكمة مطلقة وأبدية. لذلك أحال طبيعة من يقاومه إلى طبيعة غير بشرية، إلى طبيعة حيوانية، بعدما أغلقت عليه خرافته جميع منافذ سؤال ممكن: مَن الحيوان؟ لقد انقضّت على حلمه، وعلى حلم يقظته، أشباح من أبادهم في دير ياسين، وغيّبهم عن المكان والزمان، غيّبهم ليشترط حضوره، في المكان والزمان، بذلك الغياب. ولكن تلك الأشباح تحاصره في بيروت وقد استعادت لحمها وعظمها وروحها استعادة بطولية. عاد الشبح من الضحية إلى البطل. وبين الشبح والبطل حُوصر نبي الكذب بهوس أقعده عن الاستعانة بفصول من التوراة كانت قادرة على

أن تكتب، وحدها، تاريخ البشر..

□ □ □

.. «وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأَبواق أن يشوع قال للشعب اهتفوا لأَن الرب قد أعطاكم المدينة. فتكون المدينة وكُل ما فيها محرماً للرب. راحاب الزانية فقط تحيا هي وكُل من معها في البيت لأنها خبأت المُرْسَلَين اللذين أرسلناهما. وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا تحرموا وتأخذوا من الحرام وتجعلوا محلّة إسرائيل محرمة وتكدروها. وكل الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد تكون قدساً للرب وتدخل في خزانة الرب. فهتف الشعب وضربوا بالأبواق. وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة. وحرّموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف. وقال يشوع للرجلين اللذين تجسسا الأرض ادخلا بيت المرأة الزانية وأخرجا من هناك المرأة وكل ما لها كما حلفتما لها. فدخل الغلامان الجاسوسان وأخرجا راحاب وأباها وأمها وإخوتها وكل ما لها وأخرجا كل عشائرها وتركوهم خارج محلة إسرائيل. وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها. إنما الفضة والذهب وآنية النحاس جعلوها في خزانة بيت الرب. واستحيا يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل ما لها. وسكنت في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم. لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكي يتجسسا أريحا. وحلف يشوع في

ذلك الوقت قائلاً ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة أريحا».

[سفر يشوع]

.. وكان القائد يلعب الشطرنج. لقد أحسن التلاعب بأعصاب بيغن المتدلية كأسلاك الكهرباء على مزبلة الأوزاعي. كان الرجل المحاصر في بيروت يحاصر، على رقعة الشطرنج، ما لا يفصح عنه. كان يحاصر في قراءتنا الخاصة أكثر من ملك وقف خارج اللعبة، ويحاصر أكثر من رقعة. كان يخاطب الكناية. ويؤجل إذاعة خطب التأبين المليئة بالدموع الملكية والجمهورية والجماهيرية المعدة منذ شهر، منذ طمأن التقدم الإسرائيلي خطباءنا الرسميين إلى مسافة الغزو المقترح، المبارك بصمت جليل، لحماية أمن الجليل من مدى الشوق المسلح الذي يحمله أبناء الجليل إلى أرض الجليل.

هل كان هنا منذ قليل؟ هل خرج من هنا؟

رأيت أحد مرافقيه الذين لا يكذبون عليَّ، فازددت قلقاً. همس في أذني: إنه ليس هنا. لقد غادر المكان، وأضاف: وعليك أنت أيضاً أن تغادر فوراً، هذا الزحام يغري صيادي الجو بغارة أخرى..

كان هذا الشاب هو الذي عثر عليَّ، قبل أيام، في أحد المكاتب وهمس في أذني: تعال معي! فهمت الإشارة، ولم أسأل إلى أين أنا ذاهب. توقعت كل شيء إلّا أن أجد نفسي، وجهاً لوجه، أمام هذا الرجل ذي الملامح الألمانية جالساً مع القائد. قال لي:

هل تتذكرني.. أنا أوري. غضبت. ولكنني قلت مازحاً: ماذا.. هل دخلتم بيروت، أم وقعت في الأسر؟ قال: لا هذا ولا ذاك، جئت من الأشرفية لأجري مقابلة صحافية مع السيد عرفات. غضبت أكثر ولم أعلق. بيروت مليئة بمندوبي كل الصحف العالمية. أَمِنَ الضروري أن يجري هذا الحوار مع هذا الصحافي في هذا الوقت؟ لكل مقام مقال. وهذا المقام ليس لهذا المقال. ولكن لعرفات نظرة أخرى إلى الإعلام. فربما أراد إن يوصل رسالة مباشرة، وربما أراد أن يُمَرِّغ بيغن في مزيد من الجنون. كان أبو عمار أهدأ من الرسالة التي شاء إبلاغها للرأي العام الإسرائيلي المضطرب. حين سأله الصحافي إلى أين سيخرج حين يخرج من بيروت؟ أجاب بلا تردد: سأذهب إلى بلادي. سأذهب إلى القدس. لم أتأثر بهذه اللغة بقدر ما تأثر بها الإسرائيلي واغرورقت عيناه بدموع الخجل. وأضاف أبو عمار: لِمَ لا؟ لمَ لا أذهب إلى بلادي؟ لماذا يحق لك أن تذهب إلى بلادي ولا يحق لي أن أذهب إلى بلادي؟ ساد صمت، وانقطع الحوار. ازدادت المصورة ومساعدة الصحافي، تحديقاً بوجه العدو الأسطوري. سألتني إحداهما: أين كوفيته الشهيرة؟ قلت لها: في كل مكان. ولكنه يرتدي الآن القبعة العسكرية لأنه يحارب. ازدادت التصاقاً به. فقلت هل أعجبك الرجل؟ إنه عازب. قالت: أعجبني كثيراً...

أما أنا، فلم تعجبني المقابلة، ولا خِفَّةُ صاحب الشقة الذي زج بأفراد عائلته في عدسة الكاميرا الإسرائيلية لا لشيء.. إلّا ليرى أهله هناك صورة سعادته هنا! قلت لنفسي: من واجبنا أن نعرف

لمن نشتاق: للبلاد، أم لصورتنا خارج البلاد، أم لصورة شوقنا للبلاد داخل البلاد!

□ □ □

أين «س» ديك الحي الفصيح؟ عاشق المسدسات، واللغة، واللحم المُعلن. لم أره منذ يومين. هل وجد طعاماً وماء؟ كان هذا هاجسي. ومنذ تبنيته كان نادراً ما يتكلم معي حين نكون وحيدين فلعله صدّق أني أبوه. ترك الحي الذي كان يسكنه قبل الحصار وجاء إلى هنا ليقيم مع شاب لبناني سرياني الأصل. أين السرياني وأين الكردي؟ تصادقا منذ اليوم الأول للحصار. أحدهما متوتر كعضلة وثانيهما بارد كقمر، كان «س» يبحث عن «ج» وكان «ج» يبحث عن اختفاء يوحي بأنه شهيد. وحين يلتقيان يشتم أحدهما الآخر، ثم يخرجان إلى شوارع الحمراء، مدججين بكامل السلاح والامتلاء، كأنهما يحرسان الهواء من الاختراق ومن ثورة مضادة. أحببت «س» منذ التقيته من سنين، مستنفراً ضد مجهول. يخجل من الكلام ولا يتدخل فيه إلّا ليتوتر. حاسم صارم ولا يساوم على شيء أو رأي. لا يقول إلّا للورق الموضوع على وسادة ما فيه من عالم عجائبي، فنتازي، مترع بالفصاحة. ولا أعرف حتى الآن متى يبدأ فيه الروائي، السارد، ومتى ينتهي الشاعر. صفع الحياة الثقافية البيروتية بانفجار مفاجيء. ولكنه يدافع عن كتابته بقبضته وشراسته، لأنه لا يؤمن بالحوار بين المثقفين ويعدّه ثرثرة. يأخذ مسدسه وعضلاته المزهوة ويذهب إلى المقهى المناسب ليتربص بصغار النقاد في الصفحات

الثقافية ويؤدبهم على ما كتبوا ضده. قلت له ذات مرة: هكذا كان يفعل فلاديمير ماياكوفسكي بنقاده في شارع غوركي. قال: هذا هو نقد النقد الوحيد. كان «س» مبتهجاً بالحرب، ففيها يتجلى مكبوتُ عنفه ويحالف الفوضى. فيها يطلق أعنة جياده ويشهر حوافر نشيد لا غبار حوله سوى الرصاص. وفيها يعود إلى عصور الجبال البعيدة، وإلى نايات ترقُّص البعيد، وإلى الفرسان وقرقعة الخيلاء، وبهاء الفتوة الأولى. وباختصار: فيها يجد ميدان الرياح التي تمتشقه سيفاً طازجاً للمبارزة مع أعداء مَرّوا. ولا يفهم.. لا يفهم أبداً لماذا يكتب الكُتَّاب في الحرب. من يأبه بهم في لحظة القوة؟ يضرب على مسدسه ويتوعد: سننتصر.. سنعفر أنوفهم في التراب. لم يكن يعرف إن كان سينتصر حقاً أم لا، فهو وَلَد المعارك الخاسرة. وَلَد ضد الحساب. ما يهمه هو التحدي والمبارزة. كان «س» يقف في منطقة وسطى بين دون كيشوت وسانشو، يحيل الأعداء إلى نماذج في متناول اليد. يمتلىء حماسة فيتكور ويستطيل ويتوتر ويضرب أي شيء ثم يسلط على نفسه حكمة «ج» المتروي، الباحث عن الفلسفة في الشعر والمعادي للغنائية. ووجد «س» «ذات الجمال المنقطع النظير» في غياب الماء واللحم والنساء.. احذر يا «س» فهي من صناعة جدك دون كيشوت، من سلالة السحالي التي تظهر في القيظ والهجير، في أخاديد النفس المتشققة من العطش. وصوتها صوت النبات اليابس في برية الأَطلال. لكنه قطع شوطاً، لا تراجع عنه، في عملية الإِحالة الذاتية المقطوعة عن حقيقتها، وتوغل في الملهاة، ليحقق ما

ينقص الفروسية: امرأة! أين «س» الآن؟ هل اصطادته الشظايا، أم اصطاد ليهديها إلى «ذات الجمال المنقطع النظير»؟

□ □ □

القنبلة الفراغية. هيروشيما. مطاردة رجل بالطائرات. فلول الجيش النازي في برلين. احتدام الخلاف الشخصي بين بيغن ونبوخذنصر. عناوين تخلط الماضي بالحاضر. وتدفع الحاضر إلى الهرولة. غد يباع في أوراق اليانصيب. قدر إغريقي يتربص بأبطال صغار. تاريخ مشاع، لا أهل له، مفتوح لمن شاء أن يرث. في هذا اليوم، في ذكرى قنبلة هيروشيما يجرّبون القنبلة الفراغية في لحمنا. تنجح التجربة..

أتذكر من هيروشيما المحاولة الأميركية لدفع هيروشيما إلى نسيان اسمها. وأعرف هيروشيما، زرتها منذ تسع سنين. وفي إحدى ساحاتها تكلمت عن ذاكرتها. من يُذَكِّر هيروشيما بأن هيروشيما كانت هنا. سألتني المترجمة اليابانية إن كنت قد شاهدت الشريط السينمائي الشهير. قلت: وفي وسعي أن أحب امرأة من سدوم، لأحب، أو لألعب. في وسعي أن أحب جسداً يقتلني حُرّاسه خلف النافذة. قالت: لا أفهم. قلت: هي خواطر شعرية.. ولكن أين هيروشيما؟ قالت: هيروشيما هنا. أنت في هيروشيما. قلت: لا أراها فكيف غطيتم اسم جسدها بالأزهار؟ ألأَن الطيار الأميركي بكى فيما بعد، ضغط على زر صغير ولم يرَ إلّا سحابة. وحين رأى الصور، فيما بعد، بكى. قالت: تلك هي الحياة.

قلت: ولكن أميركا لم تبكِ ولم تغضب على نفسها. غضبتْ من التوازن. هيروشيما غداً.. هيروشيما هي الغد.

لا شيء في متحف الجريمة يدل على اسم القاتل: من هنا جاءت الطائرة، من قاعدة ما في الباسفيك. تواطؤ أم خنوع؟ أما الضحية فلا تحتاج إلى أسماء: هياكل بشرية مجردة من ورق الشجر، أغصان عظيمة للشكل، أشكال للشكل. بعض الجدائل الدالة على امرأة كانت هناك. كتابات على الجدران تشرح درجات التدرج في القتل: من الحريق، إلى الدخان، إلى السموم، إلى الإشعاع. تدريبات أولى على قتل كوني أشمل. تخطيط أولي للنهاية. هكذا تبدو الآن «ثروة» قنبلة هيروشيما التدميرية، سلاحاً ذرياً بدائياً، يسمح للخيال العلمي بأن يكتب سيناريو لنهاية العالم: انفجار هائل، انفجار عظيم، يشبه بداية تكون الكرة الأرضية، بفوضاها المنظمة: جبال، وديان، سهول، صحارى، أنهار، بحار، منحدرات، بحيرات، تجاعيد، صخور، وما يتبعه من تنوعات جميلة في أرض تمجدها المدائح الشعرية والصلوات الدينية. بعد الانفجار العظيم يشب حريق هائل يلتهم ما يستطيع التهامه من طعام النار: البشر والشجر والحجر، والمواد القابلة للاحتراق، ينتج دخاناً كثيفاً يحجب الشمس إلى أيام فتبكي السماء مطراً أسود يسمم كل شيء حي، يسمونه المطر النووي. تبرد الأرض وتعود إلى عصرها الجليدي الأول. وفي مرحلة الانتقال السريع من هذا العصر إلى العصر الجليدي لن يبقى حياً إلّا الجرذان وبعض أنواع الحشرات. يصحو الجرذ، ذات صباح،

ليجد نفسه إنساناً يحكم الأرض. كافكا مقلوب. وأنا أسأل: أيهما أقسى: أن يصحو الإنسان ليجد نفسه حشرة ضخمة، أم: تصحو الحشرة فتجد نفسها إنساناً يلعب بالقنبلة النووية وقد حسبها كرة قدم!..

سماء بيروت قُبّة كبيرة من صفيح داكن. الظهيرة المطبقة تنشر رخاوتها في العظام. الأفق لوح من الرمادي الواضح لا يلونه سوى عبث الطائرات. سماء من هيروشيما. في وسعي أن أتناول طبشورة وأكتب على اللوح ما أشاء من أسماء وتعليقات. اجتذبتني الخاطرة: ماذا سأكتب لو صعدت إلى سطح بناية عالية: «لن يمروا»؟ كتبوها. «تموت ليحيا الوطن»؟ كتبوها. هيروشيما؟ كتبوها. طاشت الحروف كلها من ذاكرتي ومن أصابعي. نسيت الأبجدية. لم أتذكر غير حروف خمسة: ب ي ر و ت.

□ □ □

جئت إلى بيروت منذ أربع وثلاثين سنة. كنت في السادسة من عمري. وضعوا على رأسي قبعةً وتركوني في ساحة البرج. كان فيها ترام. ركبت في الترام. سار الترام على خَطّي حديد متوازيين. صعد إلى ما لا أعرف. صعد على خطّي الحديد وسار. سار الترام. لم أعرف أيهما يُسَيِّر هذه اللعبة الكبيرة ذات الجلبة: خط الحديد الممدود على الأرض، أم العجلات الدائرة على خط الحديد. نظرت من نافذة الترام رأيت بنايات كثيرة، فيها نوافذ كثيرة، تطل منها عيون كثيرة، ورأيت أشجاراً كثيرة. الترام يسير

والبنايات تسير والأشجار تسير. كل شيء حول الترام يسير عندما يسير الترام. عاد الترام إلى المكان الذي وضعوا فيه قبعةً على رأسي. تلقفني جدي بلهفة. وضعني في سيارة وذهبنا إلى الدامور. الدامور أصغر من بيروت وأجمل من بيروت، لأن فيها بحراً أكبر، ولكن ليس فيها ترام. خذوني إلى الترام، فأخذوني إلى الترام. ولا أذكر من الدامور غير البحر وبساتين الموز. ما أكبر أوراق الموز.. ما أكبرها! والزهور الحمراء المتسلقة على جدران البيوت. وحين جئت إلى بيروت، مرة أخرى، قبل عشر سنين، كان أول شيء فعلته هو أنني أوقفت سيارة تاكسي وقلت للسائق: خذني إلى الدامور. كنت قادماً من القاهرة، وكنت أفتش عن خطى صغيرة لولد مشى خطى لا تليق بعمره، خطى أكبر منه ومن قدميه. عمَّ كنت أبحث: عن الخطى أم عن الولد؟ أم عن أهل قطعوا البرية الوعرة ليصلوا إلى ما لم يجدوا، كما لم يجد كافا في إيتَكَاه؟ كان البحر في مكانه. كان يدفع الدامور شرقاً لتصير أكبر. وصرت أنا أكبر. صرت شاعراً يبحث عن ولد كان فيه، تركه في مكان ما ونسيه. الشاعر يكبر ولا يسمح للولد المنسي بأن يكبر. هنا قطفت الصور الأولى. وهنا تعلمت الدروس الأولى. وهنا قبّلتني صاحبة البستان، وهنا سرقت الورد الأول. وهنا كان جدي ينتظر العودة في الجرائد ولا يعود. جئنا من قرى الجليل. نمنا ليلة قرب بركة رميش القذرة، قرب الخنازير والأبقار. وفي الصباح التالي سرنا شمالاً. قطفت التوت من صور. ثم استقر بنا الرحيل في جزّين. لم أر الثلج من قبل. كانت جزين

مزرعة للثلج وكان فيها شلال. لم أر الشلام من قبل. ولم أعرف، من قبل، أن التفاح يتدلى من أغصان الشجر، كنت أحسبه ينبت في الصناديق. نحمل السلال القصبية الصغيرة ونختار التفاح من الشجر. أريد هذه الحبة. وأريد تلك الحبة. آخذها وأغسلها في جداول المياه الهابطة من سفح الجبل إلى مجاريها الصغيرة بين البيوت الصغيرة المتوجة بالقرميد. وفي الشتاء لم نتحمل برودة الرياح اللاذعة فرحلنا إلى الدامور. غروب الشمس يسرق الوقت من الوقت. والبحر يتلوّى كأجساد العاشقات ليرفع صرخته في الليل وللليل. ذهب الولد إلى أهله هناك في البعيد، في بعيدٍ لم يجده هناك في البعيد. مات جدي وهو يحدق في تراب محبوس خلف سياج. في تراب غيّروا جلده من قمح وسمسم وذرة وبطيخ أحمر وأصفر إلى تفّاح خشن. مات جدي وهو يَعُد الغياب والمواسم ودقات القلب على أصابع يدين يابستين. سقط كالثمر المحروم من غصن يسند إليه عمره. لقد خربوا قلبه. تعب من الانتظار هنا في الدامور. ودع أصدقاءه، وأرجيلته، وأبناءه، وأخذني وعاد ليجد ما لم يجد هناك. وهنا كثر الغرباء واتسعت مخيماتهم. مرت حرب.. حربان.. ثلاث.. أربع، وازداد الوطن ابتعاداً عنهم، وازداد الأَطفال ابتعاداً عن حليب أمهاتهم بعدما شربوا حليب وكالة الغوث. فاشتروا بنادق ليقربوا البلاد الهاربة من أيديهم. أعادوا هويتهم، وأعادوا تركيب الوطن من جديد، وساروا على الطريق فاعترضهم حُرَّاسُ الحروب الأهلية، فدافعوا عن خطاهم، فخرج الطريقُ عن الطريق. وسكن

اليتيم جلد اليتيم، ودخل المخيم في المخيم.

□ □ □

لا أستطيع أن أحفر اسمي على حجر في الدامور، حتى لو كانت متراساً لقناصة أرادوا روحي. لا أستطيع ولا أستطيع. فلتبعدوا هذا الـمُصَوِّر عن وجه الحجر. أبعدوا هذا الخطاب عن بحرٍ ما زال جالساً على مكانه. ولا أستطيع أن أرفع شهيدي على كتف جثة معلّقة على أغصان الموز.. لا أستطيع. «الحرب هي الحرب» ليست لغتي. لن أقرأ شعراً في الدامور. و«ما العمل تجاه ما يقطع المخيم عن المخيم» ليس سؤالي.. ليس سؤالي أبداً أن أحفر اسمي على حجر في الدامور، لأني أبحث عن ولد، ولا أبحث هنا عن بلد.

□ □ □

وفي أنقاض الدامور، وجد أبناء الشهداء والناجون من «تل الزعتر» ملجأ آخر في سلسلة الملاجىء المتنقلة. حملوا التعب والخيبة وما نسيت أن تقطعه السكاكين من أجسادهم وجاءوا إلى الدامور. جاءوا يبحثون للنوم عن متر مفتوح للريح والأَناشيد. ولكن ما نسيت أن تفعله الخناجر البدائية فعلته الطائرات الحديثة التي لا تتوقف عن قصف هذا البقاء البشري. إلى أين؟ إلى أين؟ من مذبحة إلى مجزرة يُساق شعبي ويتناسل في محطّات الأَنقاض، ويرفع شارة النصر، ويرفع الأَعراس.

ألِلْقذيفة أحفاد؟.. نحن

أَلِلشظيّة أجداد؟.. نحن

ومنذ عشر سنين أقيم في بيروت، في مُؤقت من أسمنت، أحاول أن أفهم بيروت فأزداد جهلاً بنفسي. أهي مدينة أم قناع؟ منفى أم نشيد؟ سرعان ما تنتهي، وسرعان ما تبدأ. والعكس أيضاً صحيح.

في المدن الأخرى تستند الذاكرة إلى ورقة. تجلس في ساعة انتظار، في فراغ أبيض، فتهبط عليك فكرة زائرة. تصطادها لئلا تهرب منك، وحين تمضي الأيام وتراها تتعرف إلى مصدرها، فتشكر المدينة التي وهبتك تلك الهدية. أما في بيروت فإنك تسيل وتتبعثر. الإناء الوحيد هو الماء. تأخذ الذاكرة شكل فوضى المدينة، وتدخل في كلام يُنسيك الكلام السابق..

ونادراً ما تلاحظ أن بيروت جميلة..

ونادراً ما تحتاج فيها إلى التمييز بين المبنى والمعنى..

ولا تكون جديدة، ولا تكون قديمة..

وحين يسألونك: هل تحبها؟ يفاجئك السؤال فتتساءل: لماذا لم أنتبه؟ أأُحبها؟ ثم تبحث عن عاطفة محددة لها، فتُصاب بدوار أو خَدَر. ونادراً ما تحتاج إلى التأكد من أنك في بيروت، لأنك موجود فيها بلا دليل، وهي موجودة فيك بلا برهان، وتذكر أن مثل هذا السؤال في القاهرة ينتهي بالخروج إلى الشرفة للتأكد من وجود النيل. إذا رأيت النيل فهذا يعني أنك في القاهرة. أما هنا،

فإن صوت الرصاص هو الذي يدل على بيروت. صوت الرصاص أو صراخ الشعارات على الجدران.

هل هي مدينة، أم مخيم شوارع عربية وضعت بلا ترتيب، أم هي شيء آخر: حالة، فكرة، إحالة، زهرة خارجة من نص، فتاة تربك المخيلة؟

ألهذا السبب لا يستطيع أحد أن يؤلف أغنية بيروت؟

كم تبدو سهلة؟

وكم تبدو مستعصية على تجانس المفردات المتجانسة الإِيقاع والقافية: بيروت. ياقوت. تابوت..

أم لأَنها تقدم نفسها لعابر السبيل الذي، وحَده، يشعر بأنها بهجته الخاصة. ووحدهم أصحابها وأصحاب الأَسماء المنسية هم المحرومون من دهش يدهش الآخرين.

أنا لا أعرف بيروت. ولا أعرف إن كنت أحبها أم لا أحبها..

للسياسي المهاجر كرسي لا يتغير ولا يتبدل. وبتعبير أدق: للكرسي سياسي مهاجر لا يغيره..

وللتاجر المهاجر فرصة التأكد من أن ريح الخمسينيات التي وعدت فقراء العرب بشيء ما، لن تمر من هنا..

وللكاتب الذي ضاقت به بلاده أو ضاق بها الحرية في أن يعتقد أنه حر، دون أن يعلم في أية جبهة يحارب..

وللشاعر السابق إمكانية الحصول على مُسدس وحارس ومال. فيتحول إلى زعيم عصابة يغتال ناقداً ويرشو آخر..

وللفتاة المحافظة القدرةُ على إخفاء الحجاب في حقيبة يدها على سُلم الطائرة، والاختفاء مع عشيقها في فندق..

وللمهرب أن يهرِّب.

وللفقير أن يزداد فقراً.

ولكل قادم إلى بيروت بيروته الخاصة به، ولا نعرف ولا أحد يعرف إلى أي حدّ يشكل مجموع هذه المدن مدينة بيروت التي لا يبكي عليها الباكون، ولكنهم على ذكرياتهم أو مصالحهم الخاصة يبكون..

ربما في هذه الطريقة، الطريقة التي بحث بها العربي عما ينقصه في بلاده، تحوّل لقاء الأَضداد إلى هذه التسمية الغامضة، وإلى رئة يتنفس منها نفر من البشر، بينهم القاتل والقتيل، الأمر الذي جعل بيروت غناء الفوارق والفروق، دون أن يسأل الكثيرون من العشاق هل هم في بيروت أم هم في أحلامهم.

أما بيروت فلا أحد يعرفها. ولا أحد يبحث عنها. ولعلّها ليست هنا أبداً. وفي الحرب فقط عرف الجميع أنهم لا يعرفونها. وعرفت بيروت أنها ليست مدينة واحدة، ولا وطناً واحداً، وأنها ليست بلاداً متجاورة، وأن ما بين هذه النافذة والنافذة المقابلة من التناقض ما يفوق التناقض بيننا وبين واشنطن، وأن التناحر بين هذا

الشارع والشارع الموازي يفوق التناحر بين الصهيوني والقومي العربي.

وفي الحرب فقط أدرك المقاتلون أن سلام بيروت مع بيروت مستحيل.

وفي الهدنة فقط أدرك المقاتلون والمراقبون أن هذه الحرب لا نهاية لها، وأن النصر فيها ــ خارج توازن الهزيمة ــ مستحيل.

ولعل الجميع أدركوا أن لا بيروت في بيروت. فهذه السيدة الجالسة على حجر صورة لزهرة عباد الشمس تتبع ما ليس لها، وتجر عشاقها وأعداءها، على السواء، إلى دورة خداع البصر، فتكون لهم أو عليهم، ولا تكون لهم أو عليهم.

إنها شكل لشكل لم يتشكل، لأَن الحرب فيها ــ أعني حولها ــ سجال. ولأن الثابت فيها هو المتغير، ولأَن الدائم فيها هو المؤقت.

أو: خذ موجة. أجلسها على صخرة الروشة. فكك عناصرها، فلن تجد غير يديك غارقتين في لعبة سحر لا تنتهي ولا تبدأ.

سؤال: هل هي مرآة؟

جواب: بقدر ما تصلح الموجة لأن تكون حجراً..

سؤال: هل هي طريق؟

جواب: بقدر ما تكون القصيدة شارعاً..

سؤال: هل تكذب؟

جواب: عندما يُصَدِّقُ ما لا يُصَدَّق..

وفي الحرب الطويلة كانت واضحة. كان يبدو لي أن هذه الوجوه كالتي تدخل المرآة سترى ما لم تر خارج الدم والحريق، وتغير مصادر انعكاسها. وكان يبدو لي أن بيروت تستطيع أن تكون جزيرة في الماء أو الصحراء. وكان يبدو لي أن القبائل المتحلقة حول رقصة النار ستنتقل من السلالة إلى الوطن. وأن الوطن سيدخل في الأُمة. وأن الأُمة ستكتشف بدهية شرط حياتها، كأن تعرف من هو العدو، وأين هو العدو. وكان يبدو لي أن هؤلاء الشهداء، وهذه اللغة الجديدة، وهذا الرماد العظيم سيخلق لنا ــ على الأقل ــ علامة. وأن بداية التغيير قد بدأت، وأن الصدفة الإقليمية قد انكسرت وأطلت منها لؤلؤة الجوهر.

وكان يبدو لي.. وكان يبدو لي..

ولكن العصفور الذي انبثق من دم بيروت ووعودها صار يتساءل: هل أنا في فضاء أم في قفص؟

أمرّ الآن في بيروت. في ربيع ١٩٨٠، فأرى قفصاً مصنوعاً من ريش جناحيّ. غنائي يثير السخرية. وصرتُ الغريب الوحيد.

ــ هل أخطأت؟

ــ كثيراً.

ــ اخرج من هنا.

ــ هل انتهت الحرب؟

ـ عاد جميع الغزاة، وولد الوطن من جديد.

ـ إلى أين أعود؟

ـ إلى بلادك.

ـ أين بلادي؟

ـ في الأمة.

ـ وفلسطين؟

ـ ابتلعها السلام.

وصرت الغريب الوحيد. ماذا أفعل في باريس؟ ماذا تفعل في بيروت. إلى متى أبقى في لندن؟ إلى متى تبقى في بيروت.

قل لي: ماذا جرى لبيروت؟

قال: صارت قوية.

قلت: هل انتصرت فيها العروبة أم...؟

قال: لا هذه ولا تلك. انتصرت فيها رياح المنطقة، لأنها لا تستطيع أن تكون جزيرة في الماء أو واحة في الصحراء. عد من حيث أتيت لأَن الشارع يرفضك.

وصرت الغريب الوحيد. كم أكتم شكواي: لماذا يكون الوطن اللبناني منافياً لفلسطين؟ لماذا يصير الرغيف المصري منافياً لفلسطين؟ ولماذا يصبح السقف السوري منافياً لفلسطين؟ ولماذا تكون فلسطين منافيةً لفلسطين.

كم أنا غريب هنا، في ربيع ١٩٨٠، الهواء ينذر بشيء ما، وطريق المطار ينذر بشيء ما، والبحر ينذر. وصرت الغريب الوحيد.

... وعلى الجدران، تقضم الأَعلام الرسمية مزيداً من صور الشهداء، ومن الكلمات التي كانت تنشئ تماسك الوطن على علامات الطريق الجديدة. بيروت مرت من هنا. بيروت مرت من هنا. بحثتُ عن طفلة الجنوب التي أكلت بطاقة هويتها الرسمية، فوجدتها تتدرب على النشيد الرسمي، وتنتظر المصفحة التي تحمل إليها العيد..

إنه الوطن ..

بيروت مكللة بأدوات الزينة والخطابة والمراسيم التي تمردت عليها بيروت حين مرت من هنا. صارت العودة إلى الفوارق التي أشعلت حرب السنوات الأربع أمنيةً واحدة. وعادت بيروت وطن اللغة التي ثارت عليها. لمَ لا؟ لمَ لا؟ لمَ لا؟ والسلام يخيم، فجأة، على الجنوب لولا مواقع يربطها بفلسطين خيط من دم.. السلام يخيّم على الجنوب لولا فلسطين..

ورأيت بيروت تبكي الجنوب. أعني رأيت المثقفين والرسميين يبكون الجنوب. فجأة تذكروا أن بيروت عاصمة لبنان، وأن الجنوب من لبنان. وتذكرت كيف كانوا ينسون الجنوب حين كانت الطائرات تشوي الجنوب. قبل تأسيس دولة حدّاد، كانوا يجلسون في المقاهي، يشربون البيرة، ويشفقون على عذاب بيافرا. يومها كان مفهوم الوطن يزعج الإسرائيلي الذي لا يعترف بوطن

على الحدود. يومها كان الوطن يعني الواجب. وكان الواجب يعني حماية الجنوب من الطائرات والدبابات الإسرائيلية. يومها لم يكن الوطن في حاجة إلى وطن.

ــ ماذا تغير يا صديقي؟

ــ البنايات الفخمة ملأى بالمهاجرين من الجنوب، والمهاجرون لا يدفعون الأجرة..

ــ وماذا تغير يا صديقي؟

الوجع الجديد يطرد الوجع القديم. والمشكلة الجديدة تزيح المشكلة القديمة. وأنت الغريب الأخير.

الأسئلة تثير سخرية بيروت الباحثة عن توازن جديد للتوازن القديم، وعن وطن قديم للوطن الجديد. التيارات تبحث عن الصدفات التي خرجت منها. وليس من حق أحد أن يلومها إلّا بقدر ما كان من حقه أن يصدق ما صدق. يُقال إن حرب الوعود انتهت وبدأ بناء السلطة. ولم تعد المرآة تعكس إلّا ما هو أمامها.

وهذا الفضاء قفص ...

□ □ □

... وماذا أيضاً، عليك أن تكون أبيض، فهنالك ما هو أغلى من الحرية، ومن الحياة...

ما هو؟

البياض

.. «ويقول علماء التاريخ الطبيعي أن السمّور حيوان صغير ذو فراء أبيض، شديد البياض. وإذا أراد الصيادون صيده يستخدمون هذه الحيلة: يلاحظون المسالك التي يعتاد المرور بها، ويضعون فيها الطين ثم يأخذون في مطاردته. وحين يصل السمّور إلى المكان الذي وسخه الطين يتوقف دفعة واحدة، ويفضل أن يُصطاد ويُقتل على أن يمرّ في الطين، ويوسِّخ بياض فرائه، لأنه يُفَضِّل البياض على الحرية وعلى الحياة».

سرفانتس [في حكاية المستطلع الفاسد الرأي]

□ □ □

وانقلب الصمت، صمت المتفرجين، إلى ملل. متى ينكسر البطل؟ متى ينكسر ليكسر تتابع الخارق إلى مألوف. البطولة أيضاً تدعو إلى الضجر عندما يطول المشهد فتخف النشوة. ألم يُدفع موضوع هذه البطولة ذاته إلى موقع الضجر ليكون هو ذاته مصدراً للضجر في سياق حياة تبحث عن حياتها العادية الخالية من الرسائل والهتاف، ليشهر الحاكم أمامها أسباب التعاسة: فلسطين المسؤولة عن انقراض القمح في الحقول، وعن ازدهار العمران المكلّل بالسجون، وتحويل الزراعة إلى صناعة لا تنتج غير بطون الفئة الجديدة، محدثة النعمة، بهموم الاستهلاك الفردي الذي يثقل الدولة بديون يحتاج المواطن إلى أن يعيش عمره مرتين ليسددها؟ لقد جربت مصر هذه الغبطة. وعدها سراب السلام بتحرير الرغيف من ضرائب فلسطين، وبعودة الشهداء إلى أهلهم سالمين،

وبوجبة فول أفضل. فازدهرت الكماليات، وامتدت سنوات الخطوبة إلى أجل غير مسمى ريثما يتم العثور المستحيل على عش زواج، وازداد الجوعى جوعاً. ووضع السادات كل من تساءل أين ثمن السلام؟ في السجن حتى خرج من صفوف حراسه فتى يطلق الرصاص على فرعون، وعلى هذا السلام، وعلى هذا السراب. والآخرون؟ الآخرون استخلصوا العبرة واستغنوا عن شبق السادات أمام الخطاب وشيّدوا، بمنهجية ومثابرة، سلام الأَمر الواقع المشروط بربط المعدة العربية بشروط الرضا الأميركي. وضعوا المعدة العربية رهينة، وأشهروا الحرب، بالسلاح وبالصمت، على موضوع البطولة. وانتظروا بقليل من الحرج، أن يحرق الإسرائيليون، نيابة عن الجميع، مسرح هذه البطولة ومنصة هذا الخطاب البديل. البطولة أيضاً تدعو إلى الضجر. كفى. واختلفوا في طريقة تسويق الضجر: بعضهم يدعو إلى انتظار مرحلة تاريخية تنقلب فيها موازين القوى، بعصا سحرية خارجية، إلى مصلحتنا، مما يوفر لنا حق الكلام في الحرب أو السلام. وبعضهم يستعجل النهاية وينصحنا بالرحيل على سفن أميركية، بلا شروط وبلا مماطلة. وبعضهم يستعجل النهاية أيضاً بدعوتنا إلى الانتحار الجماعي ليستولي هو على مسرحه وعلى مسرحنا. كفى، إلى متى يصمدون؟ فإما إن يموتوا وإما أن يخرجوا! إلى متى يخدشون أمسيات العرب بجثث تقطع تسلسل المسلسل الأميركي؟ إلى متى يحاربون ونحن في عزّ الإجازة والمونديال وتربية الضفادع؟ فليفتحوا الطريق أمام شهواتنا وعارنا. لتتوقف هذه الملهاة. أما

حكماؤهم، المجلّلون بلياقة التعاطف، فإنهم يقدمون للضجر مظهراً أبهى: آن لهم أن يعرفوا أن لا أمل.. لا أمل يرتجى من العرب. أمة لا تستحق الحياة. أمة على صورة حكّامها. وهذه معركة يائسة فليدخروا دمهم لتاريخ آخر.

صمت مُكَلَّل بكل ما يفرغ التاريخ من أنخاب. أحصنة تزيينية على حقول ألفت مواسم الغزو. وخطاب واحد يشتهي اغتراب الكلمات عما وراءها. خطاب واحد يعدد الصدأ المتراكم على الكلام منذ استوى الخطيب على عرش المنبر. خطاب واحد يلقيه المنقسمون على أنفسهم، المقتتلون على خطاب. أمن حق مدينة، في هذا الحجم، وفي هذه الفوضى، أن تمنح الوقت اسماً مختلفاً؟ أمن حقها أن تخربش فوق اللوحة المكتملة اللون؟ أمن حقها أن تقترب من سياج الصراع المحكم التسييج؟ وتضع قواعد أخرى لجيران العدو ــ هذه هي أسماؤهم وألقابهم: جيران العدو. إذن «الموت لبيروت» يعنون: الموت لهذا الشارع الأخير الخارج عن هندسة الطاعة.

ضجروا، ضجروا. لقد طالت المهلة المحددة لسقوط المعنى الأخير، المتدلي كالثمرة الناضجة من نخلة العرب اليابسة. المتدلي لمن يرث ليدفن لا ليعلن جدوى التراكم. متى يوقفون الجنون؟ متى يرحلون؟ ومتى يدخلون في تشابه الرمل؟ متى يسقطون مثلنا، مع الاحتفاظ بفارق معافى هو أننا نسقط على عرش، من الهزائم المدوية إلى العرش، وهم يسقطون على نعش، من البطولة إلى النعش..

وفي جعبة الضجر ما يشبه الحكمة: نحن، نحن الذين نختار زمان المعركة ومكانها ونتائجها. ولن نستخدم هذا السلاح إلّا وقت الشدة. من يعرف وقت الشدة، من أين تأتي الشدة في هذا الرخاء المرفّه؟ هم يعرفون أكثر مما نعرف. قد تأتي من حي أو شارع يغضب. ولكن، من يُغضب هذا الشارع الذي أدمَنّا هجاء حراسه وتبرئته من غياب الحماسة لنبرىء الأمل من داء عضال؟ أما من أحَد، في هذه القارة، يقول: لا. أما من أحد؟

ما من أحد..

وزراء الدفاع كانوا يتلهون بفقاعات الشمبانيا، مع القتلة، كلما جاءهم خبر عن تضييق الخناق على تل الزعتر. فبماذا يتلهون الآن أثناء تضييق الخناق على بيروت؟ لقد رأينا صورهم على أحواض السباحة. أليس شهر آب حاراً؟ ورأينا تعب حراسهم المدججين بالبنادق وهم يرفعون ابتسامات أسيادهم السائلة حتى الركبتين في محاولة لإعادتها إلى الأَفواه المفتوحة سالمة.. سالمة من عيون المارة ومن حصار بيروت..

ولكنني لا أغضب، كما يغضب غيري، من المظاهرات العربية الصاخبة التي خرجت تحتج على حكم منحاز في مباريات كرة القدم، لا لأن كرة القدم تلهب الحماسة أكثر من هذا الصمود الطويل في بيروت، بل لأن المكبوت العربي، المتعدد المصادر، قد عثر على نقطة الانفجار في المتاح العربي. ووجد فرصة التعبير الممكن عن غضب مزمن في حرب لا تهدد الوطن مادياً، في حرب معنويات تنتهي إلى هدنة أكيدة بعد خمس وأربعين دقيقة،

يعيد خلالها المتحاربون توزيع صفوفهم وتعديل خططهم الهجومية والدفاعية، ويتزوّدون بما يحتاجون إليه من ذخيرة معنوية ونجدة شعبية، ثم يعودون إلى القتال تحت إشراف قوات دولية لا تسمح باستخدام الأسلحة المحرَّمة دولياً. وتنتهي الحرب المحدودة، المسيطر عليها، في ساحة المعركة وخارجها ولا تتجاوزها إلى حدود البلدين، باستثناء حالات نادرة كما حدث بين السلفادور وهندوراس. ولكن التوازن الدولي الدقيق، الممثل في مجلس الأمن، تمكن من إصدار قرار قابل للتنفيذ!

ولأني أحب كرة القدم، لم أغضب كما غضب غيري من المفارقة. لا مظاهرة واحدة يثيرها حصار بيروت، بينما تثير كرة القدم هذه المظاهرات أثناء حصار بيروت. لمَ لا؟ إن كرة القدم هي ساحة التعبير التي يوفرها تواطؤ الحاكم والمحكوم في زنزانة الديموقراطية العربية المهددة بخنق سجنائها وسجّانيها معاً. هي فسحة تنفس تتيح للوطن أن يلتئم حول مشترك ما، حول إجماع ما، حول شيء ما، تضبط فيه حدود الأطراف وشروط العلاقة. مهما تسربت منها إيماءات ذكية، ومهما أسقط فيها المشاهد على اللعبة ما فيه من المعاني المضغوطة. وطن، أو شكل من تجليات روح الوطن يدافع عن كرامته، أو تفوقه، أمام الآخر، فلا يخسر توزيع القوى الداخلي شيئاً من تماسكه الظاهري. المتفرجون يستولون على أدوارهم نحو هدف واحد هو تصويب الهدف. والحاكم الذي عيّن نفسه مُعبّراً عن روح الأمة يعبر عن نصر هو نتاج سياسته الحكيمة، وتنشيط الإرادة والطاقات. لعله، وليس

اللاعب، هو الأقدر على التأويل لأنه هو صاحب الأمة وراعيها، وهو الذي ينفق من ماله الخاص على تشجيع الرياضة. ولكن الأمر ينقلب إلى عكسه حين تختلف النتيجة عن المنشود والمتوقع، حين ينهزم الوطن اللاعب أمام الآخر. عندها يتنصل الحاكم من الهزيمة ويحمّلها للأجهزة، لتاريخ التقاليد مرة، للمدرب مرة ثانية، لانتكاسة اللاعبين ــ المحاربين مرة ثالثة، ولانحياز عوامل خارجية متمثلة بالحَكَم مرة رابعة.

لا، ليس للهزيمة أب واحد. وفي السياسة، ليس من التقاليد العربية الحديثة معاقبة القائد على الهزيمة. إنه يدعو الشارع للعطف عليه، ولمواساته الجماعية المعبَّر عنها في دعوته إلى البقاء على العرش ليكيد الأعداء. أليس ما يريده الأعداء هو إسقاط الحاكم، ولتخليصنا من هذه النعمة؟ فلننتصر عليهم بالانتصار على أنفسنا وإبقاء الحاكم المهزوم جلاداً لنا.

ولكن الأمر يختلف في كرة القدم: في وسع الشارع أن يغضب على اللاعبين وعلى المدرب وعلى الحَكَم الأجنبي. اللاعبون خانوا روح الأمة، والمدرب أساء وضع الخطة. والحكَم منحاز. أما الحاكم فهو بريء من الهزيمة، لأنه مشغول بقضايا أكثر جدية. لذلك يرفع الشارع الغاضب صورة الحاكم عالية عالية، وينفذ من تحتها إلى حرية التعبير: يشتم الغرب كما يشاء، ويومىء إلى الداخل كما يشاء. هذا ما تبقى لنا من حرية، فهل نُفرِّط بها؟ وهذا ما تبقى لنا من متعة، فلنصفق لما يشير إلى العافية. الأمة في خير ما دامت قادرة على الحماسة. كرة القدم تقول لنا ذلك.

تقول إن العاطفة الجماعية لم تتبلَّد. وإن في مقدور الشارع أن يتحرك بلعبة لا تثير الضجر. ألم تحتل فلسطين، في ما مضى من حاضرنا، هذه المكانة، العاطفية الحماسية؟ ألم يتحرك كُل شيء باسمها، ولها، ومن أجلها؟

كل ما يصيب فلسطين يصيب الشارع العربي بعدوى الحزن والصخب والغضب. كان الشارع يُسقط الحاكم لأي مساس بهذا القلب الجماعي. الآن يتسابق الحُكَّام ليرشوا الشارع، ليدفعوه إلى التخلي عن هذا الإجماع. السلاح العربي الرسمي يتصدى، علانية للخطوة والفكرة الفلسطينيتين ويحمّلهما المسؤولية عن بؤس الأمة وعبوديتها. لولا فلسطين، البعيدة المنال، الوهمية، المتخيلة، المبكرة إلى موعدها البعيد، المتقدمة على الوحدة العربية، لولاها لكنا أكثر حرية وأوفر رخاء ورفاهية! هكذا يذيع الخطاب الرسمي شائعات الضجر. ولكن الشارع يعرف كيف يناور ويؤول ويستخدم الكناية، فإن السجون ليست شرطاً لتحرير فلسطين.. و«لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». لم يقدم غير معنى واحد: لا فلسطين، ولا معركة، ولا صوت. عاش السوط! لذلك كان سؤال الخبز والحرية يتسلل إلى سؤال التحرير المعصوم من العقاب، إلى أن فضح الحاكم اللعبة المؤوّلة، فحرم فلسطين وأخرجها من الملعب الوطني ليخرج السؤال الاجتماعي من كلمة سر الأمة..

هامش كرة القدم هو الهامش الفلسطيني السابق. فليغضب

الشارع، وليهرب سؤاله المكبوت إلى لعبة لا تثير الضجر، ولا تتيح للحاكم، حتى هذه اللحظة، أن يُغلق الملعب.

صمت مُتوّج بأوهام القادرين، إلى الآن، على تقسيم الجهات إلى جهتين، والألوان إلى لونين.

صمت مُكلَّل بأوهام القادرين على انتظار النجدة. صمت مُرصَّع بذهب الأمل القادم من خارج هذه الساحة. صمت الذين يقودون بالجملة الثورية إلى خارج مصادرها، بتبعية محكمة ومستحكمة، استبدلت الشارع بالعاصمة، ونطقت باسم الشارع ضد العاصمة الأخرى، لأنها استثنت عاصمتها، سياج وعيها، من طبيعتها. وعيّنت للشر المطلق عاصمة، وللخير المطلق عاصمة. واستطاعت، في كل منعطف، أن تستبدل عاصمتها بعاصمة أخرى، دون أن تتخلى عن تدفُّق الجملة الثورية المرادفة للعاصمة. لا بد من عاصمة.. لا بد من عاصمة!..

□ □ □

لماذا يرتجف الصنم إلى هذا الحد، لماذا يرتجف الصنم؟ سيقول ما هو.

سيقول عكس هذا الصمت الذي يُطبق عليه..

سيواصل تلاوة درس البداية،

سيمجد امتثال التاريخ والمذابح والعذاب إلى برهانه: ألم أقل لكم؟

ولكنك لا تقول شيئاً يا سيِّدي الصنم..

يندسّ في السلطة ليكون معارضاً. ويندس في المعارضة ليكون هو السلطة.

ويحارب السلطة بسلطة أخرى، ولا يتبعه أحد من فرط ما هو تابع.

هذه هي لحظتك، يا سيدي الصنم، قل شيئاً لتبقى صنماً من صنم.

سيقول كلاماً آخر بعد أي شيء آخر.

سيقول إنه لم يوافق على الخروج.

سيقول إنه قال لنا.

ولكنه لم يقل لنا شيئاً.

لماذا أرى الصنم، للمرة العاشرة، لماذا أرى الصنم؟

□ □ □

صمت من ذهب. صمت من شماتة. لذلك أعجبتني غضبة الأمة على التآمر الغربي العنصري على المشاركة العربية الصاعدة في «المونديال». كانت العلامة الوحيدة على وجود شيء يتحرك خارج أسوارنا الصاروخية. كانت الدليل على أن الأُمة لا تسمح للأَجنبي بأن يخدش روحها. وكانت تحمل رَدّاً ساخراً على وزراء الخارجية العرب الذين تنادوا للاجتماع في تونس لبحث «إمكانية»

عقد مؤتمر قمة عربي لبحث الاجتياح الإسرائيلي، وَرَدّاً ساخراً على عدم احتجاج الدولة اللبنانية على هذا الاجتياح واكتفائها بدور الوسيط بين المبعوث الأميركي وقيادة المقاومة. فتساءلنا: لماذا يحرق أصحاب «قمة الحضيض» العربي ثومهم وبصلهم وأصابعهم؟ أليس في الوقت متسع للمزيد من الاجتياح وابتلاع الأرض والناس، إذ لم يمض على الغزو غير شهر واحد فقط.. شهر واحد لا يزيد على لحظة عابرة في تاريخ الحكم العربي الخالد. ولا تكفي لصياغة رد الدول العربية على عجلة من أمرها، والعجلة من الشيطان الرجيم، ليقضي وزراء خارجيتها ساعات صعبة في تونس، يختلفون فيها على تحليل أهداف الاجتياح ومداه: هل هو ضد الفلسطينيين واللبنانيين أم ضد سائر العرب؟ هل سيتجاوز الإعلان الإسرائيلي مداه.. وسيختلفون على تعريف مادة البترول: هل هو سلعة تجارية، أم سلاح سياسي؟ لقد شعروا، ثانية بالضجر. فإن الخبر المشتهى لم يعلن بعد، المقاومة لم تمت. وما زال في خزانات الطائرات الإسرائيلية من البنزين والقذائف ما يكفي لإحراق خمسين ألف طفل لبناني وفلسطيني. وما زال في مستودعات الأسلحة الأميركية التقليدية ما يكفي لتدمير كل المدن. وما زال في بيروت بعض الماء والمعلبات والأوكسجين الكافية لمواصلة المقاومة. وما زال في سماء العرب المفتوحة ممرات كثيرة للمزيد من قاذفات القنابل. وما زال في البحر الأبيض المتوسط مكان للمزيد من الغواصات وحاملات الطائرات والمعاهدات الدولية. وما زال في بيروت أهداف مدنية كثيرة لم

تقصف. فلماذا العجلة لماذا العجلة؟

ونحن أيضاً نحب كرة القدم. ونحن أيضاً يحق لنا أن نحب كرة القدم، ويحق لنا أن نرى المباراة. لمَ لا؟ لمَ لا نخرج قليلاً من روتين الموت؟ في أحد الملاجىء استطعنا استيراد الطاقة الكهربائية من بطارية سيارة. وسرعان ما نقلنا «باولو روسّي» إلى ما ليس فينا من فرح. رجل لا يُرى في الملعب إلّا حيث ينبغي أن يُرى. شيطان نحيل لا تراه إلّا بعد تسجيل الهدف، تماماً كالطائرة القاذفة لا تُرى إلّا بعد انفجار أهدافها. وحيث يكون «باولو روسي» يكون الجوول، يكون الهتاف، ثم يختفي أو يتلاشى ليفتح مسارب الهواء من أجل قدميه المشغولتين بطهو الفُرص وإنضاجها وإيصالها إلى أوج الرغبة المُحَققة. لا تعرف إن كان يلعب الكرة أم يلعب الحب مع الشبكة، الشبكة تتمنع، فيغويها ويغاويها بفروسية إيطالية أنيقة على ملعب إسباني حارّ. ويغريها بانزلاق القطط الهائجة المائجة على صراخ الشهوة. وعلى مرأى من حُراس العِرض المصون الذين يعيدون إغلاق بكارة الشبكة بغشاء من عشرة رجال، يتقدم باولو روسي بكامل الشبق، يتقدم لاختراق شبكة قابلة للنيل من عضلة هواء مرتخية عجزت عن المقاومة، فاستسلمت لاغتصاب جميل..

كرة القدم،

ما هذا الجنون الساحر، القادر على إعلان هدنة من أجل المتعة البريئة؟ ما هذا الجنون القادر على تخفيف بطش الحرب وتحويل الصواريخ إلى ذباب مزعج! وما هذا الجنون الذي يعطل الخوف

ساعة ونصف الساعة، ويسري في الجسد والنفس كما لا تسري حماسة الشعر والنبيذ واللقاء الأول مع امرأة مجهولة..

وكرة القدم هي التي حققت المعجزة، خلف الحصار، حين حرّكت الحركة في شارع حسبناهُ مات من الخوف، ومن الضجر.

ولم أفرح بمظاهرات تل أبيب التي تسرق منا كلَّ الأدوار. فمنهم القاتل ومنهم الضحية. منهم الوجع ومنهم الصرخة. منهم السيف ومنهم الوردة. منهم النصر ومنهم الهزيمة، لأنها تشي بتغييب أبطال المسرح. لقد اعتادوا الحروب السهلة وتعودوا على الانتصارات السهلة. وقد سهّل التنافس الانتخابي بين الحزبين الكبيرين عملية انفتاح شوارع تل أبيب على عشرات الآلاف من المتظاهرين، واستنهضتهم ضحاياهم إلى درجة دفعت ضابطاً كبيراً إلى الاستقالة. كنت أستمع إلى إذاعتهم ولا أفهم سرّ البكاء. المنتصر مهزوم من الداخل. المنتصر يخشى فقدان هويته: الضحية. لا حقّ لأحد في أن يحرز هذا الإنجاز: أن يكون الضحية، لأن انقلاب هذا الدور على أصحابه يقلب ميزان العدل الرملي، وبالنيابة عنا كانوا يصرخون، وبالنيابة عنا كانوا يبكون، وبالنيابة عن جدارتهم كانوا ينتصرون. أهنالك ما هو أقسى من هذا الغياب: ألّا تكون معبّراً عن النصر، وألّا تكون معبّراً عن الهزيمة. أن تكون خارج المسرح، ولا تحضر عليه إلّا بوصفك موضوعاً يقوم الآخرون بالتعبير عنه كما يريدون. «إن أردتم فليست تلك بخرافة» هكذا أطلق تيودور هرتسل شعار الصهيونية الداعي إلى

تأسيس دولة لشعب لا أرض له على أرض لا شعب لها! وفي حصار بيروت الذي يشهد على وجود شعب له أرض محتلة مع غزاة سرقوا تلك الأرض، قام ناثان زاخ، أحد شعراء الحداثة العبرية، بتعديل شعار هرتسل بسخرية لامعة: «إن أردتم فليست تلك بخرافة: نصر إسرائيل لن يخيب، ولكن لن يدوم لكي يخيب..»، عشرات القصائد العبرية تحاول التعبير، بدلاً من القصائد العربية، عن حصار بيروت، والاحتجاج على المذبحة. منهم الخطيئة ومنهم الغفران. منهم القتل ومنهم الدموع. منهم المجازر ومنهم عدالة القضاء.

□ □ □

«ثم دخلت سنة...

□ وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس، وقتلوا أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين، وجاسوا خلال الديار، وتبروا ما علوا تتبيرا. وأخذوا من حول الصخرة اثنين وأربعين قنديلاً من فضة، زنة كل واحد منها ثلاثة آلاف وستماية درهم. وأخذوا تنوراً من فضة زنته أربعون رطلاً بالشامي، وثلاثة وعشرين قنديلاً من ذهب. وذهب الناس على وجوههم هاربين من الشام إلى العراق، مستغيثين على الفرنج إلى الخليفة السلطان، فلما سمع الناس هذا الأمر الفظيع هالهم ذلك وتباكوا. وندب الخليفة الفقهاء للخروج إلى البلاد ليحرضوا الملوك على الجهاد، فخرج ابن عقيل وغير

واحد من أعيان الفقهاء فساروا في الناس فلم يفد ذلك شيئاً، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون، فقال في ذلك أبو المظفر الأبيوري:

وشرُّ سلاح المرء دمع يريقه إذا الحرب شبت نارها بالصوارم

□ وفيها سار السلطان محمد بن ملكشاه إلى الري فوجد زبيدة خاتون أُم أخيه بركيارق فأمر بخنقها، وكان عمرها إذ ذاك اثنتين وأربعين سنة.

□ وفيها بعث السلطان ملكشاه كتاباً إلى الحسن بن صباح أحد دعاة الباطنية يتهدده وينهاه وبعث إليه بفتاوي العلماء، فلما قرأ الكتاب بحضرة الرسول قال لمن حوله من الشباب: إني أريد أن أرسل منكم رسولاً إلى مولاه، فاشرأبت وجوه الحاضرين، ثم قال لشاب منهم: اقتل نفسك! فأخرج سكيناً فضرب بها غلصمته فسقط ميتاً. وقال لآخرَ منهم: ألق نفسك من هذا الموضع، فرمى نفسه من رأس القلعة إلى أسفل خندقها فتقطع. ثم قال لرسول السلطان: هذا الجواب.

□ وفيها ملكت الفرنج قلاعاً كثيرة منها قيسارية وسروج، وسار ملك الفرنج كندر ــ وهو الذي أخذ بيت المقدس ــ إلى عكا فحاصرها...

□ وفيها ادعى رجل النبوة بنواحي نهاوند، وسمى أربعة من أصحابه بأسماء الخلفاء الأربعة.

□ وفيها ظهرت صبية عمياء تتكلم على أسرار الناس، وما في نفوسهم من الضمائر والنيات. وبالغ الناس في أنواع الحيل عليها

ليعلموا حالها فلم يعلموا. وسألوها عن نقوش الخواتم المقلوبة الصعبة وعن أنواع الفصوص وصفات الأشخاص وما في داخل البنادق من المشمع والطين المختلف، والخرق وغير ذلك فتخبر به سواء بسواء، حتى بالغ أحدهم ووضع يده على ذكره وسألها عن ذلك فقالت: يحمله إلى أهله وعياله...

□ وفيها قدمت خاتون بنت ملكشاه زوجة الخليفة إلى بغداد فنزلت في دار أخيها السلطان محمد، ثم حمل جهازها على مائة واثنين وستين جملاً، وتسعة وعشرين بغلاً. وفتح الفرنج مدائن عديدة منها مدينة صيدا وغيرها..

□ وفيها قاتلوا الفرنج بالشام وانتزعوا منهم حصوناً كثيرة، ولما دخلوا دمشق دخل الأمير مودود صاحب الموصل إلى جامعها ليصلي فيه فجاءه باطني في زي سائل فطلب منه شيئاً فأعطاه، فلما اقترب منه ضربه في فؤاده فمات من ساعته.

□ وفيها جاء كتاب من الفرنج إلى المسلمين وفيه: «إن أُمةً قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها».

□ وفيها عزم الخليفة على طهور أولاد أخيه، وكانوا اثني عشر ذكراً، فزيّنت بغداد سبعة أيام بزينة لم يُر مثلها...

□ وفيها وقع بأرض الموصل مطر عظيم فسقط بعضه ناراً تأجّج فأحرقت دوراً كثيرة. وظهرت في بغداد عقارب طيارة لها شوكتان. فخاف الناس منها خوفاً شديداً.

□ وفيها وجد رجل يفسق بصبي فأُلقي من رأس منارة. وفيها ملكت الفرنج عدة حصون من جزيرة الأندلس. وفيها ملك نور الدين بن محمود زنكي عدة حصون من الفرنج بالسواحل. وفيها تزوج سيف الدين غازي بنت صاحب ماردين حسام الدين تمرتاش بن ارتق، بعد أن حاصره فصالحه على ذلك، فحُملت إليه إلى الموصل بعد سنتين، وهو مريض قد أشرف على الموت، فلم يدخل بها حتى مات، فتولى بعده أخوه قطب بن مودود فتزوجها...

□ وفيها وقع مطر في اليمن كُلُّه دم، حتى صبغ ثياب الناس.

□ وفيها باض ديك بيضة واحدة ثم باض باز بيضتين، وباضت نعامة من غير ذكر. وكانت وقعة عظيمة بين نور الدين الشهيد وبين الفرنج فكسرهم وقتل منهم خلقاً...

□ وفيها هاجت ريح شديدة بعد العشاء فيها نار، فخاف الناس أن تكون الساعة، وزلزلت الأرض وتغير ماء دجلة إلى الحمرة، وظهر في أرض واسط دم لا يعرف ما سببه، وأخذ الفرنج عسقلان.

□ وفيها كان غلاء شديد بخراسان حتى أكلوا الحشرات، وذبح إنسان منهم رجلاً علوياً فطبخه وباعه في السوق، فحين ظهر عليه قُتل.

□ وفيها سقط بَرَدٌ بالعراق كبار، زنَة البردة قريب من خمسة أرطال، ومنها ما هو تسعة أرطال بالبغدادي. وخسفت هناك

القبور وطفت الموتى على وجه الماء. وفيها أقبل ملك الروم في جحافل كثيرة قاصداً بلاد الشام فرده اللّه خائباً خاسئاً. وفيها قال عفيف الناسخ: رأيت في المنام قائلاً يقول: إذا اجتمعت ثلاث خاآت مات الخليفة المقتفى ــ يعني خمساً وخمسين وخمسمائة.

□ وفيها كتب صلاح الدين إلى الأمراء يلومهم على ما صنعوا من المهادنة ودفع الأموال إلى الفرنج، وهم أقل وأذل، وأخبرهم أنه عزم على قصد البلاد الشامية ليحفظها من الفرنج، فردّوا إليه كتاباً فيه غلظة، وكلام فيه بشاعة، فلم يلتفت إليهم...

□ وفيها كتب إليهم [الأمراء] القاضي الفاضل على لسان السلطان كتاباً بليغاً فصيحاً فائقاً رائقاً، على يدي الخطيب شمس الدين، يقول فيه: «فإنا كنا نقتبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا وسوانا يستمير، ونتلقّى السهام بنحورنا وغيرنا يعتمد التصوير». فلما وصلهم الكتاب أساؤوا الجواب.

□ وفيها بعث ملك الإنكليز إلى السلطان صلاح الدين يذكر له أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر، وهو على نهاية إرسالها إليه، ولكنها قد ضعفت وهو يطلب دجاجاً وطيراً لتقوى به، فعرف أنه إنما يطلب ذلك لنفسه يلطفها به، فأرسل إليه شيئاً كثيراً من ذلك كرماً. ثم أرسل يطلب منه فاكهة وثلجاً فأرسل إليه أيضاً، فلم يفد معه الإحسان، بل لمّا عوفي عاد إلى شرّ مما كان. واشتد الحصار على عكا ليلاً ونهاراً. فأرسل أهل البلد يقولون للسلطان إما أن تعملوا معنا شيئاً غداً، وإلّا طلبنا من الفرنج الصلح والأمان، فشق ذلك على السلطان.

□ وفيها وقعت الهدنة على وضع الحرب ثلاثين سنة وستة أشهر، للفرنج ما بأيديهم من البلاد الساحلية، وللمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية، وما بينهما من المعاملات تقسم على المناصفة...».

ابن كثير [«البداية والنهاية»]

□ □ □

.. «وليس عند الإفرنج شيء من الغيرة والنخوة. يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طوَّلت عليه خلَّاها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يُقال له معزّ، داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق. ويقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتّجار يأخذ في قنينة من النبيذ وينادي عليه ويقول «فلان التاجر قد فتح بتّية من هذا الخمر. من أراد منها شيئاً فهو في موضع كذا وكذا»... فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له: «أي شي أدخلك إلى عند امرأَتي؟» قال: «كنت تعبان دخلت أستريح». قال: «فكيف دخلت إلى فراشي؟». قال: «وجدتُ فراشاً مفروشاً نمتُ فيه». قال: «والمرأة نائمة معك؟». قال: «الفراش لها. كنت أقدر أمنعها من فراشها؟» قال: «وحق ديني، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت». فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته. ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يُقال له سالم من أهل المعرة في

حمّام لوالدي رحمه الله. قال: «فتحتُ حماماً في المعرة أتعيَّش فيها. فدخل إليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشدّ في وسطه المئزر في الحمام، فمدَّ يده فجذب مئزري من وسطي رماه. فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتي، فقال: سالم. فتقربت منه. فمدَّ يده على عانتي وقال: سالم، جيد! وحق ديني اعمل لي كذا. واستلقى على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع. فحلقته فمرَّ يده عليه فاستوطأَه فقال: سالم، بحق دينك اعمل للداما. (والداما بلسانهم الستّ) يعني امرأته. وقال لغلام له: قل للداما تجيء. فمضى الغلام أحضرها وأدخلها. فاستلقت على ظهرها وقال: اعمل كما عملت لي. فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني. فشكرني ووهبني حقَّ خدمتي.

«فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم: ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة. وما تكون الشجاعة إلّا من النخوة والأنفة..».

أسامة بن منقذ [«كتاب الاعتبار»]

□ □ □

.. ساعات ما بعد الظهر. رماد من بخار، وبخار من رماد. المعدن سيد الوقت. لا يفلُّ المعدن غير معدن آخر يصنع تاريخاً آخر. القصف يطاول كل شيء. ولا يبدو أن لهذا اليوم نهاية. آب أقسى الشهور. آب أطول الشهور. وهذا اليوم أقسى أيام آب وأطولها. أما لهذا اليوم نهاية؟ لا أعرف ماذا يحدث في ضواحي

المدينة، لأَن هدير المعدن حجب عنَّا صمت الأشقّاء المُدَوِّي، حجب عنا صمت الملوك والرؤساء ووزراء الدفاع المشغولين بقراءة ما لا يقرأون. ولم يبق أمامنا سوى سلاح الجنون. نكون أو لا نكون. نكون أو نكون. لا نكون أو لا نكون. ليس لنا غير الجنون. «حاصر حصارك بالجنون وبالجنون وبالجنون. ذهب الذين تحبهم ذهبوا، فإما أن تكون أو لا تكون». تاريخ يتغير شكله ومؤرخوه. تاريخ يكتب صورة النهر، فمن يؤرخ القاع، من يؤرخ الطحلب، من يؤرخ خروج العدو من الأَخ، ودخول الأخ في العدو؟ ومَنْ أطلع في وجهي، ثانيةً، هذا الحلزون؟ حلزون يحمل عبء لعابه الأخضر. حلزون يسدّ حائطاً ويمنعنا من الاقتراب من حائط نسقيه بالدم من أجل أن يستولي هو، الحلزون، على العرش. نحن المتخمين موتاً بما ليس لنا ندافع عمَّا ليس لنا. وليس لنا هذا الطريق المؤدي إلى الجبل. وليس لنا خطاب المنصة التي سيعتليها الحلزون، ويفاخر الأُمم بتاريخ ليس له، بتاريخ مسروق من حاجة البطل إلى موطىء لكعب. لماذا يطلع الحلزون في وجهي، مرة أخرى، في نهار واحد؟ تبّاً لهذا النهار.. تبّاً!

.. جالساً في ركن قصيّ، قصيّ عن الآخرين وعن نفسي، أُفكر في ما يرد عليَّ من منام يخرج من منام: هل أنت حي؟ متى حدث ذلك؟ هل تحميني الذاكرة من هذا التهديد؟ هل تستطيع سوسنة الماضي أن تكسر هذا السيف المرصع بالقذائف؟ ولماذا هي.. لماذا هي؟ لماذا تطلع السوسنة من نشيد الأناشيد وقد أوقَفَت الشمس والقمر على أسوار أريحا ليمتد زمن القتل؟

.. حصَّة للطفولة وحصَّة للشبق. جسد للمغفرة. جسد للشهوات. يذوب رخام الكلام ليصقل مدائح الساق التي تشق المقبرة إلى حديقتين: حديقة للماضي، وحديقة للحلم. ويلمع البرق الأول في العظام اليافعة. كم امرأَة أنت يا عنقود السماء الحافي! كم امرأَة فيك لأَسقط في زحام روحي وأنجو على توالد لحظة. كم امرأة أنت ليدخل الوقت في الوقت ويخرج خيطاً من حرير يصطفيني لاختيار مشانق الدم. كم امرأة فيك لتتقمص البرهة تاريخ الصلاة والمجون على قدمين هما ختم جهنم والجنة! كم امرأَة أنت لتكون سيرة هذا البطن المعجون من رائحة الفل ومن لونه التائه بين الضوء والحليب سيرةً لحروب الدفاع عن الصبا والأربعين. كم امرأَة أنت لأَستردّ الشتاء السابق من كل ما يأتي من مطرٍ اختار من قطراته شبهاً لما عرفت؛ ولأقارن اللذة باللذة، هل كنا معاً حقاً على صوف تلك الأَرض؟ أُقلِّد ما لا يتبدَّد من رعشة تهز الغرف حين يوحِّدُ ما يتجدد فينا ظنِّي بأني معك. ولم أَقل إِني أُحبك، لأَني لا أعرف إن كنتُ أُحبك ما دمت أُخبىء دمي تحت جلدك وفي شعيرات السرّ المقدس أذرف عسل النحل الأحمق، السرّ الذي امتصني لأَجد جسدي يتوالد بلا انقطاع. ولم تقولي أحبُّكَ لأَني لن أصدِّق أن جميع النساء اللائي وُلدن على جبل جلعاد وفي سومر وفي وادي الملوك يجتمعن عليَّ الليلة. كم امرأَة فيك لتنوح أحلامي على ما تفقد الأُم من شتاء يستحقُّ أن تكوني أُمَّه وسيدته. في كُلِّ امرأَة جميلة هِبَة من وصايا قدميك للأَرض، وإرث لا ينقطع عن تزويد

الغابات بهستيريا العشب. ليْتَ واحداً منا يمقتُ الآخر ليصاب الحبُّ بالحب. وليت واحداً منا ينسى الآخر ليصاب النسيان بالذكرى. وليت واحداً منا يموت قبل الآخر ليُصاب الجنون بالجنون.

□ □ □

خذني إلى أستراليا ــ قالت لأُدرك أنه آن لنا أن نبتعد عن الفارق والحرب. خذني إلى أستراليا لأنني كنت عاجزاً عن الوصول إلى القدس. كنت خارجاً من حزيران بعناد لم يرحمني: للجيوش أن تهزم، وللنحلة في قلبي أن تصمد، وللروح أن تنتصر عليَّ وعلى أعدائي. كانت الفتوة والغنائية تحفران لي مساراً آخر على جبل يطل على ساحات تاريخ: عظام أحصنة، ودروع مثقوبة، وأعشاب، من تلك الإطلالة يتضاءل الراهن ولا تعود الموجة عنواناً للبحر، فأحمي نفسي وربما غيري من هيجان اللحظة بانتقالي من شهيد إلى شاهد.

ولكن، لماذا أتذكرها في هذه الجحيم، في هذه الساعة من ساعات بعد الظهر، في هذا البار ــ الملجأ؟ أَلأَن امرأَة أُخرى جالسة قبالتي تعيد مشهد الصرخة، أم لأن مناماً أخرجها من منام هذا الفجر؟ لا أعرف كما لا أعرف تماماً لماذا أتذكر أُمي، ودرس القراءة الأَول، وفتاتي الأُولى تحت شجرة الصنوبر، وعقدة الناي التي لاحقتني خمسة وعشرين عاماً. تعود الدائرة إلى نقطتها الأُولى...

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة..

لا تقضمني كتفاحة، فلنا هذا الليل كله. خذني إلى أستراليا حيث لا أحد منا هناك، لا أنت ولا أنا..

كانت تضع الحطب في الموقد. كانت الأُغنية تعيد الأُغنية ذاتها: سوزان تأخذك إلى النهر. الكلمات جميلة، والصوت لا يغني بقدر ما يقرأ شعراً لا يصل إلى أي مكان. إنسان وحيد في البراري. إنسان يقول ليتماسك، ليحمي نفسه من العزلة، ليدل نفسه على نفسه.

متى تقبلني؟

عندما أُصدق أن في وسعي أن أصدق أن هاتين الشفتين مفتوحتان لأَجلي..

إذن لمن؟

لصوت قادم من كوكب بعيد. أتعرفين أن في وسع عينيك أن تُلَوِّنا أي ليل بأي لون تريدين؟

قبّلني!

مطر خلف الزجاج. وجمر داخل الزجاج. لماذا تمطر إلى هذا الحد؟

لكي تبقى فيّ...

تتوالد الشهوة من الشهوة. مطر لا يتوقف. نار لا تنطفىء. جسد لا ينتهي. رغبة تضيء الظلام والعظام. ولا ننام إلّا ليوقظنا عطش الملح إلى العسل، ورائحة البن المحروق قليلاً على اشتعال الرخام.

بارد وساخن هذا الليل. ساخن وبارد هذا الأَنين. ويكويني حرير لا يتجعد بل يشتد كلما احتكّ بمسام جلدي وصاح. الهواء إبر من لعاب دافىء بين أصابع قدمي، وعلى كتفي أفعى من الكهرباء تزحف وتشرئب على الجمر. وفم يلتهم هبات الجسد، ولا يبقى من اللغة غير صراخ الغرف الموصدة على حرب الحيوانات الأَليفة. وعرق يُبَرِّد الهواء ويجفل.

وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة.

□ □ □

الساعة الخامسة بعد الظهر هنا. ناديت النادل: أعطني مزيداً من البيرة. هل مرَّ «س» لم أره من يومين. والسحلية؟ سألت عنه وذهبت. وأُستاذ اللغات السامية القديمة؟ لم يأتِ بعد. والشاعر الممتلىء بفراغ فصيح؟ ذهب منذ قليل. وأُستاذ الأدب الإنكليزي في الجامعة الأميركية؟ مرَّ في الصباح. والقائد المتقاعد؟ لم يأتِ. ووفد الهلال الأحمر الدولي؟ يأتي ويذهب. أعطني مزيداً من البيرة. أين النادل الباكستاني؟ يأتي في الليل.

لعل المرأَة الجالسة، قبالتي، لاحظت ما أسرق من ساقيها، فمدّدتهما، سلّطتهما على عطش رغبتي. وطلبت مزيداً من البيرة.

□ □ □

الساعة الخامسة صباحاً يا عزيزتي.

قالت بدعابة: وهل ينعس العربي؟ أما أنا فلا أُريد أن أنام.

قلت: نعم، ينعس العربي ويحاول أن ينام.

قالت: نمْ. وسأحرس نومك.

قلت: سيوقظني لَيْلَكُ نظرتك الصافية. هل تعرفين أن عينيك تدفعان أي ولد شقي إلى عبادة الهدوء؟

قالت: وماذا تفعلان بالرجل؟

قلت: تدفعانه إلى الفروسية.

قالت: نَمْ.

قلت: هل تعرف الشرطة عنوان هذا البيت؟

قالت: لا أَظنُّ ذلك، ولكن الأمن العسكري يعرفه. هل تكرهُ اليهود؟

قلت: أُحبك الآن..

قالت: ليس هذا جواباً واضحاً.

قلت: وليس السؤال واضحاً، كأن أَسأَلك: هل تحبين العرب؟

قالت: ليس هذا سؤالاً.

قلت: ولماذا كان سؤالك سؤالاً؟

قالت: لأن فينا عقدة، ونحتاج إلى إجابة أكثر من حاجتكم إليها.

قلت: هل أنت حمقاء؟

قالت: قليلاً، ولكن لم تقل لي إن كنت تحب اليهود أم تكرههم!

قلت: لا أعرف، ولا أُريد أن أعرف. ولكنني أعرف أنني أُحب مسرحيّات يوربيدوس وشيكسبير، وأُحب السمك المقلي، والبطاطا المسلوقة، وموسيقى موزارت، ومدينة حيفا، وأُحب العنب، والمحاورات الذكية، وفصل الخريف، ومرحلة بيكاسو الزرقاء، وأُحب النبيذ، وغموض الشعر الناضج. أما اليهود فليسوا سؤالاً للحب أو المقت.

قالت: هل أنت أحمق؟

قلت: قليلاً.

قالت: هل تحب القهوة؟

قلت: أُحب القهوة، وأُحب رائحة القهوة..

نهضت عاريةً حَتّى منّي، فأحسستُ بوجع مَنْ خلعوا عضواً من أعضائه.

صِحْتُ: تعالي فوراً، عودي من رائحة القهوة، فأنا ناقص، ولا أستطيع لا أستطيع.

ــ ماذا دهاك؟

ــ هل انتهى كلُّ شيء؟

ــ ماذا دهاك؟

ــ لا أستطيع العودة إلى نفسي..

[وكلانا يقتل الآخر خلف النافذة].

ـــ خذني إلى أستراليا.

ـــ خذيني إلى القدس.

ـــ لا أستطيع.

ـــ ولا أستطيع الرجوع إلى حيفا.

ـــ بماذا تحلمين عادةً؟

ـــ عادة لا أحلم. وأنت بماذا تحلم؟

ـــ بأن أتوقف عن حبك.

ـــ هل تحبني؟

ـــ لا. لا أُحبك... هل تعلمين أن أُمك سارة قد شرّدت أُمي هاجر في الصحراء؟

ـــ وما ذنبي أَنا. أَلهذا لا تحبني؟

ـــ لا ذنب لك، ولهذا لا أُحبك... أو أُحبك.

عزيزتي، جميلتي، ملكتي، الساعة الآن الخامسة والنصف صباحاً، وعليَّ أن أعود إليهم:

ـــ لمن؟

ـــ إلى شرطة حيفا لأُثبت وجودي في الثامنة صباحاً.

ـــ تثبت وجودك؟

ـــ وفي الرابعة بعد الظهر.

ــ وفي الليل؟

ــ يأتون، في أي وقت بلا موعد، ليتأكدوا من وجودي..

ــ وإذا لم يجدوك في البيت؟

ــ سأكون مسؤولاً عن أية حادثة تقع في هذه البلاد، من مرتفعات الجولان حتى قناة السويس.

ــ وما هي العقوبة؟

ــ مجرد غيابي عن البيت ليلاً يساوي اعتقالاً لمدة خمس سنين على الأقل.

أما إذا وقع حادث أكبر، فإن العقوبة هي السجن المؤبد على الأقل.

ــ وماذا ستقول في المحكمة؟

ــ سأقول: كنت هنا، أحيا نشيد الأناشيد.

ــ مجنون؟

ــ مجنون...

ــ ولا تحبني؟

ــ لا أعرف.

[وكلانا يقتل الآخر تحت النافذة..].

□ □ □

... وهناك، في الركن القصيّ، أرى الفرس الطالعة من مدائح العرب. فرس تشاكس المجهول. فرس تشاكس اللغة. فرس تنبثق من قطرة الضوء المتلألئة على حقل تفتحه ذبذبةُ وَتَرَيْ غيتار يُنادي أعراس الفرسان القتلى. القباب والمآذن والأَبراج والمدى تتبع ظلّ العاشقة الذي يتبع جهة الرمح المتوتر. سأدير ظهري للخناجر كي أُلَامس طحلب المانغا وأسقط في علو الموت الشاهق محروساً بالنعناع والشظايا التي لا تسمح لأحد بالاقتراب من الفضاء المفتوح لخطوتين. الحب أن تترددي. والحب أن أسخى بمزيد من حيوانات الروح. والحب أن لا أسمع منك غير الأنين. للهواء أن يتحول إلى مادة صلبة. وللبحر أن يهدد. ولك أن تلقي بعتاد الجسد الخائف إلى أقصى الخوف لنأمن هذا الباب الخشبي الهش. اصعدي مائة واثنتي عشرة درجة كي يتصبب لهاثك صهيلاً يتعب وكي أمسح العرق بجلدي المنذور لهذا الواجب. سأدعوك «ج» لأَنك مطلع الجنون، ومطلع جهنم، ومطلع الجنة، ومطلع جميع الشهوات المنتصرة على حرب بجماع لا يتحقق إلّا في الخوف من الموت. دعي ابنتك تلعب مع أستاذ الكيمياء، وتعالي إلى مرصد الصواريخ لنرصد ما في الجسدين من قطط. قدمُك مصقولة كحجر في شتاء الجبال، حجر يندس في خاصرتي لأَصرخ نبيذاً من خوابي الأديرة. ولا أصرخ كي لا تظنّي أن شيئاً غير الحصار يوجع. ولا أردُّ التحية لأني تواطأت مع قصتي على رغبتي من أول خصلة شعر كسرتني. فللشهوة أيضاً قناع، لتطول اللعبة عاماً آخر. تعبتُ من قناعي، ومن لعبتي، ومن تعبك. فلا

تدقي بلاط الشارع أكثر بصهيل يحفرني. تعبتُ من حوادث سير لا تليق بهذه الحرب كأَن ترتطم كتفي اليُسرى بكتفك اليسرى في تقاطع صبيانيّ المشهد. ومن العار أن نموت حُبّاً في زمن الحرب. هل أحبك؟ لا أُحبك إذا كان الحب يستغرق وقتاً أَطول من إطلاق رصاصة على نخاع شوكي. وأُحبك، إذا كان الحب امتثالاً لصاعقة برق تضربني الساعة: تعالي لنعرف الجواب. تعالي لنسأل السؤال. فما على المحاصرين في هذا الركن الأَخير من العالم غير أن يُعْتقا جِنَّ الشبق من سجن الكلام والذهب. ومن الظلم أن نهاجر بلا التصاق. من الظلم أن نُرجع النظرة من منتصف الطريق إلى عيون تصبّ العسل على النار. عيناك تجرحان الحجر وتذيعان في دمي دبيب النمل، فمتى أجمع هذا النمل وأُعيده إليك، إلى بيت النمل، لأَتوقف عن حكّ دمي بنظرات الساق على الساق. أُخرجي من هذا الباب إلى اليسار، ثم انعطفي إلى يمين آخر. هناك شجرةُ زنزلخت كبيرة، شجرة وحيدة ستدلُّك على ساحة صغيرة.. اقطعيها واتبعي رائحة الهال إلى مدخل البناية كما يتبع كلب البحر رائحة الدم. اتبعي صوت دمي، واصعدي مائة واثنتي عشرة درجة. ستجدين الباب مفتوحاً، وستجدينني خلف الباب مشوياً من الانتظار، جاهزاً للموت واقفاً معك واقفاً فيك حتى يفصلنا صاروخ لنجلس. دقّي حجر السلالم كما يدق كعبك العالي طرف القلب ويترك قطعة صغيرة منه لكلاب الشارع. كم أُحب الحذاء العالي لأنه يشد الساقين في كلية الأُنوثة المتأهبة للاندلاع. والحذاء العالي يختصر

البطن ويفتح انحناءة لبطن ينكمش من عطش. والحذاء العالي يدفع النهدين ليتكورا ويشرئبّا على المارة المحرومين مما يهتفون. والحذاء العالي يصُبُّ القدمين في أُهبة الرقص فوق الدخان المتصاعد من رغبة محروقة. والحذاء العالي يتلع الجيد كلحظة انقضاض الخيول على هاوية. والحذاء العالي يوقف الرمح على منبر من هواء صلب. دُقّي بلاط الشارع بنفور غزال لا تتلقفه ذراعان ولا كلمات. واتضحي رويداً رويداً خلف الباب المغلق. أمام الباب مقعد جلدي صغير يحملنا ويتسع لنا. سأجلس أولاً وتجلسين. فغرفة النوم مكشوفة من جهة البحر الذي يرانا، ويتوعد، ويقصف. وغرفة الاستقبال مكشوفة من جهة البحر. وغرفة المكتبة مكشوفة من جهة البحر. ولم يبق لنا غير هذا المقعد الصغير، ارتجفي وانتفضي وانقصفي، ولا تنزعي ثيابك لئلا يرانا الموت عاريين. فرس على حضن رجل. لا وقت لغير الحبّ السريع ونزوة الخلود العابر. لا وقت للحب في حرب لا نسرق منها غير امتصاص مصادر الحياة. أمن طبيعة الحرب أن تخلق الشبق؟ أمن طبيعة الخوف من الموت أن يتوتّر هذا التوتُّر؟ يدان تخرمشان الحائط لمنع القطط من الرحيل. وفم مفتوح لأصوات البراري الموحشة لإغراء الذئاب. وأُحب هذا الحب الذي لا ثرثرة فيه ولا أناقة كلام وارتداء ثياب على مهل وعلى مهل. لا وقت لذلك الطقس الذي يُبدع الغربة وتباطؤ الخروج من العناق، فنهرب إلى سيجارة ندعي تأمّل ما ترسمه من دوائر الدخان الأزرق. وننظر إلى الساعة لا لنرى الوقت بل لنعرف متى يتسلل

أحدنا من الآخر. وأُحب هذا الحب الذي لا يترك وجعاً في الذكريات ولا ندبة في الروح. حب يُزَوّد الروح بهبوب الفراش على وردة الروح. لحظة عابرة أبقى وأنقى جمالاً من بيروقراطية الحب الطويل المحتاج إلى إدارة شؤون المواعيد وصيانة الحنين من العطب. نزوة هي مجال الشاعر في التباس التشابه بين المرأة والأغنية. نزوة هي حرية الصمت المتحرر من آخر ينقلب الصمت معه إلى غربة. عالمان لا يتداخلان إلّا بغير القمع. لا مساومة في العاطفة. عالمان يعودان ــ حين يصمتان ــ إلى ما كان من ذكريات لا تتصالح بقدر ما تتصادم. وأحب الحب على هذا المقعد الذي لا يحتاج إلى إعادة ترتيب لأنه لا يتجعلك، كما كنتُ أُحبه على ظلام صخرة على شاطىء بحر، أو في سيارة تختبىء في غابة صفصاف، أو في قطار ليلي لا نعرف فيه الأسماء، أو في رحلة طيران ليلي طويلة، أو على سياج ملعب يصفق فيه الجمهور لخطاب يشارك فيه العاشق العابر العاشقة العابرة الرقص والهتاف على نداء أوجٍ آخر. أحب هذه اللحظات النزوات المتحررة من الكلمات والواجبات. ولكن الحرب تضفي تصوفاً شهوانياً على هذا الاختلاس الرائع. فما أجمل أن نتغلب على الحرب فينا بهذا الخوف الذي يوحّد الجسدين. وما أجمل أن نُودِّع أيامنا على انفتاح وردة تعرق وتشهق وتتمزق من احتكاك الندى والملح، تحت قصف جوي وبري وبحري نسوس فيه مسار اللذة المستقيم صعوداً، ساخرين من عواء الحديد بعواء اللحم والدم والعصب المشدود. فلا تسأليني إن كنت أحبك أيتها

الفرس الطالعة من مدائح العرب. أيتها الفرس التي تترجّل عن حضن فارسها لتذهب إلى مهرتها الصغيرة، التي ترعى بين الصواريخ وأقداح البيرة وأستاذ الكيمياء والممرضات النبيلات القادمات من اسكندنافيا لاستبدال الموت إحباطاً وغمّاً بالموت في قضية. لا تسأليني إن كنت أحبك، لأنك تعرفين كم يعبدك جسدي الباحثُ عن سلامته في جسد. خذي خبزاً وزجاجة ماء. ستزورين قصيدتي يا «ج» لأنك لم تذهبي معي، كما ذهبت السوسنةُ الطالعة من نشيد الأناشيد. ستزورين قصيدتي يا «ج» لأنك اختفيت كما اختفت. وستخرجين من منام يخرج من منام يا «ج» كما خرجت السوسنةُ هذا الفجر...

□□□

.. والقصف يقصف كل شيء، يقصف حتى الخوف. أفكر في هذا الركن القصي بهذا الشاب الباكستاني الغائب. ما الذي جاء به إلى هذه المدينة من آسيا البعيدة؟ كان يطارد الرغيف فاصطاده الرغيف في هذا الحصار. استدرجه الرغيف من لاهور، جعله يلهث آلاف الكيلومترات كي يلامس هذه المعجزة الإِنسانية: رغيف الخبز، رغيف الخبز الذي قد يقتله في حرب لا شأن له فيها، فلا يعود حياً أو ميتاً إلى أي مكان، لا يعود إلى أي قبر. باطل الأباطيل والكل باطل. وأفكر في الطرائق المعدّة لنهاية جسد كافح حتى النضج ليحترق أو ليختنق. باطل الأَباطيل، والكل باطل. وقد علَّمتنا معاشرة الموت أن الموت لا صوت له. إذا سمعت صوت الصاروخ فذلك يعني أنك حي، ذلك يعني أن

الصاروخ قد أخطأك وأصاب غيرك، أصاب العامل الباكستاني على سبيل المثال. الصاروخ يسبق صوته. إن لم تسمع صوته فاعرف أنك مت. باطل الأباطيل والكل باطل. ولكن ما سر هذه المناعة؟ أشعر بنعاس لا يقاوم.. نعاس أقوى من أية قوة.. نعاس سلطان..

ولكن «س» يوقظني. أراه مدججاً بمسدس طويل، ومتكئاً على لعبته العاطفية. أين كنت؟ أين كنت؟ اجلس معي إذا استطعت أن توقف ثرثرة السيدة، أو أرسلها إلى أية جحيم.

ـــ أين اختفيت؟

ـــ على إحدى الجبهات.

ـــ ما هي أخبار الشباب؟

ـــ صامدون. ولا يهتمون بنتائج المعركة. إنهم صامدون ويقاتلون. ولكن الناس تعبت ويقال إن صمودهم مرتبط بخروجنا. هل صحيح أننا سنخرج؟

ـــ طبعاً.. سنخرج. ألم تعرف أننا سنخرج؟

ـــ كنت أظن أن الخروج مناورة. هل سنخرج حقاً؟

ـــ سنخرج حقاً.

ـــ إلى أين؟

ـــ إلى أي مكان عربي يقبل بنا.

ــ ألا يقبلون حتى استقبالنا خارجين؟

ــ بعضهم لا يقبل حتى جئتنا. وأميركا تطلب من بعضهم الموافقة على استقبالنا.

ــ أميركا؟

ــ نعم.. أميركا.

ــ هل تعني أن هذا البعض يريدنا أن ننتحر ونبقى في بيروت؟

ــ هذا البعض لا يتحمل صمودنا. ولا يدعونا إلى الانتحار أسوة بالكولونيل الليبي ولا يريد لنا أن نبقى في بيروت، أو في أي مكان على الأَرض. يريد لنا أن نخرج.. من العروبة ومن الحياة.

ــ إلى أين؟

ــ إلى العدم!

ــ ومتى سنخرج؟

ــ بعد أن نحصل على عناوين للخروج. وبعد أن نحصل على ضمانات بحماية المدنيين الباقين هنا، وبحماية المخيمات.

ــ أهناك ضمانات؟

ــ هناك ضمانات وقوات دولية ستصل لحماية المخيمات. ولكن السفير الإِيطالي قال لي، البارحة، كلاماً مثيراً للقلق. قال: لا أحد يضمن ألا يدخل الإِسرائيليون بيروت بعد خروج المقاومة.

ـــ ألا يمكن إخفاء فكرة الخروج، لأَنها قد تؤثر على معنويات المقاتلين؟

ـــ هذا صعب لأَن المفاوضين يذيعونها. والدولة اللبنانية متلهفة بحجة أنها تطمئن المواطنين.

ـــ ولكن، لماذا سنخرج؟

ـــ لا أحد يوافق على بقائنا، لا الداخل ولا الخارج، ولا تنس أن البلد ليس بلدنا. انتهت مُدَّةُ الضيافة. وبعض أطراف الحركة الوطنية يُهددنا. ولم يبق ما نعتمد عليه: لا مقومات داخلية، ولا مدد خارجي.

كان «س» أشدّ الناس قلقاً من هاجس الخروج، فهو يخشى اليُتم الجديد، يخشى أن ننساه في زحام هذه النهايات. كان واحداً من مئات الكتَّاب المهاجرين إلى مشروع الثورة المتحوّل إلى بيت وهوية. لا يملك ما يدل عليه، لا بطاقة هوية ولا جواز سفر، ولا شهادة ميلاد. ولهذا وجد فينا أهله ووطنه، نحن الذين لا أهل لنا ولا وطن. وكان مع المهاجرين السوريين والعراقيين والمصريين والفلسطينيين قد أنزل على بيروت معاني نهائية تمنح التباس العلاقة بها شرعية حق المواطن إلى درجة أجفلت الكثيرين من اللبنانيين الذين يعرفون مدينتهم ومجتمعهم أكثر منا، ويعرفون أنها لا تحتمل هذا الإسقاط. وقد لاحظ بعضهم أن السهولة التي يوحي بها التعامل مع بيروت، نصاً مفتوحاً للصراع والكتابة، قد بلغت حداً من الرهافة يستحق الحذر. ولكن بيروت هي المكان

الذي شهد ازدهار التعبير السياسي والإِعلامي الفلسطيني. وبيروت هي مهد آلاف من الفلسطينيين الذين لم يعرفوا مهداً آخر. وبيروت هي الجزيرة التي طفا عليها المهاجرون العرب الحالمون بعالم جديد، وهي حاضنة ميثولوجيا البطولة القادرة على تقديم وعد آخر للعرب غير وعد حزيران. فكان كل واحد يُمسك بما يعنيه من اسم بيروت الذي فتن الجميع إلى حدّ ارتكاب أخطاء لم ينجُ منها أحد، ودون أن يتمكن أَحد من تحديد المعنى الشامل لهذا الافتتان. وهكذا تحولت العلاقة ببيروت إلى إدمان جعل اللغة مجازية إلى درجة المواطنة، في غياب الدولة التي قهرت مواطنيها في كل مكان آخر، مما جعل استباحة الدولة، أية دولة في هذه الدولة، أحد أشكال التدرب العربي على ديموقراطية متخيلة. فصارت بيروت مُلكَ من يحلم بنظام آخر في مكان آخر، واتسعت لصياغة فوضى ذات جانب تعويضي حلّت في كل غريب عقدة الغربة. وصارت شرعية الانتماء إلى بيروت انعكاساً لشرعية المعارضة لنظام البطش العربي، فلم يعد على اللاجىء إلى بيروت واجب مراعاة نظامها المفكك، بل أباح لنفسه حق التحالف الداخلي لمواصلة تفكيكه خدمة لمشروع ديموقراطي أكبر يخاطب خارج بيروت أكثر مما يخاطب داخلها. ومن هنا، أحسّ المقيمون في بيروت، في تحالفهم مع أطراف قواها المتصارعة، بمقاييس أخرى للغربة والمواطنة تُحدد فيها للبنانيين أنفسهم وبمساعدتهم مقدار حقهم في وطنهم، لأَن الوطن تحول من جمهورية إلى مواقف. وفي الشعر أيضاً، لم يكن عُشّاق

بيروت لبنانيين. وحين أنشد الرحابنة للوطن لم ينشدوا لبيروت. كانت أغنية الحب الطالعة من الحرب «بحبك يا لبنان». لقد تمَّ استثناء بيروت لأَنها لم تعد بيروت لبنان. ليست بيروت، في الاعتبارات الطائفية، لبنان. بيروت صارت عربية يغني لها العرب. وصار في مقدور شاعر لبنان سعيد عقل أن ينأى بلبنان الجمالي إلى أقصى غابات العنصرية، ليرى أن الحرب لا تدور بين «جيش لبنان وجيش فلسطين» فحسب، بل إنها حرب شعب بأسره.. «الطفل الفلسطيني عدو»..

«س» وآخرون كوَّنوا بيروتهم؛ صاغوها على صورتهم. وبلا مجاملة دخلوا في النسيج الداخلي للصراع الثقافي. وحين انفضّ عنهم حلفاء الثقافة وجدوا أنفسهم تحت العراء.

لقد سبقت الغزو الإِسرائيلي عودة الكثيرين من المثقفين إلى أصدافهم الإقليمية، تعبيراً عن انهيار المشروع العلماني، وعن نزعة المثقف إلى الاحتماء بالطائفة في عراء الهزيمة الملوحة في الأفق.. جرت إعادة اصطفاف طائفي احتلت فيه الطائفة الممتازة مكانة النموذج. وقفز بطل الطائفة، الخارج من قاع الجريمة، إلى بطل منذور لسائر المعبّرين عن طوائف أخرى تحتذي استلابها، فتسابق شعراء البديل السابق، إلى إيوان الشرقية للحصول على صك غفران في محبة لبنان ممن أتقنوا ارتداء القناع الفاتن «تحرير لبنان من الغرباء». لقد احتاج الخراب إلى دولة، واحتاج الخائفون إلى أية دولة. فازدهرت الحياة الثقافية في المنطقة الشرقية المرشحة لتوحيد الوطن، وازدهر كازينو لبنان بعروضه الفنية التي لم

ينقصها غير فرقة الرقص الليبي المحاطة بدويّ إعلامي صاخب. ولم يتساءل أحد عن المغزى السياسي للهفة الكتائب على الرقصات الليبية، فقد كان المغزى شديد السخرية والوضوح.

وحين سجل «س» ملاحظة «الكرمل» على عودة بعض المثقفين من المشروع الديموقراطي إلى الصّدفَة الطائفية، حوّلونا إلى «سُنَّة». وانهالت علينا الحملات والتهديدات من الشعراء والرسامين والمسلحين الذين عدّوا نقد عودة المثقف إلى الطائفة تشهيراً منا، كمعبرين عن طائفة، بطائفتهم. وحين كنت أقسم بأنني لا أعرف ما هي طائفتي لم يصدقني أحد، لأن الوباء كان قد استشرى، ولأَن أي فهم لما يجري في لبنان خارج حدود الفهم الطائفي هو فهم قاصر. كان «س» يحمي كتابته بعضلاته، فواصل زيارة مقاهي شارع الحمراء ومقارعة الحجة بتحسس المسدس. أما أنا، المشاع للحملات الصحافية، فلم أنجح في تبرئة نفسي من جريمة القول إننا «جزء.. لا جزيرة».

«.. التجربة مفتوحة على حوار الإبداع والأفكار. فنحن ما زلنا نحاول ملامسة التطبيق العملي لخيارنا الوحيد: الإبداع في الثورة، والثورة في الإبداع، لنتجاوز التجني الذي يرتكبه الميل العام إلى المناداة بالاختلاف، أو الخلاف، بين مفهومي الثورة والإبداع، حيث يحاول أحد أطراف هذا الميل تحقيق الطلاق بين اللغة الأدبية وبين الواقع لبلوغ «الأدب الصافي». ويحاول الطرف الآخر جرّ الأدب إلى تقديم الخدمات اليومية المباشرة للبرنامج السياسي. نحن نتاج هذا الواقع وهذا الزمن الذي تختلط فيه الانهيارات

الواضحة بالولادات الغامضة، ولا نتوب عن أحلامنا مهما تكرر انكسارها، ولا نواجه الأزمات التي تلتف حولنا بإسقاط الفكرة، وبالنزهة في الماضي والتراث. لأننا لا نكتفي فقط بتحديد المساحة بين الدم والنفط. فقد اخترنا أن نعتقد أن المستقبل يولد من هذا الحاضر، بالطريقة التي ننخرط فيها في عملية التغيير. ولا يأتي من ماضٍ يتحول في الأزمات إلى سيد الأيام. وحين نلاحظ أن الثورة لم تكتب بعد أدبها إلّا بالجسد، فإننا ندرك أن معادلة الفعل ــ القول المترابطة في سياق التجربة تنضج لتنتج الأدب الجديد. وندرك أننا جزء من الثقافة العربية الوطنية لا جزيرة فيها. لذلك لم نقبل أن يكون صوتنا هو صوت الهوية الضيّقة، بل ميدان العلاقة الأعمق بين الكاتب العربي وزمنه الذي تتخذ فيه العملية الثورية الفلسطينية شكل كلمة السرّ العلنية حتى الانفجار العام. إننا لا نؤسِّس تياراً في الأدب بقدر ما نشير إلى سياق أو مجرى كبير يعطي مفهوم وحدة الثقافة العربية الوطنية شكلاً من الأشكال، في وقت يتعرض فيه إلى أكثر من محاولة تفتيت أو وأد، وهي الثقافة المفتوحة على تاريخها في تعدد مصادره. وهكذا لا نقول إن الشرق شرقي كله، ثقافياً، وأن الغرب غربي كله. فنحن لا نعرف شرقاً واحداً ولا نعرف غرباً واحداً، ولا نريد أن نُحبَس في هذه الأوهام، بعدما أطلقها كراس أو كراسان، إلّا بقدر ما تستطيع هذه الحملة التمييز بين المصطلحات، وتحاشي الوقوع في بئر تغلق علينا الأفق كله، وبقدر ما توضع في سياق البحث عن استقلال يرفض التبعية ويرفض التآكل معاً. وحين نرى

إلى انحطاط بعض مستويات الثقافة، وهيمنة الطفيليات الطائفية عديمة الكفاءة والموهبة على غذاء الناس اليومي أو الأسبوعي أو الشهري، فإننا لا نعلق: هنا الأزمة فاهربوا... بل نضع الظاهرة في عنوانها السياسي، وننتبه.. ننتبه إلى أسلحة الأدب القادرة على إخفاء خيانتها وادعاء القداسة وهشاشة الأحلام تحت غطاء الاشمئزاز من السياسة، أي من الصراع. لا، لسنا غرباء على أية أرض عربية. الغرباء هم الذين يشيرون إلى غربتنا بأصابع اتهام، لأنهم غرباء عن تاريخهم وعن معاني وجودهم، غرباء في موجة عابرة لا يرى فيها اللص غير وجوه اللصوص. وإذا كنا لا نستطيع مجاملة السلفية فإننا لا نرى الاستقرار في فوضى التجريبية التي لا تريد أن تقول أكثر من تجريبيتها. وإذا كنا نشكو التقصير من القدرة على إتقان لغة الناس، في العملية الإبداعية، فإن ذلك لا يمنعنا من الإصرار على التعبير عنهم لنصل إلى لحظةٍ يحقق فيها الأدب عرسه الكبير، حين يصبح الصوت الخاص هو الصوت العام. نعم، إن للأدب دوراً.. وإن انقطاع التفاعل بين النص وبين الذين يتحول النص ــ فيهم ــ إلى قوّة، هو اغتراب الأدب الذي يصفق له الآن المبشرون بالهزيمة النهائية لكل شيء. وهنا نستصرخ النقد، نستصرخه ليسترد الإيمان بشجاعته وجدواه، نستصرخهُ ليدخل الساحة المستباحة، نستصرخهُ ليرسي المعايير التي أباح غيابها للجهل وللثورة المضادة أن يتبطّنا في ادعاء الحداثة. ندعو النقد إلى إعادة النظر، على سبيل المثال، في حركة الشعر العربي الحديث التي اتسعت لشن الحروب كلها ووصلت

إلى مفترق طرق أعلن، على الأقل، انهيار وهم وحدتها السابقة. وندعوه إلى تمزيق حصانة النص الشعري الذي لا يقبل أداة النظر فيه خارج أدواته، فيما يُحمِّل نفسه بكل ما هو خارج ادعائه من حمولة إيديولوجية يحتكر إخفاءها ويحرم الناقد أو القارىء من حق إعلانها. ولنسأل عن دكتاتورية النص. لقد أوصلنا الحياء أو الجهل إلى درجة صار معها التقدم يخشى الإعلان عن نفسه. وأدنى من ذلك: صارت سلامة اللغة تخلفاً. واستقامة الوزن رجعية. وصار الوضوح عورة. وصار القول ووصول القول همجية. وباختصار: تقدمت الرجعية القادرة على الوقوف يساراً بكامل عدة الحداثة الشكلية، حافلة بمعاني السلفية. واستطاعت أن تستدرج الآخرين إلى أسئلتها في مرحلة انتكاس المعاني العربية الكبيرة، وعودة أبناء الطوائف الضالّين إلى طوائفهم، أو تصوفهم، أو رموزهم.. معلنين التوبة عن عمر أضاعته حركات التحرر التي لم تُسفر إلّا عن صعوبات لم تكن متوقعة، وأضاعتهُ الثورة التي دلت على أنها باهظة التكاليف، في مرحلة اجتياح «الثقافة» النفطية أغلبية المنابر والمؤسسات الثقافية والإعلامية، غير مكترثة بإعلان فارقٍ جوهري بين مستوياتها وإيديولوجية مصادرها، لأن تدمير الثقافة والمثقفين هو النتيجة الوحيدة الواضحة لظاهرة «رعاية» النفط للثقافة. هكذا تتحدد صعوبة المعركة التي نخوضها في سؤال الأدب، وهي انعكاس مباشر أو محوَّر لهجوم الرجعية السياسي والفكري التي لا تفتقر إلى أسباب الإفادة من فشل «رجعيات التقدم». وحين نكتب ونستكتب شعار حرية الإبداع

فإننا لا نستقطب غير نقاط الضوء والبدايات التي بعثرها الانقسام حول فكرةٍ أبسطُ مقوماتها: أننا نريد أن نحرر أنفسنا، وبلادنا، وعقولنا، وأن نعيش عصرنا بجدارة وكبرياء. وما دمنا نكتب فإننا نعبّر عن إيماننا بفاعلية الكتابة. من هنا، لا نشعر بأننا أقلية. نعلن أننا الأقلية ـ الأغلبية. ونعلن أننا قادمون من هذا الزمن.. لا من الماضي ولا من المستقبل»..

لماذا أصابهم هذا الكلام بالهستيريا؟

لأنهم يريدون لنا أن نكون جزيرة محاصرة..

سألني «س» للمرة العاشرة: إلى أين سنذهب؟

قلت: لا أعرف. إن هناك ضابطاً في غرفة العمليات لتحديد العناوين وأسماء المهاجرين.

قال: رُبما ينسونني.

قلت: رُبّما..

خاف. خاف إلى درجة نَهَر معها امرأته الثرثارة التي تعرف كل شيء، وتمتلك جواباً لأي سؤال: اخرسي! قالها بإنكليزية كرّديَّة جعلتها تصمت لمدة عشرين ثانية كاملة، واصلت بعدها ثرثرتها. إنها راديو مفتوح لا يكترث بالمستمعين. إنها أقسى من حصار. كان يطفىء أسئلة ضياعه في وهم غرابتها. كان يستوطنها قارباً أو ملجأ. كان ينتمي فيها إليها، إلى ما يسند الغربة بالغربة، ريثما يعرف أين هو.

وجدت له حلاًّ: إبق معي.

استبشر خيراً: أين؟

قلت: هنا في بيروت.

صاح: هل أنت باق؟

قلت: نعم. باق.

قال: ولكنني لا أحمل جواز سفر ولا بطاقة هوية. مُزَوَّرَة كل أوراقي مزورة. فكيف أبقى، وإلى أين أذهب؟

قلت: أين تريد أن تذهب: السودان، اليمن، سورية، الجزائر؟

اختار: الجزائر.

قلت: سترحل إلى الجزائر.

قال: هل تعلم أنني لم أسافر مرة واحدة في حياتي؟

قلت: ستسافر كثيراً، يا بني، ستسافر كثيراً.

في هذا البار الصغير، شربنا في السنين الفائتة، وفي هذا الحصار، شربنا من عصير الشعير ما يجعل الحمير تنطق شعراً.

ــ بالمناسبة، أين المثقفون الغاضبون منا؟ لم نسمع أصواتهم منذ بدأ الغزو؟

ــ لقد ذهبوا إلى الجنوب.

ــ ليقاتلوا الغزاة؟

ـ لقد اشتاقوا إلى عائلاتهم. وقد يصبح بعضهم شعراء أرض محتلة، أو شعراء مقاومة.

ـ ألا يزالون يعانون من هذه العقدة؟

ـ ولن يخلصوا منها.

ـ إذن، لماذا يحذفون المثال؟

ـ ليكبروا، ليقتلوا «الأب» ويستقلوا..

هل تتوقع تحولاً في كتابتهم؟

ـ لا أتوقع شيئاً.

ـ ولكنهم أبرياء وطيّبون.

ـ وأسرى نموذجيْن متناقضيْن.

ـ سيكبرون في التجربة.

ـ في الطائفية لا يكبر أحد.

ـ ليسوا طائفيين. هم يتامى وخائفون. والطائفية موجة حماية عابرة.

ـ إذن، لماذا يستقوون علينا؟

ـ لأَننا غرباء.. ولأَن الدولة بدأت عملية تكوُّنها. سينتخب الإسرائيليون بشير الجميل رئيساً للدولة.

□ □ □

.. يا سيدة لبنان، احفظيه لكل لبنان. الدعاء الخافت ينتشر كالخيمة النبوية، كالسقف مرفوعاً على الدبابات الإسرائيلية، والعادة الإسرائيلية السرية تتحول إلى زواج علني. والإسرائيليون يتمددون على شاطىء جونيه. وبيغن يلتهم، في عيد ميلاده، دبابة «مركباه» مصنوعة من الحلوى، ويدعو إلى توقيع معاهدة سلام، أو تجديد المعاهدة القديمة بين إسرائيل ولبنان. ويعاتب أميركا: لقد أهديناك لبنان...

ما هي هذه المعاهدة القديمة المرشحة للتجديد؟

إن بيغن لا يعيش في زماننا، ولا يتكلم لغتنا. إنه شبح قادم من عهد الملك سليمان، وهو العهد الذهبي في التاريخ اليهودي العابر على أرض فلسطين، حيث «جعل النقد في أورشليم عادياً كالحجارة. وبنى الهيكل الباذخ على هضبة، وزَيَّنَهُ بخشب الأرز والصندل والفضة والذهب والحجارة المنحوتة، وصنع العرش الملكي من العاج المطلي بالذهب. وأبرم معاهدة مع حيرام ملك صور الذي أمدّه بالمعادن والعمال الاختصاصيين، واصطاد معه السمك في البحر الأبيض المتوسط. سليمان يبني المراكب وحيرام يُقدِّم له الملاحين. سليمان يبني الهيكل ويحكم بعدما دان له الملك، وتعلم شعبه من الفلسطينيين صهر المعادن وصك الأسلحة، وتعلم الملاحة من الفينيقيين، وتعلّم طرق الزراعة وبناء البيوت والقراءة والكتابة من الكنعانيين».

بيغن يتقمص سليمان. يتخلى عن مزايا سليمان، عن حكمته وأناشيده ومصادره الثقافية، ولا يأخذ منه غير العصر الذهبي

المرفوع على دبابة. لا يتعلم منه عبرة سقوط المملكة حيث ازداد الفقراء فقراً وازداد الأغنياء غنى.. لا يعنيه منه غير البحث عن ملك صور لتوقيع معاهدة سلام. أين ملك صور؟ أين ملك الأشرفية؟ بيغن يُجمّد التاريخ عند هذه اللحظة ولا يصل إلى نهاية الهيكل الذي لم يبق سوى حائط للدموع، حائط لا يدل علم التنقيب عن الآثار على أنه أحد أبنية سليمان. ولكن، ما لنا ولتاريخ ما خرج من التاريخ؟ فكل شيء بقي على حاله في وعي ملك الخرافة.. ومنذ ذلك الوقت لم يفعل التاريخ شيئاً في فلسطين وعلى شواطىء البحر المتوسط الشرقية غير انتظار ملك الخرافة الجديد: مناحيم ابن سارة ابن بيغن الذي سيحمي الهيكل الثالث من الغضب الداخلي ومن الغضب الخارجي، بالتحالف مع ملك الأشرفية بشير، ابن بيير، ابن جميّل...

فدائيون من حَبَقٍ وحُريهْ

ومنذورون للجمرة

على قرميد أغنيّهْ

على أُسطورةٍ حُرَّهْ

هي الثورة،

هي الثورة...

خنادقهم هواءُ البَحْر

وظِلُّهُمُ يَشُقُّ الصخْر

نشيدُ نشيدهم واحد:

فإمَّا النَّصْر

وإمَّا النصر

ومنهم تُولَدُ الفكرة

هي الثورة،

هي الثورة...

وُلدنا فوق أيديهم

كما تتفتحُ الزهرةْ

فكمْ مَرَّه

وكم مره

سيُولد في ابنه الوالدْ؟

وتحملُ غابةً بذره

هي الثورة..

هي الثورة

.. وفي ساعات العصر هذه تتدلى السماء أكثر، مثقلةً بالرطوبة والدخان والحديد، سماء تصير إلى يابسة. ولا تستطيع المبارياتُ الإذاعية على صوت فيروز، الأثر الوحيد على وطن مشترك، أن تشير إلى شيء وإلى مشترك، لأن الصوت قد انفصل تماماً عن

مصدره، رحل عن أرضه إلى تجريد أزرق لا يخاطب العاطفة في وقت تحوِّل الحرب فيه كل شيء إلى تفاصيل. أُحبك يا لبنان ــ إعلان لا تصفق له بيروت المشغولة بشوارعها المقصوفة، المكثفة في ثلاثة شوارع. وبيروت لا تبدع غناءها، فذئاب الحديد المتوحشة تنبح من كل ناحية. والجمالُ المُغَنى له، المعبود، ينتقل إلى ذاكرة تشتبك الساعة بأنابيب النسيان الفولاذية. الذاكرة لا تتذكر بل تستقبل ما ينهال عليها من تاريخ. أهكذا يصير الجمال السابق، الجمال المستعاد في غناء لا يناسب مقام الساعة ــ جمالاً مأسوياً؟ وطن ينهار ويُرَمَّم في حوار الإرادة البشرية والحديد، وطن يرتفع على حنجرة تطل علينا من السماء، حنجرة وحيدة توحد ما لا يتوحَّد، وتؤلف ما لا يتآلف. هرب الكلام إلى البَعيد، أخذ الكلام كلماته وطار. فليس هذا الصوت عذابنا، ليس صوت الجنون.

وفي ساعات العصر هذه، يعجز البدن عن حمل أعضائه. وتعجز الروح عن الطيران. تتكوم فوق مقاعد الخوف واللامبالاة عاجزة عن الكلام. ونحن نجلس عاجزين حتى عن تبادل النظرات. آب بيروت لا تنقصه نار جديدة. خلفنا مدرسة تحولت إلى مستشفى. تحوم الطائرات بشراسة حول المستشفى. قال أستاذ العلوم السياسية القادم من الولايات المتحدة: سنصاب حتماً. فلنهبط إلى الطابق الأول. كان من الصعب إيقاظ «غ» فهي نائمة منذ شهر. ظننت أنها مريضة في الكبد. ولكنهم قالوا إن الخوف الشديد يدفع الخائفين إلى النوم العميق، النوم المتواصل. إنها تنام وهي

نائمة، تصحو وهي نائمة، تمشي وهي نائمة، وتأكل وهي نائمة. غبطناها على نظام الوقاية الذاتي. ولم يكن الطابق الأول أكثر أماناً من الطابق السادس، فلو قصفت البناية لبقينا تحت الأنقاض. تزايدت وتيرة الطائرات وازداد انخفاضها. قلت لأستاذ العلوم السياسية كي نخرج مما نحن فيه: أظن، يا دكتور، أن الجدل حول الجامعة المفتوحة قد انتهى الآن. قال: وانتهت مرحلة كاملة من مراحل العمل الفلسطيني واللبناني الوطني. وأوشكت تجربة المجتمع الفلسطيني الجديد في لبنان على الانتهاء. قلت: ومن أين تبدأ المرحلة الجديدة؟ قال حاسماً: ليس من الصفر كما قد يقال، ليس من البياض، بل من التراكم. لقد أنجزنا الكثير وعلينا أن نواصل تطوير ما هو صالح للتطوير.

لم يعد في مقدورنا تركيب جملة كاملة، وكان علينا أن نُعيد تركيب عناصر تجربة تتعرض للانهيار. لم يكن الرجل موحشاً، كان يعتني بأصوله القديمة ويفاخر بجذور تعرضت للاقتلاع منذ أربعين عاماً. يأتي من شيكاغو كل عام ليتدفأ بانبعاث شعبه. وقد ملَّ الغربة الطويلة في كلية العلوم السياسية هناك، وسكنه هاجس إنشاء جامعة مفتوحة للطلبة الفلسطينيين في الشرق الأوسط يكون مقرها لبنان. أن تطعن في جدوى الفكرة وقابليتها للتطبيق معناه أن تعتدي على أغلى أحلامه، فيتحول إلى كتلة من الأعصاب للدفاع عن مشروعه. كان المستوى التعليمي ينخفض في الجامعات. ولم يتورَّع بعض الطلبة عن تهديد الأساتذة بالسلاح، للحصول على علامات أفضل. كانوا يدخلون قاعات الامتحان

مدجّجين بالمسدسات. كم من شكوى تلقيناها دون أن يتمكن أحد من معالجة المشكلة بسبب اختلاط الهوية التنظيمية. وقبل ذلك كان الخناق يضيق حول الطلبة الذين لم يجدوا جامعات عربية لاستيعابهم. وكنتُ أمازح الدكتور: أفي مثل هذا المناخ الذي نعجز فيه عن ضبط شروط امتحان تؤسَّس جامعة مفتوحة تحتاج إلى استقرار اجتماعي ومستوى تربوي آخر؟ ولكن الدكتور كان شديد الإيمان بنجاح الفكرة، والأداة. كان يرى إلى واقعنا من بعيد. ومن بعيد تخفي الظواهر تفاصيلها وتقدِّم السطوح.

ــ ما هو مشروعك الآن؟

ــ سأعود إلى شيكاغو.

ــ والجامعة مفتوحة؟

ــ أُغلقت..

دخل علينا الأميركي الذي يظهر حين ينبغي له أن يختفي، الأميركي السعيد بما يرى، الشاهد على ما لا يتوفر لسواه من نعمة التجربة. حرب وحصار. أهنالك ما هو أكثر إثارة لأميركي يلهث وراء أية مأساة بكاميرا ودفتر وزوجة من هذا الموت؟ سمَّيته الـ «كوسمان» لأنه عاشق القضايا الساخنة. ولم أطمئن إلى ما يُبدي من افتتان بحرب تمدهُ بثروةٍ إعلامية. كان علينا أن نموت أكثر ليعمل أكثر، ولينتشي بمعايشة الضحايا. جاء من نيويورك، خصيصاً، ليتفرَّج علينا. لم يكن صحافياً محترفاً يركض وراء

الخبر لخدمة المهنة. كان هاوياً يصور المآسي بعدسة كاميرا تلفزيونية وعلى أشرطة تسجيل.

ــ ما هو شعورك؟

ــ عكس شعورك.

ــ ماذا تقصد؟

ــ هل ستعترفون بإسرائيل؟

ــ لا ..

كان الدكتور قد استدعي إلى القيادة ليشارك في صياغة عبارات قانونية غامضة تداور حول هذا السؤال الذي كان يشارك في القصف.. عبارات غامضة حول قرارات مجلس الأمن. كانت الضحية مطالبةً بالاعتراف بحق قاتلها في قتلها. كان المطمورون تحت الأنقاض مطالبين بإعلان شرعية قاتلهم. لم تكن الفرصة مواتية لمثل هذا الاغتصاب السياسي، بقدر ما كانت السّادية أسراباً من الطائرات. لأول مرة يُطالَب غيابنا بالحضور الكامل: الحضور من أجل تغييب الذات. من أجل الاعتذار عن فكرة الحريّة. من أجل القول أن غيابنا حقّ من أجل تزويد حقّ الآخر بحقٍّ تقرير مصيرنا. الآخر الحاضر في كامل أجهزة القتل يطالبنا بالحضور قليلاً من أجل إعلان حقّه في دفعنا إلى الغياب النهائي..

ــ لماذا نطالب، الآن، بالاعتراف؟

ــ من أجل سلامتكم، ومن أجل سلامة العالم.

ــ الغريق لا يحرص على جريان النهر. المحترق لا يحرص على بقاء النار مشتعلة، والمشنوق لا يحرص على متانة حبل المشنقة..

□ □ □

كنتُ أحمل عنقود عنب وجريدتين، حين انقضَّ عليَّ حرف «الهاء» الخائف، الخائف أبداً، في السلم والحرب، الخائف من أيِّ شيء: من ليلة بِلا عاشق، من عام بلا كتاب جديد، من بيت بلا بيانو، من شهر بلا نقود، من طريق بلا غزل. انقضَّ عليَّ كما تنقضُّ التهمة على لص: متى تخرجون.. متى تخرجون؟ لقد دمرتم بيروت بهذا العبث البطولي.

قلت: تعنين البطولة العبثية؟

قالت: لا فرق. أما زلتم تصدِّقون؟

قلت: نُصدق ماذا؟

قالت: أي شيء، اخرجوا.. اخرجوا كي تعود المياه إلى أنابيب البيوت..

هي دائماً هكذا: عصبية، شقية، ذكية، غبية، وجذابة كعصفور الدوري. تقدِّس الماء والعطر. وهي الأولى لكُل عاشق من فرط رهافتها ودعتها المتجددة. عذراء البدايات من عشرين عاماً، وتُربي تموجات بطنها لإغراء أسراب الحمام. تندفع وتتراجع. تلعق بلسانها قدم العاشق، تغسل جواربه وقفاه، تحلق له ذقنه، تقدم له النهار على طبق من كستناء، وتقدم له الليل على سرير من فُلّ.

وسرعان ما تسخر من اندفاعها وأوهامها: أخطأت. إنه لا يساوي شيئاً. كنا نداعبها، أنا وأهلها، ونُسمي طباع خيبتها «جورج». هل تذكرين جورج؟ فتقفز من وجهها الطفولي لتعضنا واحداً واحداً. نحن نواصل الضحك وهي تواصل كسر الأطباق.

أحببتُ مروحة عواطفها وبراءة الشيطان فيها، وخوفها من الطائرات حين تجعلها تقفز كجندب فوق الأثاث وتصرخ: بس بس.

أبوها يبكي على أي إنسان يموت في أي مكان. أُمها تُصلي لسيدة لبنان ليحمي بطلها لكل لبنان. وأختها تُعدُّ الطعام لولد لا يشبع، وتنتظر خط الهاتف للاطمئنان على الشاب الفرنسي. وأنا أواصل الاعتذار عن وجودنا في بيروت.

ــ متى تخرجون؟

ــ حين يوقفون القصف، ويصبح الميناء آمناً. اهدئي يا «هـ» فلسنا نحن الذين نملك هذه الطائرات.

ــ إلى متى تمضون في شيء لا يوصل إلى شيء؟

ــ خذي عنقود العنب. وابحثي في الجريدة عمَّن مات. إنهم يقصفون حتى بيوت العجزة، ويقصفون الشهداء ليعيدوا إنتاج موتنا.

ــ هل ستذهبون وتتركون شهداءكم؟

ــ إذا استطعت أن تعيدي إليَّ ما في دمك من دمي، فسنأخذ

معنا شهداءنا إلى البحر.

ــ لا أقصد، لا أقصد أن أجرحكم.

ــ وسنأخذ معنا بخار المرايا، أحلام منتصف الصيف، وأغاني فيروز عن بيسان.

ــ لا أقصد، لا أقصد أن أجرحكم.

ــ وسنأخذ معنا خبز الكلام.

ــ لا أقصد أن أجرحكم.

ــ وسنأخذ معنا دخان القلوب المحترقة.

ــ لا أقصد أن أجرحكم.

ــ وسنأخذ معنا الصمت الذي يسبق غايات القصائد.

ــ لا أقصد أن...

ــ وسنأخذ معنا آثار المطر المتجعد على خطى حاولت أن تسمّي الوقت.

ــ لا أقصد أن أجرحكم.

ــ وسنأخذ معنا ما استطعنا أن نراه من هذا البحر. سنأخذه معنا إلى البحر.

ــ لا أقصد أن..

ــ وسنأخذ معنا رائحة القهوة وغبار الحبق المفروك وهاجس الحبر.

ــ لا أقصد أن أجرحكم.

ــ وسنأخذ معنا ظلال الطائرات وصوت المدافع في أكياس مثقوبة..

ــ لا أقصد أن أجرحكم.

ــ وسنأخذ معنا ما خفَّ حمله من الذكريات، وعناوين أُسطورة، ومطالع الصلاة.

ــ لا أقصد أن أجرحكم.

ــ ولن نأخذ معنا شيئاً. لن نأخذ معنا شيئاً.

ــ لا أقصد أن أجرحكم.

ــ لن نأخذ معنا شيئاً. خذي سريري ومكتبي وحبوب نومي. خذي غيابي كله، خذي غيابي عن المقعد الجالس خلف الباب.. خذي الغياب.

□ □ □

هل بكيت؟ لقد نزفت الملح السائل، ملح السردين الذي كان غذائي الوحيد منذ أيام. ولم يعد في مقدور الطائرات أن تخيفني كما لم يعد في مقدور البطولة أن تطربني. لا أُحبُّ أحداً ولا أَكره أحداً ولا أُريد أحداً ولا أُحسُّ بشيء أو أحد. لا ماضي لي ولا مستقبل. لا جذور ولا فروع. وحيد كتلك الشجرة المهجورة في العاصفة الكبرى على سهل مفتوح. ولم يعد في وسعي أن

أخجل من دمعة أُمي ولا أن أرتعش من تقاطُع حلمين وُلدا في لحظة واحدة عند الفجر...

□ □ □

لتكن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا العالي لها
شَجَرٌ لا ينحني. يا ليتني.. يا ليتني
أعرف الساعة من أين يطيرُ القلب كي أرمي لها
طائرَ القلب لكي ينقذني من بدني
لم أَمُتْ بَعْدُ، ولا أعرف هل أكبر يوماً واحداً
كي أرى ما لا يُرَى من مُدُني
لتكن بيروت ما شاءت، فهذا دَمُنا العالي لها
حائط يبعدني عن شجني
ولنا البحرُ إذا شاءت، وإن شاءت فلا
بحر في البحر. هنا أسكن فيها رايةً من كفني
وهنا أخرج مما ليس لي
وهنا أدخل في روحي لكي يبدأ مني زمني
ولتكن بيروت ما شاءت. ستنساني لأنساها
أأَنسى؟ ليتني .. يا ليتني!

أستطيع الآن أن أُرجع مني وطني

ليتني أعرف ماذا أشتهي

يا ليتني

يا ليتني!

□ □ □

غروب للغروب تندفع كُتَلُ الغيوم السوداء المعبأَة بالبارود نحو حافة البحر. تحمل الطيور تعبها وتحوِّم باحثة عن بقعة لا تطاولها أجنحة الطائرات. غروب يدلُّنا على ما فينا من تعب. ينهال علينا الظلام والفحم والقنابل ليشتاق الجسد إلى جسد يضيء شوقاً لا لهفة فيه ولا موت؛ شوقاً معدنياً آليّاً لا تخترقه عصافير سريّة ولا نغم بعيد، شوقاً مقطوعاً من شجرة الطارىء كما يشتاق الوقت الميت إلى حَبَّة فُستق مالحة، أو إلى أي صوت صادر عن راديو..

إلى أين أذهب في هذا الغروب؟ لقد سئمت ذلك الدرج. سئمت تلك الثرثرة هناك. وهناك شرفة الشاعر الذي رأى سقوط كل شيء، فاختار موعد نهايته. أَمسك خليل حاوي بندقية الصيد، واصطاد نفسه، لا ليشهد على شيء، بل لكي لا يشهد شيئاً ولا يشهد على شيء. لقد سئم هذا الحضيض، سئم الإطلال على هاوية لا قاع لها. وما الشعر؟ الشعر أن يكتب هذا الصمت الكوني، النهائي، الكُلي. كان وحيداً، بلا فكرة، ولا امرأَة، ولا قصيدة، ولا وعد. وماذا بعد وقوع بيروت في الحصار؟ أَيُّ أُفق،

أيَ نشيد. لعبت معه «طاولة الزهر» منذ أكثر من شهر. لم يقل لي شيئاً. لم أقل له شيئاً. جلسنا ولعبنا. لعبة لا ذكاء فيها ولا مناورة. الحظ هو الذي يلعب. وعلى الحظّ أن يطيع خليل حاوي، وإلّا غضب على الحظ وعلى شريك اللعب. كان يعنيه كثيراً أن ينتصر، عكس الشاعر «أ» الذي ينتصر ويبتسم وينهزم ويبتسم، لأن ما يعنيه وما يراهن عليه يقع خارج هذا اللعب. لذلك يفتقر اللعب معه إلى شيء من الحماسة، عكس خليل حاوي المتحمس، المتوتر، اللاعن الطاعن في الهجاء. لا أُريد أن أطل على شرفته. لا أُريد أن أَرى ما فعله نيابةً عني. لقد خطرت الفكرة نفسها على بالي وتراجَعَتْ أو تراجعتُ. وقريباً من هذه الشرفة، بعد أربعة شوارع تحت، سقط شاعر آخر منذ قليل، شاعر سمَّى نفسه الذئب والغجري وسيِّد الرصيف. كان يوزِّع هويته الشعرية «الرصيف» عندما أُصيب بقذيفة. كان عَدُو المؤسسة، أية مؤسسة. وكان ينشيء مؤسسة الرصيف، كان ينشيء مؤسسته. ولكن منافسه على الرصيف، خصمه العنيد «ر» يقول باعتزاز: أنا قتلت علي فودة. كيف قتلته؟ ــ سألناه. قال في هدوء عقلاني: سلَّطتُ عليه كراهيتي. كراهيتي هي التي قادت القذيفة إلى بطنه. أنا الذي قتلته. ألستَ نادماً؟ سألناه. قال: لا.

إنني أكرهه حيّاً وميتاً، وأستحق التهنئة.

□ □ □

إلى أين أذهب في هذا الغروب؟ قادتني خُطاي في ضوء

الطائرات والقذائف إلى منزل «ب». يبدو لمن لا يعرف «ب» أنه يقود هذه الحرب كلها، من الجبهة العسكرية إلى المفاوضات إلى الإعلام. حيوي، فتيّ، شقي. وجد في هذه الحرب لعبته الضائعة. إحدى يديه على الهاتف، يصرح بما يعرف وبما لا يعرف. ويده الأُخرى تكتب الأوامر والتعليمات والتوصيات. ينظِّم عشرين موعداً في الساعة ولا يتعب. خليَّةٌ نحل في رجل كَرَّسته الأَقدار للطنين. صديق بلا شروط. مرح، ذكي، معطاء. وفي منزله صَنَم لا يتكلم. صنم يُهتَفُ له. يُسجدُ له. كلما صمت أكثر أثارت حكمة صمته عاصفة من التصفيق. وفي منزله صديق اسمه «أ» قادر على تصوّر شكل العالم بعد نصف قرن من الزمان. أفكاره المبنية على منطق شكلي سينمائية الإثارة. يتكلم عن الدول الكبرى والصغرى كما يتكلم عن شوارع بيروت، بلا كلفة وبلا تردُّد. وإذا صَدَقَتْ آماله فهذا يعني أن هذا الشرق سيُحاصر بعد قليل بين نوعين من كهنة الظلام. أُوافقه على هذا الاحتمال باعتباره حداً أقصى لتطور التدهور، باعتباره أحد أشكال الكارثة القادمة. ونختلف إلى ما لا نهاية حين يرى أن ذلك هو طوق النجاة الوحيد، وأن في وُسع ظلام أن ينتصر على ظلام، ويكون الفجر لنا. وأنا لا أُصدِّق ولا أُريد أن أُصدق أن تاريخ هذا الشرق سيكرر نفسه بطريقة ميكانيكية أو حتى إبداعية، مهما انفصلت شعارات السياسة الحديثة عن مبادئها، ومهما تخلَّص الخطاب من مضمونه، فلن أتوقع تغيير العرب وتطوير العرب من غير العرب. ولا أرى أن ذلك النموذج المعدّ لإغراء اليائسين من

العصر بالإيمان قد يَعِدُنا بما هو دون العودة إلى الصراع على أسئلة لم تعد أسئلتنا. ما لي وأخطاء عثمان بن عفان؟ إذ ليس هذا التاريخ، وحده، تاريخي..

يصرُّ «أ» و«ب» على أننا لن نخرج، لا لأَنهما يفتقران إلى المعلومات وخبايا المفاوضات، بل لأن فكرة الخروج من بيروت تُشبه فكرة الخروج من الجنَّة أو من الوطن. كان يصعب على مَنْ شارك في صياغة التجربة وشهد نمو بدايتها المرافق لنموِّه الشخصي أن يلقى نفسه خارجها وهو يلامس نهاية بدت له صاعقة. لم يكن أحد قد أعدّ نفسه، ولو في الخيال، لمثل هذه الفرضية. لنفترض أن موازين القوى أخرجتنا من هذا المكان، فماذا أعددنا للرد على الاحتمال؟ ماذا أعددنا لما هو أسوأ؟ ماذا أعددنا من بدائل لهذا التمركز المؤسساتي الكثيف؟ هل أصابنا نوع من القدرية ومحالفة الحظ؟ ألم ننجُ أكثر من مرة، فإلى متى نعتمدُ على النجاة؟..

و«م» صامت بعيد عنا، وبعيد عن السحالي. منكفىء. يرى البحر. يرانا في البحر. كأنه خارج، للتّو، من كابوسي. لا يراه أحد وهو يدثر بالصمت ويردّ عنا أمواج البحر المتلاطمة في الغرفة. هل ترى ما لا نرى يا «ميم»؟ يرد: وهل ترى ما لا أرى يا «ميم». خفت: هل رأيت حلمي. لم تكن أنت في منامي. قال: لم أكن في منامك، ولكن هل ترى ما لا أرى؟

هدأت أصواتهم ليتأكدوا من أننا أُصبنا بالجنون.

أخذني إلى الشرفة: هل شقَّتُكَ آمنة؟ سألت: ماذا تعني؟ قال: هل تصلح لنوم القائد. هل جيرانك معنا أم ضدنا؟ قلت: البحر ضدنا. قال: هل تعني أنك تخشى على سفينته؟ قلت: أعني أن واجهة شقتي زجاجية ومفتوحة على قذائف البحر. قال: لا تصلح. ومن الأفضل أن ينام، الليلة أيضاً، في كَراج للسيارات أو على الطريق.

هَبَّتْ رياحُ الجنة. لقد استعدَّ لكُلِّ شيء، وأبطل توقيعه. لم يبق على المسرح احتمال لدخول شخصيات جديدة. ووقف وجهاً لوجه أمام القضاء والقدر. هل كانت التراجيديا إغريقية أم شيكسبيرية؟ لقد زُجَّ بكل عناصر الدراما في المشهد الطويل. فهل يُضَحِّي بالطفلة الرهينة بيروت أم يخرج إلى ما لا يعرف؟ هل يموت هنا في انفجار عظيم لتُشهر الفكرة نُبوَّتها، أم يُنقذ هذا البناء على السفن؟ لم يبق هنا شيء يُحرك ما هو خارج البحر والسور. وانفضّ العالم من حول المشهد. وحيد.. وحيد إلى ما لا نهاية. هل كان وحيداً منذ البداية دون أن يدري. هل جاء متأخراً أم جاء مبكراً هذا الحاملُ عود الثقاب في حقول البترول؟ وحيد كمقطع في نشيد لا مطلع له ولا ختام، وحيد كصرخة القلب في برية..

بعض الجمعيات الدولية يُعِدُّ لنا الخيام لمواجهة الشتاء القادم، فنحن ما زلنا ــ في وعيهم ــ لاجئين يستدرّون العطف ويخافون الشتاء. وأميركا تحتاج إلينا قليلاً، تحتاج إلينا لنعترف بشرعية ذبحنا، تحتاج إلينا لننتحر لها، أمامها، من أجلها. والقبائل العربية

تقدم لنا الدعاء الصامت بدلاً من السيوف. وبعض العواصم يمجد بطولاته فينا وينكر دمنا. فلا اسم لمن يقاتل حول المطار! وبعض العواصم يعد لنا خطاب الوداع الجنائزي.

□ □ □

هبَّت رياح الجنة. فهل سيقول الحقيقة. هل سيقول الحقيقة؟

لن يقول..

سألت «م»: أي بحر سنسلك؟

قال: البحر الأبيض، ثم البحر الأحمر.

قلت: لماذا أنت بعيد؟ هل كنت في منامي أمس؟

قال: لا أعرف. أي منام؟

قلت: كنا هنا. الغرفة ذاتها. الكلام نفسه. الصنم نفسه. والغارات هي الغارات. دخل حارس البناية ليبلغنا أن شخصاً غريباً يدَّعي أنه صديق قديم قد جاء لزيارتكم. فوضع كل رجل يده على مُسَدَّسه لاستقبال ما يسفر عنه الباب من غموض. وخبّأنا الصنم في الحمّام. ولكن الزائر كان عز الدين قلق بتوتره الضاحك. سألناه: كيف وصلت؟ قال: كما وصلتم وصلت. لم يتغيَّر فيه شيء. بعيد وأليف. ولكنه كان ينظر إليك بريبة مَنْ يقابل غريباً لا يعرفه. قلنا له: اطمئن يا عز، فإن «م» في غرفة العمليات.

كنا نتكلم معه بلا دَهَش، كأَنه مسافر عاديّ قادم من باريس. كان يواصل حضوره بيننا ويشاركنا عملية الانسلاخ الجماعي

الكبير عن هذا المكان. نسينا أنه غادرنا إلى الأبد منذ عشر سنين، وأن الموتى لا يزورون الأحياء إلّا لإثارة التأويل. ولكن عز الدين بيننا بلا جلبة ولا فزع.

سألته عن أحواله هناك في الآخرة. قال إنها عادية لا جديد تحت الشمس. قلت: هل هناك شمس؟ قال: نعم، هناك شمس. سألته عن المناخ فقال إنه حار ورطب لأنّ المناخ في آب حار ورطب. سألته إذا كانوا هناك يعرفون أخبارنا وما يحدث في هذا الحصار؟ فقال إنهم يتابعون الأخبار، ساعة، ساعة، على شاشة التلفزيون. ويتألمون من الغيظ لعجزهم عن تقديم أي عون لنا. سألته عمَّن وصل إليهم منا لعلّهم قدموا لهم شهادة حيَّة عما يجري. قال: لم يصل إلينا أحد. قلت: وقد نسفوا مقبرة الشهداء، فهل نجا أحد من الشهداء وجاء إليكم؟ قال: لم نقابل أحداً منهم، وسألته أين تقيم؟ في الجنة أم في النار؟ قال مستغرباً: ماذا تعني؟ قلت: من أين جئت: من الجنة أم من جهنم؟ قال جئتُ من هناك... من الآخرة. حدَّقت فيه مليّاً لأَتأَكد من آثار عنوانه على جسده، فوجدته طبيعياً وعادياً كما غادرنا، لا آثار للجحيم ولا علامات للنعيم. أهذا كل شيء يا عز الدين.. أهذا كلُّ شيء؟.. هل تزوجت؟ قال لم أجدها بعد. مَنْ لا حظ له في الدنيا لا نصيب له في الآخرة. سألت: وكيف تقضي وقتك هناك؟ قال: كالمعتاد.. من المكتب إلى غرفتي في الحيّ الجامعي، ومن قاعات المحاضرات إلى بيوت الطلبة. وأتذكرك حين أُسافر في القطار من باريس واقفاً، وحين أطلُّ على منزل بيكاسو وعنزته الشهيرة،

وحين أدخل المطعم ذا الجدران الممتلئة بجميع أشكال الخبز، وأتذكر الطلبة التونسيين الذين صاحوا بنا في عيد الثورة: سحقاً سحقاً بالأقدام لدعاة الاستسلام، فرددنا عليهم: سحقاً سحقاً بالأَقدام لدعاة الاستسلام. التفتنا إلى «ب»، فلم نجده.. كان مشغولاً بحماية الصنم من القصف..

قلت لعز الدين: أما زلنا، قبل التكوُّن في حاجة إلى الأوهام لنتكوَّن؟

قال: يبدو ذلك.

قلت: وما زلنا في مرحلة التكون في حاجة إلى أصنام يعبدها بحثُنا عن المثال؟

قال: يبدو ذلك.

قلت: وما زلنا في مرحلة سباق الدم مع الفكرة، وسباق الفكرة مع الإطار. في حاجة إلى حبر فاسد. وإلى أدب مبتذل لنقول إننا مؤهلون؟

قال: يبدو ذلك..

قلت: إذا كان الجواب عن ذلك هو يبدو ذلك، فلماذا نخرج من بيروت إلى الفضيحة.. ودواليك؟

قال: لا أعرف.

قلت: كيف تفكرون هناك؟

قال: مثلكم. كما تفكرون هنا.

قلت: يا عز الدين، ماذا تفعل هنا. ألم تُقتل؟ ألم أكتب فيك رثاء. ألم نمش في جنازتك في دمشق. هل أنت حيّ أم ميت؟

قال: مثلكم!

قلت: يا عز الدين، لنفترض أنني قلت لك إننا أحياء، فهل أنت ميت؟

قال: مثلكم.

قلت: يا عز الدين، لنفترض أنني قلت لك إننا موتى، فهل أنت حيّ؟

قال: مثلكم.

صحت: يا عز الدين، ماذا تريد مني؟

قال: لا شيء.

قلت: إذن، دعني وشأني.

قال: آن لي أن أذهب؟

قلت: إلى أين؟

قال: من حيث جئت.

قلت: إبق معنا قليلاً.. سنخرج معاً.

قال: انتهت إجازتي، وعليَّ أن أعود.

قلت: من أين جئت؟

قال: لا أعرف...

صافحنا واحداً واحداً. ولكنه خصّك يا «م» بنظرة خاصة سحبتك منا قليلاً. عانقناه على الباب.. حيث تلاشى كخاطرة شاردة. نظرت إلى الدرج فلم أجده. نظرت إلى الشارع فلم أجده. اختلط بأمطار القذائف. لم أجده في أي مكان. نظرت إلى شظايا الصواريخ فلم أجد أحداً.. عز الدين اختفى.

قلت لهم: هل كان مضطراً للعودة؟

قالوا: من هو الذي كان مضطراً للعودة؟

قلت: عز الدين.

قالوا باستهجان: من هو عز الدين؟

صرخت: الرجل الذي كان معنا. هنا. الآن. وما زالت خطواته تدقّ الدرج!

نظروا إليّ كما ينظرون إلى ممسوس. أشرت إلى مقعده المسكون بطيْفه:

هنا. هنا.. كنتم تتحدثون إليه. كنتم تعانقونه.

لم يصدقوني. قدموا لي كأساً من الماء وفنجان قهوة..

هل يحلم المرء وهو جالس مع الآخرين؟

هل يحلم المرء وهو يحاور؟

□ □ □

.. البحر يقترب منا. الخريف يقترب من البحر. آب يُسلمنا إلى الخريف. فإلى أين يأخذنا البحر؟

القصة إياها، لا أكتبها ولا أنساها. غصَّةُ الكتابة وحرمانها الأَبدي، قصة الرجل الذي جلس سبعة وعشرين عاماً فوق صخرة على شاطىء صور. أما آن لها أن تعتقني؟ أم آن لها أن تأخذني معها إلى البحر. ولكن من يفكر بالكتابة في هذا اليوم، سأنسخها مرة أخرى لأتدرّب على الكتابة، سأنسخها لأجد طريقي في البحر. تعبتُ من كثرة ما سألتُ هاني: كيف نُسمِّي الرجل الذي نسينا اسمه؟ ومتى تأخذني إلى الصخرة التي هبط منها كمال إلى البحر؟

سأل هاني: من هو كمال؟

قلت: هو الرجل الذي أسألك عن اسمه منذ ثلاث سنوات، الرجل الذي كان جالساً فوق صخرة على شاطىء صور، في انتظار حمامة تظهر من الجنوب الغربي حين تكون الرؤية واضحة وحين يكون البحر عاقلاً. ولم يكن يعرف شيئاً، لا شيء، غير تلك الحمامة التي لا يعرفها أحد. كانت سرّهُ الباقي. وحين كان أصدقاؤه في المخيم يجتازون الحدود ويعودون أو يموتون، لم يكن يكترث بأخبارهم أو بطولاتهم. كان يجلس على الصخرة في انتظار الوقت المناسب الذي سيأخذه على البحر إلى الحمامة. ولم يكن بإمكان الطائرات المغيرة أو جنازات الشهداء أن تسلخه عن الصخرة. كان الضباب والغروب، وحدهما، يعيدان كمال إلى العائلة.

سألت هاني: هل تعيش حمامة سبعاً وعشرين سنة؟

قال: إن كمال يعتقد أنها تعيش من الأَزل إلى الأَبد.

سألت: ولماذا لا يصطادها؟

قال: لأَنها لا تطير، ولأَنه لا يستطيع الوصول إلى بُرجها. وأخيراً وضع يديه على الطاولة وفتحهما ليسكب السرَّ دُفعة واحدة: لماذا أتعبك وأتعب صدري؟ فالمسألة لا تحتاج إلى كُلِّ هذه الأَسئلة.

الحمامةُ هي حيفا..

... لأَن جبل الكرمل المنبثق من صعود البحر إلى السماء ومن هبوط السماء إلى البحر، يرسم معجزة: أعني عنقاً مُطوَّقاً بقبلة مجبولة من حجر وشجر، أعني حيفا تتقدَّمُها شهوة حادة في كل منقار مُلَوَّن يشهد علي أن في مقدور موجة جامحة أن تتحجَّر من الأَزل إلى الأَبد. لأَن الأمر كذلك فإن حيفا تشبه الحمامة. وكل حمامة تشبه حيفا.

ولكن ما لم يدركه كمال هو أن المدينة تطير... تطير في دمه.

وكمال ينطوي على سرِّه. يلتف بذكرياتٍ صارت أحلاماً. يتعبَّد. يزيح عن نفسه زمناً لا يستهويه فلا يعترف به. كُلُّ ما يجري في هذا الزمن هو هَمُّ الآخرين أو صغائرهم. اندلعت حروب أربع دون أن تعنيه أو تكون حروبه، طالما لم تأخذه شظيّةٌ واحدة من شظاياها إلى.. الحمامة.

أعطني مزيداً من التفاصيل عن كمال يا هاني، هل عرفته شخصياً. هل رأيتَهُ في صور؟

يتردد هاني في الإِجابة، فأعرف أنه لا يعرف. ولكنه يقول:

لا يعرف البحر من يراقب البحر. لا يعرف البحر من يجلس على الشاطىء. ولا يعرف البحر من يأتي إليه ليرى مشهداً. لا يعرف البحر إلّا من يغوص. يجازف. وينسى البحر في البحر. يتلاشى في المجهول كما يتلاشى في امرأَة الحب. لا فاصل بين الزرقة والماء. هناك الكلمات. لا يُرى ولا يُلمس إلّا في أعماق البحر. ألبحر هو البحر..

ـ لا أحب شعرك يا هاني، حدثني عن كمال، لا تحدثني عن نفسك!

لا يستطيع. منذ ثلاث سنين وهو يروي قصته مع بحر صور. ولا شيء عن كمال. لا شيء عدا العنوان.

ـ قل لي ما هي سيرة كمال؟

ـ قلت لك إنه يُسَمّي حيفا حمامة. وهو أيضاً صيَّادُ سمك. يصطاد في الليل. وفي النهار يتطلَّع إلى الحمامة.

لا يستطيع أحدٌ ملاحقة موجة غرقت في البحر. حين يخرجُ العاشق السيىء الحظ من تجربة الحب الأول ومن محاولة الانتحار الأولى، يصعب عليه وعلى قاضي المحكمة التوصّل إلى إثبات البراءة أو نفيها فيدخل في السجن الأول ويخرج إلى طريق آخر. لأَن العاشق السيىء الحظ يُؤثر العقوبة على الاعتراف المثير

للسخرية. ماذا لو قلت: حين قطعتُ الشارع هناك لم أحمل قنبلة ولم أنتبه إلى لافتة «منطقة مغلقة».. كنتُ أحمل أشواك القلب لأرميها في البحر، لأن حبيبتي كانت تُزَفُّ في تلك الليلة. وماذا لو قلت أيضاً: سيدي القاضي، كنت أريد الانتحار في المجهول المائي الذي لا ينذر بالوجع. ولكن القمر أطلّ قوياً فرأيت الحجارة المدبّبة تحت سطح الماء الصافي، فخفتُ الموت وعدت، لأنه سيكون موتاً مؤلماً، موتاً صخرياً واضحاً جارحاً. فتبّاً للذين عَيَّنُوا موعد الزفاف في ليلة مقمرة!

ولكن، لو قلتُ ما كان ينبغي عليَّ أن أقول لأنجو من السجن، فهل كان القاضي سيقبل المسألة على هذا النحو. هل يصدق؟ هل يُصَدّق أني اجتزتُ هذا الطريق لأنتحر من أجل فتاة لا من أجل بلاد!

وهكذا دَلَّني القاضي على أن للبحر طريقاً آخر. أو أَنَّ في البحر سّراً آخر. ومن يومها وأنا أذهب إلى البحر ولا أراه.

ــ هل تعرف لماذا لا تراه؟ لأَنك تذهب إلى الشاطىء.

ــ ولكنني أرى البحر.

ــ لا أحد يعرف البحر كالآخر.

ــ وماذا حدث لكمال. أما زال يرنو إلى الحمامة؟

ــ عاد إلى البحر.. عاد ليلقى الحمامة.

كان كمال قليل الكلام، أو شبه أخرس. ربما كان يعتقد أن الكلام يفسد عليه الرؤية، ويزعج الحمامة. ومع ذلك قال مرة:

في هذا المخيم

تُولد وردة

إذا عاشت طويلاً

ضاعت الحمامة.

ــ ماذا كان يعني؟

ــ لا أعرف. كان غامضاً. كأنه ليس منّا. كأنه لا يشاركنا العودة..

في الخريف لا يكون البحر بحرياً. يكون سجادة من ماء. ويكون الضوءُ قصباً..

وفي الخريف تسكت أجراس البحر. وتقرع أجراس الدم..

وفي الخريف تذبل الحمامة..

وفي الخريف يتحول القلب إلى تُفَّاحة ناضجة..

وفي الخريف تنكسر الذاكرة فيسيل الخمرُ من النسيان..

وفي الخريف ينطق الأخرس:

يا ليتني أرمي خُطَايَ

على طريق مِنْ زَبَدْ!

يا ليتني أرمي خُطاي لكي أنام
على سرير من زَبَدْ
حيفا! لماذا لم تطيري كالحمام
حيفا! لماذا لا أطيرُ ولا أنام؟
حيفا! لماذا لا تقولين الحقيقة:
أنتِ طيرٌ أم بَلَدْ
يا ليتني أرمي خُطاي.
وأستريحُ إلى الأَبدْ...

.. وسرق كمال زورقاً..

ظلّ يجدف في اتجاه الحمامة. ولما اقترب منها كانت الظهيرة ساطعة. وكان ريش الحمامة المطرّز من الحور والغيم واضحاً. وكان حرس الشواطىء واضحين. فأدار المجداف عائداً إلى عرض البحر وتظاهر بصيد السمك ريثما يهبط الغروب ويقفز إلى طوق الحمامة النائمة على بعد دقيقتين من الموج.

رأى موجته الضائعة فتعرف عليها: حين صحا، قبل سبعة وعشرين عاماً، على صوت الرصاص القادم من منطقة البلدية فتح النافذة فرأى الناس تندفع إلى الميناء، فهبط من شارع عباس وأبحر

مع المبحرين إلى ميناء عكا التي لم تكن محتلة. وعلى هذه الموجة وصل إلى صور..

يبدو أن كمال قد فرح للطريقة التي استولى بها على مصيره الكامل. فقد التقط اللحظة الفاصلة بين زمنين لا يلتقيان. وسيطر على الموجة التي شرّدته لتعيده الآن. كأنَّ حالماً قد استطاع أن يصحو في اللحظة المناسبة، وأن يُسجِّل حلمه كاملاً على ورقة. هل حدث من قبل أن عاد بحارٌ على الموجة التي شرّدته وضاعت؟ هل حدث من قبل أن قتل قتيل قاتله بضربة الخنجر ذاتها؟ هل حدث من قبل أن عاد أحد على طريق الرحيل؟ لم يتمكن من إخفاء سخريته من الطريق التي مشى عليها الآخرون كي يصلوا. لم يكن يحج. كان ينزل أقسى العقوبات بزمان كسره. سيجدف في هدوء. سيرسو عند أول صخرة. سيُمْسك بالزورق بكلتا يديه ليغرقه في رمل البحر بكُلّ ما فيه من حمامات رآها في سماء أخرى. سيبوس هذه اليابسة ويغرف منها رائحة صبا تكسّر وتبعثر. سيتحسّسُ مفتاح أمه الذي استرده من قبرها. سيمشي في شارع الملوك المحاذي للشاطىء ويتذكر عهده الأول في بيع السمك. سيصعد الدرج الحجريّ العتيق الذي يبدأ من درج الموارنة وينتهي عند شارع الخوري. سيلتفت إلى شبابيك تعلَّم أمامها داء التدخين والصفير الأول، ثم ينعطف يساراً إلى الساحة المليئة بالقطط، ثم يهبط خمس درجات ضيقة وزقاقاً أضيق لينفتح أمامه وادي النسناس المتدلي على كنيسة الروم. سيتحاشى النظر إلى الزاوية الشرقية المطلّة على درج عريض يؤدي

إلى حيّ اليهود. سيشتري رغيف خبز طازجاً من الفرن الواقع على رأس الوادي. سيصعد درجاً طويلاً على اليمين. سيحيي السكّان الجالسين على شرفات تجلس على الأرض عند مدخل شارع حدّاد. ويصل إلى تقاطع الدرج مع ثلاثة شوارع صاعدة يأخذه أحدها إلى شارع عبّاس. سيصعد ويصعد ويصعد ولن يلهث. سيقف طويلاً أمام القنطرة ليملأ رئتيه برائحة السنديان والطيُّون. ثم يمشي سبع خطوات فيطلع عليه البحر والميناء. يجلس على المقعد الخشبي العتيق ويداعب صور التي يراها من بعيد لأول مرة فيحبُّها لأول مرة أيضاً. سيضع المفتاح في مزلاج الباب فلا ينفتح من شدَّة الصدأ. سيدق على باب الجيران. ويُسَلِّم عليهم ويشاركهم فرحتهم بعودته سالماً ويعتذر عن الرحيل. سيفتح باب بيته ويسرع إلى حنفيَّة الماء ليسقي النباتات التي عطشت. سيتمدد على بلاط البيت وينام ساعات.. ساعات.. ساعات. سينام إلى الأبد.

صحا كمال من غفوته القصيرة. الفرح يملأ البحر. ومن فرط إحساسه بالحرية شعر أنه حَبَّةُ قمح، وأن البحر تربة خصبة. وأن الموج سنابل..

نظر إلى ساحل يمتدّ في يده الممدودة، فرأى قطعة ماسٍ تخرط الجبل لتنحت له مهداً سريعاً. سينام أعلى من البحر قليلاً.. أعلى من النوم. سيشتهيه البحر. سيحوله إلى عصفور من الحجر. سينام بعد قليل..

وحين هبط الغروب، جدَّف كمال بحماسة لم يعرفها من قبل.

وحين اقترب من الشاطىء سلّطت عليه الحمامةُ أضواءها الكاشفة. لقد احتاج الأمر إلى وقت ليعرف كمال أنه مُحاصَر بزوارق حربية، وأن البنادق مُصَوَّبة عليه من جهات البحر كُلِّها، وأن الحمامة ليست هي التي تبهر عينيه..

تجعَّدت الموجة..

تجعَّد القلب..

ـ هل معك أسلحة للقتل؟

ـ معي حنين يقتلني.

ـ من أين أنت؟

ـ من الحمامة.

ـ إلى أين تمضي؟

ـ إلى الحمامة.

ـ ما هي هذه الحمامة؟

ـ حيفا.

ـ من أرسلك؟

ـ خيط الدم.

ـ كم عمرك؟

ـ موجة تأتي وتضيع.

ــ أين كنت تقيم؟

ــ في صور.

ــ ماذا كنت تعمل هناك؟

ــ أصنع آلهة.

ــ ما أسماء آلهتك؟

ــ الحمامة.

ــ هل أنت فدائي؟

ــ لا.

ــ وماذا تريد؟

ــ أريد أن أدفن جُثّتي بيديّ تحت طوق الحمامة.

لم يُصدِّق رجال الشرطة البحرية ولم يفهموه. ظَنُّوه يناور. صعدوا إلى زورقه بحذر شديد. قيّدوه. نزعوا ثيابه. ولم يجدوا شيئاً، لا سلاحاً ولا هوية. سألوه إن كان صياداً ضلَّ الطريق في البحر. قال: لا، أنا لا أضل الطريق. أنا أعرف الحمامة جيداً، وجئتُ لأرى الحمامة..

لم يفهموه. هم أيضاً من حيفا ولكنهم لا يعرفون أن حيفا حمامة.

ــ هل كل ما في الأمر أنك تريد أن ترى الحمامة.

ــ نعم..

ـ إذن، سترى الحمامة!

دَقُّوا يديه وقدميه وكتفيه بالمسامير على خشب الزورق، وقالوا: إبق هنا. وانظر إلى الحمامة. الحمامة أمامك..

كان ينزف، وكانت الحمامة تكبر وتصغر..

وبعد أسبوع، أعاد البحر جثته إلى شاطىء صور، إلى الصخرة التي كان ينظر منها إلى الحمامة..

أهذا هو البحر؟

هذا هو البحر..

□ □ □

دخلتُ في ليل المدينة الكحليّ مثقلاً بالتعب، و«كوابيس اليقظة». دارت بي حياتي دورات حادَّة. لا أستطيع أن أواصل هذا التقاطع في الزمن، ولا أستطيع أن أتوغَّل في ما هو أكثر من أوَّل الليل. من أوصلني إلى الزقاق الفاصل بين «ماي فلور» و«نابليون»؟ لن أدخل إلى هذا المكان، فقد حفظتُ ما سأسمع. كانت قنابل الطائرات المضيئة تفتح ظلام الزقاق واسعاً لخطيً أجُرُّها جراً. هنا لم أمُتْ. هنا لم أمت بعد. من عشر سنين وأنا أسحبُ ظلّي على هذا الرصيف، وأوقع غربتي، وأعرف أنني لن أبقى أكثر من عام. تكدّس العام على العام. منذ عشر سنين وأنا أقرع هذه البوابة وأتلافى البحر. كنتُ أوثر الطريق البريّ، الطريق الأول الذي مشيته منذ ثلاثين سنة، وسلكتُهُ ثانية إلى هناك. هل نسيتُ أن

أرجع، أم نسيتُ أن أتذكر؟ كيف كان كُلُّ شيء، أيّ شيء، منذ عشر سنين؟ تمشي أيامي أمامي كقطيعٍ من ماعز لا يأتلف. تمشي أيامي ورائي كرائحة الوردة الواقفة عكس الريح. وتمشي أيامي حولي كما أمشي حولها الآن في لعبة الكراسي الموسيقية الصادرة عن آلات معدنية. هنا لم أمت. هنا لم أمت حتى الآن. ولكن هذا الصراخ الهابط من السماء، والصاعد من الأرض، لا ينقطع ولا يُتيح لأية صورة من صور أيامي أن ترسو على شكلها، ولا يأذن لخوفي بأن يتكامل ولا يسمح لطيشي بأن يتغافل. كفى! حركت يدي في ظلام الزقاق المضيء لأطرد عن رؤياي سحابة الطائرات كما يطرد المرءُ الذباب. كفى! قُلتها بصوت أعلى، فردّت بصوت أعلى وأعلى.. وبصقتْ كتلاً من لهيب أعادتني من رحلة القطار المسافر من حيفا إلى يافا لأعرف أني أسير على طريق آخر. كفى! فهمتُ.. وماذا لو كنتُ هنا. هنا لم أمت.. لم أمت بعد. كفى.. سنخرج، قلنا سنخرج، فلماذا تواصلون هذا الهراء الجهنمي. كفى.. ليتنا لا نخرج ما داموا يواصلون هذا الهراء الجهنمي. كفى، يا أولاد الكلبة، أيها المفتونون بعضلات الحديد، وأشعة الليزر، والقنابل العنقودية، والقنابل الفراغية.. كفى! استعراض قوة مترف. قضم المدينة والأَعصاب. والظلامُ سريع الانتشار في مدينة لا كهرباء فيها. قطعة فحم واحدة تنجب هذا الظلام كُلَّه في أقلّ من نصف ساعة. ولأَول الليل مذاق مُرّ، حامض، رخو. مذاق يخلق في النفس بلاداً غريبة الغربة، ويخلق في عطش الجسد الرطب شوقاً

خاملاً إلى عطش جسد رطب آخر. ويسوق النسيان إلى مجرى آخر: كلانا يقتل الآخر خلف النافذة. قطار الساحل يُسابق البحر على اليمين، ويسابق الشجر على اليسار. مطر، مطر وشجر، مطر وشجر وحديد. مطر وشجر وحديد وحرية. وصديقي الشقي يداعب صديقي الناحل المكفهر بلا نهاية. لأول مرة، يأذنون لنا بأن نغادر حيفا، شريطة أن نعود في الليل، لنذهب إلى محطة الشرطة الواقعة على طرف الحديقة، حديقة البلدية، ليقول كل واحد على طريقته: سجل ــ أنا موجود. سجِّل! إيقاع قديم أعرفه. سجل ــ أنا، أعرف هذا الصوت البالغ من العمر خمساً وعشرين سنة. يا للزمن الحي، يا للزمن الميت، يا للزمن الحي الخارج من الزمن الميت. سجل: أنا عربي، قلت ذلك لموظف قد يقود ابنُهُ إحدى هذه الطائرات. قلتُها باللغة العبرية لأستثيره. وحين قلتُها باللغة العربية مسَّ الجمهور العربي في الناصرة تيارٌ كهربائي سري أفلت المكبوت من قمقمه. لم أفهم سرّ هذا الاكتشاف، كأنني نزعت الصاعق عن ساحة ملغومة ببارود الهوية، حتى صارت هذه الصرخة هي هويتي الشعرية التي لا تكتفي بأن تشير إلى أبي، بل تطاردني.

لم أدرك أنني كنت في حاجة لأَن أقولها هنا في بيروت: سجل، أنا عربي. هل يقول العربيُّ للعرب أنا عربي؟ يا للزمن الميت، يا للزمن الحي! نظرتُ إلى ساعة يدي لأعرف ما هو عمري الآن. خجلتُ من هذه النظرة: هل ينظر المرء إلى ساعة يده ليرى عمره. منذ أسابيع، نصب لي الصديق «أ» كمين الأربعين. صرخ

معين في الحفلة مقهقهاً: لم تعد فتى. الحمد لله، تخلّصنا من فتىً آخر. لم تعد فتى. لقد صرت في الأربعين! قلت له: وماذا يبهجك يا عجوز؟ قال: يبهجني أَنك في الأَربعين. قلت: أنسيت أنك تقترب من الستين؟ قال: ليس هذا مهماً، الأَعمار كلها تتشابه بعد عتبة الأربعين، لقد أدركتني الآن. منذ عشرين سنة وأنا أنتظرك هنا على عتبة الأربعين، وها أنت وصلت. أهلاً وسهلاً. لم تعد فتى، لم تعد فتى، لقد سكر معين حدَّ الهذيان، حدَّ الظن بأني أكبر وهو يتوقف عن الكبر. فتنتهُ المساواة. قلنا: عاشت المساواة. واحتفلنا به.. يا للزمن! القطار يقُصُّ البحر والشجر. الشجر والبحر يهربان من القطار. قطار الزمن على حديد العمر. هل كنا حقاً في العشرين عندما أخذتني هويتي إلى ذاك النشيد المصكوك بحوافر خيل يلتهمها الأفق المفتوح على أفق مفتوح على أفق لا نعرف إن كان مفتوحاً أم مغلقاً؟ وهل كنتُ حقاً في السابعة والعشرين حين احتكّ نشيد الهوية بنشيد الأناشيد وشبّ حريقٌ في السوسن، وسمعتُ آخر صرخات الحصان الهارب من جبل الكرمل إلى البحر الأَبيض المتوسط؟ إلى متى يتذكر الوجع أفعاه الساحرة.. وإلى متى نواصل الذهاب نحو الأربعين؟ مصادفة... ليس أكثر من مصادفة أن يكون الخروج من الجسد خروجاً من البلد. ولم أتذكر هذه المصادفة إلّا الآن. قطار ومطر وشجر، ومدفأة، وقدمان حافيتان بيضاوان على جلود عشرين خروفاً مروا في نشيد الأَناشيد. والمغني يغني لسوزان التي أخذته إلى النهر. وهي تقول لي: خذني إلى أستراليا، وأنا أقول لها: خذيني إلى القدس. لا، لم أتذكر شيئاً ولكنني كنت أحلم،

فهل الحلم هو اختيار النسيان. ومن المنام يخرج منام آخر: هل أنت حيّ. يا للزمن الحي، يا للزمن الميت. لقد اكتملت الدائرة. أمي البعيدة تفتح باب غرفتي وتقدّم لي القهوة على طبق من قلبها. أداعبها: لماذا أذنت لي أن أضع ركبتي على السكين وأضغط لتبقى معي هذه الندبة؟ ولماذا أذنت لي أن أمتطي الحصان ما دام سرجه سيسقط ليسقطني تحته ولتبقى على جبيني هذه الندبة؟ الظلامُ الكحلي يتفتح، ينفرج، يصير أبيض. الظلام أبيض حالك البياض. وجدتُ نفسي جالساً على مقعد جلديّ مريح، أستمع إلى ثلاثي القتل المتناغم: الطيران، البحرية، والمدفعية. أشعلت قنديل الغاز لأعدّ طقوس النهاية. ما زالت الساعة العاشرة مساء. حملت قنديل الغاز ذا الشخير الأليف ومشيتُ إلى غرفة المكتبة لأكتب وصيتي. لم أجد ما أوصي به. لا سرَّ في حياتي. لا مخطوطة سرية، ولا رسائل خاصة أحتفظ بها. وناشري معروف. وحياتي فضيحةُ شعري، وشعري فضيحة حياتي. رفَّ على بالي مطلع قادم من سطوح بيوت الجيران: يطيرُ الحمام. يحطُّ الحمامُ. يطيرُ الحمامُ. أعجبني أن أموت في الأربعين، لا قبل، ولا بعد..

سمعتُ نقرتين على الباب. هي، هي المشدودة كنداء أخير. هي المهووسة بإطفاء الملح المشتعل في دمها. ناديتُها باسم آخر. قالت: من هذه؟ قلت: لا أحد.

حملتْ مصباح الغاز، وراحت تبحث عن الاسم الآخر في كل مكان وعلى الشرفة. لم تجد أحداً.

ـ هل تهذي، أم تحلم؟

ـ شيء من هذا، شيء من ذاك.

ـ من هي؟

ـ لا أحد..

ـ هل تهذي؟

ـ أحياناً..

اقتربت مني، وأشعلت نار بطنها الناعمة.. ناراً زرقاء بيضاء، فحيح. هسهسة ملح. أنين قطط مكبوت. ورغبة في موت مختلف.

ـ أفي كُلِّ يوم؟ قلت.

ـ في كل يوم إلى أن ينتهي الحصار. أعود إلى بيتي.. وتخرج من هنا. كن تابوتي لأكون تابوتك.

ـ على الشرفة. أريد أن أرفع تابوتي على الشرفة، على مرأى من طائراتهم وبوارجهم ومدافعهم، على مرأى من أضواء الأشرفية.

ـ مجنون؟

ـ مجنون بالحياة.

ـ لا.

ـ على الشرفة سترفعين تابوتك. الشرفة هي اعتداءُ الحياة على الموت. هي مقاومة الخوف من الحرب. لا أريد أن أخجل.

ـ ولكن، كيف أصرخ على الشرفة؟

ـ أمن الضروري أن تصرخي دائماً؟

ـ الرجل لا يفهم المرأة.

ـ المرأة لا تفهم الرجل..

.. وهنا، لم أمت. هنا لم أمت. منذ عشر سنين وأنا أعيش هنا. لم أعش في أي مكان عشر سنين. لم أتآلف مع رائحة الخضر ونداء الباعة، وضجيج البار المُسلَّح، ومشاكل الماء والمصعد كما تآلفتُ هنا. هنا لم أمت. شرفات كثيرة تطل على شرفات كثيرة مفتوحة في الربيع والصيف والخريف وبدايات الشتاء ونهايات الشتاء لتتبادل الأسرار والفضائح الصغيرة وأجهزة التلفزيون العالية الصوت، وروائح الثوم والشواء، وأصوات اهتزاز الأسرّة في ساعات بعد الظهر وفي الليل. شارع صغير، صغير اسمه شارع «يموت». وهنا لم أمُت. وهنا، منذ قليل، في موسم السيارات المفخخة، كنت أمشي مع أحد الجيران في أول المساء، حين استمعنا إلى خشخشة في سيارة، فنبَّهنا سكان الشارع إلى ضرورة مغادرة بيوتهم ريثما يصل الخبير العسكري، فإن انفجار سيارة واحدة يقضي على سكان الحيّ الذين جاءوا، بحثاً عن الأمان حول الجامعة الأميركية، من كل أنحاء المجازر والطوائف. وحين جاء الخبير العسكري وعاين السيارة لم يعثر على مائة كيلوغرام من الديناميت، كما توقعنا، بل عثر على جرذ جائع يقضم أمعاء السيارة. ضحك الحيُّ كُلُّه حين عرف أن في وُسع جرذ واحد أن

يُهجّر حيّاً. نعم، في وسع جرذ واحد أن يُهجّر مدينة، وأن يحكم دولة!

وهنا، لم أمت. لم أمت بعد. كُلَّما كانت تحطُّ الطائرة في مطار بيروت كنتُ أشمّ روائح المجهول، وعبق الرحيل القادم. كان الضباب الصاعد من رطوبة الصيف، وجفاف الربيع القاسي، اللاذع، السريع يوقظ فيَّ حاسة المؤقت: هل سنبقى هنا؟ لن نبقى هنا. يبدو أن لنهايات الأشياء شكلاً مُحدَّداً، شكلاً من الغموض المحدّد، شكلاً من أشكال تواطؤ الطبيعة مع الهاجس، أي هاجس. وخاصة في آب. آب الشهر الدنيء، السافر، العدواني، الحاقد، الخائن.. آب القادر على تزويد الرمز ما يحتاج إليه من جثث، وعلى مَدِّ تراخي الجسد بما تبول عليه الطبيعة من عبوس البخار ونذير الرطوبة المحتقن، وجهُ آب وجه حَاقن لا يجد مرحاضاً ولا حائطاً مجهولاً. آب شهر قذر، ضجر، قاحل، قاتل، مائل إلى نهايات تطول مقدماتها، نهايات لا تبدأ ولا تنتهي، كأنَّ آب طائفية الفصول التي لم تجد أتباعها بعد. آب قادر على استفزاز البحر، البحر الذي يحيل إلى الأفق زفير الرصاص.

ــ قل لي، يا أخ محمود، ماذا تقصد بالبحر، ما معنى البحر، البحر طلقتك الأخيرة؟

ــ من أين أنت يا أخ؟

ــ من حيفا.

ــ من حيفا، ولا تعرف البحر؟

ــ لم أولد هناك، وُلدت في المخيم.

ــ وُلدت هنا في المخيم، ولا تعرف البحر؟

ــ نعم. أعرف البحر. ولكنني أعني: ما معنى البحر في القصائد؟

ــ معنى البحر في القصائد هو معناه على حافة البرّ.

ــ هل البحر في الشعر، هو البحرُ في البحر؟

ــ نعم، البحر هو البحر، في الشعر وفي النثر، وعلى حافة البرّ.

ــ ولكنهم قالوا لي: إنك شاعر رمزيّ، مغرق في الرمزية، لذلك ظننت أن بحرك غيرُ البحر الذي نعرف، غير بحرنا...

ــ لا، يا أخ، خدعوك. بحري هو بحرك، هو بحري. نحن من بحر واحد، وإلى بحر واحد.. البحر هو البحر..

يتعجب المقاتل من عجز الشاعر عن تفسير شعره. أو يتعجّب من سهولة الشعر ما دام البحر هو البحر. أو يتعجَّب من حقِّ الواقع البسيط في الكلام:

ــ ألستَ أنت، يا أخ، مَنْ يُدخل البحر إلى الشعر، حين تحمل البحر على كتفيك وَتُثَبِّتُهُ أين تشاء. ألست أنت، يا أخ، من يفتح فينا بحر الكلام على مصراعيه؟ ألست أنت بحر الشعر وشعر البحر؟

ــ أنا بريء. أنا أدافع عن حقِّي وعن ذاكرة أبي، وأحارب الصحراء.

ــ وأنا أيضاً... ولكن البحر، يا أخي، هو البحر.

وإليه سنمضي بعد قليل، في سفن نوح الحديثة، في أزرق يسفر عن أبيض لا نهائي، ولا يُسفر عن ساحل. إلى أين.. إلى أين يأخذنا البحر في البحر؟ وهنا لم أمت. لم أمت بعد. سأنام. ما النوم؟ ما هذا الموتُ السحريّ المفروش بأسماء العنب؟! جسد ثقيل كالرصاص يرميه النوم في سحابة من قطن. جسد يتشربُ النوم كما يتشرَّب النبات المهجور رائحة الندى. أدخل في النوم، رويداً رويداً على وقع أصوات بعيدة، أصوات قادمة من ماض مبعثر على تجعُّد السرير والأيام. أقرعُ باب النوم من عضلات ترتخي وتتوتر. يفتح لي ذراعه. أستأذنه في الدخول فيأذن لي. أدخل. أشكره. أمدحه. أحمده. النوم يناديني وأنا أنادي النوم. النوم سواد يتفكك تدريجياً إلى رمادي وأبيض. النوم أبيض. انفصالٌ وأبيض. استقلالٌ وأبيض. ناعم وقوي وأبيض. النوم صحوة التعب وأنينُه الأخيرُ.. وأبيض. للنوم أرض بيضاء وسماء بيضاء وبحر أبيض، وعضلات قوية، عضلاتٌ من زهر الياسمين. النوم سيِّد، أمير، ملك، ملاك، سلطان، وإله. أستسلم إليه كما يستسلم العاشق لمدائح المرأة الأولى. النوم جواد أبيض يطير على سحاب أبيض. النومُ سلام. النوم منام يخرج من منام:

ــ هل أنتَ حيّ؟

ــ في منطقة وُسْطى بين الحياة والموت.

ــ هل أنت حي؟

ـ كيف عرفت أني أضع الآن رأسي على ركبتيك وأنام؟

ـ لأنك أيقظتني الآن حين تحركت في بطني. هل أنت حيّ؟

ـ لا أعرف، لا أريد أن أعرف. ولكن هل يحدث كثيراً أن يوقظنا من المنام منامٌ آخر هو تفسير المنام؟

ـ هذا ما يحدث الآن.. هل أنت حي؟

ـ ما دمتُ أحلم، فأنا حيّ لأَن الموتى لا يحلمون.

ـ هل تحلم كثيراً؟

ـ حين أقترب من الموت..

ـ هل أنت حيّ؟

ـ تقريباً، ولكن في الوقت مُتّسعاً للموت.

ـ لا تمت

ـ سأحاول

ـ هل أحببتني؟

ـ لا أعرف

ـ هل تحبني الآن؟

ـ لا.

ـ الرجل لا يفهم المرأة

ـ والمرأة لا تفهم الرجل..

ــ لا أحد يفهم أحداً

ــ ولا أحد يفهم أحداً

ــ لا أحد يفهم..

ــ لا أحد..

ــ لا أحد..

حَيرةُ العائد

مقالات مختارة

المحتويات

I ـ هنا/ هناك... الآن

في وداع تونس

عما قليل يخرج الفلسطينيون من آخر هذه الزيارة إلى أول العودة، يخرجون من رحلات البحر إلى خطوة أولى على البر، يخرجون على خطى الأقدام المرتدة إلى البيت الأول من رحيل المعنى والسلالة، إلى أقدم مدينة قد تأذن لهم للمرة الأولى في تاريخ تجربتهم المعاصرة بالتأمل الحرّ في الدلالات وقد تأذن لهم أيضاً بالمفاضلة بين جمالية الأسطورة ولبس الراهن، بين واقعية الحلم وعبثية الواقع.

ألم يكن ذلك ما كانوا يسعون إليه في مشروعهم المتوتر لتعديل التراجيديا الإنسانية المحكومة بشروط لم تعجبهم ولا مرة واحدة وهو أن يجترحوا بأدوات الخارق إمكانية إنجاز العادي والمألوف.

نحن الآن عاديون، عاديون أو أقل أو أكثر. لنا موطن قدم يابس في ساحة الوطن الخلفية. وبنا ما يشبه القادمين للتو من أحلامهم

وقد رأوا مادة الحلم الخام المرسومة بالأبيض والأسود تمدهم بما افتقدوه من حاجة إلى الفكاهة.

ونحن الآن ـــ والحمد لله ـــ عاديون، مكشوفون وجهاً لوجه أمام شمس السؤال:

هل تتسع أرض الحلم لما يبقى فينا ولنا فيها من حلم؟

وهل في وسع الحلم أن يحلم أكثر؟ بالطبع نعم. فينا أكثر من أرض، وعلى الأرض أكثر من منفى وفينا النازل من صورته التي ما زالت معلقة على الجدار وعلى التابوت. فكيف نتدرب على القطيعة المفاجأة؟ كيف نألف الحوار مع الآخر الذي هو أنا هذه المرة.

تلك أسئلة سنحيلها على قصائدنا القادمة التي لن تنفصل عن بداياتها، كما لن تنفصل عن بحة الملح وعن حور الحور. وأما الزبد فقد ذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فقد مكث في أرض القصيدة.

ليس هذا هو السؤال:

السؤال الساخر الآن هو سؤال سياسي. كيف نعرف أن الغيم حقيقي أيضاً ويدرك بحاسة اللمس؟

وهو أيضاً سؤال أمني: كيف ندقق في هوية الفراشة وهي تمر على حاجز الواقع؟

وهو أيضاً سؤال إداري: كيف نوزّع خبز اللغة على الحراس التائهين في ثنائية البيت والطريق؟

وهو أيضاً سؤال تربوي: كيف نقنع طلاب المدارس بكتابة أسمائهم على الحجارة لتصبح رفاً من حمام؟

وهو أيضاً سؤال ثقافي: كيف لا تسقط الذاكرة في إغراء الاعتذار الدارج؟

وهو أيضاً سؤال إبداعي: كيف نحول موطأ القدم في الساحة الخلفية المليئة بالألغام والفقر إلى شروط حياة صالحة لتأسيس وجود إنساني حرّ قابل للتطور ولكسر قيود الفارقِ بين الدولة والوطن؟

وهو أيضاً سؤال إعلامي: كيف نحرر الوعي العالمي من الفارق الخادع بين صورة السلام التلفزيوني وبين مفهوم السلام الحقيقي؟

وهو أخيراً سؤال عاطفي: كيف نشفى من حب تونس؟ كيف نشفى من حب تونس الذي يجري فينا مجرى النفس؟

لقد رأينا في تونس من الألفة والحنان والسند السمح ما لم نر في أي مكان آخر. ولذلك نخرج منها كما لم نخرج من أي مكان آخر.

نقفز من حضنها إلى موطىء القدم الأول، في ساحة الوطن الخلفية، بعدما تجلت لنا فيها، في البشر والشجر والحجر صور أرواحنا المعلقة كعاملات النحل على أزهار السياج البعيد.

في هذا الوداع، نحبك يا تونس أكثر مما كنا نعرف، نرسِّب في صمت الوداع الحزين شفافية تجرح ونصفّي كثافة مركزة إلى حدّ العتمة التي تحل بالعشاق.

ما أجمل الأسرار الكامنة وراء الباب الموارب، وراء بابك وهو المساحة المثالية لتعامل الشاعر الحاذق مع العناصر التبادلية للقصيدة.

فهل نقول لك شكراً؟!

لم أسمع عاشقين يقولان شكراً. ولكن شكراً لك لأنك أنت من أنت.

حافظي على نفسك يا تونس. سنلتقي غداً على أرض أختك: فلسطين.

هل نسينا شيئاً وراءنا! نعم، نسينا تَلَفُّتَ القلب وتركنا فيك خير ما فينا، تركنا فيك شهداءنا الذين نوصيك بهم خيراً.

البحث عن الطبيعي في... اللاطبيعي

لا أعرفُ، لا أعرفُ تماماً ماذا يعني هذا الاقترابُ الجغرافيُّ من مكان الاسم، لأن الغموض المخيِّم على الحدود الفاصلة بين الثنائيات: الليل والنهار، المنفى والوطن، والشعر والنثر، هو من أشدّ أنواع الغموض كثافة وشفافيّة في آن واحد.

بَيْدَ أنّ فضيلة هذا الغموض، هنا والآن، هو أنه قادرٌ على كتابة هجاءٍ أليفٍ لوضوح المنفى، قبل أن يتساءل عمّا إذا كانت هذه اللحظةُ الانتقاليةُ هي لحظة قطيعةٍ بين الخروج والدخول.

وسيحتاجُ الفردُ، فينا، إلى تدريبٍ يوميٍّ خاصٍ على التحرُّرِ التدريجيِّ من ظلالِ المعنى الثقيلة، وهي تنتقل من زمنٍ إلى آخر، وعلى التحرُّرِ أيضاً من مُقارناتٍ لا تُسفِرُ عمّا ينفعُ حياتنا العملية المضطربة. فليست الثنائيّات التي تسكننا محدَّدة إلى حدٍّ تعريف

الشيء بعكسه: أن أكون هنا لا يعني أنني لم أعُدْ هناك. وألّا أكون هناك لا يعني أنني هنا.

وسيحتاجُ الفردُ فينا أيضاً إلى التأكُّدِ مِنْ أنّه عثرَ على حواسّه الشخصية، كاملةً وعاملةً كما ينبغي لها أن تعمل، بلا وسيط أو توسُّط.

كما ستحتاجُ الجماعةُ، في كلِّ فردٍ منّا، إلى إعادة تنظيمِ زحامها الجديد وعزلتها الجديدة معاً، وإلى شيء من التخصُّصِ بين ما هو عامّ وما هو خاص.

لا لشيء... إلَّا للتأكُّدِ من جاهزيتنا لخوضِ معركة الدخول في طورِ العاديِّ، أو الطبيعي. فهل آن لنا أن نسأل إنْ كانَ الشِفاءُ من الصورة الجاهزة عن أنفسنا، ومن جرحِ ذاتٍ نأتْ عن ذاتها... ممكناً؟

وهل يمكننا أيضاً أن نهبط، سالمينَ، مِنْ سماءِ الأسطورةِ إلى ما تيسَّرَ لنا مِنْ أرضِ الاسم والهوية، من أرضِ الواقع؟ وهل في مقدورنا أن نواصل مشروعَ الرحيلِ الملحميّ، في حَمْلَةٍ شِعريّة نعرفُ، منذ البداية، مصائرَ رُموزِها سَلَفاً. وأنّ السيدة هيلين قد أُعيدَتْ، على عُكازَيْن، إلى زوجها منذ النشيد الأول الذي لم نكتبه بعد؟

هذه هي تينةُ البيت، فتفيأ ظِلَّها ــ تلك هي الأغنية البسيطةُ التي سَيَكتُبها العائدُ إلى البيت. أما مَنْ لم يترُكِ البيتَ أصلاً، لم يذهب ولم يَعُدِ، فله أغنيةٌ مختلفةٌ وحنينٌ مُقابل إلى استمرار التاريخِ في اللغةِ، وامتداد اللغةِ في التاريخ.

وسواءٌ أكانت قليلة أم كثيرة تلك الجماعاتُ التي رحلَتْ وعادتْ، لتَضْحَكَ أو لتبكي، سيان، فليست تلك هي القاعدة. إنَّ اجتيازَ هذا المترِ الترابيِّ، الفاصلِ بين المنفى والوطن، لقادرٌ على تحويل الجسد إلى روح في إشراقاتِ الفرَح. ولكنَّه ليس كافياً، بَعْدُ، للاحتفال بعيد الاستقلالِ، كما يعلمُ الجميع. كما أنَّ أدواتِ التعبير عن الحريَّةِ ليست هي الحريّة.

ولذا، يَنقَضُّ السؤالُ على السائل:

هل في وُسْعِكَ أن تكونَ طبيعياً في واقعٍ غير طبيعيّ؟

لا شيءَ يبدو طبيعياً في هذا المخاض الذي تتبادل فيه البدايات والنهايات لعبة الكراسي. صحيحٌ أن الحرب تبدو وكأنها انتهت. ولكنَّ السلامَ لم يبدأ. فليسَ من أسماءِ السلامِ الجميلة أن يُضْرَبَ الحصارُ العسكريُّ على مجتمع اختارَ السلامَ جواباً على سؤاله الوجوديِّ والوطني، بعدما أنقذَ هويته من خطرِ التلاشي في الآخرِ من جهة، ومِنْ خطَرِ الانغلاق مِنْ جهة ثانية.

وليسَ مِنْ أسماء التعايُشِ الجميلةِ ألَّا يُسْمَحَ للشعب الفلسطينيِّ بتحقيق «التعايُشِ الجغرافيِّ» بين مُدُنه وقُراهُ وريفه، بالتعايُشِ مع ذاته، «عقاباً» له على قراءة تاريخِ بلادهِ المعاصر، بطريقةٍ صاغتْ مشروع حياةٍ مشتركةٍ مع الآخر، على أرضٍ مشتركة، ولغدٍ مشترك.

لا حاجة بنَا للوقوف طويلاً أمام المفارقةِ التي تدفَعُ الضحيّة إلى البحثِ عن حلٍّ لمشكلتها يتوازي مع البحث، في الوقت ذاته، عن حلٍّ لمشكلة ضحيَّة أُخرى تحوَّلت دولتها إلى جلاَّدها. فذلك

متروكٌ لكُتَّابِ التراجيديّات الكُبْرى، إذا كان لها مكانٌ في هذا الزمان.

لكنَّ الضحيّة، فينا وقد ضاقتْ ذرعاً بمكانتها وبحاجتها إلى البطولة، تُدْرِكُ أنّها لن تنتقلَ إلى سِجالِها مع نفسها، ومع الآخر، لإنجازِ مكانةِ العاديِّ، إلّا بفضلِ التاريخ، على الرغمِ من أنَّها ضحيّةُ التاريخ!

وتُدرِكُ أنَّ حاجتها المُلِحّة إلى البحث في هويتها، والبحثِ عن هويتها، ليست ناجمةً عن رغبةٍ في التحديقِ النرجسيِّ في الصورة، أو الانزواءِ في الصَدَفة، أو الإفراط في الافتتانِ بالخصائص، بقدرِ ما هي شكلٌ من أشكالِ استراتيجيات الدفاعِ عن النفسِ أمامَ سياسةِ النفيِ والإلغاء، في الطريقِ من الصراعِ الوطنيِّ على الهويّةِ إلى تحقُّقِها في حياةٍ طبيعيةٍ... تأذنُ للإبداعِ الحرِّ بجماليّاتِ الصراعِ مَعَ الهويّة، إذا شاء. إذْ يُعَبِّرُ هذا الصراعُ عن أقصى درجات الحُرِّيَّةِ والانتماء، حينَ يُصبحُ في مقدورِ الثقافة أن تُحاكِمَ ذاتها وتُنَشِّط أسئلتها المرجأة التي تمسُّ بعض مُحَرَّمات مجتمعها، كأنْ يتعرَّضُ الوطنُ نفسُهُ إلى السخرية، عندما يتحرَّرُ هو والسخرية معاً من حالةِ الطوارىء!

من حصارٍ إلى حصار، تُحْرَمُ التأمُّلاتُ من حريَّةِ الحركةِ واختراق النمَط، ما دامت حبيسة انخراطها في سؤال العيش، وسؤال البقاء، وحاجات الإنسان الأوليّة إلى خبزٍ ومأوى وعَلَمٍ ونشيدٍ وشرطة. وهكذا يتجلّى سؤالُ البحثِ عن العاديِّ والطبيعيِّ بصفته سؤالَ البحثِ عن معجزة جديدة، وسؤالاً مطروحاً على جماعةٍ لم يتمكَّن أفرادها من التأمُّلِ الطويلِ في فرديتهم المستقلّة.

فَمِنَ المفارقات المميّزة لحياتنا الانتقالية أنَّهُ كلَّما تطوَّرَ الكلامُ الإجرائيُّ في تفاصيلِ «عملية السلامِ» تدهورَ مستوى الأسئلةِ الكُبرى، والأسئلةِ الإنسانيّة الصُغرى، وتعمَّق الإحساسِ بالاحتلال، وضاقتْ بِنَا أرضنا المحرَّرة الموضوعة في أقفاصٍ، لا دليلاً على جراحِ السلام، كما قد يظنُّ البعض، بل دليلاً على مدى افتقارِ عمليةِ السلامِ هذه، كما يصوغُها الجانبُ الإسرائيليُّ حتى الآن، إلى جوهرِ السلام المتمثِّل ــ على الأقلِّ ــ بوضوحِ الطريقِ إلى نوعيَّة استقلالنا وكميّة حريَّتنا، ودليلاً على أن الخطوة الأولى، إذا ما راوَحَتْ مكانَها، ليست كافية لتلخيص مسيرةِ الآمالِ التي رافقتها، حينما انتقلَ الاحتلال مِنْ غُرفةِ النومِ إلى غُرفةِ الاستقبال!

وهكذا، ما زالَ من السابقِ لأوَانِه الاعتذارُ عن كتابةٍ لم تقفِز من سياقِ شرطها التاريخيّ إلى الميتافيزيقيا من جهة، وعن كتابةٍ لم تؤجِّل حداثتها إلى أن تنضُج ظروف مجتمعها الموضوعية من جهة أخرى.

وما زالَ مِنَ السابِقِ لأوَانِه تحريضُ الأحلام الصغيرةِ على مُحاسبةِ الأحلامِ الكبيرةِ عمَّا فعلت بها لتحرمَها مِنَ استخدامِ الملابسِ الداخليَّة أشرعةً لسُفُنِ الرحيلِ الشراعيّة، ما دام البحرُ في مِثْلِ هذه السهولة، وما دامَ الملاَّحُونَ لا يحلُمونَ بأكثر من زراعةِ البقدونس في أحواضِ بيوتهم.

لا، لم يَكُنِ البحرُ طيِّعاً إلى هذا الحدِّ، ولكن لا وظيفة للأحلام الكبيرة، أصلاً، سوى توفير المناخِ الملائم لانسياب الأحلامِ الصغيرةِ للعاديِّ فينا، المحرومِ مِمَّا يُوَفِّرُهُ السلامُ مَعَ الآخرِ مِنْ سلامٍ مَعَ النفسِ القلِقة.

لم يحدث ذلك لسببٍ أبسطَ من تعقيداتِ العلاجِ النفسيِّ، ومِنْ مُساءلةِ الثقافةِ عن مدى ابتعادِها أو اقترابِها مِنْ حاضرٍ ما أنْ تُسمّيهِ حتى يَختفي. لم يحدث ذلك لأنَّ السلامَ لم يتحقَّق بعد، ولأنَّ بلادنا ما زالت مُحتلَّة، على الرغمِ من الثُقوبِ المحرَّرةِ العاجِزَةِ عن تعريفِ الغابة بشجرة مرسومة، والمُطالبة باستبدالِ الواقع، كما هو، بصورةٍ ما ينبغي أن يكونَ عليه، والـمُطالبةِ أيضاً بمُصالحة التاريخِ بالتصفيقِ له وهو قادمٌ من بعيدٍ... وبالتدرُّبِ على انتظارِ المُعجِزَةِ من خلْوَةِ الذاتِ إلى ذاتها عند الحاجز، وبإعلاء الجحيم، في الواقع، إلى مرتبة النعيمِ في اللُّغة.

وإذا لم نَنْجَح في امتحانِ الـمُعْجِزَة: إذا لم نَنْجَح في تحقيقِ الاكتفاء الذاتيِّ والطَّفْرَةِ الاقتصادية، داخلَ الثقْبِ المعزولِ عَنِ الثَّقْبِ المعزولِ، وعَنِ المحيط، وعَنْ باطِنِ الأرض، وحافةِ السَّماء، فما علي «الشريكِ» الإسرائيليِّ إلّا أنْ يُعلِنَ: لا تلومُوا غيرَ أنفسِكُمْ على أنَّكم غيرُ جديرين بالاستقلال، لاَ تلومُوا غيرَ أنفسكُمْ!

في وُسعِنا أنْ نلومَ أنفسنا أيضاً. لِمَ لا؟ فمِنْ واجبنا أنْ نُتْقِنَ فَنَّ النقدِ والنقدِ الذاتيِّ، وأنْ نختلفَ في موضوعِ الإدارة والوزارة والاستعارة والحِجاب والقافية وشروطِ الطاعةِ وبرامجِ الإذاعةِ. ولكنَّ ذلك لا يشملُ عدَمَ التمييز بين الاستقلال والاحتلال. فهُنَا نقطةُ الالتقاء المركزيَّة بينَ المعارضةِ والسلطة التي يُنْظَرُ إلى مشروعها السياسيِّ باعتباره مشروعاً مُضاداً للاحتلال، فذلك هو جَوْهَرُ شرعيّتها الوطنيّة. بعد ذلك، ومَعَ ذلكَ، نتناقشُ حولَ سلامَةِ العلاقةِ بين الإطارِ والمحتوى، بين الشكلِ والمعنى، وبين الأداة والفكرة، من منظور الإدراك الوطنيِّ العامِّ بأنَّ اختيارَ طريقِ السلامِ الحقيقيِّ هو اختيارٌ لا يَحتمِلُ التراجُعَ أو الجمودَ الذي يُبشِّرُنا به

الطرفُ الإسرائيليُّ بالقولِ حيناً، وبالفعلِ دائماً.

لا نستطيعُ الدخولَ في عقل الآخر، لنَفهمَ كيفَ يَفْهَمُ إمكانيَّة تحقُّقِ السلام بالإصرارِ على الاستحواذ الكُلّي على الأرض والتاريخ، وبالإعلان عن أنه صاحبهما الوحيد، صناعة وكتابة، دون أن يُشْبعَ غريزة الحفريات التي لم تُثبت خُلُوَّ هذا التاريخِ وهذه الأرضِ من السكّان.

إنَّ تحويلَ هذا الهاجِسِ إلى سياسةٍ تُؤسِّسُ السلامَ على استحضارِ شبَحٍ من أجلِ الاحتفال بتغييبه، حقوقاً وشرعيَّة، سيجعلُ المسرحيَّة خاليَة من أيِّ شيء... عدا افتتانِ مؤلِّفها بقدرته على الاحتفاظ بتماسك الخُرافة مَعَ ما بعدَ الحداثة... الصهيونية، الأولى خاليةٌ من الشعب الفلسطيني، والثانيةُ مُتحرِّرةٌ من عُقدةِ المسألة الفلسطينية، التي تمَّ حلُّها دونَ حل!

لا. لا حياة طبيعية مَعَ الاحتلال، وتحتَ الاحتلالِ. ولا حياة طبيعية أيضاً مع النفسِ لمن يواصل الاحتلال. وهذا ما باحَ به الكاتبُ أ. يهوشع حين طالبنا بمساعدته على إقامة علاقة طبيعيةٍ مع نفسه المتوتِّرَة.

نعم، في وُسْعِ الضحيَّة أنْ تُقدِّمَ المعونَةَ الأخلاقية للضميرِ المعَذَّبِ في مجتمعِ جَلادها، في حالةٍ واحدةٍ فقط: حين تتمكَّنُ الضحيَّةُ مِنْ إبداعِ حياتها الطبيعية. ولا يحدُث ذلك إلّا بعد الاعتراف بحقِّها في الوجودِ، والاعتذار عمَّا لحِقَ بها مِنْ ظلم، وما يستتبع هذا الاعتذار من إجراءات.

لكننا ما زِلنا هناك... في منطقةِ الصراعِ على قراءةِ الماضي: مَنْ

ظَلَمَ مَنْ؟ ومَنْ يعتذِرُ لِمَنْ؟

إنَّ الموقفَ الإيديولوجيَّ الإسرائيليَّ في عمليَّة السلامِ التي تُحرِّكُها السُّلحفاةُ، ما زالَ يُمْلي على الفلسطينيينَ شُروطَ بقاءٍ تعكسُ عقليَّةً تاريخيَّةً تَفتَرضُ أنَّهُمْ، أيْ الفلسطينيين، من فُلُولِ الغُزاةِ العربِ لأرضِ إسرائيل، وتُطالبهُم بقراءةِ تاريخهم ووجُودهم على هذه الأرض باعتبارهِ وجوداً غيرَ شرعي.

بينما يتمتَّعُ الموقِفُ الحداثيُّ ، البراغماتيُّ الإسرائيليُّ بقِسْطٍ من التسامُحِ، ضروريٍّ لتحريك قطارِ السلامِ الإسرائيليِّ ــ العربيِّ، فيعَتَرِفُ لهؤلاء السكانِ المقيمين على أرضه «يهودا والسامرة» بحقِّ الإقامة الطويلة في ضواحي المستوطناتِ اليهودية...

بهذه المعالجة، يتمكّنُ الإسرائيليُّ مِنْ تنظيفِ ذاكرةِ الفلسطينيِّ المُشَوَّشَةِ، ومِنَ الانصراف إلى إقامة العلاقاتِ الطبيعيةِ مَعَ نفسه، دون أن يرتَبِطَ ذلك بحقّ الفلسطينيِّ في امتلاكِ شروطِ التحرُّرِ والاستقلال، أو حتى الحقوق المدنيّة والمساواة، مِنْ أجلِ تطبيعِ علاقاتِهِ مَعَ نفسه.

لا تنفي الهويَّة الهويَّة. إنَّ ما يُرْبِكُ الهويَّة ويُوَتِّرُها هو اشتراطُ تَشكُّلِها بنفيِ هويَّةِ الآخر. فإلى متى يجري البحثُ عن الطبيعيِّ في ما هو خارجهُ: في إصرارِ الإيديولوجيِّ الإسرائيليِّ على إقامة حدوده، التي لا حُدودَ لضيقِها وسِعَتِها، في وُجودِ الآخرِ... غيرِ الموجودِ، وعلى تشكيلِ صورتهِ، وصوتهِ، وعلاقتهِ بذاتهِ ــ الموضوع، وردِّ فِعْلِهِ الباڤلوڤي علَى ما يُريدُ له أن يكون، وأن لا يكون.

أمَّا نحنُ، فما علينا إلّا أن نكونَ كما نُريد لنا أن نكون: طبيعيين في حياةٍ طبيعية. تلك هي معركتنا التي نخوضها بكلِّ ما نملكُ مِنْ شَهْوَةٍ إلى الحريَّةِ وإلى السلام. ولن نعودَ إلى الوراءِ، لن نعودَ إلى المنفى، إلّا... لمتطلبات النشيد!

المكان في مكانه(*)

كنتُ هنا، منذ قليل، في أول لقاء على هٰذه الأرض، يجمعني بما كان فيّ من أمس، وبما سيكون عليَّ أن أكونه، في غد، بعد قليل.

في ساحة مجاورة لهذه الساحة، في ساعة الغروب ذاتها، شاهدتُ على مرأى منكم، ورُبّما على أيديكم، صورة ولادةٍ معنوية جديدة لشاعرٍ لم يألف أن يُولد مرَّتين، وإن أَلِفَ أن يموت أكثر من مرة، على طريق العودة إلى البيت.

لا أحد يعود. لا أحدَ يعود تماماً إلى مَنْ كانه وإلى ما كان فيه. لا أحد يعود إلّا جماعة أو مجازاً. ومجازاً عدنا. فنحن في حاجة رمزيّة إلى تحميل عودة الأفراد بمدلولات عامة، فلعلَّ ربيعاً ما،

(*) [ألقيت هذه الكلمة بمناسبة منح جامعة بيرزيت الدكتوراه الفخرية للشاعر عام ١٩٩٦].

حقيقياً أو متخيّلاً، يندلع من جناح سُنُونُوة واحدة.

لا لشيء نُكابِدُ هذا الفرح الصعب، إلّا لاستنباط ما هو جوهريّ أكثر: عودةُ الروح الدائمة إلى الإرادة الضرورية لمواصلة السير الشاقّ إلى أرض الغد، لنتمكن من اجتراح معجزتنا الوطنية في تحريك هذا الحاضر من المكانة التاريخية المُعَدَّة له، بكل ما في القوة من حماقة وخرافة، للثبات في المعنى الجامد، وللقطيعة مع الزمن المتحرك.

ولا شيء في حياتنا جدير بأن يُكرَّم سوى حقنا في حياتنا ذاتها.. حياتنا التي كدنا أن ننساها في زحام البحث عن معنى خارجها. وكان خارجُها كثيراً، إلى حَدّ خُيِّل لنا، معه، أن الوطن قد هاجر، فلم نكد نعرف هل نحن هنا أم هناك. وها نحن قادرون على الافتتان بحقيقة واحدة: ما زال المكان في مكانه!

لعل الحيرة هي الوصف التقريبيّ لحالتنا الذهنية الراهنة المحرومة من مرجعية المقارنة. إذ يُراد لنا أن ننخرط، دفعة واحدة، في مختبر الوعي التجريبي الذي لا يعود بالصراع على الوعي إلى أية معايير، سوى نزعة الآخر للتحكّم في نسيج وجودنا، وفي صوغ مصيرنا بطريقة لا تفتقر إلى العدالة فحسب، بل تحفل بكل عوامل التغييب الكامل للذات، ذاتنا، عن ذاتها.

إن الانتقال المفاجىء من مرحلة تاريخية محدّدة إلى مرحلة شديدة الغموض، يغيب فيها جوهر السلام عن عملية السلام، وتسودُ فيها انقلابات المعاني والمفاهيم بطريقة فوضوية، هو ما يدفع الوعي العام إلى عذاب الحيرة، ولكنه لا يُعَطِّل حيوية نشاطنا الثقافي ويُهَمِّشُهُ

كما يقول المتشائمون منا، بل يعود به إلى أسئلته المبدئية، وربما التقليدية حول علاقته بالواقع.

ليس هذا الواقع في حاجة إلى المزيد من الشكوى والهجاء، ولا يستحق بالطبع أي ثناء. وليس من الطبيعي أن ننصرف، الآن، إلى أسئلة التطبيع القصوى مع شيء أو أحد، وإلى الاستجابة للمطالبة بتطهير الذاكرة مما علق بها من لغة الصراع، وإلى تعديل حبكتنا التاريخية في اتجاه الاعتذار عن سيرتنا، ما دام الاحتلال، المعلن والمبطن، الرسمي والعلني، جاثماً على حياتنا، وما دامت المستوطنات تُقَطِّع جسد الأرض وتبتلعها، وما دام الحصار يهبط بنا من سؤالنا الوطني إلى بدائية الوجود، وما دمنا محرومين من ممارسة حقنا المقدّس في السيادة والاستقلال والحياة الإنسانية العادية.

فليس السلام سجناً أو معسكر اعتقال.

وليست السلطة نقابة وطنية لإدارة شؤون السجناء.

وليس الوطن مشهداً طبيعياً للزيارة العابرة.

لقد مشى الفلسطيني طويلاً على درب الآلام لبلوغ السلام الحقيقي العادل الذي يوفر له، وللآخر، شروط الحياة الإنسانية والوطنية والإبداع الحرّ، وقَبِلَ مبدأ التعايش المتكافىء على أرض وطنه التاريخي، استجابة لعملية التطور التاريخي الدامية التي جعلت من هذا الوطن بلداً لشعبين، بعدما دفعت بالشعب الفلسطيني إلى إحدى أكبر المصائر التراجيدية في هذا العصر.

ومن دون أن تأنس الضحيّة إلى قدرها، وتصاب بداء التنافس على المكانة العالمية للضحية، كما فعل سواها، لتبرير خروجه على المعايير

الإنسانية العامة، وتجريد ضحيته من مكانها ومن اسمها لتبرير الإمعان في إنكار وجودها، والاحتفاظ لنفسه باحتكار صفة الضحية التي أعطت لنفسها الحق في أن تكون جلاّداً مدججاً بالسلاح النووي وضحية في آن واحد.

من دون تقمُّص هذه النفسية وهذه العقلية، أشهر الفلسطيني الأمل في وجه الألم، وخاض معارك الدفاع عن اسمه وهويته وتاريخه وبلاده، ليحلّ البطلُ فيه مكان الضحية، وليتمكن من تحقيق وجوده الإنساني العادي في وطنه البسيط.

فهل تتيح ظروف هذا الواقع المأساوية له أن يتعايش مع ذاته الإنسانية المنتقلة من صورة الضحية إلى صورة البطل إلى صورة العادي؟

لا عودة إلى الوراء. ولكن، من أين لنا القدرة على جعل العدو، الذي حوّلناه إلى خصم، شريكاً لنا في مواصلة السير إلى أمام؟

تلك هي معضلتنا. ولكن في هويتنا الحضارية ما يكفي لوضع هذا الحاضر في مكانته من التاريخ. وفي تجربتنا الوطنية الخاصة ما يُحَفِّزُنا على الإيمان العنيد، بأن من استطاعوا الصمود الفذّ في معارك الدفاع عن هويتهم ووطنهم في الحروب الخاسرة، قادرون على الإمساك بمستقبلهم في السلام الخاسر. فنحن لسنا قلعة محاصرة إلى الحدّ الذي يتصوره الآخر. نحن جزء من محيط شاسع تُشكّل القدس موضع القلب فيه. وفيه من عناصر القوة الكامنة ما يعيد إلى عملية السلام ما تفتقر إليه من مبادىء العدل والمساواة والحرية.

ومهما كانت الحيرة، أمام هذا الواقع، متأرجحة بين النصف الفارغ أو الملآن من الكأس، فليس في وسع الثقافة أن تعيد النظر في طبيعتها ودورها. فبما هي معرفة، هي عامل أساسي في تكوين الوعي. ومن هنا مكانتها في التعامل مع الواقع، لا انسجاماً ولا تكريساً، بل إسهاماً في نشر الوعي الجماعي بضرورة تغييره. ولستُ هنا لأشيد بدور مثقفينا، وجامعاتنا وبخاصة جامعة بيرزيت، في الدفاع عن ثقافتنا القومية وعن تحصينها ضد أخطار التشكيك بالذات. ولكني أود الإشارة إلى سعة المجال التاريخي الذي ينبغي لمشروعنا الثقافي أن يتحرك فيه، وهو مطالب بالامتداد على رقعة مجالات معرفية شاسعة في مقدمتها: حماية ذاكرتنا الجماعية، وحقنا في سرد روايتنا التاريخية، والدفاع عن وعينا التاريخي، وتطوير آليات التعبير عن انتمائنا القومي والإنساني، وتعميق ثقافة الديموقراطية والحرية والكرامة، ومفاهيم حقوق الإنسان.

إن طبيعة أية ثقافةٍ أصيلة، باعتبارها وطنية وإنسانية في آن معاً، تجعلها قادرة على صيانة خصوصيتها وهويتها في الوقت الذي تتفاعل فيه وتتحاور مع الثقافات الأخرى التي تُكَوِّن، بمجموعها، الثقافة العالمية.

ومن هنا، فإنها قادرة على التمييز بين ما هو إنساني وما هو عنصري في ثقافة الآخر، وعلى إدراك المشترك الإنساني الذي آن لنا أن نطوِّر وسائل حضورنا الحيّ فيه، من موقع خصوصية متحررة من عقدة النقص ومن عقدة الانغلاق معاً.

لا نريد أن نكون أبطالاً أكثر،

ولا نريد أن نكون ضحايا أكثر،

لا نريد أكثر من أن نكون بشراً عاديين.

البيت والطريق(*)

أرجو أن تأذنوا لي بالتعبير عن حيرة عاطفية، فليس سهلاً على المرء، حتى لو كان شاعراً ضالاً، أن يجد نفسه بين أهله دفعة واحدة، دون أن يضطرب. فالسعادة المفاجئة هي أختُ الحَرَج. وأنا سعيدٌ ومُحْرَجٌ: سعيدٌ لأني الآن معكم، هنا في الجليل الجميل، مُبْتَدَأ الكلام وخَبَرِه. ومُحْرجٌ، لأني لا أقوى على النظر في ماضيَّ الذي يُوَبِّخُني قائلاً: أين كنت؟ دون أن تغرورق اللغة بدمعها السرّي.

كأنني لم أنتبه إلّا الآن إلى ما فعل الزمنُ بي. أما كان في وسعه أن يُعَلِّمني الحكمة، كما علّمني التاريخُ السخرية بثمن أقلّ من الرحيل؟

(*) [ألقيت هذه الكلمة في احتفال خاص في مدرسة كفر ياسيف/ الجليل التي درس فيها الشاعر].

مرَّ أربعون عاماً، منذ زوَّدني هذا المكان الأجمل بعُدَّة السفر الطويل على طرق لم يكن واضحاً منها إلّا أوّلها. أما آخرها، فتلك أُمنيَةٌ تتقاذفها مغامرة الحياة وسِجالُ العلاقة بين الخطوة والطريق. لكنَّ إغواءَ الشعر فينا يحثُّ السائرَ الحالمَ على ابتكار جهاته، بذكاء القلب وطيشه، مُتوهِّماً أن طريقه هي خطاه، وأن الطريقَ المعبَّد ليس طريقَ الحالمين.

وكأنني أحلُمُ بأنني أرى في الحلم أني أفيق من حلمي. وحين أعود الآن إلى هذا المكان زائراً، أتساءل: هل يزور المرء نفسه؟ ولا أعرف إن كانت لغتي التي تعلَّمتُ الكتابة بها هنا، ما زالت صالحة للتعبير عن رموز لا تجد مجالها الحيوي إلّا في الرحلة، من فرط ما أدمنت الحضور في الغياب، ولا أعرف أيضاً إن كان في وُسعِ لغتي أن تألف مرجعيَّاتها الأولى، منذ حوَّلَتِ المسافة الماكرةُ كلَّ حجرٍ هنا إلى طائر هناك. وهل أستطيع أن أعيد الصورة الشعريّة إلى عناصرها الأولى، بطريقةٍ لا تمدح المنفى إلّا على دوره في رفع العاديّ إلى الـمُقدَّس؟

لعلَّ هذا هو امتحاني في ثنائيّة البيت والطريق. أمّا البيت، فلا يليقُ به إلّا المعنى الخالي من البلاغة. ولكن، هل عدتُ حقاً؟ وهل عاد أحد إلّا مجازاً؟ سأجد صعوبة بالغة إن حاولتُ الإمساك بأولى المفردات، للتأكد من صحة مكانتها في السياق، فقد اختلط الواقعي بالأسطوري، والتبس البعيد على القريب. بيد أن النهر ليس هو الينبوع.

مِن هذا المكان الجليلي، وُلدتُ مِن لغتي تدريجيّاً، ولم أكمل ولادتي بعد، فلا فرد يستطيع الاطمئنان إلى جوابه الشخصي عن

سؤال كان جماعياً منذ البداية، منذ مأساة الاقتلاع الكبير... إلى ملهاة سلام لا يعتمد إلّا موازين القوى مرجعيَّة وحيدة. فماذا تفعل اللغةُ أكثر من الدفاع عن ثقافتها، عن ذاكرة جماعيَّة ومكان مكسور، وهوية؛ وعن عناد الأمل المُحاصَرِ بالقنوط والتشكيك. فما من شيءٍ غير الخيال بقادر على إعادة تركيب الزمن المُنكسِر، أما الواقع، فهو كالتاريخ، مِن صُنع إرادة البشر القادرين على وضع الزمان الصحيح في المكان الصحيح.

كان هذا المكان كبيراً عليَّ حين كُنت صغيراً فيه. كان مَعْلَماً ومُعَلِّماً. فمنه أخذتني الحياة إلى أسئلتي الأولى، وإلى اختباراتي الأولى. منه أُخِذتُ إلى زنزانتي الأولى... إلى امتحان حريَّتي الأوَّل. ومنه ذهبت إلى قصائدي الأولى التي أخذتني، وما زالت، إلى عذاب غربة لا شفاء منها، مهما اطمأنَّ الشعر إلى قدرته على تثبيت المكان في اللغة، وإلى تشييد منطقة حُرَّة في أعالي الكلام.

مِن هُنا، من كفر ياسيف من الجليل، بدأ أول الطريق إلى وضع الهاجس الشخصي والسؤال الذاتي في مكانه من السؤال العام، واتّضح الوعيُ الأوّل بالتلاحُم التلقائي بين الذاكرة الجمعيّة والذكرى الشخصيَّة، حين كانت هذه القرية/ البلدة تحمل من الإشارات والمعاني أكثر من مساحتها الجغرافيّة. فلم نتعلَّم من المدرسة بقدر ما تعلَّمنا من محيطها، من الصراع الملتبس الاسم على هويّة المكان وعلى هوية الكائن، من غاب منه ومن حضر. ومن وقف، مثلي، بين المنزلتين حاضراً غائباً. ولعلَّ أحداً لم يُسأل كما سُئِل كلُّ واحد منّا: مَنْ أنت؟

لم يكن الجواب في حاجةٍ إلى تعقيد: أنا ابن هذه الأرض وابن

تاريخها، لولا إلحاحُ الاقتلاع المدجَّجِ بالسّلاح وبالأسطورة على الزجّ بنا في معركة الصراع على شرعيّة الوجود، وجودنا. إذ كان يقترح علينا تبنّي رواية تاريخٍ آخر، يبدأ من الأسطورة ولا ينتهي إلّا بتفريغ التاريخ من محتوياته ومنّا. إذ، لم يكن لتاريخ هذه الأرض من عَمَلٍ إلّا انتظار امتلائها بأمس الآخر الأبدي!!

لم يكن ذلك يعني صراعاً على الحاضر وحده، بل على الماضي أيضاً، إذ لم يكن وجودنا هنا، إذاً، إلّا احتلالاً!! ولم يكن الموجود فينا أكثرَ من شبحٍ زائر يقتضي تنظيفُ الأرض منه ارتكاب بعض المجازر بحقِّ البعض، ووضع بقيَّة الشبح في شاحنات الترحيل. أما النّاجون من المذبحة ومن الشاحنة، الصامدون الذين آثروا الموت على الرحيل، فسيصارعون طويلاً من أجل الحصول على إقامة دائمة في هامش المواطنة، وعلى مساواة شكليّة في حق الاقتراع على دين الدولة اليهودية. وهكذا لم تتمكن «واحة الديموقراطية الغربية» من إرجاء البوح بنزعتها العرقية، منذ البداية.

لم ينس أحد قصَّته، لا ماضِيَه ولا حاضره. ولم نكن في حاجة إلى انتظار المؤرخين الجُدد، لنحمِّل الدولة الإسرائيلية المسؤولية عن الظلم التاريخي الذي ألحقته بالشعب الفلسطيني، دون أن تعترف أو تعتذر، لتحسين مناخ السلام، على الأقل. لم ينسَ أحد قِصَّته، فما زال الدفاع عن حقوق المواطنة مرتبطاً بالدفاع عن حق العودة. وما زال اللاجئون في بلادهم لاجئين في بلادهم، وفي منأى عن أي تفاوض خارجي أو داخلي. فالمواطنة ليست بديلاً أو تعديلاً عن حقوق المواطنين، ولا حلاً لمشكلة اللاجئين في بلادهم.

إن للأقلية القومية ذاكرة جماعية، لها تداعياتها ومطالبها الثقافية

والحقوقية والسياسية، ودورها في وعي ذاتها، وفي تحديد سياسة الدولة تجاهها، وتجاه قضية شعبها التي لن تتشظّى هويّتُهُ الوطنية إلى هويّات مبعثرة ومتنافرة، مهما ابتعدت مسيرة السلام أو اقتربت من جوهر السلام.

وفي هذا المكان الذي دَرَّبني على الربط بين المسألة الديموقراطية والمسألة القومية من جهة، وعلى التمهُّل في البحث عن حلّ نظريّ أو عمليّ للتوتُّر القائم بين الجنسية والهُوِيَّة، من أجل ترجيح سؤال البقاء في الوطن على أي سؤال آخر، من جهة ثانية، أشعر بخشية خفيفة وخفيَّة من تداعيات الانقلابات الدولية والإقليمية على طريقتنا في محاكمة تجربتنا السابقة بمعايير «الآن» الضاغطة، وخارج سياقها التاريخي، فصوابُ فكرةٍ ما، كفكرة العدالة الاجتماعية، وحق الشعوب في التحرُّر، وحقوق الإنسان، لا يقاس دائماً بنجاحها الآني، ولن تصبح أفكاراً بالية لأن أداة تطبيقها قد فشلت هنا أو هناك. لذا، لا يحقّ لأحدٍ بأن يطالبنا بالاعتذار عن الإيمان بمثل هذه القيم الإنسانيّة الخالدة. ولا يحقّ لأصحاب الخيار الصهيوني بأن يطالبونا بتقويمهم على أنهم كانوا مستقبليين بعيدي النظر، لا لشيء إلّا لأن المشروع الصهيوني نجح في احتلال المزيد من الأراضي العربية، واستطاع أن يجد منصبَ سفيرٍ إسرائيلي شاغراً في موريتانيا!

لكن شعوري بالعنفوان هنا أقوى من شعوري بالقنوط، وبالخشية من سقوط المعنى في البراغماتية المبتذلة السائدة. فإن ملحمة الصمود الطويلة على هذه الأرض كانت أحد العوامل الرئيسة التي لم تأذن للخرافة الصهيونية الكبرى «أرض بلا شعب» بأن تعمِّر طويلاً. وفي هذا الصمود اليومي البطولي حافظ شعبنا، هنا، على

وحدة مكوّنات هُوِيَّته القوميّة والثقافيّة على أرضه، وعلى إبقاء ملفّ القضيّة الوطنيّة الفلسطينيّة مفتوحاً، كما حرم المشروع الإسرائيلي من تحقيق حلمه بإقامة دولة طاهرة العرق على حساب تطهير الأرض من شعبها الأصلي. وهكذا لم يَسْلم المشروع من بذور ثُنائيّة القومية، الأمر الذي يعرِّض تجاهُلُه الديموقراطية إلى امتحان يومي، كما تعرِّض الديموقراطية الحرصَ على طهارة الدولة اليهودية، غير اليهودية ديموغرافياً، إلى امتحان آخر. لذا، لا يَسْلَمُ أحد، حتى الـمُنْتَصِر، من سؤال الهُويّة المُتوتّر. فإما التحصُّن في القلعة حرصاً على نقاء الهُوية، وإما الخروج إلى الأفق حرصاً على الحياة في المستقبل، حتى لو كان أحدُ شروطها انفتاح الذات على الآخر، واختلاط الهُويَّة في ما ليس منها. فإذا كان من الطبيعي أن تخشى الناس من الحروب، فإنه ليس مألوفاً ولا طبيعيّاً أن يتحدث أحد عن خطر السلام!

لستُ هنا لأذكِّر أحداً بقصَّته. بل لنتذكر معاً حكايتنا الجماعية... أيام كان الطريق أصعب وأوضح. أيام لم تكن الكهرباء قد وصلت إلى هذا البلد، ولم يكن الحكم العسكري المباشر قد رفع قبضته الفولاذية عن أحد، ولم يسلم الـمُدرِّسون ولا الطلبة من الـمُلاحقة. أيام لم تكن الوطنيّة، ولا عكسها، مُجرَّد وجهة نظر. أيام لم نجد كتباً كافية للتعلم. أيام كان حاييم نحمان بياليك يطرد أبا الطيب المتنبي، وأحاد هعام يطرد ابن خلدون من برامج التعليم. أيام كانت «بياعر بحديره» ضرورية أكثر من جحيم دانتي. وأيام كان «يوم الاستقلال» هو المناسبة الوحيدة لزيارة أنقاضنا بلا عقاب. ذكرى تذكِّر بنقيضها. أيام كنا صغار السن كبار النفوس والمحن. أيام لم نعرف من هو المسيحيّ فينا ومن هو المسلم. لم تَعْتَدِ الكنيسة على الجامع، ولم يستفزَّ الجامعُ الكنيسة. أيام كان الديـنُ للَّه والوطنُ

للجميع. وأيام لم نتذكَّر من سيرة صلاح الدين إلّا تحريره بلادَ الشام والقدسَ من الصليبيين، ولم يكن في سيرته ما يصلح لإشعال نار الفتنة بين المسلمين والمسيحيين.

في تلك الأيام، دلّتنا كفر ياسيف على بوصلة الشمال، على أوَّل الوعي، وعلى أوَّل الطريق، وعلى أُولى الخطوات. على السجن الأوَّل، وعلى حرياتنا الصغرى، وعلى طموحاتنا الأولى وخياراتنا الصعبة، وعلى أوَّل الكتابة، وعلى ما يدلّنا على أننا جزء من جماعة قوميّة، أيام كان انتماؤنا لمصلحة الشعب العامة، لا للعائلة أو القبيلة أو الطائفة.

هل مرَّ أربعون عاماً حقاً دون أن أنتبه إلى ما فعل بي الزمن. لا أحد يعود إلى مرآته الأولى إلّا ليهرب من ذاته الأولى إلى ذاته الثانية. أو ليقفز من وجهه إلى قلبه، ومن قلبه إلى ماضيه. لكن الماضي لا يصلح للإقامة الدائمة، بل لزيارة ضرورية، نُحاكِم خلالها أفعالنا، ونَجُسّ ما في الزمن من تاريخ، ونسأل: هل كُنّا جديرين بأحلامنا الأولى، وأوفياء لأرضنا الأولى؟ أما أنا، فلعلي لا أستطيع الإجابة، ولكني أحيل الأسئلة كُلَّها إلى هويتي الشخصية الوحيدة: قصيدتي. أمَّا الزَبدُ فيذهب جُفاءً، وأمَّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض... وفي الشعر.

وهكذا أجد نفسي هنا. لم أذهب ولم أرجع، لم أذهب إلّا مجازاً. ولم أُعُدْ إلّا مجازاً.

المنفى المتدرج(*)

لم تنته الطريق لأقول، مجازاً، إن الرحلة ابتدأت. فقد تُفضي بي نهايةُ الطريق إلى بداية طريق آخر. وهكذا تبقى ثُنَائِيَّةُ الخروج والدخول مفتوحةً على المجهول.

كنت في السادسة من عمري حين خرجتُ إلى ما لا أعرف، حين انتصر جيشٌ حديث على طفولة لم يكن يأتيها من جهة الغرب إلّا رائحة البحر المالحة، وغروب شمس الذهب على حقول القمح والذرة. لم تتحول السيوف إلى محاريث إلّا في وصايا الأنبياء. وانكسرت محاريثنا في الدفاع عن طمأنينة العلاقة الأبدية بين ريفيّين طيِّبين وأرضٍ لم يعرفوا غيرها ولم يولدوا خارجها، أمام حرب الغرباء المدججين بطائرات ودبابات وفَّرت لرواية حنينهم

(*) [شهادة نشرت في مجلة Geo الفرنسية في عددها المكرس لـ «فلسطين: رحلة في قلب شعب»].

البعيد إلى «أرض الميعاد» شرعيَّة القوة. كان الكتاب يتغذى من القوة، وكانت القوة في حاجة إلى كتاب.

منذ البداية، صاحب الصراع على الأرض صراعٌ على الماضي والرموز. ومنذ البداية، كانت صورة داود هي التي ترتدي دروع جوليات، وكانت صورة جوليات هي التي تحمل حجر داود.

ولكن ابن السادسة لم يكن في حاجة إلى من يُؤَرِّخ له، ليعرف طريق المصائر الغامضة التي يفتحها هذا الليل الواسع الممتد من قرية على أحد تلال الجليل، إلى شمالٍ يضيئه قمر بدويّ مُعَلَّق فوق الجبال: كان شعب بأسره يُقتلع من خبزه الساخن، ومن حاضره الطازج ليُزجَّ به في ماضٍ قادم. هناك... في جنوب لبنان، نصبت خيام سريعة العطب لنا. ومنذ الآن، ستتغيَّر أسماؤنا. منذ الآن سَنَصيرُ شيئاً واحداً، بلا فروق. منذ الآن، سَنُدْمغ بختم جمركي واحد: لاجئون.

ـ ما اللاجىء يا أبي؟

□ لا شيء، لا شيء، لن تفهم.

ـ ما اللاجىء يا جدي، أريد أن أفهم.

□ أن لا تكون طفلاً منذ الآن!

لم أعد طفلاً، منذ قليل. منذ صرت أميِّز بين الواقع والخيال، بين ما أنا فيه الآن وما كان قبل ساعات. فهل ينكسر الزمان كالزجاج؟ لم أعد طفلاً منذ أدركت أنّ مخيمات لبنان هي الواقع وأن فلسطين

هي الخيال. لم أعد طفلاً منذ مَسَّني نايُ الحنين. فكُلَّما كبر القمر على أغصان الشجر حضرت فيَّ رسائل مبهمة إلي: دار مُرَبَّعة الشكل، تتوسطها تُوتَةٌ عالية، وحصان متوتر، وبرج حمام، وبئر. على سياجها قفيرُ نحل يجرحني مَذَاقُ عسله، وطريقان معشوشبان إلى مدرسة وكنيسة، واسترسال يفيض عن لغتي...

هل سيطول هذا الأمر يا جدي؟

إنها رحلة قصيرة. وعمّا قليل نعود.

لم أعرف كلمة «المنفى» إلّا عندما ازدادت مفرداتي. كانت كلمة «العودة» هي خبزنا اللغوي الجاف. العودة إلى المكان، العودة إلى الزمان، العودة من المؤقت إلى الدائم، العودة من الحاضر إلى الماضي والغد معاً، العودة من الشاذ إلى الطبيعي، العودة من علب الصفيح إلى بيت من حجر. وهكذا صارت فلسطين هي عكس ما عداها. وصارت هي الفردوس المفقود إلى حين...

حين تسلَّلنا، عبر الحدود، لم نجد شيئاً من آثارنا وعالمنا السابق. كانت الجرافات الإسرائيلية قد أعادت تشكيل المكان، بما يُوحي بأن وجودنا كان جزءاً من آثار رومانية، لا يُسمح لنا بزيارتها. وهكذا لم يجد العائد الصغير إلى «الفردوس المفقود» غير ما يشير إلى أدوات الغياب الصلبة، والطريق المفتوحة إلى باب الجحيم.

لم أكن في حاجة إلى مَنْ يؤرِّخني، أنا الحاضر الغائب. ولكن المخرجة السينمائية سيمون بيطون ستذهب بعد خمسين عاماً إلى مسقط رأسي لتصوير بئري الأولى وماء لغتي الأول، وستصطدم بمقاومة من سكان المكان الجدد، وتسجِّل هذا الحوار مع المسؤول

عن المستوطنة الإسرائيلية:

ـ لقد وُلد الشاعر هنا.

□ وأنا أيضاً. حين وصل أبي إلى هنا لم يلق سوى الأطلال. أعطونا خياماً ثم أكواخاً. أنفقتُ عشرين عاماً في بناء بيت لي، وتريدينني أن أعطيه إياه؟

ـ ما أريده هو أن أصوِّر هذه الأطلال، أطلال ما تبقى من بيته. إنه في عمر والدك، ألا تخجل؟

□ لا تكوني ساذجة، إنهم يريدون حقّ العودة.

ـ أتخاف من أن يحصلوا عليه؟

□ نعم!

ـ وأن يطردوك كما طردناهم؟

□ أنا لم أطرد أحداً. أنزلونا من الشاحنات وقالوا لنا: ههنا تدبروا أمركم. لكن من هو درويش هذا؟

ـ إنه يكتب عن هذا المكان، عن شجرات الصبّار هذه. عن هذه الأشجار، وعن البئر.

□ أية بئر. هناك ثماني آبار. كم كان عمره؟

ـ ستّ سنوات.

□ وعن الكنيسة؟ هل يكتب عن الكنيسة!؟

كانت هناك كنيسة لكنها دُمِّرت. أبقوا على المدرسة من أجل البقرات الحلوبات والعجول.

ــ حوَّلتم المدرسة إلى إسطبل؟

□ لِمَ لا؟

ــ صحيح، لِمَ لا بالنهاية؟ هم كان عندهم حصان. هل ما زال هناك بعض أشجار الفاكهة؟

□ طبعاً، حين كنا لا نزال أولاداً اعتشنا على ثمارها: تين وتوت وكل ما خلق الله. إنها كل طفولتي تلك الأشجار.

ــ وطفولته أيضاً.

لم تكن صحراء إذاً، ولا خالية من السكان. يولد طفل في سرير طفل آخر. يشرب حليبه. يأكل توته وتينه، ويواصل عمره، بدلاً منه، خائفاً من عودته، وخالياً أيضاً من الإحساس بالإثم، لأن الجريمة من صُنع أيدٍ أخرى ومن صناعة القدر. فهل يتسع المكان الواحد لحياة مشتركة؟ وهل يقْوى حلمان على الحركة الحرة تحت سماء واحدة، أم أن على الطفل الأول أن يكبر بعيداً وحيداً بلا وطن وبلا منفى، لا هو هنا ولا هو هناك.

سيموت جدي كمداً، وهو يطل على حياته التي يعيشها الآخرون، وعلى أرضه التي سقاها بدموع جلده ليورثها لأبنائه. ستقتله رائحة

الجغرافيا المنكسرة على أطلال الزمان، لأنَّ حق العودة من رصيف الشارع إلى الرصيف الآخر، لا يتحقق إلّا مع مرور ألفي عام على غياب يكفي لتطابق الخرافة مع الحداثة.

أما أنا، فسأبحث عن «أخوّة الشعوب»، في حوار لا ينتهي، عبر باب الزنزانة، مع سجان لا يكفُّ عن الإيمان بأني غائب.

ــ مَنْ تحرس إذاً؟

□ نفسي القلقة.

ــ مم أنت قلق يا سيدي؟

□ من شبحٍ يطاردني. كلما انتصرتُ عليه ازداد ظهوراً.

ــ ربما لأن الشبح هو أثر الضحية على الأرض؟

□ لا ضحيَّة سواي. أنا الضحية.

ــ ولكنك القويُّ. القادرُ، السجَّان، فلماذا تنازع الضحية على مكانتها؟

□ لأبرِّر أفعالي، لأكون على حق دائماً، لأصل إلى مرتبة القداسة، ولأنجو من داء الندم.

ــ ولماذا تحتجزني هنا. هل تظنني شبحاً؟

□ ليس تماماً. بيد أنك تحفظ اسم الشبح.

لعل الشعر هو حافظ الاسم بجنوحه الدائم إلى تسمية العناصر والأشياء الأولى في لعبة لا تبدو بريئة لمن يُسَيِّجُ وجوده بالاستحواذ المطلق على المكان وذاكرته، على التاريخي والغيبي معاً. لعلَّ الشعر لا يكذب ولا يقول الحقيقة أيضاً شأنه شأن الحلم. ولكن تجربة الاعتقال المتكررة أضاءت لي الوعي بجمالية الشعر وجدواه أو فاعليته. لا، لم يكن الشعر لعبة بريئة ما دام يدُلُّ على كائن كان ينبغي له ألّا يكون.

لكن المنفى ينبت مرة أخرى كالحشائش البرية تحت ظلال الزيتون. وعلى الطائر وحده أن يُوَفِّر للسماء البعيدة نقطة العلاقة بأرض أُخرجتْ من خصالها السماوية.

لا تتمتع جغرافيات كثيرة بوفرة التعدد الجمالي الذي تمتاز به أرضنا العاجزة عن إجراء الانفصال الضروري عليها بين الواقع والأسطورة. كل حجر هنا يروي، وكل شجرة تحكي عن الصراع بين المكان والزمان. كلما ازدادت وطأة الجمال ازداد إحساسي بخفَّة الغريب: أنا حاضر وغائب وسجين. نصف مواطن ولاجىء كاملُ الحرمان. أذرع شوارع حيفا، على سفح الكرمل الموزع بين البحر والبرّ، وبي عطش إلى توسيع رقعة الأرض بحريّة لا أجدها إلّا في قصيدة تأخذني إلى الزنزانة. منذ عشر سنين لا يؤذن لي بالخروج من حيفا. ومنذ اتسعت دائرة الاحتلال الإسرائيلي عام ٦٧ ضاقت مساحة إقامتي: لا يؤذن لي بمغادرة غرفتي منذ غروب الشمس حتى شروقها. وعليَّ أيضاً أن أثبت وجودي في مركز الشرطة في الساعة الرابعة من بعد ظهر كل يوم. أما ليلي الخاص، ليلي الشخصي فلم يعد لي: من حق رجال الأمن أن يطرقوا بابي

في أية ساعة شاءوا، للتأكد من أنني موجود!

لم أكن موجوداً. كنت أرغم على العودة إلى المنفى التدريجي تدريجياً، منذ اختلطت حدود الوطن والمنفى في ضباب المعنى. وكنتُ أحدس بأن في وسع اللغة أن ترمِّم ما انكسر، وأن توحِّد ما تشتت. ولعل «هُنا» يَ الشعرية، المتحولة من أفق إلى قيد، كانت في حاجة إلى توسيع منطق البعيد.

لكن المسافة بين المنفى الداخلي والخارجي لم تكن مرئية تماماً. كانت مجازية ما دامت هذه البلاد، معنىً، أكبر من مكانها. وفي المنفى الخارجي أدركتُ كم أنا قريب من بعيد معاكس، كم أنَّ هناك كانت هنا. لم يعد أيُّ شيء شخصياً من فرط ما يُحيل إلى العام. ولم يعد أي شيء عاماً من فرط ما يمسُّ الشخصي. ستطول الرحلة على أكثر من طريقٍ غالباً ما يُحْمَلُ على الكتفين. ستتأزم هوية مُحَرَّمة تُسْتَعْصَى على التلخيص بـ: هجرة وعودة. ولا نعرف أيّنا هو المهاجر: نحن، أم الوطن. والوطن فينا بتفاصيل مشهده الطبيعي، تتطور صورته بمفهوم نقيضه. وسيُفسَّرُ كل شيء بضده. سينمو كثير من النرجس الجريح على أرض الهامش المؤقتة. ستحلُّ اللغة محلَّ الواقع، وتبحث القصيدة عن أسطورتها في مجمل التجربة الإنسانية، وسيصير المنفى أدباً، أو جزءاً من أدب الضياع الإنساني، لا لتبرد نار التراجيديا الخاصة بل لتدخل في تاريخها البشري العام. لكن الإسرائيليين سيطاردون هذه المكانة. سيقولون إنهم هم المنفيون. هم المنفيُّون الذين عادوا، وإن الفلسطينيين ليسوا منفيين، بعدما عادوا إلى العيش في مجالهم العربي! ستجرَّد الضحية مرة أخرى من اسمها. فكما أن من حقَّ الضحية الخاصة أن تخلق ضحيتها، كذلك من حقِّ المنفيّ الخاص أن يخلق منفيَّه!

سيُتاح لي، بعد ما يزيد على ربع قرن، أن أرى جزءاً من بلادي، غزة التي لم أرها من قبل إلّا في قصائد شاعرها الراحل معين بسيسو الذي جعلها جنّته الخاصة. الطريق إليها عبر صحراء سيناء موحش، يُسامره نبت صحراوي هنا وهناك، نخيل حار ودبابة تذكارية، وبحر على الشمال. أما مشاعري فقد كانت مُرتَّبة بعقلانية باردة حيناً، ونهباً لخبرة مَنْ يعرف الفارق بين الطريق والهدف حيناً آخر. تكاثر النخيل فجأة في العريش. ها أنذا أقترب من المجهول الذي تمنيت لو يطول. ولكن سلطة الوعي على القلب تتراخى تدريجياً: هيّا بنا قبل أن يهبط المساء. انتظر، قال لي صاحبي وزير الثقافة، فالوطن في متناول اليد. والوطن هو ما تحسّ به الآن. هو هذا التوجُّس وهذا الاضطراب. قلت: لعله هو هذا المساء الذي يتأهب فيه الحلم ليصبح أكثر واقعية.

لا أحلم الآن بشيء. من هنا تبدأ فلسطين الجديدة: من هذا الحاجز الإسرائيلي. سيارة جيب عسكرية، علم، وجنديّ يسأل المرافق بعربية رخوة: شُو معك؟ فيقول له: معي وزير، وشاعر. أتحاشى النظر إلى كاميرات المصورين الباحثة عن فرح العائدين إلى الجنة. وتلسعني أضواء المستوطنات وحواجز الجيش الإسرائيلي على جانبي الطريق. ولعلَّ أول ما يفاجئني هو انكسار القوام الجغرافي وتشوُّه الخريطة. ولكن للمفاجأة جوابها الجاهز: هذه هي البداية. غزة وأريحا أولاً، فنحن في أول الطريق، في أول الأمل.

لم أتمكن من الوصول إلى أريحا. فكيف أصل إلى الجليل، وطني الشخصي؟ كان ذلك مشروطاً بشروط قال لي إميل حبيبي إنه يخجل من نقلها. لكنه لم يعرف أنه سيرحل بعد عامين، وأن جنازته ستوفِّر لي فرصة حزينة لأفرح بعودة قصيرة إلى الجليل، إذ

حصلت على تصريح لمدة ثلاثة أيام للمشاركة في تأبين إميل حبيبي ولزيارة بيت أمي. وهناك احترقتُ بلهفة العودة، فمن هنا خرجت وإلى هنا أعود. ورأيتُ كيف يستطيع المرء أن يولد من جديد: كان المكان قصيدتي.

لم ينقصني شيء لأحقِّق موتي المشتهى في ذروة هذه الولادة. بيد أني، وأنا أحرم من اكتمال الدائرة، كنتُ أدرك أن انسلاخ الأسطورة عن الواقع ما زال في حاجة إلى مزيد من الماضي، وأن تحرُّر الواقع من الأسطورة ما زال في حاجة إلى مزيد من المستقبل. وأما الحاضر، فلم يكن أكثر من زيارة يعود الزائر بعدها إلى توازنه الصعب بين منفى لا بدَّ منه وبين وطن لا بُدَّ منه. فلا يُعرَّفُ هذا بعكس ذاك، ولا ذاك بنقيض هذا. ففي كل وطن منفى، وفي كل منفى بيت من شِعْر.

ولم أعد بعد. لم تنته الطريق لأقول مجازاً إن الرحلة ابتدأت.

في تحرير الجنوب(*)

لا تحتاج البلاغةُ إلى أكثر من زيارةِ مصدرها الأول، لتُدركَ كم أنهكَتْها جماليّاتُ الحزن على واقع، أدَّى بها الإفراط في وصفه الواقعي، إلى الإحباط من جهة، وأدَّى بها التأمُّل العميق في حركته إلى إحياء الأمل، من جهة ثانية. ومنذ البدء، لم يكن للقول من معنى إلّا إذا كان حافزاً للفعل.

هكذا يحتفل شعرُ الجنوب اللبناني، شقيق الشمال الفلسطيني، بانتصار الفعل على واقع الاحتلال، وبانتصار القول الشعري على اغتراب اللغة عن مجالها الحيوي، وبعودة الخيال إلى أصله، إلى الواقع... ليصير لبيت الشعر بيتٌ من حجر. ومن دون أن نَسْأل: «وماذا عن اليوم التالي؟» يأخذنا هذا العيد النادر إلى آفاقٍ مفتوحة

(*) [أُلقيت هذه الكلمة في احتفال جامعة بيرزيت، بتحرير جنوب لبنان من الاحتلال الإسرائيلي ٢٠٠٠].

على المعاني. إذ، لا أَحد يندم على الحرية.

لم يفطَن العربُ إلى ما فيهم من عَطَشٍ إلى الفرح كما يَفْطَنُون الآن، لقد اتخذ الأملُ مكانةَ العَوْرة التي تُغَطّى بكثافة الحجاب وبسيولة الخطاب. لكن قطرةً من أرض الندى كانت كافيةً لانفتاح الشهيّة العاطفية، وربما الفكرية، على فَرَحٍ جماعيّ وحّد فيها وَعْيَ الهزيمة القابلةِ لأن تنكسر، ووَعْيَ المقاومة القادرةِ على أن تنتصر.

قد لا يصلح المثال اللبناني لأن يحتذى، بحذافيره، في كل مكان. وقد لا تكون المقارنةُ بينه وبين ظرفٍ آخر، شديدِ التعقيد، أكثرَ من وليمة لتعذيب الذات بلا سبب. بيد أن البديهية التي لا تُبْتَذَلُ بمرور الزمن، تُعَلِّمنا أن تحرُّرَ الإرادة شرطٌ لتحرير الأرض. وأَنَّ في أعماق كل شعب طاقة روحية قادرة على ابتكار بلاغتها الوطنية التي تتلاءم مع الظرف الخاص والمحدّد، لذلك نُصَفِّق للبنان.

نُصَفِّقُ للبنانَ الجميل، نصفّق له بلا تَوْرِيَةٍ أَو تأويل. كنا نحبّه، ونحبّه اليوم أكثر. لا لأن ذكرياتنا تمشي، هناك، على غير هدى في الجنوب الذي اختلط دَمُنا بعشبه وترابه، ولأن شهداءنا الذين قادَنا دَمُهم إلى هنا، هم أَزهارُنا السماويَّةُ الباقيةُ هناك... بل لأنه انتصر على خرافته: على ضعفه الفولكلوري الـمُراوِغ. وانتصر على أسطورة الاحتلال الإسرائيلي الذي لا يخضع للضغط. ولأنه أَحيا في مرآة الاحتلال صورةَ سايغون المنهارة، التي فتحت تشوّهاً في صورة الذات الإسرائيليّة عن ذاتها.

ونحبُّ اليوم لبنان أكثر، لأنه انتصر أيضاً، ولو إلى حين، على ثقافة الهزيمة المتفشِّية في مواعظ النُخُب العربية التي حوَّلت

مفهومي الحرية والتضحية إلى مادة يوميَّة للسخرية، والتي تتربّص ــ منذ الآن ــ بتداعيات اليوم التالي المأمولة، عساها تعيد إليها إنتاجَ التبشير بعَبَثِيَّة الاعتراض على قَدَرٍ إسرائيلي لا يُرَدّ!

كل ما في لبنان اليوم جميل: عودة أَهل الجنوب إلى أرض الجنوب. فجرٌ واسع بلا احتلال. مساء آمن على الشرفة.. بلاغةُ العجائز في التَشَبُّه بالشجر العتيق. تحطُّم سجن الخيام أو الباستيل. تعميمُ النصر على جميع طوائف الشعب اللبناني وقواه السياسية، وعلى قصر بعبدا أيضاً. الأَرُزُّ المنثورُ على المُحَرَّرين وعلى المُحرِّرين، والأرزُ القادم من الشمال إلى الجنوب. تبادل الشتائم على جانبي الحدود الدولية. سخرية الأطفال ممّن كانوا يروِّعونهم.

وكُلُّ ما في لبنان اليوم جميل: انتقال الهامش إلى المركز. تَبَلْوُرُ الهوية بوعيٍ جماعيّ أَقوى من الفسيفساء. منحدرات الجبال والتلال، والليلُ النهاريُّ على قطيع الماعز الجريء، والعشبُ اليابس في طبيعة لم تكترث بالغزاة، وآثار الاحتلال أيضاً جميلة حين تتحوَّل مُقْتَنياتٍ للمتاحف: دباباتٌ وآليات وغنائمُ حربية تشير إلى أَنَّ احتلالاً ما كان هنا، وفرَّ قبل الفجر، دون أَن يجد الوقت الكافي لارتداء ملابسه الفولاذية.

لكن الجنود الإسرائيليين فرحون هم أَيضاً. نعم. قد يفرح المرء بالهزيمة إذا كانت هي الطريق الوحيد إلى السلامة، وإلى اللحاق بما تبقَّى له من حياة. أَمَّا القادة الذين سَمّوا احتلالَ جنوب لبنان انتصاراً للأمن الإسرائيلي، فإنهم سَمّوا الانسحاب انتصاراً أَيضاً، لا لشيء إلّا لمعالجة النرجس الجريح. وهكذا، حَمّلوا صَنيعتهم «جيش لبنان الجنوبي» المسؤولية عن الانهيار، فانخدشت كرامة «حلفاء

الشيطان» وقالوا للشيطان: أَنت الذي خان.

تَتَكَرَّرُ الأخطاءُ التاريخية لأن أَحداً لا يتعلَّم إلّا من تجربته. فهل يتعلَّم أَكاديميّو الاحتلال الإسرائيلي، ذوو الخبرة الطويلة في هذا المضمار، شيئاً من تجربتهم التي دامت حوالى ربع قرن في جنوب لبنان؟ في مقدمة هذا الشيء البسيط: أن الزمن، زمنَ الاحتلال، لا يُضَيِّعُ حقَّ أحدٍ في العودة إلى بلاده، ولا يُصَنِّعُ حقاً مضاداً يدعي أَنه «الأَقدم والأَحدث» معاً، مهما نجحت الوقائع الجديدة في تعديل الجغرافيا والديموغرافيا. ومن هذا الشيء البسيط: أَن الاحتلال هو الأب الشرعي للمقاومة.

فَهَلْ توفِّر هذه التجربةُ فرصةً لعودة الإسرائيلي الهادئة إلى محاسبة الذات، التي أَدمنت الخروج عن حدودها، وهل توصله إلى التساؤل عن مدى تحمّله نفسَهُ العليا المثقلةَ بالاستثناءات والخصوصية، والتي لا تكفُّ عن مطالبة الآخرين بالتطبيع مع حقِّها في الهيمنة والتعالي على التاريخ، دون أَن تجد الوقت لإقامة علاقات طبيعية وعادية مع ذاتها، لأنها منهمكة في حشر الآخر في ما تحدِّده له من «آنٍ، وهنا».

ليس هنالك نصر نهائي ولا هزيمة نهائية، فهذان المفهومان يُتْقنان لعبة التناوب والاحترام المتبادل، لكي يكمل السيِّدُ التاريخُ حركته اللانهائية. المهم هو: ماذا يفعل المنتصر بالنصر، وماذا يصنع المهزومُ بالهزيمة. ولعلَّ بعض الهزائم صالح لبلوغ البشر مرحلة النضج المعنوي والأخلاقي. ولعلَّ بعض الانتصارات أَخطر على البعض من الهزيمة، لأنه يُعْفيه من ضرورة الإصغاء إلى صوت الزمن. لقد انتصرت إسرائيل على العرب أكثر من طاقتها على تحمُّل تبعات

نصرها، إذ صار دماغها العسكري أكبر من جسدها، فأصبحت أَسيرةً لفائض قوة جشعة، دون أن تحسب أيَّ حساب لقدرة المقاومة الشعبية على تحييد هذه القوة.

هذا ما فعلته الانتفاضةُ الفلسطينية أَمس. وهذا ما فعلته المقاومة اللبنانية اليوم. لقد أَرغمت الأُولى إسرائيل على الاعتراف المتأخر بوجود الشعب الفلسطيني وعلى الانسحاب، أو إعادة الانتشار، من جزء من الأرض الفلسطينية المحتلة. وأَرغمت الثانيةُ إسرائيل على الانسحاب من جنوب لبنان لأنها لم تعد قادرة على تحمّل ثمن الاحتلال، لا لأنها انتبهت فجأة إلى قرارات مجلس الأَمن. وهكذا، فإن الدولةَ التي لم تَكُفَّ عن القول إن العرب لا يفهمون غير لغة القوة، هي الدولة نفسُها التي يقول انسحابُها إنها هي نفسَها لم تفهم غير لغة القوة.

إن سؤال اليوم التالي عمَّا سيفعل اللبنانيون بانتصارهم بعدما أَنجزت المقاومةُ المسلحةُ برنامجها الوطني، وعن مدى انسجام برنامجها الاجتماعي مع متطلبات المرحلة اللبنانية القادمة، وعن تداعيات الانسحاب المحلية والإقليمية، وغيرَهُ من الأَسئلة السهلة والصعبة، لن يُوقفَ عدوى الأَمل الكبير الذي أَيقظه لبنانُ الصغير في قارةٍ عطشى إلى الحرية والديموقراطية.

لقد استعادتْ ثقافةُ المقاومة، بمعناها الواسع، بعضَ أَسلحتها الفكرية التي صادَرَتْها برغماتيَّةٌ مُبْتَذَلَةٌ لا تميِّز بين التسوية والسلام، ولا توازن بين الدفاع عن الحقوق وبين إدراك الممكن!

وأَما السؤال عما سيفعل الإسرائيليون بما أَصابهم في جنوب لبنان،

فإنه منوط بنوعية استخلاص العبرة. فإذا كانوا يعتبرون الانسحاب نصراً، فلينتصروا إذاً في سائر الجبهات... فلينسحبوا من الضفة الغربية ومن القدس العربية ومن الجولان. فلينسحبوا منتصرين، أو فلينتصروا منسحبين، فلا مشكلةَ لنا مع التسمية. وماذا لو انتصر الكائن البشريُّ على حماقته؟ إنه بدايةُ الرشد، ومقدِّمةٌ واعدةٌ بعقد السلام الطبيعي مع الذات. فقد آن للعقل الإسرائيلي المدبِّر أن يتحرر من عقدة التفوق ومن عقدة الخوف، اللتين تضعان السلام لنا بديلاً للتحرر، ورموز الأشياء بديلاً عن الأشياء، والاحتلال العلني أو المبطن شرطاً لِقبول التسوية.

إن اختيار الفلسطينيين طريقَ السلام هو اختيار لا تراجع عنه، لأنه مرتبطٌ بمصلحتنا الوطنية العليا ومُسَلَّح بتقاليدنا النضالية الغنية بالتجارب. فليس السلامُ هبةً من أحد، ولا هو عطلة نهاية الأسبوع. إنه معركة قاسية يقودها وعيُ مقاومة الاحتلال والتبعية، ووضوحُ الهدف الوطني في الاستقلال والسيادة.

فما دامت ثقافةُ المقاومة جزءاً من نسيج المجتمع، فإن الانسحاب ممكن...

وما دام الانسحاب ممكناً

فإن السلام ممكن،

ولا تحتاجُ البلاغةُ إلى بليغ!

II ـ أكثر من وداع

رسالة الغائب إلى الغائب(*)

غائباً آتي إلى غائب، فلا أدري إن كنتُ هناك أم هنا، ولا أدري هل جسدي هو كلامي أم كلامي هو جسدي. ولكنني في الحالين غائب!

لا صورة للمعنى بلا مبنى. ولا أرض للقصيدة غير تلك الطعنة التي تحفرها السماء، بقرن غزال، على حافة الأرض.

هل دخلت من هناك؟ أم خرجت إلى ما أنت فيه، بحثاً عن أمثالي العائدين في عربات المهاجرين إلى صورتهم وهي تكبر وحدها، في الليالي القديمة، دون أن تنتبه إلى تدخل الشبح أو الشاعر.

ولكن، لماذا تفتح أبواب التأويل على مصاريعها لهذا التاريخ المهلك

(*) [في ذكرى توفيق زياد].

من مصارع العشاق؟ أليس في تلك الطريق الموغلة في القدم وفي الخرافة، بين أريحا والقدس.. ما يكفي لنتخلص من وطأة الأساطير، ولنخلو قليلاً إلى ضجر الرصيف وموهبة التدرب على عطلة الصيف، وعلى رائحة اليود القادمة من بحر بلا قراصنة؟

فلتغفر لي، إذاً، غيابي عن الواقعي لأغفر لك ذهابك إلى الأسطوري، فيكون لحضوري هذا، في ما تركت من غياب ساخن، لسعة اللقاء بأمس لاحق، لا لوعة الندم على غد سابق.

ولتغفر لي ثانية، أني أوسّع ــ لأكون قريباً من الأرض ــ ثنايا ظلك على الظل، وأجلس قليلاً في ما يبدو لي أنه شكل لي، لك، أو للشكل!

فكيف تحط الغيمة على حجر دون أن تجرحه، ودون أن تتلاشى فرحاً صوفياً في أرض صغيرة كحبة السمسم، وكبيرة كالله يؤمها الأنبياء، والغزاة أيضاً، من كل لغة ومن كل خطيئة، ليصغوا إلى ماء الله في حصاها من جهة، وإلى ما يحول هذا الماء إلى نبيذ أو دم، من جهة أخرى.

تلك هي حسرتي، في ساعة العصر هذه، حيث أخرج من ذاتي إليك، بسنونو حنين يشبه الكلمات. فأراك وقد خرجت من ذاتك إليَّ، بكلمات هي إلى الحجل أقرب، طيفاً يستضيف طيفاً، على هواء يتدلى علينا من سماء أليفة وخفيفة برسالة سيدنا الناصري، وهي تهدي الجلاد، قبل الضحية، لا لشيء... إلّا لأن الجلاد لا يعلم. ولأنه خير للضحية أن تعلم جلادها من أن تتعلم منه.

وأما نحن الذين لم يتخلوا عن ثالوثهم الأرضي المقدس: الحرية،

والمحبة، والسلام، ففي وسعنا أن نواصل حركة المعنى العابرة للزمن، والدفاع عن سيرة العشب فوق القلاع القديمة، وعما تبقى فينا من أرض وسماء.

ولا شأن لي ولك، ونحن في مضيق الوقت هذا، في طلب مساواة عصية بين ضحية وضحية، وفي موازاة نوعية عذاب إنساني بكمية عذاب إنساني مقابل، فتلك مجادلة لا تنتهي بنا إلّا إلى العبث أو الخطأ.

بيد أن ما يجرح طيفك وطيفي في مضيق المكان هذا، هو أن يظلا مطالبين بالانفصال أكثر عما كان، وعما هو كائن، وعما سيكون، أو بالتطابق مع صورة يرسمها الآخر لنا، بقوة اللاهوت والسيف معاً، وفقاً لموازين قوى تتحول إلى شريعة من حقها أن تنطق «ابن البلد» بروايتها عن الحقيقة، كأن تؤرخ لغربته على الأرض، أرضه، منذ بدء الخليقة.. وكأن تطالبه بالاعتذار عن وجود ما كان له أن يوجد، وعن هوية لم يكن من حقها أن تولد!

ليس ذلك هو سؤال الغريب للغريب، لا غريب أبي حيان التوحيدي، ولا الغريب فيك أو فيَّ. ولكن صوتاً ما فينا سيقول لنا: إن لم نكن قادرين على العودة إلى ما كنا، فلنذهب معاً إلى ما نريد أن نكون، لأن للتاريخ مجرى، وإن لم تكن له دائماً غاية واضحة، ولأن للضحايا حياة أخرى، هنا وفينا، حياة تعلمنا الثأر من قوة السيف بتحويل السيوف إلى محاريث، وبانفتاح الهوية على الهوية، فلا هوية تحيا من ذاتها المنغلقة على ذاتها وعلى ثباتها. فتلك هي «عبقرية الغيتو». وأما المألوف الإنساني، وهو غاية البشر الساعين إلى تطوير الإنساني فيهم، لتصبح التجربة الإنسانية إنسانية

حقاً، فلا يتحقق إلّا في خروج الذات الطوعي إلى الآخر.

وهذه هي أرضك، أرض الذات والموضوع أرضك، وينبوع الهوية الإنسانية، الزمنية والروحية، المتعددة في الماضي الثابت وفي الحاضر المتأزم، وفي الغد المفتوح، أرض البداية السحرية المشرعة على بدايات لا نهاية لها. من هجرة وبقاء، من اجتثاث وانبعاث، من سبي وعتق، من غرب وشرق، وهي ما هي عليه، أرض أرضها وسمائها، وأرض شعبها الصابر القادر على أن يكون ما هو عليه، من صلابة الجليل ومراوغة الأقحوان على طريق الربيع، وعلى ثياب الفتيات الخارجات إلى مرج بن عامر، والقادر على أن يكون واحداً في جماعة وجماعة في واحد، وحارساً لعلاقة لا تنفصم بين هويته وهوية الأرض.

أليس هذا هو صوتك، المعلق على أغصان الشجر وعلى ساحات الذاكرة الجماعية، منذ ربطت معركة هذه البقية الباقية من أبناء شعبك، من أجل البقاء والتعبير الحرّ عن الهوية الوطنية والثقافية والمساواة والتعايش المتوازن، بحق شعبها في العودة وتقرير المصير الحرّ والاستقلال، ليكون للسلام الحقيقي جدول أعمال واقعي، وأرض صلبة للتعايش والتسامح؟

هذه هي أرضك، أرض السلام المفقود، وأرض السلام الموعود في نهايات نفق رأيت الضوء في آخره، أمامك. ولم تشهد إلّا صواب الطريق، وصواب الفكرة التي لم تقسها بنجاح القوة الآني في فرض فكرتها المضادة.. فقد يصلب المسيح إلى حين. وقد يرفع سبارتاكوس على أسنة الحراب. ولكن روما أعيدت إلى رشدها!

فليس سلام السادة والعبيد إلّا سلاماً عابراً كسحابة صيف. أما سلام الحرّ مع الحرّ، وسلام السيد مع السيد، فهو المطر المشترك على جفاف الأرض المشتركة، فليس في الغد ما يكفي من الوقت إذا لم يكن الحاضر ملكيتنا المتساوية.

فمن أنت، ومن أنا؟

لا عرافات ماكبث.

ولا سؤال هاملت.

بل رائحة المريمية في شاي أهلي، وفي ناي الغريب، هي ما يحاصرني منذ عشرات السنين.

وهكذا لم نذهب، ولم نعد إلّا في ما يجعل القصيدة تكويناً على تكوين، وإن اختلفت طريقة الشاعر في الوصول إلى الفاعلية الجمالية. ولكن ما يجمعنا في طريقنا الواحد، من البيت إلى العالم، هو الاحتفاظ بقدرة الحدس على إبقاء مغامرة الكشف طريقاً، والطريق مغامرة كشف. دون أن يتمكن قطّاع الطريق من نهب اللغة أرضها، أو نهب الأرض لغتها. لذلك كان علينا أن نشير، منذ البداية، إلى نار القبيلة المشتعلة على أعالي القافية!

ولكن الشاعر يعمل، وحده، بلا علماء آثار وأجناس ومؤرخين وحرّاس. يعمل وحده، بقليل من العشب اليابس والملح والغيوم، لا ليجعل المستقبل القريب أقل بعداً فقط، ولا ليجعل الماضي البعيد أكثر قرباً أيضاً، بل ليتمكن مما هو أبسط: ليتمكن من إعادة سقف عالمه الشخصي المنهار بين يديه إلى ارتفاع الشجرة، مشيراً بطريقته

الخاصة إلى أن وجوده ما زال موجوداً، وإلى أنه هو الذي يعبّر عن ذاته، لا شخص آخر يحتلها برضاه!

وهذه هي أرضك، قد تمنحني ليلة من جسدها على مهب حب قديم. وقد لا تفعل، فأمضي إلى ليلتي المنتقاة من حبر المتنبي المشعّ على منفى لا يعذبني فيه إلّا أنه غيرها. وأما المهاة، بما حولها من صيّادين باكين من نجاتها، فهي ابنة ألفاظنا الملقاة على رائحة الماء.

أذلك هو نعيم الغريب، أم تلك هي الجحيم، بيت من الشعر شارد بلا بيت؟ لك أم لي هذا الجناز المفتوح بلا بداية ونهاية؟ أم للشهداء الذين لم يكبروا أبداً، فلم تتغير وجوههم ولا أحلامهم تغيّرت، فأين تفعل القصيدة فعلها: في القلب وهو يقفز، كالدوري الشقيّ، على مشهده الحرّ، أم في الوجه وهو يسترد نظرته الأولى إلى القمر؟

أما وأنت من أنا، وأنا من أنت، فما علينا إلّا أن نأخذ العبارة من إغواء الاستعارة ونعيدها إلى أمها.

فلا تمض، أيها الشاعر، إلى ما هو أبعد. فالبعيد هو هذا القريب. ليس للأَرض أب سوى الله. ولكن للأرض أماً واحدة هي: أرضنا!

وها أنذا أمامك. قد أرى لغتي على الأشجار دانية، فأهمس قرب هذا البعد: كنت أبحث عن موطىء في المكان وعن ملجأ في الزمان، ولكنني أبحث الآن عن بلدي في العبارة. ألم يبق منا سوى ذكريات الحجارة عنا، فخذ من يدي مفردات الحنين لآخذ من يدك الماء، وأحمل مزامير قلبي لأحمل هذا الهواء على كاهلي من سماء إلى أختها، مثلما يحمل الموتى أساميهم. يا أخي

الناصريّ، تطلّع إلى شعبك وهو يحمل عنك الرسالة، رسالة الناصرة إلى جوارها وإلى العالم، رسالة سلام الحرّ للحرّ. وسلام الحيّ للحيّ. تطلّع إلى كلماتك أيها الشاعر وهي تحفر اسمك، بقرن الغزال، على صدر هذه الأرض المعذبة.

الساخر من كل شيء(*)

الآن وأنت مسجّى على صوتك، ونحن من حولك، رجوع الصدى من أقاصيك إليك.

الآن لا نأخذك إلى أي منفى، ولا تأخذنا إلى أي وطن. ففي هذه الأرض من المعاني والجروح ما يجعل الإنسان قديساً منذ لحظة الولادة، وشهيداً حيّاً مضرجاً بشقائق النعمان من الوريد إلى الوريد.

كان لي موعد معك، هنا في ناصرة البشارة والإشارة، فانتعلتُ قلبي وحملت هواجسي في يدي: هل أصل هذه المرة إلى جنة الجحيم هذه؟! أم سيعلمني السراب ثانية أن للأرض أرضاً أخرى

(*) [ألقيت هذه الكلمة في حفل تأبين إميل حبيبي في الناصرة في ٣/٥/١٩٩٦].

قريبة منها وبعيدة؟ ولم تكن أنت ذريعة للنداء. كنت العناق البعيد. أما كان في وسعي أن أجد الاثنين، دليلي وسبيلي؟! أم أن المصائر اعتادت على لعبة الحضور والغياب! على إيقاظ القلب من سكرته: لا تحلم بما لا تستحق. فليس هذا اللقاء سوى وداع.

مَن يودع مَن، أيها الساحر الساخر من كل شيء؟ ومن وقفتي هذه بالذات؟ فها أنذا أراك تغمز المشهد بنظرتك الشقيّة، لا لشيء إلّا لأنك تعرف نفسك وتعرفنا واحداً واحداً منذ أقدم الفاتحين حتى آخر العائدين. وتعرف أن الذات، لا الموضوع، هي ما يجعل المرء يركض من المهد إلى اللحد بحثاً عن ذاته التي لا تجد ذاتها، إلّا إذا امتلأت بخارجها. وكم كابدتَ في هذه الرحلة. كم كابدتَ كي تجد الأدب هناك في تلك المنطقة المتوترة من السؤال. فكنت كما تريد أن تكون وكما لا تريد. وحيداً في زحامك ومزدحماً في وحدتك. ولكن حدود الكون كانت واضحة فيك من غير سوء. هنا على هذه الأرض القديمة الصغيرة يجري الحوار بين الواقعي والخرافي، بين الزمني والروحي، بين النسبي والمطلق، بين الزائل والدائم، بين الحق والباطل، بين الحرب والسلام. وهنا.. هنا البداية وهنا النهاية.

باقٍ في حيفا، حياً وحياً.

باقٍ في حيفا، هو الاسم الذي سمّيت به اسمك. لا لتميز بين صعود الجبل وبين هبوط الجبل. ولا لتحدد الفارق بين الباقي في منفى هويته، وبين العائد إلى هوية منفاه. بل لتفعل فعلتك الخاصة بالأسفار، ولتحفر فوق المخطوطات ما لست في حاجة إلى تأكيده، إلّا لمواجهة زمن طال فيه الشك شرعية الأم. حين صار في وسع

القوة الواثقة من امتلاك الحاضر، أن تضع الماضي على مائدة التساؤل، لتملي عليك روايتها: حجراً في مواجهة بشر.

لم يرتكب شعبك من خطيئة سوى اسم هذه الهوية الذي تحفره في قطعة من رخام وفي الذاكرة الجماعية:

باقٍ حيث ولد في المكان الذي واصل فيه سليقة العلاقة العضوية المستمرة، وبلا قطيعة، بين الأرض وتاريخها ولغتها. وتابع فيه الإصغاء المرهف بخشوع ومحبة إلى كلام السماء إلى الأرض. ليعيش حياته البسيطة قنوعاً بحصته من الماء والهواء والضوء وتبدّل الفصول والغزوات، لتصبح الأرض التي غابت عنها طبيعتها أرض التعددية والتسامح والسلام.

لقد شاءت طبيعة التطور التاريخي في تقاطع المصائر الإنسانية أن تجعل هذه الأرض بلداً لشعبين، بعدما تعرض شعبها الفلسطيني إلى المصير التراجيدي المعاصر وبذل تضحيات تفوق طاقة البشر لتثبيت هويته الوطنية، وحقه في الاستقلال. وكنت أنت منذ البداية وحتى هذه اللحظة، أحد المنابر المتحركة الأقوى والأعلى، الداعية إلى سلام الشعوب بحق الشعوب. السلام القائم على العدل والمساواة ونفي احتكار الله والأرض، للوصول إلى المصالحة التاريخية الحقيقية بين الشعبين، مع قيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

والآن وأنت مسجّى على هذا المفترق، على لون هذا الغسق الداكن مدمى بالأمل وبخيبة الأمل، باليقين وبالشك معاً، فإن أكثر من جيل واحد من الباقين هنا يعبّر عن دَيْنه لك، للطريقة التي حللت بها جدلية التوتر الوجودي والثقافي بين الجنسية والهوية،

بطريقة وحيدة هي البقاء والدفاع عن حقهم في المساواة، وإمداد عناصر الهوية بمكوناتها الثقافية، الوطنية والقومية التي لا وجود لهم بدونها.

فطوبى لك أيها المعلم الذي جعل الحنين فاكهة، وسيّج الحيرة بزهرة القندول.

كم أنت يا حبيبي، كم فيك من تناقض هو أحد مرايا تناقضاتنا التي تكسر اللغة من فرط نزوع المأساة إلى ارتداء قناع الملهاة. في كل واحد منّا واحد منك ونحن جميعاً فيك. وفي كل لحظة من زماننا أكثر من تاريخ يتبّدل قبل أن يمنحنا فرصة للتكيّف أو فرصة للتذكّر. تاريخ ينقضّ علينا كقطار عشوائي، فماذا تفعل في انتحار الرحمة؟ لم تكن السخرية خيارك الأدبي بقدر ما كانت حجتك في وجه هذا العبث، وطريقة في اختيار برج للرصد، ونقطة للوقوف على قدم المساواة مع الخصم ومع القدر معاً.

إذا كنّا نلعب، فتلك هي شروط اللعبة، لساناً بلسان، لا طائرة ضد طائر. وفي هذه المنطقة أيضاً يتبطّن المعنى معنى ثانياً، ويلجأ الفرد إلى ذاته ساخراً من عبء رسالتها فيخف الحمل الثقيل من أجل الانتقال إلى حمل أثقل، في صحراء الإيقاع الذي لا يتوتر إلّا لينسجم بين السياسي والأدبي. لا، لن تستطيع العودة إلى الوراء لإجراء التعديل المبتغى على مصيرك. تلك كانت حسرتك الأخيرة، أن تتخلى عن السياسة منذ البداية لتكون أديباً منذ البداية. فأنت من أنت ابن شرطك التاريخي وابن ذاتك. وليس من شيم هذه البلاد أن ترحم أبناءها ليكونوا عاديين كسائر البشر. وليس من شيمها أيضاً أن تأذن للضحية بلوم نفسها. وفيك من

المساحات والأصوات، فيك من تقاطع الطرق وحوادثها، فيك من البطل والضحية والشاهد، فيك من الأنا والجماعة والآخر، ما كان يُعجِز الفرد فيك عن أن تكون الراوية، لأنك أنت، أنت الرواية المفتوحة على الجهات كلها والمفارقات كلها والأسئلة كلها ما عدا سؤالاً واحداً: هل انكسار الإطار هو هزيمة المعنى، وهل هزيمة الأداة هي موت الفكرة؟

والآن وأنت مسجّى على فكرتك ذات الأقانيم الثلاثة، الحرية والعدل والسلام، فإن شعبك بأسره، شعبك العربي وأشقاءه من آخر الصحراء حتى آخر البحر، وأصدقاءه الأوفياء، أصدقاءك، من قوى السلام في هذه البلاد وفي العالم يزدادون وفاءً لفكرتك فتلك هي وصية الحرّ للحُرّ، وتلك هي هوية وجودنا الإنساني المشترك على أرض المعاني الإنسانية العريقة والتعددية الثقافية والدينية والقومية. أرض السلام العطشى إلى السلام.

فانهض معنا يا أبا سلام لنمضي قليلاً معك وإليك، إلى هناك، إلى حيث تريد أن تنام حارساً دائماً لتلفُّت القلب إلى حيفا. واغفر لنا يا معلمنا ما صنعت بنا وبنفسك. اغفر لنا أننا سنعود بعد قليل إلى أنفسنا ناقصين.

طريق العودة هي طريق المعرفة(*)

كُلُّ موت هو موت أَوَّل. مفاجيء، صاغق، غير معروف وغير مألوف.

لن نألف الحديث عن إبراهيم أبو لغد باستخدام فعل الماضي الناقص. فما زلنا معه، حوله، وهو يواصل البحث الحماسيّ عن حياة مختلفة في ساحة هذه الزنزانة، عن حياة تتَّسع لحلم عادي، يحقق فيها الفرد والجماعة حرية الاختيار لطريقتهم الخاصة في الإقامة على هذه الأرض.

لقد أشاح بوجهه عن شبح الموت، وتابع التحديقَ إلى تفاصيلِ صورةِ غدنا. كان يعرف أننا لا نعرف أنه يعرف ما نعرف عن سَفَرِهِ القريب إلى المطلق المجهول. لكن كان، حتى اللحظة

(*) [ألقيت هذه الكلمة في حفل تأبين المربي إبراهيم أبو لغد في رام الله].

الأخيرة، عاكفاً على العمل لوطنه الزمني كأنه يعيش أبداً، معنا، فينا، وفي الأجيال القادمة. لأن سؤالَ الحياة هو سؤالُهُ الأبدي. ولأن فلسطينه ـ الواقعية والمتخيَّلة، هي صورة الجحيم والفردوس معاً. ولأنَّ سدرة المنتهى تنمو في مدينة يافا.

رآها في أوَّل العمر. وفي ما يُشبه تداعيات الخطيئة الأولى، وجد نفسه في قافلة الترحيل الجماعي مُعَاقَباً بالطرد من الجنة، لا لأنه اقترب من شجرة المعرفة المحرمة، بل لأنه لم يقترب منها. فأدرك آدمُ الفَتَى أن طريقَ العودةِ، الفرديةِ والجماعيةِ، هي طريقُ المعرفة.

من هنا تفتَّح وعي إبراهيم أبو لغد بحيوية البُعْد التعليمي والثقافي في الصراع المرير على استعادة الحق، الذي لم يُسْلَب بقُوَّة السلاح وحده، بل بسُلطة المعرفة التي وُظِّفت لبلورة الوعي الزائف المزيِّف لإفراغ الأرض الفلسطينية من أَهلها ومن حقيقتها التاريخية، ولإبقاء السيف أقوى من الدم وأَبلغ...

لم يأتلف مع منفاه الطويل الذي احتل فيه مكانةً أكاديمية عالية. فقد ظلَّ مشدوداً إلى هنا، مُكرِّساً كفاءاتِهِ العلمية والأخلاقية لتأسيس ثقافة الحق الفلسطيني. وكَكُلِّ مُبَشِّرٍ كبير، لم يكتب كثيراً بقَدْر ما انخرط في القتال الفكري اليومي، دفاعاً عن الأمل المحاصر بموازينِ قوى لا يكسر وطأتها إلّا تفاؤل الإرادة، حيث يرتبط الفكر بالعمل، وحيث تصبح المعجزة مشروعاً قابلاً للتحقيق. قطرةً قطرةً تمتلىء البئر، وخطوةً خطوةً ينفتح الطريق.

تعرَّفتُ إليه قبل حوالَيْ ثلاثين عاماً في بيروت. من اللحظة الأولى يجعلك تواصل معه ماضياً مشتركاً وذكرى قديمة. إنه صانع

الذكريات بامتياز، لا لأنه خريطة ناطقةٌ بالأمكنةِ والأشخاص فحسب، بل لأنه جاهزٌ للصداقة. أَليف، وَأُلوف، ووُديّ وودود. لا عُمْرَ له لأنه ممتلىء بالأعمار، إلى حدٍّ لا يأذن لك بإدراك الفارق بين مترادفات الزمن. ولا يأذن لك بالانتباه إلى اختلاف، فهو أَخوي لا أَبويّ. ومن فرط ما هو مُعَلِّم، يصغي إليك بتواضُعِ مَنْ يريدُ أن يعرف، ثم يستدرجك إلى أسئلةٍ حريريةِ الصُنع، لأن حكمته وثقافته منتشرتان في النسيج لا في الشكل.

وفي حصار بيروت عشنا معاً. وبحثنا معاً عن الخبز والماء، وعن متر مربع آمن من الصواريخ. ولكنه كان مُنْشغلاً بتجاوز حدود جهنم، مسكوناً بأسئلة اليوم التالي: ماذا بعد بيروت؟ وكيف ستحافظ التجربةُ الوطنيةُ الفلسطينية على مخزونها التراكمي؟ إذ لا ينبغي لنا أن نبحث عن بداية جديدة منقطعة عن السياق. وكان من القلائل الذين لم يروا في الخروج من بيروت نهاية. إذ رأى فلسطين أمامه: سنعود.

في علاقته بفلسطين مزيجٌ من صوفية وبرغماتية. لم يؤمن بإمكانية التوصل إلى حلٍّ عادلٍ في الظروف الراهنة. فالحلّ والعدل، الآن، مفهومان متناقضان. إذ، كيف يكونُ من العدل ألّا تكونَ يافا فلسطينية؟ لكنه يضع هذا السؤال في غرفة الأشباح، ليتسنّى له التعاملُ مع الواقع والعملُ على تغييره. لذلك، لم يؤمن أيضاً بالمغامرة، فتبنّى برنامج الحلّ الممكن لترسيخ الكينونة الوطنية، ولتمكين الشعب الفلسطيني من الحضور في التاريخ، بعدما تمَّ طرده من الجغرافيا والتاريخ ومن الوعي الإنساني.

في كلٍّ واحدٍ منا أَثر من إبراهيم، فلم ينجُ من حبّه أَحد. ولم يَنْجُ

من عدوى إيمانه العُضال أحد. فيا ليتنا نبلغ صبر النَّمْل فيه، والمثابرةَ على العمل. كان يُوَزِّع جسمه في جسوم عديدة، ويفيض. كأنَّ يومه مُرَكَّبٌ من زمن مختلف، كيوم صديق عمره إدوارد سعيد الذي كان ينتظر وصوله بحنين التوأم الروحي إلى التوأم. وكان يجد في كل يوم من أيام صراعه الأخير مع الألم وقتاً للنشوة بلقاء إدوارد: سنحتفل به كما يجب. وسأخرج معه إلى أي مكان.

كنت في الغرفة المجاورة حين توقَّف إبراهيم عن الانتظار. سالت دموع كثيرة على الرغم من أننا كنا نعرف هذه النهاية. لكن الموت هو دائماً موت أَوَّل. هل الزمن الفاصل بين الحياة والموت قصير ووهميّ إلى هذا الحد؟ وحدها، صورة يافا على الجدار منعتنا من القول: باطل، باطل الأباطيل...

لقد أنجز إبراهيم حقَّ العودة بطريقته الخاصة. منذ عاد إلى الوطن أَعلن أنه لا يريد الموت في مكان آخر. كان له ما أَراد. بَيْدَ أن هذا الإعلان كان إعلاناً أَدبياً مجازياً. فلم يعد إبراهيم ليموت، بل عاد ليُسهم في تطوير الحياة التعليمية. عاد لينشر رسالة المثقف الفلسطيني إلى ذاته وإلى مجتمعه وإلى العالم: التمسُّك بحق العودة.. والمشاركة في صون الذاكرة العامة، وفي بناء تصورٍ أَجمل للمستقبل، مهما كان الحاضر هشَّ التكوين، ومهما أَسفرت التجربة عن خيبات.

كان حالماً، لا واهماً. وكم نحن في حاجة إلى الحالمين الكبار. فهو يدرك أن العودة الحقيقية هي العودة الجماعية. ولكنَّ في عودته الفردية دلالة أَخلاقية، وتعبيراً عن التزام حرّ بمصير شعبٍ اعتزَّ

بالانتماء إليه... إلى طاقته الفذّة في الصمود ومقاومة الاحتلال، وإلى جنونه اللامحدود بالحرية. عاد إبراهيم إلى الأرض التي لم يكفّ عن مديح جمالياتها. عاد ليغرس فيها شجرة المعرفة، فكان هو الشجرة. لقد وُلد في يافا. وعاد إلى يافا ليبقى، هناك، إلى الأبد، قرب سدرة المنتهى!

فدوى

فدوى، أختنا الكبيرة، ودّعت زملاءها من نافذة بيتها في نابلس، كما ودَّعت عشرات من الأحياء والشهداء. ولولا الحب، لولا الحب الذي هو شرط حياتها لكادت أن تكون خنساء العرب الفلسطينيين، في بلد صار فيه الموت هو سيّد الكتابة.

لم تعش كما تشتهي. لم تشأ أن يكون كل شيء واضحاً إلى هذا الحد الفاضح. ففي الضباب تأويل. وكم قالت لي كلما التقينا: كم أتمنى أن أعرف طريقي إلى غموضٍ ما في الشعر. كانت تطلب الغموض، لتقول أكثر مما قالت ربما من المسكوت عنه في قلبها، فقد ظنَّت أن في الغموض حرّية، وشاعريّة لا تُغريها تسميةُ الواضح.

لكنها أتقنت الشعر بصراعها مع سهولة الوضوح. فهل هنالك ما هو أوضح من أن تكون المرأة امرأة؟ وهل هنالك ما هو أصعب من

أن تكتب الأنثى أنوثتها في مجتمع ذكوري الثقافة؟ لا تحتاج ثورة المرأة على سجنها إلى نظرية، فمن حسيَّتها يتشكَّل وعيها الأول بذاتها. وهكذا كانت رحلتها الجبلية، تفسيراً لخلفية شعرها الرومانتيكي المبشر بتمردها على ما أَعدت لها «الرجولة» من مصير. وهكذا ارتبط شعرها، منذ البداية، بإعلان حقها في الحب، أي حقها في الحرّية.

أَحببنا شعر فدوى، لأنه كان يغوينا، من فرط بساطته، بتدوين عواطفنا الصغيرة وهمومنا الشخصية كيوميات خاصة، ولأنه كان يرشد الإحساس إلى البوح، ففي كل كائن بشري شاعر خفيٌّ لا يحتاج إلى سيف وفرس وبطولة ليمتلك حق الكلام.

لم تواصل فدوى تقاليد الشعر الفلسطيني المنخرط في صوغ صوت الجماعة المعرضة لخطر الاقتلاع. لم تكمل صوت أخيها إبراهيم الهجائي والـمُحرِّض، على الرغم من دوره الحاسم في تشجيعها على كتابة الشعر. جلست في ركنها الأنثوي، وأصغت إلى قلبها وجسدها، وإلى ما يخاطبهما من شعر رومانتيكي قادم من العالم الخارجي، وجدت فيه صوت الذات الباحثة عن حريتها الشخصية لتكون مؤهلة لوعي تحررها الوطني.

صحيح أن فدوى كتبت شعراً في التراجيديا الفلسطينية، وكيف لها ألّا تكتب! لكن صوتها الخافت كان مختلفاً، كان صوت المرأة العاشقة، المتأمِّلة، المعذَّبة، الوحيدة، الذي لا يشبه صوتاً آخر. كانت من الجماعة وخارجها في آن معاً. لقد عاصرت شعراء النكبة، ولم تكن منهم. عاصرت شعراء الحداثة العربية ولم تكن منهم. وعاصرت شعراء المقاومة، ولم تكن منهم. لقد حافظت

على هويتها الشعرية الخاصة بها. وحافظت على ما يشبه «الثابت» في الشعر، وهو النزعة الرومانسية. وحافظت على ما يشبه «الثابت» في الرومانتيكية، وهو الحب خلاصاً وجواباً، ومداواةً للذات، ومقاومةً لعالم فقَدَ الرحمة. وبالحب، بالحب وحده يكون الشعر عزاء، وطريقة لبلوغ سلام مع النفس ومع الآخرين.

لكن زلزال حزيران ٦٧، أَخرج الشاعرة عن طورها الشعري، فأحدث خلخلة ما في لغتها الحريريّة الصُنْع، وزجّ بسليقتها وأَخلاقيتها الأدبية الرفيعة في هذا السؤال الصعب: ماذا يفعل الشاعر في زمن المحنة؟ إذ صار على الشاعر أن يخرج من ذاته إلى خارجها، وصار على الشعر أن يشهد.

زارتنا في حيفا... أسيرةً تسعى إلى أسرى، قرأت علينا قصيدتها الأولى في المحنة الجديدة: «لن أبكي». لكنها كانت تبكي كحمامة. لم يعد الغناء الرومانتيكي جواباً على الكراهية والوحشية، وعلى واقع لا يأذن للكلمات بأن تواصل انفصالها السابق عن فخاخه، ولا يأذن لها بالاستمرار في البحث عن «الشعر الصافي»، ولا يتيح للشخصية أن تكشف عن خصوصيتها.

كانت خصوصية الشعر الفلسطيني، في تلك اللحظة التاريخية، تُحدّد بموضوعه وبمكان كتابته، حيث التقت الأصوات كلها في قصيدة واحدة. وصار كل اسم يدلُّ على اسم آخر، ولم تعد القصيدة في حاجة إلى التوقيع. ففي وسع القارىء، وحتى الناقد، أن يُعَرِّف الخصوصية الشعرية الفلسطينية باللا خصوصية الشخصية!!

هل تلك هي إحدى أعراض مُهمَّة الشاعر في زمن المحنة، أم تلك هي تداعيات ما يتطلبه الواجب؟ لا أدري، فلعل سؤال الشعر عن حدود طبيعته الخاصة، قد أُرجىء إلى شرط آخر تخف فيه حدَّةُ التوتُّر بين الجمالي والضروري. لكن، حين يطول زمن الطوارىء، يجد كل شاعر وقتاً للتأمل في خصوصيته، وليدرك أن فاعلية الشعر تأتي من جماليته، وأن جمالية الشعر تأتي من طريقته الخاصة في التعامل مع الواقع العَيْني، وتحويله إلى واقع لغوي مجازي.

وهذا ما فعلته فدوى التي واصلت الكتابة عن ذاتها العاشقة حتى ما بعد الثمانين، دون أن تتنازل عن وفائها للوطن والإنسان والمشاعر الإنسانية والطبيعة، ومن الصعب أن نعثر على تطابق أكبر من التطابق الشفَّاف بين شخصية فدوى العذبة وشعرها العذب. بين تقشُّفها في العيش وتقشفها في اللغة: انكسرت جيتارة الألم، واستمر النغم.

كما لو نودي بشاعر أن انهض(*)

على أربعة أحرف يقوم اسمُكَ واسميْ، لا على خمسة. لأن حرف الميم الثاني قطعةُ غيار قد نحتاج إليها أثناء السير على الطرق الوعرة.

في عام واحد وُلدنا، مع فارق طفيف في الساعات وفي الجهات. وُلدنا لنتدرّب على اللعب البريء بالكلمات. ولم نكترث للموت الذي تَدُقُّهُ النساءُ الجميلات، كحبة جوز، بكعوب أحذيتهن العالية.

عالياً، عالياً كان كُلّ شيء... عالياً كالأزرق على جبال الساحل السوري. وكما يتسلّقُ العشبُ الانتهازيّ أسوارَ السلطان، تسلّقنا أقواسَ قُزَحٍ، لنكتب بألوانها أسماء ما نحبُّ من الأشياء الصغيرة والكبيرة:

(*) [في ذكرى ممدوح عدوان].

يداً تحلب ثدي الغزالة،

مجداً لزارعي الخسّ في الأحواض، شغف الإسكافيّ بلمس قَدَم الأميرة، ومصائر أخرى لجمهور مطرود من المسرح.

لم ننكسر بِدَويٍّ هائل كما يحدث في التراجيديات الكبرى، بل كأشعة شمس على صخور مُدَبَّبة لم يُسْفَكْ عليها دم من قبل، لكنها أخذت لون النبيذ الفاسد. ولم نصرخ، هناك، لأنه لا أحد، هناك ليسمع:

أو يشهد.

دَلَّتني عليك تلك الضوضاءُ التي أحدثتها نَمْلَةٌ بين الخليج والمحيط، حينَ نَجَتْ من المذلَّة، واعتَلَتْ مئذنةً لتؤذن في الناس بالأمل،

ودلَّتكَ عليَّ سخرية مماثلة!

ولما التقينا عرفتك من سعالك، إذ سبق لي أن حفظتُهُ من إيقاع شعرك الأول، يُفْزِعُ القططَ النائمة في أزقة دمشق العتيقة، ويبعثر رائحة الياسمين.

لم يكن لنا ماضٍ ذهبيّ على أهبة العودة، كما يدّعي رواد المقهى الخائفون من القبض على قرون الحاضر الهائج كالكبش، ولا غَدٌ أكيد، خلفنا، كما يدّعي رُوَّاد الشعر الخالي من الملح، المتخم بفراغ المطلق.

لم نبحث إلّا عن الحاضر.

ولكننا، من فرط ما أُهِنّا، بشَّرنا بالقيامة بصوت مرتفع، أثار علينا غضب الملائكة المنذورين لصون اللغة الصافية من غبار الأرض، والباحثين عن الشعر الصافي في جناح بعوضة.

ودُعِينا، في غرف التشريح مُعَقَّمةِ الهواء والكلام، إلى بَتْر المفردات كثيرةِ الاستعمال. وسرعان ما علاها الصدأ من قلَّة الاستعمال، وفي أوّلها: الحياة... ومشتقّاتُها. لكننا آثرنا أن نخاصم الملائكة .

ممدوح، لا أطيق سماع اسمك الآن، لأنه يذكّرني بما ينقصني من رغبة في الضحك معك على عَوْرةِ بَرَدَى المكشوفة كأسرارنا القومية. ولأنه يذكّرني بمدى حاجتي إلى استراحة من الركض آناء النوم، بحثاً عن حلم مسروق، أراه واضحاً وأحاور السارق. ويذكّرني اسمك بما أنا فيه من طقطقة كأني حبّةُ بلُّوط في موقد.

لهذا، أكتب اسمك ولا أَلفظه، ففي الكتابة يتموَّج اسمك على ماء الحضور. وفي الكلام أسمع وحش الغياب يطاردني من حرف إلى حرف، ليفترس الشِلْوَ الأخير من قلبي الجائع إلى هجائك المادح.

ممدوح! ماذا فعلتَ بك وبنا؟ فلم نعد نحزن من تساقط شعرك المبلّل بالزيت، فإنك تستعيده الآن من عشب الأرض. ولكن، في أَية ريح أخفيت عنا سعالك، فلم يعد في غيابك مُتَّسع لغياب آخر.

لا لأن حروف اسمك هي حروف اسمي، لا أَتبيَّـنُ مَنْ منّا هو الغائب، بل لأن الحياة التي آلَفَتْ بين ثعلبين ماكرين لم تمنحنا الوقت الكافي لنقول لها كم أَحببناها، وكم أَحببنا فُجُورها وتقواها... فتركَتْ ثعلباً منَّا بلا صاحب.

لا جلجامش ولا أنكيدو. لا الخلود هُو المبتغى ولا قُوَّةُ الثور. فنحن الخفيفين الهشين، كواقعنا هذا، لم نطلب أكثر من وقت إضافي لنلعب بالكلمات لعباً غير بريء، هذه المرة، أو لنورث ما لم نَقُلْه بعد مَنْ لم يقل بعد. ولنجعل من الشعر مزاحاً مستحبّاً مع العدم. لكن حرف الميم الثاني في اسمك واسمي ظلَّ قطعة غيار لا تنفع.

ممدوح! هذا هو وقت الزفاف الفاحش بين الرعد والصحراء، شرق الشمال، لإنجاب الكَمْأ إعجازيّ التكوين. صِفْ لي ولادة الكَمْأَة أَصفْ لك عجزي عن وصف سر القصيدة، فانظر شرق الشمال!

هي حسرةُ التعريف. أَنين الرمل على الشاطىء حين يرفع القمر، بأصابعه الفضية، سروالَ البحر وقتَ الجَزْر، ويرشّ علينا قصيدةَ حبّ إباحيةَ التصوُّف.

فاغضُضْ من صوتك، لا من بصرك، وانظر. فمنذ ولادة اللغز الكوني، والشعرُ مختبىء في أشدِّ المواقع انكشافاً. ويظهر جلياً جلياً في اللامرئيّ من سماء مسقوفة بكفاءة الغيب.

ممدوح! كُلُّ الأزهار شريفة حين تُترك لحالها، ما عدا القرنفلاتِ الحمرَ التي يضعها الجنرالات، ما بين وسامٍ ونجمة، على بزّة سوداء أو كحلية... لخداع أرامل الشهداء.

وكل اليمامات نظيفة، حتى لو بالَتْ على شرفاتنا والوسائد، ما عدا اليمامات التي يُدَرِّبها الغزاة والطغاة معاً، وعلى حدة، على الطيران الرسمي في أَعياد ميلادهم، وفي مناسبات وطنية أَقلّ أَهمية.

الآن، لا أَتذكَّر شيئاً منك. فالذكرى تلي الحرب والموت والزلزال. وأَنت، ما زلت معي تكتب هذه المرثية، على هذه الورقة البيضاء، في هذا الليل البارد... أَو نكتبها معاً لشاعر محبط. فلعلّها لا تعجبه فيتوقف عن اغتيال نفسه، إلى أن يقوم غيرنا بكتابة مرثية أَفضل، لا تعجبه هي أَيضاً، فينتظر غيرها ويحيا أكثر.

كما لو نُودي بشاعرٍ أن انهض من هذا الألم.

وأنسىِ الآن، لتبقى معي، أكثر من غَلَسٍ لم يدركنا ولم ندركه قبل أن تُفْرِغَ آخر كرمِ عِنَبٍ مقطّر في كأسك التي لا تخلو أبداً إلّا لتنكسر، أيها العاصرُ الماهر!

ليس هذا مجازاً، بل هو أسلوب ليلٍ لا يصلح إلّا ضيفاً، وأَنت المضيف الباذخ. وإن افتَأَتَ عليك، كصديقٍ حامضِ القلب، عامَلْتَهُ

بالحسنى وأَرَقْتَ عليه حليب الفجر.

لكني لا أَنسى ضحكتك التي تشبه شجرةَ زنزلخت مبحوحةَ الأغصان، عالية وعريضة، لا تاريخ لها منذ صار التاريخ قهقهة عابثة. ومنذ عادت الجرار إلى حفظ الصدى، كالزيت، خوفاً عليه من آثار الشمس الجانبية.

كم حيَّرني فيك انشقاق طاقاتك الإبداعية عن مسار التخصُّص، كعازفٍ يَحَارُ في أية آلةٍ موسيقية يتلألأ. لم أَقل لك إن واحداً منك يكفي لتكون عشيرة نحل تمنح العسل السوري مذاق المتعة الحارق. بحثتَ عن الفريد في العديد، دون أن تعلم أن الفريد هو أنت. وأنت أمامك بين يديك. ألا ترى إليك، أم وجدت نفسك أصفى في تعدُّدها، يا صديقي المفرط في التشظّي ككوكبٍ يتكوّن.

فَصَصْتَ الثوم للقصيدة لتحمي شرايينها من التصلُّب. فالشعر، كالجسد، في حاجة هو أيضاً إلى عناية طبية، وإلى فِصَادٍ كُلّما أُصيب الدم بالتلوث. آه، من التلوّث الذي جعل الإيقاع نشازاً، واستبدل حفيف الشجر بموسيقى الحجر، واعتبر الحياة عبئاً على الاستعارة!

لكن هذا لم يهمك، لأن الحياة لا تُوهَب لتُعَرَّفَ أَو تُعْرَضَ للنقاش، بل لتُعاش... وتعاش بكاملها، وتُلْتَهم كقطعة حلوى إلهية، أو شفتين ناضجتي الكرز. وقد عِشْتَهَا كما شئت أنت، لا

كما هي شاءت. أَحْبَبْتَها فأحبَّتك. وشاكست ما يجعلها أَحد أَسماء الموت، في عصر القتل المعولم الذي يمنح القتلى قسطاً من الحياة لا لشيء... إلَّا لينجبوا قتلى.

يا ابن الحياة الحرّ، أَيها المدافع عن جمال الوردة العفوي، وحرية العشاق في العناق على مرأى من كُهَّان الطهارة اللوطيين! مَنْ بعدك سيسخر ممَّنْ يتقنون تسمية الآلهة، ولا يقوون على تسمية الضحايا؟ يأنفون من الانتباه إلى دم مسفوك على طريق المعراج، ويسرفون في التحديق إلى غيمة عابرة في سماء طروادة، لأن الدم قد يلطخ نقاء الحداثة المتخيَّلة، ولأن الغيم سرمديّ الدلالات. لعلَّهم على حق، ما دامت هزائمنا تستدعي تطوير النقد إلى هذا الحد!

لكن هذا أَيضاً لا يهمك، أيها المتعالي على التعالي، أَيها العالي من فرط ما انحنيتَ بانضباطِ جنديٍّ أَمام سنبلة، ونظرت، حزيناً غاضباً، إلى أَحذية الفقراء المثقوبة، فانحَزْتَ إلى طريقها الممتلىء بغبار الشرف. الشرف؟ يسألك المترجم: ما معنى هذه الكلمة؟ فلم أجدها في الطبعات الجديدة من المعاجم.

ممدوح، يا صديقي، لماذا كما يفعل الطرخون خانك وخاننا قلبك؟ لماذا لم تعلم كم نحبك؟ لماذا تمضي وتتركني ناقصاً؟ لماذا... لماذا؟

ياسر عرفات(*)

فاجأنا بأنه لم يفاجئنا

١

فاجَأَنا ياسر عرفات بأنه لم يفاجئنا. كأنّ تطابقاً بين الشخص المريض والنص المريض قد حدَّد مسبقاً صورة النهاية، وحرم البطل التراجيدي من إضفاء خصوصيته على القَدَر. فلا معجزة هذه المرة، ولا مفاجأة، منذ أصبحت التراجيديا، المصورة في مسلسل تلفزيوني طويل، يومية ومألوفة وعادية!

لقد أعدَّنا ياسر عرفات، تدريجياً، لوداعه المتواصل أكثر من مرة،

(*) [كتبت هذه الكلمة يوم رحيل ياسر عرفات].

وعوَّدنا على موت غير عادي وغير معلن، بغارة من طائرة حربية، أو بسقوط طائرة مدنيّة في صحراء. لكنه ــ والأقدار تُضفي عليه سحر الأعجوبة ــ كان يسبق الموت إلى الحياة، فنحيا معه في رحلة أدمنَّا خلالها الرحيل إلى هدف يتلألأ بجماليات المستحيل، وبشاعرية رعوية تُعيننا على طول الطريق.

من منفى إلى آخر، كان الموضوع ينأى عن أرض الموضوع... ويدنو، في بلاغةٍ ترسم اللافتات بدمٍ قلنا إنه يخصب الفكرة، وينعش الذاكرة، ويرفع الحدود عن العلاقة بين الواقعي والأسطوري. كنا في حاجة إلى أسطورة أنجزنا بعض فصولها. لكن الأسطورة في حاجة إلى واقع، فهل سينجح الأسطوري في امتحان العمل على أرض الواقع؟ إنه سؤال مُؤجَّل!.

هو، ياسر عرفات، من استطاع أن يروِّض التناقض في المنافي، بمزيج من البراغماتية والدين والغيبيات. وتحوَّل، بديناميكيته الخارقة وتماهيه الكامل بين الشخصي والعام وعبادة العمل، من قائد إلى رمز شديد اللمعان.

لم يزاول مهنة الهندسة لتعبيد الطرق، بل لشقّها في حقول الألغام. قد يحتاج التاريخ إلى وقت طويل لترتيب أوراق هذا الرجل ــ الظاهرة. لكنه سيمنحه رتبة الشرف في علم القدرة على البقاء منذ الآن، ومنذ الآن سيتوقف طويلاً عند مغامرته ــ المعجزة: إشعال النار في الجليد. فقد قاد ثورة معاكسة لأي حساب، لأنها ربما جاءت قبل أوانها، أو بعد أوانها ربما. أو ربما لأن موازين القوى

الإقليمية لا تأذن لأحد بإشعال عود كبريت قرب حقول النفط... وعلى مقربة من الأمن الإسرائيلي!

لم ينتصر في المعارك العسكرية، لا في الوطن ولا في الشتات. لكنه انتصر في معركة الدفاع عن الوجود الوطني، ووضع المسألة الفلسطينية على الخارطة السياسية، الإقليمية والدولية، وفي بلورة الهوية الوطنية للفلسطيني اللاجىء المنسيّ عند أطراف الغياب، وفي تثبيت الحقيقة الفلسطينية في الوعي الإنساني، ونجح في إقناع العالم بأن الحرب تبدأ من فلسطين، وبأن السلم يبدأ من فلسطين.

وصارت كوفية ياسر عرفات، المعقودة بعناية رمزية وفولكلورية معاً، هي الدليل المعنوي والسياسي إلى فلسطين.

لكنه، وقد اختزل الموضوعات كلها في شخصه، صار ضرورياً لحياتنا إلى درجة الخطر... كرَبِّ أسرة لا يريد لأولاده أن يكبروا لئلا يعتمدوا على أنفسهم. لذلك أعدَّنا، أكثر من مرة، للتعوُّد على الخوف من فكرة اليُتم، وعلى الخوف من احتضار الفكرة في حال غيابه الجسدي. ومن فرط ما ناوش الموت ونجا، امتلأ لا وعيٌ فلسطيني خرافي بشعور ما بأن عرفات قد لا يموت! وهكذا لامَسَت أسطورته حدود الميتافيزيقيا.

لكن المفاجآت كانت تعمل في مكان آخر. فهذا الكائن الرمزي العائد من تأويلات إغريقية، كان في حاجة إلى التخفيف من عبء أسطورته، لأن البلد في حاجة إلى بناء وإدارة، وإلى التخلّص من

الاحتلال بوسائل جديدة. وهو الآن مكشوف أمام الجميع، عرضة للمس والهمس والمساءلة. ومن سوء حظ البطل أن عليه أن ينتصر على الأعداء في معارك غير متكافئة، من جهة... وأن يصون صورته في المخيلة العامة من نتوءاتها الداخلية.

لكن، وهو المشبع بثقافة صلاح الدين التفاوضية، وبتسامح عُمَر، لم يأتِ على حصان أبيض، ولا ماشياً أمام جَمَل... فلا مكان للخيل والإبل في بلاغة الأزمنة الحديثة. بل جاء إلى واقعه الجديد محمولاً على اتفاق أوسلو، ذي الجوهر الأمني الخالي من الإفراط في التفاؤل، والمفتوح على غموض النوايا. لكنه عاد، وفي ذهنه خاطرة مرِحة: حتى النبي موسى لم يعد إلى «أرض الميعاد»!

هي خطوة أولى نحو الدولة، يقول، ويعلم أن فلسطين ما زالت هناك: في القضايا المعلّقة على مفاوضات الوضع النهائي، حول القدس وحق العودة وغيرها من القضايا الشائكة. والطريق إلى هناك لا يمر من أوسلو، بل من مرجعيات الشرعية الدولية.

وكان يعلم أن تلك المرجعيات لم تعد صالحة تماماً في عالم القطب الواحد، الذي رفع الدولة الإسرائيلية إلى مرتبة المقدس الذي يُلهم «البيت الأبيض» بتعاليمه السماوية! ويعرف أيضاً أن المراسم الرئاسية، وبطاقات الهوية، وجوازات السفر لا تعني، بالنسبة إلى المسؤولين الإسرائيليين، إلّا ضرورة إلهاء المحرومين من الاستقلال بوجبات رمزية سريعة لا تشبع الهوية الجائعة. ويعرف أيضاً، وأيضاً، أنه قد انتقل من المنفى إلى سجن مؤثَّث بصور الأشياء لا بحقيقتها، وأنه في حاجة إلى إذن بالانتقال من سجن في رام الله

إلى سجن في غزة.

ولا بأس من سجاد أحمر... ونشيد.

من هنا، بدأت محنة الرئيس، وداؤه السياسي والمعنوي. فهذا الأسير العظيم، المحكوم بالشروط الإسرائيلية القاسية، لا يستطيع التقدم نحو الفهم الإسرائيلي لعملية السلام، ولا يستطيع التراجع إلى أبجديات الصراع التقليدية. ولا يعزِّيه أن من ندم على أوسلو، وخان تداعياتها هو «الشريك الإسرائيلي» الذي لم يعد شريكاً. فما العمل؟

لم يختلف أحد على حق الفلسطينيين في المقاومة، فكانت الانتفاضة الثانية تعبيراً طبيعياً عن إرادتهم الوطنية، وإصرارهم على إعادة الحياة إلى الأمل بسلام حقيقي، يحقق لهم الحرية والاستقلال. لكن أسئلة كثيرة طرحت حول الوسائل التي ينبغي أن تخدم هذا الهدف، وتجنُّب الفلسطينيين خطر استدراجهم إلى الحلبة العسكرية التي تَشَهّاها شارون، ليدرج حربه على الكيانية الفلسطينية الوليدة في سياق الحرب العالمية على الإرهاب منذ أضاعت أميركا الحدود بين مفهوم المقاومة ومفهوم الإرهاب.

لم يعد أمام ياسر عرفات إلّا الرهان على قَدَرٍ لا يستجيب، وعلى معجزة لا تُطيع هذا الزمن. المقاطعة، مقره ومنزله الوحيد، تنهار عليه غرفة... غرفة. وهو يردِّد في نبرة نبوية: «شهيداً، شهيداً، شهيدا..»، فيثير في النخوة العربية قشعريرة كهربائية عابرة.

لكن تكرار أخبار المأساة يجعلها عادية. وهكذا صار حصار عرفات أمراً مألوفاً... ثلاث سنوات من تسميم الحياة، ثلاث سنوات من استنشاق الهواء الفاسد، ثلاث سنوات من الهجاء الأميركي «لم يعد ذا صلة»، ثلاث سنوات من الكدِّ الإسرائيلي لتجريد عرفات من صلاحيته وصلاحية رمزيته. بيد أن الفلسطينيين قادرون دائماً على الترميز: حصار الرئيس رمز لحصارنا، ومعاناته رمز لمعاناتنا. فهو معنا، وفينا، ومثلنا، نحبُّه لأننا نحبه. ونحبّه لأننا لا نحبّ أعداءه.

لم يفاجئنا هذه المرة. فقد أعدَّنا لوداع لا لقاء بعده. خرج المحاصر من حصاره ليزور الموت في المنفى، وليزوِّد الأسطورة بما تحتاج إليه من مكر النهاية. لقد منحنا الوقت ليتدرب الحزن فينا على أدوات التعبير اللائقة، ولنبلغ سن الفطام التدريجي. في كل واحد منا شيء منه. هو الأب والابن: أبو مرحلة كاملة من تاريخ الفلسطينيين، وابنهم الذي أسهموا في صوغ خطابه وصورته.

لا نودِّع الماضي معه... ولكننا ندخل، منذ الآن، في تاريخ جديد مفتوح على ما لا نعرف. فهل نعثر على الحاضر، قبل أن نخاف الغد؟

تأخَّر حزني عليه

٢

تأخَّر حزني عليه قليلاً، لأني كغيري توقَّعْتُ من سيِّد النجاة أَن يعود إلينا، هذه المرة أيضاً، ببداية جديدة. لكن الزمن الجديد أَقوى من شاعرية الأسطورة ومن سحر العنقاء . وللتأبين طقس دائم يبدأ باستعمال فعل الماضي الناقص: كان... كان ياسر عرفات الفصل الأطول في حياتنا. وكان اسمه أحد أسماء فلسطين الجديدة، الناهضة من رماد النكبة إلى جمرة المقاومة، إلى فكرة الدولة، إلى واقع تأسيسها المتعثِّر. لكن للأبطال التراجيديين قدراً يشاكسهم، يتربّص بخطوتهم الأخيرة نحو باب الوصول، ليحرمهم من الاحتفال بالنهاية السعيدة لعمر من الشقاء والتضحية. لأن الزارع في الحقل الوعر لا يكون دائماً هو الحاصد.

(*) [ألقيت هذه الكلمة في أربعينية ياسر عرفات].

يُعَزِّينا في هذا المقام أن أفعال هذا القائد الخالد، الذي بلغ حدّ التماهي التام بين الشخصيّ والعام، قد أوصلت الرحلة الفلسطينية الدامية إلى أشد ساعات الليل حلكة، وهي الساعة التي تسبق الفجر، فجر الاستقلال الـمُرّ، مهما تلكأ هذا الفجر، ومهما أُقيمت أمامه أسوار الظلاميين العالية. ويُعَزِّينا أيضاً أن بطل هذه الرحلة الطويلة الذي وُلد على هذه الأرض الشرسة، قد عاد إليها ليضع حجر الأساس للمستقبل، وليجد فيها راحته الأبدية، لتغتني أرض المزارات بمزار جديد.

الرموز أيضاً تتخاصم، كما يتخاصم التاريخ مع الخرافة، والواقع مع الأسطورة. لذلك كان ياسر عرفات، الواقعيُّ إلى أقصى الحدود، في حاجة إلى تطعيم خطابه بقليل من البُعْد الغَيْبيّ، لأن الآخرين أضافوا إلى الصراع على الحاضر صراعاً على الماضي، لمحو الحدود بين ما هو تاريخي وما هو خرافي، ولتجريد الفلسطيني من شرعية وجوده الوطني على هذه الأرض. لكن البحث عن الحاضر هو شغل الناس وشاغلهم، وهو عَمَلُ القائد المتطلِّع إلى الغد.

وكان ياسر عرفات الناظرُ إلى الغد والعميقُ الإيمان بالله وأنبيائه، عميقَ الإيمان أيضاً بالتعددية الثقافية والدينية التي تمنح هذه البلاد خُصُوصيتها، التعددية المضادة للمفهوم الحصري الإسرائيلي. وكان في بحثه الديناميكي عن الغد في الحاضر يبحث عن نقاط الإلتقاء، ويشكِّل سداً أمام الأصوليات. لم يكن تَدَيُّنُه حائلاً دون علمانيته. ولم تكن علمانيته عبئاً على تدينه. فالدين لله والوطن للجميع.

مَنْ منّا لم يقف حائراً أمام قُوّة إيمانه بالعودة القريبة. كان بصره كبصيرته يخترق الضباب الأسود. كنت شاهداً عليه وهو يستعد

لركوب البحر من بيروت إلى ما لا نعرف، إلى مجهول بعيد. سأله أوري أفنيري: إلى أين أنت ذاهب؟ فردَّ على الفور: إلى فلسطين. لم يصدِّق أحد منا هذا الجواب الهارب من الشعر. فلم تَبْدُ فلسطين، من قبل، بعيدة كما تبدو من هذا البحر.

كان خارجاً من حصار شارون. نجا من ملاحقة الطائرات ومن عدسة القنَّاص. ومضى في رحلة أوديسية، محملاً بنهاية مرحلة، ليقول: أنا ذاهب إلى فلسطين.

أعاد ترميم الرحلة والحكاية. نجا من غارة على غرفة النوم في تونس. ونجا مرة أخرى من سقوط طائرته في الصحراء الليبية. ونجا من آثار حرب الخليج الأولى، ونجا من صورة الإرهابي، واستبدلها بصورة الحائز على جائزة نوبل للسلام. وحقَّق نبوءته التي سكنته طيلة العمر: عاد إلى أرض ميعاده، عاد إلى فلسطين.

لو كانت تلك هي النهاية، لانقلبت التراجيديا الإغريقية على شروطها. لكن شارون العائد من ضواحي بيروت نادماً على ما لم يفعل، سيلاحق خصمه الكبير في رام الله، سيحاصره ثلاث سنوات، سيحول مقره أطلالاً، وسيسمّم حياته بالحصار والعزلة، وسيحرمه من الموت كما يشتهي: شهيداً في مقره. فإن شارون لا يحارب الشخص ونصَّه الوطني فحسب، بل يحارب إشعاع الرمز في الزمن، ويحارب أثر الأسطورة في ذاكرة الجماعة.

لكن ياسر عرفات، الذي يعي بعمق ما أعدّ لنفسه من مكانة في تاريخ العالم المعاصر، أشرف بنفسه على توفير وَجَع ضروري للفصل الأخير من أسطورته الحية. فطار إلى المنفى ليلقي عليه تحية

وداع، أسلم معها روحه، فالبطل التراجيدي لا يموت إلّا في المنفى. وفي طريق عودته المجازية، عرَّج ذو الهوى المصري على مصر ليسدِّد لها دَيْنَها العاطفي. وعند عودته النهائية، التي لا منفى بعدها، ألقى النظرة الطويلة الأخيرة على الساحل الفلسطيني المغروز كسيفٍ في خاصرة البحر... ونام. تدثّر الجسدُ الخفيفُ بأرض الحلم الثقيل، ونام... لا لينهض كصنم أو أيقونة، بل فكرةً حية تحرضنا على عبادة الوطن والحرية، وعلى الإصرار على ولادة الفجر بأيدٍ شجاعة وذكية.

إن صناعةً للوهم تزدهر الآن في مَكان آخر. فعلى مستويات عالمية وإقليمية يجري الاحتفال المبكر برؤية فجر كاذب، يبزغ من رحيل عرفات الموصوف بأنه كان العقبة الرئيسة أمام تقدم عملية السلام. ليكن، فما هي الرؤية الجديدة؟ سيُمْتَحن القانون الدولي والمرجعية الدولية ما دامت العقبة قد زالت، فهل سيزول الاحتلال؟ لن ينتظر العالم طويلاً ليدرك أن لاءات شارون الأربع، التي تبنَّاها الرئيس الأميركي، لا تشكل العقبة الكبرى أمام السلام فحسب، بل تجعل السلام مستحيلاً، لأنها تجعل إمكانية قيام دولة فلسطينية مستقلة أمراً مستحيلاً، فلا يستوي السلام مع استمرار الاحتلال والسيطرة على مصير الشعب الفلسطيني، كما لا يستوي المؤقت مع الأبدي. فمن، بعد عرفات، سيرضى بشبه دولة مؤقتة إلى الأبد؟

سنفتقده دائماً، في الأزمات وفي المفاوضات، وفي جميع نواحي حياتنا، لأنه جزء عضوي منها، ولأنه فريد وبلا مدرسة. فالعرفاتية لا تقوم إلّا على صاحبها، لأنها موهبة خاصة، حيوية وألفة ونشاط خارق، ومزايا شخصية لا تُورث، وفوضى ونظام معاً، وعلاقات حميمة مع الناس جعلت الكاريزما العرفاتية ما هي عليه. بعد

عرفات لن نعثر على عرفاتية جديدة. لقد أَغلق الباب على مرحلة كاملة من مراحل حياتنا الداخلية. لكن الباب لن ينفتح، بغيابه، على قبول الشروط الإسرائيلية التعجيزية لتسوية لم يبق فيها للفلسطينيين ما يتنازلون عنه. هنا، تواصل العرفاتية فعلها. وهنا، لا يكون عرفات فرداً، بل تعبيراً عن روح شعب حيّ.

في كل واحد منا ذكرى شخصية منه، وعناق وقبلة. وفي كل واحد منا وعيُ هوية لا تعاني من قلق التعريف: لن نكون فلسطينيين إلّا إذا كنا عرباً. ولن نكون عرباً إلّا إذا كنا فلسطينيين. فهذه الهوية مستعصية على المراجعة والتفاوض، سواء قام الشرق الأوسط أو لم يقم. ولن نكون ما نريد أن نكون إلا إذا عرفنا كيف نوقف عملية الخروج من تاريخنا ومن التاريخ الإنساني، وكيف نعود إليهما، بكل ما أوتينا من طاقات وتجارب ومواهب.

وتلك كانت محاولة ياسر عرفات الدؤوب: الانتقال من الدور الذي تحتلّه ضحية التاريخ إلى المشاركة في صناعة التاريخ.

الراقص في حقل الألغام(*)

كلما التقيتُ باسمه، أَصغيتُ إلى أُغنية صغيرة تمجّد قِران الفُتُوَّة والوعي، واقترانَ الرأي بالشجاعة... ثم حزنت، لا لأنَّ عمر الورد قصير، بل لأن الوردةَ لم تُكْمل تفتُّحها الساطع على سياج يحترق!

كان سمير مهووساً بالسباق على طريق الغد، ليبقى الفتى الأوَّل. وكان له ما أَراد: فإن مَنْ سَبَقَنا إلى الغياب لن يكبر مثلنا. هناك، حول صورته، سيجد الزمنُ نفسَهُ، كعربيّ معاصر، عاطلاً عن العمل!

أَمّا نحن، أصدقاءه وعُشّاقَ بيروتَ المفجوعين، فلن نعتذر عن حلم جميل، مهما ارتدى من أَقنعة الفجر الكاذب. ولن تُغرينا تعاليم

(*) [ألقيت هذه الكلمة في أربعينية سمير قصير].

التوازن باتهام شهيد الحرية والحب بالتهوّر، كما قد يفعل المحاسبون المَهَرَةُ في مؤسسات العواطف والأفكار.

بل نسأل القاتل: أَما كان في وسعك أن تكتب مقالة في جريدة تُثْبتُ فيها أن سمير قصير على خطأ، ولا يستحقُّ الحياة في لبنان، ولا في بلد آخر؟

البراهين كثيرة. تبدأ من خلل فادح في خريطة يافا، ومن سُلالة لا تستقيم، على الرغم من صحّة الولادة، مع معبودات الطائفة والعائلة والقبيلة... ولا تنتهي عند حرمان الغريب من حقه في العمل اليدوي والفكري، ومن إبداء الرأي في المناخ المتغيِّر في المحيط والعالم.

لم نقل له من قبل: ما أَجملك! فقد كان يعرف ذلك أكثرَ مما ينبغي، ويعلنه نيابةً عنا. لكنَّ للغياب استرجاعاً لزمن أُصيب بالفصام.

في لحظة واحدة، في انفجار واحد، ينقلب فعل المضارع إلى فعل ماضٍ ناقص يحتكر الذكرى، ويُنْقصُ المكان. ويصبح ما بعده ظلاماً يدرك بالحواسّ الخمس... فبأيِّ قلب أُناديه: يا صاحبي! لماذا جعلتنا نحبك إلى هذا الحد؟

لم نجتمع إلّا لنضحك من امتلاء النرجس بالحكمة. فالطفل المعجزة ــ كما سمّيناه ــ كان سعيداً بأن يكبر كاتباً ومثقفاً وعاشقاً، دون أَن يتخلّى عن خصوصية اللقب الذي يضمن له صورةَ يوسف بين إخوته، وسيرةَ الفارس المنذور للدفاع عن حرية غريبة الأطوار، وعن ديموقراطية شاذّة.

سمير قصير، الراقص الرشيق في حقول الألغام، الساخر من كل انسجام مع عبودية مفروضة أو مختارة، هو أحد أسماء التفوُّق على صَدَفة الهوية وعلى التخصّص في مُدَوَّنةٍ واحدة. لذلك صدَّق أَن في وسع الفلسطيني أن يكون لبنانياً، وأن في وسع اللبناني أن يكون فلسطينياً عربياً، وأَنَّ من واجب العربي أن يكون مشاركاً بالتفكير ــ على الأقل ــ في التداعيات التي تتركها انقلابات العالم المعاصر على ما يُعَدُّ له من مصائر. وصدَّق أن ثقافة الديموقراطية لا تنتهك ــ بالضرورة ــ مقدساتِ التراث القومي!

لذلك لم يقع في شَرَك السؤال الزائد عن حاجتنا إلى الوجود: مَنْ أَنا؟ فهذا المواطِن المتعدِّدُ المتجدِّدُ المتنوِّرُ المتطور لا يحتاج إلى برهان على شرعية الأمّ. لم يقاوم الأصولية بأصولية مضادة، ولا الطائفية بطائفية مُضْمَرة. هويَّتُهُ مفتوحة على غدٍ ينبغي أن يكون مفتوحاً للجميع، وعلى حداثةٍ لا معنى لها ــ في شرطنا التاريخي ــ إلّا بارتباطها بمشروع تحرر شامل المستويات:

من حق الطفل في مساءلة أَبيه إلى حقّ المرأة في خلع الرجل، إلى حق المواطن في تغيير الحاكم، إلى حق الفرد والمجتمع في مقاومة الاستبداد والاحتلال معاً، إلى حقِّ الشاعر في التخلُّص من الانضباط للقافية، إلى حق الحالمين بأن يحلُموا بأنهم أَحرار، إلى حق الكاتب في التمييز بين معنى الموت ومعنى القتل!

أَلهذا استحقَّ سمير قصير القتل؟

ملءُ قلبي هجاء لسادة هذا الزمن الذي لا يُسْأل فيه عن اسم القاتل، بل يُسأل عن اسم القتيل التالي. كأن القاتلَ هو الغامضُ

الثابت، والقتيلَ هو الواضحُ المتغيّر. وهكذا تتحول شخوص المسرحية الدموية جمهورَ مشاهدين يتفرجون على مصائرهم المدوّنة، ويتحول جمهورُ المشاهدين شخوصاً في مسرحية لم يقرأوا نَصَّها.

وملءُ قلبي رثاء مادح لمن كتبوا بالجمر أَحلامهم، دون وَجَل من ضُبَّاط الليل، أَو خجلٍ من عورة الحقيقة.

وملء قلبي بكاء مالح على لبنان الجميل، الذي أُشبعَ بلاغةَ مديحٍ لا يريده، واخْتُزل إلى حدّ الخَنْق بصور مستوحاة من أغنيات عن براءة ريفية، ومشهدٍ طبيعيّ لا يرى منه العابرون إلّا الأخضرَ المُصفَّى بأبدية الأزرق. أما الأحمر الدامي فلا يراه غيرُ الموغلين في كتابة المستقبل، وملاءمة الصورة مصدَرَها. لقد نزف لبنان، الحائرُ المحيِّرُ، كثيراً من الدم لصوغ هويته التعددية، وللخروج من ثقافة الطائفة والعائلة إلى أفق أرحب، فإلى أين؟ إلى أية هاوية يجره الخائفون من خصوبة الهوية ومن فتنة الأمام؟ إلى أيِّ وراءٍ يريد أَن يرجعه مهندسو الظلام؟

يقول المجاز الأكيد: إنها ساعة المخاض الطويلة. وإن الحرية، على ما فيها من جماليات، قد تتوحَّش ليلة العرس، وتتعطَّشُ إلى دم عُشَّاقها. فذلك هو حنّاؤها الباذخ قبل انصرافها إلى شؤون التدبير المنزلي.

وسمير قصير هو واحد من أجمل هؤلاء العُشَّاق.

شاعر نادر(*)

في أُمسية غيابٍ كهذه، وفي المكان هذا، كُنَّا في العام الماضي ننثُرُ ورد الحبّ على اسم الراحل ممدوح عدوان. لم يحضر محمد الماغوط كاملاً، لعجز عُكّازه عن إسناد جبل. لكنه حضر صورةً شاحبة وصوتاً مُتَهدِّجاً، ليذكِّر بأنَّ للوداع بقيّة.

ذهبنا إليه في صباح اليوم التالي. كانت العاصفةُ مسترخيةً على أريكة، تشرب وَتَضْحكُ وتدخّنُ وتعانق زوّارها. كانت العاصفة مَرِحةً فَرِحَةً بما تبقّى فيها من هواء وضيوف، ولا تأسف على ما فعلت باللغة وبالنظام الشعري. فهي لا تُعْرف إلّا من آثارها عندما تَهدأ. هدأ الماغوط ونظر إلى آثاره برضا الفاتح المرهق.

قُلْنا له وقال لنا ما يقول العارفون بأن اللقاء وداع. وضحكنا كثيراً

(*) [في ذكرى محمد الماغوط].

لنُخْفِيَ خوفاً أثارَهُ فينا انكبابه على ترتيب الموعد القاسي مع سلامه الداخليّ، فمثل هذا المحارب لا تليق به السكينة.

لكنه لم يكن حزيناً ولا خائفاً مما يتربّص به. وَضَعَ الماضي كُلَّه على المائدة، ووزَّع على كل واحد منا حصَّتَهُ من الذكريات والمودة. قرأ لنا ما يدوّنُ من خواطر يومية عاجلة، فهو في سباق مع معلومٍ يشاغله بالطرق على فولاذ المجهول.. وحيَّاني بقصيدة، فخجلْتُ وقلتُ في نفسي: لماذا لم يصدِّقني من قبل؟

وهو، الذي لا يحبّ الإعلام، ابتهج بوصول فريق إذاعيّ، رُبّما ليُعْلِنَ وصيَّتهُ الأخيرة على الملأ: أوصيكم بالحب... فهذا الغاضب من كل شيء لم يغضب إلّا لأن الحُبَّ في هذا العالم قد نضب. ولم يغضب إلّا لأن زنزانة هذا العالم ما زالت تَتَّسع لسجين رأيٍ مختلف. ولأن أرصفة هذا العالم ما زالت تزدحم بالفقراء والمشرّدين. ولم يغضب إلّا لأن لفظة الحرية، بمعناها الشخصي والعام، ما زالت مُسْتَعْصِيَةً على العرب والعاربة والمستعربة... والإعراب!

فوجئنا بصحافي يسألنا بلا رحمة: هل جئتم إلى الماغوط لحضور جنازة مُبَكِّرة؟

تحسَّس كلٌ واحد منا قلبه وتلعثم، إلّا هو، هو النسر الوحيد في ذِروته، ملتفاً بكبرياء الأعالي وبمصاهرة البعيد. لم يكن سؤال الموت سؤالَهُ ما دام يكتب... ففي كل كتابة إبداعية نصرٌ صغير على الموت، وهزيمةٌ صغرى أمام إغواء الحياة التي تقول للشاعر: هذا لا يكفي، فما زالت القصيدة ناقصة!

وكنا نعلم أَننا جئنا للقائه لنتدرب على وداعه.

رحل الماغوط، ونقص الشعر. لكنه لم يأخذ شعره معه كما فعل الكثيرون من مجايليه الذين صانوا سلطتهم الشعرية في حياتهم بحُرَّاس النقد والأحزاب. فهذا الوحيد الخالي من أية حراسة نظرية وتنظيم إعلامي، لم يراهن إلّا على شعريته وحريّته، وعلى قارئه المجهول الذي وجد في قصيدته صدى صوته وملامح صورته، بعدما أَقامت كلماتُهُ المكتوبةُ بالجمر جسر اللقاء بين الذات والموضوع، وبين الذات وما تزدحم به من آخرين.

وهو، هو الذي جاء من الهامش واختار هامش الصعلوك، كان نجماً دون أن يدري ويريد. فالنجومية هي ما يحيط بالاسم من فضائح. وشعره هو فضيحتنا العامة، فضيحة الزمن العربي الذي يهرب منه الحاضر كحفنة رمل في قبضة يد ترتجف خوفاً من الحاكم ومن التاريخ. حاضر يقضمه ماضٍ لا يمضي وغد لا يصل. كم أخشى القول إنَّ الزمن الذي هجاه الماغوط ربما كان أَفضل من الزمن الذي ودّعه. فقد كنا ذاهبين، على الأقل، إلى موعد مرجأ مع أَمل مُخْتَرَع. لا بأس من أن يكون ماضينا أفضل من حاضرنا. ولكن الشقاء الكامل هو أن يكون حاضرُنا أَفضل من غدنا. يا لهاويتنا كم هي واسعة!

رأى الماغوط الهاوية فخاف. خاف بشجاعة المقاوم. فنظر إلى الأفق بعيون الشاعر الطائر، فخاف ثانية، وقاوم الخوف برؤيا الشاعر الحالم. فماذا على الشاعر أن يفعل غير أن يُخْلص مَرَّتين: مرةً لانتمائه إلى الواقع، ومرة لتجاوز الواقع بالخيال وبصناعة الجمال؟

لكن هذا الخائف على عفوية الحياة، وعلى العلاقة السرّية بين الأشياء والكلمات، رأى الخوف كما تُرَى المواد الأولية لبناء الكابوس، فقاومه بحرية الكلمات في تحرير صاحبها وقارئها، وقاومه بالتخلّي عن حنين اللغة إلى ماضي أطلالها وقصورها معاً، وبفروسيةِ مَنْ لا يملك شيئاً ليخسره، وأكاد أقول: بمغامرةِ يأسِهِ اشتقَّ الأمل لغيره، فأخاف ما يخيفه، كما تخيف الملحمة الشعرية الموت المتربِّص بأبطالها وقرائها الخالدين. لقد أخافت لغةُ الماغوط الساخنةُ الساخرةُ الجميعَ من فرط قوة الهشاشة في أعشابها، ومن فرط دفاعها عن حق الوردة في حماية خصائصها.

وهو فضيحة شعرنا. فعندما كانت الريادةُ الشعريةُ العربية تخوض معركتها حول الوزن، وتُقَطِّعهُ إلى وحدات إيقاعية تقليدية المرجعية، وتبحث عن موقع جديد لقيلولة القافية: في آخر السطر أم في أوَّله... في منتصف المقطع أم في مقعد على الرصيف، وتستنجد بالأساطير وتحار بين التصوير والتعبير، كان محمد الماغوط يعثر على الشعر في مكان آخر. كان يتشظَّى ويجمع الشظايا بأصابع محترقة، ويسوق الأضداد إلى لقاءات متوترة. كان يُدْرِكُ العالم بحواسّه، ويُصْغي إلى حواسه وهي تُمْلي على لغته عفويتها المُحَنَّكة فتقول المدهش والمفاجىء. كانت حسيَّتُهُ المرهفة هي دليله إلى معرفة الشعر... هذا الحدثِ الغامضِ الذي لا نعرف كيف يحدث ومتى.

انقضَّ على المشهد الشعري بحياء عذراء وقُوَّة طاغية، بلا نظرية وبلا وزن وقافية، جاء بنصّ ساخن ومختلف لا يسميه نثراً ولا شعراً. فشهق الجميع: هذا شعر. لأن قوة الشعرية فيه وغرائبية الصور المشعة فيه، وعناق الخاص والعام فيه، وفرادة الهامشيّ فيه،

وخُلُوَّهُ من تقاليد النظم المتأصِّلة فينا، قد أَرغمنا على إعادة النظر في مفهوم الشعر الذي لا يستقر على حال، لأن جِدَّة الإبداع تدفع النظرية إلى الشكّ بيقينها الجامد.

لم يختلف اثنان على شاعرية الماغوط، لا التقليدي ولا الحداثي، ولا مَنْ يودّ القفز إلى ما بعد الحداثة. حجتهم هي أن الماغوط استثناء، استثناءٌ لا يُدْرَج في سياق الخلاف حول الخيارات الشعرية. لكنها حجة قد تكون مُخَاتِلَة، فما هي قيمة الشاعر إذا لم يكن استثناء دائماً وخروجاً عن السائد والمألوف؟ لذلك، فنحن لا نستطيع أن نحبَّ قصيدة الماغوط ونرفض قصيدة النثر التي كان أحد مؤسِّسيها الأكثرَ موهبة. وإذا كانت تعاني من شيوع الفوضى والركاكة وتشابه الرمال، على أيدي الكثيرين من كُتَّابها، فإن قصيدة الوزن تعاني أيضاً من هذه الأعراض. الأزمة إذاً ليست أَزمة الخيار الشعري، بل هي أزمة الموهبة، أزمة الذات الكاتبة. فنحن القرَّاء لا نبحث في القصيدة إلّا عن الشعر، عن تحقق الشعرية في القصيدة.

سرُّ الماغوط هو سرّ الموهبة الفطرية. لقد عثر على كنوز الشعر في طين الحياة. جعل من تجربته في السجن دلالة وجودية. وصاغ من قسوة البؤس والحرمان جمالياتٍ شعريّة، وآليةَ دفاعٍ شعري عن الحياة في وجه ما يجعلها عبئاً على الأحياء.

وهو الآن، في غيابه، أَقل موتاً منا، وأكثر منا حياة!

يد ترى، وقلب يرسم(*)

إذا كانت حياةُ الفنّان المستمرةُ هي أَعماله التي تُجدِّد حياتها بمنأى عنه، فنحن اليومَ وغداً لا نُودِّع إسماعيل شموط... بل نستقبله عائداً من معركتين منتصراً:

الأولى ـ صراعُ الفنِّ مع الموت القادرِ على إِتْقان مهنته الأبدية، والعاجزِ في الوقت ذاته عن تعريف الخلود الذي لا شأن له به. فالخلود هو صناعة الفنان، آثارُهُ التي نحدِّق إليها مُنْبَهِرينَ بِتحوُّل المخلوق إلى خالق.

والثانية ـ هي صراع الفن مع وحشية التاريخ الذي اقتلع بجرافته العملاقة شعباً من جُغرافيته، وأَلقى بفتىً يافع إلى البريّة، مُحَمَّلاً بسؤال ما زال يطاردنا: إلى أَين؟

(*) [في ذكرى اسماعيل شموط].

هل كان الفتى يعلم أَنَّ بوسع ريشته الطريَّة أن تُعيد بناءَ ما انكسر من المكان والزمان؟ ألموهبة تسبق وعي المهمة. ومن التجربة وُلدت هذه الموهبةُ التي أدركت في ما بعد أنَّ عليها أن تخوض حرب الذاكرة ضد النسيان. وانتصر الفنانُ على ما أُعدَّ له ولشعبه من مشروعِ خروجٍ من التاريخ إلى التيه والنسيان.

نحن هنا، إذن، للاحتفال بقدرة الروح الإبداعية على الاختراق، وعلى تعميم الرجاء والعزاء لموتى لم يموتوا، ولأحياء لم يضيقوا ذرعاً بحياتهم. نحن هنا لتحية إسماعيل شموط، لا لأنه كان رائد الفن التشكيلي الفلسطيني، كما دَرَجْنا على هذا القول السهل الذي لا معنى، فنيّاً، له، ولا لأنه أقام أول معرض للرسم الفلسطيني، ولا لأنه كان رئيس اتحاد التشكيليين العرب، فتلك أوسمة تليق بجنرال متقاعد، لا بفنان أمضى أكثر من نصف قرن في البحث عن هوية فنية متداخلة مع هوية شعب حُرم من التأمُّل الحرّ في ذاته الإنسانية خارج ما أُعدَّ له من مصائر.

إسماعيل فينا سيرة ومسيرة. ذاتٌ ذابت في الموضوع، وأقامت الموضوع في الذات، ومن فرط ما هُوَ هُوَ وليس هو في آن واحد، خُيِّل إلينا نحن المُثْبتين في زَيْت اللوحة، أننا شظايا قصائد أعاد الفنان تشكيلها وتجميعها في إطار.

لا يحتاج الفلسطيني كثيراً إلى صرامة النظرية ليتساءل عن علاقة الشخصي بالعام، وعن تحديد مفهوم الالتزام، فهو يولد متورطاً بالسليقة. في كل سيرة شخصية سيرةٌ عامة. وفي كلِّ فردٍ جماعة. يكفي أن يتذكر إسماعيل طفولته في اللد ليرسم جمال الطبيعة، وهجرتَهُ ليرسم أحزان النكبة، وصباه بائعاً متجولاً للحلوى ليرسم

الشجن، وتلَّ الزعتر ليرسم المأساة والبطولة، وحصار بيروت ليرسم الصمود والغضب، وصبرا وشاتيلا ليرسم الضمير الدولي طعاماً للكلاب الضالة، والانتفاضة ليرسم الأمل. ويكفي أن يتذكر الغد ليرسم المرأة.

في الذاكرة فردوس مفقود. وفي الواقع، لا مكانَ للفرح الصغير إلّا إذا مرَّ يومٌ واحد بلا مجزرة. عندها يرتاح اللونُ الأحمر من الصراخ ليتقدمَ أَصفرُ الأقحوان بحياء إلى اللوحة. كأنَّ إسماعيل لصّ نبيل يتربَّص بفرح قليل... فيه من جمال السراب وعدُهُ بالعطش.

أَلهذا تطلُّ من سكتشاته الشفَّافة امرأةٌ عاريةٌ كطيفٍ سريعِ الاختفاء، لا خوفاً من تمام، بل خوفاً من مشاهدين ظنَّ إسماعيل أنهم لن يغفروا للفلسطينيِّ المُنَمَّط اختلاسَ النظر إلى رخام أنثويّ فاتن.

هنا، ينقضُّ علينا السؤال: هل قُدِّر للجماليات أن تبقى أسيرة التراجيديات؟ ليس هذا قلقي وحدي، بل قلقَ إسماعيل الذي رسم لنا صُوَرَنا المتحوِّلة، فرسمنا له صورته الثابتة. كم حاول أن يتمرد علينا وعلى نفسه، وأبقى تمرده سِرّاً للقلق. وحاول أن يغيِّر ويتغيَّر فعدَّد أشكاله وألوانه وغيَّرها داخل الثابت المتوقع. لا هنا إلّا هناك. لم يسعَ إلى تحرير الذات المُبدعة من موضوعها، بل حاول أن يوسِّع ضفاف الموضوع لتتَّسع لما في الذوات الفردية من تعدّدٍ وتفرّد وطبائعَ ونوازعَ ليست كلُّها وطنيةً بالضرورة. لكنه توجَّس من سوء فهم يضع حواجز التمييز بين الوطني والإنساني، ولا يرى مجالاً حيوياً للهوية الوطنية خارج الصَدَفَة، من فرط ما تتعرض له

هذه الهوية من تهديدِ خارجها.

هل حُكم علينا بأن ننهمك إلى ما لا نهاية بتقديم البراهين على أننا نحن نحن، وعلى أننا كائنات بشرية لا أشباح، وعلى أن لنا بلاداً هي أرض لا بطاقةٌ بريدية؟ ربما... ربما. ولكن في وسع الفن أن يستبدل البرهانَ بالبديهة، وأن يتساءل: إلى متى يظلّ الوطنُ في حاجة إلى براهين جمالية وإلى متى يظلّ الفن في حاجة إلى براهين وطنية؟ قال رسام فرنسي: «إن البراهين تُضجر الحقيقة». ومن سوء حظنا التاريخي أن هذا القول قد لا يَخُصُّنا.

هل لنا أن نسأل إن كان إسماعيل شموط قد ضَحّى بإمكاناته الفنيّة الهائلة من أجل البرهان؟ كلا. الأصح هو أن نقول إنه كرَّس طاقاته الفنية وحياته كلها ليؤرِّخ للتراجيديا الفلسطينية المستمرة، بلوحاتٍ تشهد على بطولات شعب حوَّل اليوميَّ إلى أسطوري بصموده أمام مشروع الموت السياسي، وبشَبَقِهِ إلى حياةٍ لا تُعرَّفُ ماهيَّتُها إلّا بالحرية. وتشهد على قوة الروح الإبداعية المنتصرة على الزائل بالخالد. فصار إسماعيل أيقونة فنية ووطنية. صار الرسام هو اللوحة.

لا يأذن إسماعيل لأحد منّا بأن ينساه، فهو المُواظِب على الصداقة مُواظَبَتَهُ على العمل، يتفقَّدُنا في كل مناسبة. ولا يرحم قلبه المفتوحَ كحديقةٍ عامة من أعباء الحب. هو الصديق الدائم المبتسم المتواضع المحتشم كعشبة. كان صديقي إلى حدّ أنه لم يسألني لماذا لم أعلّق لوحةً له على أَحد جدراني المتنقّلة. وكنتُ صديقه إلى حدّ أَنني لم أسأله لماذا لم أَر كتاباً لي في بيته. وكان لصداقتنا مكانُ ولادةٍ بعيد: صوفيا. هناك التقينا منذ حوالي أربعين

عاماً، وتآخينا كجناحيْ طائر: أنا القادم من أرض ذاكرته، وهو القادم من مستقبل منفاي. وكلما التقينا تذكرنا صوفيا كأننا بلغاريان منفيّان!

وفي بيروت، مع شفيق الحوت وسائر الأحبة، صرنا أُسرة واحدة منكبة على قراءة أحوال الغيب والغد، سالمين من عدوى الوهم تارة، ومصابين بتداعياته تارةً أُخرى. وفي بيت إسماعيل، نسمع أزيز الرصاص القادم من حماسة جامعة بيروت العربية، ونواصل الاستماع إلى الموسيقى والشعر. وبينما يصمت زوجا الكناريّ العاشقان، تواصل أسماك الحوض الملونة سباحة النوم. أما سمسم السعدان الذي اكتفى من لغة البشر بالإشارات الخائبة، فقد لجأ إلى روضة أطفال لتعليم الإشارات بعيداً عن لغة الرصاص.

افترقنا، دون أن أسأل إسماعيل: لماذا لا يرسم سمسم والسمك وزوجي الكناري؟ ودون أن أقول له: حافظ على الذاتي، ولو قليلاً، من جَشَع الموضوع. ودون أن يقول لي: حافظ على الموضوع من جنوح الاستعارة.

إسماعيل شموط: يدُهُ هي التي ترى

وقلبه هو الذي يرسم!

صديقي العابس

جوزيف سماحة، صديقي العابس، كان يفاجئنا أحياناً بابتسامة ما، في آخر الليل، لا تبلغ حدَّ الضحك. وكان يفاجئنا أَحياناً باختفاءٍ ما في جزيرة بعيدة. لكننا لم نتوقع أن يفاجئنا بالسفر إلى لندن، ليعبث بنا كما لو كان مؤلفاً تراجيدياً يرقد في نصّه المعتم، على مرأى من مشاهدين أُغمي على بعضهم من الصدمة.

هو، ليس كذلك. لم يكن ساخراً إلى هذه الدرجة. فهو الذي لا يضحك ولا يبكي.

كل شيء فيه كان معدّاً لحبّ الحياة بفجورها وتقواها: قوة حصان لم يمرض. وبسالة فارس لم يترجّل، وأَملٌ جَشِعٌ لا يتوقّف عن الثرثرة. وبصيرة مثقف لا يؤجّل كلمة اليوم إلى الغد. مناضل وبوهيمي. صديقُ الوحيدات في الليل، ورفيق العاطلين عن العمل والبهجة. حيويّ ذكي يبحث عن الاختلاف في كل شيء، وعن

الخصومة على كل شيء، لأن الإجماع من صفات القطيع.

رفع المقالة اليومية والأسبوعية إلى مستوى الأدب السياسي الرفيع، ببهاء العبارة ودهاء الحجة. لم يستطع أَحد، حتى من خصومه، تجاهل ما يكتب. وما يكتب ليس خاطرة عابرة. في ما يكتب تحريض على التفكير. وفي ما يكتب كثافةُ معرفةٍ وإحالاتٌ إلى مراجع ومصادر، يومية وموسوعية. مقالته التي تحلّل الخبر والحدث صارت هي الحدث والخبر.

هو الحائر الخلّاق الذي لا يَكُفُّ عن الشك في اليقين. عدوّ الجمود الفكري والعقائدي والسياسي. تقلباته الفكرية هي سرّ حيويته، وهي التعبير عن حيرة المثقف الباحث عن الحقيقة في فوضى التحولات. لكنَّ فيه ثابتاً لم يتعرض للمراجعة: هو عداؤه النهائي للمشروع الإسرائيلي، بتفرعاته الإقليمية والدولية. وعداؤه للاستبداد الكوني الذي تمثله الهيمنة الأميركية.

مقالاته في الحرب والسلم تحمل تعقيد المفهومين: فليست الحرب، في حقول النفط وعلى حافة الترسانة النووية، نزهة بلاغية. وليس السلم ممكناً. لكن المقاومة ضرورية وممكنة.

بيروت ناقصة بعده. صباحها ناقص وليلها ناقص. وثقافة المقاومة نقصت أَحد منظّريها الكبار. وحياتنا ناقصة: فمن يزيدنا ذكاء كلما حاورناه وشاكسناه. وأَحببناه أكثر؟

جوزيف نائم، ولا يستطيع أَحد إيقاظه، لأن نومه، هذه المرة، عميق. لكن ذكراه صاحية.

III ـ ولادة الشعر العسيرة

مَطَرُ السَّياب(*)

كنت أنتمي إلى جيل وقف مذهولاً أمام فوضى القيامة. فقد انكسر المكان، بما فيه من سيرة وكائن، وأحدث ما يشبه القطيعة بين الذات وأبعادها، وما بين الحاضر والأمس. وحين كنا نتطلع إلى مصائرنا القادمة إلينا، واحداً واحداً، كان شكل الجماعة يتكثف كالشبح القادر على امتلاك المكان، وعلى مغادرته في آن واحد.

أما الصراخ الذي لا بد منه، كما يحدث عادة في ليل الكابوس، فلم يكن كافياً إلّا للتأكد من بقاء الحواس في مجال عملها المتبدل.

جيل مرمي على كواهله: عليه هو وحده أن يكون العناصر الأولى

(*) شهادة قدمها الشاعر في ندوة حول الذكرى الثلاثين لرحيل السيَّاب، أقامها معهد العالم العربي في باريس.

لتكوين حياة متخيّلة، على مرأى من الحياة الواقعية. وعليه هو أن يكون الـمُكون.

لعل ذلك كان هو الإرهاص الأول لحاجتنا الإنسانية إلى معالجة البكاء بالغناء. ولعل ذلك كان الإصغاء الأول لضرورة الشعر. ولكننا كنا محرومين من إمكانية اللعب البريء، في الوقت الذي كنا نفتقر فيه إلى مهارة اللعب بالكلمات وفي الكلمات.

كانت اللغة التي ورثناها، بلا انتظام، قد بلغت حدّ الإشباع في وصف ما لا يقترب من وصف حالتنا الجديدة. ولكنها هي، تلك اللغة، ما يُشير إلى هويتنا وإلى شكل وجودنا ونسيجه. وفيها، لا في الواقع الطارىء، نعثر على دفاع الجسد عن الروح، وعن حاجة الروح إلى جسد.

وهناك، كثيراً ما التقى الواقع باللاواقع، واندفعت الحادثة اليومية إلى البحث عن شخوصها في ما يُحاذيها من أساطير تُغري المشاهد باحتضان الماضي الذي لا يمضي، ليواصل الزمن نسق إيقاعه المنتظم، ولنتمكن من الإقامة على تلك الأرض التي انتقلت فينا من وظيفتها الرومانسية إلى احتلال مرتبة الجوهر الـمُقدس.

لكن للشعر أيضاً أسئلته المركبة، أسئلة لم نواجهها في البداية: كيف يمتلك وجوده التاريخي بتعبيره عن لحظته التاريخية من جهة، وكيف يمتلك ما يتيح له الإفلات من ضغط الراهن ليعيش في لحظة تاريخية أخرى؟

لم يكن جيلي المحاصر ثقافياً، آنئذٍ، شديد الإصغاء لدويِّ الانفجار العميق في الحياة الثقافية العربية، وفي بُنية القصيدة الباحثة عن

ذاتها الجديدة ورؤياها الجديدة، في علاقتها وتعبيرها معاً، بالبنى العربية المحتقنة بالصراع الاجتماعي والطبقي والوطني. ولم يكن أيضاً شديد الإصغاء لصراع الخيارات الشعرية وتوتُّر البحث عن مرجعيات التجديد.

لم يتجاوز سؤالنا الشعري مساحته الموضوعية: جدل العلاقة بين النص والواقع. «على الشعر أن يُعبّر وأن يحرِّر، أن يُعَبِّر وأن يغيِّر ـــ تلك مساحة رحبة تتسع لما لا نهاية له من الخلاف أو الاختلاف بين أبناء جيل كان يبحث، بسليقة الممارسة لا بالمعرفة، عمَّا يُحرِّره ويحرر لغته من القهر ومن التقليد، وعن انسجام مُحكم بين الجمالية والفاعلية.

ولم يكن الصدى، الذي يخترق الحائط بين الداخل الثقافي الوطني وبين الخارج العربي، كافياً لتطوير أسئلتنا الأولية ووضعها في سياق العملية الشعرية العربية، التي كانت تتم فيها ولادة الجديد من ذاته التاريخية ومن علاقتها بالآخر، عبر استيعاب محاولات التجديد المتداخلة وتجاوزها.

ولكن صدى السيَّاب، ذا الرجع المتدفق، كان كافياً، إلى حدّ ما، لتوليد الرغبة في إحداث قطيعة ما بين لغة الماضي من جهة، وبين الرغبة في امتلاك أرض الماضي باللغة، عبر إدراك شعري جديد لحركة المعنى ولشكل هذه الحركة.

تعرَّفتُ على شعر بدر شاكر السيَّاب، دفعة واحدة، من خلال عمله الكبير «أنشودة المطر»، فعثرتُ على ضالة المثال الشعري دفعة واحدة. اخترقني النهرُ ولم أَعُدْ بعد القراءة، منْ كُنْتُهُ قبل القراءة.

كانت الفتْنَةُ والجرح يصعدان بي إلى نقاط التقاطع الغامضة التي يتحقق فيها الشعر، ثم يتكتمُ على سرِّه ليبقى مطلباً، ولتبقى غايةُ الشعر الخاصة هي الشعر.

كان هذا المؤسس الأكبر يزوّدنا إبداعياً بما يُؤرق الحدس ويضيئه، كيف يكون الشعر فعلاً، بتفجير طاقته المشعّة على خلق شعائره الخاصة، وإطلاق الحلم إلى حُرّيته الأقصى، انسجاماً مع توق الإنسان إلى تجاوز كل ما يُعوق إنسانيته من ناحية، وكيف تحرر هذه الرؤيا ذاتها بتحرير أدوات التعبير عن ذاتها من فتنة التراث الشعري من ناحية أخرى. أي كيف تدرج مسألة الشكل، واللغة، والعروض في سياق هذه الرؤيا.

جاءنا صوت السيَّاب الفردي، وقد اكتملت فيه العلاقة بين رموزه الشخصية وأسماء مكانه الخاص وبين عناصر أسطورته الجماعية، التي وجدت مدارها في حركة الكون، التي لا تعرف السكون. وقرأنا فيه الشهادة الأنضج على حركة الزمن العربي وعلى ما يعتمل في باطن الواقع وظاهره من صراع. وقرأنا فيه نصَّ الفضاء الذي كشف عنه السيَّاب أمام حركة القصيدة العربية الحديثة، وقد تأسست لا في الكتابة وحدها، بل في القراءة أيضاً: فقد استطاعت قصيدة السيَّاب، أكثر من سواها، ترسيخ شرعية الشعر الحديث في ذائقة القارىء وفي وعيه الثقافي، باستجابتها إلى شروط تجديد لا تسبِّب الاغتراب ولا القطيعة مع تاريخها.

إنها قصيدة قادمة من قدرة اللغة على تجديد حيويتها وحركتها، وعلى التذكير بذاكرتها المُشعَّة بجماليات عربية لا تَنْتهكُ، كما يشيع البعض، متطلبات الحداثة. إنها قصيدة تتمثَّل روح الزمن

الجديد بفتح بنيتها على إيقاعه، وبقدرتها على بناء أسطورتها المعاصرة، من ذاتها، لا بالاعتماد الدائم على رموز أسطورية قادمة من خارجها، وبتطوير إمكانيات التفعيلة بمرونة لا توقظ الرتابة ولا تستغني عن ضرورة المتعة، وبرؤيا حديثة لا تحتاج إلى افتعال خصومة بين طرفي الفعل الشعري: الفاعلية والجمالية.

لقد أسهم شعراء كثيرون، قبل السيَّاب ومعه وبعده، في إنجاز عملية التحول التدريجي والتراكمي التي أدت إلى ما وصل إليه المشروع الشعري العربي الحديث، وانفتاح القصيدة العربية على إمكانيات تطور لا حدود لها. ولكن، لعلنا ما زلنا قادرين على المجاهرة بأن لبدر شاكر السيَّاب، ذي الموهبة الجارفة والقلق المعرفي، الدور الإبداعي الأبرز في تحقيق الطفرة. إذ، لا يعنينا من عملية التأسيس أيُّ جدول زمني، من كتب التفعيلة قبل الآخر؟ بقدر ما يعنينا تحقق التأسيس في الإنجاز الإبداعي. ولعلنا قادرون على القول أيضاً أن مرحلة الازدهار السيّابي، القصيرة زمنياً، ما زالت تحمل القسمات الأساسية لحركة الشعر الحديث في تطورها اللولبي. وأن البذور التي تركها السياب في حقل التجربة الشعرية العربية ما زالت تنبت في هذا الحقل الواسع، وما زال مطر السيَّاب يتساقط على جفاف أيامنا. لا لأننا ما زلنا نقرأ في شعره لحظة تأزمنا التاريخية، بمستوياتها الاجتماعية والفكرية والسياسية، وترددها أمام حيرة الاختيارات فحسب، بل لأن المرحلة الانتقالية الواسعة التي يمثِّلها السيَّاب بين ماضي الشعر العربي وبين مستقبله ما زالت مفتوحة أيضاً للمزيد من الأسئلة.

وما زلنا نقرأ فيها أيضاً مناطق الاضطراب الشعري التي تتميز بها حركة الأنهار العنيفة، كأن تضطرب العلاقات التبادلية بين عناصر

القصيدة، وكأن يفيض الشعر عن حدود القصيدة، وكأن تفتك الأسطورة المستعارة بحركة نمو القصيدة، وكأن يستبدّ الحنين القديم بالقافية، فتدور على نفسها، وغيرها من الظواهر التي تتسم بها البدايات الكبرى عادة، ولكنها أسئلة ما زال السيَّاب قادراً على إيقاظها فينا.

لم أتعرف إلى السيَّاب الشخص، فليس في وُسْع جميع الأبناء أن يتعرفوا إلى آبائهم الشعريين الشرعيين ـ وهذا حسن رُبما. بيد أن صورة هذا الصوت القلق، الحزين، المريض، ابن بويب وخالقه، ابن جيكور ومؤسسها، ابن العراق وجرحه، ابن تاريخ الشعر العربي ومحوِّل مجراه، هي أحد أسماء مرآتنا، التي تعكس حنيننا الجارف إلى وضع رموزنا الشخصية في مكانها من نظام الكون، على أرض الأسطورة المهدَّدة بالسقوط، لنقنع أنفسنا مرة أخرى بجدوى هذا العبث الجميل، وبأن الشعر ما زال ضرورياً وما زال ممكناً، ولنجدد إقامتنا على الأرض: أرض اللغة، ولغة الحلم.

هل ما زال الشعر ضرورياً؟(*)

ليس من عاداتنا أن نكرّم الأحياء، لذلك يساورني خوف من نفسي، فلعلي اقترفت موتاً دون أن أنتبه إلى أن تلك الحادثة، التي أردتها أن تكون سرّية، قد بلغت مسامعكم.

أليست تلك هي فضيحة الشاعر الذي لا يكتفي بالإفلات من صورته في عملية الإنصات إلى صرخة ولادته من ذاتها، لا لأن قطيعة أريد لها أن تكون كاملة قد دفعته إلى أن يكون «آخَر» أناه، بل لأنّ أناه ذاتها لن تكون إحدى ممتلكاته الخاصة مهما حاول ذلك. فبقدر ما ينقّب هناك، بقدر ما يدفع إلى كتابة تكوين فوق التكوين، وإلى شدّ البداية إلى بدايتها، فيجد نفسه هناك، في رجع الصدى البعيد الذي يزوّد نشيده بمشترك العزلة الجميلة على

(*) [كلمة الشاعر في اختتام ندوة نقدية تكريمية في مدينة قفصة التونسية ــ ١٩٩٥].

الأرض، وقد أقام ــ راحلاً ــ في خيمة الوجود الشعري، دون أن يتمكن من الإقامة الجسدية على أرض هويته الخاصة.

•

تلك هي أرضي، أرض سمائي. ولست مكلَّفاً إلّا من الغياب بكتابة أسماء حضورها الجغرافي والثقافي والحضاري والإنساني، في كتابها، وفي كتاب الشعر العربي. وهل هي كتابة على كتابة سابقة؟ ربما... فلست إلّا ما أعرف. ولكنّ إفراط الكتابة السابقة في خفّتها اللاهوتية يكسرني ويكسر واقعاً تكسره الهشاشة من شدّة ما امتلكه السيف الممتدّ إلى جسدي وإلى لغتي وإلى غدي السابق، في صيرورة مصير إنساني لا تدافع عنه تراجيديته وحدها، بل حقّه في الكلام عن ذاته العادية، إسوة بما يفعل الأدب المعاصر، الساعي إلى التحرّر من البطولة ومن ضغط الجماعة، من الأسطورة ومن الراهن معاً. فهل أُذن له بذلك؟ هل أُذن له أن يخرج إلى المطلق من تاريخية لا يعترف لها بأي تاريخ؟

لم أولد في مكانين، ولكن في وسعي أن أموت في أكثر من مكان. وفي مقدوري أيضاً أن أولد وأموت في كل قصيدة. تلك هي حرّيتي، فلماذا يكون مكان ولادتي الجغرافي نقيضاً لهذه الحرية؟ وبعيداً عن شاعرية بلادي التاريخية، أرضاً وميثولوجيا تشير إلى عمل الآلهة وإلى كتابة التكوين، وإلى إفراط البشر في خطاياهم، ممرّات لهويات وحضارات، وزمناً متروكاً لإعادة التأليف المعاصر، وشعباً هو ما هو عليه من ولوج المألوف في الخارق، ومن سموّ الأحلام وانكسارها... بعيداً عن كلّ هذا وذاك، فهي أرض قرب الأرض، وهي نزوع الأسطورة البحرية إلى شبق الرسوّ على متر من برّ.

فهل في مكان ولادتي ما يفقر الشاعرية الإنسانية، أم فيه ما يغنيها، بتذكير الإنسان بسيرته في تاريخ الكون والكلمة، وفي فتح المعنى على معنى آخر، وفي قدرته على إنقاذ الواقع بالأسطورة، وفي عودة الأسطورة إلى عناصرها وإلى أهلها؟ لا حاضر للغة الشاعر إلّا في ماضيها، وإلّا فسأجيء إلى اللغة للتوّ، من الفراغ. فلماذا كان النقد يخجل من وطني كما لم يخجل من وطن أحد؟

إن إحدى مآسي طروادة المتراكمة هي أنّ أحداً لم يبحث عن الألواح التي دوّن عليها شاعرها سيرتها. من حسن حظي، أو من سوئه، أنني لست طروادياً. ومن حسن حظي أنني ما زلت أعبّر عن إنسانية تدافع عن خلاصها الشعري. وهي إنسانية تكثّف، وتتعرّف على ذاتها الثقافية والتارخية تعرّفاً سلبياً، ولا بأس، من خلال علاقتها بأثينا التي أصبحت رومانية. ففي شعرنا العربي، إذاً، ما زال هناك الكثير مما لا يُقال، ما دام هذا آتياً من سياق بعيدنا الذي آن للغتنا، ذات الجماليات الفذة، أن تهيئه لاستقبال حداثة لا نشارك في صوغ منظوماتها الكونية، ونكتفي باستهلاكها كسائر الموادّ الأخرى.

وسوء حظي (في أنني لست طروادياً) هو أنني لو كنت ذلك فسأكون موضوعاً أنثروبولوجياً، لا لشيء إلّا لأنّ علماء الإغريق قد ارتاحوا إلى انتصارهم، فأحبّوا أن يضفوا مزايا إنسانية على ضحاياهم.

لا، لا أستطيع أن أضع الضمير في مواجهة لا مبرر لها مع الجمالية؛ ولا أستطيع أن أخون حواسّي كلّها، أو بعضها، لأنتمي إلى جسد حداثة مشوّه يغيّر اسمه وملامحه في كلّ لحظة. ولكني،

وأنا مُثقَل بما لا يعينني، أعرف كيف أموت وأولد في سياق قصيدة لا تبحث، وهي تكتب، عن هدف سوى شعريتها التي لا تستطيع أن تتحرر من ضغط تاريخها إلّا في تجدّد تاريخيتها من خلال الاندماج فيها، لا الاغتراب عنها.

هذا هو المعنى الذي أدركه في تكريم المشروع الشعري العربي، الذي أحاول أن أسهم فيه بجدلية حياة وموت، رحيل وبقاء، حضور وغياب، لنتمكن معاً، من مراكز الثقافة العربية وأطرافها، من أن نحقق حضورنا الشعري المشترك في الذات وفي الآخر؛ في الذات التي انفصلت عن نفسها لترى إلى نفسها وهي تحاول أن نعيش الوجود شعرياً مهما كان الثمن، ومهما كان حجم القطيعة التي تقترح علينا الغياب عن الذات، وعن الآخر معاً. لقد متُّ بما فيه الكفاية، وما أسعدني أن أشهد هنا، في قفصة، قصة ميلادي. لا أعرف كيف أشكر نقادي وزملائي الشعراء الذين يدرّبونني على طريقة جديدة في فهم نفسي الشعرية. ولكنني أعرف كيف أحبّ أهل قفصة التونسية العربية، لا لأنها تكرّمني، بل لأنها شديدة الوفاء لذاكرتها، لحياتها، للغتها، ولبحثها عن الشعر في الشعر والحياة، ولأنها تجيبنا من جديد وبطريقتها الكريمة الأصيلة عن سؤالين يعذّبان نهاية القرن:

هل ما زال الشعر ضرورياً؟

وهل ما زال الشعر ممكناً؟

الشعر بين المركز والهامش(*)

لا أعرف كيف أصوغ شكراً أكاديمياً مناسباً، على هذه اللفتة الكريمة: إحدى أعرق الجامعات الأوروبية، جامعة لوڤان، تمنح شاعراً عربياً شهادة دكتوراة فخرية. ستكون كلمات الشكر احتفاءً بالمشترك الإنساني والجمالي الذي يحقّقه الشعر، واعترافاً بالخصوصية التي يزداد تجلّيها صعوبة... بعدما بلغت التقنيات الشعرية الحديثة مستوى من التطور والتجريب و«تدفّق الأسرار»، يهدّدنا بفائض التشابُه بيننا، وبين الشعر والنثر، وباغتراب الشعر والشاعر معاً عن مكانة أقلّ سعادة، في المجتمع.

لم يعد في وسعنا، في نهايات هذا القرن الشعري، أن نطبّق فوارق المستوى الثقافي والاجتماعي والعلمي بين العالم العربي والغرب،

(*) [كلمة الشاعر في احتفال منحه شهادة دكتوراة فخرية من جامعة لوڤان البلجيكية ـــ ١٩٩٨].

تطبيقاً أوتوماتيكياً على العلاقة بين مستوى تطوّر الشعر العربي الحديث وحركة الشعر العالمية الحديثة. ومن هنا، فإن الإصغاء إلى الشاعر العربي قد ينتهي إمّا بصدمة، وإمّا بخيبة أمل. ربما لأن هوية الشعر القومية لم تعد تعبّر عن نفسها إلّا بشكل خفيّ، أو مشهدي، أو عن حركة مختلفة في الزمن... أي في منزلة ملحقة بهوية الإنسان الإنسانية التي يقولها الشعر المولود من ماضي غربتنا الواحد على هذه الأرض.

بين غربة البدايات الأولى وبين الاستلاب المعاصر، مروراً بتغيّر النظرة الأولى إلى قدرة الشعر على تغيير العالم، يواصل الشعر حضوره كممارسة جوهرية، ويحقّق «عَوْلَمته» الخاصة به، عولمته المتحررة من هيمنة المركز، ومن خوف الأطراف على هوياتها المحلية.

هنالك حَسَدٌ طيّب تجاه مكانة الشاعر العربي المعاصر في مجتمعه. تلك المكانة التي شكّلت صورتها من زمن مضى تحتاج الآن إلى مراجعة وتدقيق. فهل ما زال العرب حقاً هم شعب الشعر، لأنهم لا يملكون من القوّة إلّا قوّة اللغة؟ إن مكانة الشعر العربي الحالية في تراجع أيضاً، في تراجع صحّي ومَرَضي معاً، بعدما فرض إيقاع الزمن العالمي الحديث انقلاباً عربياً في النظرة إلى الشعر وإلى نظام المعنى... حيث لم يعد مفهوم «الشاعر» ترجمة حرفية للمعنى العربي «العارف»، وحيث تبدّل مفهوم البطل، أمام إلحاح الرؤية الحديثة، لمصلحة الهامشي، العبثي، أو اليوميّ العادي البسيط.

بين الخوف من المدينة التي لم تنشأ بعد، وبين الخوف من القبيلة التي لم ترحل بعد. بين سؤال ما بعد الحداثة في مجتمع ما قبل الحداثة، باستثناء حداثة المؤسسة الأمنية، تتأزّم أسئلة الحداثة الشعرية

العربية وتتشظّى إلى حداثات لا يجمعها غير الشكل. بعضها يستجيب إلى انفتاح اللغة على التاريخ وعلى الواقع والقارىء. وبعضها يغلق اللغة على ذاتها بعيداً عن المعنى وعن الزمن.

لذلك سيبقى سؤال الحداثة في المجتمع العربي المطحون بأسئلة وجوده الأساسية سؤالاً متأزّماً وغريباً، إذا لم يوضع في سياق التحرّر. وهكذا لا يكون هناك ما هو أسوأ من الشعر السياسي، بمعناه المباشر، إلّا الإفراط في تعالي الشعر عن قضاياه السياسية، بمعناها العميق، أي الإصغاء إلى حركة التاريخ والمشاركة في اقتراحات المستقبل. فتلك هي سياسة مضادة تغيّب الشاعر عن فضائه الجيو ــ سياسي، وتعزله عن الكينونة المشتركة وعن المجتمع.

صحيح أن التحوّلات الاجتماعية المتسارعة، وهيمنة وسائل الإعلام، وانتهاك اللغة بتحويلها إلى لغة استهلاكية، قد أسهمت في تراجع الإصغاء إلى الشعر. ولكن الصحيح أيضاً هو أن الشاعر قد أسهم في هذه الظاهرة منذ أصبح مفتوناً إمّا بعزلته المعقّدة، وإما بجماهيريته البسيطة. في الحالة الأولى جعل الغموض صورة لـ «أنا» لا تحتوي غيرها ولا تذهب من الذات إلى العالم. وفي الحالة الثانية جعل الوضوح رسالة نهائية تقتل المتعة التي نبحث عنها في الشعر، وتترك القارىء عاطلاً عن العمل. هنالك، إذاً، ما هو أسوأ من الغموض المُعْتم، هو الوضوح التعليمي الذي يحرم القارىء من المشاركة في عملية الإبداع، وإعطاء حياة ثانية للقصيدة.

فهل نحن في آخِر الشعر؟ كلا. فما لا نعرف أوّله لا نعرف نهايته. ولكن الشعر أيضاً في حاجة إلى أزمات لكي يعرف ماهيته، ويتطوّر إلى ما لا نهاية.

شاعر الجميع

شموع كثيرة تُضاء لنزار قبّاني. لكنها أقلُّ من الشموع التي أضاءها الشاعر، طيلة خمسين عاماً، للعشاق وللمدافعين عن حرية الجسد والوعي والأرض. هو الشاعر الـمُتَفرِّد منذ قصيدته الأولى، حتى صار «ظاهرة شعبية» في الشعر العربي المعاصر، الذي أنزله من أبراج النُّخْبة وليالي الإلهام إلى متناول الأيدي، كالخبز والورد، حتى كاد أن يكون شاعر الجميع.

هو صاحب الحضور الأكبر في الوجدان العام. صاحب القصيدة ــ الأغنية الأكثر انتشاراً وتحريضاً على الحب والغضب، وعلى احترام الأناقة والجمال. ينتشر اسمه في الدفاتر الأولى ومطالع الرسائل، وفي إصغاء الجسد إلى حركة الملح الإيروسي في الدم... وفي ما يقوله الياسمين لأزقّة دمشق الغريبة في قرطبة، وينتشر على يد طفل فلسطيني تخدش ليل الاحتلال في القدس.

في عذوبته قسوة الحرير على الصدر الغضّ. وفي قسوته عذوبة

انتحار الأنهار في البحر. عاشق الثُّنائيات الحادة والألوان الساطعة. بَرِم بالرماديِّ وشروط الهدنة، وبجُنوح الشعر إلى الخروج من الحسيّ إلى المجرد. إذا كانت السماءُ موجودةً في كل مكان، فلماذا يبحث عنها خارج مصدرها الدنيويّ؟

في وُسْع نرجسه أن يتسلّل من صورته إلى الآخرين، فليس الحب إلّا تَعَرُّف الذات على ذاتها في حوارها مع آخر يخرجها من الصَّدفة إلى الوجود.

وهكذا يصبحُ تأمُّلُ النرجس في الماء مرايا لعُشّاق آخرين. ويصبح الشاعر مرجعية عاطفية لأجيال لا ترى في شعره تقلبات عواطفها أمام سَفَر العيون إلى الأزرق والأخضر والمجهول، بل تعثر فيه أيضاً على جدل الحب مع سؤال التحرر، تحرر الجمال والرغبة من سجن التابو.

مسكونٌ بالحرية إلى حدّ عشق الفوضى والتدمير، وهناك... على ضفاف المرأة، حيث يقيم الوطن المهدّد والمهان، يتسلّح النرجس الهشُّ بالمخالب والأشواك، وتعلو قافية السيف على المفردات، فلعلّ بمقدور هذا البريق أن يضيء ليل الوعي العربي المحدِّق إلى الهاوية. أهذا هو نزار قباني، صوت الحليب والزَّغب؟ هو.. هو عندما يغضب.

لعلّ سيرة نزار الشعرية اكتملت، الآن، أو منذ سنين. لقد ترافق اكتمالها مع وصول رحلة الوعد الجماعية بحثاً عن حرية الجسد والوعي وانفصال القبيلة عن المدينة، إلى مضارب قبائل جديدة، فاتخذ صراخ الشاعر شكل البيان المبحوح، المحبط إلى درجة استبدل معها الغناء بالهجاء، ولم يعد في حاجة إلى مفردات

جديدة، فغرف من قاموسه الذي أصيب بالإرهاق الجمالي من فرط ما حوّله التداول إلى ماركة مسجلة.

لذلك، لا يُقرأ نزار مُتَقَطِّعاً، أو قصيدة قصيدة. قراءته الأفضل هي أن يُقرأ أثره الاستثنائي في لغة الشعر التي نقلها من مستواها المفرط في الرصانة، أو الشعرية المتعالية، إلى مستويات لم تألفها من قبل، وأدرجها في لغة الحياة اليومية العصرية، فصار الشعر ملكية عامة، مصاحباً لأدوات التدبير المنزلي والجمالي، وتعبيراً سلساً عن العادي والمألوف والبسيط في الحياة والشعر والسياسة. لقد نزع عن الشعر هالته البعيدة، فأجرى المصالحة التاريخية الكبرى بين القصيدة وبين الطلبة الصغار، وربات البيوت، والموظفين، وأصحاب المهن... ورؤساء الدول.

لم ينتبه للنقد، أحدث قطيعته الكبرى مع بُنْية الشعر التقليدي المحافظ، دون أن يُطيل الإصغاء إلى إغواء الحداثة وأسئلتها الفكرية، لأن العتبة الواسعة بين مرحلتين تاريخيتين هي ساحته التي تتّسع له وحده لمواصلة التجديد والتطوير على طريقته الخاصة، وبلغته التي لم تكن في حاجة إلى توقيعه.

ولم ينتبه أيضاً إلى الغبار الذي تثيره خيولُهُ الجامحة، كتهمة الإفراط في جلد الذات، وتمجيد الذكورية الاستعلائية، إذ كان واثقاً من صواب قلبه، ومن أنه صنع للمرأة أكثر مما صنع بها. لم يعترف شاعر قبله، ومثله، بحقِّ المرأة في مثل هذا التعبير المباشر والصريح عن نفسها، عما يدور في خلَدها وفي جسدها من أفكار وأسرار. بيد أنه ليس شاعر المرأة وحدها، إنه شاعر الجميع.

سعدي في السبعين

منذ قرأت شعر سعدي يوسف، صار هو الأقرب إلى ذائقتي الشعرية. في قصيدته الشفّافة صفاءُ اللوحة المائية، وفي صوتها الخافت إيقاعُ الحياة اليومية.

وقد أُجازف بالظن أنه، ودون أن يكتب «قصيدة النثر» السائدة اليوم، أَحدُ الذين أصبحوا من ملهميها الكبار، فهي تتحرّك في المناخ التعبيري الذي أَشاعه شعر سعدي في الذائقة الجمالية، منذ أَتقن فَنَّ المزج بين الغنائية والسردية.

وهو أَحد شعرائنا الكبار الذين قادهم الشعر أَو قادوه إِلى التمرّد على تعالي اللغة الشعرية، وإِلى تأسيس بلاغة جديدة، ظاهرُها الزُهْدُ، وباطنُها البحث عن الجوهر... ليصبح الشعر في قصيدته هو الحياة بسليقتها وتلقائيتها، والحياة هي الشعر، حين تكتبه ذاتٌ ليست ذاتية تماماً. فقد تماهت الذات مع الموضوع، وتآلف الموضوع

مع الخصوصية الذاتية... دون أن يتخلّى الشاعر عن قدر من «حياد» موضوعي، يخفِّف عن القصيدة طابعها الأوتوغرافي، ويُوَفِّر لها استقلالاً عن سيرة صاحبها.

الشاعر أم القصيدة؟ ليس هذا سؤال سعدي يوسف، فقد بلغ من النضج خبرة قادرة على أن تجعل حياة الشاعر وحياة النَّصِّ واحدة ومنفصلة في آن واحد، فهو يعبِّر عن نفسه، ولا يعبِّر عنها وحدها، في اللقاء الحميم بين داخله الذاتي وخارجه الموضوعي في عملية مركَّبة يتبادلان فيها الأدوار.

سعدي يوسف، الذي يحاور نَصُّه الشعري تاريخ الشعر، لا يشبه شاعراً عربياً آخر. لكن الكثيرين من الشعراء أرادوا أن يشبهوا سعدي، وعانوا مما سمّاه هارود بلوم «قلق التأثير».

لقد بهرتني بساطةُ سعدي المعقّدة، في نزوعها إلى البحث عن شعرية الأشياء الصغيرة الكامنة في نثر الحياة، والبحث عن العلاقات السرية بين اليومي والتاريخي. وبهرني أكثر من ذلك إلحاحُهُ في محاولة الإمساك بالحاضر الهارب.

وإذا كان صحيحاً أَن في داخل كل شاعر مجموعة من الشعراء ــ كما يقول أوكتاڤيو باز، وأن النص هو محاورة مع نصوص أخرى، فإن سعدي يوسف كان أحد الشعراء الذين درَّبني شعرهم على التنقيب عن الشعري في ما لا يبدو أنه شعري، وأغراني بمقاومة الإغراء الإيقاعي الصاخب، وبالاقتصاد في البلاغة.

وكم سُئلت عن فترات بَيَاتٍ شعريٍ مررت بها، وكنت أَقول دائماً: ما دام سعدي يوسف يكتب، فإنني أشعر بأنه يكتب نيابةً عنّي!

صديقي منذ ثلاثة عقود. لم نتوقف عن صيانة المودّة المتبادلة، النادرة بين الشعراء، منذ التقينا للمرّة الأولى في بغداد. كان في آخر الليل متهوّراً يقود سيارة هرمة، كادت تسقط بنا في دجلة. كم خفت من موت عبثي ينتظرنا في قاع النهر. لكننا اليوم، نحتفل بعيد ميلاده السبعين. هو في لندن، وأنا في رام الله.

أتذكره في منافيه العديدة، في بيروت، وفي عدن، وفي نيقوسيا، وفي باريس، وفي عمّان... يعتني بأصص الصَبَّار.

لقد أدمن سعدي يوسف المنفى، فصار جزءاً عضوياً من حياته ومن لغته، لا باعتباره مكاناً جغرافياً تقيضاً للوطن فحسب، بل باعتباره مجالاً حيوياً لتعرّف الذات إلى نفسها في الآخر، وللتأمل في الأشياء الأولى من بعيد، وباعتباره ثيمة أدبية تعبّر عن غربة وجودية.

كنا دائماً نؤمن بأن الغد أجمل. لكن التاريخ يفاجئنا دائماً بخيبة أَمل جديدة، تغري الشاعر بمديح أمس. بيد أنَّ الشعر لا يمتثل إلى هذه المحنة، لأنه أدمن النظر إلى أبعد... وإلى أعلى!

آخر مرة / أول مرة(*)

... لن أتكلَّم عن كتابي الجديد، لأنّني ــ أولاً ــ لا أُحبُّ هذا النوع من النرجس. ولأنّني ــ ثانياً ــ لسْتُ من هؤلاء الشعراء الذين يدعمون مشروعهم الشعري بمشروع نظريّ شديد الإحكام، يُخضع حرّيتهم الإبداعية، وحرية القارىء في التأويل، إلى مفهوم كامل أو نهائي عن الشعر، وهو مفهوم تُعَرِّضُهُ أسبقيَّةُ الإبداع للتبدّل الدائم.

ولأنّ الشعر لا يتحقق إلّا بعد أن يحوِّل الشاعرُ «ما هو عام» إلى شخصي، ولأنّ الشعر يُحَوِّل، فور تحققه، كُلَّ ما هو شخصي إلى «عام»، فإن في وسع الشاعر أن يعترف دائماً بأنه لا يعرف كيف فعل ذلك أثناء الكتابة.

إنَّ صراع هذه القصيدة مع تجربة موت شخصي لم يكن في

(*) [كلمة الشاعر في حفل التوقيع على «جدارية» الذي أُقيمَ في رام اللّه].

حاجة إلى الإِشارة الواضحة إلى أن حياتنا العامة هي في حالة صراع جماعي ضد موت الهوية والمعنى. وإِنّ انتصار الشعر على الموت المجازي، منذ كان الشعر، ربّما يحمل دلالة قريبة أو بعيدة إِلى قيامتنا الجديدة.

بَيْدَ أنَّ مساحة أرض الصراع اتسعت، وخرجت من المكان المحدَّد والزمن المحدد، لتلتقي مع تساؤل الكائن البشري عن مأزقه الوجودي، عَبر أزليّة السؤال الأوّل عن الموت الأوّل، وعَبر تقاطع الميتافيزيقيا مع التاريخ.

لذا، في مقدورنا أن نجد الخاص في العام والعام في الخاص، دون أن نخسر شيئاً أوسع من ثقب الإبرة، وما حُدِّد لنا من حيّز ضيّق حرَمَنا من طرح أسئلتنا العميقة عن الوجود. صحيح أن الحرمان قد دفعنا إلى وضع جغرافيتنا الخاصة في مرتبة «المُقدَّس» الذي نرى من خلاله الكون. ولكن من الصحيح أيضاً أن نَتساءَل، شعرياً، هل من الممكن إِنجاز حداثة حقيقية دون أن نَحُول دون تحوُّل هذا المقدَّس إِلى عبء على الرؤية والرؤيا والمنظور؟

أكتب في كل مرة، كأنّني أكتب لأوّل مرّة، وربما لآخر مرّة. وسيكون عليَّ، وحدي، أن أسعى منذ الآن إِلى تجاوُز هذه القصيدة/ الكتاب، لا لشيء إِلّا استجابةً لنزعةٍ هدم المنجز ــ فالمنجز سجن ــ وللبحث عن الجديد ــ فالجديد أُفق.

فإِذا كان الشعر صراعاً ضد الموت، بتأويلاته ومستوياته المتعددة، فإِنه أيضاً صراعٌ ضد ذاته، ضدَّ موته الاختياري حين يصبح تقليدياً

ونمطياً ومألوفاً، وحين يطمئنُّ إلى أشكاله واستعاراته الجاهزة وخياله المُرَوَّض.

من هنا، أُرحِّب بمغامرات القطيعة، وبالتطورِ من داخل السياق وحتى من خارجه. القطيعة النسبية بين الأجيال، والقطيعة مع التقاليد الوطنية المعروفة في الشعر الفلسطيني، والقطيعة الممكنة بين الشاعر وتراثه الشعري الخاص والعام. فالشعر دائماً هو ما لا نعرفه، هو القادم المجهول. ولعلَّ أسوأ تعريف للشعر هو أن يُعَرَّف، فالمُعَرَّفُ ممتلك. ولعلَّ أجمل الشعر هو ما يغيِّر مفهومنا عن الشعر.

لكنّني سأُسْأَل: ما دام الأمر كذلك، فلماذا الجدارية؟ إنّ الجدارية هي العمل الفني الذي يُنْقَش، أو يُرْسَم، أو يُعَلَّق على جدار، ظنّاً ممن يفعل ذلك أنّ هذا العملِ جدير بأن يحيا، وبأن يُرى من بعيد... مكانيّاً وزمانيّاً. فهل أصابني مَسّ من هَوَس البحث عن الخلود حين اخترت هذا العنوان الذي يُذَكِّر، في سياق الشعر العربي، بمكانة المُعلَّقة؟

كلاّ. لقد استبدّ بي هاجسُ النهاية، منذ أدركت أنّ الموت النهائي هو موت اللغة. إذ خُيِّل إليَّ ــ بفعل التخدير ــ أنني أَعرف الكلمات وأَعجز عن النطق بها. فكتبتُ على ورق الطبيب: «لقد فقدتُ اللغة»... أي لم يبق مِنّي شيء. لم يبق مِنّي أكثر. فمَنْ أنا بلا لُغَة!

لذلك، لم أَتوقّع لهذا العمل أَن يُنجز. كان المعنى الوحيد لوجودي هو أن أَتمكّن من الكتابة للمرّة الأخيرة، وحين كتبتُ هذه القصيدة

طيلة العام الماضي، استبدّ بي هاجسُ نهايةٍ أُخرى: لن أَحيا لأكتبَ عملاً آخر. لذلك سمَّيته «جدارية» لأنّه قد يكون عملي الأخير الذي يُلَخِّص تجربتي في الكتابة، ولأنّه نشيدُ مديحٍ للحياة.

لكنّه، وما دامَ قد كُتِب، فإنّ عليه أن يَنسى قصّته وإدراكه أنّ الموت هو عذاب الأحياء. وما دُمْتُ قد عشتُ مرّة أخرى، فإنّ عليَّ أن أَتمرَّد على كتابي هذا، وأن أُحبَّ الحياة أكثر، وأُحبّكم أكثر...

مهنة الشاعر(*)

لستُ من الذين ينظرون إلى المرآة برضا. المرآة هنا هي انكشاف الذات في صورة صارت ملكية عامة... أي صار من حق غيرها أن يبحث عن ملامح ذاته فيها. فإذا وجد فيها ما يشبهه أو يعنيه من تعبير وتصوير، قال: هذا أنا. وإذا لم يعثر على شراكة في النصّ/ الصورة، أشاح بوجهه قائلاً: لا شأن لي!

كَمْ أخشى هذا التعليق الذي صار رائجاً في العلاقة بين الكثير من الشعر الحديث وبين أغلبيّة القُرّاء، منذ استمرأ الكثيرون من الشعراء توسيع الهُوَّة بين القصيدة وكاتبها الثاني: المتلقّي، الذي لا يتحقّق المشروع الشعري بدونه، وبدون تحرّكه في اتجاه النص. التّهَمُ متبادلة بين الطرفين. لكن أزمة الشعر، إذا كانت هنالك أزمة، هي

(*) [ألقيت هذه الكلمة في حفل التوقيع على كتاب «كزهر اللوز أو أبعد» في رام اللّه].

أزمة شعراء. وعلى كل شاعر أن يجتهد في حلّها بطريقته الإبداعية الخاصة.

أَعلَمُ أنني سأُتَّهم، مرة أخرى، بمعاداة شعر الحداثة العربية التي يُعرِّفُها العُصَابيُّون بمعيارين: الأول: انغلاق الأنا على محتوياتها الذاتية دون السماح للداخل بالانفتاح على الخارج. والثاني: إقصاء الشعر الموزون عن جنَّة الحداثة... فلا حداثة خارج قصيدة النثر. وتلك مقولة تحوَّلت عقيدةً يُكَفَّرُ مَنْ يقترب من حدودها متسائلاً. وكُلُّ مَنْ يُسَائِلُ الحداثة الشعرية عمّا وصلت إليهِ يُتَّهَم، تلقائياً، بمعاداة قصيدة النثر!

لم أَكُفَّ عن القول إن قصيدة النثر التي يكتبها الموهوبون هي من أهم منجزات الشعر العربي الحديث، وإنها حقَّقت شرعيتها الجمالية من انفتاحها على العالم، وعلى مختلف الأجناس الأدبيّة، لكنها ليست الخيار الشعري الوحيد، وليست «الحلّ النهائيّ» للمسألة الشعرية التي لا حلَّ لها، فالفضاء الشعري واسع ومفتوح لكل الخيارات التي نعرفها والتي لا نعرفها. ونحن القرّاء لا نبحث في التجريب الشعري المتعدِّد إلّا عن تحقُّق الشعرية في القصيدة، سواء أكانت موزونةً أم نثرية.

وأَعلم أيضاً أن مجموعتي الشعرية الجديدة، كسابقاتها، ستُزوِّد خصومي الكثيرين بمزيد من أسلحة الاغتيال المعنوي الشائعة في ثقافة الكراهية النشطة. سيُقال ــ كما قيل ويُقال ــ إنني تخلّيت عن «شعر المقاومة». وسأعترف أمام القضاة المتجهّمين بأنني تخلَّيت عن كتابة الشعر السياسي المباشر محدود الدلالات، دون أن أَتخلَّى عن مفهوم المقاومة الجمالية بالمعنى الواسع للكلمة... لا لأن

الظروف تغيَّرت، ولأننا انتقلنا «من المقاومة إلى المساومة»، كما يزعم فقهاءُ الحماسة، بل لأنّ على الأسلوبية الشعرية أن تتغيَّر باستمرار، وعلى الشاعر أن لا يتوقف عن تطوير أدواته الشعرية، وعن توسيع أفقه الإنساني، وأن لا يكرِّر ما قاله مئات المرات... لئلَّا تصاب اللغة الشعرية بالإرهاق والشيخوخة والنمطية، وتقع في الشّرَك المنصوب لها: أن تتحجّر في القول الواحد المعاد الـمُكرَّر. فهل هذا يعني التخلِّي عن روح المقاومة في الشعر؟

أَما من دليل آخر على المقاومة سوى القول مثلاً: سجِّل أنا عربي، أو تكرار شعار: سأُقاوم وأُقاوم؟ فليس من الضروري، لا شعرياً ولا عملياً، أن يقول المقاوم إنه يُقاوِم، كما ليس من الضروري أن يقول العاشق إنه يعشق. لقد سمَّانا غسان كنفاني «شعراء مقاومة» دون أَن نعلم أَننا شعراء مقاومة. كنا نكتب حياتنا كما نعيشها ونراها. وندوِّن أحلامنا بالحرية وإصرارنا على أن نكون كما نريد. ونكتب قصائد حبّ للوطن ونساء محدَّدات. فليس كل شيء رمزياً. وليس كل خَصْر شجرة نخيل خصر امرأة أو بالعكس!

لا يستطيع الشاعر أن يتحرَّر من شرطه التاريخي. لكن الشعر يوفِّر لنا هامش حريّة وتعويضاً مجازياً عن عجزنا عن تغيير الواقع، ويشدنا إلى لغة أعلى من الشروط التي تُقيِّدنا وتُعرقل الانسجام مع وجودنا الإنساني، وقد يُساعدنا على فهم الذات بتحريرها مما يُعيق تحليقها الحرّ في فضاء بلا ضفاف.

إن التعبير عن حقّ الذات في التعرّف إلى نفسها، وسط الجماعة، هو شكل من أشكال البحث عن حريّة الأفراد الذين تتكون منهم الجماعة. ومن هنا، فإن الشعر المعبِّر عن سِمَاتنا الإنسانية وهمومنا

الفردية ــ وهي ليست فردية تماماً ــ في سياق الصراع الطويل، يُمثِّل البعد الإنساني الذاتي من فعل المقاومة الشعرية، حتى لو كان شعر حُبّ أو طبيعة، أو تأمُّلاً في وردة، أو خوفاً من موت عادي.

ليس صحيحاً أنه ليس من حق الشاعر الفلسطيني أن يجلس على تلّة ويتأمَّل الغروب، وأَن يصغي إلى نداء الجسد أو الناي البعيد، إلَّا إذا ماتت روحه وروح المكان في روحه، وانقطع حبل السُرَّة بينه وبين فطرته الإنسانيّة.

وليس الفلسطيني مهنة أو شعاراً. إنه، في المقام الأول، كائن بشري، يحبُّ الحياة وينخطف بزهرة اللوز، ويشعر بالقشعريرة من مطر الخريف الأول، ويُمارس الحبّ تلبيةً لشهوة الجسد الطبيعة، لا لنداء آخر... وينجب الأطفال للمحافظة على الاسم والنوع ومواصلة الحياة لا لطلب الموت، إلّا إذا أَصبح الموت فيما بعد أفضل من الحياة! وهذا يعني أن الاحتلال الطويل لم ينجح في محو طبيعتنا الإنسانية، ولم يفلح في إخضاع لغتنا وعواطفنا إلى ما يريد لها من الجفاف أمام الحاجز.

إن استيعاب الشعر لقوَّة الحياة البديهية فينا هو فعل مقاومة، فلماذا نتّهم الشعر بالردة إذا تطلَّع إلى ما فينا من جماليات حسّيّة وحرية خيال وقاوم البشاعة بالجمال؟ إن الجمال حرية والحرية جمال. وهكذا يكون الشعر المدافع عن الحياة شكلاً من أشكال المقاومة النوعية.

هل أتساءل مرة أخرى إن كان الوطن ما زال في حاجة إلى براهين شعرية، وإن كان الشعر ما زال في حاجة إلى براهين وطنية؟ إن

علاقة الشعر بالوطن لا تتحدَّد بإغراق الشعر بالشعارات والخريطة والرايات. إنها علاقة عضوية لا تحتاج إلى برهان يومي، فهي سليقة ووعي وإرادة. ميراث واختيار. مُعْطىً ومبدع. ولكن الشعر الوطنيّ الرديء يسيء إلى صورة الوطن الذي يشمل الصراع عليه وفيه مستويات إبداعية لم ننتبه إليها دائماً.

لذلك، فإن حاجتنا إلى تطوير أشكال التعبير عن الجوانب الإنسانية في حياتنا العامة والخاصة، بتطوير جماليات الشعر، وأَدبيّة الأدب، وإتقان المهنة الصعبة، والاحتكام إلى المعايير الفنية العامة، لا إلى خصوصية الشرط الفلسطيني فقط، هي مهام وطنية وشعرية معاً، وهي ما يؤهِّل شعرنا للوصول إلى منبر الحوار الإبداعي مع العالم، فيصبح الاعتراف بقدرتنا العالية على الإبداع أحد مصادر الانتباه إلى وطن هذا الإبداع. فكم من بلد أحببناه، دون أن نعرفه، لأننا أحببنا أدبه!

هكذا تمّحي الحدود بين وطنية الشعر وبين نزعته الدائمة لاجتياز حواجز الثقافات والهويات، والتحليق المشترك في الأفق الإنساني الرحب، دون أن ننسى أن للشعر دوراً خاصاً في بلورة هوية ثقافية لشعب يُحارب في هويته.

نعم، على الشعراء أن يتذكروا كل العذاب، وأن يُصْغوا إلى صوت الغياب، وأَن يُسَمُّوا كل الأشياء، وأن يخوضوا كل المعارك. ولكن عليهم أيضاً ألّا ينسوا واجبهم تجاه مهنتهم. وألّا ينسوا أن الشعر لا يُعرَّف، أساساً، في ما يقوله، بل بنوعية القول المختلف عن العادي، وألّا ينسوا أن الشعر متعة، وصنعة، وجمال. وأن الشعر فرح غامض بالتغلُّب على الصعوبة والخسارة، وأنه رحلة لا تنتهي إلى

البحث عن نفسه في المجهول.

وأنا هنا، لا أُدافع عن كتابي الجديد الذي لم يعد لي. ولم أَعد أتذكر شيئاً منه، منذ خرج مني وأَدخلني في مأزق السؤال الفادح: ماذا بعد؟ بل أدافع عن حقّ الشعراء في البحث عن شعر جديد، يُنَقِّي الشعر مما ليس منه. فإن شقاء التجديد المتعثِّر أَفضل من سعادة التقليد المتحجِّر.

الولادة على دفعات(*)

نادراً ما أقرأ مقدمات الشعراء لأعمالهم، وإن فعلتُ ذلك فلكي أحتفي بالفارق الجميل بين ما يودُّ الشاعر أن يقوله عن قصيدته.. وبين ما تقوله قصيدته. فالقصيدة كثيراً ما تُفْلتُ من سياق التفكير بها ومن مشروعها الذهني، ولا تخضع خضوعاً كاملاً لوضوح الفكر الذي يُحركها. وكأنها، إذ تستقل في صيرورتها الذاتية، تستقل أيضاً عن شاعرها.

فماذا سأفعل بما هو مطلوب منّي بإلحاح: أن أقدم هذه المختارات؟

سأقول أيضاً: إن المختارات تنطوي دائماً على خدعة، ففي وُسع مَنْ يختار أن يصنع بشاعره ما يشاء: أن يختار البؤرة المشعة في

(*) [مقدمة المختارات الشعرية الصادرة عن دار غاليمار تحت عنوان «تضيق بنا الأرض»... وقصائد أخرى].

القصيدة تاركاً جانباً ما تُحدِّق إليه من ظلام، مهملاً سياقها العام... سياق القصيدة وموقعها من شعر الشاعر. وفي وسعه أن يفعل العكس: أن يختار منها طريقها النثري إلى الشعر. وفي وسعه أيضاً التركيز على صورة، أو استعارة، أو خلاصة، أو حكمة شعرية.. منحازاً إلى طريقته في فهم الشعر. وطبقاً لهذا الفهم الخاص نجعل من شاعر عاديّ شاعراً استثنائياً، ومن شاعر استثنائي شاعراً عادياً.. باستحضار البؤر المشعة أو باستبعادها.

وهكذا، يبقى السؤال مثيراً للشكوك: هل نستطيع التعرف إلى حقيقة الشاعر الشعرية من خلال المختارات؟ سيبقى الجواب نسبياً وقابلاً للتضليل. ولكن السؤال التالي هو الأصعب: هل نستطيع التعرف إلى لغة الشاعر الجمالية من خلال مختارات مترجمة من لغة إلى أخرى؟

غنيّ عن القول أن لكل لغة نظامها الدلالي وأسلوبيتها الخاصة وتركيبها النحوي. وبما أن اللغة في الشعر ليست وسيلة أو أداةً فقط لنقل المعنى، والمعنى في الشعر ليس سابقاً لبنية القصيدة، فإن على الترجمة أن تنقل ما ليس وسيلة للنقل أصلاً.. إلى نظام لغة أخرى. وهنا، لا يكون المترجم ناقلاً للكلمات، بل مؤلِّفاً لعلاقاتها الجديدة. ولا يكون مصوّراً لضوء المعنى، بل راصداً للظل ولما يومئ لا لما يقول. لذا، يتحول مترجم الشعر إلى شاعر موازٍ، متحرّر من نظام اللغة الأصل، يفعل في اللغة الثانية ما فعله الشاعر في اللغة الأولى.

في فسحة التحرر هذه، تُرتكَب الخيانة الجميلة التي لا بُدّ منها، الخيانة التي تحمي لغة الشعر المنقول من عِنَاد وطنيّتها، ومن

اندماجها الكامل في مناخ لغة أخرى، في آن واحد. فعلى الشعر أن يحافظ على نَفَسِه الإنساني العام، القادم من بعيد مشترك من ناحية، ومن ناحية أخرى، عليه أن يحافظ على ما يدُلنا على أنه مترجم، أي قادم من خصوصية تجربة أخرى، عبَّرت عن نفسها بتركيب لغوي مختلف وفي سياق مرجعية ثقافية مختلفة. ولعلّ ذلك هو ما يُغرينا بقراءة الشعر المترجم، لا للحوار مع المشترك والمختلف، والبحث عن غنى التجربة الشعرية الإنسانية وتنوعها فقط، بل أيضاً لفتح قابلية التأثر التي تحتاج إليه لغتنا الشعرية، أية لغة، لتجديد أسلوبيتها وبناء جملتها، عن طريق الإصغاء إلى تجربة لغة أخرى.

هنا، يمتلك المترجم/ المبدع سلطة البناء والهدم. فكم من قصيدة كبرى قرأناها بأكثر من ترجمة، فلم تكن هي ذاتها، لا بسبب تعدُّد مستويات قراءتها، بل بسبب تحكّم المترجم في مساراتها وطريقة تنفّسها، فلم تعد قصيدة شاعرها فقط، بل قصيدة مترجمها/ شاعرها المؤول أيضاً. ولا يهمنا في هذا المجال إن كانت أفضل من الأصل أو أسوأ.

كيف نُصدِّق الشعر المترجم إذاً؟

سنصدّق منه ما يتخفّى، وما يتحفّز للظهور، ذلك الظلّ المطلّ من خلف الكلمات، وربما ذلك البُعد الذي يشير إلى وجوده ويغيب.

وكيف نصدِّق المختارات التي اختارها الشاعر، وهنا، كيف تصدقونني؟

إن العنوان الثانوي لهذه المجموعة «مختارات شخصية» هو عنوان

مجازي، لأنها ليست شخصية تماماً. فلو كان الأمر متعلقاً بي وحدي، دون تدخُّل أيِّ اعتبار آخر، لما اخترتُ من شعري إلّا ما كتبته في العقدين الأخيرين. لأن كل عمل جديد لي ينزع إلى قطيعةٍ ما قائمةٍ على استمرارية. في كل عمل جديد محاولة لهدم ما سبق من خلال تطوير ما كان يبدو لي هامشياً وثانوياً، وتقريبه من المركز. ربما لأنني لا أسكن النهر، بل أقيم على الضفاف. وربما لأن الزمن يعلمني الحكمة، بينما يعلمني التاريخُ السخرية، أو ربما لأنني أكبر وأقترب من أسئلة ميتافيزيقية تتلاءم مع حيرة الوجود، وقد تحمي اللغة الشعرية من سرعة الراهن.

بيد أن صورتي العامة أقوى من قلقي. فأنا المسمّى «شاعراً فلسطينياً»، أو «شاعر فلسطين» مُطالب ـــ منِّي ومن شرطي التاريخي ـــ بتثبيت المكان في اللغة، وبحماية واقعي من الأسطورة، وبامتلاكهما معاً لأكون جزءاً من التاريخ وشاهداً على ما فعله التاريخ بي في آن واحد. لذا يتطلبُ حقي في الغد تمرداً على الحاضر، ودفاعاً عن شرعية وجودي في الماضي الذي زُجَّ به إلى المناظرة، حيث تصبح القصيدة دليلاً على وجود أو عدم. أما سُكّان القصيدة، فلا يكترث بهم مؤرخو الشعر.

حين بدأتُ الكتابة، كنتُ مسكوناً بهاجس التعبير عن خسارتي، عن حواسي، عند حدود وجودي المحدّد، وعن ذاتي في محيطها وجغرافيتها المحدّدين، دون أن أنتبه إلى تقاطع هذه الذات مع ذات جماعية. كنتُ أسعى إلى التعبير، غير حالم بتغيير أيّ شيء سوى نفسي. ولكن قصتي الشخصية، الاقتلاع الكبير من المكان، كانت قصة شعب كامل. لذلك، وجد القرّاء في صوتي الخاص صوتهم الخاص والعام. فعندما كتبتُ حنيني إلى خبز أمي وقهوتها، داخل

السجن، لم أقصد تجاوز تلك المساحة العائلية، وحين كتبتُ اغترابي في بلادي وشقاء الحياة والتوق إلى الحرية، لم أقصد إلى كتابة «شعر مقاومة» كما سمَّاه النقد العربي، ووجد فيه القرّاء العرب تعويضاً شعرياً مبالغاً فيه عن هزيمة العرب في ما سُمِّي بحرب الأيام الستة.

حين أتذكر الآن تلك المرحلة، أتذكر قدرة الشعر على الانتشار حين لا يطلب العزلة هدفاً ولا يطلب الانتشار أيضاً. فلا الانتشار ولا نقيضه يصلحان معياراً للحكم على جمالية الشعر. كما أن هنالك ما هو أسوأ من الشعر السياسي، هو الإفراط في تعالي الشعر على السياسة، بمعناها العميق، أي الإصغاء إلى أسئلة الواقع وإلى حركة التاريخ، والمشاركة الضمنية في اقتراح الأمل. فاللاسياسة هي أيضاً سياسة مبطنة.

من هذا المنظور، لا تستطيع هذه المختارات أن تخدع قارئها أو شاعرها، بفصل البدايات عما وصلت إليه تجربتي الشعرية الآن. وهكذا، لا أستطيع تحديد النقطة التي حدثت فيها القطيعة النسبية في سياق الاستمرارية، لأن العملية متداخلة متشابكة، ولأن كل مرحلة سابقة تحمل بذور تطور المرحلة اللاحقة.

يهمني كثيراً أن أطوّر شعري بطريقة نوعية. ولكن هل يمكن فصل ذلك عن الحالة التراكمية؟ لا أدري. وهكذا أرى في مرحلة المنافي امتداداً للصوت الذاتي/ الجماعي على أرض عمل أخرى، أوسع في الجغرافيا وفي التنوع الثقافي واللغوي، يرافقها تطوّر في المعرفة، وإعادة نظر دائمة في مفهوم الشعر، واقتراب من الإدراك الشعري للتجربة الإنسانية.

إن صَبْر المسافة، ومساحة التأمُّل من بعيدٍ ما، توفّر للشاعرية فرصة للتخفيف من درجة حماسة اللغة، وفرصة النظر إلى ذاتها وأدواتها بطريقة أبرأ وأهدأ من ناحية، وتُحملها من ناحية أخرى أعباء استحضار المكان بذاكرته وعناصره خالياً من الغبار ومن الروتين!

إنني شديد الإصغاء إلى حركة الزمن، وإلى إيقاعات المشهد الشعري العالمي، لا أتوقف عن التدرب على كيفية الاقتراب من توفير حياة خاصة للقصيدة بشرطها التاريخي وباستقلالها عنه معاً. ولا أتوقف عن تدريب القصيدة على الاقتراب من سُلالتها الأسطورية، لا بالاعتماد على رموزها فقط، بل بإنجاز بنيتها الأسطورية المعاصرة من عناصرها الذاتية.

ولكن، كيف للشاعر أن يُتقن الرحلة من داخله إلى خارجه، ومن خارجه إلى داخله، دون أن يغرق في «أناه» ودون أن يفقدها، بتحويلها إلى ناطقة باسم الجماعة، وكيف يحميها من قصْديَّة التمثيل؟

لعل مصدر الشعر واحد، هو هويتنا الإنسانية، من ماضي غربتها على هذه الأرض إلى حاضره المغترب. لقد وُلد الشعر من أولى أسئلة الدهشة عن وجودنا، من ذلك البعيد الذي تساءل فيه طفلنا الإنساني عن أسرار وجوده الأولى. من هنا لم تكن العالمية، منذ البداية، إلّا محلية.

في سياق السفر الواحد من الذات إلى العالم، في هذا السياق المتعدد اللغات والمناطق ودرجات التطور التاريخي، تتوحد التجربة الشعرية الإنسانية، وتحقق «عولمتها» الخاصة بها، متحررة من هيمنة المركز وتبعية الطرف، بإسهام كُلّ محلية شعرية في صوغ ما نسميه الشعر العالمي.

لكن، لا بُدّ للجهات من تسميات على ما يبدو. فماذا يعني أن أقول إن شعري قادم من الجنوب، من شرط تاريخي لم تتحقق فيه حرية الفرد ولا تحرر الجماعة، ومن بلد انكسرت فيه العلاقة بين المكان والزمان، وتحول فيه الكائن إلى شبح؟ إن ذلك لا يرمي إلى أكثر من الإشارة إلى مأزق الحداثة الشعرية العربية، على طريق الرحلة من القبيلة التي اندثرت خيامها إلى المدينة التي لم تنشأ بعد. ماذا تفعل الحداثة في مجتمعات عربية تعيش مرحلة ما قبل الحداثة؟ من الطبيعي أن تبقى هامشية ومجازية. ومن الطبيعي أيضاً أن تتشظّى إلى حداثات لا يجمعها غير الشكل.

ليس الغموض هدف الشاعر. لكنه ينتج من التوتر بين حركة القصيدة وبين ما يحركها من فكر، وعن التوتر بين حالتها النثرية وحالتها الإيقاعية، وهذا الغموض، الشبيه بإيماءات الظلال، هو أحد أشكال صراع اللغة الشعرية مع الواقع الذي لم يعد الشعر مشغولاً بوصفه، بل بالنفاذ إلى جوهره، وبصراع اللغة مع مرجعياتها. ولعل هذا النوع من الغموض هو الفضاء المفتوح لدور القارىء في منح القصيدة حياةً ثانية، إذ يُوَفِّر له دوراً إبداعياً في القراءة والتأويل، بدلاً من تلقي الرسالة كاملة نهائية. فليس هذا الغموض نقيض الوضوح، بل نقيض الوضوح التعليمي الذي يترك القارىء عاطلاً عن العمل.

ولكن، لا غموضي ولا وضوحي هو ما أنقذ شعري من القطيعة مع قارىء يجدّدني وأجدّده. فمن مفارقات تجربتي الشعرية أنها كلما طوّرت أدواتها التعبيرية وأسلوبيتها، حَفّزت قارئها إلى القبول بالمزيد من التجديد، فتقاربت ذائقة الشاعر والقارىء الجمالية. ربما لأن اقتراحاتي الشعرية تنبع من سياق تاريخ الشعر العربي وإيقاعاته ومن

داخل جماليات اللغة العربية. ومن المعروف أن القصيدة العربية الحديثة لم تصل إلى ما وصلت إليه الآن دفعة واحدة.

صحيح، أنه ليس هنالك من شاعر حقيقي يأذن لأي اعتبار خارجي، ولا لأي قارىء بأن يراقب عملية الكتابة الشعرية. لكن الشاعر قارىء شديد المطالبة. وهو القارىء الأول لنصه. وما تنقيح النصّ مراراً إلّا فعل قراءة كاتبة، يخضع لمعايير واعية لمدى ما في الذات الشخصية من لقاء مع ذوات أخرى.

لكل شاعر طريقته الخاصة، أو تقاليده، في الكتابة، وأنا من أولئك الذين يكتبون النص مرتين: في المرة الأولى تقودني سليقتي الشعرية ولا وعيي. وفي المرة الثانية يقودهما إدراكي لمتطلبات بناء القصيدة. وغالباً ما لا تشبه الكتابة الثانية صورة الكتابة الأولى، لا تشبهها أبداً.

إن أحد تدريباتي على امتحان قصيدتي هو أن أنساها لفترة طويلة. وحين أعود لزيارتها للتحقق من طبيعتها الشعرية أحكم عليها بمدى الشبه بينها وبيني. فإذا تعرفت إليها من الوهلة الأولى أدركتُ أنها تقلدني أو أنني أقلّد نفسي. أما إذا أحسستُ بأن شاعراً آخر هو الذي كتبها، متجاوزاً الشاعر الذي كنتُه، أدركت أنها قصيدة جديدة.

ولكن، من يعنيه هذا السر؟

إن ما يعنيني في هذه المختارات، التي شارك في اقتراحها عدد من الأصدقاء، هو أن تكون أمينة وصادقة في تمثيل تجربتي الشعرية وتطورها، زمنياً وجمالياً، كما هي في بحثها عن الشعر في

القصيدة، وفي بحثها عن القصيدة في الشعر.

قليلون هم الشعراء الذين يولدون شعرياً دفعة واحدة. أما أنا، فقد ولدت تدريجياً وعلى دفعات متباعدة. وما زلت أتعلّم المشي العسير على الطريق الطويل إلى قصيدتي التي لم أكتبها بعد.

يوميّات الحزن العادي

المحتويات

القمر لم يسقط في البئر

ــ ماذا تفعل يا أبي؟

□ أبحث عن قلبي الذي وقع في تلك الليلة.

ــ وهل تجده هنا؟

□ أين أجده إذن! أنحني على الأرض وألتقطه حبات حبات كما تجمع الفلاحات، في تشرين، حبات الزيتون.

ــ ولكنك تلتقط حصى!

□ شيء كهذا يمرن الذاكرة والبصيرة. وما أدراك، قد يكون هذا الحصى تكلس قلبي. وإذا لم يكن ــ أكون قد تعودت على محاولة البحث وحدي عن شيء حين ضاع ضيّعني. وإن مجرد البحث عنه دليل على أنني أرفض الاندماج في ضياعي. وعلى

الطرف الثاني من المحاولة دليل على أنني ضائع طالما لم أجد الشيء الذي أضعته.

ـــ وماذا تفعل أيضاً يا أبي؟

□ أعثر على الحصى الذي يشبه قلبي وأحوله بأصابعي الملتهبة إلى كلمات تجعلني في حوار مع البلد البعيد. نصير لغة قابلة للتجسيد.

ـــ ألا تقول كلاماً آخر؟

□ أقول لكنني لا أفهمه، وتصير المرأة التي أخاطبها غربة ثانية.

ـــ حين كنت صغيراً.. كنت تخاف القمر؟

□ يقولون ذلك. ولكن ليس صحيحاً أن الأطفال يخافون القمر دائماً.

.. لولاه لكنت يتيماً قبل أواني. لم يكن قد سقط في البئر. كان أعلى من جبيني وأقرب من شجرة التوت التي توسطت دار جدي. وكان الكلب ينبح عندما يقترب. وحين دوّت أول رصاصة دهشت لحفلة زفاف تحدث في المساء. وحين ساقوني إلى القافلة الطويلة رافقنا القمر إلى طريق عرفت فيما بعد أنها طريق المنفى. ولولاه ـــ كما قلت لك ـــ لضعت عن والدي.

ـــ ماذا تذكر أيضاً؟

□ أذكر أني تعلمت السفر وحدي في سن مبكرة. سافرت أمي

إلى عكا فغضبت لأنها تركتني. وكم كنت أحب عكا! كانت أبعد نقطة في العالم قبل سنين. وصارت الآن ــ ويا للمفارقة ــ أبعد نقطة في العالم مرة أخرى. كنت أحمل خمس سنين وأمشي على الشارع الأسود في اتجاه عكا.

ــ وكيف عرفت الاتجاه؟

□ كان الشارع المعبّد السائر نحو الغرب لا يعني إلّا السفر إلى عكا. كان الحرّ شديداً فبكيت من الشمس والعطش. وجلست مراراً لأستريح. فكرت بالعودة فخجلت من الهزيمة.

ــ ماذا كانت تعني الهزيمة لك؟

□ أن أطلب شيئاً ولا يتحقق. أن أبدأ ولا أكمل. وأكملت طريقي إلى عكا. ووقفت عند مدخلها أمام مفترق طرق. كان استخدام الاتجاه الذي جئت منه ساقطاً من حسابي. جربت الاتجاه الجنوبي فأوصلني إلى هضبة رملية تطل على البحر. ليست أمي هنا. فعدت إلى المفترق. جربت الاتجاه الشمالي، فكان يقود إلى بيروت. وليست أمي هناك. فعدت إلى المفترق. جربت الاتجاه الغربي فأوصلني إلى قلب المدينة. دخلت مكاناً وطلبت ماء، فأسقوني وسألوني عمن أبحث فقلت: أبحث عن أمي.

ــ كيف يبحث طفل قروي عن أمه في مدينة مزدحمة؟

□ كما فعلت أنا. كنت واثقاً من أنني سأجدها بين آلاف الوجوه، ولولا خوفي من المساء الذي صار يقترب لما عدت إلى القرية وحدي. ولكن طفلاً في الخامسة لا بد من أن يهزم. عدت

إلى مفترق الطرق واستعملت الاتجاه الذي جئت منه خائباً. خشيت من الليل القادم من السهل فوقفت على حافة الشارع. وقفت سيارة شحن وسألتني إلى أين أنا ذاهب، فقلت إلى البروة. كانت أمي في البيت، وكان أهل البيت والجيران يبحثون عني في كل آبار القرية. حين يضيع الطفل فلا بد أن يكون قد سقط في بئر. بكت أمي وبكيت معها، وحين أكملت فرحتها ضربتني، فأخذني جدي وأعطاني حلوى.. وانتهى سفري الأول.

هذا هو طعم عكا الأول. دائماً أبحث فيها عن شيء لا أجده. فتشت فيها عن أمي، فكانت قد عادت إلى القرية. وبعد سنين فتشت فيها عن حبيبتي، فكانت تزف إلى رجل آخر. وفتشت فيها عن عمل، فكان الفقر يلاحقني. وفتشت فيها عن شعبي فوجدت الزنزانة والضابط الوقح. كانت آخر حدود العالم، وأولى المحاولات والخيبة. وكان سورها يتآكل في الزمن.

ــ تذكر شيئاً آخر عن بداية العالم؟

□ أذكر شكلاً غامضاً ساعدني على الاستعانة بالخيال والحلم. كان الواقع يتعرض لعملية انقطاع قبل أن يأخذ شكله النامي في وعيي. وفي ظروف لاحقة كان لزاماً عليَّ أن أعود إليه لأحتفظ بوجودي، فكان الحلم هو المكمّل. وهذا ما يجعلني في حالة حلم دائم محدوداً بمبررات الضرورة، لا منطلقاً بأجنحة الوهم المترف. تصير الأرض صخرة وعصفوراً في آن واحد. فالواقع على حالته الراهنة ــ حتى وإن لم يكن قانونياً ــ لا يعود جزءاً منك بدون رباط الحلم الذي يصير أكثر واقعية من شجرة ثابتة. والحلم على حالته العامة ــ وإن لم يكن مترفاً ــ لا يعود حافزاً لك بدون

ارتباط بصخرة مهما تغيّرت أشكالها. صحيح أن الأشياء لا تكون مقدسة إلى هذا الحدّ إلّا إذا كانت حالتها محكاً لانتمائك إلى الوجود، إلّا إذا كانت موضع صراع. ولكن كونك محروماً منها ليس هو الحيوية الوحيدة لثمنها العزيز إلى هذا الحد. وإلّا، فكيف نفهم إقدام فقراء البلدان المستلبة على الموت في سبيل العودة إلى فقر قديم؟ ثمة شيء ننساه في زحمة التسابق على حفظ الجُمل الثورية الجميلة. هذا الشيء هو الكرامة البشرية. ليس وطني دائماً على حق. ولكنني لا أستطيع أن أمارس حقاً حقيقياً إلّا في وطني.

ـ لماذا تتحاشاني.. هل تبتعد عن الأيام القديمة؟

□ لأفسر لك أني لا أدافع عن سعادة قديمة، ولا أتغنى بتعاسة ماضية. ليس للعمال وطن؟ ولكن للمحرومين من الوطن وطناً. ومن حسن حظنا ـ ربما ـ أن وطننا حق وجمال. إنه لم يأخذ هذا الشكل اللاذع في جماله من إسقاطات حرماننا عليه. إنه حلم في واقعه وواقع في حلمه. نحن لا نشتاق إلى قفر. ولكننا نشتاق إلى جنة. نشتاق إلى ممارسة إنسانيتنا في مكان لنا.

ـ قف عند هذه النقطة!

□ لقد وقفت حياة آلاف الضحايا والشهداء عند هذه النقطة. لم يكونوا مخدوعين. بعضهم ما رآه، فمات من عدوى الحب. ولكن الخارطة ليست على خطأ دائماً، وليس التاريخ على خطأ دائماً. لماذا اجتمع الأنبياء والفقراء والغزاة على حبه حتى درجة القتل؟ إن الرقصة الجنسية التي يمارسها البحر الأبيض المتوسط مع خاصرة الكرمل تنتهي بولادة بحيرة طبريا. وهناك بحر، سموه البحر الميت

لأنه ينبغي أن يموت شيء في هذه الجنة لكي لا تصبح الحياة مملّة. ومن شدة ما ازدحم الجليل الأعلى بالغابات، كان لا بد أن تبرهن القدس على أن الصخور قادرة على امتلاك حيوية اللغة. هذا هو وطني. ولم يكن والد صديقي المقيم في بيروت يبالغ حين شمَّ تفتّح أزهار الليمون في بيارات يافا في موعدها.. ومات.

ــ هو الفردوس المفقود؟

□ احذر هذا المصطلح. لأن القناعة به تسليم بحالة قانونية ووجودية بلغت حدّ النهاية. الفرق بين الفردوس المفقود بالمعنى المطلق وبين الفردوس المفقود بالمعنى الفلسطيني هو خلو حالة الحنين والانتماء النفسي والشرعي من منطقة الصراع. ما دام الصراع قائماً، فإن الفردوس لا يكون مفقوداً، بل يكون محتلاً وقابلاً للاستعادة. لا أعني الارتكاز على مفهوم خسارة المعركة، وعدم خسارة الحرب الذي ينطوي على دفاع عن النفس أمام خسارة المعركة. ولكني أعني أنه ليس بوسع الفلسطيني أن يعامل وطنه بهذا المفهوم، كما يعامل العرب الأندلس، وكما ينتظر المؤمنون الجائزة. إن بين فلسطين والأندلس فرقاً يشبه الموت. وأن بعض السياح الثوريين ممن ينظرون إلى المسألة من زاوية التشابه حسن النيّة وسيىء النتيجة ينطلقون من موقع الجمالية الشكلية وضبط التضامن. إنهم سيبكون أكثر منك لو سلمت بهذا التشابه وحاصرت حقوقك ووجودك بسياج الحنين الملهم. ولكن حين يلجأ الحنين إلى البندقية تعبيراً عن بعد المسافة بين فلسطين والأندلس، فستجد هؤلاء السياح المغرمين ببكائيات الشعوب القديمة يحتجون على انتهاك جمال الانسجام التاريخي. إن فكرة الفردوس المفقود تغري المفتقرين إلى موضوع مؤثر ولكنها تصيب الحالة الفلسطينية

بتراكم الدموع وفقر الدم. وهذا هو تفوق وطني على الجنة، لأنه يشبهها ولأنه ممكن.

ــ ألم تقف، يوماً، على هذه الحافة حين وجدت نفسك خارج ملكية الطفولة؟

□ قبل هذا، لا تملك الطفولة دعوى في المكان. ليس المكان الذي ولدت فيه هو دائماً وطنك، إلّا إذا كانت ولادتك جماعية وطبيعية. إذا كانت الولادة فردية واصطناعية، فإن المكان يكون صدفة. وذلك ما يشكل الفرق التاريخي بين ولادة محمود ويسرائيل في مكان واحد الآن. أن يتناسل غزاة في أرض الآخرين لا يؤلف حقاً وطنياً لهم. ولكن أن يتناسل شعب في وطنه هو ديمومة الوطنية وشرعيتها. والحيلولة القسرية دون تكامل هذا الوضع الآن، بسبب النفي، لا تغير شيئاً حاسماً في تركيب الأشياء. أي أن تكامل معادلة الولادة لا يتم إلّا إذا كان نتيجة زواج الشعب والأرض والحق. الولادة المعادية تتم الآن نتيجة علاقة بين غزاة وسيف وتوراة. ومن هنا، لا نخشى تحول مفاهيم الحق في هذه الحالة.

معنى ذلك كله أنني لم أجد نفسي خارج ملكية الطفولة. وقد ساعدني على عدم الاقتراب من الإحساس بهذه الخسارة المعادل الآخر للوضع الذي توقف فجأة ولكنه لم يتغير في وجداني، لأن رحيلي لم يكن اختيارياً. لم يكن سفراً. كان نفياً وطرداً. ذلك المعادل كان مجابهة مع ظروف قاسية في المنفى لا ينحصر الحل في رفضها ومقاومتها من داخلها بل في العودة إلى جذوري.. التي تبدأ من التساؤل عما أوصلني إليها. نحن الآن في سن أكبر،

وبوسعنا أن نعترض على ظاهرة رد البؤس الفلسطيني إلى ظروف المنفى الداخلية وحدها، فذلك يشكل انتصاراً لأسباب المنفى ومسببي النفي حيث استطاع المجرم أن يوقع بين الجرحى وإدارة المستشفى. لا أقول هذا لأشيد بحسن الإدارة وصحتها، بل للتذكير بأن الغزاة يجب ألا يغيبوا عن البال حين ننشغل بجزئيات العمل الداخلي بيننا.

لم تكن قادراً على لجم الغضب حين كان أترابك في المنفى ينبهونك إلى أنك فلسطيني، وليس من حقك أن تتفوق في الدروس. كانت تلك الإهانات أول مفاتيح وعيك بحالة ستسيطر على كيانك بعد بضع سنوات، تفهم عندها أن قضيتك لا تنحصر في المطالبة بمساواة في الحقوق والحصول على مزيد من الخبز في ظروف طارئة. ولكنك في السن المبكرة إياها تلمست، بشكل غريزي، أن خلاصك من الإهانة يتم في تخلصك من الظروف التي سببت لك الإهانة. وكانت تلك بداية ارتباطك الضروري ــ لا الصدفي ــ بعالمك الأول. فتحولت قريتك الغامضة ذات الأزقة الضيّقة الواقفة على مرتفع صغير في سهل عكا، إلى حلّ لمشكلة لا تفهمها. ومن هنا، صارت أشياء الطفولة المتروكة هناك والعودة للاحتفاظ بها، أسلحة تبرهن بها على تشابهك العادي مع الآخرين، وأدلة على امتلاكك لشروط إنسانية لا تشكل سبباً لتعرضك إلى الإهانة. وكان إحساسك بهذا البرهان يلتهب، بشكل خاص، في أيام الأعياد. كان الأطفال الآخرون يرتدون الثياب الجديدة ويتحدثون عن طعام العيد. وكنت تقف مع أبيك وجدك في طابور الشحاذين لتحصل على حصتك من طعام ولباس لا تعرف مصدره.

ـــ متى حدث ذلك؟

□ في عام ١٩٤٩. بعد عام على الرحيل.

ـــ ولماذا لم يحدث في عام ١٩٤٨.. في عام الرحيل؟

□ آه. كنا سياحاً يومها. كان جدي يحمل كيساً كبيراً من النقود، وينزهنا في لبنان. يأخذنا إلى كروم التفاح لنختار الفاكهة المعلّقة على الشجر، ويأخذنا، كل أسبوع، إلى بيروت التي كانت أول مدينة أراها بعد عكا. لم تكن هجرة.. كانت سفراً ونزهة. كنا ننتظر انتصار الجيوش العربية على الغزاة خلال أسابيع ونعود بعدها إلى البروة. لم نسكن مخيماً، مررنا في رميش، ثم بتنا ليلة في بنت جبيل التي ازدحمت بصراخ المنفيين وكانت حظيرة بشرية. كانت الليلة الثانية التي نبيتها خارج البيت. الليلة الأولى كانت في أحد مضارب البدو في الجليل حيث أكل عشرات من «الضيوف» بيضاً مقلياً من إناء واحد. وفي جزين ـــ حيث أقمنا ـــ رأيت السواقي التي تسكن البيوت، ورأيت الشلال. وحين اشتد البرد هناك انتقلنا إلى الدامور وعبرنا كروم الموز، ولعبنا على الشاطىء، وسبحنا في البحر. عبرت الشارع الواسع يوماً قبل أخي الذي لحق بي، فضربته سيارة لم تصبه بجروح ولكنها أصابته بذهول لم ينج منه إلّا بعد سنين. وكان جدي قارئاً جيداً للصحف التي وعدته بالعودة القريبة. وكنا نتحلق حوله وهو يقرأ الأخبار بنبرة عالية ونظارة نازلة. وكانت الجريدة تنقله من حزم الأمتعة إلى التريث قليلاً ومن ثم إلى الانتظار، حتى لاحظنا وهناً بطيئاً يزحف إلى نبرته التي أخذت بالانخفاض ونظارته التي أخذت بالارتفاع إلى مكانها الطبيعي. وفي ليالي الشتاء كان

إخوان الغربة والسمر يتبادلون الرأي حول المعارك الدائرة على أرض فلسطين، وقرأوا عن سقوط البروة.

ـ ألم تسقط من قبل؟

□ سقطت ليلة واحدة، ثم حرّرها أصحابها الفلاحون بأسلحتهم البدائية وبمساعدة من القرى المجاورة. وفور تحريرها استعدوا لجمع الحصاد الذي كان ينتظرهم على البيادر. ولكن جيش الإنقاذ استولى على القرية، بعد تحريرها، ولا نعرف كيف استلمها اليهود بعد ذلك.

بعد عشرين سنة، وبعد سقوط مدن عربية كثيرة لم تعجب آرائي التي عبّرت عنها بلغة عبرية لصديقي، رجلاً كان يجلس في المطعم، فانبرى للدفاع عن الظلم الإسرائيلي بذريعة ظنّها مفحمة. قال لي إنك لا تعرف العرب ولو كنت تعرفهم لما تكلمت عن العدل بهذه اللهجة. طلبت منه أن يزيدني علماً، فقطّب حاجبيه وسألني إن كنت قد سمعت بقرية اسمها البروة، قلت: لا، فأين هي؟ قال: لن تجدها على سطح الأرض، فقد نسفناها ومشطنا أرضها من الحجارة ثم حرثناها وأخفيناها تحت الأشجار. قلت: لإخفاء الجريمة؟ احتجَّ مصححاً: بل لإخفاء جريمتها تلك الملعونة. قلت: وما جريمتها؟ فقال: لقد قاومتنا.. حاربتنا. كلّفتنا خسائر كثيرة واضطررنا إلى احتلالها مرتين. في المرة الأولى، كنا نتناول طعام العشاء، وكان الشاي ساخناً، ففاجأنا الفلاحون واستردوها منا. كيف نقبل هذه الإهانة؟ أنت لا تعرف العرب وها أنذا أقول لك.

حين أخبرته أنني عربي وأنها قريتي حاول الاعتذار بلباقة شاقة وحدّثني عن السلام. ثم دعاني لزيارة دكانه الذي يعرض فيه للمزاد العلني الأمتعة والأدوات المنزلية المسروقة من مدينة القنيطرة.

بعد أيام، كانت مستوطنتان يهوديتان تحتفلان باليوبيل الفضي لنشوئهما على أراضي البروة. وكنت أتحدث في مؤتمر صحافي عن الظلم اللاحق بالعرب، فتصدى لي مراسل صحيفة «الاستيطان». لوحّت له بنبأ الاحتفال، فحاول الاعتذار بلباقة شاقة وحدّثني عن السلام.

هكذا هم.. يرتكبون الجريمة وينفونها. وحين تواجههم الضحية ينحرفون بالكلام إلى السلام.

«وأعطيتكم أرضاً لم تتعبوا فيها. ومدناً لم تبنوها، فأقمتم بها، وكروماً وزيتوناً لم تغرسوها، وأنتم تأكلونها».

ــ وهل حدث أن زرتها بعد ذلك؟

□ حين أدرك جدي أن وجودنا في لبنان ليس سفراً ولا نزهة، وأن الحرب انتهت بسقوط كل شيء، وأدرك أن الكروم التي غرسها يأكلها اليهود، وهي تتحول في يده إلى بطاقة الإغاثة، بدأ يشعر أن الخروج خطأ. صار يعي الغربة والنفي، فلجأ إلى استرداد الآمال المعلّقة على الجيوش بضرورة استرداد انتمائه الواقعي إلى أرضه بحضور عملي. هذه الصدمة التي خلقتها خيبة الاعتماد على سلاح يحمله آخرون ــ وأنت أعزل إلّا من الحق، خلقت «وعي التسلل» إلى الأرض المحتلة مهما كان الثمن والنتيجة، من أجل تحقيق الحضور والتخلص من الإهانة. تسللنا في الليل الوعر

تحت خطر الموت. لم نذهب سوية خوفاً من تفكك العائلة في حالة تعرض قافلة المتسللين إلى الخطر. التقينا بعد ليلتين من الزحف المضني في قرية هناك. ها نحن مرة أخرى في فلسطين. هذه هي العودة. لم نعرف أننا سنستبدل اللجوء في لبنان باللجوء في الوطن. ولم نعرف أن حضورنا الجسدي في الوطن هو غياب في القانون الذي وضعه الغزاة بسرعة بالغة . سمونا «الحاضرين الغائبين»، كي لا يكون لنا حق في شيء. ولكننا عرفنا أن آلافاً من العائدين كانوا يوضعون ــ فور إلقاء القبض عليهم ــ في شاحنات عسكرية ويقذف بهم إلى الحدود كما تقذف البضائع الفاسدة. وكنا نعرف أن مئات منهم قتلت بالرصاص كي تكف عن محاولة التفكير بالعودة. وعرفنا أن زوج خالتي ــ مثلاً ــ تسلل من لبنان منذ ذلك الحين ولم يصل حتى الآن. أيهما أكثر إيلاماً: أن تكون لاجئاً في أرض سواك أم أن تكون لاجئاً في أرضك! هذا سؤال يطرحه على الدوام القهر النفسي الذي يخلقه الواقع الإسرائيلي حين يرى المواطن العربي المحراث الإسرائيلي وهو يغوص في ترابه وجسده، لاستخراج الحنطة والعنب من أجل القادمين من كل أنحاء العالم، وهو يمنع من مجرد الحج إلى أرضه، هل يكون التراب قدسياً إلى هذا الحدّ؟ بالنسبة للفلسطيني نعم. تحاط القرى بسياج من الأنظمة العسكرية يكلف اختراقها سجناً وغرامة. والقرى التي عوقبت بالهدم ــ وهي عشرات ــ إما بسبب خصوبة أرضها وإما بسبب مقاومتها السيف الطالع من التوراة ــ يمنع أصحابها من الاقتراب منها مهما طرأت تغييرات على سياج الأمن الإسرائيلي. من هنا، كان الوصول إلى القرية مستحيلاً. اكتشفنا أن العودة لم تكن حلاً لمسألة معيشية ولا حلاً لاغتراب نفسي. ولكنها كانت تعميقاً للحضور الذاتي وبديلاً للنفي الاختياري

ومجازفة في الاقتراب من أصول الحق والهوية. هذه هويتي وما أشد اغترابي. ولكن اغترابي هنا إيجابي لأن مصدره خارج عن إرادتي ولأنني حاضر. والحرقة التي تشحن علاقتي بالتربة المقدسة الممنوعة تتحول إلى طاقة للرفض. وعلى الطريق من دير الأسد إلى عكا تقف البروة على الهضبة إياها. لم تدلني عليها اللائحة التي تحمل اسماً آخر. دلّتني عليها شجرة الخروب الضخمة التي بدأت منها البحث عن أمي قبل سنين. ودلّتني عليها حبات قلبي التي اكتنزت بالمطر والحنين. ليس المكان مساحة فحسب. إنه حالة نفسية أيضاً. ولا الشجر شجر. إنه أضلاع الطفولة. كان البكاء ينهمر من أطراف أصابعي أيضاً. ومرّت سيارة الباص بسرعة. وعند العودة تجددت أحزان طفولتي. هذا الحلم الواقف أمامي، لماذا لا أرتديه مرة لأقول وصلت إلى اللذة القاتلة؟! إن الجنود يحرسون الحلم، وسأدخله حين ينامون؟

ــ وهل ناموا.. ودخلت؟

□ حدث ذلك في وقت لاحق. لم يعد البكاء لائقاً بمن هم في مثل سني. كنت أختبر قدرتي على مواجهة الطفل الذي تركته هنا في السابعة من العمر. صار الشوك أطول مني ومنه فضعنا معاً. لم نعد نعرف أيّنا سيعثر على الآخر. ولكنني لم أر، من قبل، عصافير بمثل هذه الألوان الخضراء والزرقاء. جرحتني شوكة حادة، ففرحت لأنها نقطة الوصول. كنت غارقاً في الإحساس بالحج، ولكن لم أجد الكعبة. من أعطى الأرض هذه الوحشية إلّا الهجر؟ كبرت أشجار الصبّار التي رمى الإنكليز أبي فيها وقطعوها عليه بالفؤوس، فأخرج الطبيب من جلده مائة شوكة غير التي اختفت في اللحم. من أكثر حظاً يا أبي؟ ذاك الذي أكل الشوك وواصل تربية

الأرض، أم ذاك الذي جاء إلى الأرض فلم يجد إلّا الشوك؟ وهذا الراعي الصغير الذي أدهشته تحيتي: من أين أنت؟ من اليمن؟ أخبرته أنني من هذه القرية، فظنني رومانياً لأنه يعتقد أن هذه الأطلال آثار قرية رومانية.

«وإذا رحلنا إلى منطقة فيها من الحيوانات البرية ما ليس اليهود متعوّدين عليه، مثل الأفاعي الكبيرة، سأستخدم أهل البلاد ــ قبل أن أعطيهم أعمالاً في البلدان المجاورة ــ ليقضوا على مثل هذه الحيوانات وسأعطي جوائز كبيرة لمن يأتي بجلد الأفاعي وبيضها» هكذا قال هرتسل.. ولعل هذا الراعي القادم من اليمن يحسبني أبحث عن أفعى.

واصلت طريق الشوك والحجارة القديمة بحثاً عن الطفل الذي تركته هنا. لم أجد شجرة التوت التي كان يتسلقها ولا الساحة التي كان يضيع فيها. لا شيء.. لا شيء إلّا هيكل كنيسة ضاع منها الجرس. دخلت الكنيسة، فكانت الأبقار تجترني بكسل. ما عاد بوسعي أن أرضى بالأطلال تجسيداً للحلم، لأن انتمائي لم يعد غريزياً.. صار أكثر وعياً، وصار مضمون الحلم ــ لا انفجاره ــ هو قضيتي.

ــ لم تقل لي لماذا خرجتم. لماذا لم تصلوا إلى هذه القناعات إلّا بعد هذه الخسارة؟

□ أبي يقول إنهم لم يفهموا ماذا يحدث. كانت معركة عابرة مضمونة النتيجة كما تصوروا. كان الخروج من القرى تخليصاً للجسد من الموت دون أن يقابله معنى التنازل عن الأرض. لم

تكن فكرة الوطن تحتاج ــ على ما يبدو ــ إلى الاجتهاد الفكري والتعبئة الجماعية والتخطيط. لم يكن المنزل والكرم والمحراث مسلحين، ولم تكن الدعوة إلى البقاء ــ على ما يبدو ــ جزءاً من المعركة لأنها لم تكن محددة القوى والأبعاد، هل يعني ذلك أن الحسّ الوطني كان رديئاً؟ كلاّ. بدليل أن الفلاحين كانوا يتطوعون للجهاد من تلقاء أنفسهم وبدوافع وطنية خالصة. ولكن التنظيم كان هو الرديء. وكان الانطباع الشائع ــ أو الخديعة إذا شئت ــ يقول أن الخروج مؤقت، لأيام معدودة. فلماذا يموت الأطفال والشيوخ والنساء بهذا الشكل المجاني إذا كان الخروج المؤقت يضمن سلامتهم ويضمن النصر معاً؟ إن الإسرائيليين يأخذون من خروج العرب ذريعة للادعاء بغياب حسّ الانتماء إلى الوطن والافتقار إلى الجدارة بوطن تخلوا عنه بسهولة. والإسرائيليون لا يخدعون إلّا أنفسهم حين يصدقون ادعاءهم، فقد قابلوا الانطباع الشائع بأن الخروج مؤقت ببنادقهم وخناجرهم التي أضافت سبباً قوياً لدفع العرب إلى الخروج. ووضعوا أمامهم الاختيار التالي: إما الموت، وإما النزوح لعدة أيام. وإن تفريغ فلسطين من العرب لم يكن إجراء طارئاً استدعته ظروف، بل كان خطة ثابتة في استراتيجية العمل الصهيوني قبل إنشاء إسرائيل، وخلال الحرب، وبعدها. وقد نفّذوها بالعنف المسلّح، ووجدوا فتوى دينية في مثال يهوشع بن نون وفي أن «يوم الرب هو يوم إرهاب» ووجدوا فتوى سياسية لها في أمثلة تطبيقاتهم. ومناحيم بيغن هو الذي قال: «لولا النصر في دير ياسين، لما كانت هناك دولة إسرائيل». ولم يخفوا الغاية من مذبحة دير ياسين، وقتها، حين طافت سياراتهم تعلن في مكبرات الصوت الاختيار التالي: إما أن تخرجوا وإما أن يحدث لكم ما حدث في دير ياسين. وفي كل القرى التي احتلوها، فيما بعد، كانوا يجمعون

السكان في الساحة ويبقونهم ساعات تحت الشمس، ثم يختارون أجمل الشباب ويقتلونهم على مرأى من أهل القرية، لكي يضعوهم أمام الاختيار ولكي تصل أنباء المجزرة إلى القرى التي لم تحتل بعد ولكي يفرغوا أحقادهم التاريخية المكبوتة. ووجد الإسرائيليون أيضاً فتوى قانونية تقول أن العرب باعوا أراضيهم. ومن المؤسف أن تلتقي قناعات عربية معينة مع هذه الكذبة الإسرائيلية، دون أن يحاول أصحاب هذه القناعات معرفة أن اليهود لم يملكوا حتى عام ١٩٤٨ أكثر من ٦ بالمائة من مجموع أراضي فلسطين.

ــ وأنتم .. فاذا فعلتم بأرضكم؟

□ اسأل عما فعلت بنا الأرض؟ قتلت جدي من القهر والانتظار. وشيبت أبي من الكدح والبؤس. وأخذتني إلى الوعي المبكر بالظلم. كان جدي ملاكاً موفور الحال. وحين حدث ما حدث، وصار هو «حاضراً غائباً» كان يقضي أيامه أمام مكتب الحاكم العسكري في انتظار تصريح سفر إلى مدينة عكا لا لشيء إلّا ليرى أرضه من خلال نافذة سيارة الباص. يقضي يومه في قراءة الجرائد ويقضي ليله في التأمل واستعادة الذكريات.. وينتظر. هو الذي رباني وكنت أحبه أكثر من أبي الذي كان مشغولاً بالضنى واستخراج الخبز من مقالع الصخر. علّمني جدي القراءة ومساحة الأرض وأعمار الزيتون. وكان يشتري لي كتباً من عكا ويأخذني إلى أصدقائه ليفاخر بالطفل الذي يقرأ الجريدة والكتب ويحفظ الشعر القديم، ولا يخطىء إلّا في قراءة سورة يس. يقرأ لهم من سيرة عنترة والزير وروايات جرجي زيدان التاريخية إلى أن ينام. وفي الصباح أذهب إلى المدرسة التي لا تسجل اسمي لأن أبي غير مسجل في ملفات الحكومة. من ذهب إلى لبنان وعاد بعد عام أو

عامين لا يعود مواطناً. ومن جاء من وارسو بعد ألفي سنة يملك الحق والوطن!

وفي ساعة متأخرة من الليل يدق ضابط الشرطة باب البيت الطيني بعصاه، ويوقظ الأسرة المؤلفة من الجد والجدة والوالدين والأبناء الأربعة ــ وكلهم مكدس في غرفة واحدة هي الصالون وغرفة النوم والمطبخ. يتوجه الضابط إلى الجدّ ليسأله: هل عاد أبناؤك من لبنان؟ يعترف الجد «بالجريمة»، ويسوق الضابط الأب والعم إلى الاعتقال بتهمة التسلل إلى بلادهما!

ولم يتوقف جدي عن ممارسة الأمل، فانتقل إلى قرية أخرى قريبة من أرضه. وذات صيف احتال على القانون، فاستأجر من تاجر يهودي موسم البطيخ المزروع في أرضه. وهكذا أتيحت الفرصة لصاحب الأرض أن يشتري ما تنتجه أرضه. وكان جدي قليل الدراية بالتجارة، فخسر الصفقة ولكنه ربح فرصة للتمدد ساعات طويلة في حقله القديم. وشرح لي، تحت الشمس، تاريخ هذا التراب الذي لا تجد فرقاً بسيطاً بينه وبين جلده. كان تعلق جدي بشكل الانتماء الوطني المتجسد في ملكية التراب وحنينه إلى إعادة الصلة المقطوعة، قانونياً، والمتلاحمة، تاريخياً ووجدانياً، أقوى من البؤس المفاجىء الذي تعرض له نتيجة حرمانه من مصدر رزقه. فلو كان انتماؤه معيشياً لحل المشكلة بفك هذا الانتماء الذي سيضمن له الرخاء. ولكنه آثر الحرمان على بيع الأرض، لم تعد الأرض تعني بالنسبة له مصدر العيش كما كانت قبل أن تتحول إلى شرط الكرامة. صارت تعني له الآن، بعد مصادرتها، مصدر البؤس المعيشي من ناحية وصيانة الكرامة الشخصية والوطنية من ناحية أخرى. وقد فضل المعنى الثاني ومات على مرأى من ساحة الجريمة

والعذاب «لن أبيعهم أرضي حتى لو مت جوعاً»، وقد أورث هذا المعنى لأبي الذي كان امتحانه أقصى وأعنف. إنه يعيل أسرة من ثمانية أفراد تسكن بيتاً من الطين لا يصلح حظيرة لحيوان مدلل. ولا مصدر رزق للأسرة الكبيرة التي تطالب بالأكل والثياب والدواء والكتب غير انتحاره البطيء على مقالع الحجارة، يصحو في الخامسة صباحاً ويعود في الخامسة مساء إلى النوم ليصحو قادراً على مواصلة العذاب اليومي. كان المقلع بعيداً في منطقة سموها منطقة مناورات عسكرية، وكان الوصول إليها يقتضي التوقيع على وثيقة الموت التي تحمل تنازل حاملها عن حياته وإهداءها إلى دولة إسرائيل في حالة تعرضه للموت.

نصحوه ببيع أرضه ليخفف من عبء لا يحتمله «لن أبيع ولو مت بين الصخور». كان يقول دائماً: ليس العمل الأسود عيباً ولكن الضمير الأسود هو العيب. كنت في السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية حين ألقيت قصيدتي الأولى على جمهور كبير جمعه أعوان الحكم العسكري للاحتفال بذكرى قيام إسرائيل. قلت كلاماً ضد الحكومة والانتصار وضد الظلم والاستعمار، فجنّ جنون مختار القرية المسؤول عن الاحتفال وقال: هذا الصبي جاء ليخرب بيتنا بعدما خرب بيته وبيت أهله. لماذا لا يراعون أصول الضيافة..؟ وغيره من الكلام الذي نسمعه الآن. وفي اليوم التالي استدعاني الحاكم العسكري واسمه دوف، فوبّخني وضربني فما بكيت. وحين قال لي: سأمنع أباك من العمل في مقلع الحجارة وأقطع عنه تصريح الموت، بكيت في طريق العودة إلى البيت، لأن هذا معناه أن أزداد جوعاً وبرداً، وألّا أنتقل إلى المدرسة الثانوية ذات التكاليف الباهظة، فليس التعليم مجانياً كما يظن البعض. وفي البيت شجّعني أبي وقال الله يرزقنا. كان أبي بطل الصبر والأمل ولم يزل.

وكانت عين الماء شحيحة في القرية وما عندنا مال لاستئجار بئر. واللاجئون ملعونون في بلادهم وخارج بلادهم. لا يعطينا أحد ماء بالمجان إلّا السماء أيام الشتاء. فكانت أمي تقضي نصف نهارها في انتظار امتلاء الجرة من عين الماء التي تعطي قطرات بخيلة. كانت جميلة وقاسية تنشر الرعب في البيت. وحين تكون وحدها تبكي بلا مناسبة وبلا انقطاع وتهدهد أختي الصغيرة بأغان شجية تذكر فيها سوء الطالع والحنين إلى أشياء ضائعة كأنها مزامير بدائية. لم تذهب يوماً إلى أعراس القرية ولكنها أول من يذهب إلى جنازة في القرية والقرى المجاورة. عاجزة عن الفرح قادرة على البكاء. وبارعة في السخرية.

وكان عمي ينفّذ وعد هرتسل، فيعمل أجيراً عند سكان المستوطنة التي قامت على أرضه وأرض أبيه، في أعمال البناء والترميم والفلاحة وغيرها من الأعمال السوداء «التي لم يتعود عليها اليهود» ولا يحصل على جائزة لأنه لم يحمل لهم جلد الأفاعي وبيضها، ولكنه كان يسرق عنقوداً من العنب من الدالية التي غرسها وصارت ملك اليهود. وفي المساء يجمع أهل البيت ليوزع العنقود حبة.. حبة.

هكذا، آثروا جميعاً، بالفطرة والكرامة، أن يبقوا في وضع خانق طال توقيته، لأنه يحفظ لهم الحق في سعة العالم والغد، على أن يستريحوا قليلاً مقابل التنازل عن قطعة أرض تفقدهم عالمهم الذي ليس لهم.. وليس لأعدائهم، ولكنه لأبنائهم.

ــ وماذا أخذتَ عنهم؟

□ المعاني ذاتها ولكن في إطار مختلف. كان انتظارهم سلبياً، وكانت الأرض تعني لهم تفاصيل من التراب والكروم وملكية تصون الكرامة والعيش. أما بالنسبة لأبناء جيلي فإنها تعني ـ بالإضافة إلى ذلك ـ ساحة صراع ومستقبل. فالحنين طاقة إنسانية غير متحركة. إنه سلاح سلبي. وقد أخذ الصراع أشكالاً متدرجة أولها الرفض والإيمان بالقدرة على التغيير، ثم الصراع ضد القوى والظروف التي جعلت مواطناً بلا وطن، في إطار عمل جماعي لا يحاصر نفسه بالذكريات، بل يطلقها باستشراف حياة أخرى عن طريق الممارسة اليومية. الانتماء إلى الأرض ـ الوطن لا يحقق فعالية إلّا إذا ارتبط بانتماء إلى قوة من قوى الصراع. هكذا أدركنا في جيل مبكر.

ـ كان هذا ممكناً؟

□ في إطار الاختيارات المحدودة.

ـ من أين كان يأتي الأمل؟

□ من الخارج.. من الخارج دائماً، إن الأسرى يصارعون ضمن إمكاناتهم. ولكن تحطيم السجن كلياً لا يأتي إلّا من النافذة: وكانت النافذة أوسع في البداية، لأن الأخوة كانوا أقرب.

ـ من أين يأتيك الحزن؟

□ من مسام جلدي.

ـ ومن أين يأتيك الفرح؟

□ من بكاء الأطفال القادمين إلى الجحيم، ومن أحذية المقاتلين الذاهبين إلى الجنة.

ـ تذكر متى افترقنا؟

□ حين مات جدنا ولم يدفن في قبر اختاره. ولم تخجل الإذاعة.

ـ ولماذا تذهب إلى العالم دائماً؟

□ أنا لا أذهب إلى العالم. ولكن العالم هو الذي يأتي إليَّ دائماً.. ويحاصرني.

ـ متى نلتقي ثانية؟

□ حين تدق جدار صدري وتقفز منه لتجلس في مواجهتي كعادتك. ولكن لا تكثر من زياراتك.. أرجوك. لا ينقصني حزن وبراءة.

ـ تقتلني؟

□ حين يقتل الإنسان طفولته ينتحر. وأنا بحاجة إليك كشهادة على جيل. لا تأتِ كثيراً لأن البشاعة تملأ المدن. وأصدقائي يموتون كثيراً هذه الأيام.

ـ لا تنسني.

وعاد إلى صدري ليتسلق جذع شجرة التوت في ساحة البيت القديم، ويقطف القمر الذي لم يسقط في البئر.

الوَطن... بين الذاكرة والحقبة

١

□ ما هو الوطن؟

الخريطة ليست إجابة. وشهادة الميلاد صارت تختلف. لم يواجه أحد هذا السؤال كما تواجهه أنت. منذ الآن وإلى أن تموت، أو تتوب، أو تخون. قناعتك لا تكفي، لأنها لا تغير ولا تفجّر ولأن التيه كبير. ليست الصحراء أكبر من الزنزانة دائماً. وما هو الوطن؟ ليس سؤالاً تجيب عنه وتمضي. حياتك وقضيتك معاً. وقبل ذلك وبعد ذلك ــ هو هويتك. من أبسط الأمور أن تقول: وطني.. حيث ولدت. وقد عدت إلى مكان ولادتك ولم تجد شيئاً. فماذا يعني ذلك؟ ومن أبسط الأمور أن تقول أيضاً: وطني.. حيث أموت. ولكنك قد تموت في أي مكان، وقد تموت على حدود مكانين. فماذا يعني ذلك؟ وبعد قليل.. سيصبح السؤال أصعب.

لماذا هاجرت.. لماذا هاجرت؟ منذ عشرين عاماً وأنت تسأل: لماذا هاجروا؟ ليست الهجرة إلغاء للوطن. ولكنها تحويل المسألة إلى سؤال. لا تؤرخ الآن. حين تفعل ذلك تخرج من الماضي. والمطلوب هو أن تحاسب الماضي. لا تؤرخ إلّا جراحك. لا تؤرخ إلّا غربتك. أنت هنا.. هنا. حيث ولدت، وحيث يأخذك الشوق إلى الموت. وما هو الوطن؟ ولكنك جزء من كل، والكل غائب، ومعروض للإبادة. ولماذا صرت تخشى القول: إن الوطن هو المكان الذي عاش فيه أجدادي؟ لأنك ترفض ذريعة أعدائك. هكذا يقولون.

ــ ماذا تعلمت في المدرسة؟

□ «سلام على العصفور العائد من بلاد الشمس إلى نافذتي في المنفى. أخبرني أيها العصفور عن حال أهلي وأجدادي».

ــ والأغنية السابقة؟

□ ألغوها.

ــ ماذا كانت تقول الأغنية التي ألغوها؟

□ عليك مني السلام.

يا أرض أجدادي

ففيك طاب المقام

وطاب إنشادي.

لا فارق كبير بين الأغنيتين، غير الفارق بين الحنين القادم من بعيد والحنين الطالع من قريب. كلتا الأغنيتين تعلن الحب للأرض ذاتها. وكلتاهما تحدد مفهوم الوطن بالانتماء إلى الأجداد. الأولى ـــ لشاعر يهودي عاش في روسيا. والثانية ـــ لشاعر عربي عاش في فلسطين وما رأى المنفى وما سمع به. بعد قليل، تغلبت الأغنية الأولى على الثانية، وصار الشاعر الثاني يغني الحنين البعيد. وصار الفتيان العرب الباقون في بلادهم محرومين من التغني بقصيدة شاعرهم. وصار طريقهم إلى المستقبل مرهوناً بإتقان أغاني الشاعر اليهودي الذي كان يقيم في روسيا. والمعلم العربي الذي يجرؤ على تلقين أغنية حب الوطن مطرود من العمل بتهمة التحريض على دولة إسرائيل وبتهمة اللاسامية. ثم كبرنا قليلاً، فعلمونا ملاحم ذلك الشاعر الصعبة، ولم نأخذ من المتنبي إلّا «فيك الخصام وأنتَ الخصم والحكم».

هم الخصوم والحكام..

وهم الذين يحددون لنا «ما هو الوطن»:

«تخرج مع موسى من مصر هارباً. تضرب البحر بعصا. ينشقّ البحر. يمر بنو إسرائيل، ثم يلتهم البحر أعداءهم. تبقى في صحراء سيناء أربعين عاماً. تتصالح مع الرب. وتعود..».

هم الخصوم والحكام.

وهم الذين يحددون لنا «ما هو الوطن»:

«جلس تيودور هرتسل وفكّر بمصير شعبه المضطهد. ألَّف الفكرة الصهيونية التي هي الطريق الوحيد إلى أرض الخلاص الوحيد.. لن يحقق اليهود ذواتهم ولن يقدروا على القيام بتنفيذ الرسالة التاريخية للبعث اليهودي إلّا بالعودة إلى وطن الأجداد.. إلى فلسطين».

وحين تسأل المدرس عن مصير الشعب العربي الفلسطيني وعن وطنه، يهمس في أذنك أن تكف عن المخاطرة وعن التطاول على قدسية التاريخ. ولكن، حين يكون المدرس يهودياً يترجم لك ما قاله حاييم وايزمن في مجلس السلام في باريس عام ١٩١٩: «إن أرض إسرائيل يجب أن تكون يهودية كما أن إنجلترا إنجليزية». وحين تلح عليه بالسؤال عن مصير العرب الفلسطينيين يطمئنك إلى أن وايزمن قد أضاف: «أن الصهيونيين لن يدخلوا أرض إسرائيل كالغزاة. لن يطردوا أحداً».

لن يطردوا أحداً...

٢

لا تسأل أستاذ التاريخ. لقمة عيشه يأخذها من الأكاذيب. وكلما ابتعد التاريخ، عادة، كلما اقتربت الكذبة من البراءة، وقلّ أذاها. وأستاذ التاريخ هذا يعرفك جيداً. على بعد خمس دقائق من المدرسة يخرج شارع من عكا إلى الشرق في اتجاه صفد. وفور خروجك من عكا تبدأ غابة زيتون صغيرة تحيط برابية مطلة على سهل منبسط أخضر. على هذه الرابية، ولدت قبل قليل. ما زالت طفولتك قريبة من كل شيء.. من الرابية ومن السهل ومن الشارع الأسود ومن طلقات الرصاص الأولى. لولا القمر، ليلتها، لفقدوك

إلى الأبد، واستبدلوك بشيء آخر، كما فعلت أم من حيفا ليلة غاب القمر. هجم الرصاص والرعب على منزلها فتناولت شيئاً حسبته طفلها وقفزت إلى أقرب زورق. في البحر الذاهب إلى عكا اكتشفت أن الطفل وسادة ومن يومها، أصيبت بالجنون. كم طفل تحول إلى وسادة. وكم وسادة تحولت إلى طفل. وما هو الوطن؟ وطن الأم طفلها ووطن الطفل أمه. «والفلسطينيون باعوا أراضيهم وهاجروا» ــ هكذا يقول الأصدقاء والأعداء على السواء. الموت ليس استشهاداً حين يكون بالمجان. ودير ياسين لم تكن دعاية عربية كما يقول البعض الآن. أن تطلب من شعب أعزل أن يموت ليس تحديداً صحيحاً لمفهوم الوطن. ليست هذه حرباً ولا كفاحاً هذه مجزرة. والذين يقولون الآن أن الفلسطينيين باعوا وطنهم كانوا يعتبرون البقاء في الوطن خيانة. وكانوا يعتبرون الحرب نزهة والرحيل رحلة.

وليلتها، لم تفهم شيئاً، سألت أباك، فنهاك عن السؤال لأنك صغير، وضعوك في قرية مجاورة. وذهبوا. وأستاذ التاريخ ينبئك بأنهم لم يطردوا أحداً. وفي جنوب لبنان تصبح لاجئاً تأكل من وكالة الغوث، وتنتظر العودة. وفي جنوب لبنان تعرف، للمرة الأولى، ما هو الوطن. هو هذا الشيء الضائع. هو هذه العودة المنتظرة. وحين تعود بعد عام أو عامين إلى ذلك الشيء الضائع تكتشف أنك أصبحت ضائعاً.

لا تخبر أحداً أنك كنت في لبنان.

أين كنت إذن؟

في مضارب البدو شمال فلسطين.

بعد قليل، تصبح كلمة فلسطين ممنوعة. اسمها إسرائيل الذي حمله موسى بعدما شق البحر بعصاه.

ـ وماذا لو قلت إني جئت من لبنان.

ـ لأنك عدت متسللاً والدنيا تغيّرت. لن نحصل على بطاقة هوية. في كل أسبوع جنازة في القرية. الفلاحون يعثرون على جثة هنا وجثة هناك من هؤلاء المتسللين الذين أكلتهم البراري والبرد والرصاص. وأستاذ التاريخ يقول لك إن اليهود لن يطردوا أحداً... وحين تسأله: كيف تكون إسرائيل يهودية كما تكون إنكلترا إنكليزية دون أن يطردوا العرب، ينهاك عن الأسئلة ويقول لك: التاريخ تاريخ، والسياسة سياسة. وعلى بعد خمس دقائق من هذه القرية، يخرج شارع من عكا إلى صفد. هذا الشارع، بالنسبة إليك، ليس طريقاً ولكنه حدود تفصل أرض غربتك ولجوئك عن أرض وطنك. الجانب الجنوبي من الشارع أرض أبيك وجدك يستثمرها مهاجرون جاءوا من اليمن. في اللحظة التي وصلوا فيها إلى أرضك حددوا مصيرهم ومصير أبنائهم. وفي الوقت ذاته حددوا مصيرك. في اللحظة التي صاروا فيها مواطنين صرت أنت لاجئاً. إذا وطئت قدماك هذه الأرض ـ أرضك ساقوك إلى المحكمة، ومن المحكمة إلى المنفى. وحين تناقشهم يتهمونك بالعدوان حيناً وبالخيال آخر. وهنا، تفهم للمرة الثانية ما هو الوطن؟ هو الشوق إلى الموت من أجل أن تعيد الحق والأرض. ليس الوطن أرضاً. ولكنه الأرض والحق معاً. الحق معك، والأرض معهم. وحين امتلكوا الأرض بالقوة صاروا يتحدثون في الحق

المكتسب. كان «حقهم» تاريخاً وذكريات. وصار أرضاً وقوة. وأنت بلا قوة ـــ فقدت التاريخ والأرض والحق.

٣

«اسمع.. يأتي المهاجرون، ويأخذون هذه الأرض، وتصير جميلة.

«نفتح حانوتاً، ونبني مدرسة، وكنيساً. وستكون هنا أحزاب، وسنتناقش حول عدة أمور. سنحرث الحقول ونزرعها ونحصدها. وتحيا خزعة العبرية! ومن سيتصور أن خربة خزعة كانت هنا. طردناهم وورثناهم. جئنا، أطلقنا النار، حرقنا، نسفنا، ونفينا».

ليس هذا كلاماً عربياً. إنها صرخة ضمير نادرة أطلقها أديب إسرائيلي قبل أكثر من عشرين سنة، تعطي تحديداً دقيقاً لحقيقة مفهوم الوطن. ترد على التاريخ وعلى أستاذ التاريخ. هكذا قام «الوطن» الإسرائيلي: لا بالحق، ولا بالتاريخ، ولا بالهرب من الاضطهاد. بالعنف وحده: طردناهم وورثناهم. أحرقنا ونسفنا ونفيناهم. ولكن الصرخة نادرة وسط ضجيج الدعاية والأكاذيب. وحين تسير، معهم، بالمنطق حتى منتهاه يعترفون. ولكنهم يختتمون المناقشة بهذا التقرير الدائم: لا مفر. وينتظرون الزمن كي يحول الاعتداء إلى حق يعتاد عليه الناس.

وليست خربة خزعة هي المكان الوحيد. فلسطين كلها ترجمت على هذا النحو، إن الإسرائيلي يسكن بيتاً مسكوناً بالأشباح، ولكن انصرافه إلى البرهنة على جدارته بالوطن وعلى صدّ كل ما يعيق انتماءه يجعله أصم ويحرر ضميره من التساؤل عن فظاعة الطريقة التي تشكلت بها ذاته. ومع مرور الأيام، تنكمش صورة

العربي وتذوب. كانت عبئاً على الضمير، ثم تحولت إلى ديكور طبيعة ثم استقرت على صورة عدو لا بد من إبادته، ولا حق لها بالوطن.. لا حق على الإطلاق.

خلال حرب حزيران/ يونيو، فوجيء كثير من الجنود الإسرائيليين بأن الفلسطينيين يحملون ذاكرة. وبأنهم يتذكرون وطناً ضاع. وأكثر ما فاجأهم هو أن الأطفال الذين ولدوا بعد ضياع الوطن ما زالوا متعلقين بهذا الوطن. وروى جندي إسرائيلي أنه حين دخل أحد مخيمات اللاجئين وجد أن السكان لا يزالون يعيشون بالطريقة ذاتها التي كانوا يعيشون بها في قريتهم السابقة. إنهم موزعون وفقاً لما كانوا عليه. القرية ذاتها والشارع ذاته. وقد اهتاج الجندي.

لماذا؟

ـ كنت عاجزاً عن الفهم. لقد مرّت تسع عشرة سنة وما زالوا يقولون: نحن من بئر السبع!

وقال لي جندي شاعر إنه لم يشعر بأنه غريب في فلسطين يوماً واحداً في حياته إلّا حين دخل إحدى القرى العربية في الضفة الغربية بعد الحرب الأخيرة. كان في الزيّ العسكري. ورأى طفلة في الشارع تنظر إليه نظرة جعلته يشعر بالزلزال. من عيون الطفلة التي لا يستطيع شرح نظراتها أدرك أنه محتل. لم يخفِ الجندي دهشته من رفض عيون الطفلة. قال: هذه الطفلة.. من أين جاءت بالذاكرة؟ ومن علّمها أن لها وطناً.. من علّمها!

صراع بين ذاكرتين!

الذاكرة اليهودية تشكل إحدى الدعاوى الأساسية لادعاء الحق في

فلسطين. ولكنها عاجزة عن الاعتراف بحق الآخرين في التمتع بحاسة الذكريات. والإسرائيلي يرفض التعايش مع الذاكرة الفلسطينية، ويرفض الاعتراف بهذه الذاكرة. على الرغم من أن أحد شعاراتهم القومية شعار «لن ننسى». ومن قضايا التعليم الإسرائيلي الأساسية والأولى في سلّم الأولويات الصهيونية إبقاء الوعي العام في حالة من التذكر الدائم كنقطة استقطاب للمشاعر الوطنية، كانوا يقولون دائماً: «لتنسني يميني إذا نسيتك يا أورشليم». وبعد الكارثة التي تعرض لها يهود أوروبا على أيدي النازية أصبح الشعار الأساسي عندهم: «لن ننسى.. ولن نغفر». وفي كل عام، يحيي الإسرائيليون ذكرى ضحاياهم. تتعطل كل مرافق الحياة في إسرائيل. وهناك متاحف خاصة وتعليم خاص وبرامج خاصة لتذكير الجيل الجديد بالكارثة. وفي كتاب «الإسرائيليون» لعزريا إيلون فصل خاص عن هذا الموضوع، يقول فيه: «إن إحياء ذكرى الكارثة يُقر، في نظر الجيل الصاعد، إحدى فرضيات الصهيونية الكلاسيكية، وهي أن اليهودي بدون وطن سيبقى حثالة بشرية وفريسة للحيوانات الشريرة». ويعترف الكتاب بأن السياسة الإسرائيلية تستغل الكارثة لأغراض ابتزازية.

إن الثقافة الإسرائيلية تلحّ على إشباع المواطنين بذكريات كارثة أوروبا لتعميق إحساسهم بغربتهم وعزلتهم عن العالم. ويشكل هذا الإحساس عنصراً جوهرياً في بنية النفسية والمزاج الإسرائيليين. ومن هنا، تكون تنمية الذاكرة الإسرائيلية مكرّسة لغرض سياسي محدد: الإلحاح على الإسرائيلي بأنه دائم التعرض للإبادة، وأن العودة إلى «أرض إسرائيل» والصمود فيها هو الأمان التاريخي والسياسي الوحيد، ولتعميق الدعوى الصهيونية على فلسطين.

ليس من واجب اليهودي، وحده، ألّا ينسى مذابح النازية. كل الناس الذين لم تمت ضمائرهم، وكل أصدقاء الحرية يشاركون ضحايا النازية إحياء الذكرى واستخلاص العبرة. وخاصة عندما يتكرر التشابه التاريخي بين النازية وبين حركات عنصرية في عالمنا اليوم. ومهما بلغت درجة العداء الإسرائيلي ــ العربي، فليس من حق أي عربي أن يشعر بأن عدو عدوه صديقه، لأن النازية عدوة كل الشعوب. هذا شيء.

ولكن تمادي إسرائيل في تفريغ أحقادها بشعب آخر.. هو شيء آخر. فالجريمة لا تعوض بالجريمة. وأن يطالب الفلسطينيون وسائر العرب بدفع ثمن جرائم لم يرتكبوها لا يمكن أن يكون تعويضاً عن الكارثة. إن الإسرائيلي يباهي الدنيا بأنه رائد اللجوء والغربة في التاريخ، حتى حوّل هذه الصفة إلى ميزة وامتياز. ولكن من يملك حاسة اللجوء والغربة أصبح عاجزاً كل العجز عن إدراك هذه الحاسة لدى الآخرين. وليس من القسوة أن نقول إن سلوك الإسرائيليين الصهيونيين ضد شعب فلسطين الأصلي هو تطبيق متشابه للممارسة النازية ضد اليهود أنفسهم. وليس من القسوة أيضاً أن نقول إن سلوك الإسرائيليين والحركة الصهيونية في علاقاتها الدولية يوحي بملاحظة أنها تتاجر بدم الضحايا اليهودية. بالمال والعتاد اللذين تأخذهما ثمناً لضحايا النازية تقتل شعباً آخر. ومن هنا، ليس من القسوة أيضاً القول أن الطريقة التي تحيي بها إسرائيل ذكرى ضحايا النازية تتّسم بالابتزاز، لأن الهدف السياسي من إشباع الإسرائيلي بحسّ الكارثة مكرّس لإشباعه، في الوقت ذاته، بالحاجة إلى الانتقام لا من قاتله.. بل من ضحية أخرى هي الشعب الفلسطيني. إن الصهيوني الوقح لا يخجل من الاعتزاز بأن فقدان ستة ملايين يهودي ــ إذا صحّ الرقم ــ قد أعطاه وطناً!

٤

لا يعترفون بحقك.. ولا يعترفون بذاكرتك

ذهبت إلى مركز الشرطة في الرابعة بعد الظهر. وأعلنت أنك موجود. قال صديقك: تعال إلى مغامرة. إن اقتحام الجمال مغامرة حقاً. إلى الجنوب من حيفا ــ على الشارع المحاذي للبحر الأبيض، تشعل سيجارتك في الريح ولا تطفئها إلّا في جرحك المفتوح. تنحرف السيارة إلى الشمال قليلاً فتجد نفسك في كنز. على المدخل لافتة بالعبرية تقول «هنا عين هود». اسم القرية عين حوض ولكن حرف الضاد يستعصي على الترجمة. يسقط الوطن، ولا يسقط حرف. وما هي عين حوض؟ بيوتٍ عربية باقية من الخارج كما تركها أصحابها. كل بيت يختبىء في غابة ويستقل عن العالم، في واد يحمل ثلاث هضاب وطريقاً صغيراً إلى البحر. السكان الأصليون نقلوا إلى قمة أحد التلال المطلة على جرحهم المفتوح في الوادي. لماذا هذه السادية؟ يرون إلى بيوتهم وسكانها الجدد وإلى أرضهم التريكة ولا يقوون على زيارة العشب والحجارة. وأكثر من ذلك لا يعترفون بذاكرتهم.

لصديقي صديق رسام إسرائيلي يقيم في هذه القرية. أصرَّ على الاحتفاظ بالبيت العربي القديم على حاله. «ديكور جميل يذكرني بالشرق» هكذا قال الرسام الذي روى لنا قصة فراره من النازية. سألناه عن علاقته بالأرض التي يسكنها الآن. فأجاب بأنه يحبها. ذكرناه بأن مجرد حاجته إلى ديكور عربي ليربطه بالشرق يلغي أصالة ارتباطه بهذه الأرض، ويعطيه صفة السائح. قال: ليس لي مفر. ثم دلّنا على التشابه التاريخي بين العرب واليهود. إن صفة

اللجوء تجمع بينهما. والآن، يشترك كل واحد منهما في تشكيل بنية الآخر. قلنا: إن ما يجمعهما هو، في الوقت ذاته، نقطة الصراع بينهما. لقد تخلصت من اللجوء والتشرد لتدفع الطرف الآخر إلى نقطة الدائرة ذاتها. وهكذا تكون المعادلة متناقضة. حين تجد نفسك تلغيني من وجودي، وحين أتمسك بوجودي تتحول العلاقة ما بيني وبينك إلى صراع. لا لأني أعترض على خلاصك وعلى احتمال المشاركة في الوجود، ولكن لأني أعترض على إلغائي الناجم عن الطريقة التي تمارس بها وجودك.

لا تنتهي المناقشة في مثل هذه الحالات، لأن الاعتراف بالحق نفي. فعلى بعد خطوات منا يجلس أهل القرية الأصليون وينظرون.. وليست صهيونية عربية ــ كما يدّعون ــ أن يتمسك العربي بذاكرته عقدين من الزمن. إن طرح الذاكرة الصهيونية في ادعاء الحق هو ضعف إسرائيلي أكثر من كونه ذريعة. فالاحتكام إلى الذاكرة يبطل الدهشة الإسرائيلية الناتجة من تمسك الفلسطيني بذكريات طازجة. إن الذي أباح لنفسه أن يذرف الدموع على ألفي سنة لا يستطيع اتهام من يبكي منذ عشرين سنة فقط بالوقوع في الوهم. واحتكار البكاء ــ إذا جاز التعبير ــ ليس صفة قومية تدعو إلى الاعتزاز. وفي الخامس عشر من أيار/ مايو ــ وفي ساعة محددة في الصباح ــ تنطلق صفارات الإنذار في كل أنحاء إسرائيل لتعلن الوقوف حداداً على الذين سقطوا في «حرب التحرير». السائر يتسمّر أينما كان. والسيارات تقف. والأعمال والماكنات تتوقف إعلاناً عن الحداد الذي يسبق الاحتفالات والفرح. وماذا يفعل العربي؟ يبكي في القلب أو ينفجر من الضغط. إن إعلان ميلاد إسرائيل هو في الوقت ذاته إعلان وفاة الوطن الفلسطيني. هذه اللحظة، إذن، هي الزمن الفاصل بين

حالتين. ولكنك ممنوع من التذكر والذكرى. تكون محاربة الذاكرة الفلسطينية، إذن، هدفاً صهيونياً ومطلباً قومياً من الدرجة الأولى. لا. ليست صهيونية عربية أن تذكر اغتيال وطنك. وفي هذه اللحظة ــ المفارقة تلتقي دموع الأضداد. أنت تبكي على وطن ضاع. وهم يبكون على من ضاعوا بحثاً عن «وطن» وُلِد.

تقف في الشارع الذي يلتهمك وتلتهم الغيظ والقهر. ما هو الوطن؟ أن تحتفظ بذاكرتك ــ هذا هو الوطن. إن أحزانهم كثيرة. كل أعيادهم حزينة. ولكنه حزن الذكريات البعيدة التي تجعل الفرح الراهن في حجم الكون. في الليل يرقصون بجنون، يقبلون على الحياة بجنون. لماذا تطالبهم بأن يفهموك. كنت تقول دائماً: ليتني أكتب مقالاً واحداً دفاعاً عنهم.. وأموت. لا يبدو أن النفط العربي سيتيح لك تحقيق هذه الأمنية الخبيثة. إن أحزان المنتصرين نفاق وخداع، وليست دليل رقيّ بقدر ما هي دليل نقص. لقد حملوا أحزان التاريخ وأفرغوها بك أنت. وأنت مطالب بألّا تحزن. ممنوع من الحزن يا عربي!.. هم يحيون ذكرى الحجارة والمومسات وأبطال العدوان، ويحيون ذكرى ضحاياهم الحقيقية، وأنت ممنوع من إحياء ذكرى أحد أو شيء. أكثر من ذلك: يدعونك إلى الاشتراك في احتفالات انتصارهم عليك. وإذا رفضت عوقبت. لم يسمحوا لك بإحياء ذكرى ضحايا كفر قاسم. إن ضحاياهم ــ كل ضحاياهم سقطوا بأيدي سواك. وضحاياك ــ كل ضحاياك سقطوا بأيديهم. حين تأتي ذكرى كفرقاسم يحاصرون القرية والمقبرة، ويمنعون الناس من الدخول، لأن الحزن ممنوع. وأكثر من ذلك: يصادرون مزيداً من الأراضي في الجليل.. يترجمون الجليل من جديد بمدينة يهودية «كرمئيل». يتظاهر سكان ثلاث قرى عربية سلبت أراضيهم. يحاصرون. يعتقلون، وتنتصر «كرمئيل».

ويختارون يوم الاحتفال بتدشينها في يوم ذكرى كفر قاسم بالذات. لا استفزازاً ولا سادية ولا استهتاراً فقط بل مظاهرة قدرة على القهر أيضاً. هؤلاء هم اللاجئون ينهون لجوءهم بخلق لاجئين. فماذا يعني قولك ــ يا صديقي الرسام ــ أن تشابه اللجوء يجمعنا؟ لا شيء.. لا شيء إلّا الابتزاز. اللاجئون الذين شرّدتهم النازية وجدوا وطناً لهم في فلسطين. واللاجئون الذين شرّدتهم الصهيونية.. أين يقيمون.. أين؟

٥

ذلك الطفل الذي أسلمته رحم أمه إلى الأرض، وأسلمته الشرطة إلى المنفى، وأعاده الحنين إلى أرض مفترسة، لم يدرك أنه مطالب بفلسفة الأشياء، ولم يدرك أن الرياضة الفكرية معيار لجدارة الانتماء أو الانتماء بلا جدارة. لماذا تكون قدرتك على تحديد «ما هو وطنك؟» برهاناً على شرعية انتمائك إلى هذا الوطن. الوطن الحقيقي هو الذي لا يعرف ولا يبرهن. أما الوطن الذي يخرج من معادلة كيماوية أو يخرج من معهد نظري فهو ليس وطناً. إن إحساسك بالحاجة إلى البرهنة على تاريخ صخرة وقدرتك على اختراع البرهان لا يعطيك أولوية الانتماء على من يعرف ميعاد المطر من رائحة الصخرة. فتلك الصخرة، بالنسبة إليك، اجتهاد فكري. وهي، بالنسبة لصاحبها، سقف وجدار. والصخرة لا تكون صخرة إذا كانت قابلة للانتقال في زي تمثال تحمله في حقيبتك وتخرجه حجة في المحاضرات. الصخرة تكون صخرة حين تجاورك يا صديقي الباحث عن تمثال ليكون هوية. وماذا تقول لي أيضاً؟ كانت صحراء هذه البلاد! لا تذهب بعيداً في الأكذوبة. فلسطين لم تكن صحراء في يوم من الأيام. لا يحق لك أن تحاسبني على

الجدارة. فلست محامياً للرمل أو الحدائق. ما جئت لتدافع عن حق الرمل في الماء ولا عن حق الشجر في الخضرة، لو كانت بلادي كذلك لما أغرتك باحتلالي.. وحرقي.. وطردي. ولم نبلغ، حتى الآن، مرحلة الوقوف أمام دائرة الطباشير لأننا لم نحتكم. ومن هو القاضي؟ أنت! كيف تكون الخصم والحكم في آن معاً إلّا إذا كنت حبيبي. وعلاقتي بك ليس علاقة حب. كنت تدّعي علاقة القربى والدم والآن تدّعي حق الجدارة للانتصار في محكمة دائرة الطباشير. أنت ترسم الدائرة حيناً وتمحوها حيناً آخر. فأنت لا تعترف بوجودي وتلغي علاقتي بهذا الوطن، وتقول إنها علاقة طارئة قابلة للزوال. وبأية وسائل برهنت؟ بالعنف وحده، بالقوة وحدها. هكذا الدنيا.. ذريعة القوي، دائماً، أقوى. بالقوة وحدها حددت شكل علاقتك بوطني، وشكل علاقتي بهذه العلاقة.

«العرب موجودون في فلسطين في علاقة «أنا وهو».

«أما اليهود، فموجودون في فلسطين في علاقة «أنا وأنت»».

هذا صوت الفيلسوف الوجودي مارتين بوبر.

يقول: إن الإنسان يرتبط بما حوله عن طريقين: طريق «أنا وهو» وطريق «أنا وأنت». علاقة «أنا وهو» توجد في المكان والزمان وتخضع لقانون السببية. وفي هذه العلاقة لا تظهر الحرية، بل الضرورة. أما علاقة «أنا وأنت» فتوجد خارج الزمان والمكان وهي مستقلة عن قانون السببية، وتظهر هنا الحرية لا الضرورة. على هذا الأساس، يكون الوجود غير الحقيقي للإنسان عندما يوجد في علاقة «أنا وهو». والدين اليهودي هو الدين الحقيقي الوحيد القائم

على أساس علاقة «أنا وأنت». ولأن اليهود متمسكون بهذا الدين الحقيقي، فإن الشعب اليهودي هو الشعب المختار. وبناء على ذلك، فإن دولة إسرائيل يجب أن تقوم في فلسطين. فإن علاقة اليهود بفلسطين ليست كعلاقة العرب بها، لأن العرب موجودون في فلسطين بعلاقة «أنا وهو» ولذا من السهل قطع هذه العلاقة ومن الممكن نقلهم إلى أمكنة أخرى..

ولكن أديباً إسرائيلياً آخر أكثر اقتراباً من الحياة والواقع يخرق علاقة الحرية القائمة بين اليهود وفلسطين حين تصل هذه العلاقة إلى مستوى التطبيق العملي، وتخلق حالة نادرة من حالات الإحساس بالإثم. فالإيديولوجية غالباً ما تبدو نظيفة لأصحابها وهي مجردة، وحين تترجم إلى ممارسة تأخذ شكل الجريمة. في قصته التي أثارت جدلاً يصور أبراهام يهوشع حالة من حالات ارتطام «براءة» الإيديولوجية الصهيونية مع الواقع الذي خلق جريمة بحق شعب آخر. لقد ألصق النقاد الصهيونيون بالكاتب تهمة التخريب والدعوة إلى الانتحار، والتماثل المازوكي مع العدو. القصة تدور في حرش من أحراش «الكيرن كايميت» موّلته مجموعة من اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل، وأقيم على أنقاض قرية عربية. بطل القصة طالب إسرائيلي لا اسم له، يبحث عن العزلة ليتسنى له كتابة أطروحته عن الحملة الصليبية. وقد اقترح عليه موظف عجوز ومثالي مسؤول عن الأحراش أن يعمل حارساً للحرش من خطر الحرائق. يحمل الطالب كتبه وأوراقه وينصرف إلى الحرش المعزول، لا يربطه بالعالم الخارجي إلّا منظار وجهاز تليفون يتصل بمركز إطفاء. ليس صدفة أن يختار الكاتب مسرحاً لقصته حرشاً أقامته الكيرن كايميت على أنقاض قرية عربية، فحرش الكيرن كايميت الذي يرمز إلى تحقيق الحلم الصهيوني قائم على أنقاض القرية العربية التي ترمز إلى مأساة

الشعب العربي الفلسطيني الناتجة من تحقيق الحلم الصهيوني. وليس صدفة أيضاً أن يكون موضوع أطروحة الطالب «الحروب الصليبية» التي تحمل شيئاً من التشابه التاريخي بين الماضي والحاضر.

لم يكن الطالب الإسرائيلي وحيداً في الغابة أو الحرش. هناك فلاح عربي سابق قطعوا لسانه في الحرب «نحن أم هم، هذا لا يغير شيئاً» وقد بقي العربي مع أنقاض قريته يعمل عاملاً في الغابة ومعه طفلة صغيرة. الثلاثة يقيمون في مكان واحد، بلا مبالاة في البداية ثم بتوتر متصاعد ــ على خلفية أشجار السرو الصغيرة ولافتات تحمل أسماء المتبرعين اليهود المحترمين «لويس شفارتس من شيكاغو»، «ملك بوروندي»، وفود رسمية، سيّاح، وزوار، يشعر الطالب بأن مشيتهم الاحتفالية في الغابة تشبه قافلة من الصليبيين. تقول إحدى الزائرات: نريد أن نسأله سؤالاً بسيطاً. نريد أن يبتّ الأمر. أين تقع بالضبط القرية العربية المشار إليها على الخارطة؟ من المفروض أن توجد هنا في المنطقة قرية عربية مهجورة. ينظر إليهم الطالب ــ الحارس بدهشة. قرية؟ كلا. لا توجد هنا قرية. الخارطة على خطأ.

كان الطالب، في البداية، يقضي الليل والنهار بحثاً عن علامات حريق في الغابة. يجرب صفارة الإنذار. يراقب حركات العربي ويشك في أنه يعد عملية انتقام. ثم يتضح تدريجياً أن الطالب ــ الحارس يريد أن تندلع النار في الغابة. لقد حاول ذلك بالنفط الذي أحضره العربي لهذا الغرض. ولكن المحاولة تفشل. ومنذ تلك اللحظة أصبحت علاقتهما وثيقة. الطالب يحدث العربي الشيخ عن تاريخ الحملات الصليبية. والعربي الأبكم يصدر أصواتاً وحشية ويجيب بحركات يديه. «يريد القول أن بيته هنا وقريته هنا. وقد

أخفوا كل شيء ودفنوه في الغابة الكبيرة».

عندما يشعل العربي النار في الغابة، يشتعل الطالب حماسةً وسعادة. ويشاركه العملية. إنه لا يطلب النجدة. سواه استصرخ رجال المطافىء، ولكن بعد فوات الأوان. ومع الفجر يسير بطل القصة على آثار الحريق. ورويداً رويداً تظهر خلال الدخان والضباب القرية العربية الصغيرة، «تولد من جديد كالرسم التجريدي وككل ماضٍ زال»... يقول عزريا ألون صاحب «الإسرائيليون»: من الواضح أن الغابة ترمز إلى المجتمع الإسرائيلي الجديد الذي قام على أنقاض مجتمع آخر. ويقول المؤلف في حديث صحافي إن قصته ليست إيديولوجية ولكنها وصف وضع قائم في البلاد، حيث أقيم شيء على أنقاض شيء آخر. ثمة إحساس بالإثم.

تجد بعض النماذج من تجلي الإحساس بالإثم في الأدب العبري الحديث لدى تناول موضوع بناء المجتمع الإسرائيلي والصراع على «وطن» واحد بين الإسرائيليين والعرب. ولكنه إحساس بالإثم صادر عن الثقة بالنفس. إنه نوع من أنواع اعترافات القوي في حالة صفاء إنساني. يمزج قوته وانتصاره بشيء من مسحوق الليبرالية والإنسانية بعد فوات الأوان وانتهاء المذبحة. ولكنه ليس في أي حال من الأحوال تعبيراً عن توبة أو ندم. إنه شديد الشبه بمحاورات القاتل الداخلية بعد إتمام العملية. فالأديب الأميركي مثلاً يصور مأساة الهنود الحمر ويبدي بعض العطف عليهم.

يستغرب كاتب إسرائيلي غياب ظاهرة حساب النفس والإحساس بالإثم لدى الطرف العربي. وهذا الاستغراب، بحد ذاته، دليل على

الرغبة في عقد المساواة بين القاتل والضحية. يطالبهما بالجلوس والبكاء على التعاسة المشتركة: تعاسة المنتصر الذي كسب وطناً ولم يسلم من ارتكاب الظلم، وتعاسة المهزوم الذي خسر وطناً ويطلب عدالة المعاملة ممن أخذ وطنه. كيف يحاسب العربي نفسه؟ وكيف يشعر بالإثم؟ إذا شعر بالإثم، فإنه يشعر به تجاه نفسه وتجاه وطنه لا تجاه الذي هزمه واحتل وطنه ونفسيته.

لن تسأل بعد الآن عن معنى الوطن..

الخارطة ليست إجابة، لأنها شديدة الشبه بالرسم التجريدي. وقبر جدك ليس إجابة لأن غابة صغيرة كفيلة بأن تخفيه. وأن تبقى بجوار الصخرة ــ ليس أيضاً إجابة كافية لأن اغترابك ليس شيئاً مادياً فقط. لم يحتلوا الأرض والعمل فحسب لقد احتلوا النفسية والمزاج والصلة ما بينك وبين الوطن حتى صرت تتساءل عن معنى هذا الوطن. تشغلك همومك اليومية وصراعك من أجل الحياة عن الإحساس بحقيقة أنك محتل أحياناً. مواطن من الدرجة الثانية؟ ليس هذا السؤال. لن تكون قضيتك ديموقراطية ولا إنسانية فحسب. وليس عذابك الشخصي ناجماً عن سلوك شخصي.

«اهدأ ــ تسلم» ليست نصيحة بريئة. هي دعوة إلى نفض يديك من تراب الوطن الذي لا تجد له اسماً. سحبوا الأرض من تحت قدميك فاختبأت تحت جلدك. عذبوك، فلم تعترف إلّا بمزيد من الحب المجنون لأسباب عذابك. لا التهديد من الداخل يمحو انتماءك ولا الوعود من الخارج تعطيك الأمان. تحمل صليبك وتمضي إلى ميعاد انتحارك. ولا تقول «نعم». والاغتراب الذي يأتيك من كل الأيام يتحول إلى هدنة مع الريح تحت صرير السلاسل. في السجن تعانقك الحرية. وفي السجن تمتلىء بالوطن

أيضاً. الصراع هو الإجابة، إذا صارعت انتميت. والوطن هو الصراع. بين الذاكرة والحقيبة لا حلّ سوى الصراع. الحق ــ والحرية ــ والانتماء ــ والجدارة لا تعلن إلّا بالصراع. لم يكتفوا بالاستيلاء على كل شيء. يريدون أن يستولوا أيضاً على انتمائك لتكون الواقعة بينك وبين الوطن. ليصير الوطن هو العبء والقيد والألم. ولكنك لن تجد الحرية خارج هذا القيد، ولن تجد الراحة بعيداً عن هذا العبء، ولن تجد الفرح خارج هذا الألم. الوطن في ذاكرتك وفي خلايا جسمك يشتبك مع الوطن في قبضات أيديهم وحقائبهم «العائدة».

يوميات الحزن العادي

١

● انحني، يا حبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

ـ من شدّة الانحناء صار ظهري قوساً، فمتى تطلق سهمك؟

[تمد يدك إلى يدك، فتجد حفنة طحين]

* * *

● انحني، يا حبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

ـ من شدّة الانحناء صار ظهري قنطرة، فمتى تعبر؟

[تحاول أن تحرك رجلك، فلا يتحرك الحديد]

* * *

● انحني، يا حبيبتي، ريثما تمر العاصفة.

ـ من شدّة الانحناء صار ظهري علامة استفهام، فمتى تجيب؟

[المحقق يدير أسطوانة عليها تصفيق كثير].

* * *

حين شتّتتهما العاصفة، كان الحاضر يصرخ بالماضي: أنت السبب. وكان الماضي يحول جريمته إلى قانون. أما المستقبل فقد كان شاهداً محايداً.

وحين هدأت العاصفة، كانت الانحناءة قد اكتملت، وتحولت إلى دائرة لا تعرف بدايتها من نهايتها.

٢

ـ ضع فاصلة وراء كل تنهيدة، وقل لنا: من أنت؟

وحين أفاق من الغيبوبة كان دمه قد جفّ.

□ أنا من الضفة الغربية.

ـ ولماذا عذبوك؟

□ وقع انفجار في تل أبيب، فاعتقلوني.

ـ وماذا تفعل في تل أبيب؟

□ أعمل في البناء.

لم تكن حالة عمل العمال العرب من الضفة الغربية أو قطاع غزة في المدن الإسرائيلية قد تحولت إلى ظاهرة عامة. ولعل الرأي العام العربي، بعد الهزيمة الأخيرة مباشرة، كان يطالب العمال العرب بالمجاعة تعبيراً عن الصمود ورفض الاحتلال، دون أن يفكر أحد من المسؤولين بالاهتمام بمسألة تأمين سبل المعيشة للسكان الواقعين تحت الاحتلال من أجل ضمان استمرارهم في الصمود وعدم التعاون مع الغزاة.

□ عندما تسكت المدافع، من حقي أن أشعر بالجوع.

ماذا تقول لمن يطرح السؤال بهذا الشكل؟ ليس بوسعنا أن نطحن الأناشيد الحماسية والخطب الحماسية ونعجنها ونحولها إلى خبز.

إن أخطر شيء هو أن يتحول الوطن، تحت الاحتلال الأجنبي، إلى رغيف خبز. ولكن السيىء أيضاً هو أن يدفع المواطنون الواقعون تحت الاحتلال إلى المجاعة في حالة الصمت العسكري والسياسي السائدة.

□ في حالة الحرب والمعارك لا نفكر كثيراً بمستوى المعيشة. أعلنوها معركة أو حرباً وخذوا منا كل التضحيات. ولكن حين تسكت المدافع، فمن حقنا أن نشعر بالجوع.

ولماذا تنسى أو تتناسى أن إسرائيل بنيت بسواعد عربية.

يا للمفارقة.. ويا للعار!

٣

يقدمون لك تفاحة حمراء، ويسألون: هل ذقت التفاح السوري؟

ما أجمل التفاح في السجون. هو الشيء الوحيد الذي يحول لون الرماد إلى لون النار.

تقول لهم: إن التفاح السوري يملأ الأسواق الإسرائيلية. وأن التفاح السوري يهزم التفاح الإسرائيلي.. أكبر، وأجمل، وأرخص. يشتريه اليهود بلا حرج، على الرغم من احتجاج الكيبوتسات التي هبطت قيمة تفاحها، لأنه أكبر.. وأجمل.. وأرخص!

ـ وماذا جاء بكم هنا أيها الأشقاء السوريون؟ كنا نعد العدة للقائكم في بيوتكم لا في السجون.

□ لقد ألقوا علينا القبض بتهمة التسلل من دمشق إلى القنيطرة.

ـ كل عودة تسلل. هذا هو حظ العرب.

□ .. وقالوا إننا جئنا للتجسس!

ـ تجسس على المنازل والكروم؟!

□ شيء كهذا!

ـ وهل اتهموكم بأنكم تسرقون تفاحكم؟

□ لم يقدموا لائحة الاتهام بعد.

ــ كم قضيتم في الاعتقال؟

□ أحد عشر شهراً وأسبوعاً وثلاثة أيام.

ويسألونك فجأة:

أنت تعرفهم، فهل تظن أنهم سيتهموننا بأننا سوريون؟

ــ ألستم كذلك؟

□ نعم. نحن سوريون.

ــ وهل هي تهمة؟

□ لا نعرف...

٤

ــ من أين أخي؟

□ من غزة.

ــ ماذا فعلت؟

□ ألقيت قنبلة على سيارة الغزاة، فانفجرت بي.

ــ و

□ ألقوا عليَّ القبض، واتهموني بالانتحار.

ـــ اعترفت طبعاً؟

□ ليس تماماً. قلت لهم إن محاولة الانتحار لم تنجح. ولذلك حرّروني من الرحمة وحكموا عليَّ بالسجن المؤبد.

ـــ ولكنك كنت تنوي القتل لا الانتحار؟

□ يبدو أنك لا تعرف غزة. المسافة هناك شيء وهمي.

ـــ لا أفهمك جيداً.

ـــ يبدو أنك لا تعرف غزة، فمن أين أخي؟

□ من حيفا.

ـــ ماذا فعلت؟

□ ألقيت قصيدة على سيارة الغزاة، فانفجرت بهم.

ـــ و

□ ألقوا عليَّ القبض واتهموني بالقتل الجماعي.

ـــ اعترفت طبعاً؟

□ ليس تماماً. قلت لهم بأن محاولة القتل نجحت. ولذلك أعطوني الرحمة، فاستجابوا إلى طلبي، وحكموا عليَّ بالسجن لمدة شهرين.

ــ لا أفهمك جيداً.

□ يبدو أنك لا تعرف حيفا. فالمسافة هناك شيء وهمي.

جاء الحارس. وضعه في زنزانة. وأطلق سراحي!

٥

ــ اذهبي.. وتعالي، ريثما أصحو من اللذة.

وابتعدي عني قليلاً، لكي ينفصل الحلم عن عظامي.

أنا علّمتك التدخين. وأنت علّمتني مرافقة الدخان.

اذهبي.. وتعالي!

ــ وماذا قلت لها أيضاً؟

لم أحدثها عن الحب. كان كلامي غامضاً ولا أفهمه إلّا حين تنام. وكانت تغني كثيراً، ولا أفهم غناءها إلّا في الحلم. وهي جميلة.. جميلة. يوم رأيتها سقط الغيم على دماغي، فخطفتها إلى البيت، وقلت لها اعتبري ذلك حباً.

تضحك.. تضحك في أحلك الساعات.

وكنت أناديها باسم مستعار لأن ذلك أجمل. أقبّلها، وبين القبلة والقبلة أشتهيها وأشعر أنها ستضيع مني لو توقفت عن القبل.

بين الرمل والماء، قالت: أحبك.

وبين الشهوة والعذاب، قلت: أحبك.

وحين سألها الضابط عما تفعله هنا!؟ أجابت: من أنت؟ فأجابها: ومن أنت؟

قالت: أنا حبيبته، وجئت أودعه حتى باب السجن أيها المجرم. ماذا تريدون منه؟

قال: اعلمي أنني ضابط.

قالت: وأنا سأصبح ضابطة في العام القادم أيها المجرم!

.. وأبرزت شهادة الاستدعاء إلى الخدمة العسكرية. فحيّاها الضابط بابتسامة وسحبني من ذراعي إلى زنزانتي.

وفي العام القادم كانت الحرب. وعدت إلى الزنزانة من جديد. وفكّرت بها: ماذا تفعل الآن؟ كانت في مدينة نابلس أو في مدينة أخرى واحدة من الفاتحين.. تحمل بندقية خفيفة. ولعلها تلك اللحظة كانت تأمر الرجال برفع أيديهم أو بالركوع على الأرض. أو لعلها كانت تشرف على استجواب أو تعذيب فتاة عربية في مثل سنها.. وفي مثل جمالها السابق.

لم تقل وداعاً

ولم تقل لها: اذهبي وتعالي.

لقد علمتها التدخين، وعلمتك مرافقة الدخان.

٦

ـ نكتب مسرحية مشتركة؟

□ نكتب.

ـ نبحث عن نقطة التقاء؟

□ نبحث

ـ نطرح القضية بكل حدّتها؟

□ نطرح.

ـ ليكن بيت متنازع عليه هو عقدة المسرحية.

□ ليكن.

ـ نلتقي بعد شهر؟

□ نلتقي.

في تلك اللحظة، كانت خديجة تودع ابنها في المخيم، وتسلمه مفتاح البيت الذي اشتهر في حيفا باسم «البيت الأحمر».

وفي تلك اللحظة، كانت ساره، المقيمة في «البيت الأحمر»،

تودع ابنها الذي لبّى إشارة في الراديو تأمره بالالتحاق بوحدته العسكرية.

التقى الشابان القادمان من اتجاهين متعاكسين في نقطة ما من الغابة، واشتبكا وليس مهمّاً أن نعرف أيهما قتل الآخر.

ــ هل أكملت الفصل؟

□ أكملت.

«في المهجر، لم يعلّمني أبي الانتحار أو اليأس، ولم يعلمني التخلي عن يهوديتي. لقد رباني على أنني خلقت لأكون مطارداً، ومع ذلك فقد علمني الحياة».

ــ وأنت ماذا كتبت؟

□ «في المهجر، لم يعلمني أبي الانتحار أو اليأس، ولم يعلمني التخلي عن فلسطينيتي. لقد رباني على أنني خلقت لأكون مطارداً، ومع ذلك، فقد علّمني الحياة».

ــ هذه نقطة التقاء هامة.

ــ والبيت الذي يستقطب مصيرنا، هل هو نقطة لقاء أم نقطة وداع؟

□ إنه نقطة صراع.

ــ كيف تحله المسرحية؟

□ لنقل: إن الحق لا ينبع من الإرث، بل من الحاجة والجدارة. وعلى أساس ذلك، لا يكون الرجل الذي بنى هذا البيت منذ خمسين سنة صاحب الحق فيه الآن، لأن رحيله عنه ــ تحت أي ظرف من الظروف ــ هو بمثابة تخل عن حق لا يحتاجه. أما المالك الحالي، فقد بذل جهداً في السيطرة على هذا البيت الذي لا يملك سواه.

ــ وأين العدل في المسرحية؟

□ العدل.. العدل. لنبحث عن العدل معاً في اللحظة الراهنة. لنجعل حالة تأنيب الضمير مناخاً سائداً في البيت ريثما يفعل الزمن مفعوله. ليكن التعبير عن الشعور بالإثم لدى اليهودي تعويضاً عن ضياع البيت بالنسبة للعربي.

ــ نلتقي بعد شهر لأضع صيغة أخرى لعدل أكثر عدالة؟

□ نلتقي.

وفي تلك اللحظة، كانت بيوت أخرى في مدن أخرى، تستبدل سكانها. وكانت مفاتيح جديدة تتكدس فوق المفاتيح القديمة في المهاجر العربية التي تضيق مساحتها حرباً بعد حرب. وفي الليل، يحمل شبان مفاتيحهم ولا يعودون!

٧

ــ لماذا هذه الغطرسة؟ لقد ورثت ديني وقوميتي، ولم أواجه لحظة اختيار واحدة. والآن أسألكم: من اختار منكم أن يكون يهودياً..

من؟

□ هذا هو الفرق بيني وبينك: أنا لست يهودياً فحسب، ولكنني اخترت أن أكون يهودياً.

ـ كيف؟

□ تلك مسألة غير قابلة للشرح. اليهودية لا يفهمها إلّا اليهودي. وهذا هو مصدر اعتزازي الذي تسميه غطرسة.

ـ إنني أفهم أن تكون أنك اخترت أن تكون صهيونياً.. أن تكون إسرائيلياً. فهل تعني ذلك؟

□ لا أعني ذلك تماماً. أعني اخترت يهوديتي والتزمتها.

ـ وكيف يتجلى هذا الالتزام؟

□ بالوطن التاريخي.

ـ وما هو هذا الوطن التاريخي، هل هو غامض كانتمائك. هل اخترته أم ورثته؟

□ غامض وواضح معاً. اخترته وورثته معاً.

كان المتحدث كاتباً. وكان يتمرد على الفواصل التي يضعها البعض بين اليهودية والصهيونية والإسرائيلية. ويعتقد أن اليهودية لا تتجلى إلّا بالصهيونية، والصهيونية لا تكرس إلّا بالإسرائيلية. ومن هنا، يكون التخلي عن الصهيونية تخلياً عن اليهودية.

وحين تسأله عن التحديد العملي لمصطلح الوطن التاريخي، يذكرك بالحوار الشهير الذي دار بين بن غوريون ومفكر عربي سنة ١٩٣٦، أيام كانت فلسطين حلماً صهيونياً. سئل بن غوريون عن ذلك الوطن التاريخي، فأجاب أنه المنطقة المفتوحة للاستيطان اليهودي.

ـ وما هي تلك المنطقة؟

□ أرض إسرائيل.

ـ وما هي حدودها؟

□ حدود أرض إسرائيل معروفة في التاريخ.

ـ ولكن الحدود أمر مصطنع. تكون اليوم هنا، وتكون غداً هناك.

□ أرض إسرائيل هي تلك الأرض الواقعة بين البحر المتوسط غرباً، والصحراء شرقاً، بين سيناء جنوباً، ومنابع الأردن شمالاً.

ـ إنك تضم عبر الأردن أيضاً!؟

□ بالطبع، فالأردن ليس حداً لأرض إسرائيل. إنه نهر في أرض إسرائيل.

وكان حاييم وايزمن يقول: «إنني أعرف أن الله وعد بني إسرائيل بأرض إسرائيل، ولكنني لا أعرف الحدود التي عيّنها الرب».

في ذلك الوقت، كانت ملايين العرب تضحك ساخرة من أحلام

وايزمن، وبن غوريون. وحين تنظر اليوم إلى الحدود السرية «التي عيّنها الرب» والتي تجاوزت فلسطين إلى ما هو أبعد ترى أن «الواقع الإسرائيلي» أوسع من «الحلم الصهيوني» ومن التاريخ اليهودي، وتذكر ذلك الكاتب الذي قال لك: «هذا هو الفرق بيننا وبينكم. أنا لست يهودياً فحسب، ولكنني اخترت يهوديتي».

فهل تضحك مرة أخرى، كما ضحك العرب قبل خمسين سنة، أم تورث أحلامك إلى الأطفال الذي يولدون على حراب الاحتلال!

٨

تريد أن تستمتع بالشارع؟

□ يا حبيبي، في عيد ميلادي، أرجو أن تكون هديتك لي دبابة، أو مدفعاً، أو أي سلاح من صنع روسي.

ــ سأهديك دبابة ننام فيها معاً يا عزيزي. لنجرب وضعاً آخر.

□ لا. سأنام معك في الهواء الطلق، على ضفة قناة السويس.

ــ ها .. ها.. ها.

□ ها.. ها.. ها.

تمشي في الشارع. تجلس في مقهى. تسافر في أوتوبيس، وتسكت. لست مدعواً للإعلان عن هويتك. إن صمتك يقول كل شيء. هو

الموقف الوحيد الذي يتاح لك أن تتخذه حين تستمع إلى هذا الغزل الإسرائيلي. انتهى عصر الكلمات العذبة. سأهديك غزالاً وقمراً. لا. ما أبعد الفارق بين الخيال السابح في الصحراء والخيال المصنوع من التكنولوجيا والنصر. كلمات الحب الآن منسجمة مع آخر أحداث الساعة وأحدث مبتكرات السلاح. واللذة لا تتناغم مع أشياء الطبيعة.

هكذا أصبح العربي في إسرائيل متخلفاً حتى في ممارسة الحب. لقد احتاج إلى وقت طويل لكي يعرف كيف يخاطب صديقته بالورد. فكم من العصور يحتاجها هذا المخلوق لكي يتدرب على هذا الغزل: يا عزيزتي.. سأهديك دبابة.

وبماذا تفكر؟ كيف ينامون في الدبابات! وكيف ينجبون أطفالاً في الدبابات! وكيف يتنزهون في الدبابات! على رسلك.. هذا هو البيت الإسرائيلي المأمون. هذا هو عش الحب. وهذا هو المستقبل!

٩

وفي عيد رأس السنة، ماذا تفعل؟

تنزل إلى الشارع لتبحث عن بطاقة جميلة ترسلها إلى صديق. فماذا تجد؟ لا صورة لوردة واحدة، ولا رسماً لشاطىء أو عصفور أو امرأة. لقد اختفت كلها لتعطي المكان للدبابة والمدفع والطائرة وحائط المبكى والمدن المحتلة ومياه قناة السويس المنقولة إلى هذه البطاقات. وحين تلمح غصن زيتون تجده مرسوماً على جناح طائرة مقاتلة من صنع فرنسي.

وحين ترى فتاة جميلة تجدها مدججة بالسلاح. وحين تقع عيناك على مدينة تجد خلفيتها حذاء جندي، فيقع قلبك على الأرض. ولا يبقى لك إلّا أن تنكمش في زاوية الشارع المزدحم، لتفسح المجال أمام آلاف الأيدي الممتدة نحو بطاقات العيد الملونة.. ترسلها إلى يهود العالم تعبيراً عن فرحة البعث التاريخي، وعودة الأسطورة. وأنتَ لا تبعث إلى أصدقائك إلّا صمت القلب الذي لا يصل.

ويفاجئك الكرنفال في الشارع. ينقض عليك الضوء كما كان ينقض عليك وأنت خارج من زنزانة مظلمة. وأسراب من الأطفال ـــ الحمائم مدججة بالسلاح. اللعبة سلاح. والمتعة سلاح.

وأنت؟ ليس في طفولتك وشبابك غير حصان خشبي..

١٠

تريد أن تنام؟

في الساعة الرابعة صباحاً. يوقظك جرس الباب. تعرف الزائر. لكن النعاس أقوى من الشرطة. في التاسعة صباحاً تذهب إلى مكتبك لتعمل. تستمتع بنصف فنجان القهوة قبل قراءة الأخبار. يأتيك الزائر المعتاد ويقول: تعال معي! تسأله: اعتقال.. أم تحقيق؟ يقول: لا أعرف. تسأله أن تأخذ فرشاة أسنانك وأدوات الحلاقة وملابس داخلية، فيرد عليك: لا وقت!

تجلس أمام الضابط.

يقول لك بأدب، من تحت صورة هرتسل: يشرفني أن أعتقلك.

تجامله: ويشرفني أن أمنحك هذا الشرف. ولكن، هل تتفضل وتقول لي ما هي تهمتي؟

يقول لك: أنت متهم بتفجير بطيخة عند مدخل السيرك، وبالمس بأمن الدولة.

البطيخة، والدولة، والسيرك ــ انسجام نادر.

تنتهي مدة التوقيف القانونية. كل شيء هناك قانوني. تتوقع أن يأخذوك إلى المحكمة، فتستمتع برؤية مدينتك المفتونة بنفسها، من خلال قضبان سيارة البوليس. أو تتطرف بالأمل، كعادتك، وتتوقع أن يطلقوا سراحك.

ــ انتظر قليلاً.

تحتج على حافة القانون فيقولون لك: لن نحتفظ بك ساعة واحدة بعد انتهاء مدة التوقيف.. ماذا تظن؟ هنا قانون. هنا إسرائيل، وليس العالم العربي.

تفكر بالعالم العربي، فتختلط الغصة بالحلم.. وتنتظر. ماذا تنتظر.. ضابط التحقيق أم العالم العربي؟!

ثم يدخلونك إلى غرفة أخرى. تجد ضباطاً وامرأة عجوزاً. يسألك أحد الضباط إن كنت تتقن اللغة العبرية، ثم يتلو لائحة الاتهام: أنت متهم بالعمل على تدمير دولة إسرائيل. تسأل: تقصد الدولة أم البطيخة؟ تقول تلك المرأة القبيحة: احترم المحكمة. تعلن دهشتك: أية محكمة؟ فيأتيك صوت قادم من مستنقع: هذه محكمة، وأنا

قاضية. عندها، تفهم أنهم احترموك ونقلوا المحكمة إلى السجن من أجلك. ولكنك ترفض تكريمهم: كلاّ يا سيدتي. لا هذا المكان محكمة، ولا أنت قاضية. هذا سجن. وأنت سجّانة.

تنتهي الجلسة بتجديد مدة التوقيف.

١١

تعود إلى البيت بسيارة أجرة؟

تتكلم مع السائق بلغة عبرية سليمة. وشكلك لا يعلن هويتك. يسألك السائق: إلى أين يا سيدي؟ تقول: إلى شارع المتنبّي.

تشعل سيجارة لك وسيجارة للسائق لأنه مهذب. يقول فجأة: قل لي، إلى متى هذا القرف... لقد سئمنا.

تظن أنه سئم حالة الحرب وارتفاع الضرائب وسعر الحليب. فتقول: الحق معك.. لقد سئمنا. يتابع: إلى متى تحافظ دولتنا على هذه الأسماء العربية القذرة! يجب أن نمحوهم ونمحو أسماءهم من الوجود. تسأله: من هم؟ يقول باستنكار: العرب طبعاً. تسأله عن السبب، فيقول: لأنهم قذرون.

تعرف من لهجته أنه مهاجر من مراكش. تسأله: هل أنا قذر إلى هذا الحد؟ وهل أنت أكثر نظافة مني مثلاً؟

يندهش لسؤالك: ماذا تقصد؟

تسأله أن يكون ذكياً، فيدرك ولكنه لا يصدق: أرجوك.. كفّ عن المزاح!

عندما يرى بطاقتك يصدق أنك عربي. يقول: لا أقصد المسيحيين ــ أقصد المسلمين. تقول له إنك مسلم، فيقول: لا أقصد كل المسلمين.. أقصد القرويين. تقول له إنك من قرية متخلفة هدمتها دولته كما يشاء ومحتها من الوجود كما يشاء. يقول: كل الاحترام للدولة!

تنزل من السيارة، وتقرر العودة إلى البيت مشياً. تصيبك نوبة قراءة أسماء الشوارع. فعلاً، محوا أسماءها. صار صلاح الدين شلومو. وتتساءل: لماذا حافظوا على اسم المتنبي!

وعندما تصل إلى شارع المتنبي تقرأ الاسم، لأول مرة، باللغة العبرية فيخيّل لك أنه «المونت نقي» وليس المتنبي كما كنت تتصور!

١٢

تريد أن تسافر إلى القدس؟

ترفع سماعة التليفون، وتطلب ضابط المهمات الخاصة في دائرة الشرطة. تعرفه جيداً، فتسأله عن أحواله وتمازحه. ثم ترجوه أن يعطيك تصريحاً للسفر ليوم واحد بدون نوم. يقول لك: قدم طلباً خطياً. تترك عملك وتقدم الطلب الخطي على ورق صقيل.. وتنتظر الجواب، يوماً.. يومين.. ثلاثة أيام. ثمة أمل لأنهم لم يقولوا «لا» كالعادة. ولكنك تنتظر، وميعادك في القدس يقترب. تسألهم.. ترجوهم.. تتوسل إليهم أن يقولوا أي شيء. أن يقولوا

«لا» لتصبح في حل من الميعاد. لا يقولون. تخبرهم أن أمامك ساعات معدودة، يقولون: تعال إلينا بعد ساعة لتتسلم الجواب.

تذهب، فتجد المكتب مغلقاً. تتساءل ببراءة: لماذا يخجلون مني؟ لماذا لم يقولوا «لا» كعادتهم دائماً. تغضب وتقرر ـ بغباء ـ أن تنتقم من «أمن الدولة».. وتسافر.

في اليوم التالي يستدعونك للمثول أمام محكمة عسكرية عاجلة. تنتظر دورك وتسمع حكايات: امرأة عربية تعمل في كيبوتس. ينص التصريح على منعها من النزول في أية محطة على الطريق. لسبب ما اضطرت للنزول، فاعتقلوها. شباب انحرفوا عن الشارع الرئيسي فاعتقلوهم. والمحكمة لا تبرىء أحداً. سجن وغرامات. وتذكر حكاية الشيخ والحمار والتصريح: كان الشيخ يحرث الحقل. علق عباءته على شجرة. والتصريح في جيب العباءة. اكتشف أن حماره قد ابتعد عن أرضه ودخل أرضاً أخرى. خفّ للحاق بالحمار، فاعترضته الشرطة العسكرية واعتقلته، لأنه دخل أرض الدولة بلا تصريح. قال لهم: معي تصريح.. في جيب العباءة المعلقة على الشجرة هناك. اعتقلوه وحاكموه.

وتذكر تصاريح الموت، حيث كان الفلاحون يوقّعون على نص يحملهم المسؤولية عن موتهم لو انفجرت ألغام في منطقة كان الجيش يستخدمها للمناورات. هذا النص يعفي الدولة من تحمل المسؤولية. ولكن الفلاحين كانوا يفكرون بلقمة العيش ولا يفكرون بالموت. وفعلاً، مات منهم من مات وعاش منهم من عاش ويئست الدولة من الأحياء والأموات فصادرت الأرض.

وتذكر أيضاً الطفلة التي ماتت في حضن والدها أمام مكتب الحاكم العسكري، حيث كان الأب ينتظر تصريحاً للسفر من قريته إلى المدينة لمعالجة طفلته المريضة.

وتشعر بالسعادة لأنهم حكموا عليك بالسجن لمدة شهرين فقط. وفي السجن، تغني للوطن.. وتكتب رسائل إلى حبيبتك، وتقرأ مقالات عن الديموقراطية وتقرأ رواية «الحرية أو الموت» فلا تحرر نفسك.. ولا تموت.

١٣

تريد أن تسافر إلى اليونان؟

تطلب جواز سفر، فتكتشف أنك لست مواطناً، لأن أباك أو أحد أقاربك قد هرب بك أثناء حرب فلسطين، وقد كنت طفلاً. وتكتشف أن أي عربي ترك بلاده في تلك الفترة، وعاد إليها متسللاً، قد فقد حقه في الجنسية.

تيأس من جواز سفر، وتطلب جواز مرور. تكتشف أنك لست مقيماً في إسرائيل، لأنك لا تحمل شهادة إقامة. تحسب الأمر نكتة، فتسرع لترويها لصديقك المحامي: «لا أنا مواطن هنا ـ ولا أنا مقيم. أين أنا ومن أنا». تفاجأ بأن القانون معهم، وبأنه يترتب عليك أن تبرهن وجودك. تقول لوزارة الداخلية: أنا موجود أم غائب؟ أعطوني خبيراً في الفلسفة لأثبت له أنني موجود.

ثم تدرك أنك موجود فلسفياً، وغائب قانونياً.

تفكر بالقانون. ما أشد براءتنا حين نظن أن القانون وعاء للعدل

والحق. القانون هنا وعاء لرغبة الحاكم، أو بدلة يفصلها على قياسه. وأنا موجود في هذه البلاد قبل وجود الدولة التي تنفي وجودي. وترى مرة أخرى أن الحق أمنية تقترب من الوهم إذا ابتعد عن سند القوة، وأن القوة تحوّل الوهم إلى واقع. وتبتسم للقانون الذي يمنح كل يهودي في العالم حق الجنسية الإسرائيلية.

وتسعى من جديد. أمرك لله وللقانون. تحصل على شهادة تثبت أنك موجود، وتحصل على جواز مرور. ولكن من أين تمرّ؟ أنت مقيم في حيفا، والمطار قرب تل أبيب. وتسأل الشرطة تصريحاً للسفر من حيفا إلى المطار فترفض. يتدخل المحامي وأعضاء برلمان، ولكن الشرطة ترفض. ثم تظن أنك أكثر خبثاً منهم ودهاء، فتغيّر طريق مرورك، وتقرر السفر عن طريق ميناء حيفا على اعتبار أنك تملك حق الوصول إلى الميناء. تبتهج لذكائك. تشتري تذكرة، وتعبر قسم مراقبة الجوازات والصحة والجمارك ولا يعترضك أحد. وقرب السفينة يلقون القبض عليك، ويقدمونك إلى المحاكمة. وما زلت مصرّاً على أن القانون معك هذه المرة.

وتكتشف في المحكمة أن ميناء حيفا جزء من دولة إسرائيل وليس جزءاً من مدينة حيفا، ويذكرونك بأنك محظور من الوجود في أية منطقة من دولة إسرائيل خارج حيفا. والميناء ـــ في القانون ـــ خارج حيفا ـــ وتدان...

تقول لهم: أريد أن أدلي باعتراف خطير ما دمت قد فهمت القانون: يا سادة! أنا أسبح في البحر كل يوم، والبحر تابع لدولة إسرائيل وليس تابعاً لمدينة حيفا، وأنا لا أحمل تصريحاً لدخول البحر.

وعندي اعتراف آخر: أنا أستمتع بالمناخ في مدينة حيفا. والطقس تابع لدولة إسرائيل وليس تابعاً لحيفا. وأنا لا أحمل تصريحاً لدخول المناخ. والسماء التي أراها فوق حيفا ليست تابعة لحيفا. وأنا لا أحمل تصريحاً للجلوس تحت السماء.

ثم تطلب منهم تصريحاً للإقامة في الريح، فيبتسمون!

١٤

تحتفل بعيد ميلادك؟

آه من الاحتفالات. يهجم عليك التاريخ بشراسة. هزيمة تلو هزيمة تلو هزيمة، والعرب يحتفلون بكل أيامهم. وتتساءل: أيامنا تمحو أيامنا من فرط المناسبات والأعياد. ألم يبق في الروزنامة يوم واحد للنصر. كل الأيام محجوزة للانقلابات والانقلابات المضادة، وكلها أعياد مقررة. عندها تجد سبباً لاستمرار هزيمتك: حين يخلو أحد مقاعد السنة من يوم واحد.. سننتصر.

والليلة عيد ميلادك ــ الثالث عشر من آذار ــ وأنت تريد مناسبة لانتزاع المرح الكاذب من جهامة الأيام الصارمة. تدعو أصدقاءك.. تتآمرون على الكآبة بالكأس والموسيقى والنكات الجارحة. يرتفع صوت الموسيقى وترقصون. تصل ضحكات الفتيات إلى نوافذ الجيران. وفي منتصف الليل يأتي البوليس. يتحقق من هويات الحاضرين ويهددك بالاعتقال: كونوا مهذبين. كفى بربرية! تسأل عن السبب فيقول لك إن الجيران قد استدعوه ليحافظ على هدوء البناية من مرحنا. تقول له: عيد ميلاد. يقول: لا يعنيني.

ويا أيها الجيران الطيبون! لماذا لم تنبهوني إلى أن فرحي يؤلمكم؟ لماذا تنهمر موسيقاكم المأخوذة من لحمي على نوافذي كل ليلة، ولا أحتجّ. متى تخرجون من حلقي أيها الجيران، متى؟

وحين تأوي إلى الفراش لتنام، تقتنع بأن الجيران كانوا على حق. في الصباح تعتذر لهم قائلاً: لا يحق لي أن أحتفل ما دمت جاركم. سامحوني أيها الجيران، فقد تبت عن الاحتفال.

١٥

تريد أن تستأجر شقة؟

تقرأ أبواب الإعلانات في الجرائد. وتقفز إلى التليفون: سيدتي.. قرأت إعلاناً عن شقتك، هل لي أن أراها؟

تصل إليك ضحكتها وسعادتها فتمتلىء بالأمل: الشقة ممتازة يا سيدي، على الكرمل. تعال واحجزها فوراً.

تنسى أن تدفع ثمن المكالمة التليفونية، وتسرع إليها. تعجب بك السيدة، وتتفق معها على شروط الدفع وميعاد تسلم المفتاح. وحين تجلس لتوقع على العقد تنزل الصاعقة على رأس السيدة: ماذا عربي؟ عفواً يا سيد... اتصل غداً!

تتكرر القصة عدة أسابيع. وفي كل مرة تعود خائباً تقرأ شرفات المنازل، وتسأل عن أصحابها الغائبين في رياح الهجرة والمنافي. كم من بيت بناه صاحبه ولم يسكنه. إن أصحاب هذه المنازل ما زالوا يحتفظون بمفاتيحها في جيوبهم وقلوبهم في انتظار العودة. العودة

إلى أين؟ لو عاد أحدهم إلى منزله فهل يسمح له باستعمال مفتاحه؟ أو هل بوسعه أن يستأجر غرفة واحدة في بيته. ويقولون لك: «إن الصهيونية لم ترتكب إثماً. كل ما في الأمر أنها أحضرت شعباً بلا وطن إلى وطن بلا شعب».

وتسألهم عمن بنى هذه البيوت. عندها ينصرفون عنك وينجبون مزيداً من الأطفال في بيوت مسروقة.

١٦

تريد أن تزور أمك في العيد؟

من شهور طويلة لم تزر أمك وأباك وإخوتك في قرية لا تبعد عنك أكثر من ساعة. تجتهد في اختيار الكلمات التي تتضمنها رسالتك إلى البوليس هذه المرة. تكتب: «أتمنى أن تأخذوا بعين الاعتبار المشاعر الإنسانية الخالصة التي آمل ألّا تروا فيها، هذه المرة، تصادماً مع حرصكم الشديد على صيانة متطلبات أمن الدولة ومقتضيات الدفاع عن سلامة الجمهور. وأرجو، بموافقتكم المنشودة على إصدار تصريح لزيارة أهلي في العيد، أن تبرهنوا على أن أمن الدولة ليس نقيضاً للحد الأدنى من فهم مشاعر الناس».

يغادر أصدقاؤك المدينة، وتبقى وحدك. تشرب القهوة وحدك وتحزن وحدك. كل العائلات يلتئم شملها غداً، وليس من حقك أن تقتحم بيت أحد. وتبقى وحدك.

الحل في البحر. في الصباح الباكر تذهب إلى الشاطىء وحدك وتطفىء نارك في الماء الأزرق. تأخذك الموجة ولا تعيدك. عليك أن

تعود وحدك. تتمدد على الرمل الساخن في الشمس والهواء والوحدة. لماذا تبذر الشمس نفسها إلى هذا الحد. ولماذا ينكسر الموج؟ الشمس كثيرة والرمال كثيرة والماء كثير. ويتكلمون حولك بلغة تفهمها فتشتد حزناً ووحدة واغتراباً. تنتابك رغبة في وصف البحر لصديقتك، ولكنك وحدك. بمناسبة.. وبدون مناسبة يشتمون شعبك ويستمتعون بآثار شعبك. حتى وهم يسبحون وهم يمزحون وهم يتبادلون القبل يشتمون شعبك. أليس بوسع البحر أن يمنحهم لحظة صفاء وحب، فينسونك قليلاً؟ كيف يملك المرء القدرة على الكراهية وهو متمدد على رمال الشاطىء! تذهب طافحاً بالملح والحنين والشمس إلى مقهى الشاطىء. تشرب البيرة وتصفر لحناً حزيناً فتنهال عليك النظرات. تشغل نفسك بإشعال سيجارة لا طعم لها، ثم تشتري ذرة صفراء وتأكل.وحدك. تتمنى لو تقضي اليوم كله على الشاطىء لتنسى أن اليوم عيد وأن أهلك ينتظرونك. ولكن، حان موعدك اليومي في محطة الشرطة فتذكر كل شيء. وتشتعل زرقة البحر والسماء في ومضة مفاجئة لها لون الظهيرة في عينيك. وتسير..

عند مدخل دائرة الشرطة ينتظرك أخوك الصغير، ويقول لك: أسرع. أثبت وجودك بسرعة. أمك تنتظرك في غرفتك. تنسى قلمك وروايتك وتعود لاهثاً. رفضت أمك أن تأكل طعام العيد بدونك، فجاءت وأحضرت لك كل شيء.. حتى الخبز والأطباق والقهوة أحضرتها معها من القرية.. حتى زيت الزيتون والملح والتوابل.

تودعك أمك في المساء. تقبلها وتغلق الباب خلفها. لا تستطيع مرافقتها حتى الشارع لأن الشمس قد غربت. ودولة إسرائيل لا

تسمح لك بمغادرة المنزل بعد غروب الشمس حتى لو كان السبب وداع أمك. تجد نفسك وحيداً في العيد من جديد. تجلس على كرسي قديم، تستمع إلى كونسرت رقم ١ لتشايكوفسكي، فتبكي فجأة كما لم تبكِ طفلاً.

من سنين طويلة تحمل هذا البكاء الذي ينهمر الآن. يا أمي! ما زلت طفلاً. أريد أن أحمل أحزاني وأركض بها نحوك كي أصبها في حضنك. أريد أن أقطع المسافات لأبكي في حضنك.

فجأة تناديك الجارة لتقول لك إن أمك ما زالت مسمرة خلف الباب. تخرج إليها، وتحقق أمنيتك في البكاء بين يديها!

١٧

أحياناً، يلقون عليك القبض وأنت ترتكب الحلم.

ولو فكرت ملياً، لما وجدت تهمة أخرى. فهذه الكتابة وهذه الخطابة ليست إلّا مظهراً من مظاهر تجلي الحلم في لغة. ما الفرق، إذن، في نظر القانون بين الحلم الصامت والحلم الصاخب.

ــ كنت تنوي أن تقول كلاماً آخر.

ــ كنت تنوي أن تفعل شيئاً آخر.

ويدهشك أيضاً أنك مستعد دائماً للإجابة عن تهمة لا تعرفها. وإذا لم يتهمك أحد بادرت إلى اتهام نفسك.

ـ ماذا فعلت من أجل أي شيء؟

ـ ماذا في وسعك أن تفعل من أجل أي شيء؟

تصعد، يوم السبت، إلى الجبل ولا تدرك الفجر أبداً. تدهشك العلاقة النادرة بين الشمس والسجون. هذه الشمس ــ متى رأيت ولادتها لأول مرة! لا تكذب ولا تقل إنك بحثت عنها في نزهة أو معركة. أيقظوك في ساعة مبكرة ووضعوا زنديك في حديد جديد، وأخرجوك إلى ساحة السجن. وهناك شاهدت ولادة الشمس لأول مرة. لا تكذب ولا تقل إنها لم تكن جميلة، وإنك لم تشعر بالحياء.

تصعد، يوم السبت، إلى الجبل. لا ليس هذا جبلاً، فالكرمل مئذنة اللّه. تطل منها أشجار تغطي مدافع مضادة للطائرات والجمال. لو وقف هنا مؤذن وهمس: حي على الصلاة، لامتلأت مساجد دمشق بالمصلين. ويمر عنك العشاق والجنود «هل كان البيت، والقرية. والحياة التي نخلقها هنا.. هل كانت عزيزة وحقيقية وعادلة إلى هذا الحد قبل الآن» ــ هكذا يقولون بعد الحرب والانتصار. وهكذا تقول أنت أيضاً بعد الحرب والهزيمة. ويقولون: «مع كل خطوة على هذه الطبيعة تتراجع الظلال وتحتلك الخضرة والأمل». وهكذا تقول: «مع كل خطوة على هذه الطبيعة يسقط قلبي وتحتلني الخضرة والأمل والغزاة».

ويلقون عليك القبض وأنت ترتكب الحلم.

ــ ماذا كنت ستفعل لو انتصرتم في الحرب!؟

تجيبهم: أصعد إلى الجبل. أختار أية صنوبرة. أجلس. أمد قدمي في

البحر الأبيض المتوسط. أضع يدي على شعر السماء. وأتابع الحلم كما أفعل الآن تماماً.

ــ ما هكذا يفعل المنتصرون.

ــ لم أنتصر مرة واحدة في حياتي لأعرف كيف يسلك المنتصرون.

وتشعر أنك لم تعد مواطناً. تاريخك أحلام تتمزق كأوراق الجرائد. وكل حلم فجيعة.

ماذا تنفعك اليرموك والقادسية والمعارك السابقة؟ ولماذا أنت! لماذا أنت! جميل هو الكرمل.. وقريبة هي السماء، والنصر بعيد. وماذا فعلت من أجل أي شيء؟ لا شيء. تجد نفسك خارج الحرب وخارج الانتصار وخارج الهزيمة وخارج إنسانيتك.

هكذا تصبح شجرة أو حجراً أو أي شيء في الطبيعة!

من يقتل خمسين عربياً يخسر قرشاً

هنا ينامون. أسماؤهم كثيرة وموتهم واحد. كانوا متعبين وكان الغروب صغيراً، فسقطوا بسهولة ولم يقولوا شيئاً لأن الموعد كان مفاجئاً. وماذا لو أحيطوا علماً؟ فالوصايا معهم.. والعائلة كلها عائدة من العمل، والعالم ليس لهم.

هنا ينامون. نالوا عقاباً على جريمة غامضة. لم يخرجوا في مظاهرة واحدة، ولم يدافعوا عن الحياة والتراب إلّا بالصلوات. كانوا يخرجون من البؤس في الصباح الباكر ويعودون إلى البؤس في الغروب الباكر. وكانوا ينتظرون المطر، فجاءهم الموت في غزارة المطر.

هنا ينامون. ويكبر الغروب، ويتحول إلى غابات من الشجر الجاف. لا وقت لذكراهم ولا مناسبة ولا موعد. الحجارة هي الوقت، وامتداد الغروب الذي لا لون له هو الوقت. وماذا نسميهم؟

ليست مذبحة كفر قاسم يوماً للذكرى. وليست مرحلة يغلبها النسيان. إنها تاريخ كراهية ممتد منذ استل هرتسل سيفه من التوراة وأشهره في وجه الشرق. فسكان هذه القرية المسحوقة المهملة لم يفعلوا شيئاً يثير غضبة أحد ولو كان عدواً متطوعاً. لم يقاتلوا إلّا الطبيعة القاسية والبؤس الأسود. فمن أجل ماذا ماتوا؟ لم يموتوا من أجلنا كثيراً. هم ضحايا لا شهداء. وتلك هي مأساتهم المزدوجة، وذاك هو حزننا المزدوج عليهم. في وسعنا أن نقول لهم ماتوا من أجل أن نعمق كراهيتنا للظلم والاغتصاب. ومن أجل أن نعمق عبادتنا للأرض. ولكننا لا نحتاج إلى هذا البرهان الضاري. إننا قادرون على تنمية حاسة الحب والكراهية بدون هذا الموت المجاني. فمن أجل ماذا ماتوا إذن؟

ليس من أجلنا، بل من أجل القتلة. لكي يمتلىء الصهيوني بالإحساس بأنه قادر على أن يمثل دوراً في التاريخ غير دور الضحية. من أجل هذا البرهان يتلذذ بالقتل. «إما أن أكون قاتلاً وإما أن أكون قتيلاً». هذا هو الخيار الضيّق الذي وضعه لنفسه.

في المحكمة ــ المسرحية، استجوب المحامي جندياً إسرائيلياً من الذين اشتركوا في المذبحة:

ــ هل صحيح أنك تعمل في البلاد، وأنه طيلة حياتك أدخل إليك الشعور بأن العرب هم أعداؤنا؟

الجندي: نعم.

المحامي: هل صحيح أنك تحمل هذا الشعور نفسه تجاه العرب في إسرائيل والعرب خارجها؟

الجندي: نعم. ليس عندي أي فرق.

المحامي: هل صحيح أنك شعرت بأنك إذا لم تنفذ الأمر بقتل كل عربي في كفر قاسم إذا رأيته خارج بيته، فإنك تكون قد خنت الروح التي تربيت عليها في الجيش وفي حرس الحدود؟

الجندي: نعم.

المحامي: لو كنت تسير، أيام الحرب، في أحد شوارع يافا مثلاً، ولقيت عربياً، فهل تطلق الرصاص عليه؟

الجندي: لا أعرف.

القاضي: لو جرى معك في كفر قاسم ما يلي: بعد الساعة الخامسة نادتك امرأة، وكنت متأكداً من أنها ليست خطرة ولا تهدد الأمن. فقط نادتك وأرادت أن تسألك سؤالاً أو تطلب منك السماح لها بالعبور إلى بيتها. ولنفترض أن هذا كان في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة مثلاً، فلو كانت هذه المرأة تبعد ١٠ أمتار عن بيتها وهي تطلب منك السماح لها بدخوله. ماذا تفعل؟

الجندي: لا أسمح لها.

القاضي: ماذا كنت تفعل؟

الجندي: إذا كانت في الشارع.. أطلق عليها الرصاص.

القاضي: ولكن لم يكن أي خطر. كل ما في الأمر أن شخصاً ما، بسبب خطأ ما، أو بسبب أنه لم يعلم بأمر منع التجول

توجه إليك وأراد، بإذن منك، قطع الشارع. السؤال هو: إنك، رغم ذلك، كنت ستقتل كل واحد أم أنك كنت تميز وتمتنع عن القتل في حالات معينة؟

الجندي: ما كنت أميّز.

القاضي: هل كنت ستقتل كل واحد؟

الجندي: نعم.

القاضي: حتى لو كان ذلك الشخص امرأة أو طفلاً؟

الجندي: نعم.

القاضي: كنت تقتل كل من تراه.

الجندي: نعم.

وهذا ما حدث فعلاً ..

طفل عمره ثماني سنوات، واسمه طلال شاكر عيسى. هربت عنزة من ساحة داره إلى الشارع. لا الطفل ولا العنزة يفهمان بأن أمر منع التجول قد أصبح ساري المفعول في القرية منذ دقائق معدودة. ركض الطفل وراء العنزة، فانهمر رصاص بندقية وأرداه قتيلاً.

لحق به أبوه، فاستأنفت البندقية مهمتها.

ركضت الأم نحو زوجها وابنها، فاستأنفت البندقية مهمتها. لحقت الابنة نورة بوالديها وأخيها، فاستأنفت البندقية مهمتها.

وماذا كانت مهمة البندقية؟

عشية الهجوم الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، دعا اللواء شدمي الرائد مالينكي إلى مقر قيادته، وأبلغه بالمهمات الملقاة على الوحدة الخاضعة له. كانت إحدى هذه المهمات التي ألقيت على عاتق حرس الحدود في المنطقة الوسطى فرض منع التجول وبقاء السكان داخل بيوتهم في قرية كفرقاسم والقرى المجاورة لها، ابتداء من الساعة الخامسة مساء حتى السادسة صباحاً. ودار بين القائدين الحوار التالي كما ثبت في قرارات المحكمة المركزية فيما بعد:

شدمي: يجب أن يكون منع التجول حازماً جداً، وتتم المحافظة عليه بيد قوية، لا بواسطة اعتقال المخالفين، وإنما بإطلاق النار عليهم. ومن الأفضل قتلهم بدلاً من تعقيدات الاعتقالات.

مالينكي: وما هو مصير المواطن الذي يعود من عمله خارج القرية، دون أن يعلم بأمر منع التجول، ومن المحتمل أن يقابل في مدخل القرية وحدات من حرس الحدود؟

شدمي: لا أريد عواطف. الله يرحمه!

وبانتهاء الحوار السريع والحازم، قدم مالينكي إلى ضابط قوات الاحتياط التابع لفرقته أمراً يتضمن العبارة التالية: «لا يسمح لأي ساكن أن يترك بيته خلال منع التجول. ومن يترك بيته تطلق عليه النار. ولا تكون اعتقالات».

ودار الحوار التالي بين مالينكي وبين جنوده، كما ثبت في قرارات المحكمة المركزية فيما بعد:

جندي: ماذا نفعل بالمصابين؟

مالينكي: يجب عدم الاهتمام بهم. أو يجب عدم نقلهم. أو لن يكون هناك جرحى. [حسب الشهادات التي وردت في المحكمة].

قائد أحد الأقسام: وماذا بشأن النساء والأطفال؟

مالينكي: بدون عواطف.

القائد نفسه: وماذا بشأن العائدين من العمل؟

مالينكي: حكمهم كحكم الجميع. الله يرحمهم. هكذا قال القائد.

في اليوم ذاته، وفي الساعة الرابعة والنصف، أي قبل سريان مفعول منع التجول بنصف ساعة فقط، كان رقيب من حرس الحدود يبلغ مختار قرية كفرقاسم بفرض منع التجول ابتداء من الساعة الخامسة مساء وحتى السادسة صباحاً. وحذره بأن منع التجول سيكون حازماً ويتضمن خطر الموت. وطلب منه أن يعلن ذلك في القرية. فأخبره المختار أن أربعمائة عامل من كفرقاسم موجودون، في هذه اللحظة، في أماكن عملهم خارج القرية. قسم منهم في أماكن قريبة. وقسم آخر في أماكن بعيدة مثل يافا واللّد. وأنه من المتعذر عليه إبلاغهم بأمر منع التجول في مثل هذه الفترة القصيرة. بعد المناقشة وعد الرقيب المختار بأنه سيسمح للعائدين من العمل بالمرور على عاتقه وعلى عاتق الحكومة!

وعلى عاتقه.. وعلى عاتق الحكومة، تمّ في الساعة الأولى من منع التجول.. بين الخامسة والسادسة مساء قتل سبعة وأربعين مواطناً عربياً من قرية كفرقاسم على أيدي حرس الحدود. ومن بين القتلى

سبعة أولاد وبنات وتسع نساء.

بعد عشر سنين من المذبحة التي روت عطش الإسرائيلي إلى الدم العربي الأعزل روى أحد الذين نجوا من المذبحة بأعجوبة (صالح خليل عيسى) للشاعر توفيق زياد شهادته على المجزرة:

«في ذلك اليوم كنت أعمل في بيارة مع اثنين من أبناء عمي. أنهينا العمل بعد الساعة الرابعة بقليل، وركبنا دراجاتنا عائدين إلى القرية. في الطريق التقينا بعمال آخرين قالوا لنا إن في القرية منع تجول وإطلاق رصاص ولا أحد يعرف لماذا. هكذا سمعوا. بعد تردد قررنا مواصلة الطريق. كان عددنا يزداد حتى أصبح خمسة عشر عاملاً. صرنا على بعد كيلومتر من القرية. لم تكن لدينا مخاوف جدّية. احتمال واحد كنت أفكرْ به.. وهو أن يتعرض لنا ضابط قوة الحدود «بلوم». ربما سيشتمنا ويضربنا قليلاً كالعادة. ولم أفكر بشيء آخر.

بعد قليل سمعنا صوت إطلاق رصاص. بدأت أحسّ أن المسألة خطيرة. قلت لابن عمي: فلنرجع. راح يشجعني. وكان معنا شيخ في حوالى الستين راح يشجعنا بآيات قرآنية. واقتربنا حتى صرنا على بعد مائة متر عن أقرب بيت في القرية.

فجأة.. ظهر رجل من حرس الحدود واعترض طريقنا: قفوا! وحتى تلك اللحظة، فإن ما كنت أتصوره هو الضرب.. لا الموت.

نزلنا عن الدراجات. وأمرنا الجندي بالوقوف في صف:

ــ من أين أنتم؟

□ من كفرقاسم. صحنا بصوت واحد.

ـ وأين كنتم؟

□ في العمل.

ابتعد عنا نحو خمسة أمتار، حيث كان اثنان من زملائه يحمل كل واحد منهما مدفعاً رشاشاً وصاح:

ـ احصدوهم!

ولم أصدق إلّا عندما راح الرصاص ينهمر في اتجاهنا. الرشة الأولى على أرجلنا. والثانية أعلى قليلاً. وسقطت مع الآخرين. كانت بجانبي عربة خيل كانوا قد احتجزوا صاحبها وأطلقوا عليه الرصاص معنا. سقطتُ خلف العربة، لا أعرف كيف. شعرت أنني ما زلت حياً فقط بعدما سقطت. وهذا كل شيء. وابتعد عنا الجنود الثلاثة نحو عشرة أمتار.

وجاءت، بعد لحظات، سيارة شحن. أوقفوها. أمروا ركابها بالنزول. كان فيها كثيرون (عرفت فيما بعد أن عددهم كان ثلاثة وعشرين) من عمال شركة أساميا للزراعة.

تقدم منهم الآمر نفسه الذي أصدر الأمر بإطلاق الرصاص علينا، وأمرهم بالنزول والاصطفاف خلف السيارة. وبعد أن اصطفوا خلف السيارة ملتصقين، ابتعد عنهم ذلك الآمر ثم صرخ:

ـ احصدوهم!

هرب البعض. وسقطت الأكثرية.

وعاد القتلة الثلاثة حيث كنت وباقي ركاب الدراجات القتلى، وأخذوا يكومونهم في كومة واحدة على بعد ثلاثة أمتار مني. كانوا يستعملون بطاريات ويطلقون الرصاص. إنهم يجهزون على الجرحى.

واقتربوا مني. سحبوا العربة بعيداً. دولابها الحديدي مشى بكل ثقله على قدمي. كنت أصرّ بأسناني حتى لا أصرخ. تظاهرت بأني ميت. سحبوني ووضعوني على الكوم.. وابتعدوا.

بعدما كوّموا قتلى سيارة الشحن على بعد عشرة أمتار منا، جاءت سيارة شحن أخرى كان فيها شخصان. قتلوهما. وسمعت هدير سيارة جيب آتية من الطريق الشرقي.. من ناحية القرية. كانت مطفأة. سمعت لغطاً ورأيت شخصاً ينزل منها. لم أفهم الكلام إذ كانوا على بعد عشرين متراً مني. ثم عادت السيارة من حيث أتت.

وسادت فترة هدوء.

ورأيت القتلة الثلاثة يسيرون ثم يجلسون على بئر القرية. ثم جاءت سيارة شحن. [لعلك لاحظت أنهم كانوا يقتلون كل فوج جديد على بعد بضعة أمتار من الذي سبقه في الاتجاه المعاكس للقرية، حتى لا يرى الفوج الجديد مصير سابقه] ولكن السيارة التي أشرت إليها مرت على أكوام القتلى. ويبدو أن القتَلَة ما عادوا يكترثون بأن يلاحظ الضحايا الجدد مصير الذين سبقوهم أم لا يلاحظون. ومرت السيارة من جانب كوم القتلى الذي كنت فيه.

سمعت أصواتاً نسائية. كان في السيارة كما عرفت فيما بعد ثلاث عشرة امرأة من اثنتي عشرة سنة فما فوق، وأربعة رجال.

وفجأة، ركض القتلة الثلاثة وراء السيارة، وأوقفوها، وأنزلوا ركابها.

وفكرت. السيارة تبعد عني من عشرين إلى خمسة وعشرين متراً. وشعرت بقوة هائلة تنفضني. وقفت ورحت أركض. لم أدر كيف قفزت عن سياج أمامي. كنت أركض في اتجاه موازٍ للسيارة دون أن أعي. ومثل المطر، انهمر الرصاص في اتجاهي. واختلط صوت الرصاص بزعيق النساء وأصوات ارتطام أجسامهن بالأرض. وأحسست بالرصاص يخترق ثيابي. عندها فقط عرفت أين أنا. انبطحت. ثم رحت أحبو على يدي ورجلي في كرم زيتون. كنت أتصور الزيتون مملوءاً جيشاً وسيارات عسكرية، وأنه من الممكن أن أصطدم بهم في كل لحظة. وخلف صخرة كبيرة، تحت زيتونة، اختبأت وأنا أفكر بالموت الذي يمكن أن يغتالني في أية لحظة. بقيت هناك حتى الصباح والدم ينزف من جرحين في يدي ورجلي. وفي الصباح اكتشف موضعي جنديان، ونقلت إلى المستشفى».

في صباح اليوم التالي، بحث المجرمون عن وسيلة لدفن الجريمة. أحضروا أشخاصاً من القرية المجاورة ــ جلجولية ــ إلى مقبرة كفرقاسم، وأمروهم بأن يحفروا سبعة وأربعين قبراً. لم يعرف المكلفون بحفر القبور شيئاً عن الجريمة. كان عليهم أن يحفروا وكفى.. ومن يومها، كبرت مقبرة كفرقاسم وصارت مزار شعب، ودليلاً على «طهارة» السلاح اليهودي في إسرائيل!

لم تنته الجريمة بدفن الموتى. لم تنته المجزرة بجفاف الدم. فلكي تستكمل عملية القتل شروطها الإسرائيلية، كان لا بد «للضمير الإسرائيلي» المشهور بالحساسية تجاه أي خدش يصيب أي يهودي في أي مكان من العالم، من دخول تجربة الاختبار الإنساني. كان لا بد من البحث عن حقيقة وجود هذا الضمير الحساس. كان الضمير غائباً.. غائباً لأن ضحايا المجزرة عرب. ويبدو أن شرعية قتل العرب أو عدم الاكتراث تجاه قتلهم أصبح حالة تلقائية سائدة في المجتمع الإسرائيلي الذي ربي على غريزة العداء لهذه المخلوقات التي تعكر صفو «النقاء» اليهودي في فلسطين. كان الصمت السادي أو المبتهج سائداً. ولم تخرج عن قانون الصمت إلّا بعض الأقلام التي آلمها انتهاك شروط السمعة الطيبة للسلاح اليهودي التي يروّجها دعاة الجرائم الصهيونية. لم تكن قصيدة الشاعر الإسرائيلي البارز ناتان الترمان دفاعاً عن العدالة الصريعة على مدخل كفرقاسم، بقدر ما كانت دفاعاً عن سمعة مجتمع الاغتصاب الإسرائيلي:

«لا ينبغي الكتابة عن شيء آخر.

لا كتابة قصة ولا قصيدة، لأن اللغة العبرية ترفض أن تمر بصمت على هذا العمل القذر الذي جرى في إسرائيل.

هذه هي طبيعة هذه اللغة. وهذه صفتها.

يقولون: سنجري محاكمة ـــ وينتهي الأمر. سيتكلم العدل ويصدر حكمه.

يقولون: لنترك ذلك للإجراءات القضائية. أولا يكفي ذلك؟

ـ لا. ذلك ليس كل شيء.

إن القضاء أبجدية مفروغ منها، لأنه لا يمكن للجريمة ألّا توقظ القانون.

لكن قبل المحاكمة وبعدها ـ سيظل ينقص هذه القضية مبدأ كبير.

لا يمكن أن يقوم مجتمع إنساني حدثت فيه مثل هذه النذالة،

دون أن تثور فيه رعشة وغضب.

غضب جماهيري يحمل السخط الإنساني والفردي.

سخط الرجال والنساء.

ذلك لأنه بدون هذا يكون القضاء ردّ فعل ميكانيكي، مبرمج وآلي،

ردع فعل يدور في فراغ وليس في وسط شعب واع متيقظ الحواس».

ولقد دمّر الكاتب بوعز عبرون ادعاء السمعة الأخلاقية والروحية التي يروّج لها دعاة السلطة الإسرائيلية، فكتب «منذ الجريمة ونحن في امتحان. لقد وضعت استقامتنا وإنسانيتنا وشجاعتنا في امتحان فشلنا في اجتيازه». وعدّد أربعة مذنبين: «الأول، الصحافة. فباستثناء صحيفتين أو ثلاث صحف من الشواذ، اتفقت الصحافة على مؤامرة صمت وأسدلت ستاراً على الجريمة. فبدلاً من الكتابة عن القتل والجريمة في كفرقاسم، كتبت عن «مصيبة» وعن «خطيئة» وعن «الحادث المؤسف». وحين كتبت هذه الصحف عن

ضحايا المصيبة لم يعد واضحاً عمن تتحدث: عن القتلى أم عن القتلة. «المذنب الثاني هو القيادة الدينية والأوساط الدينية في البلاد. هؤلاء الذين يطلبون سلطة لكي «يسيطر الخلق اليهودي» و«روح جدنا إسرائيل». هؤلاء صمتوا بلا مبالاة كاملة. حتى ولا شخصية دينية واحدة هبّت لتنقذ شرف الديانة اليهودية». «المذنب الثالث هو القيادة الأكاديمية. فباستثناء قليل من «المجانين» لم يوجد تقريباً بروفسور أو محاضر واحد يصرخ «هذا قتل». «والمذنب الرابع هو القيادة الأدبية ـ الفنية. فمنظمة الأدباء التي عرفت دائماً أن «تحتج بكل شدة» وأن «تتوجه إلى ضمير العالم المستنير» صمتت وما زالت صامتة وستصمت». وأضاف الكاتب: «وماذا عن الأحزاب التي كانت تجلس طوال ذلك الوقت كله في الحكم ملوّحة بشعارات السلام والعدل وأخوة الشعوب؟ أين كان الثوريون؟ وأين كنا نحن.. المواطنين البسطاء الذين أحسسنا بالقرف والاحتقار، ونحن نشاهد رقصة الجن؟».

رقصة الجن هي المحاكمة.

وهي الفصل الثالث في الجريمة التي بدأت بالقتل ثم الصمت.. ثم المحاكمة. تمهيداً للمحاكمة ـ التي راوغت الحكومة في إجرائها ـ تجري مصالحة مهينة بين حكومة إسرائيل وبين ذوي ضحايا كفرقاسم!

خصصت وزارة الدفاع مبلغ مائة ألف ليرة ثمناً لخمسين ضحية عربية.

أرخص ثمن في التاريخ.

وتمت التسعيرة بالشكل التالي: ألفا ليرة لمن هو في الخامسة عشرة. ألف ليرة سعر ما دون الثامنة. المتزوج وليس له أولاد ثمنه ثلاثة آلاف ليرة. المتزوج وله ولد واحد يساوي أربعة آلاف ليرة. المتزوج وله أكثر من ولد واحد يساوي خمسة آلاف ليرة. وبالوسائل الإسرائيلية، المعروفة وغير المعروفة، فرضت السلطة المصالحة والتعويضات.

ثم .. بدأت محاكمة القتلة، بعدما أدين القتلى!

بعد سنتين من وقوع الجريمة، أصدرت المحكمة التي استغرقت وقتاً طويلاً قراراتها. ما أجمل أن توزع السلطة العسكرية أدوارها بين قاتل وقاض وشاهد.

وفي حكمها «العادل» قررت المحكمة أنها وجدت الرائد شموئيل مالينكي والملازم جبرائيل دهان مذنبين في قتل ثلاثة وأربعين مواطناً. فحكمت على الأول بالسجن لمدة سبع عشرة سنة وعلى الثاني خمس عشرة سنة. أما المتهم الثالث شالوم عوفر، الذي ارتكب بصورة رهيبة أكثر عمليات القتل ــ كما جاء في كتاب المحامي صبري جريس استناداً إلى قرارات المحكمة المركزية ــ فقد وجد مذنباً مع دهان بقتل ٤١ مواطناً وحكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة. أما المتهمان الرابع والخامس ــ الجندي مخلوف حريش والجندي إلياهو إبراهام ــ فقد وجدا مذنبين بقتل ٢٢ مواطناً. والمتهمون السادس والسابع والثامن ــ العريف جبرائيل عوليل، والجندي ألبرت فحيمة، والجندي ادموند نحماني ــ فقد وجدوا مذنبين بقتل ١٧ مواطناً، وحكم على كل واحد منهم ومن الاثنين السابقين بالسجن لمدة ثماني سنوات. وبرأت المحكمة

المتهمين الثلاثة الباقين.

ومع أن هذه الأحكام الخفيفة ــ التي تنطوي على تشجيع مزيد من القتل تحت غطاء التسامح القانوني ــ قد أثارت دهشة المواطنين العرب وقلقهم على مستقبلهم، فإنها قد أثارت سخط المتطرفين اليهود في إسرائيل الذين ادعوا أن القتلة قاموا بواجبهم القومي. ولم يتورع بعض الصحف الإسرائيلية عن المطالبة بإصدار العفو عن القتلة.

ولم يكن مدهشاً ومفاجئاً أن يستجيب المسؤولون الإسرائيليون إلى هذه المطالبة الشعبية، فقد وجدت المحكمة العسكرية العليا للاستئناف أن الحكم الصادر على القتلة كان قاسياً جداً ومن الواجب تخفيفه، فأصدرت حكماً بخفض الحكم على مالينكي إلى ١٤ سنة، وعلى دهان إلى عشر سنوات، وعلى عوفر إلى تسع سنوات. ثم تدخل رئيس أركان الجيش فخفض الحكم على مالينكي إلى عشر سنوات، وعلى دهان إلى ثماني سنوات، وعلى بقية القتلة إلى أربع سنوات.

وجاء رئيس الدولة ليعمق مبادىء عدالة القتل الإسرائيلي، فمنح كلاً من مالينكي ودهان عفواً جزئياً وخفض الأحكام عليهما إلى خمس سنوات!

لقد أخذت سلسلة التخفيفات هذه شكل المباراة في تقديم المكافآت إلى القتلة تقديراً لنجاحهم في القتل بدم بارد، فتبرعت «لجنة إطلاق سراح المسجونين» بخفض الثلث من مدة السجن لكل واحد من المحكوم عليهم. وأطلق سراح آخر واحد من القتلة

في بداية عام ١٩٦٠. ووجد المسؤولون الإسرائيليون أن جبرائيل دهان الذي قتل ٤٣ عربياً خلال ساعة واحدة يستحق وظيفة مدنية جديرة بصلات الدم التي تربطه بالعرب، فأعلنت بلدية الرملة في العام ذاته أنها قبلت دهان للعمل فيها بوظيفة «المسؤول عن شؤون العرب في المدينة».

وماذا عن اللواء شدمي الذي أصدر أوامره إلى مالينكي؟ وأوصاه بأن ينشر بين جنوده تعاليم «بدون عواطف»؟ وماذا عن المصدر الكبير الذي تلقى منه شدمي الأوامر العليا؟ إن محاكمة شدمي، بصورة حقيقية، ستكشف النقاب عن المصدر الأعلى للأوامر. ولذلك، قدم شدمي أمام محكمة عسكرية صورية عيّن أعضاءها رئيس أركان الجيش.

تمت المحاكمة بشكل سريع. ووجدت المحكمة أن شدمي مذنب في «خطأ تِقَني فقط». ولهذا حكمت.. بتوبيخه. وبدفع غرامة مالية قدرها: قرش إسرائيلي واحد.

لعل قرش شدمي أثمن عملة في تاريخ الجرائم. ستطول شهرته كثيراً ما دام للجريمة مكان على سطح الكرة الأرضية. إن المسؤول عن قتل تسعة وأربعين مدنياً بريئاً في قرية آمنة يعاقب بدفع قرش واحد. هذا لا يحدث كثيراً.. لا يحدث كثيراً في التاريخ، إلّا عندما يتعلم أبناء ضحايا النازية كيف يقلدون قتلتهم. هذا هو الدرس الذي تعلمه أصحاب التطبيق الصهيوني على أرض فلسطين.

وماذا كتب آحاد هعام ــ المفكر اليهودي الذي كرّس حياته

لدعوى الصهيونية ومقاومة اندماج اليهود في أوروبا الشرقية؟ ماذا كتب حين شاهد، بعينيه سلوك المهاجرين اليهود إلى فلسطين عام ١٨٩١، وقبل أن ينشئوا دولتهم؟ كتب: «وماذا يفعل إخواننا المهاجرون اليهود في فلسطين؟ كانوا عبيداً في بلاد الدياسبورا، وفجأة وجدوا أنفسهم وسط حرية لا رادع لها. ولقد ولد هذا التحول المفاجىء في نفوسهم ميلاً إلى الاستبداد، كما تكون الحال عندما يصير العبد سيداً. وهم يعاملون العرب بروح العداء والشراسة، ويمتهنون حقوقهم بصورة معوجة ولا معقولة، ثم يوجهون لهم الإهانات دون أي مبرر كاف ويفاخرون بتلك الأفعال فوق كل ذلك. وليس هناك بيننا من يقف بوجه هذا الميل الخسيس والخطير في آن واحد». إذا كان آحاد هعام الصهيوني الكلاسيكي قد اشتكى من شراسة المهاجرين الأوائل، قبل أن ينشئوا دولة ويملكوا جيشاً وسلاحاً، فماذا من الممكن أن يكتب المراقب الآن؟

لم تكتف غريزة الجريمة لدى الحكم الإسرائيلي بقتل ٤٩ عربياً في كفرقاسم، وتبرئة المنفّذين، وبعدم محاكمة المسؤولين لأن ذلك يعني محاكمة الكيان الإسرائيلي من أساسه. لم تكتف بذلك، وإنما امتلكت من السادية والنفاق قدراً جعلها تبتز من الضحايا اعترافاً بالشرعية وتأييداً للسلاح الفاتك. فبالوسائل الإسرائيلية ابتزت السلطة الإسرائيلية، بعد المجزرة مباشرة، تأييداً للحزب الحاكم في الانتخابات البرلمانية. فقد حصل الحزب الحاكم القاتل على الأغلبية الساحقة من أصوات الناخبين في القرية المنكوبة. فصارت الجريمة مزدوجة: قتلوهم.. وأرغموهم على إعلان الولاء. لقد استجوبوا الجثث، واستنطقوها لتقول للغزاة القتلة: نعم!

أراد القتلة أن يصوروا ما حدث في كفرقاسم بأنه حادث، فهل هو حادث.. أم هو طبيعة ملازمة للممارسة الصهيونية على أرض فلسطين، وسياسة مستمرة تجاه المواطنين العرب الواقعة تحت الأسر الإسرائيلي؟ لقد قالوا عن دير ياسين أيضاً أنها حادث، فهل يكون الحادث حادثاً إذا تكرر عشرات المرات. إن القتل بدم بارد، والعنف المسلّح هما فلسفة إسرائيلية. وقد ملأ الفكر الصهيوني صفحات كثيرة لإعطاء العنف شرعية مستمدة من الحاجة إلى قيام إسرائيل والمحافظة عليها. وقد نلاحظ أن بعض الصهيونيين الليبراليين إنما يعارضون بعض مظاهر العنف عندما يضيع الفارق بين العنف الذي يرمي إلى تحقيق هدف سياسي وبين العنف الذي يرتكب جريمة ليس وراءها هدف غير الانتقام الحيواني. وهذا ما يفسّر غضبة آحاد هعام الشهيرة، لأن الموقف المتكامل من معارضة العنف الصهيوني إنما يستدرج صاحبه إلى رفض القاعدة القانونية التي نشأ عليها كيان إسرائيل، وهي العنف المسلّح. ولكن ما جرى في كفرقاسم يتجاوز مفاهيم العنف المسلّح الذي يجد له تبريراً سياسياً لدى البعض. فلم تكن الجريمة هناك مثل جريمة دير ياسين مثلاً التي هدف الغزاة منها إلى دبّ الفزع بين العرب لدفعهم إلى الرحيل وحققت أهدافاً سياسية لمصلحة التوسع والانتصار الإسرائيليين. ولم تكن الجريمة «وقائية» للمحافظة على أي مطلب من متطلبات الأمن الإسرائيلي، إذ لم يهدد عمال كفرقاسم وفلاحوها وأطفالها ونساؤها أمن دولة إسرائيل، ولم يعرقلوا اندفاع جيشها نحو سيناء! الجريمة هنا خططت ونفّذت بدون «ضرورة» و«حاجة» إذا جاز التعبير. إنها جريمة من أجل الجريمة. إنها أعلى أشكال الجريمة التي تحركها غرائز القتل والانتقام. وقد عبّر عن هذا النوع من العنف المسلّح الإرهابي الشهير مناحيم بيغن، حين كتب

أن أساليب العنف التي لجأ إليها الصهيونيون قبل ١٩٤٨ هي الطريق الوحيد الفعّال لتأمين الأهداف القومية في فلسطين، وأنها «أشبعت رغبة جارفة مكبوتة عند اليهود للانتقام». كان ذلك قبل ٤٨، فلماذا في كفرقاسم ٥٦؟ لعل فلسفة الوجود كما يفهمها الصهيوني الإرهابي «أنا أحارب إذن أنا موجود» تحتاج دائماً إلى ممارسة مستمرة وإلى برهان جديد. ولعل الصهيوني الإسرائيلي الذي يحمل رغبة مكبوتة للانتقام ــ كما يقول بيغن ــ محتاج إلى تجديد وجوده بطريقة وحيدة هي الحرب، وإلى ملء هذا الوجود بأسباب مستمرة لجدارة التفرد، وهي القتل والقتل والقتل. «كن أخي وإلّا قتلتك». هكذا يضيف فيلسوف الجريمة. وليس في وسع العربي الواقع في الأسر الإسرائيلي أن يؤاخي قاتله. وهكذا تبقى حلقة القتل مفرغة بلا نهاية.

ليس في الفكر الصهيوني نهاية للمبررات التي لا تحصى للعنف المسلّح الذي لا يفتقر إلى استلهام الديانة أيضاً. ولهذا، صار يهوشع بن نون بطلاً إسرائيلياً معاصراً بسبب وحشية أسلوبه في التعامل مع الشعوب غير اليهودية. هذه الوحشية التي تشكل تشابهاً تاريخياً مع التطبيق الصهيوني اليوم يحتاج له أصحاب القرار السياسي في إسرائيل كمصدر وحي وإلهام، وكركيزة تراثية لاستئناف البعث الإسرائيلي في فلسطين، على اعتبار أن كل جريمة تصير شرعية وقانونية من أجل تحقيق الهدف الصهيوني. وقد بلغ التطرف باستحضار إرهاب يهوشع بن نون مدى دفع بعض «العقلاء» الإسرائيليين إلى الدعوة لتحريم تدريس يهوشع بن نون في المدارس لأنه يشكل إفساداً لروح الشباب يجعله عاجزاً عن التعود على الحياة، بسلام، مع العرب في حالة تغير ظروف العلاقات بين العرب واليهود.

إن ما تدّعيه إسرائيل من حساسية تجاه ما تعدّه ظلماً لاحقاً باليهود في أي مكان بالعالم، سرعان ما يتحول إلى عمل إنساني مشروع حين تمارسه ضد العرب. وإن ما كان يعتبر وحشية عندما كان يمارس ضد يهودي، سرعان ما يتحول إلى واجب قومي يهودي عندما ينفذ بالسلاح اليهودي «الطاهر» عندما يتم تطبيقه ضد العرب. وليس عربياً القائل إن الصهيونية «تعتبر العمل الواحد حقاً وصواباً إذا قامت هي به وخطأ غير مشروع إذا قام به غيرها». القائل هو موشيه سميلانسكي الذي قال إن القومية اليهودية في فلسطين مبنية على أنانية عسكرية تؤمن بالعنف وبعيدة كل البعد عن الإنسانية.

خلاصة القول أن الجرائم التي ترتكبها إسرائيل ضد السكان العرب المدنيين والتي تمثل مذبحة كفرقاسم تجسيداً صارخاً لها، ليست ناشئة عن تطبيق «رديء» للتراث الصهيوني «الجيد»، ولكنها تطبيق جيد للتراث الصهيوني الرديء. وهذه النقطة بالذات هي التي تشكل صخرة صماء وعقدة مستعصية الحل أمام الذين يدافعون عن مبادىء الصهيونية «النظيفة» ويعترضون على التطبيق الإسرائيلي القذر لهذه المبادىء، أو الذين يعترضون على «الانتهاكات» الإسرائيلية «لقداسة» التعاليم الصهيونية. إن الاعتراض على الممارسة الإسرائيلية سيبقى محاولة لاجتراح المستحيل إذا بقي أسير الالتزام بفكرة الدفاع عن سلامة الإيديولوجية الصهيونية، وضرباً من ضروب خداع النفس وخداع الآخرين.

إن تراث الصهيونية وينبوعها «الصافي» هو الذي حلّل العنف والجريمة. كان جابوتنسكي واضحاً مع نفسه حين قال لمستشار الطلبة اليهود في فيينا: «تستطيع أن تلغي كل شيء: القبعات،

والأحزمة، والألوان، والإفراط في الشراب، والأغاني. أما السيف فلا يمكن إلغاؤه. عليكم أن تحتفظوا بالسيف، لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً ألمانياً، بل هو ملك لأجدادنا الأوائل. إن السيف والتوراة أنزلا علينا من السماء».

ليس التحدي الذي اختارته الصهيونية دائراً على القيم الإنسانية والتحدي الحضاري كما تدّعي، ولكنه التحدي حول أولوية الانتماء إلى العنف المسلّح وإلى السيف. وقد بلغت المنافسة حول هذه الصفة بمفكر صهيوني آخر هو جوزيف بيرديشفسكي حداً جعله يعترض على صحبة السيف والكتاب، فقال: «إن كلاًّ من السيف والكتاب يناقض الآخر بل ويقضي عليه كلياً. إن الفترة التي يعيشها الشعب اليهودي هي فترة عصيبة. وفي مثل هذه الفترات يعيش الرجال والأمم بالسيف وليس بالكتاب. إن السيف ليس شيئاً مجرداً أو بعيداً عن الحياة. إنه تجسيد مادي للحياة في أنقى معانيها، أما الكتاب فليس كذلك».

مثلما لا نجد نهاية، في الفكر الصهيوني، لمبررات الإرهاب والعنف المسلّح المستلهمة من الأحكام السياسية والذرائع الدينية، وعقدة الكبت التاريخي، كذلك لا نجد على الطبيعة الإسرائيلية نهاية لهذا التطبيق. دعا الرواد الأوائل إلى العنف، ومارسه الجنود الإسرائيليون وحرس الحدود، وادعى الدعاة أن السلاح الإسرائيلي أطهر سلاح وأن الغزاة الإسرائيليين هم أجمل الغزاة. وقد برهنوا هذه المزاعم، مرات كثيرة، وأثبتوا «جمالهم وطهارتهم» في كل طرائق تعاملهم مع السكان العرب، وبالذات مع عمال كفرقاسم وأطفالها. بغرامة قرش واحد فقط يسدل الستار على ذبح ٤٩ مواطناً.

وحين كنا نحاول دخول كفر قاسم لمشاركتها في إحياء ذكرى ضحاياها، كان حرس الحدود إياهم... القتلة إياهم يضربون حصاراً حول القرية الثكلى، ويمنعون الزوار من نقل التعازي. هؤلاء القتلة الأبطال لماذا يخافون ذكرى ضحاياهم؟ ليس تأنيب الضمير هو الذي يدفعهم إلى قمع الذكرى، بل الكراهية والسادية، والشعور بالحاجة إلى برهنة وجودهم... موجودون دائماً مع الجريمة، وكأنهم يجددون عملية القتل كل سنة بمحاولة قتل الذكرى. ولكننا نعرف كيف نحيي ذكرى ضحايا المذبحة... ولقد عرف الشعب العربي في فلسطين كيف ينتقم لأبنائه: شدّ على تربة الوطن بأظافره وأسنانه، وقال للغزاة: لن أوقع صك الغفران. ومضت السلطة في الانتقام من هذا الشعب، وبلغ الانتقام أوجه حين دشّنت مدينة السرقة «كرمئيل» على أنقاض أراضي ثلاث قرى عربية في الجليل في يوم ذكرى مذبحة كفرقاسم بالذات، لتظهر للعرب حقيقة نواياها تجاههم، ولتدلهم على حديْ السيف الذي تحاربهم به: القتل مرة، ومصادرة الأرض مرة أخرى.

لم تكن كفرقاسم قرية ذات شأن في تاريخ فلسطين. ولا تستطيع الرؤيا الشعرية أن تستخرج منها لوحة جميلة. ولكن ذلك الغروب الواقف على حافة الدم جعل كفرقاسم المجهولة ملحمة شعب صابر. وحين وقفنا على مدخلها، ذات مساء، أحسسنا بضراوة الفرح المكبوت فينا. وعرفنا الجريمة التي ننال عليها كل هذا العقاب. وأدركنا أن الحجارة هي الوقت، فجلسنا عليها نغني للوطن.

الفرح.. عندما يخون!

١

علّموك أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية. من أين يأتيك فجأة!

تغزوك الأيام بذكريات لا تشبهك. كنت خارجاً، للتوّ، من الخامس عشر من أيار/ مايو. وكنت عاجزاً عن الالتصاق بالأشياء التي ابتعدت عن مسام جلدك. وقد مات جدّك الذي أوصاك بمراقبة الرابية المطلة على مصادر موته. أخوك يحب الخطابة، فوقف على الأطلال ووعد الجنازة القادمة بأنها ستكون أكثر حظاً من الأولى. لم تبلغ الثلاثين، ولكن محاذاة الموت تعطيك الحكمة. ومن الحكمة ألّا تبدو عاطفياً في حضرة الآخرين.

تنتهي مدة الحزن المحددة في تصريح سفر. تنسل من الجنازة الثانية وتعد أهلك بالعودة لزيارتهم في جنازة قادمة. فهذه هي المناسبة الوحيدة للحصول على إذن بالحركة. ما أشد العلاقة بين الموت

والحركة. وكنت خارجاً، للتو، من ذكرى الخامس عشر من أيار/ مايو. كنت مسرعاً إلى البيت لا لتسبق الشمس الغاربة، وإنما لتهرب من الأضواء المتفجرة في الشوارع في عيد مصرعك التاسع عشر.

ماذا قالوا لك في المرة الأخيرة؟

خياليون .. خياليون أيها العرب.

وفي كل ليلة، من كل عام، في مثل هذا اليوم يتحدد انتحارك الذي لا يشعر به أحد. الانتحار غالباً ما يكون تظاهرة. ولكن انتحارك سرّ. يهبط عليك يوم، يثقب جلدك وينتشر في عظمك رويداً رويداً كزلزال صغير لا ينتهي، لا يكبر ولا تنفجر.

الانفجار ــ هذا ما يشغل بالك. تنتظر هذه النهاية منذ عشرين سنة، ولا تأتي. لأن حالتك لا تفهم ولا تصل. ما أسهل أن تكتب قصيدة تجهض الانفجار. وما أسهل أن تحاور خصمك لتثبت ماذا؟ أن لك حقاً؟

وماذا قالوا لك في المرة الأخيرة؟

خياليون .. خياليون أيها العرب.

ولو أعطوك كل شيء، فماذا أنت فاعل. هل ترضى؟ هل تكف عن البحث عن نقطة انفجار؟ وهل تأمن الفرح؟ إن من سلبك كل شيء لن يعطيك أي شيء. ولو أعطاك أهانك. «كن عاقلاً واذهب إلى الطين» هكذا قلت لنفسك، ولم ترد على سؤالي: لو أعطوك كل شيء، فهل تأتمن الفرح؟ وتلتفت إلى إيامك وتصنف أجمل الشعارات التي حملتها وسرت بها إلى السجون:

تصريح سفر..

حرية تعبير..

مساواة..

وفجأة تضحك، تضحكك المساواة. وأنت تناضل لكي لا تأتمن الفرح.. ولقد علمتك الأيام أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية، فمن أين يأتيك فجأة؟

٢

تنتظر شيئاً آخر..

حالة الانتظار هي المبرر الوحيد لاقتناعك بمطالب تبقى صالحة، طيلة السنة، وتسفر عن سماجتها في منتصف أيار/ مايو دائماً.

لست مسؤولاً عن شيء مما مضى. ليس الماضي من صنع يديك وأخطائك. ولكنه ميراثك. هل ذهبت إلى طبريا مثلاً؟

تقرأ شعراً عبرياً في وصف هذه المدينة التي تحمل بحيرتها وتنزل إلى تحت. وأنت لا تراها. هل تكون تافهة رغبتك الجامحة في لقياها؟ وهل يكون كفاحك رخيصاً لو طالبت بالسفر إلى مدنك؟ لا. ولكنك تنتظر. ولماذا ترى طبريا ما دامت المدافع العربية تطل عليها وتعدك بها؟

تنام وجهاز الراديو ساهر في سريرك. تعرف أسماء المذيعين في كل الإذاعات العربية، ومواعيد نشرات الأخبار، وتلاوة آيات من الذكر الحكيم، والأغاني والتمثيليات. وكلها جميلة. كل ما يفعله العرب

جميل لأنه ظهرك. لا يعترض أحد على أصوات مضيفات الطائرة، فكلها أصوات جميلة ما دامت تعلن عن قرب هبوط الطائرة في مدينة ما. وكل المذيعين والعاملين في الإذاعة وعدوك بسلامة الوصول إلى المدن التي تشتهيها. ليس من حقك، الآن، أن تعرف الحقيقة لأن الحقيقة قد تعني انتهاء حقك في الانتظار. ويوم ثار الجدل بين النقاد على تحديد شخصية «جودو» اللامعقولة، لم تفهم دواعي الضجة، وكنت أذكى من كل النقاد ومن بيكيت نفسه. فمن انتظر عشرين عاماً يعرف جودو.

وهل ذهبت إلى قيسارية؟

تقرأ شعراً عبرياً في وصف هذا الشاطىء الذهبي، وتشعر بالنشوة. وحين كانت العرب تخطىء في نطق أسماء مدنك وقراك لم تكن تغضب عليهم ولا تعاتبهم. كنت تلجأ إلى دليل الأسماء العبرية وتفهم. ثم تبتسم للأخطاء العربية كما يبتسم الأب لأخطاء طفله الذي يتدرب على النطق.

وكنت تتساءل أحياناً:

ما هي العلاقة بين الغزاة وبين هذه الحجارة والمياه والأشجار؟ ولم تفطن إلّا في وقت لاحق إلى أن أدبهم السياسي والوجداني شديد الالتصاق بها بشكل يثير الدهشة، ويتعامل مع جزئيات وأشياء لا تراها. ليس هذا ذنبك. فمنذ بلغت الصبا حددوا إقامتك وصارت كتابتهم وسيلتك الوحيدة للتعرف إلى وطنك، مفارقة غريبة، أليس كذلك؟ باطل الأباطيل والكل زائل. ثم تفطن في وقت لاحق أيضاً إلى أن جانباً من جوانب صراعك هو التنافس الوجداني على حب هذه الأرض، وليس الدعوى الذهنية فقط. لقد زوجوا

الدعوى بالعاطفة. كيف؟ هل يكون الغازي عاشقاً إلى هذا الحد؟ لم يكتب الفرنسيون والأميركيون غزلاً في غابات فيتنام. ولكنهم يموتون وبدون حب. تخاف الفكرة، وتخشى أن يتحول المثل إلى حجة عليك، ولكن الجزائر تنقذك. فيهدأ بالك وترتاح إلى جدوى الانتظار.

وقد سألوك كثيراً:

خياليون.. خياليون أيها العرب. ما دام انتماؤكم إلى هذه البلاد حقيقياً وعميقاً فلماذا لا تكتبون شعراً في الطبيعة؟

الطبيعة.. ما هي؟ تخرج إلى الشرفة فيسرقك المساء ويعيدك الحارس. ومن ثقب سيارة الشرطة تعطي عينيك للطبيعة. كيف يجتمع الأزرق والأخضر والبرتقالي في إناء واحد ولا يختلط؟ تحافظ الألوان على استقلال جمالها وتجانسها المشترك: ينزل الكرمل إلى الشاطىء ليبدأ البحر. ينتهي البحر ليبدأ المساء. ينتهي المساء ليبدأ التحقيق:

ــ خياليون.. خياليون أيها العرب.

□ لماذا؟

ــ لأنكم لا تعترفون بالزمن!

□ ماذا تعنون؟

ــ مرت ١٩ سنة، وتطالبون بالأوهام.

□ تعلمنا صداقة الوهم منكم.

ــ ماذا تعني؟

□ مرت ٢٠٠٠ سنة، وتطالبون بالأوهام.

ـ هذه بلادنا.

□ وهذه بلادنا.

ـ نحن أقوى.

□ خياليون أيها الإسرائيليون.. خياليون.

ـ لماذا؟

□ لأنكم لا تعترفون بالزمن.

ـ ماذا تعني؟

□ القوة لا تخلق الحق. ونحن أقوى مع الزمن.

ـ ولكنها بلادنا، سندافع عنها.

□ بلادنا وسندافع عنها.

ـ نحتكم إلى السلاح إذن.

□ لقد احتكمتم. ونحن لم نحتكم بعد.

وكان حزيران/ يونيو خلف الباب

كنت تنتظر

وكانوا ينتظرون.

كن متفائلاً، واذهب إلى حزيران/ يونيو.

من هنا، جاءك الفرح فجأة. وقد علمتك الأيام أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية.

٣

صار الإسرائيلي العادي متأرجحاً بين النص والخبز. كان يقول «عدت» إلى أرض الميعاد تحقيقاً لرسالة البعث التاريخي للأمة اليهودية العظيمة. وفي حالات أقل مثالية كان يقول «جئت» إلى أرض الأمان لأنجو بجلدي من الاضطهاد النازي. «للغربان وطن وليس لي وطن». وفي حالات أكثر واقعية يقول «أعيش» على أرض إسرائيل، وليس لي من هدف إلّا الأمن والعيش بسلام. ولم يقرأ الحكمة القائلة «عدلت، أمنت، فنمت».

ولقد خفّ الإحساس الوطني الإسرائيلي، قبل حزيران/ يونيو، عندما واجه حقيقة الفارق بين «أرض الميعاد» في أناشيد الطلائع «أرض السمن والعسل وحلّ المشكلة اليهودية» وبين الواقع الذي أخذ شكلاً شديد القسوة في أيار/ مايو، عندما وصلت البطالة والغلاء ذروة خطيرة. وصارت الهجرة من إسرائيل لا إلى إسرائيل هي القضية المطروحة، وانتعشت حاسة السخرية اليهودية لدى الإسرائيلي الذي يقول: «يرجى من المسافر الأخير ألّا ينسى إطفاء النور في مطار اللد». والتهمت الكتب التي تتندر على رئيس الوزراء كل الكتب الصهيونية القومية. فأرض السمن والعسل ليس فيها خبز وزبدة. ثم التقت الأزمة الاقتصادية الخانقة بالتوتر الشديد على خطوط الهدنة، فتأرجح الإسرائيلي العادي، هذه المرة، بين المطلب الاقتصادي والجسد وصارت الصحف الإسرائيلية تتهم العمال المضربين عن العمل بالعمالة للمنظمات الفدائية الفلسطينية. وصار في وسع المراقب أن يلاحظ أن نقمة الإسرائيليين على مؤسستهم تصرف إلى الحدود.

الأمن ــ أولاً، والخبز ــ ثانياً. والمؤسسة الإسرائيلية تنمي حاسة

الخوف اليهودي باستمرار لتحقق أكثر من هدف: امتصاص مطالب الناس الاقتصادية، وتوظيفها في مسألة الحرب. اندفع الإسرائيليون إلى القتال بشراسة تحت غطاء «الدفاع عن النفس من خطر الإبادة». وإيهام العالم الخارجي بمدى الخشية الإسرائيلية من الغزوة العربية.

وكان رجل الشارع خائفاً. خائفاً حقاً.

وكان أصدقاؤك الإسرائيليون يزورونك كل مساء. يشربون حتى الثمالة كأنهم يشربون الحياة. «من يدري، فقد تنشب الحرب غداً، وقد لا نعود»، كان الوطن يتحول عندهم إلى كارثة، من أجل هذه النهاية جئنا؟

لم يعد الإسرائيلي الحي خيراً من اليهودي الميت. وكنت تتساءل: كيف استطاعت المؤسسة الإسرائيلية أن تشحنهم بكل هذا الخوف المسرحي. كانوا فعلاً يمثلون، ربما دون أن يدري معظمهم، مسرحية المسافرين إلى الموت. اليأس... اليأس. إن اليأس طاقة تفجيرية. وكانوا يسألونك: كيف ننجو؟ وكنت تكلمهم عن حقوق الآخرين، فيضيقون ذرعاً، ويقررون: ليس أمامنا إلّا القتال. لا مفر. لن نموت بلا سلاح. الموت في ميدان القتال خير من الموت في البيت. وتتفجر فيهم حاسة مسادة الانتحارية. ويشربون بشراهة كأنهم يشربون الحياة. ويتصالح العاشق مع عشيقته. وتتحول العذارى إلى أمهات بسرعة مدهشة. ويعود المطلّق إلى زوجته. وتأتلف الأحزاب المتعارضة وتنشأ جبهة قومية، ويبحثون عن بطل قومي.

ويودعونك ولا يعودون.

٤

وحين تسير في شوارع المدينة، تكون وحدك. لا لونك يعلن هويتك، ولا مطاردة البوليس لك. إن الشارع نفسه يطاردك ويعلنك. لأنك الشاب الوحيد. ومن يمشِ في الشارع في تلك الأيام يكن عربياً. ويلعنك الأطفال والشيوخ. فتخجل من السير في الشوارع. أكشاك الفلافل والسندويتشات خالية. دور السينما خالية، البلاد كلها خالية من الشباب. صحف كثيرة لا تعرف من يقرأها ومن يوزعها ولكنك ترى أن أولاد المدارس الصغار هم الذين يوزعون زجاجات الحليب والبريد.

وعلموك أن تحذر الفرح، لأن خيانته قاسية. فمن أين جاءك فجأة؟

يقترب الانتظار من الانفجار. وتسألك أمك أن تعتني بسلامتك. والمصير ــ كل المصير يأخذ شكل طلقة. ترى الحرب ولا ترى موتاً. تخرج منك الذكريات دفعة واحدة. ولا وقت للتصور القادم. تذكر، فجأة، أن فلسطين بلادك. يأخذك الاسم الضائع إلى عصور ضائعة. كأنّ هذه المرأة النائمة على ساحل البحر الأبيض المتوسط تصحو دفعة واحدة حين تناديها باسمها الفاتن. حرموك من الأناشيد المدرسية القديمة وسيرة الثوار والشعراء الذين خاطبوها. الاسم يعود... يعود أخيراً من رحلة العبث. تفتح خارطتها كأنك تفتح أزرار ثياب حبيبتك الأولى لأول مرة: كان شيء يشبه الفضة ــ كانت طبريا. تصعد القدس إلى خصر إله. صفد طارت إلى أول قبلة. وفي عكا أجلسك الحب على صخرة البحر. ترى إلى الخارطة وتصفر لحناً مرحاً مرحاً. وتنسى حيفا لأنك دائماً تنسى قلبك. تشعر بصداقة عميقة مع الأيام. لم تكن قاسية إلى الحد الذي تتصوره، ولكن مزاحها كان سمجاً أحياناً. دنيا! تمد أصابعك الطويلة إلى

أجزاء المرأة الذكية النائمة على ورق صقيل: الخصر رفيع يشربه البحر وخطوط الهدنة. ثم تقبّلها وتعانقها وتموت من اللذة ــ الوعد. ولا تقف على أرض، سابح... سابح مفتون بالغموض. وتذكر طفولتك القاسية وطفولة المستقبل والأشجار. ثم تقطع شوارع عكا، وتقف طويلاً عند شارع بيروت. كنت تشعر بالمعجزة يوم كان أصدقاؤك الكبار يخبرونك عن رحلاتهم الأسبوعية إلى دمشق وبيروت والقاهرة. تأخذ القطار من حيفا، يمر القطار في العريش ويوصلك إلى القاهرة. تأخذ سيارة أجرة من عكا، وبعد أقل من ساعة تكون في ساحة البرج. وتكمل السهرة عند ضفة بردى الذي تصورته في حجم الفرح. تسألهم: هل كانت بيروت والقاهرة ودمشق قريبة إلى هذا الحد. كانت... كانت أقرب. وكانت فلسطين ملتقى الشرق. وفيها غنّى عبد الوهاب وأم كلثوم. لو وقفت على الأهرام وقذفت حجراً على فلسطين لوصل عصفوراً. والآن، ماذا؟ يخرج عصفور من فلسطين فيبيض سرباً من اللاجئين عند ضواحي دمشق. مزّقونا فتكاثرنا لاجئين. شيء في الداخل وشيء في الخارج. في الخارج ــ ينمو الأطفال على حليب وكالة الغوث فيتحول في عروقهم إلى دم فلسطيني. وفي الداخل تأكل من قمح مرج بن عامر وتصبح «مواطناً إسرائيلياً»، وتقضي نصف عمرك لكي تجد اعترافاً واحداً بأنك «مواطن فلسطيني» فلا تجد. ويوم هبط أول إنسان على سطح القمر كنت مشغولاً بكتابة رسائل عاطفية إلى البوليس الإسرائيلي ليأذن لك بالسفر إلى قرية أهلك! في الخارج يحسدونك لأنك في وطنك وهم لاجئون. تخبرهم أن منظر الماء لا يروي الظامىء بل يُدْميه. لا يفصلك عن أرضك الآن إلّا شارع لو قطعته لاعتقلت، واتهمت بالتسلل والاعتداء على أملاك الدولة. قف على رصيف الشارع وتحول إلى شجرة يابسة. وبينك وبين الموت حافة سكين. وحين

تراهم يحرثون أرضك ينزل المحراث في كبدك، وحين تصرخ من الغيظ والألم يتهمونك بالعداء للسامية! هذا هو الشعر، والنهر بعيد. تؤثر الشعر على عبور النهر. فيحاسبك النقاد المترفون على اعترافات لم تعلنها ولم تخترها ولا شأن لك بها. الرفض العلني معناه النفي العلني. هكذا تصبح المعادلة مميتة: أن أرفض أعدائي، بهذا الشكل، معناه أن أرفض وجودي. تحايل على الصيغة لكي تحتفظ ببقائك. وهكذا تفضل الشعر على عبور النهر. فيتهمك النقاد المترفون بالخيانة القومية. ويتهمك أعداؤك بالعداء للسامية.

قف على رصيف الشارع، وتحول إلى شجرة يابسة. وحين تراهم يروون أرضك بالماء تنهمر الأفراح التي يبعثها المطر. المهم ألّا تعطش الأرض. ولو متّ أنت من الظمأ. هكذا كان يفعل جدك. قضى بقية حياته واقفاً على رصيف الشارع في محاذاة حافة السكين. وبين تحوله إلى شجرة يابسة وبين فرحه بالمطر ونزول المحراث في كبده توقف قلبه ومات. رثاه أخوك الذي يحب الكتابة ووعد الجنازة القادمة بأنها ستكون أكثر حظاً من الأولى. كنتم تدفنون الشجرة اليابسة ــ جدك في قبر ما تمناه. الأحياء محرومون من بيوتهم وأرضهم. والموتى محرومون من قبورهم.

وما عدت تخرج إلى شوارع المدينة في تلك الأيام. تجلس في الغرفة وتنفض الغبار عن أسماء مدنك. اكتشفت فلسطين اسمها، وعاودك الحب.

٥

ابتدأ كل شيء.

وانتهى كل شيء.

وبين البداية والنهاية خانك الفرح الذي كنت تحذره دائماً. كل شيء يتحول من حجارة إلى أفكار. كنت في المخبأ معلقاً على حبل الفارق بين يومين لا يتشابهان. ليسكت الوطن قليلاً. لقد وقعت الخصومة بينك وبين الحياة ذاتها. يأخذك الزلزال ويطرحك أرضاً، عادوا إلى أورشليم: الجنرال، والكاهن، والزانية. «لن نخرج من هنا إلى الأبد». نفخوا في الصور وصلوا ودقّوا رؤوسهم بحجارة الحائط القديم، حتى سالت دماؤهم. لا حرب بلا دماء، ولم يخسروا دماً كثيراً في الحرب، فليعلنوا ثمن الحرب تطوعاً وتبرعاً لحجارة الهيكل. تسمع أصواتهم عبر الراديو. لقد وصلوا إلى الرب عبر جثث أهلك التي لم تدافع عن نفسها. العنف مرة أخرى. العنف يعلن جدارته. وبدعاوي الحق لا تأخذ شيئاً ولا تستطيع الاحتفاظ بشيء. أنت لا تبكي، عادة، ولكن سقوط القدس يعني سقوط الدموع. توقظك صلواتهم، ترفع ستار نافذة المخبأ، بعد يومين، فيجتاحك شلال الضوء الزاحف من حيفا التي كانت غارقة في التعتيم الكاذب... لم ترَ ناساً، قبل اليوم، قادرين على الفرح الوحشي بمثل هذه الطاقة. دقات طبول وصفارات أطفال وأضواء كثيرة. لم يفرحوا بسقوط القدس والضفة وسيناء والجولان كما يعلنون أفراحهم الآن. لقد سقط عبد الناصر. الرمز والصوت والأمل. خبر صغير في حجم الموت. ثلاثة شبان من الناصرة توقفت قلوبهم وماتوا. قرى الصعيد والأقاليم تزحف إلى القاهرة لتعيد عبد الناصر إلى الوقوف. كيف يكون الرمز في حجم الوطن؟ لأن بقاء الرمز يبعث الأمل باستعادة الوطن. يوم كان جمال عبد الناصر يقول: «أيها الإخوة المواطنون» ويبدأ... كان كل شيء يتوقف عن الحركة. كان الجائع يشبع، والغريب يعود. وكانت فلسطين تقف على أقدامها تأهباً للتحرير. يوم كان جمال

عبد الناصر يقول: «أيها الإخوة المواطنون» ويبدأ، كان سكان الأرض المحتلة يعتقلون أنفسهم، من أصغر طفل إلى أكبر شيخ، قرب أجهزة الراديو. وكثيراً ما كانوا يندفعون إلى الجهاز الذي يحمل صوت عبد الناصر ويتبلونه في نشوة وطنية وإنسانية لا توصف. والآن يذهب؟ صار التعلق بالوطن والتحرير مرتبطاً بعودة عبد الناصر. وحين عاد، أحس العرب بأنهم حققوا انتصاراً، وخلصوا الأمل من براثن الهزيمة.

تترك أوراق الجريدة في المخبأ. ماذا كتبت؟ كنت تغطي أخبار المعارك وتكتب الجريدة، وتبوبها، وتصحح بروفاتها، لأن زملاءك في هيئة التحرير قد اعتقلوا. دخلت مجموعة من رجال البوليس في ساعة مبكرة من صباح ذلك الاثنين وتلوا اسم زميل. وضعوا يديه في الحديد، وساقوه، على مرأى من الناس، إلى سيارة الشرطة. ثم عادوا وتلوا اسماً آخر، حتى لم يبق غير رئيس التحرير وغيرك في المكتب. والجريدة تصدر غداً في موعدها. المهم أن تصدر الجريدة لتحمل لوناً من الأمل إلى قرائك الذين لا يحميهم من الحرب النفسية سواكم؟.. التفت إليك رئيس التحرير وقال: خذ أوراقك واذهب إلى أي مكان. الآن دورك! وذهبت إلى أي مكان لتواصل كتابة الجريدة. وعلمت فيما بعد، أن زملاءك قادتهم الشرطة في شكل أسرى إلى ساحة المدينة، على مرأى من الإسرائيليين، الذين رأوا الفوج الأول من أسرى الحرب. من قرر عملية الاعتقال الداخلية؟ في الرابع من حزيران/ يونيو وقّع قائد الجيش على لائحة المرشحين للاعتقال. كل شيء منظم. وفي المخبأ لم تعرف شيئاً عن الحقيقة: العرب يعلنون عن تغلغلهم في فلسطين. والإسرائيليون لا يقولون شيئاً. تسمع الذعر المنتشر خارج المنزل. وتسمع عن هيجان البوليس في القرى العربية المنتظرة... الضرب والتعذيب والسباب.

ولكن الناس تعد عمر سلاسلها باللحظات. هذه رقصة البجعة. وتسمع عن احتراق مصافي البترول منذ ساعات، وتسجل الخبر. وتفطن، بعد قليل، إلى أن مخبأك مطل على الميناء، تسترق النظر عبر ستارة النافذة، فلا تجد حريقاً في مصافي البترول. الحريق في القلب. ثم، يأتيك نبأ من البرلمان الإسرائيلي، في أول ساعات المعركة، بأن الوزراء الإسرائيليين يشربون الأنخاب. حمقى... يشربون الأنخاب! كيف. يقولون إنهم قضوا على أسطورة جيش عبد الناصر. وفي منتصف الليل، يأتي قائد الجيش إلى الإذاعة ليعلن حصاد المعارك: تحطمت الطائرات عند الفجر. والقوات الإسرائيلية تقاتل عند مدخل رفح!!

وتعود، من رحلة الأمل السريع، إلى حيفا. تعود إلى الحقيقة. من يعطيك الحقيقة؟ العدو؟ لقد وعدني أهلي بالوصول، فانتظرت. ذهبوا من أماكنهم، فانتظرت الأمل. أخذتني الأناشيد والإذاعات والانقلابات إلى الحقول التي أحلم بها. أخذتني إلى إنسانيتي، وتركتني في منتصف الطريق. أيها العرب! لماذا تكذبون عليَّ. لم تكتب هذه الخواطر في الجريدة. كتبت أشياء أخرى. حتى عبد الناصر يذهب، الآن، ويتركني. بلا وطن، وبلا عبد الناصر أيضاً؟!

هكذا ابتدأ كل شيء،

وهكذا، انتهى كل شيء.

ــ أين كنت؟

□ هنا، في البيت.

ــ لماذا لم تفتح الباب منذ ستة أيام؟

□ لأني لا أستقبل الزوار أيام الحرب.

ــ ولماذا فتحت الآن؟

□ لأن السجن أفضل من البيت. ولأني ألغيت كل مواعيدي. جاهز للاعتقال... جاهز. خذوني!

كانوا ضابطاً، وشاويشاً، وبوليساً.

حين كنت تهبط الدرج إلى سيارة الشرطة، وكنت تودع البيت وعيون الجيران خلف النوافذ، لم تشعر أنك تودع الحرية. كنت تعتقد دائماً أن سيارة الشرطة تأخذك إلى حريتك الحقيقية. تحب تسمية الأشياء بأسمائها وهذا هو الاسم الحقيقي للسجن. في السجن لا تقول: انتهى كل شيء. في السجن تقول: ابتدأ كل شيء والبداية هي الحرية.

ابتدأ كل شيء...

زملاؤك يندفعون إليك، في السجن، ليعتصروا منك خبراً آخر. كانوا منقطعين عن الأخبار إلّا ما يذيعه العدو. ولا يصدقون شيئاً، ويريدون منك خبراً واحداً. وليس عندك شيء. أيها الأصدقاء! يؤسفني أن أقول إن ما بلغكم هو الحقيقة! يغضب بعضهم وتتهمك عيناه باليأس وينصرف عنك. والسجن جميل، دائماً تنتظر شيئاً. وتشغل نفسك بمتطلبات صغيرة. وساعة في اليوم، ترى السماء التي تعيد إليك صداقتك المهزوزة مع الحياة. إن قطعة واحدة من الزرقة تبهج قلبك، ويوم تخرج ستلتهم الأرض كلها. وفي السجن، صرنا كلنا خبراء في المسألة العسكرية. ووجدنا سبباً واحداً للهزيمة: الخيانة. ومن كان يجرؤ منا على الشك بهذا السبب كان يتهم بالانحراف.

ولكن، كيف يبدأ كل شيء وفي أي اتجاه: إما أن يتعمق إحساسك بأنك «مواطن عربي في إسرائيل» وإما أن يتعمق رفضك لهذا الانتماء الذي لا خيار لك فيه. الحالة الأولى تكون رد فعل على خيبة الأمل التي ألحقها بك العرب، وتعزيزاً لاستمرارك في العمل السياسي المتواضع الذي تمارسه ضمن دائرة الممكن وفي إطار القانون الإسرائيلي «كل شيء يبدأ من الداخل، من المطالب الديموقراطية القائمة على الاعتراف بالأمر الواقع». والحالة الثانية تكون رد فعل على العنف الإسرائيلي لاستمرارك بممارسة انتماءاتك الحقيقية كما تختارها أنت «كل شيء يبدأ من الخارج، بدون هزيمة عسكرية تلحق بإسرائيل، لا يمكن أن تحدث تغيرات جوهرية داخل المجتمع الإسرائيلي».

ثمة فارق بين الحالتين، ولكن لا تناقض عميق في ما يترتب عنهما في مثل ظروفك الراهنة من ممارسات ما دمت موجوداً في الداخل والخارج معاً.

لقد هزم العامل الخارجي حقاً، ولكن انتماءك إليه لم يهزم. لأن هذا الانتماء ليس وجهة نظر وليس رأياً قابلاً للمناقشة. إنه حقيقة تاريخية. وتشعر بصدمة تناقض معنوي مباغتة. إن أقصى ما تستطيع ممارسته من كفاح، ضمن دائرة الداخل، يقتضي منك الانطواء تحت راية «الوطنية الإسرائيلية» التي تتناقض مع انتمائك القومي الذي هو حقيقة تاريخية. ومن هنا، بدأت تهتز بعنف وصرت تنشق. لا يعوزك البحث عن عزاء. ليس العزاء قضية. تستطيع القول مثلاً: إني لم أختر ظروفي. وتستطيع القول مثلاً: هذا التناقض قائم، ولكنه ليس القضية السياسية المطروحة الآن. سينفجر التناقض ذات يوم. وإن هذا الانتظار يشكل عقدة نفسية.

ومسألة تحقيق الانسجام مع النفس شرط بعيد المنال.

ولكنك تترك السؤال معلقاً. والشعر هو لغتك. واللغة الشعرية تتلافى مواجهة السؤال القاتل. الشعر يقول ولا يقول. الشعر يقول الحقيقة ولا يعلنها. هذا وطنك، والرد على الغزاة ــ مزيد من الحب لهذا الوطن. لأن أي وهن في العلاقة بينكما منفذ للغزاة. يضعون فلسطين في جيوب بزّاتهم العسكرية. وتبقى فلسطين وطنك.. خارطة، أو مذبحة، أو أرضاً، أو فكرة. إنها وطنك. ولن يقنعك الخنجر بأنها لهم. إن التحدي وهذا السجن يحميانك من إعادة النظر. شكراً للسجان الذي يجعلني والحرية معادلة واحدة. شكراً للقيد الذي يذكّر زنديّ بأنهما محرومان من معانقة الشجر. وتكتب إلى حبيبتك الوهمية: «أتمنى لكِ اليأس، يا حبيبتي، لكي تصيري مبدعة. اليائسون هم المبدعون. لا تنتظريني، ولا تنتظري أحداً. انتظري الفكرة ولا تنتظري المفكر. انتظري القصيدة ولا تنتظري الشاعر. انتظري الثورة ولا تنتظري الثائر. المفكر يخطىء. والشاعر يكذب، والثائر يتعب. وهذا هو اليأس الذي أعنيه».

لم تعانق ظلالاً لتندم.

والفرح الذي فاجأك هو الحالة الطارئة. كانت خيانة قاسية. لا بأس. تواصل حياتك وعملك وتمزقك وتناقضك. وقبل كل شيء تواصل رفضك. لن تقول نعم لشيء. لقد خرجت من الفرح بهزيمة، وخرجت من الهزيمة برفض جديد ليس للعدو وحده. هل صار وطنك فكرة؟ التصق بالفكرة. والطريق من حيفا إلى تل أبيب هو المعجزة الجمالية الحقيقية. البحر الأبيض المتوسط على يمينك، وسلاسل الجبال على يسارك، وسلاسل الحديد حول زنديك. والوطن، أجمل ما يكون عبر الأسلاك.

وفي المحكمة يتحقق التكافؤ بين القانون والمدفع. لن يقف القانون معك، ما دام مدفعك ساقطاً. والقتلة دائماً يتحدثون عن الأخلاق بأشكال مختلفة. يأتيك جنود «ليندموا» على عمليات القتل والتخلص من الأسرى ويقولون «لا مفر». وتأتيك صديقة قديمة بحفنة لوز من الضفة الغربية. ما عادوا يشعرون بالخوف ـــ ما عادوا يهود. وفي عكا، ترى أسرى مصريين، يسقط قلبك. جاءوا يحررونك فوقعوا في الأسر. ويأتي العرب الذين كنت تنتظرهم. اللاجئون يعودون.. يعودون سياحاً وأسرى. تخفت الأناشيد العربية، وتعلو الأناشيد العبرية. والإسرائيلي يتحول إلى أسطورة. وفلسطين تنام مرة أخرى في جيوب الفاتحين وعلى ضفاف الأنهار البعيدة. فلسطين وسيناء، فلسطين والجولان. لم يلتقوا في الحرية، والتقوا في الأسر. وفلسطين تنام على ضفاف الأنهار البعيدة، لا تستحم بالماء ولكنها تستحم بالدم القادم. هل تكون ولادة جديدة؟ هكذا يجب أن تكون. لا بد من ولادة. هل يصقلنا الموت؟ هكذا يجب أن يكون. لا بد أن يصقلنا الفرح. ستبدأ المقاومة. ستبدأ المقاومة. انتهى كل شيء. وتبدأ المقاومة. وإذا جاءك الفرح، مرة أخرى، فلا تذكر خيانته السابقة.

ادخل الفرح.. وانفجر!

تقاسيم على سورة القدس

اليوم، علقت على خشبة.. من علقتنا على الحنين.

اليوم تبكون على القدس، والقدس لا تبكي على أحد.

وحين ترتبط الدموع بعقارب ساعة، تصبح القدس زماناً، والمكان هو عيوننا. كل شيء خارجنا ـ المدن، الدموع، المساء الذي لا ينتهي. وفي داخلنا تستقر المدافع المضادة للطائرات ولحنين الأنبياء. لقد سمينا القدس كل الأسماء التي لا تلائمها. وأعلنّا جدارتنا بها بالوسائل التي لا تلائمنا: باللوحة، والقصيدة، ومجلس الأمن، والخيانة، والموت. لم يخرج منا «ارميا» واحد يتجول في شوارعها وفي عيوبنا.. يلعننا ويرثينا.

وحين لا تلحقنا اللعنة فلن نصل إلى الصواب.

وإذا لم تبلغنا المراثي فلن نذوق النعمى.

لتسكت .. لتسكت دموع اليوم التي تشبه دموع الأمس.

ولنبحث عن لون آخر لدموع الغد. فليس لنا فيها حائط. والقدس عاصمة الخيام البعيدة، ورؤوس الأموال البعيدة، والشهداء البعيدين. لتسكت.. لتسكت دموع اليوم حتى تصبح القدس عاصمة اللون الأحمر المنحوت من مياه نهر الأردن.

دخلتها مختبئاً بالشجاعة، خائفاً من الشجاعة.

حدث مرة واحدة في حياتي أن رأيت التاريخ مدججاً بكل هذه الأسلحة وأغصان الزيتون الشرسة. لم يحدث أن تحول إنسان إلى صخرة ولم يحدث أيضاً أن تحولت صخرة إلى جندي.

حدث ذلك في القدس. وكنت أنا الصخرة والإنسان والجندي.

ومنذ الآن.. منذ هذه اللحظة صارت الجنة أقرب. سأستبدل القدس بالجنة، لأنها ليست جميلة وذليلة إلى هذا الحد. ولأنها وعد لم يظهر خيانته.

من علّمني هذا الصمت؟ ومن علّم القدس مرافقة هذا المساء الذي لا ينتهي؟

من علّمني كل هذه الشجاعة؟ ومن علّم القدس كل هذه السخرية؟

لا. ليس الوطن انتماء الظل إلى الشجرة، ولا انتماء النصل إلى

الغمد، كلّا ليس الوطن علاقة قربى ودم. ليس الوطن ديناً، ولا إلهاً.

الوطن هو هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب.. هذا الاغتراب الذي يفترسك في القدس.

ومن هنا، تصبح الجنة أقرب.

لم يكن لقاء. ولم يكن وداعاً.

اللحظة الفاصلة بين اللقاء والوداع، بين اللحم والعظم ـ هي هذه الحالة التي تقابل فيها القدس.

تهجم على باعة الصحف وبقايا الآثار وباعة الفلافل والخضار الطازجة والمعلبات المستوردة، وقد تعلموا لغة الغزاة في ليلة واحدة.. تهجم عليهم في نشوة انتحار. تأخذ أشياءهم، وتصيح تصيح بأعلى صمت: من يشتري صدر تاريخي وظهر تاريخي وعورة تاريخي بلحظة انتصار واحدة؟! ثم تبتسم للغزاة.

ينحني ظهرك. كقوس عربية أيام كان العرب فرساناً وأيام لم يعرفوا النفط والإذاعة، وتتأهب لفعل غامض. في البدء كان الفعل أم كانت الكلمة! تتردد.

ليت ظهرك معدن كي لا ينكسر.

وليت صمتك معدن كي يصدر صوتاً أو رنيناً.

ثم يأخذك الحلم إلى مداخل المدينة: من يشتري تاريخك بلحظة

انتصار من أجل الزينة.. من أجل الزينة. وأنت أمير المؤمنين بأن الجهاد حق، والموت حق.

لم تكن القدس لي في يوم من الأيام. أنا بائع الصحف في كل زمان ولغة.. وأصحاب القدس يبيعونني ويستقبلون الفاتحين ويتكلمون في الحضارة وعلم الأجناس. لم تكن القدس لي في يوم من الأيام. أعطوني صحفاً أخرى وأنباء أخرى، لأني لا أعرف القراءة.

[هكذا قال بائع الصحف]

ـــ لا تطلّ نوافذها على شيء.

مفتوحة، تأتيها الهضاب التي لا تحصى أيام الحرب. أيام الحرب لا يحصى إلّا الموتى. تأتيها الهضاب، والشمس، وبنادق الغزاة التي كتبوا عليها «يا أورشليم من ذهب».

وعلى مرمى حلم صغير، رأيتني خارجاً من زنزانة الكرمل التي حجبت عني شكل الحرب. هل رآني أحد وأنا في القدس لكي أعتذر له؟ لن أعود إليها، لأن نوافذها لا تطلّ على شيء يعنيني.

أوقفتني جندية صغيرة وسألتني عن قنبلتي وصلاتي. اعتذرت لوجهي. وقلت للجندية الصغيرة: أنا لا أحارب ولا أصلي.

قالت الجندية الصغيرة: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

قلت: لأعبر بين القنبلة والصلاة، على ذراعي اليمنى آثار حرب، وعلى ذراعي اليسرى آثار رب، لكنني لا أحارب ولا أصلي.

قالت الجندية: وماذا تكون؟

قلت: ورقة يانصيب بين القنبلة والصلاة.

قالت: ماذا تفعل بها.. ماذا تفعل بك لو ربحت؟

قلت: أشتري لوناً لعيني حبيبتي.

حسبتني الجندية شاعراً، فأخلت سبيلي.

وتساءلت: لماذا جئت إلى القدس إذن؟

[المتكلم ــ محمود درويش]

ــ كنز من الصخر، والهزيمة، والشجر النادر..

لو كانت مدينتي الآن معي لتنازلت عن حنجرتي، وشربت الماء المثلج من جدول يسكن جبلاً.

لو كانت مدينتي الآن معي لاعتذرت عن كل مواعيدي، حتى مواعيد الموت التي حددتها وكنت أذهب إليها، عادة، قبل الوقت بخمس دقائق.

علبة من الصخر، والشمس الكثيرة، والهزيمة الموحية.

في البدء لم يكن الفعل، ولم تكن الكلمة. في البدء كانت.. الهزيمة.

لو كانت مدينتي الآن في حقائبي لرحلت. من رآني خاصمني وقتلني لأن مدينتي جميلة تشبه حبيباً لم يولد حتى الآن. والمساء دائماً بطيء وبرتقالي.

لوحة من الصخر معلقة على سبعة تلال، وثلاثة آلاف سنة، وخمسين نبياً، وأربعة ملايين خنجر، وشجرة، وخمسة قرارات من الأمم المتحدة، ومليون قتيل أو أكثر.

يدي تمتد إليها ولا تصل..

وصلتُ، يوماً، قبل يدي فترنحت على أحد الأرقام. لم أمسك بشيء لأني وصلت قبل يدي. وقلبي لا يخرج من صدري.

تنهمر الأرقام دماً، وعيوناً، وتواريخ، وأحذية، ومراثي، وعروشاً، ومسامير، وأشعاراً.. تنهمر الأرقام وتقتلني لتزيد القتلى والعشاق وأسماء القدس. والمساء دائماً بطيء وبرتقالي. ويا أيها السادة — كنت أكذب عليكم. ليست القدس هذه المدينة. هذه المدينة ليست القدس.

[هكذا قالت فتاة عاطفية تعمل في دائرة السياحة].

صمت من أجل غزة

تحيط خاصرتها بالألغام.. وتنفجر. لا هو موت، ولا هو انتحار.

إنه أسلوب غزة في إعلان جدارتها بالحياة.

منذ أربع سنوات، ولحم غزة يتطاير شظايا قذائف.

لا هو سحر، ولا هو أعجوبة.

إنه سلاح غزة في الدفاع عن بقائها، وفي استنزاف العدو.

ومنذ أربع سنوات، والعدو مبتهج بأحلامه، مفتون بمغازلة الزمن.. إلّا في غزة. لأن غزة بعيدة عن أقاربها ولصيقة بالأعداء، لأن غزة جزيرة. كلما انفجرت ـــ وهي لا تكف عن الانفجار ـــ خدشت وجه العدو، وكسرت أحلامه، وصدته عن الرضا بالزمن. لأن الزمن في غزة شيء آخر.. لأن الزمن في غزة ليس عنصراً محايداً. إنه لا يدفع الناس إلى برودة التأمل، ولكنه يدفعهم إلى الانفجار والارتطام بالحقيقة. الزمن هناك لا يأخذ الأطفال تواً من الطفولة

إلى الشيخوخة، ولكنه يجعلهم رجالاً في أول لقاء مع العدو. ليس الزمن في غزة استرخاء، ولكنه اقتحام الظهيرة المشتعلة. لأن القيم في غزة تختلف.. تختلف.. تختلف.. القيمة الوحيدة للإنسان المحتل هي مدى مقاومته للاحتلال. هذه هي المنافسة الوحيدة هناك. وغزة أدمنت معرفة هذه القيمة النبيلة القاسية. لم تتعلمها من الكتب ولا من الدورات الدراسية العاجلة ولا من أبواق الدعاية العالية الصوت ولا من الأناشيد. لقد تعلمتها بالتجربة وحدها. وبالعمل الذي لا يكون من أجل الإعلان والصورة.

إن غزة لا تتباهى بأسلحتها وثوريتها وميزانيتها. إنها تقدم لحمها المر، وتتصرف بإرادتها، وتسكب دمها.

وغزة لا تتقن الخطابة. ليس لغزة حنجرة... مسام جلدها هي التي تتكلم عرقاً ودماً وحرائق.

من هنا، يكرهها العدو حتى القتل. ويخافها حتى الجريمة.. ويسعى إلى إغراقها في البحر أو في الصحراء أو في الدم.

من هنا، يحبها أقاربها وأصدقاؤها على استحياء يصل إلى الغيرة والخوف أحياناً. لأن غزة هي الدرس الوحشي والنموذج المشرق للأعداء والأصدقاء على السواء.

ليست غزة أجمل المدن..

ليس شاطئها أشد زرقة من شواطىء المدن العربية الأخرى..

وليس برتقالها أجمل برتقال على حوض البحر الأبيض.

وليست غزة أغنى المدن..

(سمك وبرتقال ورمال وخيام تخذلها الزيح، وبضائع مهربة، وسواعد تباع للشاري).

وليست أرقى المدن. وليست أكبر المدن. ولكنها تعادل تاريخ أمة. لأنها أشدنا قبحاً في عيون الأعداء، وفقراً وبؤساً وشراسة.. لأنها أشدنا قدرة على تعكير مزاج العدو وراحته. لأنها كابوسه. لأنها برتقال ملغوم، وأطفال بدون طفولة، وشيوخ بلا شيخوخة، ونساء بلا رغبات. لأنها كذلك ــ فهي أجملنا وأصفانا وأغنانا وأكثرنا جدارة بالحب.

نظلمها حين نبحث عن أشعارها. فلا نشوهن جمال غزة. أجمل ما فيها أنها خالية من الشعر، في وقت حاولنا أن ننتصر فيه على العدو بالقصائد.. فصدقنا أنفسنا، وابتهجنا حين رأينا العدو يتركنا نغني.. وتركناه ينتصر. ثم جففنا القصائد عن شفاهنا، فرأينا العدو وقد أتمَّ بناء المدن والحصون والشوارع.

ونظلم غزة حين نحولها إلى أسطورة، لأننا سنكرهها حين نكتشف أنها ليست أكثر من مدينة فقيرة صغيرة تقاوم. وحين نتساءل: ما الذي جعلها أسطورة؟ سنحطم كل مرايانا ونبكي لو كانت فينا كرامة. أو نلعنها لو رفضنا أن نثور على أنفسنا.

ونظلم غزة لو مجّدناها. لأن الافتتان بها سيأخذنا إلى حدّ انتظارها. وغزة لا تجيء إلينا. غزة لا تحررنا. ليست لغزة خيول ولا طائرات ولا عصي سحرية ولا مكاتب في العواصم. إن غزة تحرر نفسها من صفاتنا ولغتنا ومن غزاتها في وقت واحد. وحين نلتقي

بها ــ ذات حلم ــ ربما لن تعرفنا. لأن غزة من مواليد النار ونحن من مواليد الانتظار والبكاء على الديار.

صحيح أن لغزة ظروفاً خاصة وتقاليد ثورية خاصة:

(نقول ذلك لا لنحلل، وإنما لنتحلل).

ولكن سرها ليس لغزاً: مقاومتها شعبية متلاحمة تعرف ماذا تريد (تريد طرد العدو من ثيابها)، وعلاقة المقاومة فيها بالجماهير هي علاقة الجلد بالعظم، وليست علاقة المدرس بالطلبة.

لم تتحول المقاومة في غزة إلى وظيفة.

ولم تتحول المقاومة في غزة إلى مؤسسة.

لم تقبل وصاية أحد، ولم تعلق مصيرها على توقيع أحد أو بصمة أحد.

ولا يهمها كثيراً أن نعرف اسمها وصورتها وفصاحتها. لم تصدق أنها مادة إعلامية وأنها فوتوجنيك. لم تتأهب لعدسات التصوير، ولم تضع معجون الابتسام على وجهها.

لا هي تريد.. ولا نحن نريد.

ولم يتحول جرح غزة إلى منبر للخطابة. من جمال غزة أننا لا نتحدث عنها كثيراً، ولا نعطر دخان أحلامها بعبير أغانينا النسائي.

من هنا ــ تكون غزة تجارة خاسرة للسماسرة. ومن هنا ــ تكون

كنزاً معنوياً وأخلاقياً لا يقدر لكل العرب.

ومن جمال غزة، أن أصواتنا لا تصل إليها، لا شيء يشغلها. لا شيء يدير قبضتها عن وجه العدو. لا شكل الحكم في الدولة الفلسطينية التي سننشئها على الجانب الشرقي من القمر، أو على الجانب الغربي من المريخ حين يتم اكتشافه، ولا طريقة توزيع المقاعد في المجلس الوطني. لا شيء يشغلها. إنها منكبة على الرفض.. الجوع والرفض. العطش والرفض. التشرد والرفض. التعذيب والرفض. الحصار والرفض. والموت والرفض.

قد ينتصر الأعداء على غزة. (قد ينتصر البحر الهائج على جزيرة صغيرة).

قد يقطعون كل أشجارها.

قد يكسرون عظامها..

قد يزرعون الدبابات في أحشاء أطفالها ونسائها. وقد يرمونها في البحر أو الرمل أو الدم.

ولكنها:

لن تكرر الأكاذيب.

ولن تقول للغزاة: نعم.

وستستمر في الانفجار.

لا هو موت، ولا هو انتحار. ولكنه أسلوب غزة في إعلان جدارتها بالحياة..

ذاهِبٌ إلى العالم
غريبٌ عن العالم

في ساعة متأخرة من الليل، يذهب العالم إلى غرفة النوم.

لقد كان يومه حافلاً. وكان الصفاء يغمر الأرض: ما زالت أدوات الحضارة الغربية تصارع الإرادة البشرية في آسيا. التراب الآسيوي يموت والإنسان الآسيوي يموت. ومياه الأنهار تجرف من فاتهم أن يلتقوا بأدوات الحضارة. وقريباً من البحر الأبيض، ما زالت الأحذية العسكرية، الغربية الصنع، تدوس الحضارة القديمة والإنسان الجديد.. وفي نشرات الأخبار العادية، العادية جداً، يباد حقل من الأطفال، لأنهم عرب ولأنهم قادرون على النمو.

وفي ساعة متأخرة من النهار، ينهض العالم من غرفة النوم إلى غرفة العمليات. لقد كانت ليلته صافية، وأحلامه متواصلة السعادة.

هكذا ينام العالم..

هكذا يستيقظ العالم..

وهكذا ينساني.

لا يذكرني إلّا في حالتين: حين أجرب الموت، وحين أجرب الحياة. ولقد متُّ لمدة ربع قرن وشبعتُ موتاً.

واليوم، اليوم لم يذهب العالم إلى غرفة النوم. وقف على حافة الكرة الأرضية، وأمرني بالخروج من دائرة الإنسانية، لأنني حاولت أن أخترق الدائرة، حاولت الدخول.

ــ ماذا يعنيك من تاريخي أيها العالم.. ماذا يعنيك؟

□ التاريخ هو الماضي، وأنا أدرسه في المعاهد.

ــ وأين رأيتني أول مرة؟

□ كنت أراك دائماً على تراب فلسطين حتى خرجت، وعاد الصفاء والسلام إلى الأرض. فلماذا تعود الآن؟ لماذا تكسر الصفاء؟

هكذا يفهمني العالم، وهكذا يريدني. لقد انتهى صراعنا ما دمت قد خرجت من فلسطين، وما عاد للنار حارس. واكتملت معادلة سلام العالم، وصار الأمن الدولي مشروطاً بغيابي عن فلسطين وعن الإنسانية.

لم أودع أحداً، ولم أودع شيئاً. دحرجني كعب بندقية من الكرمل إلى الميناء، وكنت أتشبث بخاصرة الله وأصرخ، حتى ضاع صوتي

ووعيي. ولكن العالم وعدني بصدقة مقابل التوقيع على هدنة مع النفس، لأن الهدنة مع القاتل لا تتم إلّا بعد الهدنة مع النفس. ولقد تصدق العالم عليَّ: أعطاني طحيناً وثياباً وخياماً كثيرة لي ولأطفالي الذين لم يولدوا مقابل أن أعطيه الوطن والأمن. وحين كنت أشعر بالبرد في المنافي، كانت صحف الرأي العام العالمي تقيني من الأمطار والارتجاف. وحين كنت أشعر بالجوع، كانت فقرة من ثلاثة أسطر في خطاب رئيس دولة متحضرة تشبعني. وحين كنت أشعر بالحنين، كانت الأغاني الأجنبية، المنبثقة من راديو الجيران، تجعل الرحيل تجربة جميلة.

وهكذا يذهب العالم إلى غرفة النوم.. وينساني.

ــ لا توقظوا الضحية، لئلا تصرخ.

ــ من أيقظها.. من المسؤول؟

□ ريح تهب فجأة، فتنعش الموتى.

ــ من أين تهب؟

□ من كل الجهات... من الوطن.

ــ ومن علمهم هذه اللفظة المهجورة؟

□ شعراء يغنون على ربابة.

ــ اقتلوهم؟

□ قتلناهم، فابتكروا لفظة أخرى ــ الحرية.

ــ من علمهم هذه اللفظة العاصية؟

□ ثوار حماسيون.

ــ اقتلوهم؟

□ قتلناهم، فتعلموا كلمة أخرى ــ العدالة.

ــ من علّمهم هذه اللفظة؟

□ الظلم.. هل نقتل الظلم؟

ــ إذا قضيتم على الظلم، قضيتم على أنفسكم.

ــ ما العمل؟

□ نقتل الذاكرة.

وهكذا ينام العالم. وهكذا يصحو. هو مدجج بالسلاح، وأنا مدجج بالقيود. القوي متحضر، والضعيف بربري. وليس التاريخ قاضياً. التاريخ موظف. ماذا كان الهنود الحمر سيقولون لو هزموا غزاتهم. والذين يتباهون بالحضارة والتمدن هم غالباً ما يكونون القتلة.. القتلة. انظروا هذا الثلاثي: الأول ــ أباد شعباً في الماضي، ويبيد اليوم شعباً وتربة في جنوب شرق آسيا، ويفجر علامة تحضره الكبرى ــ القنبلة الذرية ــ في شوارع العالم.. يطالبني بالخروج من حلبة الإنسانية ومن الكرة الأرضية لأنني إرهابي. والثاني ــ ليس من الحكمة أن نذكره بماضيه. لقد أحرق عشرات الملايين من البشر باسم الحضارة والتمدن، والآن يتعانق القاتل والضحية وينجبان وليداً جديداً هو الثالث ــ فماذا ينتج عن زواج الإرهاب إلّا الإرهاب! وجاء الثالث المدجج بالتوراة والسلاح، واقتلعني من جبالي وسهولي ودحرجني من الحضارة إلى الحضيض. هذا الثلاثي يطالبني بالخروج من الكرة الأرضية لأنني إرهابي.

وماذا كان العالم يفعل؟

في ساعة متأخرة من الليل، يذهب إلى غرفة النوم وينام.

القتل دائماً جريمة. فلماذا يتحول القتل إلى دعامة من دعائم الهيكل الحضاري.

إذا مارسه الأقوياء؟ وهل نشأت إسرائيل على وسيلة أخرى غير القتل والإرهاب. هكذا العالم دائماً ـ شديد الإعجاب بالقتل الجماعي، وشديد التنديد بالقتل الفردي. من حق الدول أن تقتل شعوبها والشعوب الأخرى، وليس من حق فرد أو شعب أن يقاتل من أجل حريته.

ومن هو هذا الرأي العام العالمي؟

نحن نستخدم هذا المصطلح مجازاً، فنطلب العدالة من القتلة إذا كان معنى المصطلح هو تلك الأجهزة الإعلامية التي يديرها أفراد متشابكون في المصالح والعقائد. فلماذا نعطيه مثل هذه القداسة؟ إن الرأي العام الحقيقي ـ الضمير الإنساني ـ لا نراه ولا نسمع صوته، لأن مؤسسة «الرأي العام العالمي» الغربية الرسمية قد خنقته وزيّفته. وإذا كان سلوكنا خاضعاً لمتطلبات كسب «الرأي العام العالمي» المعبّر عنه بالأجهزة الإعلامية الرسمية، فقد آن لنا أن نكتشف أننا نستمرىء عبوديتنا وضياعنا ونبحث لها عن أسباب البقاء، طالما أن هذا «الرأي العام» ملك أفراد فهل يصلح هؤلاء لأن يكونوا قضاة! حين نتحاشى الانتحار يقولون إننا جبناء. وحين ننتحر يقولون برابرة. حين ندعو إلى السلام يقولون إننا كذبة مراؤون. وحين ندعو إلى المعركة يقولون إننا متوحشون. وهل نحن

قتلة؟ من قتل من؟ هل سألوا هذا السؤال.

ليس صحيحاً أن العالم قد فقد ذاكرته. وليس صحيحاً أيضاً أننا قادرون على إعادة الذاكرة إلى العالم عن طريق إرضائه. العالم يرتاح. العالم يريد أن يلعب ويريد أن يشرب.

ــ لماذا توقظ العالم من النوم؟

□ هذا ليس صوتي. هذا صوت ارتطام جثتي بالأرض.

ــ ولماذا لا تموت بهدوء؟

□ لأن الموت الهادىء حياة ذليلة.

ــ والموت الصارخ؟

□ قضية.

ــ هل جئت تعلن حضورك؟

□ بل جئت أعلن غيابي.

ــ ولماذا تقتل؟

□ لا أقتل إلّا القتل. لا أقتل إلّا الجريمة.

ــ اذهب إلى الجحيم.

□ أنا قادم من الجحيم.

للمرة الأولى، سأل العالم نفسه: من أخبره أنه قنبلة؟

ــ من كثرة ما ضربوه بالرصاص، تراكمت الشظايا على الشظايا، فولدت طاقة، وصار قابلاً للانفجار.

ــ أخرجوه من دائرة العالم.

□ لقد أخرجناه.. وعاد.

ــ انصبوا له كميناً على حافة الأرض، وادفعوه إلى الفراغ.

□ لا يمكن الاقتراب منه، لأنه مدجج بربع قرن من المأساة والغضب والانفجار.

ــ إرهابي؟

□ نعم. إرهابي ويائس.

ماذا يفعلون باليأس. اليأس صنو الموت. لا أريد من العالم شيئاً إلّا أن يرفع سكينه عن عنقي. لقد كنت رهينة. أنا الرهينة منذ خمس وعشرين سنة في أيديكم، وأطلق اليأس سراحي. من يعيدني إلى الأمل غير إعلان يأسي! ومن يحررني من الأسر غير قدرتي على الانتحار! ليذهب العالم إلى غرفة النوم. أنا صمام أمان العالم ــ هذا هو الدور الذي حددتموه أنتم لي. وليس بوسعكم أن تحددوا لي شكل اعتراضي على موتي المجاني. ليس بوسعكم أن تحددوا لي طريقة تخلصي من المجزرة المزمنة. ليس لي إلّا أن أموت. فلأمت كما أشاء. لا أرضى بهذا الدور لا أرضى ــ فليست عبوديتي معادلة للأمن. سموني ما شئتم. جاء دوري الآن لأسمي نفسي ما أشاء، وأفعل ما أشاء. أقف في قلب العالم. أنتزع ذراعي. ألوّح بها في الهواء. أحوّلها إلى كرة وألعب معكم.. أقذفها في شِباككم يا قضاة الحضارة. ليس من أجل الوطن. ليس من أجل الشعب. وليس من أجل الانتقام هكذا، يطيب لي ــ كحيوان آسيوي ــ

أن أستخدم جسدي، أن أمرنه على الحركة بعد شلل دام ربع قرن.. أن أقطعه إرباً إرباً وأسليكم. هذه هي حريتي الوحيدة، فلماذا تعترضون على انتحاري يا خبراء القتل الجماعي. ويا من تحولون الأطفال إلى فحم! أنتم تقتلون.. إذن أنتم تعيشون. وأنا أنتحر.. إذن أنا أعيش. لن أسمح لأحد، بعد الآن، أن يقتلني سواي. هل تعرفونني؟ إن حليب وكالة الغوث لا يخلق دماً في الشرايين. إنه يخلق ديناميت. هذا غذاؤكم يعود إليكم. وحين رمتني أمي في شوارعكم طردتموني وقلتم: عدْ إلى أمك، وحين عدت إلى أمي ألقيتم عليَّ القبض وعذّبتموني وقلتم: إرهابي. ومنذ تلك اللحظة، وأنا أبحث عن أمي. وهل تعرفون أين وجدتها؟ كان جسمي يمطر دماً. وحين أفقت من الغيبوبة وجدت نفسي في بركة دم. حدّقت فرأيت ملامح سميتها وجه أمي. كان ذلك دمي ولم يكن دمكم يا قضاة العالم.

من حوّلني إلى لاجىء، حوّلني إلى قنبلة. أعرف أني سأموت، وأعرف أني أخوض معركة خاسرة اليوم لأنها معركة المستقبل. وأعرف أن فلسطين ــ على الخارطة ــ بعيدة عني. وأعرف أنكم نسيتم اسمها وتستخدمون ترجمتها الجديدة. أعرف هذا كله. ولهذا أحملها إلى شوارعكم، وبيوتكم، وغرف نومكم.

ذاهِب إلى الجملة العربية في الخامِس عشر من أيار

١

تجلس في أيار، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

هذا هو أول الرحيل. وهذا هو آخر الأرض. لكل شيء أوانه إلّا موتك، يأتي مباغتاً ومكرراً وبلا مناسبة كالمطر الاستوائي، فمن أين تلتقط برهة للياقة الاحتفال بذكرى الموت الأول؟ مهزوم من الوريد إلى الوريد. وها أنت تعبر بين الصوت والصدى مسيحاً جديداً بلا طقوس. في الجملة العربية متسع لقارة من الخيام. أسكن إحداها وأحلم بصيف قليل الحر.

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

الوطن ليس صخرة قديمة حتى لو كانت لها حرارة الجسد. ما أشد سذاجتك إذا حاصرت ذاتك ونارك بهذا الحلم البدائي المحدد. الوطن مطلق. فلا تسأل عمن أعطى الأرض هذا الضيق الواسع. من الماء إلى الماء ملايين من القلوب التي تؤويك وتسند ظهرك. اذهب إلى الجملة العربية تجد الذات والوطن. وفي الوقت متسع للحرب والسلام.

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

وماذا تفعل لو خرجت من هذا الدور؟ هذه الصيرورة صارت تطعمك وتسقيك. يلقون على جراحك النقود والتبرعات، فمن أين تأكل لو التأمت! كل الذين جربوا الحرية قبلك لعنوها حين اكتشفوها وتاقوا إلى أيام البحث عنها. والدولة شرطة وضرائب، فهل تنفق هذا الدم من أجل بوليس وضريبة جديدة؟ مجد المسيح أنه مصلوب في عزّ الدعوة. تصور.. تصور لو ترجل المسيح ما يحدث في الدنيا! الفوضى والردة. سيتمرد عليه الكهنة والفنانون والفقراء. سيرغمونه على العودة إلى جراحه حافياً أو بحذاء جديد لكي تستمر حياة الآخرين. اذهب إلى الجملة العربية، واستمتع بهدير التأييد واحلم بسلامة الضاد. مرّ غزاة كثيرون (هل عرفت شعوب أخرى ما عرفنا من الغزاة؟) احتلوا الأرض، وشردوا الناس، ولكنهم ما استطاعوا أن يفترعوا حجاب حرف حلقي واحد!

تجلس في أيار/ مايو، ما بين شقائق النعمان والبندقية.

ويا وطني الذي أعرف الطريق إليك ولا أعرفك. من ربع قرن وأنا ذاهب إليك عبر الجملة العربية الرسمية، وغريب عنها وعنك.

أعجبتهم شقائق النعمان، وحاولوا أن يسرقوا بندقيتي، فأطلقت النار على الهواء، فأصبت شقائق النعمان، فاتهموني بمحاولة الانتحار.. وساقوني إلى المحاكمة. فهل أصمت كي أقترب منك، أم أدافع عنك وعني بالجملة العربية ذاتها؟

٢

انتهت حفلة الميلاد. ليس للمدينة المقدسة ذاكرة منتظمة. أمطرت السماء ماء وغزاة. وكان الجندي الجديد يتنزه في حارات التاريخ المفتوحة مع صديقته القديمة ويقول «إذا نسيتكِ يا حبيبتي تنساني ذراعي». وقد نسي ذراعه في صدرها، فنبهته إلى الخيانة «تحب أورشليم أكثر مني!». ضحكا وتابعا النزهة. كانا يستعيدان ذكريات عن الحرب الأخيرة ويندهشان من إمكانية الحياة بدون القدس، ويروي لها بطولة لم يمارسها.

ابتاعا فلافل من بائع عربي صار يتقن اللغة العبرية بلثغة بولندية.

«اعتادوا علينا. هل تعرفين أن الزمن ضابط في جيش الدفاع الإسرائيلي، يترقى عاماً بعد عام؟» خلعت حذاءها ومشت حافية. «تريدين أن أثبت لك ذلك؟» اشترى صحيفة من بائع عربي يروّج للطبعة الجديدة من صحيفة «المساء» بلغة عبرية سليمة.

«للقهوة العربية مذاق لاذع. كيف تكون حياتنا بدون هؤلاء السكان.. كيف؟ هل تتصورين أن بمقدورنا المحافظة على وحدتنا القومية إذا كنا نعيش وحدنا؟».

دخلا مسجد الصخرة، وتبادلا قبلة على مرأى من الأسطورة

«لتشهد الأسطورة على أن شعب إسرائيل حي». شعرا بالندم لأنهما، قبل سبع سنوات، تبادلا قبلة هنا للذكرى بإحساس السائح الذي لن يعود. وها هما يعودان كل سنة. «هذه القبلة ليست للذكرى، بل هي لاستفزاز الأسطورة».

كانت السماء تمطر. السماء تمطر دائماً في أعياد الميلاد. راقه أن يجري مقارنة ـــ على الطبيعة ـــ بين بوله والمطر، فانتحى زاوية وعاد يحدثها عن فارق طفيف في اللون. «للعرب طباع حميدة أهمها الكرم والنسيان». ردت بلا اكتراث: «لا أحبهم». اكتشف برهاناً جديداً: «لولاهم ما كنت عرفتك وأحببتك. ولكي يستمر حبنا ويثمر لا بد من وجود عرب». تذكرا خلافاتهما القديمة عندما كان يدرسان في كلية الآداب، ولكن المساء أغراهما بالعناق فقبلها، وتابع: «إنهم جوهر وحدتنا. أنا من وارسو وأنت من بغداد. الذي صنع اليهودي هو التحدي وحاجته إلى التماسك. فما هو محور تماسكنا. العرب هم تحدينا المشترك، فإذا ذهبوا ذهبت وحدتنا، وانتقل التحدي إلى العلاقة بين القادم من وارسو والقادم من بغداد». ذكّرته بأنه سينام الليلة مبكراً ليبدو قوياً ونشيطاً في الاستعراض العسكري غداً.

في تلك اللحظة، كان عمال التنظيف يكنسون الشوارع من آثار صلوات الأسبوع الماضي. كان المسيح يتراجع إلى الوراء، وكانت المدينة المقدسة تخون ذاكرتها وتفتح شوارعها لعيد الغزاة الجدد الذين كانوا ينشدون «يا أورشليم من ذهب».

وفي تلك اللحظة أيضاً، كانت تصل إليهم هدية مفاجئة أو بطاقة معايدة: كان دم عربي غزير يسيل في شوارع بيروت، وكان

يتحول إلى زيت ينعش الأرز القديم الذي أهدي إلى الملك سليمان لبناء الهيكل!

٣

من يوقف التشريد؟

كنا نتساءل قبل أيام: من يوقف الهزيمة؟ والآن نصرخ: من يوقف التشريد.. تشريد هذه المرأة؟

الصورة ذاتها تواجهنا دائماً في الصحيفة، وفي ضواحي المدينة، وعلى كل أرض عربية، ونادراً ما تواجهنا في الضمير.

الصورة ذاتها. تأتي بعد الرصاص دائماً: أم فلسطينية تجر أطفالاً، وتحمل فراشاً، وتمشي في الريح والمجهول. تلجأ من ملجأ إلى ملجأ. فمتى تستقر في ملجأ أخير غير القبر؟ كأن الدعوة إلى العودة أرجئت. من ربع قرن ونحن نراها تخطو في العظم (من نحن لنتكلم بهذه الصيغة؟ ـ مراقبون) تخرج من مخيم في اتجاه خيمة أخرى أو صخرة منحنية. تلاحقها اللعنة والقذيفة والأقدار المكتوبة. سمّوها ما شئتم، فهي أمي.

ـ أقيموا لها خيمة من اسمنت، لكي تكف عن التشرد. دعوها تستقر في لجوء واحد.

ـ الفراش المحمول على الرأس.. والوطن المحمول في القلب مربوطان بخيط واحد. إذا استراح الفراش ضاع الوطن.

ــ وهل أصبح اللجوء إعلاناً وزينة؟

لا ينتهي الحوار إلّا بتدخل غارة، مرة من الأعداء، ومرة من الأشقاء، فلا يبقى في الوطن العربي (أو العالم العربي) مكان لا تصل إليه القذائف بحثاً عن ظل هذه المرأة التي لا أعرف اسمها ولكنني أعرف أنها أمي.

ــ لماذا تضربها الطائرات؟

□ لكي تخفي ظلها عن الأرض.

ــ ولماذا يؤذيكم ظلها؟

□ لأنه ثقيل.. ثقيل تنوء به أكتاف هذه اليابسة الممتدة من المحيط إلى الخليج.

ــ إنها لا تطلب شيئاً إلّا الوجود!

□ العدو لا يرضى بهذا.

ــ وأنتم.. هل يعنيكم رضا العدو.. أم حياة هذه المرأة التي هي دمكم؟

□ لا حيلة لنا بمصارعة العدو.

ــ لا تصارعوه.. دعوها تصارعه وحدها.

□ ليس على أرضنا. لأن العدو لا يرضى بهذا.

صار بوسع العدو أن يمشي أو يتنزه في الشوارع العربية التي لم يعلن عن احتلالها بعد. يشرب القهوة في المطارات أو المقاهي، يسهر في البارات، ويعود بسيارة خاصة أو بسيارة أجرة في آخر

الليل إلى حدود فلسطين. وإذا تعب من السهر نام في فراشنا. ألم يطرد كمال ناصر وكمال عدوان ومحمد يوسف النجار من فراشهم!

غضب العرب من هذه الإهانة، فسارت ملايين في جنازتهم. وبعد أسبوع تبرعت الطائرات العربية ــ دفاعاً عن سلامة فراش النساء المستوردات ــ بضرب هذه المرأة التي لا أعرف اسمها ولكنني أعرف أنها أمي.

ــ لماذا تضربونها؟

□ من أجل مصلحتها.. من أجل الدفاع عنها. نحن لا نستطيع أن نحميها من غارات العدو، فنحميها من الحياة التي تسبب لها التشرد وتسبب لنا فتور السياح. خير لها أن تموت برصاص الأشقاء من أن تموت برصاص الأعداء.

٤

على شريط تسجيل، كانت الافتتاحية لصوت العصافير. العاشرة صباحاً، وليس للعصافير موقف ولا مصلحة. بعد دقائق انهمرت أصوات الطائرات (فجأة صرنا نحارب). بين الطلعة والأخرى كانت العصافير تكمل زقزقتها.

ــ لماذا؟

□ لأنها لا تفهم السياسة.

ــ ألا تملك غريزة الخوف من الموت؟

□ تملك، ولكنها تعرف أن الطائرات لا تصيبها على هذه الشجرة.

ــ كيف؟

□ لعلها جاءت بأجنحة مزوّرة.

صدق! أو لا تصدق. لقد سمعتها بأذني. وهذا هو الشريط.

ــ ماذا سمعت أيضاً؟

□ إن هونغ كونغ لا تكون أرض ثورة.

ــ لا أحد يطالب بهذا.

ــ أين جسدك؟

□ تحت ثيابي.

ــ وما هي حدوده؟

□ تواريخ: جنوباً ــ ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨. شرقاً ــ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٦. غرباً ــ ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧. شمالاً ــ أيلول ١٩٧٠. هذه هي حدود جسدي.

ــ تحمل قنابل؟

□ لا.

ــ ماذا تحمل إذن؟

□ إنني مدجج بالغضب.

ــ لماذا تعيش؟

□ لأعود إلى وطني.

هذه هي المشكلة. ليس مهماً أن تحمل سلاحاً في الشارع أو في المخيم أو في البيت. ما دمت تحمل هذا الجسد المدجج بالغضب ـــ كما اعترفت ـــ فإنك قابل للانفجار وتوريط العرب. ولا تنس أن هونغ كونغ ليست أرض ثورة. واسمح لي أن أقول لك إنك ما دمت موجوداً هنا فإن فلسطين موجودة هنا. وفلسطين ممنوعة من التداول العلني، لأن العدو يغضب.. يغضب.. يغضب. هل تفهم!

□ هذا اختياري وقدري. إذا تحررت من الاختيار فلن أتحرر من القدر.

ـــ اذهب إلى الدول التي تقوم مبررات حكمها وشرعيتها على أولوية التداول بقضية فلسطين. وإلّا، فما عليك إلّا المتاجرة بالملابس الداخلية أو العمل بواباً في شقة مفروشة. لأن العدو يغضب.. يغضب. وبيتنا من زجاج.

□ لقد ولدت هنا. لست لاجئاً. من ربع قرن ولدت هنا. لست لاجئاً. هونغ كونغ ليست أرض الثورة. لست لاجئاً. ولكن لماذا تكون سايغون؟

□ لأن العدو يغضب.

ـــ أين أذهب إذن؟

□ أذهب إلى الثورة العربية.

ـــ أين هي؟

□ لا أعرف.

واستمعت إلى بقية شريط التسجيل. كانت أصوات الطائرات والقذائف تتداخل مع أصوات العصافير..

٥

وقفت على هذه القارة المحاصرة بالبحر والمحيط، وقلت: أنا قادم من ذروة السقوط. كانت هذه الأرض شبيهة بثور جريح يسقط من قمة الرجاء إلى قاع الهزيمة المتناسلة، ولكنه كان يرتبط بالكون بقرنه الحاد الذي ما زال يطفو على سطح اليابسة. طافح بالنفط، والكسل، والشعوب الممنوعة من الممارسة والمجهّزة بنتائج استفتاء جاهزة «نعم».

[خلع الملك ثيابه الملكية، وارتدى بزة ضابط، واحتل الإذاعة، وأعلن الجمهورية. وقال: كان الحكم البائد متآمراً على قضية فلسطين، وقد قامت ثورتنا المجيدة من أجل تحرير فلسطين وتحقيق الوحدة العربية. صفقوا له. انتقلوا من حالة اليأس إلى حالة اللايأس. وكان الملك يضحك في غرفة النوم سعيداً بنتائج الاستفتاء الشعبي «نعم»].

أغمدت القرن في صدرك، فكنت بين الجسم والجثة شكلاً ثالثاً قابلاً للتسمية المشجعة. فسموك وصدقت اسمك. وما كنت تدرك، جيداً، أنك التوتر الباقي في أعصاب المرحلة المترددة على مفترق الاختيار.

ــ دمك والنفط، هذا هو الصراع.

كانوا يحتاجون إلى هذه المعادلة من أجل الضغط على المستهلك عبر البحار. فصفقوا لك... وكان لون النفط أقوى من دمك في علاقتهما الأولى.

مادة للانفجار ممنوعة من الانفجار. هذا أنت. لك الأناشيد كلها. وأطنان من الخيام. وحائط الإعلان.

ثوريّ في قبضة ملك. هل تتقن اللعبة؟ وهذه الجماهير التي تمنحك آمالها وخبزها يخبئها الملك ــ باسمك ــ في عباءته البيضاء.

وهذا الشيء الممتد من الماء إلى الماء، ما اسمه؟ لا هو خارطة، ولا هو وطن. ولكنه جسد ينتظر الزلزال القادم من نبيّ لا شرط لنبوءته إلّا أن يسمي الأشياء بأسمائها. ولست البديل ولا المخلّص، ولكنك الإشارة والبدء والقربان. فتحركت أشياء.

ــ دمك والنفط. هذا هو الصراع الباقي بعد سقوط التجارب السابقة والشعارات.

لماذا يزهو دمك إلى هذا الحدّ، ويصبح لونه أقوى من لون النفط؟ يرجوكم المستهلك عبر البحار أن تعيدوا النفط إلى صفائه القديم مقابل وعد بإعادة قطعة أرض. فجاءوا إليك ليعيدوك إلى قبضة الملك في لعبة لا تتقنها. وانتهى دورك لتعود إلى حالتك الأولى: لاجئاً وقضية. وقالوا للجماهير هذا عدوك الداخلي الذي يؤلب عليك العدو الخارجي. وأعطوا الأمان للعدو المشترك، لأن المعادلة تغيّرت، والتحم أمن العدو بأمن النظام. تركوا العدو يستريح وقاموا بالدفاع عن أمنه وحدوده التي تشدد قبضتها على رقاب العواصم. الدفاع عن الباب العالي يقتضي الدفاع عن نوم الغزاة وراحتهم.

وكان الطلبة القلقون يتساءلون: ما الفرق بين الغزاة القادمين من الخارج والطغاة الطالعين من الداخل؟ اختلفوا على فروق كثيرة واتفقوا على فارق واحد هو: أن الغزاة يشرِّدون والطغاة يقتلون من ينجو من أيدي الغزاة.

وأنت، ما زلت واقفاً على هذه القارة المحاصرة بالبحر والمحيط وتصرخ: أنا قادم من ذروة السقوط، لأحمي قرن الثور الذي ما زال يطفو على سطح اليابسة التي هي... صدري!

٦

تكبران معاً: أنت وأيار.

تكبر كتفاك، وتكبر الصخرة. ويقدم أيار/ مايو أوراق اعتماده إلى الشهر الذي يليه. ويبقى الوضع سجالاً. من الصعب أن يبلغ أيار/ مايو ربع قرن بمثل هذه السهولة، ولا تتغير نتيجة الحرب الصامتة. هل يمزح التاريخ؟ بعد كل هذه الهزائم... بعد اختلاط هذه الشهور تدور الحرب في شوارعنا ليتسنى للعدو أن يكمل احتفالاته. هل يمزح التاريخ؟ يخرج أيار/ مايو ليدخل حزيران/ يونيو، والبنادق العربية تصوب إلى كل الاتجاهات إلّا الاتجاه الصحيح. إذا اشتكى العامل، وإذا غضب الطالب تصبح بنادقنا شجاعة. كل الحرب في الداخل ونغني للصمود. ربع قرن... ربع قرن ونحن نلوك الجملة إياها، وحدود العدو تلاحقنا. مزيد من الخطابات مزيد من الهزائم، وأنت الشذوذ عن القاعدة.

ــ أيها الفلسطيني التائه! ضع حداً لهذه الفوضى.

لم تسمع فساقوك إلى مجزرة في شهر آخر أو في عيد ميلاد موتك الأول. لماذا؟ من أجل سلام وهمي.

تصير شبحاً. تصير كابوساً. تصير شرارة.

ــ اذهب إلى مكان آخر واتركنا بأمان.

□ أينما ذهبت يصير ظلي مكاناً.

حين سقط حصان في الملعب الرياضي، برصاص طائش، حزنت سيدات المجتمع وهواة سباق الخيل.

وحين سقط عشرات من الناس، في البيوت، وبرصاص مصوب لم يحدث حزن في المدينة.

ليس لقتلاك صور ولا أسماء، لأن الحصان الشهيد يغطي الكون.

لماذا يسقط الشهداء بهذه الكثرة المجانية، وفي مكان غير صالح للاستشهاد؟ كثيراً ما يتحول الموت إلى مهنة. فماذا يحدث لو أعلن المرشحون للموت الإضراب عن هذه المهنة... ماذا يحدث؟

□ نصير شعباً بلا شهداء، ويصير عيد الشهداء باطلاً.

ــ ماذا أيضاً؟

□ يفلس الشعراء.

ــ ماذا أيضاً؟

□ يتلعثم الخطباء.

ــ وماذا أيضاً؟

□ تسقط الحكومة.

التصفية؟ لا نظن. هذه مشكلة داخلية. علاقاتنا طيبة. ومن أجل السيادة والمراعاة المتبادلة للاستقلال الوطني ــ لا نتدخل. التصفية؟ لماذا ينبغي استخدام هذا المصطلح؟ هذا يسمى تحريراً. والشعار المرحلي المطروح الآن ليس تحرير الأرض العربية المحتلة من الغزاة الإسرائيليين. الشعار الآن هو تحرير الأرض العربية من الذين يشكلون خللاً في معادلة الأمن الرسمي في منطقة الشرق الأسط، ومن الذين يذكرون الناس بأن لهم أوطاناً محتلة. وهذا بالطبع ليس تصفية. من المسؤول؟ ليس شخصاً وليس جناحاً في سلطة. المسؤول هو المناخ العربي الرسمي. ففي ظل هذا المناخ الراكد يصبح القمع الداخلي أمراً مشروعاً ينطوي تحت لواء المحافظة على السيادة الوطنية. وزن القضية أكبر من أي كتف فلماذا نحملها وحدنا؟ هكذا يقولون. في ظل هذا المناخ العام يصبح كل اعتداء على الوجود الثوري ــ لا الفلسطيني فقط ــ شأناً من شؤون البلد الداخلية.

ــ إذا قتلتموهم سرنا في جنازاتهم. وإذا لم تنجح العملية بسرعة نجد أنفسنا في مأزق ونضطر للتدخل من أجل المصالحة. فمن المسؤول؟ حالة السلم غير المكتوب في الممارسة العربية، وحالة الحرب المعلنة في الجملة العربية.

صدر للشاعر

- أوراق الزيتون
- عاشق من فلسطين
- آخر الليل
- حبيبتي تنهض من نومها
- العصافير تموت في الجليل
- أُحبك، أو لا أُحبك
- محاولة رقم ٧
- تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق
- أعراس
- مديح الظل العالي
- حصار لمدائح البحر
- هي أُغنية، هي أُغنية
- ورد أَقل
- مأساة النرجس، ملهاة الفضة
- أرى ما أريد

- أحد عشر كوكباً
- ديوان محمود درويش (جزآن)

وعن
«رياض الريّس للكتب والنشر»

لماذا تركت الحصان وحيداً

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٥

الطبعة الثانية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥

الطبعة الثالثة شباط/ فبراير ٢٠٠١

سرير الغريبة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ١٩٩٩

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠٠

جدارية

الطبعة الأولى حزيران/ يونيو ٢٠٠٠

الطبعة الثانية شباط/ فبراير ٢٠٠١

حالة حصار

الطبعة الأولى نيسان/ أبريل ٢٠٠٢

الطبعة الثانية حزيران/ يونيو ٢٠٠٢

لا تعتذر عما فعلت

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤

الطبعة الثانية: شباط/فبراير ٢٠٠٤

الأعمال الجديدة

الطبعة الأولى كانون الثاني/ يناير ٢٠٠٤

كزهر اللوز أو أبعد

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥

الطبعة الثانية: تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

الديوان: الأعمال الأولى (٣ أجزاء)

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٥

في حضرة الغياب (نص)

الطبعة الأولى: أيلول/سبتمبر ٢٠٠٦

ذاكرة للنسيان

الطبعة الثامنة: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

يوميات الحزن العادي

الطبعة الرابعة: حزيران/يونيو ٢٠٠٧

حيرة العائد

الطبعة الأولى: حزيران/يونيو ٢٠٠٧

www.alkottob.com



الأعمال الجديدة الكاملة

محمود درويش







ISBN 9953-21-158-2
9 789953 211589
RIAD EL-RAYYES BOOKS